Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الثالث

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
« المتنبي »

مطبعة الترقي بدمشق
١٣٦٨ هـ
١٩٤٩ م

956.9
K9653
v. 3-4

24708F

الملكية أم الجمهورية

منذ تقلص ظل الدولة العثمانية عن ولاياتها العربية بعد الحرب العامة الأولى ، كان بعض من يهتمون بالمسائل السياسية يسألونني رأيي في الجمهورية والملكية ، وأيتهما أولى ان ينادى بها في أمة تحاول ان تختار لها من نظم الحكم الأنسب ، وتتهيأ للاندماج في زمرة الدول الممدنة ذات السيادة ، فكنت أحار في الجواب ، وكثيراً ما استعفي من الجهر بما لا يكون منه إلا الوقوع في خطأ يُتناقل ، وإذا أُلزمت بالاجابة فيكون جوابي بشيء من التردد لا القطع ، وربما عـــدت على نفسي باللائمة لأني لم ارض عما اضطررت الى التصريح به على البديهة ، وقد يتخلل ما قلت امور يناقضها المشاهد ، والمسألة جدّ خطيرة ، وهي ذات شقين متناقضين ، ووجهين غير متشاكلين .

للجمهورية حسنات ولها سيئات ، وللملكية حسنات ولها سيئات ، أما البشر فسائر نحو الأنظمة الحرة ، متى خير لا يختار غيرها ، كما هو سائر نحو الاشتراكية والشيوعية ، متبرم من الرأسمالية . الجمهورية نسخت قانوناً عتيقاً وأتت بقانون كان نتيجة ارتقاء العلم وكثرة التجارب ، ويقوم الحكم الجمهوري على دعائم من الحرية ضرورية لقيام امر الجماعة . والملكية نظام لا بد فيه من إغماض الطرف عن بعض الحريات .

الجمهورية نظام شعبي طريف ، والملكية نظام تغلّب تليد ، الجمهورية بالانتخاب وفيها تجدد ، والملكيـة بالوراثة متسلسلة من الأب الى الابن او من الملك الى اقرب الولد للجد ، الاولى يطمح اليها كل من يحسن استمالة قلوب الشعب ، والثانية تتم بالاقرار للمليك وآله بالصدارة والحق المكتسب ، والملك رمز أُمته وعظمتها وتاريخها اكثر من رئيس الجمهورية .

ارتقى البشر في ضروب الحرية حتى ليظهر اليوم كراهته للنظام الملكي ، لأن هذا يتطلب من الشعوب ان يعطوا الطاعة فقط ، والنظام

الجمهوري يمتع القائلين بما يشتهون . الملك يمثل شعبه ابداً بسلطة لا نهاية لها ، ورئيس الجمهورية يمثلها بسلطة موقتة محدودة . الملك يختار رجاله على الأغلب من ارباب البيوتات القديمة ، اكثر مما يعنى الرئيس بذلك . ولا يكون حزب هذا على الأكثر إلا سواد الشعب ، وقد يكون اعتماده على السقاط والأراذل .

تقوم الجمهورية على الأمل والتجدد ، والملكية على الرضا بما جرى الاصطلاح عليه ، الأولى تمثل جديداً متباعداً عن روح الماضي ، والثانية صورة من صور القديم قد تصبغ بصبغة الحديث . والملك في ملكه كالأب في بيته وبخاصة إذا كان ممن اتقنوا صناعته ، وعرف ما ينفع أمته ويضرها ، والرئيس أشبه بوصي اخذ على نفسه ان يكفل يتامى حتى يشبوا ويقووا . والملكية المقيدة نافعة اذا حسن انتخاب مجلسها أكثر من الملكية المطلقة التي لا يخلو القائم بها من لوثة استبداد ، والملك الدستوري اقرب الى قلوب امته من الملك المستبد ، فهذا لا يحب إلا رياء ، وشتان بين من تخضع له مختاراً ، ومن خضوعك له عن رهبة او رغبة . والطاغوت من الملوك يختار لخدمته من يجيد الملق له ، وقد يقصي من رجاله من يصدقه وينصح له . ولو اعتبرت الكفاءة في انتخاب الملوك كما هو مذهب المعتزلة لرجحت الملكية على الجمهورية .

الملكية تورث المملكة شيئاً من الاستقرار ، وهو من أهم العوامل في نهضة الممالك ، وربما رجحت كفة الملكية على الجمهورية إذا كان من يتولى الملك ملكاً استوفى صفات الملك الحازم ، وهذا لا يتأتى كل حين ، والغالب أن يخلف الملك العظيم من ليس من عياره . وإذا زعم بعضهم أن الملكية تبذر الأموال ، فالجمهورية لا تقصر عنها في هذا الباب ولكن على طريقة أخرى ، أي بفتح الاعتمادات والايغال في تضخم الموازنات ، والمآل الى الاسراف واحد ، وإنما الاختلاف في الأسماء . وفي الملكية تسرق أموال الأمة بلا قانون ، وفي الجمهورية يلبسون السرقات صيغة قانونية كمن يحتال على الزنا بصيغة من الحيل الشرعية . وفي الملكية

تكثر الشهوات ، ويستكثر الملك وآله من الاستمتاع بالنساء بما يخرج عن القصد ، فيتناسل الأبناء وأبناء الأبناء ويكثرون كثرة يدخل الخلل على إدارة الملك . وفي الجمهورية يكثر الفحش في أنصارها لسهولة الوصول الى المال وعدم المبالاة في الاسراف فيه ، ولا يقيّدهم شرع ولا تستشعر قلوبهم الخوف . وفي الجمهوريين مَن يحاولون أن يغتنوا في أسرع وجه ، يغنمون فرصة مقامهم القليل في الحكم . اما الملك فيرى ، وآماله في الملك أطول ، أن المملكة مزرعته ، ومن شأن مالك المزرعة أن يحمي جهده إنسانها وحيوانها ، ويدفع عنها ما يعجل خرابها ، ولسان حال الملكي : كان أبي وبهـذا ظهوري ، ولسان حال الجمهوري : أنا واضع أساس مجدي . في الحكم الملكي يكثر الزهو والبذخ ، والحكم الجمهوري أقرب الى الطبيعة الساذجة وقد لا تقل الجمهورية عن بذخ الملكية في بعض البلاد .

إذا ابتليت مملكة بملك يحسن الهدم ولا يحب التعمير ، ويستبد ولا يعرف العدل ، يشتد بلاء أهلها ولا ينقذهم من طغيانه إلا الثورة غالباً ، والثورة لا تحمد مغبتهـا ، الثورة تنتهي بقتل الملك وإهلاك آله ومن يمتّ إليه بصلة الحكم ، كما حصل في اليمن مؤخراً وما أغنى عن الامام ما جمع من مال وما سدّ من منـافذ النور على شعبه . أما رئيس الجمهورية فمهما استبدّ كان من ورائه قانونه لا يمتع بمنصبه أكثر من بضع سنين ، وبمثل هذه البواعث نرى اليوم عدد الجمهوريات في العالم يزيد وعدد الملكيات ينقص . والفرد مظنة الاستبداد أبداً ، والحكومة النيابيـة مهما دخلها الفساد أقرب الى العدل والعقل .

مجالسنا النيابية

لما عهد الى السيد سالازار بوزارة مالية البرتقال اشترط شرطين أحدهما ألا تعتمد الحكومة في موازنتها مالاً لتصرفه في الانتخابات ، والثاني ألا تنفق وزارة من الوزارات شيئاً دون اشرافه على صرفه ، وبذلك استقامت موازنة البرتقال ، وكانت منذ مئة سنة من الموازنات التي لم يتعادل دخلها وخرجها . وشرع الوزير ورصفاؤه بمشاريع شغلوا بها اليد العاملة ، فعمرت مملكتهم وصلحت حال أهلها .

أما حكومات الشرق العربي السارية على النظام النيابي فتعتمد مبالغ عظيمة للانتخابات لتضمن لها الأكثرية في المجلس ، ويدوم حكمها ويخفق منافسوها ، ولا يفوز بالنيابة فيها على الغالب إلا الجاهل الذي يستجدي الأصوات أو يبتاعها وعند نفسه انه يفادي بالمئة ليحصل على الألوف ، وغايته أن يقعد على مقاعد المجلس ويرفع يده بالموافقة على آراء جماعته .

وقد رأيت اصنافاً من النواب كان من اعظم الجرائم توسيد هذه المهمة الشريفة لهم ، فمنهم الامي الذي لايقرأ ولا يكتب ومنهم من دأب طول حياته على التجسس لكل صاحب سلطة ، ومنهم من سعى بشباب قومه وشهد فيهم الشهادات التي ساقتهم الى حتفهم ، عين نائباً مراعاة لخاطر احد ذوي قرباه من ساسة لبنان ، فجلس بضع سنين في كرسي النيابة ولم يؤثر عنه ان قال كلمة في المجلس ، وقصاراه ان يقبض الراتب ، واذا عهد اليه امر افسده ، واذا وصلت الى يده اموال ابتلعها وكان سمساراً لطلاب الوظائف يعين لكل وظيفة ثمناً ، ورأيت نائباً آخر غرق في الجاسوسية للغريب وكان آلة شر في احدى الثورات وقتل كثيراً من الأبرياء بأيدي سادته الذين تطوع في خدمتهم ، ولا شأن له اليوم الا امداد بعض المقامات العالية بالأخبار التي يرتاحون الى سماعها كأنه

بعض رجال الأمن والمباحث . ومن خلا ذهنه من معاني الحرية كيف تطالبه باقامة صرحها والعمل لما يصلحها ، ويكفي ان يقال ان هذا النائب لايعرف الغرض الذي جاء لأجله ، وليس له مزية من مزايا الرجال . ولو قد كتب لك ان تطارحه الحديث في ابسط المسائل لتبينت مبلغه من العقل والمعرفة ولأيقنت انه ممن تملكته العامية وليدة الأمية البغيضة .

حقيقة ان الحكم النيابي الذي أتانا به الغرب ينطوي على سخف كبير ، وحكم يقوم على مثل هؤلاء النواب لا ينشأ عنه غير الخلل في ادارة الدولة وسياستها ، وفي الغالب اذا اجتمع جماعة لامر عام ان يضلوا طريق الصواب ويتبع قويهم ضعيفهم وعالمهم جاهلهم وان كان الحق مع هذا القوي وهذا العالم ، ويكون القول الفصل للثرثار لا لصاحب الأناة والتعقل ومجالس مؤلفة من مثل هذه الاعضاء المؤوفة يملي فيها الشياطين ارادتهم والباقون يؤمنون على كلامهم بلا فهم من أضعف المجالس .

حاول أحد النواب وضع اقتراح في المجلس يفيد العدالة ، وذلك بامتاع القضاة بالحصانة القضائيه ، ووافقه على رأيه خطأ أكثر من أربعين نائباً فلما نظر وزير العدل الى المتآمرين ساعة المناقشة في الموضوع نظرة فهموا منها التهديد امتنعوا عن اعطاء الرأي ونسوا تعهدهم لزميلهم ، ذلك لان لهم قضايا في المحاكم اذا أغضبوا الوزير يخسرونها ، وهم ممن لاتهمهم غير مصالحهم الخاصة ، ولو كان ما يقررونه قميناً بان يعيد العدل العمري الى الارض .

فاي نفع يأتي على مثل هذه الايدي ؟ وهل يطيب لحكومة تحترم نفسها ان تصل الى الحكم بواسطة امثال هؤلاء الجهلاء ومن اختاروهم من العامة في المدن والقرى ؟ واقسم بالله أن جزءاً من النواب لا يدركون مغزى المناقشات التي تدور في المجلس ، ومنهم من ينام او يتناوم ويرفع يده متى طلب منه اعطاء الرأي ـ وأحب التزلف الى رئيس حزبه أو زعيم جماعته ، ومنهم من لا ينتبه عند التصويت ويغلط فيعطي رأيه للحزب المخالف له . ومن الغريب أيضاً ان مثل هذه الطائفة من النواب لا تحضر الجلسات النيابية بصورة مطردة تفر من واجبها كما يفر الاطفال الكسالى من المدرسة .

ولكم رأينا الأخرق يفوز بالنيابة بتعجيز الناخبين او ابتياع اصواتهم او بسلطان الحزب الذي ينتمي اليه والزعيم الذي ادخله في جملته وتبناه وآخاه وهناك الرجل التام الادوات لا ينال سوى أصوات ضئيلة تلعن قوماً ضاع الحق فيهم ، وما دام معدل من يقرأون ويكتبون في مجموع الشعوب العربية لا يزيد على عشرين في المئة لا يجيء النواب الا من هذا الطراز .

والنواب يخرجهم الحزب بمختلف الطرق بالتزلف والمداجاة والتهديد والوعود والرشوة وكسر صناديق الانتخاب والاستعاضة عنها بصناديق فيها كل من يحاول اشباعهم امتاعهم بالنيابة ، وبالقاء أوراق مزورة في الصناديق التي تصل الايدي الى العبث بها ، وشأن المجالس النيابية في مصر والشام والعراق ، شأن كل مجلس على الاغلب ، يتولى اقليته الحركة فيه والغالب ان يكونوا اقل من عشر اعضائه ، يدير الممتازون المنافشات وقصارى الباقين تكثير سواد المجلسين .

وشيء آخر لاحظته في بعض المجالس النيابية وهو انه قد يكون من اعضائها الاكفياء حقيقة في السياسة والقانون والاقتصاديات وتمضي الشهور ولا يفتحون افواههم بأمر يعود على الامة بالخير ولا يتقدمون اليه باقتراح مفيد . ومثل هذه الحال اذا تجلت في الامين لا يرضي صدورها من رجال مثقفين مدركين ، وكأن الكفؤ الذي يختار السكوت في مجلس هو مصنع الكلام ، ليس الا صاحب غرض وصل اليه او يحاول الوصول اليه فلا يريد ان يعدل ولا يجرح لئلا يتأذى به احد بيده نفعه وضرره .

اجمع عقلاء الغرب على ان الحكم النيابي افلس وما جنيت منه الثمرات التي كانت تنتظر ، والفوا في ذلك الكتب ونشروا الرسائل والمقالات ، ونحن ماذا نقول في هذا النوع من الحكم الذي نقلناه عن الافرنج مقلدين ، ولا ننظر الى ما يوافقنا منه وما لا يوافقنا نظر تدبر وبصيرة ، قال احد سفراء فرنسا ان جميع شعوب البحر المتوسط وفي مقدمتهم نحن الفرنسيس

ليسوا من اللائقين للحكم النيابي ، ونحن نقول ان العيب لم ينشأ من النظام النيابي فهو صالح للامم الراقية التي خفت فيها الامية ولكن العيب في منفذيه فاذا كانت لهم القوة اساؤا استعمالها واعادوا الاستبداد تحت طـــلاء الحرية يخدمون مصالحهم ويدوسون مصالح وطنهم وابناء وطنهم .

النصح الخالص

كان صديقي الاستاذ جرجي زيدان صاحب الهلال كثيراً ماينصح لي منذ انشأت مجلة المقتبس في القاهرة سنة ١٩٠٦ ان انقطع إلى اصدار المجلة واترك الجرائد السياسية لأن استعدادي للعلم اقوى والتمحض له أولى ، فكنت اعتذر بأن المجلات لا يعيش بها اصحابها لقلة ارباحها فلا بد من المؤازرة في الصحف اليومية ليتوازى الدخل والخرج .

ولما ازمعت العودة من القاهرة إلى دمشق سنه ١٩٠٨ لانشيء جريدة المقتبس السياسية كان اول ماتفضل ونصح لي به العلامة الدكتور يعقوب صروف منشيء المقتطف — وكان يعطف علي عطف استاذ على تلميذه وأب على ابنه — الا ادخل في السياسة واقتصر على انشاء مجلة المقتبس العلمية قال اني كنت امس أفكر في أمرك وأنت على أهبة السفر لتعود إلى بلادنا فرأيت خدمة العلم أجدر بك وأهنأ لك ، فيا أخي تأمل كيف تضيع غـداً اوقاتك في الجريدة السياسية ، تنام على فكر وتنتبه على فكر ، وعليك كل يوم ان تنشيء مقالة افتتاحية تلذ القارئين مطالعتها فتضيع بذلك مواهبك وتضل في تيه لا تعرف متى وكيف تخرج منه . فقلت له إني كنت أخذت على نفسي عهداً إذا تمتعت الصحافة في الشام بحريتها ان اخدمها واخدم الأقطار العربية بانشاء جريدة يومية فأنا اقوم الآن بما تعهدت به . وفارقته ولم البث اشهراً قليلة ان عدت إلى القاهرة اعتصم بها ، وقد اغلقت الحكومة التركية جريدتي ، واقامت علي دعوى تضعف بها قوتي ، فالتقيت بالدكتور صروف وشريكه الدكتور فارس

نمر في بعض شوارع القاهرة فآخذني استاذي صروف على عدم استماعي لنصيحته . فقال الدكتور نمر : لا تحمل عليه فهذه السياسة يأخذ تيارها من يعانيها إلى حيث لا يريد ، والمقتبس اليومي لازم لنهضة سورية لزوم المقتبس العلمي لتنوير الأفكار ، والخير غير مضمون في الأعمال كلها .

لم انتبه للنصيحتين الصادرتين عن عالمين كبيرين من علمائنا زيدان وصروف ، ولم أدرك انهما رحمهما الله ، نظرا الى استعدادي فعز عليهما ان ألقي بنفسي في مخاطر السياسة ومتاعبها ، اما انا فجربت طالعي ودخلت المعمعان بنية سليمة واجتهاد كلي ، فخسرت وربحت في آن واحد : خسرت وقتي وراحتي ، وربحت تجارب ما كنت احصل عليها لو اقتصرت على النشرات العلمية ، وليس في الأرض شر محض ولا خير محض ، والحياة تتقاضى المرء ان يذوق شاء ام ابى من خيرها وشرها .

وبعد سنين رجعت إلى العمل برأي الصاحبين الحبيبين في ترجيح الاشتغال بالعلم على السياسة ، وما كنت اشك شهد الله الا ان نصيحتها ثمينة املاها الاخلاص في الصداقة وحب العلم ، وهما لا يبغيان منها إلا راحتي ومصلحتي اولاً وتكثير سواد خدام المعارف ، وكان عددهم قليلاً يومئذ . رمتني السياسة بكل عظيمة وتلقيت ضرباتها بالصبر ، ولو كتب لي ان اتابع السير فيها لمتعت بأرقى المناصب واوفر المكاسب وارادة المولى فوق كل ارادة .

اللغات الغربية في الشرق

دام الناس في الشام على العهد العثماني يتكلمون التركية لتولي الوظائف فلما جلا الترك عن القطر جلت معهم لغتهم ، وبطل التكلم بها لعدم الحاجة اليها ، وبقيت بقاياها تردد في السن من تزوجوا من تركيات ، ومن يستخدمونها احياناً من طبقة الموظفين ، حنيناً لأربابها وتذكراً لسلطانها ، ولما رحل الفرنسيس عن سورية ولبنان كانت الفرنسية قد رسخت قليلاً في الأولى وكثيراً في الثاني ، ومع هذا رميت في كلا البلدين بالكساد ، وكانت من ادوات الزينة والسياسة والعلم ، فأصبحت كما كانت قبل الاحتلال لغة علم وتجارة ، وعز على من كانوا يعيشون بها ان يروها تنحط عن مرتبتها ، وتفقد تلك السوق الرابحة التي اقامها لها المتغلب ، على عادة كل فاتح يتطال الى نشر لغته بمختلف الطرق ، وللفرنسيس شغف كبير في هذا الباب .

اللغة الفرنسية وان رحل اربابها عن ديارنا قد بقيت لها المكانة التي كانت لها قبل نزول جيش المنتدبين على الساحل والداخل . وستظل الرغبة في تعلمها كما كانت لا تنازعها إلا اللغة الانكليزية ، وهذه تتفوق على الفرنسية في اصقاع الغرب والشرق ، وانتشار اللغة تابع للسياسة ، وسياسة الانكليز السكسونيين مقدمة على سياسة غيرهم من الأمم اللاتينية . يتكلم الفرنسية في الأرض نحو خمسين مليوناً والمتكلمون بالانكليزية لا يقلون عن مأتين وخمسين مليوناً اي خمسة اضعاف الناطقين بالفرنسية . ثم ان العلم البريطاني كان إلى عهد قريب يخفق على خمس سكان العالم وهذا مما اعان على انتشار الانكليزية . هزمت الانكليزية الفرنسية في الميدان السياسي والتجاري ، وكانت المعاهدات السياسية تكتب في القرون الماضية بالايطالية ثم نازعتها الفرنسية وبقيت قروناً لغة السياسة المرجحة ولغة التجارة ، ولما انتشرت الانكليزية قبلت في كتابة العهود واستعملت كالفرنسية

في المؤتمرات الدولية واخذت الفرنسية تفقد من قوة انتشارها اليوم بعد اليوم .

ونقول لمن اغتموا لتراجع الفرنسية في الشام انكم على ما انتم عليه من الانتفاع بهذه اللغة اذا عالجتم امركم باتقان العربية فان منكم من يكتب الفرنسية كاهلها ولا يعرف من العربية إلا لهجة بلده العامية ، وعليكم إذا صحت نيتكم أن تبقوا في الطليعة من حيث الظهور أن تعاوروا لغتكم الأصلية بالدرس ، وما تعلمتموه من الفرنسية في السنين الطويلة تتعلمون مايوازيه من العربية في اشهر قليلة ، والمهم في الأمر أن تشعروا بحاجتكم الجديدة إلى هذه اللغة وتحاولها من انفسكم ، وانتم جد عارفين بمصلحتكم الآن ، كما احللتم اللغة الأجنبية وانتم صغار لا تعقلون ، وبذلك أيضاً تقومون بما توجبه وطنيتكم عليكم .

سيكون مصير اللغة الفرنسية في عهد الاستقلال عندنا كما كان مصيرها في مصر بالاحتلال الانكليزي ، احتفظت بمنزلتها وجاءت الانكليزية بعد حين تطلب مكاناً يليق بها في وادي النيل ، وساوت الانكليزية الفرنسية في ستين سنة وكانت الفرنسية مستأثرة بهذا التفوق نحو مئة سنة ، وللانكليزية اليوم شأن لا تنازعها فيه الفرنسية ولا الالمانية ولا الروسية ولا الاسبانية ولا البرتقالية . وإذا كنت تسمع في بعض موانئ البحر المتوسط اللغة الفرنسية فانك في البحر الهندي وما وراء المحيطات لا تتفاهم بغير الانكليزية وإذا كانت الفرنسية منتشرة قبل ثلاثين سنة في جمهوريات جنوبي اميركا اللاتينية بعض الانتشار فالانكليزية اليوم أصبحت هناك تنازعها تفوقها . تحتاج الامم ضعيفة كانت أو قوية إلى استعمال لغتين على الأقل من اللغات المساعدة ، ونحن لن يضيرنا الجمع بين الفرنسية والانكليزية أو الاكتفاء باحداهما ، والمهم الا نقصر في لغتنا ونسد نقصاً يجب ملافاته . فاللغة اول مظهر من مظاهر القومية ومن ضعفت ملكتها فيه وفي وسعه احكامها كان والهمج الهامج سواء .

ضياع الفرص

عرّفني في إحدى رحلاتي إلى باريز الاستاذ برون استاذ الجغرافيا الانسانية في (كوليج دوفرانس) الى صديقة له اسمها السيدة ريفير صاحبة مجلة أزياء تصدر بالانكليزية في الولايات المتحدة دعاية لفرنسا . وقد تلطفت ورافقتني في باريز الى عدة اماكن ماكنت اعرفها من قبل ومنها غابة فونتنبلو الشهيرة . ولما أزمعت الرحيل الى الاندلس اقترحت علي ان تبرق لأهلها في بوردو لأنزل عليهم ضيفاً اصرف اياماً في دارهم فأشهد فيها كيف تعيش الاسرة الفرنسية ، وهيأت لي انواع التسهيلات للقيام بهذه الرحلة فاعتذرت بضيق الوقت ، وارجأت هذه السياحة الى فرصة اخرى .

وفي طريقي من باريز إلى مدريد تعرفت الى مهندس برتقالي عائد الى بلاده فسر بلقاء رجل عربي واقترح علي ان اعرج على لشبونة لأزور ما فيها من آثار العرب فاعتذرت أيضاً بكثرة الأشغال وضيق الوقت ، ومن الناس من إذا كان قاصداً مكاناً بعينه يعتقد انه يجب عليه الا يقصد مكاناً آخر قبل اتمام مقصده الأول وأنا من أهل هذا الخلق على مايظهر .

وكان السيد بيير لوتي ابن اخي المارشال ليوتي مصلح مراكش العظيم اقترح علي في باريز ان يبرق الى عمه ليرسل لي سيارة الى جبل طارق تحملني الى رباط الفتح فأزور الغرب الأقصى ، وكان يتوقع ان يكرم عمه وفادتي لأنه يعرفني ، وكان اهدى المجمع العلمي العربي بواسطتي جميع ما صدر عن مراكش من المؤلفات بالفرنسية والعربية ، وتفضل واثنى علي كثيراً واغتبط ان كنت السبب في ربط الصلات العلمية بين قطرين اسلاميين سورية ومراكش ، فاعتذرت ايضاً عن القيام بهذه الزيارة (٢٤ تشرين الأول ١٩٢١) .

ولكم اضعت الفرص في امتناعي عن مثل هذه الرحلات المفيدة التي كان يقترحها علي من كنت ألقاهم في اوربا من اصدقاء السفر ثم أندم

على تخلفي عن اجابة طلبهم بما فيه متعة للنفس وفائدة ظاهرة استفيدها وافيد بها من اكتب لهم من ابناء الشرق .

اطالة التفكير في أمر قد يضيع الفرص السانحة ، وما كل يوم يتاح مثلها اذا ذهبت لا تعود أو يعود القارظان . ومن اعظم الفرص التي اضعتها ما وقع لي في زيارة العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي مع والدي رحمهما الله في المدرسة البطريركية في بيروت وكنت في السادسة عشرة . ذلك اني كنت أسمع بشهرة الشيخ في العلم والأدب ويروقني ما يكتبه من الانتقادات ، فحملت والدي على زيارته فلبى طلبي مسروراً فلما مثلت بين يدي الاستاذ العظيم وتكلمت كلمات قليلة مال الشيخ الى والدي وقال له اترك لي ابنك أخرجه لك في الأدب فاني ألفيته نبيهاً فأجابه أبي : اني أحب ذلك من صميم قلبي لاني اود تعليمه لولا اني لا اقدر على مفارقته . ولو كنت الححت قليلا على والدي وبينت له ما اتوقعه من تخريج الاستاذ لرضي باقتراح الشيخ وكان في ذلك كل الفائدة لي .

هذه فرصة معنوية ثمينة ضاعت وضاعت علي فرصة مادية أيضاً . ذلك اني عرضت عليّ بضعة افدنة في قريتي وكان ثمنها جاهزاً عندي فأبيت ابتياعها ولو اضفتها الى مزرعتي وشجرتها لتضاعف ما أملك . ولكني كنت يومئذ كارهاً سكنى الشام وغايتي ان أهاجر الى مصر وانجو من استبداد العثمانيين وما عاد يطيب لي المقام في وطني بعد ان انذرني الوالي بمغادرة الأرض العثمانية او التزام جانب السكوت والامتناع حتى عن الكتابة العلمية .

تعادي الأسر

من قصيدة في لبنان لصديقي شاعر العراق معروف الرصافي عليه الرحمة وهي تصدق على أهل كل قطر ومصر من أقطارنا وأمصارنا قال :

تلك الربى أما الجمال فواحد فيها ، وأما أهلها فاثنان
رجل يسير الى النجاح وآخر يسعى وغايته إلى الخسران
متخاذلين بها وهم أعوانها ومن البلاء تخاذل الأعوان
ضعفت مباني كل أمر عندهم ما بين هادمها وبين الباني
وتفرقوا دنيا كأن لم يكفهم في النائبات تفرق الأديان
وسعوا فرادى للنجاح وفاتهم أن التضامن رائد العمران

الخصام في الأديان أقل شدة من الخصام بين أبناء البيوت ، فقد يؤدي التعادي بينهم الى اختلاف يدوم بدوام عمر المتخاصمين . رأيت قضايا حدثت بين ورثة أبناء أب واحد وأم واحدة طالت العشرين والثلاثين سنة . وشهدت أقارب يتباغضون ، فكنت أسألهم عن سبب هذه العداوة ، فكانوا لا يستطيعون أن يوردوا سبباً معقولاً لعداواتهم .

قل أن رأيت أبناء أب واحد يتحابان ، وقلّ ان شهدت ابناء عم وبنات عم يريد الخير بعضهم لبعض ، الحسد يأكل الأكباد وتظهر آثاره على الوجوه ، وليس أشد من كيد أخ وقريب أو نسيب رأى تفوق أخيه عليه في الغنى والسؤدد ، ولو كشف الستار عما تكنّ القلوب من ضروب العداوة والبغضاء ما سلم بضعة في المئة من الناس ، ويندر من يرجو الخير لأهله ولقومه وللبشر ، وندر من صفت نفسه من الكيد لكل من افلح ، وهذه العداوات مشاهدة على انها في الأقارب ثم في ابناء الحرفة الواحدة وابناء الحي الواحد المتجاورين والمتشاكلين ولا تزال تضعف حتى لا يكاد يُرى لها اثر فيمن نأت ديارهم وقلت روابطهم .

وأقول لمن تنقبض صدورهم من هذا التعادي الذي لا سبب له اكثر

الاحايين : على كل من شاء ان يعيش بعيداً عما يكدره في الحياة ان يعمل على الدوام بالحكمه التي قالها هانوتو لرصيفه موروا واشار اليه ان يكررها كلما اراد ان يفرج عن نفسه ، وقال إنه استعملها ونفعته وهي : كل عارض يزول ، وكل حديث يُنسى ، وكل خلل ينظم ، وما من انسان يفهم شيئاً بلا شيء ، ولو كان كل العالم يعرفون ما يقوله كل العالم عن كل العالم ما كان إنسان يكلم انساناً . قال وإياك يا اخي ان تجعل للخوف سبيلاً الى قلبك فإن العدو الذي انت خائفه يخافك في الوقت الذي انت تفزع فيه منه .

صراحة العلماء

من دواعي التوفيق ان من اخذت عنهم العلم العربي كانوا من طبقة ما عرفت الغش والخديعة ، وكانوا من الأحرار المجددين وإن كان ظاهرهم لا ينبيء عن ذلك . ومنهم استاذي السيد محمد المبارك ، وكان متصوفاً ، ومزيدوه اخلاط الزمر ، وتعرفت بالضرورة الى بعضهم ، فاغتنم احدهم فرصة هذا التعارف وتقدم الى الأستاذ وقال له : ولماذا يا مولاي لا توعز الى تلميذك ان ينضم الى جماعتنا ويدخل في طريقتنا ، وتكرر هذا الطلب منه ، وفي آخر مرة كثر الالحاح فعبس الشيخ وقال بوجه منقبض : هـــذا طالب علم ويكفيه ما هو فيه مَشغلة . ولو لم يقطع الأستاذ على هذا الفضولي سلسلة هذيانه لانقطعت عن درسه ، ولـكان من ذلك الضرر العظيم على مستقبلي . ومن الغريب ان هذا الملحاح لادخالي في الطريق على قلة استعدادي له ظهر بعد مدة خلل في عقله وقتل امرأته .

وحدثني ابن شيخي هذا ، الأستاذ عبد القادر المبارك ان بعض جماعة والده اسروا اليه ان ابنك يعاشر (كرد علي) فيخشى ان تسري افكاره إليه وتفسد عقيدته ، فالأولى منعه عن مخالطته . فما كان من الشيخ

إلا ان قال لتجله : رجائي ألا يؤثر فيك ما يشيعه بعضهم من اني غير راض عن صحبتك (كرد علي) أنا راض عن هذه العشرة، وانت حر يا بني ان تصحب من تحب. وكنا ندرس مع ابن شيخنا بعض كتب الأدب التي ما اعتاد المشايخ قراءتها.

رأى استاذي عدم ميلي للتصوف وما احب إدخالي فيما لا يعنيني ، ذلك لأنه لا يغش ولا يدلس . ولو كتب لي ان « اتصوف » لاختلت الخطة التي خططتها لنفسي في الدرس والبحث . وكان مما زهّدني في تصوفهم أني طالعت بعض كتبهم فمنها ما فهمته واكبرته ، ومنها ما لم احلّ رموزه كالفتوحات المكية ، فإن في هذا الكتاب الذي لم يفتح الله صدري لفهمه قطعاً تعد من الأدب العالي ونبذاً جميلة في الأخلاق ، والى جانبها قطع لا يمكن حلها إلا بإلهام إلهي وبعض ما جاء فيها من المعاني مناف لما ورد في الشرع ووافق عليه العقل وربما كان منها ما هو مدسوس على ابن عربي او كتبها في حال غيبوبته او تعمد إبهام عبارتها كما يتعمد بعض الفقهاء إدخال الغموض على كتابتهم حتى لا يتلقف الطالب علم الفقه بطريقة هينة لينة .

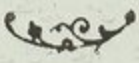

الحنبلية

سأل سائل عما اقصده من قولي فلان حكمت عليه حنبليته ألا يفعل كذا وكذا ، وفلان مأخوذ بحنبليته . فأجبته اني اقصد بحنبليته تشدده وتعصبه وتكلفه التزمت والرزانة . والأرجح ان هذه اللفظة كانت تطلق في بعض الأدوار الاسلامية على الحنابلة الذين كانوا ينكرون المنكرات بعنف وكثيراً ما كان انكارهم يؤدي إلى اهراق الدماء وخراب المدن والقرى وتعادي الناس ، حتى أن صاحبهم قال للخليفة العباسي (مَهْ ياصبي) فعوقب على هذا الكلام الفج الذي لا يقابل بمثله خليفة المسلمين ، وربما كان للحنابلة يد في تجسيم مسألة خلق القرآن وكان منها اشتعال نار حرب أشبه بحرب دينية في بعض أرجاء المملكة العباسية أوائل القرن الثالث .

مثال من الحنبلية البغيضة : شيخ من كبار شيوخ عصره كانت تحرم في نظره رؤية الصور المعلقة على الحيطان وكان اذا زار بعض المسيحيين أرسل أحد تلاميذه الى صاحب الدار يقول إن الشيخ لا يدخل غرفة فيها صور فيضطر المزور أن يأمر برفعها في الحال ، أو أن يغطيها بستار يحجب ما وراءها لئلا ينقص ايمان الشيخ بالنظر اليها ؛ وهذا الشيخ كان يختص غير المسلمين بزياراته ولا يزور المسلمين وان كانوا من رحمه.

ومن الحنبليات التي يصعب تعليلها انه أراد مستأجر حانوته وكان رومياً ظريفاً ، على أن يرفع الصور من الجدران فقال له المستأجر ولماذا تطلب مني يا سيدى أن يكون ايجار محلك ليرات انكليزية وهذه الليرات نقش عليها صور ملوك انكلترا ، فلم تحل الصور في النقود وتحرم اذا كانت على الحائط .

ومن الحنبليات أن يحظر أحد المشايخ على فلاحيه زرع الاينسون لانه يدخل في العرق والعرق محرم ، فاذا اطلق الشيخ زراعة الاينسون فكأنه أباح نشر المسكرات ، وفاته نفعنا الله بعلمه وتقواه أن الاينسون

يدخل في كثير من العقاقير والادوية ولو استمع الفلاحون لفتواه لفاتهم موسم من المواسم الزراعية الرابحة . وربما تدرج الشيخ بشاقب رأيه الى تحريم العنب والتمر ومنها تستخرج الخمور ايضاً .

ومن أعجب ما تصرفت به الاقدار ان نسل هذين الشيخين التقيين النقيين طلقوا كل حنبلية وخرجوا عن تزمت جديهم العظيمين ، وراحوا يتعاطون كل الخمور والمخدرات ، ويستحلون انواع الأموال يأكلون الاوقاف سراً وعلناً ويقولون ما وقفها الواقفون الا لنا ويستبيحون اختلاس أموال الدولة بمقادير واسعة .

ومن الحنبليات ما روي لي من أن أحد النظار على وقف أهلي كان اذا جاء مزرعة الوقف لا يبيح أن تشرب دابته من بئره أو تقضم شيئاً من القصيل أو التبن لان ذلك ينافي الذمة وهو مال موقوف ، أما أن يقتطع هو من مغل الوقف كل ما طالت يده اليه وخصوصاً اذا أيقن أن سرقته لا تنكشف للمستحقين فهذا من الحلال الذلال ، ومن أصعب ما يثقل على الطبع أن يصدر هذا الرأي السخيف من عامي وأجهل من عامي ولا نخلو من سخفاء يستجيبون اليه في هذا العصر .

وحنبلية متزوجة بنفاق عمل من يبدل راتبه من الصراف اليهودي كلما قبضه على رأس كل شهر بدعوى أن مال الدولة تدخل فيه مكوس لا يحلها الشرع فهي نجسة أما مال اليهودي فطاهر لا شبهة في طهارته ، ومنها امتناع ذاك النائب الاخرق عن اقرار موازنة الدولة بدعوى ان فيها أموالاً لا يحل فرضها على المكلفين . وكان من جهة اخرى يأخذ راتبه من هذه الأموال المحرمة .

ويطول شرح الحنبليات التي تصدع سمعي بها منذ القديم . اما زهد بعضهم باموال الحكومات والدول فهذا مزاج خاص نشأ من تدين واخلاق حسنة فهو دين واصحاب الحنبليات لا يرجون من حنبلياتهم الا الدنيا .

اختلاف الشرقيين

من حكم السيد جمال الدين الافغاني : شر أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف قد اتفقوا على الا يتفقوا . وقال : الاحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها تنقلب غالباً الى شر داء . يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الامة مطالب وغايات شريفة فيناصرونه ويكون له اصدقاء في البداية ثم تظهر الأثرة وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل اعداء في النهاية اهـ .

وبالسير على نظام الغرب تجلى فشلنا في تأليف احزابنا السياسية لاعتقادنا ان الغاية من تأليف الحزب السياسي الوصول الى الحكم وخدمة المصلحة الخاصة . ولما كان افراد الحزب مختلفة تربيتهم تتسرب الاغراض اليه وتتلوث بما قد يخفى على قادته او يعرف هؤلاء اشياء ويكتمونها ويكون للوسط بعقله من رجال الحزب الشأن الاول ويهمل رأي العبقري منهم ويضطر الى ان يسير مع ضعاف النظر الخالين من كل تجربة .

ولا يستغربن ان تنحل كلمة الجماعة بظهور حقيقة تركيب الحزب الملأ ويعين على هذا اخفاق بعضهم في الوصول الى ما أملوا من حزبهم وحسدهم من اقتسموا الغنائم وحدهم مع انهم كانوا بزعمهم اشد بلاء في الخدمة واخلاصاً في القصد . فيتخلل الخلل ذاك العمل وتتداعى أركان الوحدة وتذهب الغاية المرجوة منه لخير الجماعة .

رأى بعض الأبالسة ان الدين من أشد العوامل في استتباع العامة ، فازمعوا ان يبدأوا بعمل ينفعهم فساروا نازعين الصبغة التي طالما فاخروا بالاصطباغ بها فلما شاهد أرباب الشأن ان باطل ادعياء الدين لا يقاتل إلا بسلاح مثله أخذوا يميلون كرهاً كفة جماعة آخرين فظهروا مستظهرين بارباب القوة وان كانت النفوس كارهة للصورة التي اوصلتهم إلى مقاعدهم ، وقد تقاتل السياسة الباطل بالباطل لتحقيق أمنية يخيل انها نافعة . نقول نافعة

ولو ظفر اولئك الذين نفخوا في نفوس العامة ما نفخوا باسم الدين لتبدلت الأوضاع غير الأوضاع ولرجعت الأمة القهقرى لا محالة .

ان من تطالت نفوسهم إلى هذه الثورة لا يعرفون الاضطلاع بما اليه يدعون وهم اذا كانوا لم يفلحوا فيما تحضوا له فلن يفلحوا في أمر ادعوه وهم منه عارون ، بيتوا ثورة للقبض على زمام الحكم وكان لصديقي السيد سعد الله الجابري رحمه الله شرف القضاء عليهم . صادفته بعد سنة من وقوع هذا الحادث الخطر في فندق فقلت له : دعني أقبل عاوضيك فانت والله ابن حلال حقاً ، ولولا اقدامك على ما اقدمت عليه فقضيت على من جعلوا من الدين ستارة يلعبون خلفها لوقعنا في شر اعمالنا .

الدعاية للفضائل

سبقنا الغرب إلى كل نوع من انواع الدعـــايات فنجح كثيراً ، وما انتشرت النصرانية في أوربا إلا بفضل ماتم لها من الدعاية المنظمة . وعندهم دعاة للخير ودعاة للشر ، ودعاة لجلب المال ودعاة لانفاق المال ، ولكن ما يخطر وما لا يخطر في البال من الأعمال .

لما أرادت بعض الولايات المتحدة الاميركية منذ سنين ان تبطل الأشربة الروحية وشددت على شاربيها وأنشأت دعاية واسعة النطاق تنفر بها الفريق الآخر القائل باطلاق الحرية في تعاطي المشروبات ، قام فريق عدم الحظر او الاباحة بدعايات عجيبة حتى بطل المشروع وعاد الاميركيون لما كانوا عليه واغتبط المبيحون للخمور وانخفق خصومهم .

ولكن دولة صغرى في شمالي اوربا وهي السويد قام بها دعاة منع الأشربة فنجحوا وبعد ان كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ - ٤٠ ليتراً

من المسكرات اصبح لا يصيبه اكثر من ٦ ليترات سنة ١٩٠٥ ونزلت مقطوعية كل فرد إلى سدس ما كانت عليه والمعقول انها نزلت بعد ذلك كثيراً حتى لم تعد تذكر وذلك بالدعاية المحمودة للتنفير منها .

هذا ما كان في بلاد قد يحتاج ساكنها الى شيء من الأشربة يدفئه ويقويه على اتقاء زمهريرها وبردها . اما في مصر والعراق ثم في الشام فان انتشار الغول اي الالكحول سائر بخطى سريعة ولا سيما (الويسكي) تعلم الشاربون الادمان عليه من الانكليز وجيوشهم في الحرب . وأخذنا غيره من اصناف المشروبات حتى اصبحت رسومها في الجمارك تؤلف رقماً عظيماً .

تركت اكثر حكوماتنا العربية الحبل على الغارب في مسائل المشروبات ولسنا علم الله في حاجة اليها للدفء ولا لغيره وشريعتنا تحرم قليلها وكثيرها وما رأينا جمعية رائدها الحد منها قامت بنية حسنة تبعد الناس عن هذا العدو اللدود الذي طالما شكت من غوائله اوربا واميركا على اختلاف اقطارها ومذاهبها اللهم الا جمعية واحدة في مصر ينظر اليها القوم نظر السخرية وهي دائبة على عملها .

وما قلناه في الأشربة الروحية يقال في المخدرات التي خصت بالبلاء بها ارض العرب كالقات في اليمن والحشيش في مصر والأفيون وغيره من المهلكات يستعمل في غفلة ضابطة الأخلاق وحكوماتهم ساكتة لانها تتقاضى الرسوم عنها وتدخل خزانتها بلا نكير وتقول عن نفسها انها حكومات اسلامية .

المعلمة العربية

طلب بعض ارباب الشأن في الحكومة المصرية ان توضع تقارير بشأن مشروع انشاء معلمة أو موسوعات او دائرة معارف (انسيكلوبيذيا) وطلب اليّ مثل ذلك فكتبت الى السيد عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة المصرية تقريراً ذهبت فيه الى ان هذه المعلمة يجب ان تكون ترجمة وتأليفاً وذهب آخرون الى انه يجب ان يقتصر فيها على الترجمة فقط وهاك التقرير :

نشر معلمة عربية تضم شتات ما انتجه العقل البشري في كتاب واحد اعظم عمل علمي قام حتى الآن لخدمة الجامعة العربية ، واكبر مفخرة لمصر ولرجال مصر في هذا العصر . ولذا كان من الواجب بذل اقصى المجهود لاخراج هذا السفر للناس تام الأدوات ، جميل النظام والرواء ، ينم عن بحث ودرس وتمحيص ، يجمع ما تفرق من علم الاسلاف الى جملة علوم الأخلاف ، ويكون ينبوعاً صافياً يستقى من موارده العذبة القريبة التناول كل عالم ومتعلم ، ويغدو به العلم من يد الطالب على طرف الثمام ، فتدخل الامة العربية في طور الامم المتمدنة العالمة .

يعهد باديء بدء إلى بضعة علماء مدربين يؤلفون لجنة تدعى اللجنة العليا ، وهذه تندب جماعة لوضع اساس مالية هذا العمل وادارته ثم تشرع اللجنة بالنظر في الموضوعات التي يتحتم البحث فيها فتقسم العلوم الى خمس سلاسل على مثال المجامع العلمية الخمسة في باريز ، فيضم كل فرع الى مايماثله في الجملة ويضع رئيس كل قسم وهو احد اعضاء اللجنة العليا المواد التي يجب ان يكتب فيها من اول المعلمة الى آخرها كما فعل رئيس انشاء معلمة الاسلام Encyclopédie de l'Islam في هولاندة (ومع هذا نسخة من المقالة التي كتبتها فيها في الجزء السادس من مجلة المجمع في سنتها السادسة الصادر في يونيو ١٩٢٦ فان بين عملنا هذا وعمل علماء المشرقيات تشابهاً كثيراً في بعض الاقسام) .

أو تكتفي اللجنة لاول مرة بالشروع بحرفي الألف والباء وتوزع المقالات على زمرة الاخصائيين وهؤلاء يتوزعونها بينهم ويختارون لها من شاؤا من المؤازرين . والاولى ان يختار الاخصائيون ما يريدون ان يختصوا به من أبحاث المعلمة على ان تعتقد اللجنة العليا انهم يجيدون فيما تخيروه لأنفسهم من الموضوعات. ويحدد ميعاد معين لانجاز المقالات لا يتعداه المؤلفون بحال . وكلما انتهى العمل بحرفين او ثلاثة يشرع بالحروف التي تليها . وأهم ما توجه اليه العناية عند الشروع بالمعلمة الموضوعات التي تعالج فيها ومقدار الصفحات او الأسطر التي تخص بها كل مقالة من مقالاتها فان ما يكتفي فيه باسطر لا تكتب فيه صفحة وما يجتزأ منه بصفحة لا يسمح له بصفحات .

لا جرم ان من يوسد اليهم البحث في العلوم المادية سيلقون عنتاً في اعداد الأسماء التي تجب الكتابة فيها ، لقلة المصطلحات العلمية التي وضعت حتى اليوم . ولان ما وضع منها لم يجمع العارفون على استحسانه في مختلف الاقطار ، ولكن اللجنة العليا ومؤازريها يتغلبون على هذه المصاعب باطالة البحث واجادة النظر . ثم يقررون ما لا مناص من ذكره من الاسماء العلمية والاوضاع الفنية بما لا يخرجون فيه عن روح اللغة . ويختار للمؤازرة في هذه العلوم خاصة من درسوها زمناً وعرفوا شيئاً من مصطلحاتها وعانوها بالعمل والنظر . ويرجح من سبق لهم ان ألفوا فيها . وأثبتوا كفاتهم بخوضهم غمارها طائفة من اعمارهم . واذا عمد بعضهم الى الترجمة عن اللغات الحية فيجب ان يجلوا موضوعاتهم في حلة عربية وبأسلوب لا تظهر عليه آثار النقل والاحتذاء فتكتب كأنها مؤلفة مباشرة بسلاسة تحبب مطالعتها حتى الى من لم يحظه الحظ بتعلمها .

اما ما يتعلق بالبلاد والرجال والتاريخ والشعوب فهذا يقسم الى قسمين . قسم يتوخى فيه الايجاز ما أمكن ، وهو ما كان خاصاً بأمة بعيدة . وقسم خاص ببلاد العرب والاسلام ورجاله ، وهذا يتوسع فيه وان كان بعضه لم يدون ولم يحرر . وتجزأ البلاد العربية والاسلامية الى مناطق يتولى رئيس كل منطقة النظر في عامة ماله علاقة بمنطقته ويعاونه اناس يختارهم . فمصر والسودان والشام والعراق والهند وتونس والجزائر يعهد بالكلام على

بلدانها ورجالها الى رجالات معروفين من ابنائها . والخطب سهل في الأقطار التي كثر التدوين والتأليف فيها اكثر من غيرها لا يحتاج الا الى نظر سديد ومعرفة ما هو احق بالتدوين لانتفاع القاريء به .

أما سائر الأقطار كالحجاز واليمن ونجد والجزيرة وامارات سواحل شبه جزيرة العرب كعمان ومسقط ولحج وحضرموت والبحرين والكويت بل ومراكش وطرابلس وبرقة واواسط افريقية وزنجبار والحبشة والصومال وجاوى وصومطرا والاندلس وصقلية الخ فهذه يندب للبحث في كل قطر او اقطار منها عالم يبحث فيما تشتد الحاجة الى معرفته من احوالها ، كتاريخها وتقويمها وزراعتها وصنائعها وتجارتها وآثارها وسكانها وحيوانها ونباتها وجيولوجيتها ومعادنها واقتصادياتها واخلاقها واديانها وغير ذلك . فان ما كتبه الافرنج والعرب الاقدمون فيها قد لا ينقع غلة ، ولكن يستأنس به بعض الشيء ولا يؤخذ من كل ما دون الا ما وافق ما ترمي اليه المعلمة .

وللكلام على تركيا وفارس ينتخب اناس لهم نوع وقوف عليهما : يستعينون بالباحثين من اهل العلم فيهما ، اما سائر البلاد كأفغانستان وبخارى والقفقاس وبلوجستان والصين والتبّت فيعتمد على ترجمة ما كتب فيها باللغات المختلفة مع الاستعانة بنبهاء مفكريها ، وكذلك يقال عن جميع الشرق فإن الأخذ عن معلمات الغربيين قد يكفينا المؤونة بقليل من التعديل حسب حاجتنا . وحاجتنا ماسة الى التفصيل عن العرب وبلاد الاسلام والاختصار ما امكن في وصف بلدان الغرب ورجاله على ما تجري عليه كل امة في معلماتها . تعنى بالنابهين والحاملين من بنيها تترجم لهم وتفيض وتستقصي اكثر من عنايتها بالتوسع في الكلام على اعظم عظماء الشرق ممن اثروا اثراً مذكوراً في العلم والاجتماع . فنحن نطيل اذاً فيما له صلة بالامة العربية ونوجز فيما هو قصي عنها .

لا يباشر بالطبع الا متى الف ونقح كل ما له مساس بالحرفين الأولين من حروف المعجم ، وذلك بعد ان تعرض عامة المقالات والابحاث على اللجنة العليا . تقر ما تقره منها وتنتقد ما فيه وجوه للنقد . ولها الحق ان تحذف

ما شاءت . واذا رأت نقصاً في البحث ترجع في تقويمه الى رئيس ذلك الفرع . وتنشر المقالات بتواقيع كتابها ليمسوا مسؤولين عما حوت . وبديهي انها لا تحوي الا ما يشرف اسماءهم ، ويخلد في الناس ذكرهم . ولا بأس بإصدار مجلة شهرية تدعى (مجلة المعلمة العربية) تنشر نموذجات من مقالات المعلمة قبل صدورها . وبذلك تعرض ابحاث هذا الكتاب على انظار العارفين والناقدين . وتكون تلك النشرة بمثابة اعلان عن المعلمة وما يلزمها ويرد عليها من النقد والأخذ والرد . وتغدو اداة صالحة لنشر المعارف والآداب الصادرة من اقلام باحثين ناضجين . وتزين بصور من صور المعلمة على غاية من الاتقان تجلب النظر وترسم اشكالاً قد لا يتأتى للبيان ان يوفيها حقها . حتى اذا انتهت المعلمة بحول الله يطرد اصدار هذه المعلمة كما كانت . ولكن تنقلب ابحاثها الى موضوعات حديثة تساير العلم في ترقيه شهراً فشهراً اي تنشر ما حدث في فروع العلم والآداب على مثال مجلة لاروس المصورة الشهرية Larousse Mensuel illustré التي تصدر في باريز وتستدرك ما عساه فات المعلمة في طبعتها الأولى من الابحاث ويتألف من اعداد كل سنتين او ثلاث سنين مجلد ملحق بالمعلمة .

ارجح أن تكون المعلمة في بناية خاصة خالية ، تستوعب ادارتها ومستودعاتها ومكاتبها وخزانة كتبها وهذه تجهز بأهم كتب المراجعة وأحدث أسفار العلم بالعربية والانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والاسبانية والبرتقالية واليونانية واللاتينية والفارسية والتركية وغيرها والأولى ان يشاد معهد المعلمة بالقرب من دار الكتب المصرية لتكون على مقربة من مخطوطاتها النادرة وامهات أسفارها ومصادرها . ويمكن طبع المجلة والمعلمة في مطبعة دار الكتب المذكورة على أن تخصها ببقعة معينة بحروفها وأدواتها .

أرى ان يكون الموظفون في المعلمة من أمناء السر والكتاب والمصححين والمحاسبين قليلاً عددهم ما أمكن ، أما المؤازرون ورؤساء الاقسام ومنهم اعضاء اللجنة العليا فتدفع لهم مكافآت تعينها اللجنة او

يوظف بعضهم على مثال موظفي الدولة ، والأولى ان يربط رؤساء الفروع اعضاء اللجنة العليا بعقود رسمية لمدة ثلاث او اربع سنين .

ينظر في الابحاث الى جلالة موضوعها فالتأليف البسيط الذي يكتفى فيه بالرجوع الى المدونات لا يكافأ صاحبه كالتأليف الصعب الذي قد يضطر الباحث فيه الى الرحلة للبحث بنفسه . والترجمة والتعريب اقل اجراً من الوضع والتأليف ولا يعتبر في اختيار المؤازرين الا الأثر الذي اثروه في خدمة الادب وانتجته قرائحهم من الثمرات ، وكانوا ممن عانوا التأليف والوضع زمناً . لا جرم ان المشتغلين بالعلم على اختلاف ضروبه يعرف بعضهم بعضاً حق المعرفة فليس من مصلحة الكفاة الممتازين الا ان يحشروا في زمرتهم اقرانهم لخدمة هذا العمل الشريف .

وما اخال انه يقل حجم هذه المعلمة عن خمسين مجلداً يكسر كل واحد منها على الف صفحة بالقطع الكامل لان تاريخ هذه الامة طويل واعمالها كثيرة وبلادها او الاقطار التي خفق عليها علمها تحسب مساحتها بمئات الالوف من الاميال ويعد رجالها بالألوف ، وما يخيل اليّ ايضاً ان عدد المؤازرين فيها ينقص عن مائتي عالم واديب .

هذا ما يراه خادمكم العاجز يا مولاي وهناك تفصيلات لا تعرف أو لا يتأتى البت فيها الا بعد الدخول في الموضوع والصعوبة تبدو اولا في ترتيب العمل ومتى جرى توزيعه على الاصول يسير سيراً متساوقاً لايدخله الخلل ، واذا فرض تعذر نشر المجلد الاول من المعلمة قبل سنة او سنتين فان مجلداتها بعد ذلك تتابع بحيث ينشر كل سنة مجلدان على الاقل ، واني على مثل اليقين ان مصر لا تتحمل سوى ثلاثة ارباع هذا العبء في نشر هذه المعلمة والربع الباقي تعاون في تأليفه ومادياته سائر الاقطار العربية وربما جاز ان يطبع منها عشرون الف نسخة . هذا والمسؤول تعالى ان يوفقكم الى ما فيه خير مصر والامة العربية سيدي المعظم .

دمشق في ١٤ نوفمبر ١٩٢٧

وقد كتب الاستاذ احمد فريد الرفاعي يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٢٧ امين

سر الوزير عبد الخالق ثروت باشا يشكرني باسم الوزير ويبلغني ان وزارة حكومته تستقبل مع عظيم التقدير اشتراكي في هذا العمل المتطلب جهوداً الخ . وعـــاد الوزير رحمه الله فكتب اليّ مباشرة يوم ١٩٢٨/٢/٤ وقال في جملة ما تفضل به ولا اشك في ان تلك المقترحات القيمة سيكون لها شأن كبير فيما سيتقرر في هذا المشروع . ومضت على ذلك سنين وذهبت وزارة عبد الخالق ثروت باشا وجاء غيرها وغيرها ولم ينفذ شيء في هذا الموضوع المهم . الا ان فريقاً من رجال العلم والأدب والقانون في مصر عادوا سنة ١٩٤٣ (١٣٦٢) وألفوا عدة لجان لهذا الغرض وقالوا انهم يؤلفون دائرة معارف مصرية فقط ولم نفهم سر قولهم مصرية ولفظ العربية اولى واعم . فيرأس لجنة نظم الحكم والاقتصاد عبد الحميد بدوي باشا ولجنة الدين الاسلامي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ولجنة الدين المسيحي الدكتور جورج بك صبحي ولجنة الدين اليهودي الحاخام الاكبر حايم ناحوم افندي ولجنة الهندسة عبد العزيز احمد بك ولجنة الآداب والفنون اعضاؤها هيكل باشا وطه حسين بك والاستاذ العقاد والعلوم ويرأسها الدكتور مصطفى مشرفة والقانون الدكتور عبد الرزاق السنهوري والزراعة الدكتور توفيق الحفناوي والتاريخ شفيق بك غربال واللجنة الاستشارية العليا لطفي السيد باشا . وقد مضى على البداءة بهذا المشروع خمس سنين ولم يأتنا عنه خبر واظن تمر خمس وخمس وخمس ولا ينتج شيئاً لأن المقصد من هذا الاعلان الظهور ومن هؤلاء الاعضاء اكفأ علماء العصر ومنهم من لم يعرفوا الا من طريق وظائفهم ليس لهم كتاب ولارسالة ولا اثر علمي يدل على اضطلاعهم بهذا الأمر ، وإذا كان مجمع فؤاد الأول للغة العربية لم ينشر إلى اليوم كراسة واحدة من معجم بسيط (الوسيط) ولا المعجم التاريخي واكثر اعضائه من العلماء الكفاة حقيقة فكيف يرجى ان يقوم اصحاب المعلمة بهذا العمل الخطير . لا يؤخذ على المصري قلة علمه بل يؤخذ عليه فتور همته وقلة عمله .

الارمن وارتحالهم

سألنا السيد ابيا من ادباء الارمن في دمشق ومن العارفين بتاريخ هذا الشعب لماذا لم يتعرب الأرمن على عهد الحكم العربي وتتركوا على عهد الحكم التركي فأجابنا : إن فتح العرب إرمينية لم يشبه فتحهم الشام والعراق فقد كان مقامهم فيها أشبه باحتلال عسكري احترموا فيه دين المغلوبين من الأرمن ومنحوا امراءهم امتيازات تمتعوا بها وما نزل بين الأرمن جمهور كبير من العرب ، وربما كان ذلك فراراً من برودة جو ارمينية ولاختلافهم عن اهلها في عقليتهم . ذلك لأن الأرمن من عنصر آري ولغتهم من فروع اللغات الهندية الاوربية ، والعرب ساميون . وربما كان هذا السبب الذي أهاب بالفرس والأكراد أن يدينوا بالاسلام دون أن يصبحوا عرباً بلسانهم . ثم إن الأرمن في الفتح الاسلامي كانوا في دور ارتقائهم في التهذيب والوطنية وكان في رجال دينهم علماء متشبعون بروح القومية فقاوموا الفاتحين وما اراد هؤلاء أن يسلموهم بالقوة وكثيراً ما كان الأرمن حلفاء خلفاء بغداد ولطالما عاونوا العباسيين معاونة عسكرية فاستطاع الأرمن بذلك أن يؤسسوا مملكة زاهرة بآدابها ولم يخرج أحد عن مشخصاته خلا من هاجروا من إرمينية الى العراق والشام ومصر ، وتعلموا التركية ايام الحكم العثماني وكان قاسياً عليهم . ومع هذا لم يصل الاتراك الى روح الأرمن لانحطاطهم عنهم من حيث العنصر والرقي الادبي وما امتزج الارمن بالترك كما امتزج الروم إلا بقوة السيف ولكن السواد الأعظم منهم لم تسر التركية إليه . وما نسي الأرمن من لسانهم جملة واحدة فان في ثلاثة ملايين من مجموعهم في العالم ثلاثمائة الف فقط يتكلمون التركية في بيوتهم وهم سكان سهول قيلقية واواسط آسيا الصغرى أما سكان نجاد إرمينية فلم يتتركوا كما تترك الروم في تلك السهول ونسوا لغتهم . واذا كان جميع الارمن في تركيا يتكلمون التركية فليس معنى

ذلك انهم لا يتكلمون لغتهم بينهم . وليس هـذا شأن الأرمن فقط بل شأن غيرهم من العناصر فان الاتراك والاكراد والآشوريين النازلين في جبـال ارمينية يتكلمون بالارمنية ، واولاد الأرمن الذين يتكلمون بالتركية يمارسون اليوم لسانهم الأصلي ممارسة حسنة بحيث لا يجري الحديث بغير الأرمنية في الاجتماعات العامة اما قول من يقول ان الأرمن اختاروا اللاتينية على عهد الصليبيين فهو من الأغلاط التاريخية ذلك لأن الصليبيين لما وصلوا الى الشرق كان للأرمن حكومة مستقلة في قيليقية اسمها ارمينية الصغرى عاونت الصليبيين على مقـاصدهم حتى إذا رأى الأرمن ان نفوذ اللاتين اخذ ينبسط عليهم قاوموهم فمـا استطاع الصليبيون ان يدخلوا الارمن الكنيسة الـكاثوليكية على نحو مافعلوا مع الموارنة فمن ثم كان الارمن حلفاء الصليبيين لا رعاياهم . وعلى كل فاللغة الارمنية لم يحتفظ بها اهلهم إلا في ارضهم اه . ويزاد عليه ان السلجوقيين الاتراك قضوا في النصف من القرن الخامس على ارمينية ونشروا فيها لغتهم قبـل الاتراك العثمانيين ، والعهد التركي والحالة هذه في ارمينية اطول من العهد العربي .

اشرت الى هذا بمناسبة رحيل بعض الأرمن الذين كانوا اعتصموا بالشام بعد الحرب العالمية الاولى ولقوا من حكومتها ومن اهلها كل عطف ورعاية وبمناسبة معاملتهم لنا يوم رحيلهم ينادون من قلوبهم مناداة المقر بالجميل آسفين على مغادرة ديارنا وان كانوا ذاهبين الى مملكتهم الجديدة « وعاصمتها تفليس » نعم لقي الأرمن من الكثرة الغامرة ماعرف به العربي من كرم النفس ورعاية الغريب فعـدوا الشام وطنهم الثاني ومنهم من اغتنى في ارضنا بكده وجـده فما حسدناهم ولا منا عليهم ، وشعب ذكي من مثل الشعب الارمني لا يسعه ان ينكر الجميل والأرمني مهما كان من التباين بين حضارتنا وحضارته هو شرقي ويفاخر مثلنا بشرقيته .

مساجلة صديقين

كتبت في مجلة الرسالة نقداً خفيفاً لكتاب قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لصديقنا الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي عليه الرحمة فشق على بعض تلاميذه ومريديه كلامي واكبروا الأمر حتى استكتبوا صديقي العلامة الامير شكيب ارسلان نبذة في الرد على نقدي. وأراد بعض الشبان ان يحمي وطيس المناقشة بين الصديقين المتناظرين ليشهدا صراع شيخين طاعنين في السن، ولكن الامير كان رحمه الله من اعرف الناس بحقوق الاخاء فكتب جملة على جوابي وانا اكتب جملة على جوابه اوردهما بنصهما هنا نموذجاً من مساجلات كنت ابداً ابتعد عنها لئلا اضيع وقتي ووقت الناس في مناقشات قد تؤدي الى مهاترات تسمج ولا تستملح. وهاك كلامي الذي بنى عليه الأمير عفا الله عنه نقده :

يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي : إما شيء لم يسبق اليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، او شيء مغلق يشرحه، او شيء طويل يختصره، دون ان يخل بشيء من معانيه، او شيء متفرق يجمعه، او شيء مختلط يرتبه، او شيء اخطأ فيه مصنفه فيصلحه. قال : وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق اليه الا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شيء كان معضلا، او جمعه إن كان مفرقاً، او شرحه إن كان غامضاً، او حسن نظم وتأليف، او اسقاط حشو وتطويل اهـ.

وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه في التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات في علوم الحديث ونسقه وجوّد النقل، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولا. فقد نقل في اول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب في اربعمائة صفحة) من اقوال القدماء، ثم اثبت له رأياً واحداً سبق اليه (ص ١٠١) رجح فيه رأي

الجلال الدواني على رأي الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالاحاديث الضعيفة ولو كانت في شيء من الترغيب والفضائل .

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات ، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف ، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ، قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب الى آخره ، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم ، كما اخذ عن بعض المتصوفة ومجّدهم ، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ، ونقل عن مجلات غاضاً النظر عن ذكر اسمائها ترفعاً على ما يظهر .

وكأن هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً في هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات في صورة مؤلّف .

وكانت طريقة التأليف في عهود الارتقاء العلمي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهده ، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السيوطي أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وقل أن تجد فيها جديداً للمؤلف ، وربما كان الشيخ القاسمي رحمه الله ، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى في اكثر تآليفه ببسط آراء غيره .

أما طريقة التأليف اليوم فالايجاز من دون اخلال بالمعاني ، وادماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل ، واذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار اليها جملة واحدة ، حتى لا يضيع على القارىء وقته وتملأ صفحات بلا داع ، وعلى هذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا في موضوعات اسلامية او عربية ، تمثلوا ما وضعوه من المباحث اولا ثم كتبوه في صحف لتنشر ، مقتصرين على لباب ما قرأوا في موضوعهم ، عازين ما لا بد من عزوه لاصحابه تدعيماً لأقوالهم من كتب القدماء اوالمحدثين باسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية ، لاخلل في تضاعيفها ولا شقوق ؛ وهم اذا اقتبسوا اقتصروا على

محل الشاهد ، واعرضوا عن باقي ما قال المقتبس منه ، لأن الكتاب ليس بكثرة اوراقه ، بل بما حوى بين دفتيه ؛ وكم من كتب للسلف وقت ورقاتها المعدودة بأكثر مما تفي المجلدات . وقد رأينا الكتب المنقحة عاشت اكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته .

فكتب الأمير شكيب ارسلان الجواب التالي :

اطلعت في مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الاستاذ العلامة محمد بك كرد علي ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الاستاذ الشيخ جمال القاسمي بأنه كتاب قد جمع جمعاً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأي واحد وهو ترجيح قول الجلال الدواني على قول الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت في مقام الترغيب في الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف في عهد الارتقاء العلمي هي أن يأتي كلام المؤلف اكثر من شواهده ، وانه لما ضعفت ملكة التأليف اصبحت الكتب عبارة عن نسخ اقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمي آخر من جرى على هذه الطريقة وهي بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت في التأليف طريقة جديدة اليوم وهي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ويدعم اقواله بشواهد من كتب القدماء او المحدثين باسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع .

فالاستاذ كرد علي ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة انه ليس على طريقة التآليف العصرية التي هي بزعمه الاكتفاء بالاشارة الى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء في سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكأن الأستاذ كرد علي يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلمي والتي أذكر فيها ما اعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله .

وبعبارة أخرى قد ثقل على اخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد علي جعل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن ان أكون أسأت فهم كلامه .

فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، وممن سار ذكر فضائلهم في الآفاق ، وليس محمد بك كرد علي بالذي يجهل ذلك أو يقدر ان يماري فيه ، وإني لجد مستغرب منه ضيق صدره بثنائي على رجل لا يتمارى اثنان في دمشق الشام في كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق في كل مقام مباهاة .

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمي إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان اخونا كرد علي يسمي ذلك « تمجيداً » فان التمجيد في محله لا يكون موضع نقد ، فان لم يمجّد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمي في علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذي يستحق النقد . ما كنت أحبّ أن يغمز الأخ كرد علي بي في مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟

وأما من جهة التأليف نفسه فان الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار اليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال انه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية ، ونظن ان السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إنني أنا والأخ كرد علي لا نقدر أن نتكلم في علم الحديث اذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث .

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمي جمع جمعاً ، وان الجمع في التأليف هو خطة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع في كل من عهدي التقدم والتأخر . وفي اوربا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح

والتجريح لاختلاف اذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قاريء قادراً ان يستقي من هذا الجمع ما يستعذبه .

فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدي النبوي ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً الى كلام الشعراني والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين في هذا الكتاب طلبتهم . وقد نسي أخونا الأستاذ كرد علي محنة الشيخ جمال القاسمي عام ١٣١٣ عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنيابها يتجنب الخوض فيما يؤدي به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهي الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل في كونها على حق إلى يوم القيامة . ففي بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عندما يكون العالم الخبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هي في جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدي النبوي لايتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا في المسائل التي لاخلاف فيها بين العلماء والتي إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان ينوّئى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الاطراء كله وهو في علم الحديث الجبل الذي لايُطاوَل والبحر الذي لا يُساجَل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة كرد علي . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد علي وحده الذي بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الاصحاب اطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع او استكباراً لأتيانه ، وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا

الآن ان ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفي بالقول إن السجع وُجد في الجاهلية وجاءت منه امثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء في القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو ابلغ الكلام العربي وغير العربي ، وجاء في كلام الصحابة والمخضرمين ثم في الطبقة التي تليهم ، ثم في التي تليهم ثم في التي تليهم الى يومنا هذا .

ولم نعلم احداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة الى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب ، أي إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييد بقوافٍ فلم يكن السجع مستحسناً في المواطن التي يجب ان ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعاني على وجهها ، واما في المواطن التي هي اقرب الى الشعر منها الى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذي يُعد سُبّة على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة ، وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من اجل كونه طريقة قديمة ومن اجل انه عبارة عن زينة كلامية فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر ايضاً ، فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هي ايضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج اليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية ، والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد ايضاً بقيود لها مواقع في النفوس ، وهي في محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر احد ان يقول إنني انا مفرط في هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل اكثر مما لي ، ولكني لا ازال ارى السجع حلية الكلام العربي عندما يكون في محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير ، وإن العرب قد اصطلحوا على السجع في اسماء الكتب ولم يخطئوا في ذلك لأن الكلام المسجّع اعلق في الذهن من غيره . وعسى كلامي هذا يكون مقبولاً عند اخي الأستاذ كرد علي ،

ولا تتأثر به آصرة الاخاء القديم الذي بيننا والذي لا يمكن ان يطرأ عليه ما يوهنه مهما كان السبب ثقيلاً . فكيف اذا كان خفيفاً ، وإن ادري فقد يكون اراد ان يداعبني ، ولا تكون هذه اول مداعبة بيننا .

جنيف : شكيب ارسلان

فكتبت جواباً عليه ما نصه :

إلى صديقي العلامة الأمير شكيب ارسلان

نعم شق عليَّ يا أخي أن تلقي دلوك في الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذي ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت اطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير ، وجئت تغالي بكتاب ليس فيه من جديد ولا اسلوبه اسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده .

أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق ، لأنك في غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجاً إلى مصانعة الناس ، ولا نضبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ، وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك في غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ماتقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجري إلا فيما يصلح أن ينسب إلى احسانه ، وحملة الأقلام مسؤلون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاوروهم بالنقد الصحيح ، والافراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب ، والنقد المفيد عادةُ نقاد الأفرنج في زماننا ومن الأمانة للعلم والأدب أن يُدَلَّ كل كاتب على مواضع الخطل من

كلامه ، لا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه في العيان ، ولا يشول مهما نفخناه في الميزان .

واكتفي الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمال والقسام في العربي (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجـــد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمي » الذي جاء اسماً على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقي هو الجمال المعنوي ، لا الجمال الصوري ، الذي هو جمال زائل ، فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف : « ان الله جميل ويحب الجمال » وعلى هذا يمكنني أن أقول إنه لم يعط أحد شطر الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجـة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي ، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وذكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهيـة ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ، لكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد ... الخ) .

بأبي أنت وامي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا احتكم إلا اليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الكلام من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا ! وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أسمى مطاف »

وقلت لك يؤمئذ إن القاريء مهما بلغ من ثقوب ذهنه لا يدرك لاول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من اجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده .

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه اسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبي أسحاق الصابي الذي افسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع واظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن استاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعد عمله هذا اكبر حسنة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ، ونرجو ان تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة واحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما اظنك تنكر عليّ ان رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، ارفع وامتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وابي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . واظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة . ومن أجل انه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » — إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أكرمك الله ان النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف .

لو كنت على مقربة منك ماتركتك تقول في مقدمة الديوان الذي

نشرته بأخرة ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « ... الذي لا اجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية اجمل من نشره في الأقطار ، وخير وصف الحسناء جلاؤها ، والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وانواع البديع ، وشققت في تحليته اصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلا ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلا ، كما اني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه درّاً نظيماً ، وأمراً عظيماً ، وديواناً تتأرج ارجاؤه ندًّا ولطيما ، لما خفى امره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه احد ممن له عينان .. » ولو كنت مكانك لقلت وما بالبت : « ... الذي لا اجد لشعره وصفاً اوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلا ، ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه درّاً نظيما ، لما خفى امره .. » أليس هذا الايجاز أوقع في النفس ، واجمل في اداء المعنى ، وادعى إلى الأفهام من اسجاع تثقل على الطباع ونحن إنما نكتب لنفهم ، لا لنعجم ونبهم . وبعد فمالنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في اقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المستكره من انواع البديع .

فلم يجب الأمير شكيب بأكثر من الصفحة التالية وخاف لفرط أدبه أن يدون في هذا الحوار ما يفرح به احباب المطاعن اعداء السلام والوئام

جوابي لأخي محمد سيكون قصيراً كما تراه

إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث خوض من يعلمه ، بل بقيت واقفاً على الشاطيء ، على حين أن أخي

محمد كرد علي دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه ، وهو مع ذلك يقول إنني انا واياه لسنا من هذا العلم في ورد ولا صدر . فاذا كان الأمر كذلك فما كان احراه بأن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف ، وقد اطنب في وصفه مثل الأستاذ الاكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال : القول ما قالت حذام .

انا كان اكثر كلامي في محاسن الاستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي تغمده الله برحمته ، فان كنت لست من علماء الحديث فاني لست جاهلاً معرفة الرجال ، ولا مسلوباً مزية التمييز بينهم ، ولولا حسن فراستي ما كان الاستاذ كردعلي عظيماً في عيني ، وقد اخترته لأخائي منذ اثنتين وأربعين سنة .

اما السجع وما أدراك ما السجع ، فالكلام العربي ينقسم الى مرسل ومسجع ، وموزون مقفى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه اكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به اكثر تفاهم الناطقين بالضاد . والموزون المقفى هو الشعر الذي لا رونق للغات بدونه . والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف ان كتاب الله قد نزل بهذه الطريقة . وان نهج البلاغة وكثيراً من كلام افصح العرب هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والخوارزمي والصاحب والصابي والقاضي الفاضل وامثالهم إنهم لم يحسنوا القول . فان كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب .

جنيف ١٠ جمادى الآخرة — شكيب ارسلان

الزواج بالأجنبيات

ما قلت بزواج العربي من امرأة غربية الجنس قط ، ولطالما نصحت لمن يرحلون إلى اوربا واميركا في طلب العلم أو المال الا يعقدوا على الغربيات ، وأن يختاروا أمهات أولادهم من بنات جنسهم أو من الأجناس الشرقية الأخرى . وفي زواج الغربيات من الشعوب اللاتينية او الانكلوسكسونية اخطار كثيرة لأن الزوجة الغربية تعد ذاتها أرقى من زوجها ، وتضمر في قرارة نفسها أن تحمله أبداً على ان يتبعها فيما تأمر به وينزل لها عن اكثر مشخصاته وقد ينشأ الخلاف ويزيد التجافي عندما تنفثي سورة الحب التي تكون على أشدها في العروسين اول اقترانهما ، وتظهر المباينات في الأخلاق والعادات كلما عتق الزواج ، فيعود كل من الزوجين إلى أخلاقه الموروثة ، ولا سيما عندما يرتفع التكلف بين الزوجين ، ويتجلى قانون الرجعة وعامل الوراثة ، فيصبح الزواج مريراً ويتعذر استمراره . والمرأة الغربية لا تطلب من زوجها الا ان يخضع لها خضوعاً أعمى ويتجرد من خصائصه ، فاذا ما رزق الزوجان ولداً كانت النوبة نوبة الأم ، لا تطمع الا في ان تطبعه بطابعها ، والولد يأخذ بالطبع من أمه أكثر من أبيه ، لأن مقامه معها أطول من مكثه مع ابيه ، فتنشئه على حبها وحب قومها ، وتزهده من طرف خفي بقومية أبيه ، وتضحك من دينه وعاداته ، فالتفاوت بين الشرقي والغربية كبير ، وبين الجنسين عندنا وعندهم من التباين ما بين الشرق والغرب .

قد تكبر الغربي اذا نظرت اليه من بعيد حتى اذا اقتربت منه يتجلى لك على الأكثر أقل شأناً مما توهمته ، ويشتد هذا التفاوت إذا كان الزوج او الزوجة من اصل وضيع ، واختلاف الطبقة عامل كبير يؤدي الى التشاكس والتباين ، واغلب من يرضين من الغربيات بالزواج من الشرقيين يكنّ من طبقات متواضعة . ولقد شوهد من النساء الغربيات

من ظلمهن أزواجهن ، وشوهد العكس ، والفريق الأول اكثر عدداً . ويقل التوفيق على كل حال في هذا النوع من الزواج كما يقل في الزواج التجاري والسياسي .

وناقصة التربية من الغربيات يندر ان تروقها حالة اهل زوجها ، تضحك من كل مصطلح لهم ، وتحتقرهم وما اعتادوه من عادات ، وتربأ بنفسها عن مساكنتهم ومعاشرتهم ، وان رضوا ان يكونوا لها شبه خادمات حرصاً منهم على خاطر ابنهم . وقد يكونون في مجتمعهم أرقى طبقة منها في مجتمعها ، ويكونون ممن نعموا بالرفاهة وسعة العيش ، وعلى جانب من التهذيب والرقة . قد يتظاهر من يتزوج هذا الزواج بانهم سعداء في زواجهم ويكتمون أمرهم ويعتصمون بالصبر على ما جنوه على انفسهم وعلى بيتهم حتى لا يشمت بهم اهلهم وجيرانهم .

اما مشكلة الأولاد وهي اعظم مشكلة في هذا الباب فالغالب أن هذا الزواج ينقلهم الى أهل امهم فيزيد عددهم ويكثر سوادهم ، ويفقد اهل الزوج ذريتهم او يفسدونها ، ويكون الشأن في ذلك شأن من ينقن لغة اجنبية وينسى لغته ، فيزيد اهل اللغة التي التحق بهم متكلما آخر بلغتهم . وقد تحن المرأة بعد سنين إلى بلادها فتكره زوجها على اللحاق بها او تطلب اليه ان يطلقها ويأخذ اولاده ، واذا كان تاجراً مموّلاً تصبح امواله من حظ اهل زوجه . وهناك خسارتان عظيمتان خسارة الأولاد بنقلهم الى أمة أخرى ، وخسارة المال الذي يكون قد جناه الزوج من ارض أمته . هذه مسائل من البديهيات لم آت بها بجديد ، وأريد من اثباتها هنا ان يدرك شبابنا فقط أنهم يجنون على أمتهم اذا هم ادخلوا البنات الغربيات الى بيوتهم وخلطوهن بأسرتهم .

قد يستغرب تنفيري من الزواج بالاجنبيات في زمن خف فيه التعصب وتحلل الناس او كادوا من العصبيات ، والشرع قد اباح الزواج بغير المسلمات وتساهل في هذه السبيل بما لم يعهد مثله قبل الاسلام في ملة من الملل .

روي عن رسول الله قوله اغتربوا لا تضووا اي تزوجوا في الأباعد لئلا يأتي اولادكم ضعافاً اذا تزوجتم بالاقارب .

قد يأتي النسل من أبوين مختلفين في الجنس اقوى من نسل من عنصر واحد ، ومع هذا كان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يستنكر الزواج بغير العربيات ودعا الله الا يريه ابناء الفارسيات . وكان يرى ابعاد العرب عن الزواج من الروميات لأن في بنات الروم خلابة . وفي كل هـــذا اشارة الى مبلغ حرص العرب على قوميتهم وتوجسهم خيفة من تبلبل بيوتهم بدخول غير العربيات فيها .

كانت العرب في القرون الأولى تجاهر بانها تفضل من كانت أمه عربية ، حتى ان بني العباس لما اخذوا الملك من بني أمية لم يبايعوا للمنصور على جلالة قدره في السياسة والعلم وتقدمه في الميلاد وبايعوا لأخيـه السفاح لأنه من أم عربية وأخوه ابن أمة ، هذا والعباسيون في صدد تأسيس ملكهم وهم في اشد الحاجة الى ان يتولى امرهم اعظم رجالهم . وما منع مسلمة بن عبد الملك الأموي من الوصول الى الخلافة الا كونه ابن أمة ، وكان فيه من الصفات الغر ما عز نظيره في الأمويين ، على كثرة النبغاء في رجالهم ، وكان من المجمع عليه انه يمتاز عن اولاد أبيه كثيراً وهم ما هم بسياستهم وادارتهم وعلمهم .

ان دعونا اليوم الى التزهيد بزواج ابنائنا من الغربيات فذلك لأنا نعيش في عصر القوميات الذي بدا في القرن الماضي وقوي في هذا القرن قوة هان معها على الغربيين ان يقتلوا ابناء دينهم في سبيل قوميتهم . والغربيون اليوم ينظرون بعين الريبة الى كل مواطن لهم اختار امرأته من غير جنسهم ، ويحظر ذلك على عمـال الحكومة وخصوصاً رجال السلك السياسي فمن تزوج من غير جنسه تنبذه الدولة . وقد كان بسمارك السياسي المشهور سن قانوناً يحظر فيه على ضباط الألمان الزواج من النساء البولونيات لان البولونية تصبغ اولادهـــا بصبغتها وفي ذلك الحيف على دولة جديدة تنشد القوة من كل وجه .

استنصح بعض نبهاء اليابان في القرن الماضي الفيلسوف الانكليزي سبنسر وسألوه ان يضع لهم قواعد يجرون عليها في نهضتهم فمن جملة ما نصح لهم به نصيحة اشترط عليهم الا ينشروها إلا بعد موته . أتدرون ماذا كانت نصيحته ؟ كانت ان يمتنع أبناء اليابان عن الزواج من الاجنبيات لانهم بتساهلهم بادخال دم الغربيات في دمهم يفسدون جنسهم ، وبهذه النصيحة يقل في اليابان عدد المتزوجين بالغربيات وعلى طريقتهم يجب ان تسير كل أمة تريد لابنائها المجد والعظمة .

المرأة العربية

في مصر والشام يكثر المتعلمات كل سنة بفضل المدارس الابتدائية والثانوية والعالية حتى كاد ما يصل اليه البنات من ضروب التعليم يوازي ما يعطى منه للبنين ، ولم يبق فرع من فروع العلم لم يشارك فيه النساء الا الفرع الديني لأن الديانيين يتشددون في قبول المرأة الى مجالسهم ومدارسهم وجوامعهم ، ولأن تعلم الدين لا يعود على منتحلته من النساء بفائدة دنيوية . ذلك لأن جميع من يدرسون شباناً كانوا ام شابات لا يتعبون انفسهم بالدرس إلا توقعاً للمغانم والأرباح التي تنتظرهم بعد اتمام الدراسة ، وليس فيهم من يخرج الآن عن فنون ثلاثة الطب والحقوق والأدب على الغالب . وندر في النساء من يُعنين بالفروع التي خلقن لها وبرّزن فيها كأمراض النساء والكيمياء والصناعات الزراعية والطبخ والخياطة وتدبير المنزل وتعليم الأطفال وتمريض المرضى ، فعلى وزارات المعارف أن تنظر في توجيه البنات نظراً جديداً ، فالحالة العقلية تتطور في كل عقد من عقود السنين .

من كان يظن ان النساء يُقبلن على العلم بهذا الشوق وهذه العناية ، بعد ان غفلن عن تلقفه قروناً ، ومنهن من يُبَرّزن أكثر من الشبان

لانهن ينصرفن كل الانصراف في بيوتهن الى الدرس والشبان يلعبون ويلهون ويُضربون في الأحايين ، ويتظاهرون في الشوارع ، ويشتغلون بالسياسة ، ويندمجون في الأحزاب ، الى أشياء يأتونها في سن مبكرة فيضيعون جانباً من اوقاتهم مدة الدراسة .

ولقد شاهدت البيوت التي تعلم بناتها غير البيوت التي حُرمت نعمة العلم والتهذيب . وهذا ما حدا بعض الشبان على اختيار رفيقات حياتهم من هذا الطراز المصقول بالعلم الحديث والتربية العصرية . حتى ظهرت بصنعهن امارات الحضارة على البيوت ، وشتان بين الجاهلة والعالمة . ومتى خفّت مراجعات طالبات التوظف في مدارس المعارف ، وتمت صفوف الموظفات منهن في مدارسها ودواوينها ، ينقلب القسم الزائد الى الاخصاء في فنون اخرى كالتجارة العالية والصناعات الدقيقة فيدرك القسم الآخر ان مستقبلهن مناط تجويد الفروع التي لا يستغنين عنها لادخال الكمال والجمال الى بيوتهن ، وتربية أولادهن تربية راقية لا يدخل فيها الكذب ولا الغش ولا السرقة ولا غير ذلك من مفسدات العقول وهادمات الممالك .

وكيف لا نغتبط أن رأينا منهن الى هذا جمهوراً من بنات الثلاثين والأربعين ممن لم يسعدهن الطالع بأخذ العلم الأولي ان يتوفرن على تلافي نقصهن فيتعلمن على الكبر القراءة والكتابة ، حتى يجارين العصر ولا يخجلهن جهلهن أمام بنات جنسهن من المتعلمات . وكل هذا لم يكن له أثر في القرن الماضي ، فالمعارف اليوم تسير على أسرع ما يكون بالقياس الى ما عهدناه سابقاً من جهل البنات والبنين وان كان معدل المتعلمات اقل من معدل المتعلمين بكثير والأيام كفيلة بتعديل هذا المقياس .

أما ما يلغط به بعضهم من منح المرأة حقوقها السياسية فهو من لغو القول ، لا يجدي عليها خيراً ، ويعد سابقاً لأوانه ما دام عدد المتعلمات منهن قليلاً ، اذا قيس بما يجب ان يكون ، ثم أي حقوق للمرأة في الشرق العربي والمرأة الغربية ، على تفوقها المشهور في كل فروع الحياة ، لم تحصل على الثمرة التي كانت تتوقعها من الاستمتاع بحقوقها السياسية .

ومن يتذرعون بمنح المرأة الحقوق التي يخيل اليها انها تنفعها وتخرجها من سلطان الرجل الجائر هم ممن يصانعونها ويعبثون بمصلحتها الحقيقية ، ذلك لأنهم يذهبون مذاهب لا يدركون مغبتها على البيوت ، فالمرأة لم تخلق لهذا ، وقد جرب الغربيون قبلنا ، وهم في ابواب العلم أرقى منا بقرن واحد على الأقل ، فما اسفرت تجاربهم الا عن اضطراب وفوضى ، وكان من أثر هذا العمل الطائش اخراج المرأة عندهم عما خصتها الفطرة به ويتعذر تعدي حدوده مهما طالبت المرأة وشاغبت .

وبعد ان ثبت ان في فطرة النساء نقصاً طبيعياً كيف يرضى لها انصارها أن تغادر البيت لتغدو نائبة في مجلس النواب ووزيرة في مجلس الوزراء او قاضية في المحاكم أو مديرة في الدواوين . تولى بعض النساء هذه الأعمال في شمالي اوربا وفي الولايات المتحدة ومعظم سكان هذه الدول من العنصر الانكليزي السكسوني ارقى عناصر الأرض ، فأي نفـــع تم لمجتمعهم على ايديهن ، اللهم الا اذا كانت الرواتب التي يتقاضينها والألقاب التي يُلقبن بها .

كل قانون غير قانون الطبيعة تنسخه الأيام ولا تبقى على غير المعقول والأنسب . شارك النساء الرجال في الحرب الحاضرة ، فهل سعدن وسعدت اوطانهن بهذه الخدمة ؟ وهل كانت الفضيلة يا ترى اكثر فشواً من الرذيلة في هذا الاختلاط القسري بين الجنسين ؟ لو كنتم تستمعون الى ما يقوله علماء الأخلاق وغيرهم عند الغربيين لنفرتم اي نفرة من كل من يريد الظهور على حساب المرأة المسكينة يغشها فيما يزين لها من مظاهر جديدة ، وهي ما خلقت لها بحال من الأحوال .

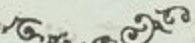

الشيوعية في الشرق

لما انتشر المذهب الشيوعي في روسيا حداني حب الاطلاع على قراءة بضعة كتب عنه باللغة الفرنسية فتراءى لي ان بعض المؤلفين كانوا يزيفونه بلباقة ، وبعضهم يزينونه باعتدال ، وفيهم من جمجم ولم يصرح ، ومنهم من نقل ما ظهر من آثار القوة في ارض الشيوعية بعد دولة القياصرة امثال هريو من ساسة فرنسا فانه اكتفى في كتابه (المشرق Orient) بوصف ما قامت به روسيا في عهد الشيوعية من الجهود ، وشرح مواطن القوة ليستخرج من ذلك ما يقفه على تلك النهضة الصناعية والحربية .

وتلخص معي مما كتبه الشيوعيون وأنصارهم بعد ان دخل التعديل في قانون لينين على عهد ستالين ان الشيوعية نظام يتعذر تطبيقه على جميع الشعوب ، فيه ما تشترك عامة الامم في الانتفاع به ، وفيه ما هو ظاهر الخطر قليل الجدوى ، مثل استئثار الحكومة بتربية ابناء الامة واخذ كل مال في الايدي لخزانة الدولة . وهذه تعول الناس تعطيهم غذاءهم بمقدار وتترك لهم حرياتهم في انتحال ما يريدون من دين ومذهب .

وسواء صح حكمي هذا ام لم يصح فان روسيا الشيوعية تحرص كل الحرص على اخفاء أسرار بلادها ، لا تبيح لرعاياها ان يغادروا ديارهم ولا للاجانب ان ينزلوها احراراً مطلقين ، وهذا مما يشعر بأن هنالك اشياء لا يستحسن القائمون بالأمر في روسيا ان يعرفها أحد ، ولا ان يطلع عليها شعبهم ، منها ان في ارضهم اربعة عشر مليوناً من المعتقلين والمعتقلات — كما قال روسي مطلع — تسخرهم في أعمالها افظع سخرة .

تهمني الشيوعية او البلشفية من حيث تأثيرها في وطني خاصة والأقطار الاسلامية عامة ، ويبدو خلل الشيوعية في تطبيقها على من ليس لهم الاستعداد لقبولها ، ولا تلائم مزاجهم واخلاقهم ودينهم وبيئتهم عندما

تعود الأمور إلى طبيعتها ، وتبطل الدعاية الواسعة المنتظمة للمذهب الشيوعي يعرف النافع منه والضار على حقيقته .

أنا لا أخاف على الشام من الشيوعية لأن من ملكوا عدة قرى ليسوا كثيرين فيها ، وإذا جرى توزيع أملاك كبار المزارعين وحددت الملكية وعني بالاستكثار من الملكية الصغيرة ، يعود أبناؤهم وذراريهم إلى حالة متوسطة مقبولة من الغنى . وقد أحس الممولون من التجار بالخطر من تضخم الثروات فنزل بعضهم من تلقاء أنفسهم عن جزء من ثرواتهم شاركوا فيه الفقير والبائس ، وان ما اخشى الشيوعية عليه مصر والعراق خاصة لأن توزيع الثروة غير عادل فيها ، ذلك لأن كبار المالكين يزيد ما يملكون عاماً فعاماً ، وحصص الفلاحين من الأرض في تناقص مستمر ، ومصر على ما بلغت من مكانة في الأنظمة والتنظيم إذا دخل فيها القانون الشيوعي بدلها رأساً على عقب . ومتى انحلت مسألة الزراعات الكبرى وجرى امتلاك الأرض على قانون معقول يندفع العامل الأول الذي يرغب بعضهم في المذهب الشيوعي ، فلا يترامى في احضانه الجهلاء نكاية بالاغنياء .

أنا أومن بالقوانين الطبيعية في تدبير هذا الكون وأوقن أنا مهما غيرنا نظماً واخترعنا شرائع لنسعد العالم بأجمعهم لا مناص من أن يكون في الخلق الغنيّ والفقير والمتوسط ، وذلك لتباين القوى ، واختلاف العقول ، ودرجات السعي ، ومن المتحتم اجراء تعديل عظيم لرفع مستوى المعيشة في الطبقات الفقيرة ، ولا غنية أيضاً عن تحديد ثروات الأغنياء بطريقة من الطرق التي تستخدمها الحكومات ، وأخذ الفضل من أموال من ضخمت ثرواتهم لتصرفه في مرافقها العامة .

قويت الدعوة الى الشيوعية في الشرق والغرب على العهد الاخير وآخر ما قرأته في مجلة لاروس (حزيران ١٩٤٨) انه يمكن الحكومة السوفيتية ان تدعو كل وطني الى أي عمل تراه يناسبه حتى ولو ساقته الى التغريب في أقصى حدود بلاده وبذلك قامت مشاريع كثيرة في تلك الديار مثل ترعة البلطيق والبحر الابيض على أيدي كتائب من المجرمين السياسيين

وقدماء أغنياء الفلاحين ممن صودروا واغتربوا وهم يعدون بمئات الالوف ، أو بملايين ، عملوا مع المجرمين العاديين جنباً لجنب . وقامت أعمال أخرى بايدي فلاحين أو عملة سُخروا في أشغال شاقة على نحو ما كان الفلاح المسكين يُسَخَّرُ في روسيا على عهد بطرس الأكبر ، وتحدثت المجلة عن الظلم الذي يلحق كل روسي .

وفي روسيا يحرم الاضراب والاعتصاب على العمال ويؤكد المستر مالوني الذي كان وزيراً مفوضاً لاوستراليا في موسكو أن لمديري المصانع ورؤساء العمال الحق في أن يقتلوا في بعض الأحوال رمياً بالرصاص العامل الذي يصل متأخراً والعامل الذي يتكرر تغيبه عن العمل بدون عذر مقبول واذا مست الرحمة قلب مدير المصنع أو رئيس العمال فله أن يخفف عقاب العامل بسجنه أو بنفيه الى سبيريا ، وفي جريدة أخبار اليوم بقلم الاستاذ محمد التابعى (عدد ٢٢٧) انه يبلغ عدد أعضاء الحزب البلشفي نحو مليونين من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم نحو مائتي مليون أي أن نسبة واحد بالمئة يحكم ٩٩ من السكان والناخبون ملزمون باعطاء أصواتهم للمرشح الواحد ومن لا ينتخب يسجن أو يحرم بطاقة التموين . ويمنع عن الروسي السفر الى الخارج وقراءة الصحف الاجنبية والاستماع الى محطات الاذاعات الاجنبية .

وبعد فإذا نظرنا الى المذهب الشيوعي وما عاد على روسيا من فوائده نشهد أنه أصبح عقيدة لاهلها كان منها أن وقفوا في الحرب الاخيرة موقفهم المحمود في وجوه أعدائهم فأحسنوا لأمتهم اكثر من آبائهم في الحرب العالمية الأولى وكانوا فيها يستسلمون في ساحات الوغى بعشرات الألوف .

فوضى المجتمع

في اليوم الذي يعرف هذا الشرق قدر الوقت ينتقل خطوة أخرى في معارج التقدم ، وفي اليوم الذي يرغب عن الفوضى ويولع بالنظام يعد ذا قيمة في مجموعة الشعوب ، وما زال الشرق دون الممالك الانكلوسكسونية بنظامه لأن كل اولئك دخل على أهل تلك الممالك وأصبح عادة مستحكمة فيهم ،

حدث ان اراد المجمع العلمي العربي اقامة حفلة تأبين لأمير الشعراء أحمد شوقي تحت رعاية أول رئيس للجمهورية السورية السيد محمد علي العابد صديق الشاعر أيام الطلب ، فلما حانت ساعة افتتاح الحفلة وتأخر الرئيس أوعزت الى القاريء ان يقرأ ، وللخطباء ان يتقدموا ويلقوا خطبهم حسب البرنامج المقرر . وجاء الرئيس بعد ربع ساعة من الوقت المعين وفهمت ان امين السر ادعى للرئيس أن الكبراء في العادة يشخصون الى الدعوات عندما يتكامل الحشد ، فقلت للرئيس أنا أرى أن تكون فخامتك المثل المقتدى به في المحافظة على الاوقات ، وقاعدة تخلف الكبراء عن الوقت المحدود تزيدنا فوضى الى فوضانا ، ونحن نبغي أن نقضي على هذه الفوضى . لشدّما امتعضت من تسامح قومي في المواعيد ، وكنت كثيراً ما أسمعهم أشد التقريع . (راجع الفصل الذي عقدته للكلام على نظامنا في كتاب اقوالنا وأفعالنا)

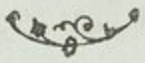

بلاهة:

من البيوت من لا ترى الشرف إلا في خدمة الدولة القائمة لا يهنأ لبنيها العيش إلا إذا تخطوا رقاب ارباب الكفاءات فقبضوا على عمل سيان عندهم أكانوا احرياء بتقلده أم كانوا وسطاً فيه أو دون الوسط . ويزيد في جرأتهم على أخذ ما ليس لهم دعواهم أنهم من اهل بيت جاء منه فلان الفقيه وفلان العامل وفلان الجندي كأن هؤلاء كانوا طرازاً عجيباً من النوابغ والحكماء ، وهم أشبال أولئك الأسود ، وما هم إلا كأجدادهم ولو كان اجدادهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

عاصرت من هذا القبيل جماعات « تخطي إذا جئت في استفهامها بمن » كما قال المتنبي : كانوا من الجهالة بمكان مخجل ، ومن فساد الذمة المثل المضروب ، لا يهتمون بغير مظاهرهم ، وليس لهم مايؤهلهم للحكم إلا دعوى شرف السابقة ، ولا من ادوات الاقدام على ما يقدمون عليه إلا النفاق لصاحب الأمر ، ومن تعلم منهم بعض التافه من العلم خرج نصف جاهل ، وأنت إذا خاطبت أحدهم ، فكأنك تخاطب مخبولاً لايفهم مايقول ولا مايقال له ، ولو كنت ممن يحسنون الظن وذهبت بادىء الرأي إلى أن عقل صاحبك هذا صحيح لا تلبث اذا احدقت النظر في عينيه وتدبرت ما يبدر على لسانه أنه من فئة يجب تسجيل اسمها في سجل مستشفى المجاذيب ، وتستغرب كيف وصل المرتبة التي بلغها وقد تكون كبيرة جداً ، وكان من حقه أن يكون خادماً او اجيراً ، ورب خادم فاق سيده بذكائه وعقله .

ومثل هؤلاء الناقصين يعوضون ماينقصهم من عقل بالمظهر الذي كتب لهم أن يقفزوا إليه ، والعمل الذي يقبضون على زمامه . ولكل منصب في الحكم روعة تزيد وتنقص بقدر ما يُدهن أرباب المصالح للقائم عليه .

وما جرت العادة أن يحاسب الناس كل انسان على مايبدو من حركاته وسكناته ، ولا أن يؤاخذوه عن بلاهته . والأبله مع هذا حرب على ارباب العقل ويتأذى بهم ، لأنه يحب أن يملي ارادته العوجاء لا أن تُملى عليه إرادة .

وكم أصدر من تسلموا إلى الوظائف الكبرى أحكامهم على ما لا يعرفون وباهوا بما صدر عنهم ، ولو كانت اقوالهم مما يخالف الحق والعدل ، وبعض اصحاب هذه الآراء السخيفة لا يعدمون أُناساً من الجهلة يوافقونهم على آرائهم ، ويكثر مثل هؤلاء المبشرين بالتدني ، المنكرين فضل العلم ، في جماعة يتوقعون مما يندفعون إلى التصريح به إرضاء شخص او حزب ولو كانت بمثل هذه السخافات تدار الحكومات ما قام عمل نافع في بلد من البلدان . وياليت ما ينوه به بعض هؤلاء النوكى من الآراء يسجل في آلة كآلة الحاكي إذاً لكان منها قصص تضحك وتسلي طلاب الدعابة .

عاش الشرق المنكوب الى اليوم وبعض من يقدمون ويؤخرون في مقدراته من هذا الصنف الغريب في العقل ، يتمجد ابناؤه بأجدادهم الجهلاء ومنهم من استثمروا أسماءهم الكبيرة ، وشرفهم المزعوم ، في معاونة بعض الدول على مقاصدها فجعلت منهم الامراء والزعماء يأتمرون بكل ما تأمرهم به ، كأنهم بعض عمالها لا يخجلون من انفسهم ولا من الناس ، وليس لهم من الصفات إلا انهم يرددون ما يُلقى اليهم مما فيه مصلحة سيدهم قبل كل شيء ، وهم يعيشون بما يفضل عليهم من أجر يدفع اليهم ثمن ميوعتهم وعبوديتهم .

قال لي رجل اختلط كثيراً بأحد ملوك الشرق انه رآه لما أضاع ملكه أصبح كالطفل وضعف تفكيره ، فقلت له انه كان كذلك يوم كان له السلطان المطلق في أمته ، ولكن عيوبه كانت مستورة بالمنصب العظيم والقوة القاهرة . وقال لي آخر انا اذا أحسنا نقد رجالنا لايبقى لنا من جميع من ملكوا رقاب المسلمين في القرون الكثيرة أكثر من عشرة ملوك خدموا باخلاص ، وخلد

التـــاريخ ذكرهم بحق . والأخيار اقل عـدداً من الأشرار في كل الأمصار والأعصار .

لما نشبت الفتنة العرابية بمصر كان قائم مقام الخديوي في القـــاهرة محمـد سلطان باشا رئيس المجلس فاستأذن عليه بعض رجال الثورة ومنهم عرابي باشا ومحمود سامي باشا البارودي وغيرهما وطلبوا اليه ان يجمع المجلس ويقرر تنحيه الخديوي توفيق فقـال لهم أنا معكم ولكن ألا يجب علينا اذا قرر المجلس تنحية الخديوي ان يعين شخصاً آخر مـكانه قالوا لك ذلك ، واعتزلوا في ناحيـــة وأخذوا يتفاوضون ساعات فلم يجمعوا على أمر ، ذلك لأن كل واحد منهم كان يحاول أن يوجه هذا المنصب اليه ، وكان جوابهم بعد مناقشات حادة : انا لم نتفق على شخص . فبعض من طمعوا في هذا المنصب الجليل في ذاك اليوم العصيب ماسلموا من بلاهـة خصوصاً لما أخـذوا يتفاخرون ويدلي كل واحد بحججه التي تكسبه الأرجحية لتولي الأمر .

ومثل هذا حدث في الشام ايام ولايه الصدر الاعظم مدحت باشا عليها : جاءه بعض أعيـــان دمشق يشكون من رئيس بلديتها ويطعنون عليه ، فسأل الوالي أحـــد أصحابه رأيه قائلاً إن رؤساء القوم أتوني يتظلمون من أعمال رئيس البلدية فما ترى ان أقول لهم؟ قال قل لهم اذهبوا وتذاكروا بينكم حتى اذا اجمعتم على واحـد أمضي المرسوم بتعيينه في الحـال ، فعادوا الى الوالي من الغد يقولون انهم لم يتفقوا على أحـد فالأحسن بقاء الرئيس في منصبه ، ذلك لان كل واحـــد كان يحاول ان يستأثر بهذه الوظيفة وما قاموا لمقصد شريف ، وكانت البلاهـة متجلية في حركاتهم ، والغرض بادياً في أقوالهم .

الحزب السوري

هذا بعض خطاب لنا يوم الاحتفال بتأسيس هذا الحزب على عهد الامير فيصل يوم ٤ تموز سنة ١٩٢٠ :

كان الناس في القديم محكومين لمن كثر اتباعه وجنده هكذا كانت صورة الاحزاب في الدول العربية السالفة وهكذا كانت في رومية وآثينة وكان الناس في القرون الوسطى في اوربا بين ظالم ومظلوم وهذا ما حدا الى تأليف شبه احزاب تدفع عن نفسها ظلم المعتدي عليها وتتضامن فيما بينها فلم يكن يومئذ ما يسمى اليوم بالوطنية ولا بالحق ولا بالحرية ، بل كان هنالك احلاف واشياع وطبقات اخرى متضاربة .

قالوا وللوصول الى قيام احزاب سياسية يجب ان تطلق للامة الحرية في بلوغ الغرض بدون استعمال الشدة ولا بد في كل اجتماع بشري من قيام حلف من الشعب يذهب الى الاحتفاظ بالحالة الحاضرة وآخر يرى تغييرها رأساً على عقب وغيره يقف موقف من لا يبالي بما يحدث . والحزب الحقيقي هو الذي ينشر دعوته بالطرق العادلة ويعيش في ظل الحرية مدفوعاً بعوامل المصلحة الأدبية اكثر من المصلحة المالية فالحزب لا ينبعث من مبدأ ولا من نظرية بل من مصلحة وكثيراً ما تكون هذه المصلحة معنوية أكثر منها مادية .

قال علماء السياسة لاجل ان يتيسر لجماعة من الناس تجمع بينهم المصلحة الواحدة والرأي المشترك ان يؤلفوا حزباً يكون عاملا حقيقياً يجب أن يكون لهم رئيس او عدة رؤساء ويسود فيه النظام وتكون له صحف تردد افكاره . للحزب غاية ولاجل الوصول اليها يجب له دليل وكثيراً ما يكافح وحتى يقهر خصومه ينبغي ان يكون على شيء من القوة فرئيس الحزب هو دليله وصلة الحزب ، ولا يتولى الرئاسة إلا لانه اثبت مدافع

وافصح مقول فيهم وعلى الرئيس ان لا يسيء استعمال الزعامة فان الخاضعين لقوله لم يخضعوا كالجندي خضوعاً اعمى بل كان رائدهم في خضوعهم ارادتهم المفكرة وعقولهم المقررة المدبرة ، الرئيس الذي يهمل امر مرؤوسيه يتركه هؤلاء كالجند يتخلون عن قائدهم في معمعان الحرب ، وقالوا ان الجرائد ضرورية لقيام الاحزاب ليكون اتصال بين رأس الحزب واعضائه وليبثوا دعوته وافكاره ويجب على الحزب ان يرفع علمه على الرؤوس فاذا اخفاه من تلقاء نفسه كان كالمتنازل عن عرشه فاذا اكره على ذلك يزيد قوة فتثور العواطف وإذا ثارت اثرت وفعلت .

وذكروا ان الاغراض مهما مزقت الاحزاب فان لهم جامعة واحدة وهي « الوطنية » فاذا دعا داعي الوطنية تنسى جميع المخاصمات ، وبالبؤس امة لا يكون هذا الشعور العالي متأصلا في بنيها فانها تكون اذ ذاك مريضة مرضاً شديداً . اما اذا كانت الاحزاب المعتدلة داخل البلاد تصدر عن الرأي العام وتتنافس كل المنافسة حباً بالخير العام فهي أشبه بمد البحر وجزره الذي لا يفيض فلا يخرب شيئاً ولكنه يعطي الاوقيانوس حياة وحركة .

هذا ما قلته وقد تبين لي بالعمل ضعف استعدادنا للقيام بما تضطلع به الاحزاب وايقنت أن معظم من دخلوا في هذا الحزب كان لمقاصد شخصية لهم ، ولذلك اعتزلت ألا ادخل بعد ذلك في حزب مهما كانت الغاية منه .

اصلاح الأخلاق

راينا عقلاء المصريين مستاءين من الحرية المفرطة التي نالها الناس في الدور الأخير من أيامها حتى لم يعد يوقر صغير كبيراً ولا يحترم كبير صغيراً وحتى كسر بعض الفتيان والفتيات القيود وأصبحوا بلا وزاع .

ساعد على ذلك اختلال نظام الاسر حتى ان الطفل ليتعلم مايشوه وجه الأدب (قبل ان يبلغ الخامسة من سنه) من والديه واترابه وجيرانه واخوته واخواته وساعد ان انحلت الرابطة بين الحاكم والمحكوم عليهم فمايراه الاول موافقاً بحسب ذوقه أو نيته يجربه ولا يتوقف فيه وللبلاد عادات ولكل قطر آداب والمغلوب كما يقول ابن خلدون مولع ابداً بالتشبه بالغالب لاعتقاده الكمال فيمن غلبه في الاغلب

وبديهي ان لكبار القوم اليد الطولى في اصلاح العادات وبالعكس ولكن بعض الكبراء الذين يرجى الخير على ايديهم مترفعون ويالأسف عن مخالطة غير طبقتهم لأشمئزازهم من سخيف العادات وبعض أهل الطبقة العالية ـ وهم الحاكمون المتحكمون في العوائد وقدوة الطبقات السائرة ـ اخذوا القشور من عادات الافرنج وولعوا بها على اختلاف ضروبها . واتوا قومهم يعلمونهم اياها استطاعوا تلقيها أم لم يستطيعوا .

وبهذه الأسباب اصبحت عادات المصريين واهل المدن منهم خاصة مزيجاً من عادات الروم والأرمن والسوريين والترك والأرناؤط والطليان والنمساويين والانكليز والفرنساويين . وتصور امة يدخل التغيير الى هذا المقدار في عاداتها كيف تصبح لاتعرف ولاتوصف .

وبحق ما قال أحد الكتاب في تأليف له نشره منذ أشهر ان اختلاطنا بالأجانب أضر بنا أكثر مما نفع . على ان هذا الفكر لو قيل لرجل في الغرب لضحك منه واستبلد صاحبه ولكن متى شرحته له وعرفته اننا لم نلق معاشر

الشرقيين من الغربيين ما كان ينبغي لنا ان نلقاه عذر وصدق

ذلك بان اختلاط امة باخرى يفيدها كثيراً ويوقف كلا منهما على ماعند جارتها من أسباب ارتقاء فتتأسى بها وتحاول الجري على مثالها ولكن اختلاط الشرقيين والمصريين منهم خاصة بالغربيين لم يفدهم الا السرف والولوع بالزخرف والبهرج وهناك جيوش من مفاسدهم وردت على ديارنا فصادفت فيها كرم المثوى وتلقاها أهل الحلاعة بصدور رحبة ونشروها مغتبطين بها بين جيلهم وقبيلهم .

ولو كنا بمكان من حسن التربية لم نضع الفرصة باحتكاكنا بالأجانب وكنا نأخذ عنهم الصبر والثبات والجد نأخذ عنهم عنايتهم بالامور المادية والاقتصادية ونتدارس واياهم دروساً عمرانية ليكون بعدها كل فرد منا مستقلاً بنفسه متكلا على جده وجدارته لاعلى أجداده وأملاكه . هذا ما كان ينبغي لنا اخذه عنهم ويمكن اليوم ان نتعلمه منهم ، ونطرح لهم ما وراء ذلك من أخلاقهم فانها لاتوافقنا وخصوصاً أخلاق غالب الجالية فليسوا في بلادهم من الطبقة العالية أخلاقاً وآداباً ولوكان كلهم كذلك ما فارقوها وأتوا يطلبون المال عندنا بكل وسيلة .

تعال معنا ننظر اين يصرف بعض الشبان لياليهم . يصرفونها في محال القصف والعزف فيما ينهك الصحة ويضر العقل ، فيما يضربالنفس والمال والشرف فيما يغضب الديان والانسان .

يقول من يشاهد معاهد العاصمة ومجالس أنسها غاصة بالشبان وأهل الحلاعة ماأسهل ضياع الوقت والمال على هؤلاء الناس فكأنهم ماخلقوا ليعرفوا له قيمة او كأن اوقاتهم ليست عزيزة لديهم وأموالهم مبذولة من ايديهم يتلقفها من بعث لنا الافرنج بهم نواباً عنهم في استنزاف خزائن بلادنا .

وحقاً ان فريقاً من الشبان لايألفون المكث في أماكن اللهو والطرب ولكنهم لايقضون أوقاتهم الا في السفاسف والهراء والبذاء وهكذا يمضي الليل والنهار بل الاسبوع بل الشهر بل العام بل العمر وشبابنا لانستفيد

منهم الا انصرافهم الى مايبعث اللذة الى حواسهم والطرب في نفوسهم كأن الشرقي ماخلق الا للخفة والطيش وتضييع الوقت والغربي ماخلق الا للثبات والانكماش والاقتصاد في الوقت والمال .

ولعمري لو جئنا نحاسب السواد الاعظم من شبابنا كيف يأتيهم دخلهم وكيف يخرجونه هل ترى فيهم من يقدر ان يحسب ميزانية اسبوعه اوشهره على الوجه المناسب في عرف الاقتصاد .

شبابنا ينقصهم كل شيء ان أردنا ايراد الحقيقة تنقصهم الاخلاق الفاضلة من مثل المروءة والوفاء ولين الجانب والصدق والثبات ومضاء العزيمة ومعرفة قيمة الوقت والمال والصحة والنظر في العواقب وان لايرضوا بحالتهم الحاضرة ويدرسوا ماعند الشعوب الاخرى المتمدنة من الصفات التي تميزها عنهم يعوزهم ان يعلموا ويعملوا وان يكون كل فرد أمة بذاته ويطالب نفسه بنفسه وهناك يحسن حال المجموع .

لو استعاض شبابنا عن مطالعة الروايات الغرامية والقصص والمجون بدراسة الكتب العلمية والاجتماعية ولو استصعبوها بداءة بدء اذن لرأيتهم ملمين بكثير من حقائق العلم ونواميس الارتقاء .

لاننكر أن منهم من تنبه فيه هذا الشعور ولكنهم أفراد قلائل حتى ليصح أن يقال اننا لم نزل في دور الحضانة فمتى نبلغ أشدنا وفي كم قرن نبلغ مبلغ الاغيار والوقت عزيز ومنادي الرحيل يستحثنا على العجل .

نحن لانطلب الكمال ولا أن يكون كل شبابنا في الدرجة التي وصفناها وانما نعني تكثير سواد المتعلمين المتهذبين وتعلم المبادىء التي يعرفها شبان اقل امة مرتقية وهناك تنال مصر استقلالها رغم انف كل مكابر .

هذا ما كتبت في مصر سنة ١٩٠١ فهل تبدلت اخلاق معظم الشباب في هذا القطر بعد هذه الحقبة الطويلة ؟ الجواب انها زادت انحطاطاً مع الأسف ويمكن ان يقال ان الاقطار العربية ايضاً بقدر ما ترقى في العلوم والمعارف تنحط في آدابها واخلاقها . ظواهر لا تبعث على غير القلق لمستقبل الامة ، فعلى المسؤولين ان يجددوا همة في سد هذا النقص الكبير .

جمعية المقاصد الخيرية

لو كل بلد اسلامي قام بواجبه قيام المسلمين في مدينة بيروت ثغر الشام ، لا ضمحلت الأمية علة العلل في هذا المجتمع ، ولزاد في بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع ، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء ، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة ، وبرئوا مما يتهمهم به اعداؤهم من ان دينهم لا يفسح لهم مجالا للنور والثقافة .

أسس المسلمون في بيروت في سنة ١٢٩٦ هـ جمعية دعوها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وعنيت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ ، ثم طرأت عليها طوارىء شلت حركتها ، ومن أهمها ان الحكومة العثمانية ما كانت تحب استرسال المسلمين في سبل التعليم ، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون في مدارسهم الطائفية ومدارس المبشرين ما شاءوا وشاءت دول الاستعمار .

ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة ، كان أول ما فكر فيه المسلمون إعادة جمعية المقاصد الخيرية الملغاة ، خصوصاً وقد رأوا كلمة التبشير تقوى ، فهبوا إلى التذرع لاحياء جمعيتهم في سنة ١٣٣٨ هـ وأخذوا يجمعون أموالاً ، واستوهبوا ارضاً عظيمة من الأوقاف اقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهي ، فكان لهم منها بأخرة ريع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً في السنة يدخرون نحو ثلثها مالاً احتياطياً ، ولا يفتأون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم .

وجعل أولئك العاملون هدفهم الأسمى انشاء مدارس لتربية البنين والبنات ، وتثقيفهم بالثقافة الحديثة التي تنطبق على التعاليم الاسلامية ، واعدادهم ليكونوا عاملين منورين اقوياء في عقيدتهم الدينية والقومية ؛ وزادوا في مناهج البنات على مناهج البنين ـ والعلوم النظرية واحدة في

جميع مدارسهم — دروساً عملية في تدبير المنزل ، تتناول الطبخ والخياطة على اختلاف انواعها ،والاشغال اليدوية والرسم والموسيقى وتربية الاطفال .

اصبح لهذه الجمعية في مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والاناث ، منها مدرستان ثانويتان ، احداهما للصبيان والثانية للفتيات ، اطلق على كل واحد منهما اسم « كلية » . وقد نجح تلاميذها في السنة الغابرة نجاحاً باهراً ، وكان فيهم ثلث من نجحوا في الجمهورية اللبنانية في احراز شهادة البكلوريا ؛ هذا وبيروت مدينة المدارس ، ومنها ما يرد عهد تأسيسه الى ستين او سبعين سنة . وبلغ مجموع مافي مدارس البنين والبنات في بيروت في سنة ١٩٣٤ — ٣١٣٠ طالباً وطالبة ، وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض الاطفال (هذا الكلام قبل سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك زاد عدد المدارس وقويت الجمعية قوة يفاخر بها كل مسلم) .

ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم في الثروة في قيام هذه المدارس بمدونها بما تصل اليه ايديهم من المال كل سنة ، وكانت مدارسهم في هذه الازمة الخانقة اقل دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية ، ذلك لان مدارس الجمعية تدار بأيدٍ رشيدة ، لا يسرف في مالها ايام الرخاء ، ويراعى في الانفاق العام الحاضر كما تراعى الاعوام المقبلة .

ولما رأت الجمعية ان التبشير يسري بسرعة في القرى الاسلامية من عمل بيروت هبت لجنة من اعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها ، وكوّنت لها رأس مال وبدأت بانشاء المدارس في القرى في سنة ١٣٤٠ هـ فكان لها منها الآن اثنتان واربعون مدرسة فيها ما يربو على الالفي طالب وطالبة يتلقون التعليم الابتدائي الصحيح على منهاج التعليم في الجمعية .

ولم تكتف جمعية المقاصد بما اتت ، بل عمرت لها في بيروت مستشفى ذا طبقتين وبلغ ما أنفق على بنائه ٢،٣١١،١٥٩ غرشاً سورياً او نحو اربعة آلاف ومائتي جنيه عثماني ذهباً ، ونشطت المدارس الاهلية الاخرى وعاونتها ، وتولت برجالها مراقبتها وإرشادها ، ورممت بعض المساجد في

الحاضرة والضاحية ، ومنحت معاونات لمن يريد التخصص في مدارس الشرق أو مدارس الغرب ، وعاونت حفظة القرآن وسهلت سبل اتقان حفظه ، كما بسطت يد معونتها للمولعين بالفنون الجميلة إلى غير ذلك .

هذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والخير جمعها الغيُر على أبناء دينهم ، فتألف منها رأس مال لا يستهان به ؛ وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية ، ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشك أن ينسلخوا منه ، وكل ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت وعين أعيانها عمر بك الداعوق الذي كانت طريقته وطريقة أعوانه ان يعملوا ولا يقولون ، ويبذلون مالهم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبجحون .

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذي كان سداه الاخلاص ، ولحمته حب الدين والمدنية ، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام ، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضي ، في محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة ، وقل في الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره في هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية ، وقل ان كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت . ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابهين من ابناء بيروت لقضي مع الزمن على الأمية في المسلمين . وجوهر كل نهضة في عقول الرجال ، ولا نجاح في الاعمال لغير المخلصين المثابرين .

هذا ما كتبته في هذه الجمعية العظيمة وما زالت ولله الحمد مطرداً سيرها تخرج بها رجال هم اليوم قرة عين المسلمين في هذه الديار .

من آراء شيخ المصلحين

كثيراً ماسمعت الشيخ طاهر الجزائري يقول ان افضل الطرق في انهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين وهذه طريق طويلة ولكنها امينة الغائلة لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي أما القول بالثورات وطرق العنف فقد تنجح ونجاحها قليل وليست مضمونة .

كان يقول لخاصته اذا اردتم النجاح فلا تلقوا آذانكم لما يقال فيكم من مدح وقدح وسيروا الى الهدف بقدم ثابتة تفاحوا . وتوقوا اضاعة الوقت بالقال والقيل وما لا ينتج فائدة من قول وعمل .

كثيراً مانصح لبعض من يحب إياكم أن تخطوا في رسائلكم إلى اخوانكم ما لا تريدون أن تقولوه جهرة فكل مايكتب لا يؤمن نشره ويفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه .

سأله أحد شيوخ الحشوية رأيه في كتبه وكانت كلها كتب خرافات وشعوذات بعيدة عن روح الدين الصحيح فقال له : يا فلان اشتغلوا ونحن نشتغل وسنرى لمن تكون النتيجة .

كان يقول لبعض تلاميذه : تعلّم كل يوم مسألة واخرج للنزهة ولا تتعب نفسك كثيراً فلا خير للمرء باكراهه على معاطاة امر تضيق به نفسه . وكان يقول لهم تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه ولو لغة مالطة فقد يجيء زمن تحتاجون اليها وإياكم أن تقولوا انها لا تدخل في نطاق اختصاصنا فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ماحسنت به الحياة .

كان يقول لخواصه من سوء بخت المسلمين أن استولت الدولة العثمانية على اجمل اقطارهم وحكمتها قروناً بالجهل والجبرية فأفسدت الدين وما نشرت إلا الجهل .

قال فروا من الموتورين والسوداويين فراركم من الوحش ، فهذا أحسن

علاج لهم ولا تضيعوا اوقاتكم باستصلاح من لم يرزق الاستعداد الكافي لقبوله ، فمن الناس من خلقوا للسكة والفدان ومنهم من تهيأت نفوسهم لمجالس العلم والأدب وللجاوس في مقاعد دور الندوة ودواوين السياسة .

إذا حرصتم على ادخال الاصلاح في البيوت فلا تتوانوا عن تعليم ابناء جميع الطبقات ولتكن معظم عنايتكم مصروفة الى تعليم ابناء الأعيان فان عندهم المال والجاه إذا تحلوا بحلية العلم والمعارف جاء منهم رجال جدّ نافعين وعم الاصلاح الذي تحاولون .

وكأن هذه الحكمة مأخوذة من قانون الرهبنة اليسوعية التي جعلت من شروطها بذل العناية خاصة باولاد الأغنياء حتى يكونوا في مستقبل ايامهم اعواناً لجمعيتهم .

قال لجماعة كانوا يتألمون لما يقع من ظلم قائممقام البقاع العزيز وكان من ابناء بدرخان الاكراد : هل عندكم مسدسات تستعملونها للخلاص من هذا الجور ! قالوا : لا . قال : إذاً وطدوا انفسكم على احتمال الاستبداد واورد كلمة من حكم سيدي احمد زروق : « المؤذي طبعاً يقتل شرعاً » .

وكان يقول تعلموا العلم لله ولفائدته ولذته ولتكن بكل واحد منكم صناعة او تجارة او زراعة تعيشون منها احراراً حتى لا تحتاجوا إلى قرع ابواب الملوك والحكومات فاذا احتاجوكم نادوكم والا فأنتم بما لكم من اسباب المعاش لا تحتاجونهم .

كثيراً مارأيته يغضب على من يستنبطون من الحوادث ما يخطر لهم بادىء الرأي وكان يشير اليهم أن يذكروا الحادث كما جرى وسمعوه ويتركوا الاستنباط والتعليل لغيرهم .

ما كان الشيخ يجوز الكذب حتى على المخالف ويحث كل من يجتمع اليه على الصدق ولا يتقي الا من كان يخشى بأسهم ويعمل بما قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب .

كان الظاهر من حال الشيخ انه جبان رعديد وهو يقوي قلوب من

حوله وينشط كل من يراه اهلاً للتنشيط وأبغض الأحاديث اليه أن يقال في حضرته مايفت في عضد المسلمين كقائد يسوق الجيش بحكمته ولا يخاطر بنفسه في المعركة لئلا يذهب الجيش بفقد قائده .

كثيراً ما كان يقول لو بلغني أن اهل هذا البلد كلهم راضون عني ليس لي منهم عدو لعددت نفسي ساقطاً لأن من يرضى عنه كل الناس لا يكون إلا خداعاً منافقاً يظهر لكل احد بما يرضيه والمصلح لايخلو من اعداء واصحاب . قال واحب الى قلبي أن ارى عشرة من العقلاء من مئات الالوف يرتاحون الى عملي ويقرونه .

كان يقول لو ارادني اليهود على ان اعلمهم لبادرت الى اجابة طلبهم لأن في تعليمهم تقريبهم منا واتقاء شرهم . وكان غرامه في تأليف القلوب بين ابناء الأمة على اختلاف اديانهم وازالة الفوارق من بين الفرق الاسلامية خاصة ولذلك كان يعرف من اسرار جميع الطوائف ما لايعرفه ابناء الطوائف نفسها أو مايستر عن عامتهم على الأقل . ويقول الحمد لله لقد سالمنا جميع الفرق . اما سخفاء اهل السنة وهم دونه علماً وعقلاً فيبادرون الى تكفيره كأن بأيديهم مفاتح الجنة .

موضع عجب

(في أكثر القصص التي يقرؤها ابناء هـذه الحضارة وفي أكثر المجلات والصحف ، وفي أكثر ماتشهده في المسارح وعلى الشاشة البيضاء في الشرق والغرب = حب وهيام ، حب ودماء ، حب ودموع ، حب هازل ، وحب جاد ، ولكن أكثره محصور في نداء الغريزة ، وفي ارضائها أو محاولة ارضائها بالف سبيل وسبيل ، ولو اضاف سكان الارض سكان المريخ ، لأخذهم الدهش منا نحن أهل هذا الكوكب ، ولظنوا حين يرون مانرى من الاتجار بغريزة الجنس في أكثر ما نقرأ وما نشهد ـ ان ابناء حواء وآدم لم يرثوا من ابويهما سوى هذا الطراز من الحب البدائي الذي لا فضل فيـه لانسان على حيوان . نعم هو جزء حيوي من طبيعتنا ، لكنه ليس كل طبيعتنا وهو نوع من الحب العابر الموقوت لكنه ليس كل الحب ، ولا هو ابقى انواعه واصفاها .

(حب الابوة والأمومة والبنوة ـ اين هو في هذا الحضم المصطخب ، من النزعات البدنية الدنيا ، انه مغرق أو يكاد يكون مغرقاً في بحر لجي من الشهوات ، في القصص وعلى المسارح والشاشة البيضاء او السوداء .)

(حب الانسان للانسان من حيث انسانيته واخاؤه ، لا من حيث ذكورته او انوثته ـ وحب المواطن للمواطن والجار للجار والغني للفقير والقوي للضعيف ـ حب الجمال في النور إذا محـا الظلام ، وفي الطبيعة إذا زانها الربيع ، وفي المبدع الأعلى لبدائعه ، وفي البدائع لمبدعها الأعلى . اين الجداول والانهار والحب الشامل ذو القنوات يجري بالعذب الفرات من الرحمة والعطف الى كل قلب يتوجع وروح تظـمأ ، طغت غريزة الجنس فكأنما الدنيا كلها ذكور وليس لهم الا خصائص الذكور واناث ليس لهن سوى خصائص الاناث ـ اما صفات الانسان المشتركة بينهما ،

المتسامية عن التفريق والتخصيص ، فيكاد الناس يجعلونها فضولاً لا غناء فيه ولا حاجة اليه .)

هذا ماقاله صديقي الاستاذ محمد توفيق دياب في كتابه اللمحات وله الفضل ان سبق الى تدوين هذا المعنى الذي يتناول الشرقيين والغربيين على السواء ، وكان الغربيون هم السابقين الى هذه المعاني وبهم اقتدى الشرقيون . دارت القصة في الغرب على المرأة وعلى الهيام والغرام يختلق القصصيون موضوعاتهم ويدعون انها مما وقع وبلاغتهم تغطي العيوب في كلامهم الذي يحاولون به تسلية الناس واثارة شهواتهم ، ويزيد الاقبال على مايكتبون كلما كان الكلام ظاهر الفجور . لاجرم ان البشر كان في كل زمن يرتكب انواع العبث واللهو وما كان منذ بلغتنا اخباره اقل غراماً بالنساء منه اليوم ولكن كانوا يكتمون ويستترون واليوم يظهرون ويعلنون ، كان من يأتون العهر جهرة فرادى فأصبحوا اليوم جماعات . قلّ الحياء في الناس وما ندري ما تكون الحال عليه بعد بضعة عقود من الأعوام ، والبشر متسارع في كل شيء ، وكل يوم تزيد تأثيرات القصص والسينما أكثر من تأثيرات المدارس والمواعظ .

المدنية الحديثة

خطب برنارد شو أعظم كتاب الانكليز مرة قال : كشفت خرائب في جزيرة كريت يرد عهدها الى كذا الف من السنين فظهر انه كان للقوم مدنية لا تختلف عن مدنيتنا الحاضرة بمرافقها وترتيباتها ، فتساءلت ماذا زدنا نحن أصحاب هذه المدنية الحديثة اذاً على ما كان للاقدمين من حضارة ، فلم أر أحسن في الجواب من ان ما أتينا به كان عبارة عن اختراع اسلحة وقذائف يقتل بها بعضنا بعضاً ، وبذلك فقط امتزنا على اجدادنا . هذه زبدة ما روي لي من كلام هذا العظيم وقوله في الواقع حقيقة لمسناها في الحربين الاخيرتين ، وكانت أمم الغرب من اوربا والاميركتين يخترعون للتدمير والقتل ادوات من افظع ما عرف الانسان. وبهذا الصراع الدامي اثبت البشر ان الشفقة نزعت من القلوب ، والانسانية خرجت على كل قانون كانت ترعاه ولو بعض الرعاية ، وان الاديان وجوهرها العطف على الفقراء والضعفاء أصبحت لا تذكر الا على شفاه من يعيشون بالاتسام بها .

كلما انقضى عقدان او ثلاثة عقود من السنين خطت الحضارة الحديثة في باب القتل خطى هائلة ، ولا يأتي جيل آخر ان دامت هذه الاختراعات سائرة سيرها حتى يقال ان البشر أصبحوا أحط من الحيوانات ، وقد يتراحم الحيوان أكثر من الانسان . ونحن مهما كددنا قرائحنا لنجد لهذه الحرب الاخيرة مبرراً وندون ما انجلت عنه من فوائد لا نرى الا انها زادت في بؤس الانسان على ما لم يعهد له مثيل ، وكان من ذلك ان العلم وغايته سعادة البشر قد انقلب شر أداة تستعمل في شقائه .

كان يقال كل مشروع تريد القضاء عليه حوّله الى لجنة فينسى ويهمل وقد احتال بعض رجال السياسة في هذا العصر على أممهم لدوام الحرب

بان ألفوا لجاناً ومجالس لاتقاء عادية الحروب في الظاهر فما أفادت الانسانية شيئاً . أنشاؤا عصبة الامم عقبى الحرب العالمية الأولى ، واخترعوا مجلس الأمن في الحرب العالمية الثانية فماذا كان من العصبة وما اسفر عنه هذا المجلس ؟ هل بطلت الحروب من العالم في الزمن الذي انقضي بين الحرب الاولى والحرب الثانية او بين الهدنة الأخيرة حتى الساعة ؟ ام هل استطاعوا تخفيف الويلات والناس يعيشون الى اليوم في خوف الحرب الكبرى ؟ « وتوقع المصيبة أعظم من المصيبة » وهكذا ينشأ من هذه المدنية الشر اثر الشر لايحول دون وقوعه مجلس ولالجنة ولامؤتمر ولاعصبة .

قام مالتوس الاقتصادي الانكليزي في القرن الماضي بفكرة الحيلولة دون نمو البشر وعدم الاستكثار من النسل الى أكثر مما لا تتسع له الأرض فأثبتت الأيام خطل رأيه وظهر ان الكرة الأرضية تتسع لأكثر ممن يمشي على سطحها من الخلق ، فقد كان سكانها في أول القرن التاسع عشر ثمانمائة الف مليون وأصبح في اواسط القرن الحالي عشرين الف مليون اي زاد اثني عشر الف مليون في نحو (١٥٠) سنة على كثرة ما نشب فيها من الحروب العظيمة والثورات والأوبئة ، وظل يأكل ويعيش كما كان في القرن الماضي . ولوبلغ عدده خمسين الف مليون لعاش من خيرات الأرض إذا قدر له ان يتجنب الحروب وكفي مؤونة جلب بؤسه بيده .

فعلى من تقع اللائمة ونحن نرى من يقدمون ويؤخرون في اقدار بني الانسان ظاهرهم الحرص على السلام وهم يضمرون الحرب في قرارة انفسهم ، واساليب اهراق الدماء تزيد شهراً فشهراً ؟ على ساسة الدول الكبرى من الملوك والرؤساء ام على المجالس النيابية التي توافق على اعلان الحروب مرغمة احياناً ويتغلب قليل من نوابها على افكار السواد الأعظم ، وفي الامور العظام قد لا يقررون مايقررون الا اذا صدر إليهم ايعاز من مصدر عال تضطرهم الحال الى مراعاته وإظهار الطاعة له . وخضوع الضعيف للقوي ظاهر لكل من يحلل عمل الحكومات .

طبقات الناس

في درس الطبقات تحليل روح الجماعة . ومن المتعذر الجمع بينها أو القضاء على الفوارق بين اجزائها ، وهي مهما تعددت درجاتها نرجع الى طبقات ثلاث أمهات : عليا ووسطى ودنيا . وقد تقسم كل طبقة إلى طبقات يكون الفاصل بينها على الأكثر الغنى والثقافة ، وليس لك أن تعد الفقير بالمال الغني بالعلم من الطبقة الدنيا ، ولا من الانصاف أن تحسب الغني بماله الفقير بثقافته في الطبقة العليا ، والمال وحده لا يكفي لرفع المرء فوق الرؤوس ، كان هذا رائجاً ايام كانت الأمية متحكمة في الامم جمعاء وعلى الملوك والأمراء والزعماء والحكام بل على القضاة والوعاظ والتجار والصناع .

كان المفكرون في كل عصر يصنفون الخلق بحسب مايتراءى لهم ، والغالب انهم كانوا ينظرون إلى درجات الغنى اولاً ، وما يحترفه المحترفون من الحرف ويحسنون من عمل ثانياً ، ويعتبرون قرب المرء وبعده من الحكم والسلطان قبل كل اعتبار .

قسم المقريزي أصناف الناس لعهده في مصر إلى سبعة اقسام (١) اهل الدولة (٢) اهل اليسار من التجار واولو النعم من ذوي الرفاهية (٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم اصحاب المعايش (٤) اهل الزراعات سكان القرى والريف (٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من اجناد الحلقة (٦) ارباب الصنائع والأجراء واصحاب المهن (٧) ذوو الحاجة والمسكنة . وهذا التقسيم لا يكاد يختلف عن تقسيم العصور الخالفة إلا قليلا .

ولما احتفل احد عمال الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر بدمشق (١١٥٦) بزواج ابنته خص كل يوم بجماعة فكأنه قسمهم الى طبقات فكان اليوم الأول للوالي والثاني للعلماء والمشايخ والثالث للأغوات والرابع للتجار والباعة

والخامس للنصارى واليهود والسادس للفلاحين والسابع للقينات والمومسات . قال احد المؤرخين أن صاحب العرس اكرم هذه الطبقة إكراماً زائداً وفرق فيهن الذهب والفضة . وكان قبل يوم العرس عمل تهليلة لجميع مشايخ الطرق حضرها الخاص والعام .

وبعد فان الطبقات بحكم العادة منعزل بعضها عن بعض لا يمتزج الحكام بالتجار ولا الفقهاء بالأجناد ولا الزراع بأرباب الصنائع الحرة من الاطباء والمحامين والمهندسين . ولذلك كان من العادات الراسخة إلى عهد قريب ألا يتزوج التاجر إلا من ابنة تاجر ، ولا تقترن الفلاحة إلا بفلاح أو ماشابهت طبقته طبقة أهلها . وابنة الموظف لا يبنى بها إلا موظف ، والشريفة لا ينكحها إلا شريف . وهكذا حتى يكون الزوجان متقاربين بالثروة والعادات .

ولما كثر المتعلمون والمتعلمات ظهرت الفروق محسوسة بين الطبقات ، ولا تصفو الا في الندر عشرة المتعلم مع غير متعلمة او المتعلمة مع غير المتعلم وهذا ما يستنتج منه أن الطبيعة ميزت بين الطبقات . ويكفي اختلاف حرفة الواحد عن الثاني في مجلس أن يتباعد كل واحد عن صاحبه . واذا خرج الحديث عن الأحاديث العامة وتحدث أحد الحاضرين بما لا يتذوقه الحضور يتأفف بعض السامعين حتى ليظن أن المتكلم من عالم آخر يخاطب عالما آخر غير عالمه ، وهذا من تخالف الطبقات . بل لقد تجد اهل بلد واحد اختلفت طبقتهم يتباينون في لهجاتهم وفي افكارهم ومنازعهم على قربهم في الجوار كأنهم من بلدة اخرى . وكلما تناءت المنازل زاد التخالف في العادات واللهجات ، ولا يجمع شملهم إلا توحيد اللغة والتربية الوطنية المشتركة والتباين يبقى اثره زمناً طويلاً ويضعف ولا يكاد يرى على ماهو حاصل بين ابن القرى وابن المدن في اوربا واميركا لاشتراك سكانهما في المسائل العامة أكثر من سكان المدن والقرى في الشرق . والتعليم الاجباري هناك يضعف تأثير الطبقات في الجملة . ولقد رأينا طبقات الفلاحات هنا اذا وافين الحواضر للخدمة في البيوت يصعب عليهن بادىء بدء ممارسة

بعض مصطلحات الحضارة التي دخلوا فيها ولا يزال الفرق ظاهراً بين القروية وابنة المدينة وبين الجبلية والسهلية لأن لكل واحدة بيئة خاصة نشأت فيها .

لم يوفق عالم من علماء الملة منذ كان الاسلام كتوفيق الجاحظ في تحليل روح الطبقات ولم يحسن أحد الانتفاع بهم والاطلاع على ماخصوا به من ميزات . اختلط بعامة الطبقات وغربلهم ونخلهم وادرك مواطن الضعف والقوة فيهم . هذا وقد ثبت أن التشابه بين اهل الحرفة الواحدة من امم مختلفة أكثر مما هو بين جماع اهل بلد واحد . وقالوا ايضاً ان اهل كل حرفة وان اختلفت شعوبهم أدنى إلى التقارب في التفكير والعادات مما لا يشهد في تقارب الطبقات في امة بعينها . وكثرة التخالف في الطبقات في الهند ادت الى شطرها شطرين . فسبحان من طبق الطبقات ورفع الدرجات .

الشبع طاهر والسياسة

طال تفكيري في حال المشايخ الفقهاء فما رأيت أكثر من عاصرتهم الا شبه العامة بحرصهم على شهواتهم وتحيلهم لاقتناص الدرهم والدينار واستحلال كل ما يوصلهم الى رغائبهم وزادوا العامة بان تلفقوا اشياء من العلم يستخدمونها لمنافعهم وللابقاء على مظاهرهم فهم لا يعدُون العامة في كل ذلك مهما احسن الظن بهم ، ومن لايعمل بعلمه موته وحياته سواء .

وبعد ان كان من المشايخ الى أواخر القرن الماضي من ينكر المنكر ويدعو الى المعروف قل جداً عدد من كان على هذه السيرة وغدوا لا يهتمون لغير راحتهم ورفاهيتهم وهذا لا يتهيأ لهم الا بمصانعة الملوك والحكومات ليفيضوا عليهم من احساناتهم ويرقوهم الى اعلى مراتبهم ودرجاتهم كأن العلم لاثمرة له الا نفع من تعلمه فقط لانفع من تستدعي الحال هدايتهم ورفع اصواتهم عند الاقتضاء بما يدفع بالامة الى الأمام خطوة اوخطوات .

قال لي صديقي الاستاذ سعيد العرفي — وهو من القائمين بما اخذ الله على العلماء من العهد الا يكتموا العلم — ما كنت اظن الشيخ طاهر الجزائري أكثر من عالم مصلح واسع العقل بعيد النظر حتى سمعت من اذاعة القدس كتابه الى معاونة حاكم العراق الأنكليزية في التوفيق بين مصلحة العرب ومصلحة الانكليز وعندئذ ايقنت ان الشيخ جمع الى علوم الدين علوم الدنيا ومنها السياسة على ما كان عليه بعض كبار علماء السلف . وهذا ما دعاني الى نشر هذا الكتاب النادر في هذه المذكرات وهو عندى محفوظ بخطه دفعه إليّ في أواخر أيام حياته قال :

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة الشهمة المصونة مس « بل » دام اقبالها

احييك بخير التحايا واثني على تلك السجايا وأذكرك بالأيام المسعودة التي جمعتنا في دمشق الشام ثم اذكرلك الداعي الى المكاتبة وهو امران احدهما تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك بهذا المحب المخلص فقد ذكرلي بعض اصدقائي ترجمة ما كتبته في حقي في رحلتك الى سورية مما يدل على حسن الطوية ، والأمر الثاني اقتضاء الوقت لذلك فإن هذا الزمان الذي هو اغرب الأزمنة مطلقاً يجب الانتباه فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص فانها تمر مر السحاب . هذا ولما كنت اعتقد ان احسن من يخلص له العرب الود هو دولة بريطانيا العظمى لما خبرته من الأحوال ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك — والمودة لما كانت واجبة ان تكون من الطرفين اقتضى الأمر ان يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الأمر فرأيت انه ينبغي لانكلترا العظمى ان تعتني بأمور ، الأمر الأول ان تؤسس في كل بلدة كبيرة ديواناً شبيهاً بالرسمي لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يحب العرب لتساعد عليه بقدر الامكان والذين يعينون ينبغي ان يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب ممن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة .

الامر الثاني ان تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الانكليزية .

الأمر الثالث الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان .

الأمر الرابع مراعـــاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم لاختلاف العادات فإنه قد بلغني انه كان يقع في البصرة والعراق وغيرهما من بعض المأمورين تساهل في ذلك وهـذا مضر جداً لايشعر بمضرته الا بعد ان يشتد الحال ويعسر زوال مافي النفس . نعم ان هذا الأمر دقيق يصعب القيام بـه كما ينبغي الا ان الاعتناء لأسبابه كثير ممكن . والعربي أهم شيء عنـده عدم الهوان .

الأمر الخامس تسهيل أمر تجارتهم وتسهيل أمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك وتدريبهم في ذلك على كل ما ينفعهم ولايضركم .

الأمر السادس الاعتناء بعدم مسّ الشعائر الدينية على وجه أقوى من الحالة السابقة ، ومما يؤيد ذلك منع أمر المسكرات ونحوها وتوابع ذلك .

الأمر السابع تدريبهم على ما يحتاجون اليه من امور اقتصادية أو غيرها أي شيء كان .

واني أرى ان هذه الامور إذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنة جداً ويشتد التلاؤم بين الفريقين ، فإن العرب أقرب النـاس الى شكر النعمة فان وجد من لايشكر فان في ظهور النعمة ما يقمعه عن ابراز ما ينويـه من مغالطة الناس وما قلت ماقلت إلا بعد تجربة أواختبار تام ولولا شدة انحراف مزاجي لألفت في ذلك كتاباً مفصلاً قياماً بمثل هذا الأمر الجلل الا ان في هذا الامر كفاية والله الموفق

المخلص للامـة العربية والدولة البريطانية العظمى

طاهر الجزائري

حاشية

الناس الذين على فكري من جهة توافق مصلحة الامة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى كثيرون الا انهم لايقدرون على اظهار فكرهم الا

بعد أن يروا باعثاً على اظهاره لئلا ينسب اليهم انهم خائنون للامة ، فإن هذه الجملة راعت الناس كثيراً وهي جملة اتخذها الشرقي لارهاب غيره سواء كان هو مخلصاً في نفسه أو غير مخلص وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام حين كنا بها في المدة الأخيرة وذلك قبل دخول الأنوريين في الحرب بنحو شهرين فإن بعضهم اشاع عني اني حضرت لتمهيد الأمر لدولتكم العظمى وكان مركز الاتحاديين هناك المركز الأول ولو وقع ذلك لغيري لأهلك حالاً ولم يكن له مانع ولكن اوصوهم في حقي بان يغمضوا عينهم في المسألة رعاية لاعتقاد الجمهور باني لا اختار شيئاً فيه خيانة للامة

واذا وقع ماذكرناه يقل الشغب ويضعف أمر المموهين الذين لايهمهم إلا امر انفسهم ، فبادروا لذلك غير مأمورين فهذا اوانه ونسأل من بيده الامر كله التوفيق لما هو الاولى .

واذا كتبت لنا جواباً فاكتبيه بعنوان الجريدة المشهورة الجزيلة الفائدة ، وهي جريدة الكوكب التي يدير امرها المستشرق المشهور صديقنا كودنبري يصلنا اين كنا .

• • •

حاشية

واني أوصيكم ببعض البلاد التي لا أسميها خيراً ، فان فيها كثيراً من الرجال المهمين الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها ولكنهم غلبوا على أمرهم لانهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة والبحث يجلو كل شيء فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل وقد آن الأوان لمعرفتهم ، وهذا لا يكون الا تدريجاً فليبادر الى ذلك فستحمدون عاقبة هذا الامر والله الموفق .

الصغار والكبار

كثيراً ما حاولت ان أجمع بين من لم يسبق لهم أن تعارفوا وبينهم تشابه في الخلق والتربية لعلمي أنهم إذا تعارفوا كان من اجتماعهم فوائد عظيمة ، أحب الشاب أن يسمع كلام الكهل والشيخ ، وأحب هذين أن يعرفا الشاب ومراميه ، وقد نجحت هذه التجربة بعض الشيء وثبت عندي أن من تعارفوا غيروا آراءهم فيمن تعرفوا اليهم والبعد جفاء . ورب عدو أزرق أصبح بالتعارف الى آخر صديقاً باراً ولا يعرف أحدنا ما عند صاحبه من مزايا إلا إذا وقف عليها بنفسه .

كانت المذاهب والطرق تفرق بين الناس في القرن الماضي . وأصبحت في هذا القرن البلية بلية الاحزاب ، ولذلك كنت أقول لبعض من أدعوهم من الشبان الى الاجتماع في داري مع من لا يعرفون من أرباب المكانة وغيرهم أرجو أن لا تتأثروا إذا صادفتم عندي من يخالفونكم في مذهبكم السياسي فبيتي لكل الأحزاب ولكل المذاهب .

ومما كان يعنيني كثيراً التنويه بارباب النزاهة والاقتدار لعلمي بان اجتماعهم يؤلف كتلة صالحة تعمل للخير بدون ان تقيد بقيود الاحزاب والجمعيات أي تكون صحبتهم صحبة وطنية خالصة ليس وراءها غرض مادي .

قال لي صديقي الاستاذ حسن الحكيم قبل أن يتولى رئاسة الوزارة - وأنا أرجوه أن يحضر احدى الاجتماعات في داري - وهل حضوري ضروري في كل مرة ؟ فأجبته لعمري انه ضروري لان أمثالك قلائل في البلد وأريد أن أعرض على الناس بضاعتنا الجيدة . وما كان في حاجة الى من يدل على فضله فقد شهرته أعماله المالية واثبت كفاءته في تأسيس مصارف في دمشق وفلسطين . وعلى ما خص به من اقتدار ونزاهة حاول خصومه السياسيون الغض منه ، ولما دخل معركة الانتخابات النيابية الاخيرة

نصره الاهلون وخذلته السياسة ، فانتخبوا في حيه أحد ذوي قرباه وهو دونه علماً وتجربة ، وحجة أهله في رفضهم انتخابه انهم قصدوه وهو في رئاسة الوزارة لقضاء بعض مصالحهم فلم يعاونهم على النحو الذي كانوا يرجونه منه !

ولا أعرف في النواب من يداني الاستاذ الحكيم في اختصاصه المالي والمجلس في حاجة ماسة الى سديد تجاربه وبعد نظره . وكان طلب احالته على التقاعد فوافقته الحكومة على طلبه . وما أكثر اقدام الحكومات على تنحية الاكفياء النزهاء يوم ينهي القانون خدمتهم ، . وفي سن التقاعد تنضج معلومات العامل ، والمناصب الكبرى لا تتطلب ممن يشغلها قوة في العضلات بل قوة في التفكير واحكاماً في التدبير .

فساد الطرق

كان المظنون أن يعمد مشايخ الطرق الى ابطال ما لم يعد للزمن طاقة بتحمله من جهالة بادية ورعونة غير خافية . وذلك بعد أن طرأ على عقول العالم من التبدل ما أصبح معه رأي الجمهور في المتجرين بهذه الاوضاع أسوأ رأي .

استجاز بعضهم العبث بملكات مريديهم ما طاب لهم العبث ، ولما جاء هذا العهد بعلومه وتفكيره حاولوا أن يحتفظوا بمكانتهم على جهل فيهم ، وما أدركوا أن ما كان يطلق عليه اسم « عِلْم » في الماضي اصبح لا يساوي خردلة اليوم .

ورأى بعضهم أن يعلموا أبناءهم ليعدّوهم لضرب آخر من ضروب المعايش ، او ليكون لهم من سلاح العلم ما يبقون به على بيوتهم من الدثور فلم تجنِ الامة من المتعلمين ولا من الأميين إلا الصاب والحنظل . ذلك ان العلم لم يبدل من أرواحهم ، وما سلموا من جرائم منشأهم

الموبوء ، كما وقع لأحدهم فتلقى العلم في أرقى الجامعات الغربية وسولت له نفسه أن يتطوع في خدمة اغراض الغريب . ومن السخف ان كان بعض ارباب المظاهر يعرفون مافيه من خيانة ثم يمدون اليه ايديهم يصافحونه ويتوددون إليه ، ولما سقط كان في مواطنيه أيضاً من يقيم له الاعذار ، ولا يستحي من مصانعته .

عرضت بأخرة على احدى محاكم عاصمة من عواصمنا قضية اتهم فيها شيخ إحدى الطرق بالعبث بعفاف الأبكار اللائي يختلفن الى زاويته ، وكان اهلهن من مريديه وأشياعه ، وثبت انه كان يقول لهن انه يقصد بعمله الشائن تنويرهن وانهن سيعدن ببركته ابكاراً على نحو ما كن قبل أن يلغ فيهن . هذا الدجّال الأمي نفذ الى ارواح من انضموا الى جملته ، وبالطبع كان من جازت عليهم دعوته مثله أميين جهلاء .

ومن المفاسد التي تسجل على بعض هؤلاء المشايخ ما لا يصدر مثله عن أدنى الأدنياء ، ولا يجوز ارتكابه الا ارباب المواخير من السفهاء ، وقد سمعنا على الدهر أن بعض الطرق ما كانت تتقيد بالآداب الدينية والمدنية فيبيح الداخلون فيها نساءهم بينهم حتى ليمسين مشتركات بين الاخوان من غير نكير ، وكانت مثل هذه المنكرات يفتضح امرها في بعض الحكومات الاسلامية فتهب الى معاقبة الرؤساء وتفرق شمل من ينتهكون حرمة الشرائع .

سألت احد مشايخ الطرق وكان يمتّ الى الادب بصلة هل أجدت عليه رحلته في الريف ، وكان طاف بعض أرجائه ليجمع من اهل طريقته جُعْله السنوي فقال : ريالات ضئيلة العدد ، واكياساً من الحنطة خفيفة الوزن ، فقلت له : وما السرّ في ذلك ياترى ؟ قال ان القوم قلّ اعتقادهم فينا ، ونحن قادمون على المستقبل المجهول . فقلت في نفسي حقق الله ظنك ، فاذا كان البشر سائراً بخطى واسعة الى الالحاد كيف يرضى عن بِدَعكم وكُديتكم ؟ .

نعم لم يبق من سلطان هذه الطرق على العوام غير اثر ضعيف بالقياس

الى ما كان لها قبل خمسين سنة ، انهزمت ولله الحمد امام قوات الحضارة. ومع هذا ما زال بعض الدول يوقد جذوتها في رؤوس السذج ، تمدهم بالمال وتحميهم من غضب السواد الاعظم وتعطف على من يعمل لها بدافع من نفسه ويكفيها مؤونة تضليل العقول كما كان شأنها في الشام بايام احد الأغبياء بانه إله معبود بيده القبض والبسط ، وكما زينت لهذا المستتر بالابكار بانه امام يهتدى به ، واوهمت ذاك المتعلم ان من تمام معرفة الجميل خدمة مآرب تلك الدولة بما تريد لا بما تقتضيه مصلحة وطنه .

وعلى سبيل الفكاهة نسجل هنا ان احد ظرفاء الأميين اخترع مؤخراً طريقة جديدة فانضم اليه حتى بعض من يلاحظ انهم على شيء من المعرفة والذكاء وراحوا يزعمون انه يشرح لهم الفتوحات المكية لابن عربي وما اكثر ما يدعي هؤلاء المتصوفون فك المعمى من كلام متصوفهم . اشتهر منذ نحو خمس واربعين سنة رجل فران كان يعتم بعمامة بيضاء شارة العلماء فسألت عنه احد مشايخي وكانت له مشاركة عظيمة في التصوف هل حقيق ما يقولون من ان هذا الفرّان يفهم الفتوحات المكية فاجابني ضاحكا : نعم هكذا قالوا وهو أميّ ايضاً . والعجيب الا يضطلع بسر الطرق إلا الأميون ولا يفهم كتب القوم إلا الجهلة المشعبذون على نحو ما نرى في الطريقتين اللتين جاءت احداهما وهي « القـــاديانية » من الشرق وكانت اختراعاً انكليزياً صرفاً ، وجاءت الأخرى وهي « التيجانية » من الغرب وهي بضاعة افرنسية محضة .

ونحن كلما ملنا الى الاعتقاد بانقراض هذه الحلمات الطفيلية ينشأ لنا جيل آخر يحيي الدجل بطريقة له يبتدعها فيستهوي قلوب ضعفاء المدارك ولذا حق لنا ان ننادي ان الشعوذة ما انقطعت من الدنيا ولن تنقطع ، وكل رجائنا ان يبقى العلم على جهاده في مكافحة الجهل ، بغزوه في بؤرته ، ويجتثه من اصله ، ويدفنه الى غير رجعة .

فرنسا في شمالي افريقية

من أفظع انواع الاستعمار استعمار فرنسا، قام في كل قطر احتلته على نزع الثروة من أيدي الوطنيين ، وعلى نشر الجهل والفساد بينهم، وعلى تربيتهم تربية خنوع وذلة ، ليكون لها منهم الى الابد عبيد وخوَل يؤمرون فيطيعون بدون أخذ ورد . قرأت منذ نشأت كثيراً من كتب الثقات من الفرنسيين في نقد سياسة فرنسا في مستعمراتها الاسلامية وتدبرت تلاعب ساستهم في تلك الأقطار فما شهدت شهد الله إلا الظلم المجسم وإرهاق الخلق باسم المدنية . وآخر ماقرأته في مجلة الثقافة المصرية (العدد ٤٣٨) مقالة للاستاذ عبد الجبار جومرد ذكر فيها تاريخ استعمار فرنسا للجزائر وأتى نقلاً عن المضبطة الرسمية على نتائج فتنة الجزائر (١١ تموز ١٩٤٥) ونقل مادار في المجلس الاستشاري وما قاله أحد أعضائه من الفرنسيين من ان الانتقام كان فظيعاً ، ذلك ان قتل بعض الأوربيين أدى الى اعدام تسعة واربعين مسجوناً ، ولما رأوا أن العدد لا يكفي ويلزم لاتمامه احد عشر شخصاً أيضاً أخذوا من صفوف المسجونين من أتموا به العدد وقتلوهم كلهم رمياً بالرصاص . قال ان الوالي العام على الجزائر أجاب على سؤال وجه اليه فقال إن احدى واربعين قرية دكت بالطائرات والوحدات البحرية فلم ينج منها ديّار ولا حيوان ، وبما ان معدل سكان القرية الواحدة على الاقل الف نسمة إن لم نقل الف وخمسمائة فلا مغالاة إذاً أن نقرر ان عدد من قتلوا من المسلمين يختلف بين اثني عشر الفاً وخمسة عشر الفاً ، هذا اذا فرضنا أن نصف السكان قد فرّ واعتصموا بالجبال .

تلك شهادة افرنسي مسؤول في مجلس رسمي ، وهذه عقلية الفرنسيس في كل بلد نزلوه وطمعوا في استعماره . هكذا كانوا في افريقية وآسيا

واميركا ، وهكذا كانوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين .

ذكرني هذا بما نقله اليّ احد اصحابي على لسان أحد أحباب فرنسا من اللبنانيين قال ان في الفرنسيس الصالح وغيره وانه رأى برقية بالارقام حلّت بحضرته أرسلها الجنرال ديغول المسيطر على فرنسا يومئذ الى ممثلها في سورية ولبنان عندما توترت العلائق بين حكومة الجمهورية السورية وحكومة فرنسا قال يأمر المفوض الفرنسي أن يدمر ثلثي سورية لتوطيد سلطان فرنسا عليها . وقال ان هذا المفوض الفرنسي اكتفى باهلاك بضع مئات من الأبرياء في مدن سورية فأثبت صاحب فرنسا أن رجالها كانوا بين ظالم وأظلم ، أما المسلمون فكانوا من هذه السياسة الخرقاء في بلاء ليس بعده بلاء ، وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن بلاد الاسلام ستخرج من حكم فرنسا ان لم يكن عاجلاً فآجلاً ، ذلك لان ظلمها بلغ أقصى حد لاتطيقه النفوس البشرية ، ومهما استحلت فرنسا خنق الحرية في الاقطار التي استولت عليها لابد أن ينفض أهلها عنهم غبار الذل يوماً فيتمتعون باستقلالهم الذي يحبه لهم كل انسان فيه روح الانسانية .

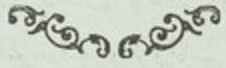

أقوال مسئولة

تناولت من فرنسا نشرة اسمها ايزوب (Esope) على اسم القصاص اليوناني الذي جاء قبل المسيح بستة قرون وقرأت فيها مااعتدت أن أقرأه في كلام من يخدمون الأغراض السياسية تحت ستار العلم ، وخلاصة مايدعو إليه هذا البيان الذي تدرأ ناشروه وراء أسماء مشهورة عندهم ان نشرتهم هذه لسان حال الاتحاد الدولي للفنون والآداب والعلوم وزعموا أنه انضم اليهم ٤٧ عضواً عن سبع وأربعين دولة . وغايتهم أن يكون الحق لكل إنسان في مراسلة المعاهد العلمية عامة ومفاوضة أبناء كل أمة ، وأن تطلق له الحرية في تناول الكتب والمطبوعات والروراميز وأدوات الصناعة ، وأن يسمح لكل فرد بدخول خزائن الكتب ودور الآثار والأماكن التاريخية ومعامل الابحاث التي تهم الطالب وتُعنى بها أمته والدول الأخرى دون اداء رسم ، وأن يمنح كل انسان حق الترجمة والنسخ وتحليل النماذج وغيرها مما فيه فائدة للثقافة العامة ، وأن يخول الرحلة الى الممالك بلا تشديد كبير ، ويسمح له بالاقامة في كل مملكة المدة التي يراها ضرورية ، وأن يستمتع بحريته في الارض التي يحلها يكتب ويخطب ويلقي من المحاضرات ماطاب له ، ويقيم كذلك الحفلات الموسيقية والروايات التمثيلية والاعمال الرياضية ، وينشىء المعارض ويأخذ ما يشاء من أفلام السينما ، ويقوم بما يروقه من الحفريات والابحاث . قال كاتب النشرة ان الغاية المقصودة من ذلك بلوغ الكمال وكل أولئك لا دخل للماديات فيه .

وكنت وأنا أترجم هذا أقول في باطني ترى هل يقتصر أحرار فرنسا وغيرها من الامم اذا تحققت لهم هذه الاماني على الامم المستعمَرة أم يعم خيرها الشعوب المستعمِرة فقط ، وفرنسا الغالية في دعوى الحرية وخدمتها منذ وضعت أقدامها في شمالي افريقية تحرم على اهلها ان يكونوا على

اتصال مع اخوانهم في الاقطار الاخرى ، لم تسمح لابن الجزائر ولا لابن تونس ولا لابن مراكش بان يتراسلوا احراراً ويتكلموا احراراً ويعلموا اولادهم احراراً ويجتمعوا احراراً . ولم تسمح لاحد من ابناء هذه الاقطار الاسلامية الثلاثة ان يكاتب احداً من اهل الاسلام في كل بـــلد نزلوه تحت اي داع كان . واظرف مافي هذه النشرة دعوة مؤسسها الى اصلاح كتب التاريخ في كثير من الممالك لان ذلك هو المرحلة الاولى في كل حملة سلمية . ومعلوم ان فرنسا اول دولة اوربية اخذت عن العرب وغمطتهم حقهم في كتبها واول دولة بدأ تعصبها على المسلمين فكانت أرضها أتون التعصب الديني انبعثت منه الحروب الصليبية المعروفة وعم بلاؤها اوربا وهذا الشرق القريب مائتي سنة فقط ، واول دولة أصلت من دانوا بالبرتستانتية ناراً حامية وقتلت منهم في يوم واحد مئة الف انسان وشردت البـاقي وهم عشرات الالوف في هولندة والمانيا وغيرهما .

اهل السنة والشيعة

لي في جبل عامل صديقان جمعتنا رابطة العلم والأدب منذ ريعان الشباب ولم يفرق بيننا المذهب واختلاف المنشأ والعادة وكانا ، يصدقانني رأيهما فيما اكتب في الشيعة احياناً في بعض كتبي ويوردان لي اشياء ليس لها ما يؤيدها في دولة ايران الشيعية اليوم ولا في أكثر كتب الشيعة المعتمدة عندهم . يبرئان الشيعة الامامية من وصمات اتسم بها بعض فرقهم . عنيت بهذين الصديقين العالمين الأديبين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر .

وهاكم رأيهما المخالف لرأيي في أمهات المسائل التي يشمئز منها أهل السنة كمسائل الشيخين ومسائل علي ومعاوية وقذف امهات المؤمنين وغيرها مما خالفت فيه الامامية أهل السنة ، قال الشيخ احمد : قد نحوت في كتبك منحى الاشادة بفضائل الأمويين ولم تتعرض لمساوئهم بل نحوت إلى تبرئة معاوية من سن لعن علي على المنابر فقلت « ويقول من امعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنه لعن علي عقبى كل خطبة لم يقم عليها دليل ثابت يركن اليه وما من اثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة » تميل الى تبرئته بهذا الخبر المفرد تاركاً الأخبار التي ملأت كتب التاريخ وبلغت حد التواتر من أنه هو أول من سن اللعن وفرضه فرضاً على أهل مملكته .

« ربما كنت تريد بهذا تأييد مجدٍ لملك عربي من أعظم رجال السياسة في الاسلام لتؤيد به مجد العروبة ضد الشعوبية ولكن ما بالك تكثر من الحط في شيعة علي وهم ومن يستندون اليه في مذهبهم عرب اقحاح ، تبريء معاوية من لعن علي وتلصق بهم لعن الشيخين بل تجعله من أركان مذهبهم استناداً على كتاب وقع في يدك مجهول المؤلف لا يعرفه اكثر ابناء الشيعة بل

هو من غلاة العجم الذين اغرقوا في تشيعهم كما كانوا قبل في تسننهم لانهم لا يعرفون الاعتدال .

« وإذا كان في غلاة الشيعة من يقول مثل هذا القول فكيف تقذفهم كلهم بهذه التهمة وما بالك تقرفهم بقذف امهات المؤمنين ولم يقل بذلك قائل منهم حتى من غلاتهم لانهم بتطهيرهم امهات المؤمنين انما يطهرون حرمة رسول الله الذي يقدسونه ويعصمونه عن كل ما يشينه حتى من كل ما ينافي المروءة وعن المعاصي كبيرها وصغيرها قبل النبوة وبعدها بل هم ينزهون زوجات الانبياء كامرأة لوط وامرأة نوح عن مثل هذه الوصمات وان كن مشركات ومع ذلك يتهمون بغياً وافكاً بقذف ام المؤمنين التي طهرها النص الصريح في القرآن الكريم من الافك وها أنت تذكره ياسيدي في كتبك دون ان تشك فيه ثم تنشره على الملأ العربي كحقيقة مسلمة ! !

« وانت تعلم ان في الفرق الاسلامية من يحب الشيخين ويسب الصهرين ولم تتعرض لتشهيرهم كما تعرضت للشيعة فلم ولماذا ؟ لأنك تأثرت باقوال من يرمي الشيعة بكل شنيعة تبعاً لسياسة وقتهم أو لاهوائهم عن حسن ظن بهم ولم تلتفت الى تمحيص ما قالوا بسماعك دفاع المتهم عن نفسه إذا نظرت في كتبه المبعثرة .

« ان التنازع السياسي القديم الذي أدى الى هذا التناحر الطائفي الذي جرته سياسة القرون الوسطى هو الذي اسس في نفوس كثير من علماء الطائفتين كره احداهما الاخرى وكثر الافتئات والافتراء من احداهما على الاخرى ودارت رحى الجدل دوراناً كان ثفالها مجد الأمة وعزها فوهنت قوتها واستباح حماها الأعداء من كل جانب وانتقصت بلاد المسلمين من اطرافها وضاع استقلالها » .

وقال الشيخ سليمان معلقاً على قولي : قلت ولشيعية المسعودي مدخل كبير في آرائه لان من جوزوا الكذب على مخالفيهم وغلوا في حب الطالبيين حتى جعلوهم فوق البشر ، وزعموا لهم الكمال المطلق وان المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم لايؤتمنون على التاريخ ... الخ

« ولا أراك وقد نفذ السهم واندفعت بهذا التعبير بعامل العاطفة وجرى قلمك بما جرى الا وانت راجع الى وازع لبك نادم على مافرط عالم وما طرق العلم عليك ببعيدة بما يعتقده الامامية من الشيعة والشيعة فرق كثيرة ومنهم كثير من الغلاة ، مالا يخالف روح الاسلام .

« حاش الامامية ان يجوزوا الكذب على مخالفيهم والكذب حرام باجماع المسلمين وحاش أن تعتقد فيهم الخروج منه وهم من احرصهم على تمحيص الحديث والاخبار وكتبهم في الرجال وفي علم الدراية وما انطوى عليه من تنويع الاخبار وتخصيص اسماء المطعون فيهم بالذكر في كتب الرجال كل ذلك من متناول الباحث .

« والامامية لايعتقدون الكمال المطلق لائمتهم ولا لأحد من النبيين والمرسلين وهو لله وحده ولا يرونهم فوق البشر وهم معتقدون ان النبي وهو أفضل الخلق ما كان الا بشراً رسولاً ولا كانوا من الغلاة وهم يبرؤن منهم ومثل ذلك براءتهم من أن المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم وهم يعتقدون كاخوانهم اهل السنة والجماعة ان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة وان اعتقاد مثل ذلك خروج عن الاسلام ومعتقده كافر بالاجماع .

« وهل للاستاذ حرسه الله ان يدلنا على مصدر من مصادر الامامية يؤيد دعواه هذه التي نبرأ الى الله منها وهل من يعتقد عصمة الامام عن ارتكاب صغائر الذنوب وكبائرها لتسكن النفوس الى أدائه رسالة الاسلام حق أدائها يعتقد ان له ان يغير ويبدل احكام الله ، فيصير الحرام حلالاً والحلال حراماً .

«ان المسلمين سنيهم وشيعيهم عنوا اكمل عناية بضبط الحديث وتنويعه وبتراجم رجاله وبتعديل العدل وتوثيق الثقة وتجريح المجروح وما الى ذلك مما يتعلق بالاحكام ولكنهم تساهلوا فيما يرجع الى المناقب والمثالب والاخبار وكان من أثر هذا التساهل مالم يسلم من الوضع والوضاعون كثر سواء أكانوا من بعض فرقهم والغلاة منهم خاصة ام من الدساسين من

الاعداء لالقاء بذور الفتنة والفرقة بين صفوف المسلمين وهو ماندعو الى ملافاة خطره محدثي الفريقين لتمحيصه . وفي اعتقادي ان التوفر على اداء هذه المهمة هو من اوصل الطرق الى التقارب بين ابناء المذاهب الاسلامية الذي يعمل له رهط صالح من خيار المسلمين السنة والشيعة الامامية والزيدية في دار الاسلام (مصر العزيزة) .

« واني لاناشدك الله والاسلام وهو على مفترق الطرق وفي زمن احوج فيه من كل زمان الى الالفة والوئام ان تكون في الصف الاول ممن يدعو اليها ويمهد السبيل لازاحة كل مايعترض سيرهما القويم » .

هذه نبذ من كتابين للصديقين العزيزين وانا اقول حبذا لو كان الشيعة كلهم على هـــذا الاعتدال .

وقال صديقنا السيد محسن الأمين من أكبر مجتهديهم في هذا العصر : وعمدة ماينقمه غير الشيعة عليهم دعوى القدح في السلف أو أحد ممن يطلق عليه اسم الصحابي ، والشيعة يقولون ان احترام اصحاب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من احترام نبينا فنحن نحترمهم جميعنا لاحترامه وذلك لايمنعنا من القول بتفاوت درجاتهم وان علياً عليه السلام احق بالخلافة من جميعهم .

وقال ان ما يخالف فيه الشيعة غيرهم هو من الامور الاجتهادية التي يجوز فيها الخطأ وليست من ضروريات الدين ولا من اركان الاسلام مثل مسألة الامامة ورؤية الباري تعالى يوم القيامة وان العباد مجبورون على افعالهم وانكار الحسن والقبيح العقليين وخلق القرآن وان صفات الله غير ذاته وهذه هي عمدة المسائل المختلف فيها بين الاشاعرة والشيعة والمعتزلة ويجوز ان يكون الحق فيها مع الشيعة أو المعتزلة إذ للنظر والرأي والاجتهاد فيها مجال ولا يجوز فيها التقليد .

وقال مخاطباً الشيعة : وأنتم أيها الاخوان الشيعيون عليكم ان تعملوا بما أمركم به امامكم امام أهل البيت جعفر بن محمد الصادق من التحبب الى اخوانكم أهل السنة من زيارتهم والصلاة في جماعاتهم وتشييع جنائزهم وعيادة مرضاهم وتجنب كل ما يوغر صدورهم .

يقول ابن حزم في الاحكام ان الروافض ضلت بتركها الظاهر والقول بالهوى بغير علم ولا هدى من الله عز وجل ولا سلطان ولا برهان فقالت : ان الله يأمركم ان تذبحوا البقرة ان هذا ليس على ظاهره ولم يرد الله تعالى بقرة قط انما هي عائشة وقالوا الجبت والطاغوت ليسا على ظاهرهما انما هما أبو بكر وعمر . قالوا واوحي ربك إلى النحل ليس هذا على ظاهره انما النحل بنو هاشم والذي يخرج من بطونها هو العلم .

قال العلامة موسى جار الله كبير علماء روسيا وشيخ الاسلام فيها : « وفي الكافي والتهذيب والوافي من كتب الشيعة لعنات على أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وعلى العامة (أهل السنة والجماعة) وهم كل الامة ، وللشيعة ادعية مأثورة في لعن الصحابة . ونقل عن الوافي ان الامام لم يدع احداً ممن يجب ان يلعن الا لعنه وسماه وأول ما بدأ بأبي بكر وعمر وعثمان (؟) ثم مر على الجماعة ولعن الكل والباقر والصادق دبر كل صلاة مكتوبة اوراد لعنات على أربعة من الرجال منهم أبو بكر وعمر وأربع نساء منهن عائشة وحفصة » .

« وتقول الشيعة ان الناصب حرب لنا وماله غنيمة لنا والناصب عندهم من يعتقد بامامة الصديق والفاروق . يقول الصادق : خذ مال الناصب حيث وجدته وادفع الينا خمسه . والشيعة على ما في كتبهم يكفرون جميع الفرق الاسلامية ويقول الامام في ائمة المذاهب الاربعة : لا تأتهم ولا تسمع منهم لعنهم الله ولعن مللهم المشركة ! وكل آية نزلت في الكفار ارجعتها الشيعة إلى الصديق والفاروق ومن اتبعهما » .

قال جار الله : وأول شيء سمعته وأكره شيء انكرته في بلاد الشيعة هو لعن الصديق والفاروق وأمهات المؤمنين السيدة عائشة والسيدة حفصة ولعن العصر الأول كافة في كل خطبة وفي كل حفلة ومجلس في البدء والنهاية وفي دياجيج الكتب والرسائل وفي أدعية الزيارات كلها حتى في الأسقية ما كان يسقى ساق إلا ويلعن وما كان يشرب شارب إلا ويلعن وأول كل حركة وكل عمل هو الصلاة على محمد وآل محمد ولعن الصديق والفاروق وعثمان الذين غصبوا حق أهل البيت وظلموهم .

قال قلما تقام جمعة أو جماعة في بلاد الشيعة وليس فيها قاريء للقرآن ولا حافظ له وان من الشيعة من يعتقدون ان القرآن سقطت منه اشياء اهـ

قلنا ومن الأسف ان يصير التشيع الى ما صار اليه عند المتأخرين وقد أتى اكثره من سخافات الدول الفاطمية والبويهية والصفوية ومن دول الهند العادلشاهية والنظامشاهية والقطبشاهينه .

وكان في دمشق على عهد الدولة الفاطمية يطاف على الرجل وهو على الحمار وينادى عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ومنعت الدولة من التكني بابي بكر .

سمع أبو القاسم بن برهان يقول : دخلت على الشريف المرتضى أبي القاسم العلوي في مرضه الذي توفي فيه فاذا هو قد حوّل وجهه الىّ فسمعته يقول : أبو بكر وعمر وليا فعدلا واسترحما فرحما .

ودخل عليه بعض أكابر الدولة من الديلم فساره الديلمي بشيء ، فقال له متضجراً : نعم وأخذ معه في كلام كأنه مدافعة فنهض الديلمي فقال المرتضى بعد نهوضه أهؤلاء يريدون منا أن نزيل الجبال بالريش ، واقبل على من في مجلسه فقال : أتدرون ما قال هذا الديلمي فقالوا لا ياسيدي فقال : قال بيّن لي هل صحّ اسلام ابي بكر وعمر قلت : رضي الله عنهما.

هذا رأي عظيم من أكبر عظماء الشيعة في أبي بكر وعمر ، وقال العلامة آل كاشف الغطاء من المتأخرين في كتابه أصل الشيعة وأصولها ان علياً رأى الرجل الذي تخلف على المسلمين (اي ابا بكر) قد نصح للاسلام وصار يبذل جهده في قوته واعزازه وبسط رايته على البسيطة وقال ان علياً حين رأى أن المتخلفَين - أعني الخليفة الاول والثاني - بذلا اقصى الجهد في نشر كلمة التوحيد وتجهيز الجنود وتوسيع الفتوح ولم يستأثروا ولم يستبدوا ، بايع وسالم .

وكان المصلح الامام جمال الدين الافغاني ينفر من قول سني وشيعي ويقول : لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك لجهل الامة فقد اخرج الذين ألهوا علي بن ابي طالب من الاسلام لانهم ضلوا ، أما المفضلة والغلاة في محبة أهل البيت فقد دخل الاثنان تحت حكم من قال يهلك فينا أهل البيت اثنان محب غال وعدو قال . وتوسع في ذلك وما آل اليه من الضرر واقنع السنيين والمتشيعين بالبرهان ، وهذا رأينا .

بيني وبين الاستاذ الخوري

كنت منذ أيام أنبش جعبتي فظفرت بعدة رسائل ارسلتها الى صديقي فارس الخوري منذ خمس واربعين سنة . وكنا اذا اجتمعنا بعض الايام نقضي ست عشرة ساعة معاً نطالع خلالها ونكتب ونتحدث ونتنزه ونأكل . فرأيت أن آخذ هنا بعض صورها لاستدل منها على تصوراتنا في تلك الحقبة من العمر .

أراك تعجب كثيراً (١) ببسالة أهل اليابان وشدة تفانيهم في الذود عن حياض وطنهم وما هم على التحقيق إلا مثال لحال أمة نشأت على العلم النافع وربيت التربية الفاضلة واني وان اعتقدت اعتقاد مكاتب التيمس أن لمذهب اليوشية دخلاً كبيراً في غلبة سكان المملكة المشرقة فانا لا أفتأ أقول ان كل أمة اذا لم يكن في تعاليمها ما يدعو الى الوناء وضعف النفوس والزهد في العلوم يكون شأنها شأن اليابانيين .

لا جرم أنك توافقني على أن أسلافنا العرب كانوا كسكان اليابان في جلادتهم ونجادتهم فكان الفرد منهم يقاوم عشرة على نحو ما ورد في الكتاب العزيز « يا ايها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا ذلك بانهم قوم لايفقهون . » هذه الآية قام العرب بمضمونها بالفعل فقضوا على مملكتي فارس والروم على قلة عَدَدهم وعُددهم .

ولا بدع فالامة الحية لا تشبه الميتة ، وذاكَ البدوي القح - الذي عاش بعيداً عن السفاسف ونما مع الطبع نمو الاجسام الحية القوية متخلياً عن رفاهة العيش وقد علمه دينه أن وراء هذه الحياة حياة ثانية طيبة

---

(١) لصديقي فارس الخوري ملحمة كبرى مطبوعة في وصف الحرب اليابانية الروسيه كتبها بحرية فمرّ أناساً وأساء آخرين .

فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الأعين إن عاش بعد الزحف عاش سعيداً وإن مات مات شهيداً — ذاك البدوي لا يشبه ذاك الفارسي والرومي الذي أسرف على نفسه وأمات الاستبداد عواطفه واسترسل الى الجهالة . شتان بين جيش يقاتل جنده الجاهل مدفوعاً بعوامل الشهوات مسوقاً بقوة السياط والعصيّ مسخراً لامر زعمائه لا يدري ولا يحق له أن يدري الى أين يسير وجيش يكاد رؤساؤه ومرؤسوه يعرفون ماهية الحياة وضروراتها معرفة محكمة حكيمة يمشون عن رضى ليدافعوا عن بلاد لهم حصة من خيرها ويلحقهم قسط من شرها تالله لا يستوي الاعمى ولا البصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور .

كانت ايام العرب في عداتهم مما تبيض له الوجوه ويحق لهم ان يرفعوا بذكراه رؤوسهم . وكانوا كيابان الآن اذا زحفوا الى العدو يخاطبهم اميرهم خطاب من لا يرجع ويوصيهم ان يسلسلوا القيادة فيهم إلى عشرة او اكثر اذا قتل قائدهم واميرهم . وما اظن طوغو وكوروكي وكاميمورا اعظم بشجاعتهم ودربتهم من خالد بن الوليد وقتيبة بن مسلم وطارق بن زياد . واذا قابلت بين هؤلاء الرجال فلا يغرب عنك إن للبقاع تأثيراً في الطباع ، فمن عاش في ديار العرب بعيداً عن العلوم الحربية يتعذر أن يضاهي من خلق وسط العلم في قرن كهذا ومن اين لابن القرن الاول للهجرة ان يكون كابن القرن العشرين للمسيح .

* * *

كان لحشد الجنود في رومية قوانين مقررة ولما زحف القائدان بروتوس وانيبال على المملكة الرومانية دعت جمهورية رومية للدفاع عن حوزتها جيشاً من رعاع القوم ومن الزعانف واهل الدعارة وكانت تعاقب الأبّاق من الزحف بعقوبات شديدة وكثيراً ما كانت تقتلهم في ميادينها . ومن ملوك أوربا في عهد النصرانية من كانوا يعفون من الجندية وصفاءهم وخدامهم ورجال الدين ، ولما اخترعوا القرعة لتجنيد شعوبهم كان الناس يحتالون للخلاص منها بالدخول في سلك الرهبنات والأخويات فراراً

من لبس صُدر الجندية وسراويلاتها ومعاطفها ، يستعيضون عنها بثوب اسود وقلنسوة وجبة وغيار فكان من يفرون من الجندية يؤثرون حمل الصليب على نقل البندقية فتكون ثياب الاحتيال بمثابة ألبسة لهم رسمية .

حال تشبه حال بني قومنا اليوم الذين يسجلون على انفسهم الكذب ويدعون فراراً من لبس طربوش الجندية انهم ممن انقطعوا للعلم الشريف او ان والداتهم مطلقات وهم قائمون على اعالتهن ويعتذرون اعذاراً باردة يعرفها من تقال لهم .

خطب وزير الحرب على عهد لويز السادس عشر خطبة القاها بأمر مليكه على رجال الجيش خلال حرب السبع السنين وهي الخطبة التي انتقدها الفيلسوف فولتر قال الخطيب : إن في الديار التي تساقون اليها اليوم ما تشتهي انفسكم من ذهب ولؤلؤ وماس فالطرقات بها مبلطة مرصوصة والاحجار الكريمة مبذولة بحيث لا تحتاجون إلا الى ان تمدوا ايديكم اليها وتتناولوها . دعوا عنكم ما هناك من قهوة وليمون وبرتقال وقشدة وألوف من الفاكهة اللذيذة النضيجة ومنها مالم يغرس كأنها في جنة ارضية . الى ان يقول : فاياكم ان تسمعوا لمن يصدونكم عن سبيل الحرب من آبائكم وأمهاتكم وخصوصاً أمهاتهم فان البرابرة لايأكلون الاوربيين ليجعلوا اجسامهم اداماً لخبزهم القفار فمثل هذه الخشونة كانت تجرى على عهد خريستوف كولمبس مكتشف اميركا وروبنصون كروزي الذي قذفت به الانواء إلى جزيرة مقفرة واحسن استخدام الطرق ليعيش ما امكن وينال حظاً من السعادة في وحدته فان البرابرة اليوم هم غيرهم امس وهم على الجملة اصدق خدمة للاوربيين واخضع العالمين في الارضين .

وانا اعلق وأقول إن الجندي اياً كان جنسه ونحلته لابد له من طعام يقتات منه ولباس يقيه لافح الحر ونافخ القر ونفقة تدفع عنه عوادي الحاجة . وسواء وجد الجندي في القاصية او الدانية في الشرق الاقصى او الادنى في جنوبي اوربا او في جنوبي بلاد العرب في رأس الرجاء الصالح أو في الاسكندرية لا غنية له عما يحتاج اليه البشر . فاللهم اصلح قوماً يأخذون

الضرائب والمكوس باسم جنودهم ولا يفيضون عليهم منها إلا ما يكاد يحفظ عليهم رمقهم الاخير .

سقام بلا برء ضلال بلا هدى اوام بلا ريّ دم لا بقيمة

هذا والجندي الياباني قليل النفقات بعيد عن الكماليات والجندي الروسي مترف مرفه وشتان بين المتخوشن والمتنعم .

جسرين في ٢١ شعبان ١٣٢٢

و٣٠ تشرين اول ١٩٠٤

ومن كتاب : انتشر وباء البقر في مصر هذه السنة فنفق به نحو مائة وخمسين الف بقرة وثور وتسامح من وكل اليهم الحجر على واردات مصر فانتشر في سورية كما انتشر الوباء البشري منذ سنتين آتياً من مصر ، تنبأت بحلول هذا الضيف الثقيل عندما قرأت اول الاخبار ، كما تنبأت بان الوباء تسري عدواه الى سورية عندما أصيب به ناس في موشا من بلاد الصعيد في صيف سنة ١٣٢١ . وفي كلتا الحالتين صدق ظني وصحت كهانتي .

وعجيب لعمري حال مصر والشام فانها أبداً مشتركتان في البأساء والنعماء إن لحق بالاولى شر شاطرتها اياه الثانية وان اصابها خير تستفيد منه

وما زلت أفكر في حال الفلاح وما أصابه هذا العام من نقص في الغلات والثمرات للجفاف وقلة الري ، وأطرق ملياً عندما لا أجد في هذه المزرعة واهلها يتجاوزون ستمائة نسمة (اهل جسرين اليوم ١٣٠٠) من بلغته أخبار الوباء وفتكاته في القرى التي هي من هذه المزرعة على نصف ساعة ، ولا أرى حولي من يحاذر مما احاذره من تهديد الوباء لما رباه من ثيرانه فكانت عنده او كادت اعزّ عليه من ولده ، ولا بدع اذا استراح جسم من كان هذا مبلغ عقله فالعقل عقال لصاحبه .

نعم ان الفلاح وانا منهم ليحب بهائه حباً جماً ويكاد يؤثر لو قطع عنه طعامه وشرابه ولم ينقطع عن ماشيته العلف والمرعى ، ولطالما رأيت بعض الأكارين والحراثين ينامون في المعالف ليكونوا على مقربة من حيواناتهم يتعهدونها في الليل بالسقي والعلوفة تعهد الامهات أولادهن .

شعور تلبست به ولا خجل من الحق منذ شغلت نفسي بالفلاحة فتراني ابداً انقبض اذا شهدت ثيراني جائعة وملوثة قذرة وعلى العكس أطرب وأسر واني لأوثر دخول الزريبة لارى بهائمي على دخول قصر فخم اسمع فيه ما لا يروقني وأرى فيه ما ينغص عيشي ، واختار نشق رائحة السرقين على ما هناك من المشمومات والرياحين ، واوصي اجراء الدواب اكثر ممن عهدت اليهم بتربية اخوتي من المعلمين ، ذوق غريب مضحك لا تجادلني فيه بالله عليك ، ولقد كان نصيبك مثله لو بقيت في مسقط رأسك ولم تخرج من طور السياسة البقرية الى دور السياسة البشرية .

جسرين : ١٤ رمضان ٣٢٢

و٢١ تشرين الثاني ٩٠٤

من كتاب : ان هذه العوائد أليق بربات الحجال منها بالرجال وبصغار الأطفال امثل من ارباب اللحى والسبال ولقد قضيت مع استاذنا الامام الحكيم الطاهر فرصة من الدهر احاطت بعمر خمسة نهر بلياليها كان عالمنا في إصباحها وإمسائها يتلو على مسامعنا ما يقذف به واسع صدره من علم نافع نصوغه قلائد لاعناقنا شكراً لفضله مدى الزمن وكانت احاديثه علي وعلى من تكرم بزيارتي من اخوان الصفاء مغنية عن سلافة النديم مسلية عن نغمة العود والصوت الرخيم وكنت منها في مقام كريم بين روح وريحان وجنة نعيم . دمشق ٦ شوال ٣٢٢ و ٣ كانون الأول ٩٠٤

من رسالة :

أيها الحبيب

كتابي اليك عن سلامة وشوق عظيم وعتب طويل عريض . والغالب ان رواج سوق « المعايدات » وارتفاع كلمة « التشريفات » والظهور في مظاهر الابهات وتضييع الأوقات في التحيات والدعوات وكل ماتصرف على هذه القاعدة من الترهات قد حالت هذه الأيام بينك وبين كتابة سطور تبعث على الطمأنينة من ناحيتك . وعجيب من حال هذا الدهر في ابنائه

يريد لقاءنا من نكره لقاءه ومن نحلم بطيب لقائه تفتر نفسه اختياراً أو اضطراراً عن لقائنا وما أنت وأنا على كل حال الا كما قال الشريف الرضي لأبي اسحق الصابي .

لقد تمازج قلبانا كأنهما تراضعا بدم الاحشاء لا اللبن
انت الكرى مؤنساً عيني وبعضهم مثل القذى مانعاً عيني من الوسن

واني كلما فتشت قلبي فرأيت لك فيه الحب والوئام اضحك من عقول الرؤساء السخفاء ممن همهم تفريق ما بين اجزاء القلوب ومباعدة مدى التحام النفوس كأن بني آدم خلقوا ليتخالفوا لا ليتآلفوا . شنشنة قديمة اشتدت وطأتها بحكم الجهل وما أزال اغباشها غير نور العلم فأخذ الناس والمتعلمون منهم خاصة يرجعون إلى العصور الأولى في الاسلام ويقرأون في تاريخها دروساً نافعة من ائتلاف البشر على اختلاف الأديان والأجناس ، ألا حيّا الله زمناً كان خلفاء بني العباس يعاملون الرومي والسرياني واليهودي معاملة المسلم السني ، وهكذا الأمراء ومن تلاهم من سائر طبقات الناس كانوا يتعاملون معاملة الاكفاء مهما تباينوا في المعتقدات . اثبات المثبت كالكلام المفروغ منه أو كالحديث المعاد

وبعد فاني ما رأيتك وخطر ببالي انك مخالف لي في المذهب ، ومن غذي بماء واحد ونشق هواء واحداً وعلم علماً مشتركاً كان أقرب الى الاتصال ممن تخالفت بيئاتهم وتناءت أقطارهم وافكارهم وان الياباني العالم على وثنيته لأقرب الى قلبي من ذاك الذي لا تجمعني واياه غير كلمة الشهادة ويخالفني في مذهبي ومشربي وعقلي .

وقلت من كتاب له : فإن اقل مافينا من عيب اننا نعمل فيما لم نخلق له ونحاول النفع فيما فيه التلف .

كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نسجه في الانعكاس

انت وانا نعد من القوالين لا الفعالين ومن المضيعين لا الجامعين ومن الهادمين لا البانين . أنت وانا كمعظم ابناء المشرق نضيع بدراً من اجل دريهمات بل بيدراً من اجل حبات ونحتقر نهراً في سبيل قطرات ولا نحسب

حساب العمر حباً براحة ساعات ويعز علينا التخلي عما نحن فيه من الامور التافهات ولو ازلفنا من الباقيات الصالحات ، انت وانا في غفلة عما يراد بنا وعما اليه سائرون نحاول النفع من الضر والسعادة من الشقاء والغنى من الفقر والحياة من ميت والنهوض من مقعد والبصر من اعمى والسمع من اصم . انت وانا اليوم في الثلاثين من عمرنا قضينا اربعة اخماسه في الدرس وتربية النفس فأين ما قمنا به من عمل رافع . اضعنا انضر ايام الشباب في الاستعداد واستجماع القوى فاين ذاك الاستعداد وهاتيك القوى . لو كنا نقول بالتناسخ وان لنا عودة الى هذا العالم السفلي لكان لنا تعزية عما ضاع من فقد الاعمار ولا يرد الفائت الحزن . نعم ان ما نحن فيه باطل اذ العلم اس والعمل بناء والاس بلا بناء باطل . قال رجل لرجل يستكثر من العلم ولا يعمل : يا هذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل .

فعلام ان لم أشف نفساً حرة يا صاحبي اجيد حمل سلاحي

انت وانا اعتدنا ان ننقد ما لا ينطبق مع العقل ونؤاخذ على كل عمل لم تتخذ اسباب إجادته فهلا عدلنا عن هذه الحطة واشتغلنا بعيوب انفسنا عن النظر في حال غيرنا . انت وانا ليس من حقنا ان نعتب على الفلك او نسيء الظن بالقدر بعد ان ايقنا بان عزائمنا خارت وارادتنا ضعفت حتى اصبحنا نعد في غلاة القدرية او الجامدين الحشوية الجبرية ، فأين ما يورثنا المحمدة من الأعمال الصالحة ؟ هل نشرنا بين الملأ كتاباً او رسالة ينتفع به اهل جيلنا وقبيلنا ؟ هل أعددنا ناشئة تخرجوا بنا وتشربوا دعوتنا؟ هل خطبنا القوم خطبة قومت عوجاً وفتحت منهجاً . نبغ من مشاهير الساسة والعلماء في العالم من لم يبلغوا السن التي بلغناها فهلا كان لنا من سيرهم مهما زيستحثنا ودافع واعظ يزجرنا . فان كانت غايتنا من الحياة ان نستمتع بما يستمتع به سائر اصناف الحيوان فان معظم سكان الارض يفضلوننا من هذا الوجه وان كانت بغيتنا أن نؤثر اثراً ونحيي معلماً ونشيد مجداً فالطريق التي نحن آخذون فيها لا تؤدي الى المقصد ولا تنتج إلا الندامة والحسرة .كل يوم من ايامنا اليوم يوازى شهراً من ايامنا زمن الشيخوخة ، واعمارنا نهب أيدي

الدهر صائرة الى ذبول لا الى نمو فهنيئاً لنا إذا سعينا مذ اليوم الى اختيار الاحسن لنا في المغبة واغتنمنا الصحة قبل السقم والشباب قبل الهرم . هذا! واذا توكأت على ما يتوكأ عليه الجبناء والضعفاء من الحجج الواهية كدعوى فساد البيئة وقلة الاسباب فأقول لك كلمة اجعلها واجعلها انا نصب العين ودرس عبرة كل حين وهي اننا اذا عملنا والظروف كلها خادمة مواتية فاي فضل لنا ، بلى يتجلى عمل العامل اذا احسن التخلص وهو وسط المعمعة والخطر محدق به من كل جانب والاسباب تخونه وتسلمه . وعلى امـــل أن القاك اكتفي الآن بهذا القدر من خطابك والسلام عليك .

جسرين في ١٣ ربيع الاول سنة ٣٢٣

و أيار سنة ٩٠٥

مدرسة الجمال

سمعت في مصر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالسه الغاصة بالفوائد سنة احدى وتسعمائة والف ، وقد جرى ذكر رأس المصلحين في الاسلام السيد جمال الدين الافغاني أن الاستاذ الامام لاحظ يوم أن كانا في باريز أن صديقه وأستاذه يتغيب عنه كل يوم ساعتين في وقت معين ، وكانا من قبل يتصاحبان لا يفترقان ، فبحث عن سبب تغيبه فثبت عنده ان السيد يختلف الى بائعة زهور عليها مسحة من الجمال . قال فلم اجرأ لمكان السيد من نفسي أن أسأله عن سر هذه الزيارة المريبة ، فقلت لعل الشيخ أخذ يتصابى ، وهو الذي لم تعهد عليه صبوة وما حفظ عنه الا الجد في كل أموره . قال وما لبث هذا الشك في سيرة الشيخ ان انقشع وأصبح بعد ثلاثة اشهر يتكلم الفرنسية بطلاقة . وتبين ان ذوق

الافغاني العالي هو الذي الهمه ان يتخذ معلمته سيدة بارعة الجمال يحمل عنها لغتها بالعمل امام اصص الزهر وطاقات الورد والجو العطر ، وآثر جمال الدين ان يتصل بجمال الدنيا في اروح مدرسة للنفس .

طريقة جديدة في تلقف اللغات تنسي الدارس صعوبتها وتحفزه الى جمع قواه بامتاع حواسه . فعسى ان يجرب رجال التعليم في مصر والشام والعراق هذه الطريقة المبتكرة في تلقين اللغات فيكون للمصلح الافغاني الفضل على الشرق في حياته وبعد مماته .

اصباغ النساء

أُولع النساء منذ أزمان طويلة بصبغ وجوههن بأصباغ يعتقدن أنها تورثهن جمالاً . وكان الرجال في دولة الرومان كثيراً مايحذون حذو النساء ينتفون شعورهم ويحفون لحاهم وشواربهم ويصبغون وجوههم بالأبيض والأحمر والأصفر ويكحلون عيونهم ، يستعملون لذلك المواد المعروفة في تلك العصور ، ويصرف النساء والرجال وقتاً غير قليل في اعدادها وساعات في الطلي والتزيين .

وبالغ الغربيات في العهد الاخير بصبغ وجوههن بالأبيض والأحمر ثم عدن يبالغن بصبغ شفاههن بالحمرة ، وما لبث النساء الشرقيات ان نسجن على منوالهن وافرطن في اقتباس هذه العادة ، لما وَقَر في النفوس من أن الغربيات ارقى حضارة من الشرقيات ، والمنحط خليق بالأخذ من الراقي .

وما اكتفى الشرقيات بتحمير خدودهن وشفاههن بل اقتبسن من الغربيات عادة اطلاق اظافر أيديهن وطليها بالحمرة . وترقى فن التجميل عند النساء والرجال على ماهو المشهود في مسارح التمثيل ومشاهد الصور المتحركة . ونسي النساء ان تغيير الألوان الطبيعية قد يورث الجنس

اللطيف بشاعة ، والاصباغ على الجملة تضر البشرة وتغضن الجلد قبل الاوان والجمال فى السذاجة لافي التكلف .

وهـذه الاصباغ ومـــا يتبعها تؤذي الصحة وتؤذي الجيوب ايضاً لما ينفق فيها من اموال قد لاتبالي الدول الكبرى كبريطانيا العظمى والولايات المتحدة بانفاقها ، وهي اكثر الدول اسرافاً في الأزياء والاصباغ ، ذلك لان اكثر مايصرف عندهم يصنع في أرضهم ويعود ربحه على معاملهم أما الأمم الضعيفة فانها تتأذى من مثل هـذه النفقة لانها لاتحسن صنع الاصباغ ، ولا شيئاً من الازياء الحديثة ، وكلها أو اكثرها مما تجلبه من غير أرضها وتخرج اثمانه من ثروتهـــا .

كان الناس في الدهر الغابر اذا اراد سادتهم ان يبغضوا اليهم أمراً يسوقون رجال الدين لارشاد العامة الى خيرهم ، أما الآن فمن يتصدى للوعظ ، والفقهاء المشايخ في مقدمة من قبل نساؤهم هذه العادات الضارة لايختلفن عن أكثر الموغلات بالخضاب والتفنن بالأزياء ، يقدمن على ذلك راضيات حتى لايوصمن بأنهن عدوات المدنيـة .

حـدثني أكبر أعيان دمشق في جيله أن نساء احـد الفقهاء زارت أسرته في بعض الأيام التي كانت فيها الدعوة مشتدة في وجوب مقاطعة النساء الائتزار بالحبر والاستعاضة عنه بازر بيضاء ، فرأينهن يلبسن أحدث الازياء وكان صاحب بيتهن هو الداعيـة للبس الازار الابيض ، وجعل الاكتساء به من الدين ، حمله على الجهر بهذه الدعوة أنه كان في حانوته من هذه الازر مقدار عظيم أصيب بالكساد فرأى تزيين لبسه للنساء من طريق الدين ، وحث ازواجهن للعدول عن الحبر الاسود وغيره ، ولما أباع ماعنده خفت بل ضعفت الدعاية للبس الازار .

قلت لمن استغرب تشدد أهل نجـــد في استعمال التدخين ، وحظر مشايخهم عليهم من طريق المذهب استعمال الدخان على اختلاف أصنافه : لاتستغربوا صنيعهم هذا فان القوم هناك يدققون في تقدير دخلهم وخرجهم

ويدركون انهم اذا سمحوا بدخول الدخان أرضهم وهي فقيرة يخسرون كل سنة مبلغاً عظيماً من دخلهم ويجلبون الى ابنائهم مايفسد صحتهم وتفرغ به جيوبهم .

من المتعذر في الاقطار التي يغلب عليها اقتباس كل ماتراه جديداً (كمصر والشام والعراق) ان يرد النساء قانون مادام القائمون على التنفيذ اسبق الطبقات الى نقضه ، وما بلغ النساء عندنا درجة من العقل تؤهلهن الى ان ينبذن من تلقاء انفسهن مثل هذه البهرجات الضارة .

ومما يسر ماشهدناه في العهد الاخير من اخذ بعض العقائل والاوانس بالرجوع بعض الشيء عن الافراط في الزينة . وعدن بوازع من انفسهن يأخذن بعادة السذاجة في اللبـــاس ومنهن من يبدين أسفهن على قص ضفائرهن تشبهاً بالغربيات في جعل الضفيرة شبراً وكانت من قبل ذراعاً ، ابطلن الشعور المسترسلة على نحو مابطل صبغ باطن الكف والقـدمين بالحناء ، تنقش النقاشة النساء والصبيان والبنات كما يقص النساء اليوم شعورهن عند القصاصة ويفعلن ذلك احياناً في حوانيت الحلاقين والمزينين .

سخافة مؤرخ

شارل سنيوبوس من عظماء مؤرخي هذا القرن في فرنسا تعلم التاريخ وعلمه ستين سنة كما قال عن نفسه وما تحرر من لوثات التعصب الديني فقال ان رسول الله كان جباناً سوداوياً تنتابه عوارض من الحمى وتعروه نوبات عصبية ، كلام أقل مايقال فيه انه ضرب من الهذيان لايقول به من له ادنى مسكة من العقل .

اخذ سنيوبوس عمن تقدمه هذا الحكم السخيف على أعظم رجل قضية مسلمة ، ولم تحدثه نفسه ان ينظر فيما وصمه به اعداؤه نظر المؤرخ النقاد ، على حين كان في كتبه يميز بين الطيب والخبيث في أقل المسائل التاريخية ، وترجمة النبي الكريم ماستحقت ان ينظر فيها النظر المجرد عن الهوى ساعة . لاجرم ان رأيه في صاحب الرسالة من الآراء التي لقنها في صباه عن رهبان من الصعب ان ينصفوا خصمهم ، ومنهم اليسوعيون وغيرهم ، والناس كلهم ماخلقوا فلاسفة يستميتون في قول الحق .

الشعوب اللاتينية من أشد الشعوب الغربية تحاملاً على الاسلام ، واذا شهدتم من يحكم العقل من أبنائهم في آرائه فأيقنوا أنه من الشواذ ، وانه درس في غير مدرستهم ، وتثقف بغير ثقافتهم ، وفتح الله عليه باباً من الفهم فصان قلبه عن الكذب ، وبرهانه من الخلط . وقد فطن لحقيقة محمد عليه الصلاة والسلام كبار علماء الانكليز السكسونيين خاصة ، وألقموا أصحاب رومية حجراً وكذبوهم وسفهوهم .

حوليات مصر

لما استقبل صديقي الاستاذ علي عبدالرازق باشا في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة عضواً عاملاً خلفاً للدكتور علي ابراهيم باشا كان المعرف به أحد أعضاء المجمع رصيفي الاستاذ عبد الوهاب خلاف فقام يعدد نواحي ثقافته وذكر ماله من أياد بيضاء على الأدب واللغة واغفل ذكر ما كان آية نبوغه الا وهو تأليفه كتاب (الاسلام واصول الحكم) وهو الكتاب البديع الذي احدث ضجة في مصر وقرر العلماء من اجله اخراج الاستاذ عبد الرازق من سلكهم ، اغفل السيد الخلاف مايفخر به رصيفه وذكر له مايشاركه في معرفته كثيرون في مصر وما أتى المرحب بما أتى الا نزولاً على حكم السياسة ومراعاة لها . وعجيب ماحدث في الأول وما حدث في الآخر . فإذا كان حكم العلماء الرسميين على ابن عبدالرازق صحيحاً يوم صدر كتابه في الخلافة كيف ساغ اليوم أن ينتخب عضواً في أعظم مجمع مصري . تناقض مالنا الا السكوت عنه

تميز الفقير

قلت ذات مرة للاستاذ المازني تعال معي الى وزارة الصحة أعرفك الى صديقي الدكتور علي فؤاد (رحمه الله) فقد يقصدك من ترى من المروءة معالجة اسقامهم فيكون لك من الدكتور النطاسي خير معوان . فلما دخلنا على الطبيب الحبيب أوردت على مسامعه ما قلته للاستاذ المازني فقال : حقاً اني أحب الفقراء وقد جمعت من أموالهم مالاً قليلاً بارك الله لي به . وكان من عادتي اذا دعاني الأغنياء لأطبّهم أتمهل وأتلكأ حتى يكرروا طلبي مرتين وثلاثاً . وبهذه المناسبة أقص عليكم قصة وقعت لي لتعذروني في عطفي على الفقراء فقال : جاءتني امرأة تصحبها ابنتها وكانت هذه ذات مسحة من الجمال الريفي فقالت لي : ان ابنتها خلفت ولداً ، فاتسع على أثر الولادة مكان خروج الطفل بحيث لم تعد صالحة للرجال[1] وان زوجها عزم ان يتزوج من غيرها . قال فأخذت بمعالجة الجزء المنفهق بالطرق الطبية المعروفة ومنها التخييط ، حتى تاكدت الفتاة من نفسها ان ذاك الجزء من جسمها رجع الى سالف عهده ، وتقدمت أمها وقالت لي هاك ثلاثة جنيهات ، وهي كل ماقدرت ان أجمعه لك ، فرددت عليها دراهمها ، وقلت لها اصرفيها على ابنتك . والتفت الى الفتاة ممازحاً لها بقولي : نحن ياست مستعدون كلما انخرق ان نخيطه (وللتخييط معنيان المعنى المعروف والمعنى الآخر يعرفه العوام في مصر) فضحكت الام وابنتها وانصرفتا شاكرتين مغتبطتين

---

(١) وقعت لنا خلال هذه المذكرات بعض معان أو الفاظ لايقرنا على استعمالها بعض المتزمتين وما زلنا نستغرب انكارهم تدوين مثل هذه الامور ولا ينكرون ما ينشر كل يوم من القصص الغرامية الساقطة والصور المغرية الفاتنة في الصحف والمجلات والكتب كأن هذا الأدب الذي يسمونه الأدب المكشوف يغتفر اذا كان للفن وماهو بفن بل هو الفتنة بعينها

ونشبت الحرب العامة الاولى بعد حين ، وعز وجود الخبز ، لاتصل الايدي اليه الا ببطاقات وفي ذات صباح قيل لي ان بالباب رجلاً يسوق جملاً يريد مقابلتي ، وتقدم وعرفني بنفسه قائلاً انه زوج الفتاة التي اجريت لها العملية المعهودة ، فحاولت أن أظهر اني لا أعرفها فقال الريفي ان معروفك عظيم : وقيت الطفل الذي وضعته امرأتي من التشتت ، وصنت بيتي من الخراب ، ووفرت عليَّ مالاً كان لا مَعْدَى من صرفه في زواج ثان ، فارجوك أن تقبل هذه الهدية التي لا تفي ببعض أياديك عليَّ . فسألت الدكتور عن نوع الهدية فقال : كيسان من الحنطة وأوزة وخاروف وصفيحة سمن وصفيحة عسل ، واستخبرته عما كانت تساوي يومئذ ، وقدرت ثمنها ظناً بعشرين جنيهاً قال : كانت تساوي أكثر من ثلاثين . وعندها أقسمت له أن هذا المعروف الذي أسداه للريفية لو كان زوجها غنياً ما فكر فيه فضلاً عن أن يقابله عليه بمثله ، قال : لذلك أنا أحب الفقراء وأعطف عليهم ، وأعتقد فيهم الخير ، ثم سألته وهل كان صاحب الهدية موسراً ؟ قال أنا سألت هذا السؤال كان يملك بضعة فدادين فقط .

اليهود فى فلسطين

كتب إليّ هذا العام أحد المستعربين من علماء المشرقيات يقول :
والعجب العجاب في كل هذا أن وراء كل هذا التحاسد في الباطن (بين الدول الكبرى) اليد الطولى لليهود الذين انتشروا منذ الفي سنة في العالم الحضري مثل القمل في البدن الصحيح وتعلمون كيف ثاروا في القرون الاولى على الروم في فلسطين في الحرب التي حصلت في الخراب الثاني للقدس وكذا في القرون التالية والآن هم في ايامنا يملكون في اميركا الذهب والاعمال المالية وفي روسية هم رؤساء كثير من الاشغال العمومية وكذلك حالهم عندنا — وانتم تعرفون ما يقع في فلسطين — لا يجسر وزير ولا مدير جريدة أن يلوم يهودياً في أي عمل عمله وكذلك وراء البحر المحيط . ومن المعلوم ان اخلاق اليهود في الأكثر فاسدة وهذا الفساد يحمل عداوة لا رحمة فيها وهم يملكون الجرائد والسينما والمواخير وما يشبهها حتى في الصين والبرازيل يجلبون الآنسات من الاقطار كما كانوا يتجرون بالخصيان والجواري في القرون المتوسطة . ولو نظرنا فيما يكتب هذه الايام في جرائد بلادنا بشأن المساعدات للبلاد التي افتقرت في الحرب ، لرأينا أن وراء كل هذا الحرص على الربح الفاحش اذ ليس في قلوب الذين يقدمون هذه المساعدات حبة من كرم الاخلاق وما غايتهم إلا الربح الزائد ، وكل هذا يملأ قلبي باليأس من مستقبل الامم وأنا أحمد الله على أني رأيت في شبيبتي العصر الذهبي الذي لا رجاء لعوده الي ان أرجع الى حياة أصلح من هذه .

اللحى والشوارب

في سنة ١٨٩٨ زار الشام الامبراطور غليوم الثاني الالماني فأعجب شبابنا بهندامه وتبرجه وهالهم حفه شاربيه بحيث لم يبق من طرفيهما الا قليلًا غمرهما بعد فتلهما بدهن مطيب وما هي الا أيام حتى اقتدوا به في شواربهم وعدلوا عن السبلات المسترسلة وكانوا يمشطونها ويرطاونها كما يمشط اهل اللحى لحاهم ، وبطل زى الشوارب على ماقدر الله وقضاه .

كان الناس يبقون على اللحى في العادة وتعلموا على الأيام حلقها ، اقتبسوه من الأتراك والافرنج والى القرن الماضي كانوا يستفظعون حلقها . ولما جاء السلطان سليم الى مصر ليضمها الى ملكه كما ضم الشام عجب المصريون منه ومن جنده وضباطهم ، لانهم كانوا يحلقون لحاهم ، واللحى عندهم تمثل الحكمة والتعقل وعلى ذلك كان ينظر اليها عند الكلدان والاشوريين والعبرانيين وقدماء فلاسفة الهند ، ومشى على آثارهم فلاسفة اليونان والعرب في الاسلام .

في الحديث أنهكوا الشوارب واعفوا عن اللحى ، وفيه : خالفوا المشركين : وفروا اللحى واحفوا الشوارب . ولما بعث باذان عامل كسرى على اليمن الى النبي عليه السلام رجلين من قبله نظر اليهما وقد حلقا لحاهما وشواربهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا قالوا : ربنا ، يعنيان كسرى فقال لكن ربي امرني ان اعف عن لحيتي وأقص شاربي .

وما فتىء الحال في الشعوب الاسلامية والنصرانية والوثنية يختلف بين حف اللحى واطلاقها حتى عصرنا هذا ، وقد متع فيه كل انسان بحرية التصرف بلحيته يبقيها او يزيلها ، ومنهم من كان يقتصر على قبضة ومنهم من يبلغ الى قبضتين . ورأيت شيخاً من مشايخ الطرق أطلق لحيته حتى تجاوزت حد الحالبين وكان موضع استغراب النساء والاولاد يلغطون فيه ويسخرون كلما رأوه . وكنت اذا وقع نظري عليها اذكر

لحية ضياء الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٨٠) وكانت طويلة جداً بحيث تصل الى قدميه وما ينام الا وهي في كيس ، وكان اذا ركب يفرقها فرقتين . وكان عوام مصر اذا رأوه قالوا : سبحان الخالق . فكان يقول : عوام مصر مؤمنون حقاً انهم يستدلون بالصنعة على الصانع .

وبعد فالخطب سهل في لحى الرجال فما قولك اذا كانت للنساء لحى ولحى طويلة . كنت قرأت في صحيفة افرنسية ان النساء في بعض مقاطعات فرنسا ـ أنسيت اسم المقاطعة ـ تنبت لهن لحى كالرجال ، ورسمت صورهن وكانت اقصر قليلاً من لحية شيخ الطريقة ذاك . فتأمل امرأة بلحية تتجاوز القبضتين .

واللحى على الدهر عزيزة على من يطلقونها ، ومن شتم بلحيته فكأنما شتم بأعز عزيز عليه . فقد أراد بطرس الاكبر قيصر روسيا ان يكره شعبه على قص لحاهم فكاد يفقد عرشه ، ولما أمر أمان الله خان ملك الافغان بحلق لحى رعيته فقد عرشه ، وعدوا عمله تعدياً على شرفهم . وفي أدبنا أشياء في اللحى ومن أجمل ماقال ابن الرومي في هجو صاحب لحية

ان تطل لحية عليك وتعرض فالمعالي معروضة للحمير
علق الله في عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها الى لطارت في مهب الرياح كل مطير

الجمع بين الثقافات

قالوا ان كل لسان بانسان أي أن لكل لسان ثقافة تخالف من بعض وجوهها الثقافة الأخرى ، فاذا انضمت الثقافتان كان الكمال الذي يصعب الحصول عليه بلغة واحدة ، وانا اذا أمعنا النظر في تفكير من لم يتعلم غير لغته تجده مهما بلغ من أحكام الثقافة متى جئته بأمر يتوقف على معرفة شيء جديد موسّع النطاق حائراً يشعر هو بنقصه كما يشعر به مخاطبه كأن هناك عالماً ما دخل فيه وأرضاً غير أرضه ذات حواجز يتعذر عليه تخطيها .

جرت عادة أكثر شعوب اليوم أن تدرس من اللغات ما يعوزها وعلى هذا كان العالم منذ أقدم العصور ، وكان في الدراسة الماضية كثير من الفوضى وفي دراسات اليوم نظام وتنسيق ، فالهولاندي يدرس لعهدنا منذ الطفولة مع لغته الالمانية والانكليزية والفرنسية ، والروسي يدرس الالمانية والفرنسية ، والايطالي الالمانية والفرنسية ، والبولوني الروسية والالمانية والانكليزي الالمانية والفرنسية ، والفرنسي الانكليزية والالمانية وهكذا يأخذ كل شعب ما يعينه من اللغات على كسب رزقه وعلى مطالب أخرى ، وانتشار كل لغة على مقدار قوة سياستها واتساع تجارتها ورواج صناعاتها .

والأمة كيف كانت الحال لا تضرها قلة المتكلمين بلغتها بقدر ما يضرها جهلهم وتأخرهم ، فمن يتكلمون البرتقالية والاسبانية اوفر عدداً ممن يتكلمون الفرنسية ، والفرنسيس ارقى ممن يتكلمون لغتي جيرانهم في أوربا وجنوبي أميركا ، والسويديون والنروجيون والبلجيكيون والهولانديون والدانمركيون والسويسريون والفنلانديون أرقى من أمم يعد سكانها بمئات الملايين كالهنود والصينيين والاندنوسيين .

وعُني العرب منذ القديم بتلقف بعض لغات جيرانهم فمنهم من كان يتكلم الفارسية والسندية ، ومنهم من أختص بالرومية والتركية والنبطية والبربرية ، ومنهم من تكلم القشتالية واللاتينية وغيرهما من الالسن الرائجة ولما اقتطعت من جسم الهند العظيم في القديم أمارات اسلامية راجت فيها الفارسية والعربية ، ولما توطدت أركان مملكة فارس في العهد الحديث راجت الفارسية بين الشعوب التي خضعت لها من العرب والاكراد ، وكذلك شأن التركية مع العناصر التي اندمجت في الدولة العثمانية ، ولما انفصلت رومانيا واليونان وصربيا وبلغاريا والبانيا ثم بلاد العرب عن دولة آل عثمان نُسيت في تلك الممالك لغة الترك في مدة قصيرة ، لان التركية ليست لغة علم ولا سياسة ولا تجارة ، واكثر من كانوا يتكلمونها من العناصر الاخرى غير التركية كانوا يقصدون من تعلمها الدخول في الوظائف ، والموظفون فئة ضئيلة بالقياس الى مجموع كل عنصر . ولما تحضرت اليابان والهند بالحضارة الانكليزية راج في بلادهما اللسان الانكليزي ولما عهد الانتداب في العراق وفلسطين وشرقي الاردن الى انكلترا راجت فيها اللغة الانكليزية ، ولما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان زادت فيهما العناية باللغة الفرنسية حتى اذا انقضت أيامه أخذت الانكليزية تحل محلها لانها أنفع للشاميين في تجارتهم وعلائقهم مع اميركا وانكلترا والشرق الاقصى واوستراليا وكندا وجنوبي افريقية ، وبقيت الفارسية والتركية في العراق والشام مقصوراً استعمالها على أفراد وعدد من تعلموهما ينزل سنة عن سنة في القطرين العربيين .

ولا مناص لكل امة صغيرة كانت أو كبيرة من تعلم لغتين على الاقل ، ومن الأمم الصغرى في الغرب من يتكلم بنوها ثلاث لغات فاكثر ويسهل عليهم تلقف لغات غير لغاتهم لما اهتدوا اليه من الاساليب السهلة في التعليم فيخرج الطالب في أشهر قليلة بما يلزمه للتفاهم باللغة التي تعلمها وقد يصرف سنتين أو ثلاثاً فيتقنها بما يقرب من اتقان أهلها ويحكمها كل الاحكام اذا كتب له ان يختلط باهلها زمناً .

ومن المجمع عليه في الغرب ان البولونيين كالشاميين من الشعوب التي تتقن لغات شتى لان لسانهم مجهز بالنبرات اللازمة ، ومخارج الصوت تامة عندهم ومن السهل اتقان لغة اصولها واحدة مع لغة اخرى كالهولاندية مع الالمانية والفرنسية مع الايطالية والاسبانية مع البرتقالية والسويدية مع النروجية والبلغارية مع الصربية . والانكليز والفرنسيس أقل الامم تعلماً للغات ويتعذر عليهم النطق الصحيح بلغة اجنبية خلافاً للالمان والطليان .

يتساهل العرب لعهدنا باتقان لغة الفرس كما تساهل الفرس باتقان لغة العرب منذ القرن الثامن من الهجرة وتاريخ الفرس والعرب متلازمان ، وعسى ان تزيد العناية بتلقين هاتين اللغتين في الجامعات العربية : (الاسكندرية ، القاهرة ، دمشق ، بيروت ، بغداد) كما يعنى بتدريس الاسبانية والبرتقالية حرصاً على الروابط القديمة والحديثة بين الشعوب العربية والفارسية ، والعرب والشعوب البرتقالية والاسبانية .

يقول مهاتما غاندي ، ليست دراسة منظمة للثقافات الآسياوية باقل وجوباً في اكتساب التربية الكاملة من دراسة علوم الغرب ، فينبغي أن نبحث عما في السنسكريتية والعربية والفارسية والبالية والماجادية من كنوز ثمينة لنظفر باسرار السؤدد الوطني ، يجب ان نبني ثقافة جديدة على ثقافات الماضي التي نمت واثرت باختبارات العصور وتكون هذه الثقافة مركباً من مختلف الحضارات التي فعلت بالهند وانفعلت بروح الاقليم ولا يصنع هذا المزيج على النمط الاميركي والثقافة المسيطرة في اميركا استغرقت كل ما عداها وقضت عليه ولكل ثقافة حقها ومكانتها والقصد هو التآلف والوفاق لا اصطناع وحدة عنوة وجبراً اه .

العيار العالي

يحكم على عظمة امة بوفرة من نبغ فيها من العيار العالي في العلوم والآداب والسياسة . وقبل هذه النهضة العربية لم يكن في اقطارنا من هذا العيار إلا افراد قلائل في كل قطر وزاد العدد على قدر امعان العرب في الاخذ من علوم الغرب . فنبا أبناء مصر من العيار العالي لسبقها غيرها الى تلقف العلم الحديث ، وقبل النهضة المصرية الأخيرة كان يندر ظهور العيار العالي في المصريين كما يندر في غيرهم .

العيار العالي في القطر المصري يظهر القرن بعد القرن وعيارهم عال بالقياس الى زمنهم لا بالقياس الى هذا الزمن . كان الحال في مصر على ذلك منذ عهد الفراعنة فالرومان فاليونان فالعرب وما عرف منهم الا من خلفوا آثاراً عملية في الهندسة والتشريع .

وعدوا من رجال العيار العالي في الاسلام من اتقنوا علوم الشريعة وما اليها . وما عهد ان زاد عدد رجال الفكر والعلوم المادية في قطر من الاقطار العربية بقدر ما كان يزيد عدد رجال الدين ، وكان من يتعلم علماً غير ديني فبدافع شخصي وبعامل من العوامل التي تخرج الرجال رغم ارادتهم احياناً . وما كل من اشتهروا هم اهل للشهرة وما كل من خملت اسماؤهم لايستحقون من المكانة اكثر مما وصلوا اليه .

قد ينبغ في بعض الأعصار والاقطار رجال احرياء ان تقرن اسماؤهم الى اسماء العظماء وامتاز من سميناهم النبغاء في مصر من كانوا رجال عمل على الأكثر يظهرون بالمظهر الذي يجب ان يظهروا فيه وفي الزمن الذي تحتاج مصر الى ظهورهم وقد اشتهر في وادي النيل زمرة تعد مفخرة في الفلك والطب والجراحة والقضاء والهندسة وكان اشتهار بعضهم باتقانهم معرفة السلوك الى طريق الشهرة ، ومنهم من شهرتهم احوال خاصة ،

ومنهم من دانوا بشهرتهم للسياسة ، ومنهم من انقص اشتغالهم بالسياسة من مكانتهم العلمية .

وكان معظم من ذهبوا بفضل الشهرة في مصر لعهدنا من رجال المحاماة ربحوا من مهنتهم هذه ارباحاً عظيمة واغتنوا ، ومن اغتنى كان على جانب من ثقوب الذهن وسعة الحيلة جاء منه العيار العالي ، ومن اعتاد حل المعضلات قوي عقله ، وفي المران على الخطابة مايساعد صاحبها على التأثير في نفوس العامة ، وكان من هذه الطريق يصل رجال المحاماة الى دكات النيابة ومقاعد الحكم بما لا يكتب مثله لمهندس ولا لطبيب ولا لزراعي وصناعة هؤلاء عملية وتستلزم صمتاً وتلك تقوم بالبلاغة والتحيل لاسقاط حجة الخصم . ومن الاعلام من كانوا على صفات عظيمة تؤهلهم للتأليف والبحث في فنهم فحالت مناصبهم دون نشر ماجمعوه في عملهم من تجارب . ومنهم من اذا اجتمعت اليهم سمعت من احاديثهم مالا تقرأ مثله في اعظم التآليف امتاعاً ، يملون عليك في ساعة ما لا تقع على مثله في المؤلفات المنقحة . وليس اصحاب هذه الطبقة التي يبهرك استحضارهم وبديهتهم اذا تكلموا أقل عدداً من الفئة التي دعتها الحاجة الى التأليف والتصنيف وتمحضت له بحكم عملها

خطر في بالي وأنا أكتب هذا عشرات من الرجال في مصر خاصة لو انهمكوا في ابراز تجاربهم لاغنوا الخزانة العربية ببنات افكارهم واغنونا عن الرجوع الى كتب الغربيين في معظم مايهمنا الجولان فيه . ولا اقول ان المال والجاه شغلا هؤلاء الجماعة عن كل أمر آخر شطراً كبيراً من حياتهم فتلكؤا في وضع مايجب عليهم اصداره بل أقول ان الاقدار تصرفت بقرائحهم هذا التصرف فجاء منهم ماشاء القدر لا ما شاؤا هم وشاءت أمتهم منهم ، فضاعت بعض الفائدة المرجوة من نبوغهم ، ولو تعلقت القدرة بانفاق جانب من عنايتهم بكبت مااهتدوا اليه من اسرار لكان منهم النفع للعلم وللمجتمع العربي .

لايتسع عمر المرء حتى يأتي منه الكمال المطلق في رعيل الرجال

النابغين مادامت الطبيعة تقوي في الانسان بعض الملكات وتضعف فيه اخرى على ما لا يتعلق به اختياره . وقد تعد في قرن من القرون في مملكة كبرى مئة من النوابغ في الفنون المختلفة لايشتهرون كلهم شهرة يسلم لهم بها معاصروهم ، فهل هم كذلك يارى ، ام العناية لاحظت عيونها بعضهم فقدمتهم وغفلت عن بعضهم فأخرتهم ولا يتفوق الاول عن الثاني الا بسبب من اسباب الاشتهار ، ويمتاز المشهور عن المغمور بأمر لاتدركه الأبصار ولا يضبطه حساب ولا يدخل في قياس .

كلما اردنا التنظير بين رجال العيار العالي من العرب وامثالهم من امم الافرنج تتضح لنا صعوبة التشبيه كما يصعب الجمع بين نقيضين فما نعده مزية نادرة في نابغتهم قد لايكون مايماثله في نابغتنا . وما ندري هل يعود قسم من هذا التمييز الى ان العلم تسلسل في الافرنج على ما لم يتسلسل في العرب . والعلوم التي عانتها الأمم الحديثة غير التي مارسها العرب . وقد لايتشابه علم وعلم كما لايتشابه أدب وأدب ، وعلى كل منها يطلق اسم العلم واسم الأدب . واذا رجحت كفة علوم الدنيا في الأمم الغربية وكان للعلوم الدينية في العرب الشأن الاول ابداً أخذت الأولى باسباب الرقي وتدنت الثانية بما اكتفت به من اساليب لم ترفع من عقول بنيها ، ثم أصابها التدني ايضاً في الذي ماحرصت على حفظ غيره وكان انحطاطها في الشق الآخر داعياً الى انحطاطها الانحطاط الشامل .

وفي العصور التي تمزق فيها ملكنا وانقسم الى امارات ودويلات لم يبق لنا مركز مهم يفزع اليه أرباب العقل بل ان المراكز التي نفاخر الآن بنهوضها كالقاهرة ودمشق وبغداد كادت تصبح كالقرى ، وفي القرى لايرجى ان يبث العلماء دعوتهم ولا يجدون فيها من يحميهم ولا من يقدر عملهم قدره .

ليت لنا طرف زرقاء اليمامة لنبصر ماستكون عليه ديار العرب بعد جيلين أو ثلاثة ، ايكثر النوابغ منا على مثال مانرى من العيار العالي عند الافرنج يخلدون باعمالهم العظيمة لابالقياس الى ثروة امتهم وكثرة سكانها ، ام ينقلب العلم كله عملياً لاشأن فيه لغيره من المطالب .

رحلة الى المدينة المنورة (١)

البلقاء

على نحو مائتين وأربعين كيلومتراً من جنوبي دمشق بين نهر الاردن غرباً وزملة العليا في طريق الحج شرقاً ونهر الزرقاء شمالاً ووادي الموجب جنوباً اقليم واسع خصيب سهلي جبلي اسمه البلقاء طوله من الشمال إلى الجنوب ١٨ ساعة للفارس المجد وعرضه من الغرب إلى الشرق ١٦ ساعة أو نحو مئة كيلومتر في مئة كيلومتر ، وقد حد القدماء اقليم البلقاء بانه بين الشام ووادي القرى وقالوا أن فيه مدناً عظمى كثيرة وأن قاعدته عَمّان وقيل إن السلط اوالصلت هي راموت جلعاد احدى مدن الملجأ ومدن اللاويين المذكورة في الكتاب المقدس وربما اشتق اسمها الحاضر الصلت من لفظة لاتينية « سالتوس » ومعناها الجبال المشجرة وكانت فيما مضى مدينة أسقفية في العهد المسيحي وقد دك المغول قلعتها ثم أعاد بناءها الظاهر بيبرس البندقداري .

والصلت على منحدر بين جبلين متناوحين أشبه بمدينة زحلة في لبنان وكانت خالية من الحدائق والبساتين فتوفرت همة أهلها على استثمار الأشجار والبقول فجاد أكثرها بما عندهم من العيون التي تروي زروع الوادي اما ماكان وراء المدينة من التلعات والآكام فقد كان حراجاً إلى عهد قريب وآثار بعض سنديانه وملوله مابرحت ماثلة للعيان ولكن القوم قطعوها واستعاضوا عنها بزراعة الكروم التي يعد عنبها وزبيبها اجل ماتحمله هذه الشجرة المباركة في سورية وقد يكون العنقود الواحد رطلاً شامياً وأكثره بلا بزر . يصدر من زبيبه ما تقدر قيمته كل سنة بنحو خمسة عشر الف ليرة

---

(١) في هذا الفصل زبدة ما كتبته يوم رحلت الى المدينة قبل نحو أربعين سنة .

وفي جوار الصلت قليل من شجر الزيتون سألنا احد شيوخهم عن السبب الذي دعا الى عدم استكثار القوم من غرسه فقال لاتذكرنا بغباوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين احد متصرفي نابلس ايام كان قضاؤنا تابعاً لنابلس على ان نغرس في هذه الاودية التي تراها مائة الف زيتونة فوقع في انفسنا ان في الامر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل اراضينا على صورة لانعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالامر في الظاهر وغرسنا الوفاً من شجر الزيتون ، ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد ؟ كان احدنا يجيء ليلاً الى غرسة الزيتون فيحركها حتى لاينمو جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون الا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ماهو . قلنا وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالامس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار ويزينون لهم اقتناء الأراضي للزراعة واليوم يطلب الاهلون في هذا القضاء وفي غيره الأراضي الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم وكذلك الحال في كل مكان نزلناه في طريق يثرب فان الاهلين احسوا بفوائد الأرض هكذا رأينا اهل الشراة من أعمال الطفيلة ومعان وهكذا سمعنا شكوى اهل الكرك وتبوك ومدائن صالح ، اجمع على طلب ذلك الحاضر والبادي وفي قانون الأراضي ان كل من يحي أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والدساكر مقدار مايسمع الصوت فهي له .

قرأنا سطور الهمة والنشاط في وجوه الصلتيين مسلميهم ومسيحييهم وان كانت القاعدة في سورية على الاغلب ان يكون المسيحيون أكثر نشاطاً وتعلماً من اخوانهم في الوطنية . وبلدهم هذا ساعدته الطبيعية فساعدها اهله أيضاً ودخل في طور العمران ويوشك أن يعد في جملة العظيمات من المدائن والبلدان .

وسكان مدينة الصلت اليوم (يوم زرناها) نحو ١٦ الف نسمة يبلغ المسيحيون منهم على اختلاف الطوائف نحو اربعة آلاف ومعظمهم الى

اليوم يلبسون زيا كزي أهل حوران وهو كوفية وعقال وعباءة وجزمة حمراء وعادات القوم هنا أشبه بعادات البادية مع أنهم حضر . وفي الصلت قليل من الصناعة وتجارتها واسعة مع القبائل النازلة في البلقاء والرحالة في تلك الارجاء . وبين عمان على الخط الحجـــازي والصلت نحو خمسة وعشرين كيلومـتراً جعل بعضه من جهة الصلت طريقـاً معبداً ومتى أكمل تسافر العربات والسيارات بين الصلت والخط الحديدي في ساعتين وهي الآن أربع ساعات على الدواب واذا تم اتصال الصلت بالقـدس بطريق معبدة تسير عليها المركبات أيضا تعمر الصلت عمراناً مهماً وهي على بعد ٤٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من بيت المقـدس و ٤٠ ميلاً الى الجنوب الشرقي من نابلس ونحو ١٨ ميلاً شرقي الاردن

ومن سوء حظ هـذا القضاءان معدن الفوسفات الذي نال امتيازاً بتعدينه من جبل السرو في منتصف الطريق بين عمان والصلت المهندس نظيف الخالدي المقدسي على ان ينشيء فرعاً بالخط الحديدي من الصلت الى عمان يتصل بالسكة الحجازية ومرفأ حيفا — من سوء الحظ ان قد حسبوا نفقاته فوجدوها لاتفي بها وارداته ولعل الحكومة تتساهل بعض الشيء في شروطها لتقوى عزيمة تلك الشركة على استثمار هذا المعدن من قضاء الصلت فيتسنى لها أو لشركة أخرى تعدين سائر المعادن التي حبتها بها الفطرة .

على نحو ساعة من قصبة الصلت منظر من أجمـل مناظر سورية ونعني به جبل يوشع الواقع على علو ١٠٩٦ متراً عن سطح البحر وهو مشرف على جزء عظيم من فلسطين يمتد أمامك وادي الاردن كأنه بساط ذو الوان كثيرة ومن خـلال ذلك نهر الأردن تراه كالحية بتلويه حتى يصل الى البحر الميت أو بحـيرة لوط . ومن النبي يوشع تشاهد جبل الزيتون في الشمال الغربي ويقابلك جبل عيبال وجرزيم ثم جبل الطور وما يناوحه من الجبال المحيطة ببحيرة طبرية ومن بعيد جبل الشيخ وبه تنتهي هذه المنظرة من الشمال

ويقول العارفون من الافرنج ان الاعتقاد بالنبي يوشع الذي يذبح له البدو ويتقربون اليه هو من التقاليد الاسرائيلية القديمة وان بناء قبره يرد الى زهاء ثلثمائة سنة . وليوشع مقام أيضاً في جبل نابلس قرب قرية حارث . وجبل يوشع في البلقاء أشبه « بيوشع تبسى » أي ذروة يوشع في قرية بكوز المطلة على بحر مرمرة وخليج القسطنطينية . هذا منظره بحري وذاك منظره بري . ومن غريب التقاليد ان البدوي يحلف بالله ولكنه لايحلف بشعيب . ومقام شعيب على ساعتين من الصلت أيضاً .

كانت عمان قصبة البلقاء فانحطت في أواخر القرن الماضي بما تواتر عليها من الزلازل وغارات البادية حتى جلا عنها بقايا سكانها الاصليين فانزلت فيها الحكومة ستمائة أسرة من الجركس من عشائر مختلفة هاجروا الى البلاد العثمانية من ولاية كوبان الروسية وأخذوا يردون غارات البادية واعتمدوا في عمرانها على مضائهم وشجاعتهم وبنوا على انقاض مدينة ضخمة قرية لهم وساعدتهم مياه نهر الزرقاء فغرسوا الاشجار وأنشأوا الحدائق وأتوا بطريقتهم المألوفة لهم في الزراعة ببلادهم وقد هلك منهم أناس كثيرون بالفتن والامراض حتى توطدت اقدامهم واغتنوا واصبحت الحكومة بعد أن كانت تأخذ من عمان مئة ريال في السنة تتقاضى نحو ثلاثة آلاف ليرة ولا تلبث أن تزيد بزيادة عمران عمان واتساع تجارتها على أيدي النشيطين من النابلسيين والدمشقيين ومعظم تجارة البلقاء في أيديهم اليوم .

نقول انها كانت مدينة عظيمة والدليل ان انقاض دار تمثيلها كبيرة جداً تكفي لجلوس ثلاثة آلاف نسمة وفي مسرحها ٤٥ صفاً على شكل نصف دائرة وفيها آثار قلعة مهمة ومعظم بيوتها بنيت باحجار المدينة القديمة وكذلك قرية رأس عمان الحديثة الواقعة على قيد غاوة من عمان الحديثة وسكانها جراكسة ايضاً .

لاجرم أن الجركس ادخلوا روحاً جديداً الى هذا القضاء من التوفر على الزراعة والنشاط المستمر وان الاهلين تعلموا منهم بعض الشيء الأن عمال الحكومة أساءوا الاستعمال فسلبوا ما كان للاهلين من الاراضي

والمزارع العامرة ليعطوها المهاجرين الجركس والششن والتركمان كما فعلوا بعين صويلح وعيون الحمر وكانتا مسجلتين باسم أصحابها فاعطتهما الحكومة للمهاجرين وأخذ المهاجرون الناعور ووادي السير والزرقاء والرصيفة وغيرها. صبر الناس على هذا الجور زمناً حتى صحت عزيمة بعض عشيرتي الخرشان والجبور على أن يزرعوا الموقر والعليا والنقيرة وهي على نحو ثلاث ساعات من شرقي معان يسير في اراضيها الراكب عشر ساعات كما ان بعض الصلتيين يزرعون اليوم في سهل الكبد في الغور وهذا السهل جيد التربة جداً لا حجر فيه ولا مدر ولو احبت الحكومة احياء الموات حقيقة لأوعزت للاهلين ان يحيوا اراضي الموقر والعليا كلها فان فيها زهاء الف بئر معطلة تحيا بعناية قليلة.

وأعظم عشائر هذا القضاء بنو صخر وهم يتنقلون بين الغور في الشتاء وأراضي البلقاء العالية في الربيع وفي الصيف يتوفرون على حصاد الارضين التي لهم في جهات الزيزاء ومادبا وهما مديريتان تابعتان للصلت، كما أن عمان مديرية تابعة لها أيضاً، ونفوس قضاء الصلت المحررة ٤٢ الفاً ولو أحصي بنو حسن وبنو صخر والبادية لبلغ سكانه مئة الف أويزيدون ولو ارتفع فيه علم الامن كما يجب وأعطيت الارض الموات للاهلين وسجلت عليهم بحيث لا ينازعهم فيها منازع لأن أكثر المنازعات تثور على الاراضي - لبلغ سكان هذا القضاء نصف مليون نسمة بعد عشرسنين.

وأهم العاديات التاريخية في هذا القضاء قصبة مادبا فقد كانت كاحدى الحرب منذ نحو ستين سنة فهاجر اليها جماعة من مسيحي الكرك أعطتهم الحكومة اياها خربة فعمروها فما هو الا أن وجدوا فيها آثاراً مهمة مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على الجانبين وبينا كانوا يحفرون في انقاض الكنيسة ليقيموا كنيسة جديدة عثروا سنة ١٨٩٧ على قطعة من الفسيفساء في الصحن فرفعوا عنها المعاول وأزالوا ما كان علق عليها بتوالي

الايام من التراب والاحجار فاذا هو أثر عظيم من آثار القدماء ، هو مصوّر فلسطين وما فيها من المعاهد المقدسة والكنائس ولو سلمت كلها من معاول الذين حفروها لبلغ ثمنها المليونين والثلاثة من الليرات ولكن القطعة الصالحة الباقية منها تدل على تلك المدنية القديمة التي تمتعت بها مادبا قديماً منذ عهد الاسرائيليين الى الموآبيين الى العرب النبطيين الى المكابيين وكانت في عهد هؤلاء قلعة مهمة واستولى عليها هيركان ملك اليهود قبل المسيح وأصبحت على عهد الرومانيين جزءاً من بترا أو العربية الصخرية ، وآثار الفسيفساء كثيرة في هذه القرية رأينا بعضها في الدور الخاصة تلمع فتأخذ بالابصار ، أما أنقاض دورها ومعابدها وأحواض مياهها فحدث عنها ولا حرج وقد دخل اهلها في المدنية اليوم وليس بين سكانها أناس من المسلمين الا بعض باعة وحرائين .

قال ابن خرداذبة ان ظاهر البلقاء كان كورة من كور دمشق كما ان جبل الغور وكورة مآب وكورة جبال وكورة الشراة وكورة عمان كانت كل منها اقليماً برأسه قال الشاعر :

سلم على دمن أقوت بعمان واستنطق الربع هل يرجع بتبيان

قال يا قوت ان مدينة جرش هي شرقي جبل السواد من ارض البلقاء وعرّف السواد بانها نواح قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها وفي أرض البلقاء عدة بلاد ورد لها ذكر في التاريخ العربي ، مثل قرية جادية التي ينسب اليها الجادي وهو الزعفران ، وقرية مؤتة من المشارف التي كانت بها تطبع السيوف المشرقية ، والموقر الذي كان ينزله يزيد بن عبد الملك قال كثير :

سقى الله حياً بالموقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات المحارب

والقسطل نزله الوليد بن يزيد وهو قرب البلقاء وخلفه فيه عمه العباس وكان الوليد يستوطن الزيزاء ، وفي البلقاء قصر الأزرق ، والفُدَيْن قريب من حصن الازرق والفدين قيل انه من عمل حوران ومعظم الروايات على أنه من عمل البلقاء .

العمران والسكة الحجازية

ان كان لدور الاستبداد حسنة فاعظم حسناته سكة حديد الحجاز التي مدت في عهد المخلوع وبتزيين قرينه أحمد عزت باشا العابد وانتهى منها حتى الآن القسم الاعظم من دمشق الى المدينة المنورة وطوله ١٣٠٣ كيلو مترات ومن حيفا الى درعا ١٦١ كيلومتراً فانفق عليها فيما بلغنا ثلاثة ملايين ليرة ونصف مليون صرف قسم مهم منها في مدينة دمشق فانتفع منه الملتزمون والتجار والزراع والعملة وبعض أرباب الصناعات والفنون وانفق القسم الأعظم في ثمن أدوات وقاطرات ومركبات وحديد من معامل اوربا

وما كاد ينتهي الخط الى المدينة حتى نهضت البلاد بعض الشيء ولاسيما دمشق والمدينة وحيفا نهضة اقتصادية لايستهان بها وحسن حال التاجر والمزارع وسارت الامور الاقتصادية على نسق مرتب معقول فلم يعد في التجارة ذاك الكساد الذي نعهده في دمشق ولا التقهقر الذي كان في حيفا ولا الغلاء الفاحش في أسعار المدينة وهكذا انتفعت المحطات على طول الخط من دمشق الى المدينة وعددها ٧٥ محطة ومحطات حيفا ودرعا وعددها ١٥ فأخذت كل محطة بقدر حظها من العمران وانتفع منها في الأكثر ما كان له أثر قديم في الارتقاء

نعم ان من المحطات ما لاينبت فيه شيء بحسب الظاهر ولا تمطره السماء الا ساعات غير معلومة في السنة ولاسيما بعد أرض البلقاء وهواؤها جاف حار محرق وعمرانها متوقف على عمل كثير طويل ومال غزير فامثال هذه المحطات تترك الآن وينشط كل من يود اعتمار الأرض الموات قرب المحطات وانشاء دور وحوانيت فيها ولو فعلت الحكومة لاستغنت مع الزمن عن حراسة هذا الخط بكتائب من الجنود ترابط على طول السكة واقامة اثنتى عشرة قلعة من الهدية الى المدينة وهي اليوم تجعل في كل قطار يسافر من بعدلواء حوران الى المدينة جملة من الجند النظامي المسلح لحماية الركاب من عبث البادية اذا حدث حادث

نقول عيث البادية ولو أعملت الحكومة الفكر منذ اليوم الذي نوت فيه تمديد هذا الخط الحربي الديني التجاري لأوسعت لهم من تلك السهول الخصيبة في لواء الكرك ما كانوا استغنوا بزراعته عن شن الغارات وايذاء السابلة طمعاً في اقتناص ما يتبلغون به ولتوفروا على تربية مواشيهم وزروعهم كما يتوفر اليوم بنوحسن في قضاء عجلون وبنوصخر في قضاء الصلت والحويطات في معان والمجالي والضمور والطراونة في الكرك وغيرهم في غيرها وكل هؤلاء من العرب الرحل يتأنسون بقدر مايدخل النور على أولادهم ويستمرؤن ارباح الزراعة والماشية ولاشك انهم يعدلون بتة عن الغارة كلما أسكنت الاصقاع التي في جوارهم وخف الاعتداء عليهم .

بعض اعمال الكرك

قال الظاهري واما المملكة الكركية فليست هي من الشأم وهي مملكة بمفردها وتسمى مآب وهي مدينة حصينة معقل من معاقل الاسلام بها قلعة ليس لها نظير في الاسلام ولا في الكفر تسمى حصن الغراب لم تكن فتحت عنوة قط وانما فتحها المرحوم صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد فتح القدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكانت بيد البرنس ارنلط وكان يتعرض الى حجاج بيت الله الحرام . وقال ان الشوبك كانت مدة بيد الافرنج وهي مضافة الى الكرك وحصينة أيضاً ومسيرة معاملة الكرك من العلى الى الزيزاء مقدار عشرين يوماً بسير الابل وهي بلاد عدية بها قرى كثيرة ومعاملات والمسالك اليها صعب في منقطعات قليلة الماء حتى انه اذا وقف أحد على درب من دروبها يمنع مائة فارس اه .

بلدان في لواء الكرك طالما سمعنا بهما وهما قصبة الكرك وقصبة الصلت فالأولى كنا نتوهمها أهم مما رأيناها والثانية رأيناها أهم مما سمعنا به من وصفها . وأذرح خربة لاساكن فيها وكانت من المدن العامرة قبل الاسلام وبعده . وذكر المقدسي انها مدينة متطرفة حجازية شامية وعندهم بردة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعهده وهو مكتوب في أديم وبذلك

يستدل انها كانت عامرة في القرن الخامس للهجرة بل عامرة الى عهد قريب وكانت هى ومآب مدينتي الشراة

وأرض الشراة من الشوبك الى رأس النقب كما يحددها الاهلون اليوم أي مسيرة يوم طولا وعرضها ساعتان وهي الأرض المفلوحة مؤلفة من تلعات وأودية وفيها عيون غزيرة لاتقل عن أربعين عيناً لاينتفع باكثرها وقسم منها الآن في عمل قضاء الطفيلة والآخر في قضاء معان وعلى جنوب الشراة بلاد طيء أو جبال طيء وهي الحد الجنوبي لسورية كما عرفها العرب قال حاتم الطائي وقد اغارت طيّ على ابل للحارث بن عمرو وقتلوا ابناً له :

الا انني قد هاجني الليلة الذكر ... وما ذاك من حب النساء ولاالاشر
ولكنني مما أصاب عشيرتي ... وقومي باقران حواليهم الصير
ليالي نمسي بين جوز ومسطح ... نشاوى لنا من كل سائمة جزر
فياليت خير الناس حياً وميتاً ... يقول لنا خيراً ويمضي الذي ائتمر
فان كان شر فالعزاء فاننا ... على وقعات الدهر من قبلها صبر
سقى الله رب الناس سحا وديمة ... جنوب الشراة من مآب الى زغر
بلاد امريء لايعرف الذم بيته ... له المشرب الصافي وليس له الكدر

وفي أذرح عين ماء غزيرة فوق أراض واسعة يمكن تشجيرها كلها ولها قلعة لاتحتاج الا الى ترميم خفيف وهي على أربع ساعات الى الغرب الشمالي من معان وعلى ثلاث ساعات من وادي موسى . وانقاض دورها وعقودها وعمدها موجودة لاتحتاج الا الى بنائين فتكون مدينة تامة الادوات في بضعة أسابيع وفيها اليوم انقاض ثلاثة طواحين

تنقبض النفس من الكرك على جمال طبيعتها وهي تطل من جهاتها الاربع على مناظر لطيفة ومنها البحر الميت ووادي الاردن الى أعالي جبال أريحا وذلك لأنها كانت في معظم أدوارها التاريخية ظالمة مظلومة واشتهر أهلها بحب الغارة على عهد الاسرائيليين والموآبيين وحاربها شاول وداود وقاومت قلعتها حوارم وملك اليهودية فرجعا عنها مدحورين واضمحل

الموآبيون في القرن الثاني قبل المسيح واصبحت الكرك مفتاح تلك البلاد على عهد الصليبيين واستولى عليها رنودي شاتليون الذي يسميه مؤرخو العرب البرنس ارنلط وذلك لانها حاكمة على طرق قوافل مصر وبلاد العرب القادمة الى الشام ولذلك حاربها صلاح الدين يوسف بن أيوب حرباً عواناً وأقام الايوبيون فيها وحصنوها وما زال ملوك مصر والشام يحاصرونها ويقتتلون واهلها عليها وآخر أعمال الكركيين ذبحهم عسكر ابراهيم باشا المصري ثم فتنتهم الاخيره المشؤمة . ويبلغ المسيحيون في الكرك نحو أربعة آلاف نسمة أكثرهم روم وفيهم لاتين وقليل من البرتستانت وفيها مدارس حقيرة لذكورهم وأناثهم ولئن كان المسيحيون اليوم على مستوى جيرانهم المسلمين وكانوا نحو ١٥ الفاً قبل الحوادث الأخيرة أو ارقى بقليل في المدنية فسيكون مستقبل هذه البلاد لهم .

ولم تبق الفتن من العاديات القديمة مايذكر في هذه المدينة اللهم الا انقاض دائرة وجميع هذه الديار كانت عامرة وهي اليوم مأوى الغراب وناهيك بأن اللجون الواقعة على ساعتين من الكرك كانت بحسب مارأينا من انقاض ارتجتها الضخمة من المدن المهمة فاصبحت اليوم والحكومة تسكن فيها طائفة من المهاجرين وتعمر لهم دوراً فلا يلبثون ان يرحلوا عنها اذ رأوا تناقص نفوسهم فيها بسبب الماء والهواء وتركوا منازلهم خاوية .

العربة الصفرية

طريق الكرك من القطرانة وطريق وادي موسى من معان يبتدئان بتراب كلسي ممزوج بصلصال لا استعداد فيه للزراعة ولذلك تظنك اذا توسطت تلك السهول وعرضها نحو ثلاث ساعات من الخط الحديدي تظنك في قفر بلقع حتى اذا انتصف الطريق تتراءى لك بعض عيون وزروع والمسافة بين معان ووادي موسى سبع ساعات للراكب كما هي بين القطرانة والكرك . ووادي موسى هو قرية الجي وعلى نحو ساعة منه بترا أو

العربية الصخرية كما يسميها الافرنج وسماها العرب سلعاً ، والسلع الشقوق في الجبال ، والغالب ان سلعاً قسم من العربية الصخرية وهي عبارة عن جبال إذا (رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فاذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها) وحدثنا من زار خرائب الحجر أو مدائن صالح انها دون خرائب بترا بمكانتها .

وكان لبترا هذه أيام عز طويل على عهد الادوميين والنبطيين العرب وقدماء الرومان والمكابيين وامتد حكمها الى دمشق وكان بيدها زمام التجارة مدة قرون في هذا الشرق الاقرب ولم تنحط الا بارتقاء مملكة فارس وانبساط ظل سلطان تدمر ولما جاء الاسلام كانت خرائب كما هي اليوم والغالب أن بقايا مجدها أتت عليها الزلازل فدكتها كما دكت غيرها من المصانع والآثار .

اذا أشرف الراكب على قرية وادي موسى يرى روح النعيم فيها خصوصاً ويكون قد قطع ساعات في صقع أجرد أمرد ليس فيه من الاشجار الا الزعرور ولا من الغلات الا قليل من الحنطة والشعير لكن في وادي موسى حدائق بديعة تسقى من العيون الدافقة عليها من الهضاب المجاورة حتى تخال نفسك لما تراه من بهجة الخضرة انك في صقع عامر زاهر فاذا قصدت الى عاصمة بترا وتجبلت في السيك أي دخلت بين الجبلين المتناوحين العاليين وكل قطعة منهما تبلغ ألوفاً من الامتار المربعة علوها من ٣٠ الى ٥٠ متراً وانت تسير في طريق لا يقل عرضه عن خمسة أذرع ولا يزيد عن عشرة ليس فيه الا الأحجار والحصا أو مسايل ماء لا ينبت فيها الا الرتم والطرفاء تشاهد في الاعالي النواويس والقصور والمسلات محفورة في الصخر وينفرج الطريق مسيرة نحو ثلث ساعة وينقسم قسمين قسم ذات اليمين وفيه تتمة المدينة والقسم الآخر جبال طبيعية تمتد الى بعيد وتتصل بجبل هارون من أجمل المناظر المشرفة على تلك الاودية والجبال .

وهنا يتمثل أمامك قصر فخم يسميه الناس خزنة فرعون والغالب انه كان معبداً لايزيس أنشيء على عهد الامبراطور ادريانوس الذي زار هذه المدينة سنة ١٣١ وفي واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة اصغر منها ونقوش وتيجان وربما كان يصعد الى العلية باولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من اثر الادراج واذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع احجارها وتتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها وفي الصدر القاعة الكبرى او الردهة المدهشة وكل هذه العمدان والسواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر او في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه ما يشاؤون والذي يزيد في الدهشة ان الحجر احمر في هذه الجبال او من نوع الحجر الرملي ولكنه بمتانته كالصخر الاصم ثم ترى عليه ذاك اللمعان فمن موجة حمراء الى اخرى زرقاء الى مثلها بيضاء الى جانبها دكناء فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير ورزق بانيه يداً صناعاً تتفنن في تقطيعه ونقره بما فاق به البناة في سائر عاديات الشام فان كانت قلعة بعلبك تنم عن ذوق سليم وعلم واسع في النقش وجر الاثقال فان هذه العاديات الخالدة الازلية تنادي بلسان حالها هذه عظمة الديان الى جانب عظمة الانسان .

وترى الى جانب الآثار قساطل الفخار في جانب السيك الذي يشبه من بعض جهاته الفج الواقع في شمالي مدخل قرية معلولا في جبل سنير (قلمون) وذلك على علو القامة استحجرت مع الصخر حتى كأنها بعضه وهناك على بضع دقائق من خزنة فرعون كان في الغالب مخزن ماء هذه العاصمة برمتها وعلى مقربة من مخزن الماء وهو منقور في الجبل ايضاً ملعب التمثيل نقر في الصخر وله ٣٣ ممشى لجلوس المتفرجين ويسع ٣٠٠٠ نسمة وفي هذا الجوار اقدم النواويس واهمها وبعد ذلك يجيء

قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارته كما ترصف الابنية الضخمة من قلاع وابراج وأسوار ونحوها والغالب انه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل الاسلام وهناك ولا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها على أنها من عمل المسيحيين عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفرجات والاودية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار بترا في المكانة وفي جبل الصبر ملعب او صورة تمثل قتالا بين سفن حربية .

ويقول علماء الآثار ان معظم القبور التي حفرت على مثال قبور الحجر يرد عهدها الى الملك الحارث الرابع أحد ملوك بترا أي ٩ و٣٠ سنة قبل المسيح وبعده وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها ، وأن ما يشاهد من صور أبي الهول وايزيس ورؤوس الحملان يدل على أن هذه البلاد تأثرت بالمدنية المصرية والمسلتان الموجودتان في النجر تمثلان ربي النبطيين اللات ودوزارس وأنها كانت مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الاقل ، وان المدنية اليونانية دخلت وادي موسى على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصري والشامي وظل القول الفصل فيها للمدنية اليونانية الى عهد الحارث الرابع وفي بترا ٨٥١ مصنعاً من القبور والمعابد والمذابح .

ومن أراد أن يتوسع في درس هذه المدنية الأزلية وجب عليه أن يصرف أياماً في خرائبها كما يفعل بعض سياح الافرنج وعلماء الآثار منهم فيقصدونها يضربون فيها خيامهم ويصرفون في امتاع النظر بها الاسبوع والاسبوعين وعلى من يحب التوسع في البحث أن يستعين بما كتبه علماء الآثار من المصنفات في وصف هذه المصانع .

في جوار هذه العاديات المنبئة بمدنية راقية جداً ينزل نحو الف نسمة من العرب يأتون أياماً قلائل الى الجي او وادي موسى لتعهد زروعهم

السقي ثم يتنقلون في الصيف والشتاء في جبال الشراة على ساعتين أو ثلاث أو اربع من بلدهم في خيام الشعر وهم فرقتان تؤلف الاولى من عرب الشرور وبني عطا والثانية من الهلالات والعبيدية والعلايا ويغلب عليهم الفقر ومنهم من يزرع في أراضي الحويطات والنعيمات على مقربة من بلدهم بالخمس وليس فيهم من يقرأ أو يكتب ويلبس أهل وادي موسى الكوفية والعقال ويسمونه المرير أي المفتول والعباءة وقفطاناً مسدولاً بدون سراويل وفي أرجلهم نعل يعملونه من جلد البعير وينوطون به حبلة يدخل منها باهم الرجل لتعلق وفي ألفاظهم بعض فصح مثل قولهم سرى لسير الليل وقولهم الهدوم للثياب العتيقة وقولهم الريف للاراضي الخصبة . ويعنون كثيراً بتربية البقر والغنم والماعز ، ولا ابل عندهم مثل بني صخر . وهم على فقر ظاهر .

سألنا أحد كبار شيوخ وادي موسى هل زرت ياعماه مدينة دمشق في حياتك فأجاب انني لم ازرها أنا ولا أحد من أهل بلدي وأنى لي بزيارتها والطريق عشرة أيام لراكب المطايا وفي السكة الحديدية احتاج الى اجرة لم أملكها حياتي فتأمل .

من اجمل المناظر اذا خرجت من السيك أو من الصدفين أي جانبي الجبلين وفارقت تلك القنن والقلل تقصد الى عين موسى صعداً في هضاب عالية شماء واطلت على تلك المدينة التي يستحيل على أي جيش من جيوش العالم ان يفتحها ويستبيح حمى من فيها اذا أرادت الدفاع . تشرف من ورائها على أراض واسعة جداً تظنها بحراً من أشعة الشمس وهي وادي العربة طوله ثلاثة أيام الى الغرب وعرضه الى الشمال أربعة من العقبة الى الغور وفي تربته حصا وأحجار ورمال واملاح وينابيع قليلة وبالقرب منها بعض الخضرة كما تجد هنا وهناك بعض الاشجار البرية ويقصد البدو هذا الوادي في الشتاء لانه غور يرعون فيه مواشيهم كما يقصد أهالي الطفيلة والكرك والصلت ماجاورهم من الاغوار الى الغرب من ديارهم ويقصدون جهات الشرق في الربيع ويتوسطون في الشتاء والصيف .

في مدينة الرسول

ماذا يرجى لراكب القطار الحديدي ان يراه ليصفه والقطار يسرع في سيره مواصلا الليل بالنهار وكل بقعة من البقاع بين دمشق عاصمة الاسلام الثانية ويثرب عاصمة الاسلام الاولى تحتاج الى عدة علماء يتوفرون على دراسة مافيها من الآثار العـــادية والتاريخية والطبقات الارضية والاحداث الجوية والمواليد الثلاثة الطبيعية او المملكة النباتية والحيوانية والجمادية وعابر سبيل يمر كالسهم منطلقاً لايطالب بمثل مايطالب به الباحث محققاً مدققاً فمعذرة الى من يتوقعون ان يروا في رحلتنا هذه فائدة تخرج عن حد ماوقع عليه النظر في أيام معدودة .

ركبنا من محطة القطرانة في الكيلو متر ٣٢٦ الى المدينة فوقف بنا القطار ساعات في المحطات الكبرى وهي معان في الكيلومـتر ٤٨٩ وتبوك في الكيلومتر ٦٩٢ ومدائن صالح في الكيلومتر ٩٥٥ ثم المدينة في الكيلومـتر ١٣٠٣ وكانت المناظر تختلف علينا اختلاف الاهوية وكلما تقدمنا نحو الحجاز نشعر بالحرارة . وكان الوقت شهر آذار والطريق التي سلكها الخط الحجازي غريبة تدل على حـذق في الهندسة وتفنن . وهي لاتبعد كثيراً عن الطريق التي كان يسلكها الركب الشامي مدة ثلاثة عشر قرناً فيما نعلم اللهم الا ما اقتضته الهندسة من التعاريج كما شاهدنا ذلك في المحل المسمى ببطن الغول وغيره

والجبال غريبة التكوين في الطريق من بعد تبوك . فبعضها هرمي الشكل والاخر اسطواني وبعض متساوي الاضلاع ، وآخر زاوية منفرجـة او حادة او قائمة جعلت في بسائط منظمة منفرجة ، تسير ساعات بل اياماً بسير الجمال ، ولا ترى الا رمالاً وصخوراً وليس من الغابات الا الهشيم (الهيش) في بعض الاصقاع أو السلم والسمر وهما أكثر شجر الحجاز . والجبال مصهورة حمراء او كما قال البكري في وصف الجبال بين مكة

والمدينة انها كلها تضرب الى الحمرة تنبت الغرب والغضور والثمام .

وان المرء لتحدثه نفسه وهو يطوي البيد طي السجل للكتاب من دمشق الى المدينة كيف كان الحجاج قبل السكة الحديدية يقطعون هذه الأودية والتلول والجبال والحرات والبرقات في ثلاثين يوماً على الجمال والبغال والخيل ، ومن يتعب وهو راكب في القطار الحديدي ثلاثة أيام كان حرياً بأن يهلك وهو على ظهور المطايا أو في المحفات والهوادج والمحارات ثلاثين يوماً يضاف اليها عشرة أخرى من المدينة الى مكة ولكن هي العادة تسهل الاشياء والتعب ينال الراكب في الايام الاولى ثم يدمن ويمرن .

أعلى نقطة في هذا الطريق العقبة تعلو ١١٥٣ متراً عن سطح البحر والمطالع تعلو ١١٤٢ متراً وفي بعض هذه الرمال يمكن انباط المياه وفي بعضها مياه يستقي منها العرب الرحالة هناك وابناء السبيل فان عشيرة الفقراء ومنازلها من تبوك الى مدائن صالح لا تقل عن ثمانمائة بيت وقبيلة بني عطية تنزل من المدور الى المعضم وهي تزيد عن الفي بيت فلو صرفت عناية الحكومة الى اسكان هاتين العشيرتين واعطائهما الاراضي مجاناً والصالح منها للزراعة كثير لما أتت بضع سنين إلا ودخلت هذه الموامي والمفازات في دور عمران تغني ساكنيها عن شن الغارات أو مد الأكف لأبناء السبيل في استوكاف الصدقات .

ومن آسف ما رأيناه في الخط الحديدي ولاسيما بعد بلادالشام ان الاولاد والبنات والرجال والنساء يأتون يلتقطون ما تجود به أكف الراكبين من الخبز والادام يلتهمونه التهاماً وقد كاد يقتلهم الجوع كما صهرت شمس الحجاز ابدانهم ، وانك اذا اعطيتهم نقوداً لا ترضيهم بمثل ما يرضون بكسرات من الخبز القفار ، فكأن القفار لا ينفع فيها إلا الخبز القفار. وعندنا أن أعظم صدقة يتصدق بها قاصدو البقاع الطاهرة في السكة الحجازية أن يحملوا معهم ما تسمح به نفوسهم من الخبز والادام يوزعونه في المحطات على هؤلاء المحاويج المدقعين وذلك ريثما تصح عزيمة ولاة الأمر على تهيئة أسباب المعاش لهم .

ليس من الرأي السديد أن يعلم شعب أو أكثره على الشحاذة بل أن يعود العمل والاعتماد على النفس ولكن أرضاً لم تشفق عليها سماؤها حرية بان يكون لابنائها عناية من حكومتها فان معظم ما نسمع به من الغزوات والغارات منبعث عن جوع مذيب والجوع كافر ، يساق الغازون الى الموت أو ينالون ما يتبلغون به لسد رمقهم ، وكل من قطع الطريق من مكة فالمدينة فدمشق يحدثك من فقر عرب تلك الانحاء ما هو العجب العجاب .

ولا يستهان بعدد السكان فان جهينة وبلي والحويطات لاتقل عن سبعين الف رجل واكبر قبائل المدينة حرب وهي خمسون الفاً ففي الوجه وينبع والعلا والعقبة من اعمال المدينة مائتا الف محارب كما قدر بعض العارفين وفي قضاء السوارقية عرب مطير وهتيم . وهتيم بقدر مطير في المدد والعدد وحدود المدينة تمتد الى الفرع من جهة مكة وسكانها بادية كلهم وفيها قرى واسعة وقرى جوار المدينة اثنتا عشرة قرية . والفرع لاتحكمها مكة ولا المدينة وقد أنشأت الدولة العثمانية من العلا الى المدينة اثنتي عشرة ثكنة انفقت عليها ١٨٤ الف دينار عثماني ليستتب بها الأمن وقوت العرب كلهم الارز الهندي والدقيق والتمر واللبن والافط وأقل العرب وأشرهم في اطراف هتيم ومطير . ومع كل مافي هذا القطر من الفقر تصدر منه بعض الحاصلات كالجلد والصمغ والتمر والاغنام والجمال والخيل والصوف والسمن . ولو مد الخط الحجازي الى مكة فالبحر الاحمر ومن مكة الى صنعاء اليمن لتضاعفت صادرات الحجاز واليمن والشام وارداتها وأمن الناس ولا سيما الحجاج من تعدي البدو بين الحرمين .

يعيش كثير من سكان المدينة ومكة من الصدقات والاوقاف ورواتب الحكومة وربما غالى بعضهم في هذا الاتكال ولكن كيف السبيل وتجارة بلادهم ضعيفة لاتروج الا أياماً مخصوصة من السنة في موسم الحج وتكاد زراعتهم تنحصر في بعض البساتين الضئيل ريعها التي تروى من مياه الآبار بالدلاء ثم ان العلوم التي تبعث الهمم على الأعمال الاقتصادية مفقودة من بلادهم لندرة من يعرفها منهم وبلادهم لا يدخلها إلا المسلمون وربما كان

فيمن يزورونها طبقات راقية ولا سيما الهنود والمصريون ولكنهم لا يطيلون مقامهم إلا بقدر ما يزورون أو يجيء الراقون منهم ولا عمل لهم إلا التجرد عن الدنيا لا يخالطون ولا يعاشرون .

لا جرم أن السكة الحجازية قد نفعت سكان يثرب كما نفعت سكان دمشق لان الزوار كثر عددهم على طول السنة والتجارة دبت فيها روح جديد في الجملة والاختلاط بالامم نبه أفكار سكان طيبة الاصليين الى قصورهم في ميدان العلم والتعلم . نقول السكان الأصليون وعددهم لا يكاد يبلغ ثمن السكان والباقون شاميون ومصريون ونجديون وعراقيون وتركيون وجاويون ويمانيون وزنجباريون وسودانيون وجزائريون وتونسيون ومراكشيون وسنغاليون وصينيون وهنديون وقفاقاسيون وطاغستانيون وجراكسة وأكرادو كرجيون وايرانيون وافغانيون وبخاريون وبلوجستانيون وغيرهم من شعوب الاسلام يأتون هذه البلدة الطيبة ينقطعون فيها للعبادة في مسجد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

للمسلمين معرضان دينيان مهمان احدهما وهو الاكبر في جبل عرفات كل سنة مرة والآخر في مسجدي مكة ويثرب طول السنة ولذلك تسمع فيهما معظم اللغات في آسيا وافريقية وترى فيهما كل السحنات من أبيض وأحمر وأصفر وأسود ممن تفرع من الجنسين الآري والسامي ولذلك تجد المدينة المنورة اقرب الى أن تكون برج بابل لاختلاط اللغات والسحنات والعادات منها الى أن تكون عربية وهي بلد النبي العربي وفي صميم ديار العرب . والمدينة بطبيعتها تشبه احدى مدن الأرياف في مصر لان نحو ربع سكانها مصريون صعايدة ونصف الربع مغاربة والباقون مجنسون على ما يخمن المخمنون لاعلى ما يحصي العادون . لان البلاد العثمانية كلها ليس فيها احصاء يعتمد عليه بل كثير من اصقاعها ليس له احصاء بالمرة كالحجاز مثلاً .

كنت نازلاً في الفندق الوحيد الكبير الذي بناه أحد الوطنيين خارج السور بالحجر الأسود طبقات وكلف نحو عشرين الف ليرة ، وهو على قيد غلوة من سور البلد ، أسهر عند بعض الأحباب الى أول المزيع الثاني من الليل ، ومع أن الحكومة الاتحادية كانت أصحبتني بلاطلب مني بشرطيين يراقبان أعمالي ارهاباً لي ،

فان أصحابي كانوا يتكلفون ايصالي الى النزل كل ليلة خوفاً من اللصوص ، أما أنا فكنت أعد الخطب سهلاً مع قطاع السابلة أكثر من الخطب باولئك اللصوص الطغام في صور حكام ومن يكتفي بالمال والمتاع ويعفو عن قطع الأعناق لايسوءك بقدر من يسرق ويقتل ، والقتل أنواع ومنه القتل المعنوي الذي ارتكبته عصابات الهول والارهاب وبلغت القحة في استعماله حتى في البلد الطاهر في حين أن من دخله كان آمناً .

تأملت كثيراً في مسجد الرسول أثناء الصلوات وغيرها فما رأيت الاخشوعاً من جميع من يختلفون الى الحضرة النبوية الشريفة ولا سيما من غير الناطقين بالعربية فقلت في نفسي — وقد سمعت خطبة الجمعة وهي لاتخرج عن حد التزهيد في العمل والاعراض عن الدنيا كسائر خطب الجوامع في بلاد الاسلام خلافاً لما كانت عليه سنّة السلف الصالح ولكن « لبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً » كما قال علي كرم الله وجهه فوا رحمتاه لغربة الاسلام .

لو ادار هذه القوة المعنوية رجال دين سليم وعقل راجح لكانت فوائد هذا الاجتماع من حيث الدين والمدنية أضعاف أضعاف فوائده اليوم فكما أرسل عليه الصلاة والسلام شعاعاً من نور حكمته قلب به العالم وغير بشريعته الطاهرة الارجاء هكذا يحمل دعاة دينه والمؤتمنون على تراثه وسياسة المهتدين بهديه ما تستنير به العقول في هذا المجمع ويعم ضياءُ سكان الخافقين وهذا من القوى المهمة التي أضعناها وكم أضعنا مواهب وقوى .

وأهم خزائن الكتب في المدينة خزانتان خزانة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها تافهة لا شأن لها وأكثرها من المشهور ونظامها وسط . وأحسنها وربما كانت خير خزانة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت أفندي ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين كأن تجد الكتاب ذا العشرين جلداً مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد أو مجلدين وفي هذه الخزانة من التسهيل من المطالعين والعناية براحتهم ما لا تكاد تجد مثله في دار الكتب بمصر وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقه في سبله واختيار القيمين عليها وادرار المشاهرات الكافية عليهم .

وبعد فان مسجد الرسول على كثرة عناية ملوك الاسلام بأمره في كل دولة وحكومة ليس من السعة وجودة البنيان باكثر من جامع السلطان احمد أو أياصوفية من جوامع الاستانة وان يشبههما في طرز بنائهما فهو أقل سعة من جامع الازهر بالقاهرة والجامع الأموي بدمشق . كان هذا المسجد الشريف والمسلمون قليل عددهم لا يتجاوزون عشرات الالوف ثم كبره بعض الملوك بحسب ما اقتضت الحال ، ولو نظرنا اليوم الى عدد المسلمين وهم لايقلون عن ٣٠٠ مليوناً وعدد من يحج ويزور منهم كل سنة لاقتضى لنا أن نجعل سعة الحرم المدني اربعة أضعاف ما هو الآن على الاقل ونزينه بجميع أسباب المدنية الحديثة التي لا يحرمها الشرع ولا تنم عن اسراف .

قال ابن قتيبة ان مسجد المدينة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنياً بلبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبوبكر شيئاً وزاد فيه عمر ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والنفضة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ووسعه المهدي سنة ستين ومائة وزاد فيه المأمون زيادة كثيرة ووسعه .

بطء الادارة

قلت من تقرير قدمته لرئاسة حكومة دمشق (سنة ١٩١٩–١٩٢٠)
أفليس من الغرابة بمكان أن ادارة المعارف منذ انشئت لم يتيسر لها أن تشيد أبنية جديدة لمدارسها اللهم الا بناء مدرسة الحقوق في دمشق وبعض أبنية ضئيلة لا يؤبه لها في بعض المدن والقصبات . والمدارس حتى في العاصمة ماتقيم في أماكن غير صحية في الجملة ومن مدارس القرى ما يشبه سجون القرون السالفة لانوافذ ولا طيقان ولاشمس ولا هواء ولا ساحة للعب ولا شيء من أمور الصحة والمروضات للذهن والعيون والداعيات الى التعلم . ومازالت ادارة المعارف مع هذا تصرف كل سنة مبلغاً لا يستهان به لقاء أجور منازل تقيم فيها مدارسها لوصرفت على اقامة ابنية للمدارس وحمل الاهلون على المعاونة في بنائها بحسب قانون التعليم الابتدائي لاصبحت اليوم معظم مدارسنا تأوي الى دور صحية خاصة بها تزينها وتحسنها وتنقشها وترصفها كما تشاء وتشاء المدنية الحديثة .

ان نقل المدرسة كل سنة من مكان الى آخر يضطر ادارتها الى صرف مبلغ ليس بقليل تنفقه على النقل وتشتغل ادارتها بتعمير ما خرب وترميم ما لديها من أثاث فضلاً عن تشتت الطلبة هذا اذا وجد محل مناسب من بعض الوجوه لاتخاذه مدرسة فان ادارة المعارف تبحث منذ ثلاثة أشهر عن دار تجعل فيها المدرسة النموذجية النازلة في المدرسة الظاهرية بدمشق التي جعلت دار الكتب العربية ولما تجد حتى الساعة في ذاك الحي العامر مكاناً يناسبها مع ما أغلت من الاجور لأن من الناس من لا يرضون أن يكروا دورهم لتجعل مدارس مهما أعطوا من الأجر الفاحش مخافة تخريبها خصوصاً ومعظم البيوت من طين وخشب يسرع اليها البلى أكثر من دور الحجر القديمة .

فالواجب قبل كل شيء ان تفتح الحكومة اعتماداً كبيراً من المال كل سنة تخصه لاقامة أبنية جديدة صحية للمدارس واصلاح الموجود منها وبذلك تخطو

المعارف خطوة كبرى الى الامام فتجهز هذه الديار بالجهاز الذي يلزمها من المعاهد في بضع سنين .

قلت وبعد مرور نحو تسع وعشرين سنة لم تختلف الحال عما كانت وما بني من المدارس حتى الآن مع ضخامة الموازنة لم يبلغ واحداً من عشرين من المطلوب لبلاد الجمهورية وهكذا كسل الشرقيين .

اسقاط المجمع العلمي

هـذه صورة ما كتبته إلى وزير من وزرائنا في ١٠ شوال ١٣٣٨ — ٢٥ حزيران ١٩٢٠ لما قاوم المجمع العلمي العربي

كأن من امارات الوطنية الكذابة ، ان يموه دعاتها المتجرون بها في كل ما يعرض لهم مما لا ينطبق مع هوى نفوسهم . عرفت من اخلاقك منذ عرفتك ايام كنت تغشى مجلسي مستفيداً انك مفطور على الحسد ، حريص على الشهرة ، تتوخاها من كل طريق ، وتعد من الوسائل إلى ذلك الغض ممن ذهبوا بفضلها . ولقد كنت كلما أُمني النفس باستصلاحك في هذا الشأن بالتجربة والقدوة أرى تلك الصفات تزيد فيك على الايام تأصلاً . وبعد فما كان يخيل لي انك تقوم في مجلس الوزراء وتناقش في مسألة ارجاع المجمع العلمي العربي تحاول بشقاشقك المعهودة ان تسلبه ما تم على يده من الفوائد المادية والمعنوية وتنكر ما قام به على الأقل من انشاء داري الكتب والآثار مدعياً ان المصلحة مراعاة الاقتصاد في مثل هـذه الأحوال وكان الأولى بهذه العناية لو انصفت وزارتك التي لا تحتاج لكل هذا الاسراف المضحك المبكي .

وكيف لعمري تزعم ان المجمع العلمي غير مفيد وقد كنت قبل بضعة اشهر تتمنى لو تعد عضواً فيه . لو كنت ممن تحب بلادك حقاً وصدقاً لوقفت غير موقفك هذا وراعيت العدل فطلبت بقاء مجمعنا علي أن يتولى

رئاسته غيري اذا كنت تراني غير كفوء لها وايجاد رجل له لا يصعب على من استتبع الغاغة وعدهم جماع القوى وادعى أن الفضل مقصور عليهم . لست آسفاً للاثر الناتج عن سعيك في اقصائي عن رئاسة المجمع فان لي كل حين في داري وحقلي من صفوة الأصدقاء مجمعاً مستقلاً ينفض عن فوائد جمة دع من أفاوضهم الحين بعد الآخر من علماء المشرقيات في الشرق والغرب ، وما كنت لأجنح الى الاتكال وأقيد النفس بقيود الموظفين الثقيل لقاء عرض قليل .

ولقد أكد حتى خصومي ان المجمع يطلبني أكثر مما أطلبه وهم على مثل اليقين في غنائه للامة ، أما أنت فتقصد الى اقناع من حولك كما قلت لي ذلك مرة انني خدعت اوربا بهذا المجمع وهذا جلّ ما أسعى اليه . أنا لم أخدع أوربا بل جهدت لافهامها اننا أمة ذات مجد قديم تريد أحياءه فخدمت بذلك الحكومة العربية لانني حسنت سمعتها مع اخواني رجال المجمع وخدمنا العلم المجرد عن الغايات البريء من وصمة التعصبات ومؤثرات المعتقدات .

قحة دعت صاحبها الى التمويه في البديهيات ، وأنانية مجسمة شأنها التبجح وانكار المحسوسات ، كان من أثرها ايثار الجهل لهذه البلاد التعسة التي هي في أشد الحاجة لمن يدفعها ولو خطوة ضئيلة الى الأمام حتى يثأر ذو ضغينة لنفسه من أقدم من عرفوه ، وما قط أثرت عنهم اساءة اليه بيد أن الحقد أكل قلبه فراح يعبث بشخصياتهم ويرمي بضاعتهم بالكساد .

بهرك المنصب فأسأت حتى الى أقرب الناس اليك ممن صبروا على سوء العشرة استبقاء للصداقة ، وما أنس لا أنس ما كنت تمثله من الأدوار المحزنة فتحاول اقناعي بمضار أمر ولا تستحي من الغد أن تزينه للابصار وتأتي مثله من دون حرج اذا كان فيه حظ نفسك فتدعوني الى ما كنت عنه بالأمس تنهاني .

نعم اننا ممن لم تخف عليهم قصة ذاك الكرسي الذي أجلسوك عليه الآن فاذهلك عن كل شيء ورأيت من أسباب بقائه لك أن تتظاهر بالفناء في محبة عظيمنا الذي كنت تلعنه أمس علناً حتى أحرجت الصدور وقال لك في النادي العربي منذ أشهر أن الامة لا ترقى ، حتى يشتغل من كان مثلك بما يعلم ، يقصد بهذا أن السياسة لم تخلق لها ولا استعددت للخوض في مضمارها . ضعيف المدارك لعمر الحق من

يخدعه بريق المظاهر الموقتة الخلابة ومن يؤخذ بسلطان العواطف ولا يجعل للعقل عليه سلطاناً وستريك الأيام نتائج أعمالك محسوسة ومن يعش يرَ .

لانعاش اللغة العربية

أخذ تقرير لجنة تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة بحظ وافر من الاجادة ، وإذا جرى العمل به يسهل تَلَقُّفُ العربية ، ويتم لها بعض الاصلاح الذي طالما تمناه لها عشاقها وخدَّامها .

إن حذف بعض ما لا يتعلق على حفظه كبيرُ أمر من النحو والصرف والبلاغة خطوة كبرى في تبسيط اللغة ، وقد رأينا الكتب المدرسية في العهد الأخير ، على كثرة العناية بتحريرها لا تزال تحمل تعليلات وتطويلات قد يستغنى عن بعضها جمهرة الطلاب ، بيد أن كثرة القواعد لم تعق اللغة عن الانبعاث اللازم بقدر ماعاقها عدم العناية بالجزء العملي منها ، وهذا لا يتم إلا بان يسمع الناشيء هذه اللغة منذ أول عهده بالمدارس خالصة من العجمة ريثما يعم التعليم فيسمعها من أبيه وأمه فصيحة لا شوب فيها ، وأول درجات الوصول الى هذا التطور في تعليم اللغة يجب ألا يتكلم المدرسون والمدرسات جماعات المتعلمين ، من حدائق الأطفال الى آخر مراحل التعليم ، بغير اللغة الفصحى . وهذا يسود منذ الآن إذا حُظر على أصحاب التعليم التكلم باللغة الدارجة ، وأريد الضعيف منهم في العربية على حضور محاضرات في بعض فصول السنة ليسدَّ بما يتعلمه بعض عجزه ، ولا يرقى من المدرسين في درجته إلا من أبان عن كفاءة في اتقان التخاطب والتكاتب بهذه اللغة، ولو كان معلم تصوير ورياضة بدنية . ويكتفى بتعليم اللغة الاجنبية من أول سني الدراسة الثانوية ، ولا يضير الأطفال تأخرهم في تحصيلها وهم في أشد الحاجة إلى احكام لغتهم أولاً .

ثم إن الواجب على الحكومة أن تُعنى باصلاح لغة دواوينها تُنَقيها من كل غريب ودخيل ما أمكن ، وتشدد في كل ما ينشر ويعلن الا باللغة الفصحى ، ولا تسمح بصدور صحف وكتب باللغة العامية ، وتمنع دور التمثيل والسينما والراديو من نقل كلام لا تكون الفصحى سُداه ولُحمته ، هذا على أن تتوخى السهولة في التعبير الى الحد الاقصى .

والحق ما قالته اللجنة من أن أدبنا محتاج الى كتب تلائم طور الشباب وما أصابت شاكلة الصواب في قولها أن الواجب ان نترجم هذه الكتب عن اللغات الاجنبية ، والترجمة لا تفيد في هذا الباب كثيراً لانها تنقل لنا أوضاع أمة تخالف أمتنا بروحها وثقافتها واجتماعها وحياتها وتاريخها وأدبها فالأولى اذاً أن نأخذ باساليب الأجانب ونطبقها على لغتنا ونستمد من أدبنا ما يهذّب ويعلِّم وما اخال أنه يصعب على أرباب الاقلام منا ، متى أخذت وزارة المعارف بأيديهم ، أن يضعوا لناشئتنا ما يلائم طباعهم من الكتب والرسائل ، ويجري مع مستواهم العلمي والأدبي ويحبب اليهم أدب قومهم المملوء بكل طريف ممتع .

اذا تحقق هذا الاصلاح لا تنقضي ثلاثون سنة حتى تكون الفصحى في كل لسان ، وترسخ ملكتها في قلوب العامة والخاصة ، ويسمعها الناس في البيوت تكلم بها السيدة خادمتها ، وفي الشارع يتخاطب بها الرجل المثقف مع معامله . وفي الحقل يتفصح بها المزارع وفلاحه . وما دام امتزاج الشعوب العربية بعضها ببعض يزيد يوماً فيوماً ، وهذا الراديو تصل موجاته الى الوف من الكيلومترات يحمل ضروب النبرات والأصوات وينشر كل المعاني فان هذا الاصلاح يتم على أيسر حال وفي زمن قريب ، كما تم للعربية أن نهضت في الخمسين السنة الاخيرة نهضة ما كان يرجى بعضها فاصبحت على الألسن والأقلام عذبة سائغة ، ولو راعى الخواص اليوم الاعراب في كلامهم بعض المراعاة لرجعوا بها الى قرون المجد العربي ، ولانهزمت العامية أمامها بصنعهم آخر الدهر .

اني ما زلت اسمع من زمن طويل من الغرباء ويتابعهم المقلدون من

ابناء العرب ان اللغة العربية صعبة جداً وأن لغات الأجانب اسهل وأقل كلفة ، ومعظم من يقول بهذا القول هم ممن قضوا سنين طويلة في تلقف احدى اللغات الأجنبية ، وصرفوا وكدهم في أخذها عن أهلها بأساليبهم المستحدثة السهلة، وما أعطوا العربية بعض عنايتهم، ومامنحوها كلهم لتمنحهم بعضها ، وهم لو صرفوا بعض ما صرفوه من الوقت في تعلم لغتهم لكانت درجتهم أرقى بكثير من درجتهم فى تلك اللغة التي هيأ مدرسوها لها جميع ضروب الرغبات .

اللغة العربية ، ولا نكران للحق ، واسعة بمفرداتها ، لكن الجمهور الذي يحاول ان يكتب ويخطب فيها ، وان يستظهر من الفاظها مقداراً لاغنية عنه لكل من يدرس لغة من اللغات ، وهو لا يزيد على خمسة آلاف لفظة ، هذه اللغة لا تكلف ، من تصح عزيمته على تعلمها من المشقة ، ما تكلفه اللغات الأجنبية لكل راغب في تعلمها ، حتى ولو كان من صميم ابنائها . هذا على شرط الاستغناء بعض الشيء عن القواعد والالتجاء إلى الطرق العملية في تدارسها ، والسير على طريقة اهل العصر الحاضر في تعلم لغات العلم الحديثة ، وحذف ما يقال له علم البيان والبديع ، فإن الناس كانوا يبرّزون في منظوم هذه اللغة ومنثورها وهم خلو من معرفة المعاني والبيان وهذا البديع المريع .

وبعد فقد ثبت بالاختبار في كل الاعصار والأمصار ، ان العمل هو الطريقة المثلى في اتقان اللغات ، ورأينا الجاحظ سيد البلغاء يعلمنا في كتابه البيان والتبيين بالشواهد لا بالقواعد ويقول لطالب النحو في كتابه رياضة الصبي : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشيء إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردّ عليه من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع » وأستدللنا بذلك أن الشكوى من تطويل النحو قديمة يردّ عهدها الى القرن الثاني وان مثل الجاحظ بعلمه وعقله يُرذِلها ويدعو الى الاكتفاء باليسير من هذا العلم اهـ .

هذا ما كتبته عملا باشارة احد جهابذة وزراء المعارف المصرية بهي الدين باشا بركات ، والى الآن لم ينفذ سوى اشياء قليلة منه لاتوازي بعض رغبات اللجان وأرباب الاختصاص ، وما اكثرها واكثرهم في مصر ، والزبدة أبداً قليلة لا توازي بعض ما ينفق من المال ، وما شغلت به اذهان الرجال ، كأن الشرق كتب عليه ان يقول ولا يفعل .

الطب حبيب الله

قيل ان ربح سورية كل سنة من الحشيش ثمانون مليون ليرة سورية (ثمانية ملايين جنيه مصري) هذا والقانون يحظر زراعته والاتجار به وظهر أن من أعيان الزراع من يزرعونه ويجعلونه تجارتهم يساعدهم على ذلك ما لهم من النفوذ في البر والمدن ، ومنهم من جمعوا منه ثروات وما تعففوا عن تجارة ضارة بالعقول . وكانت مصر وسدت مكافحة الحشيش والمخدرات عامة إلى رسل باشا مدير الأمن العام فحاربها حرباً عواناً وأبان عن غيرة على مصلحة المصريين وهو يعرف أن من رجال امته من يهربون الحشيش الى مصر مغتنمين فرصة وجودهم في الخدمات العسكريه والمدنية . ولقد خطب رسل باشا في مؤتمر الافيون في سويسرا مرة أن وزيراً سورياً يزرع الحشيش ويتجر به وقد كتبنا الى المفوض السامي في سورية ولبنان نلفت نظره الى ما يجني فاعل ذلك على الانسانية فلم نأخذ جواباً ، والغريب أن الجاني مازال في منصبه . وأغرب الغريب أن يجيء رسل باشا الى مقر خصمه ويضطر أن يمد يده اليه يصافحه . وفي السياسة قد يصافح المرء قاتل أبيه ويبسم لمن يبيت له المكايد . والانكليز جدٌّ حراص على حرية التجارة وقد عهد أن سلحوا بالسلاح اللازم جماعة هم حلفاؤهم في الظاهر بواسطة تجارهم وما وجدوا في ذلك حرجاً كما حاربوا الصين لأنها حرمت تجارة الأفيون فاستحلوا قتل مئات الألوف من الخلق في سبيل رواج تجارتهم .

السكوت من ذهب

ظلمت أؤدي ايجار مزرعتنا كل سنة الى ان ايقنت ان المطالب بالوقف لايحق له اخذ شيء منا مادامت أرضنا اميرية تدفع خراجاً وعشراً . وما دام ماسمي وقفاً هو اقطاع ليس الا . ولما امتنعت عن الاداء امتنع اهل القرية عن تسديد ماكانوا يغرمونه ايجاراً سنوياً اذا قطعوا حطباً من أرضهم . وعلمني أحد اصحابي وكان مارس القضاء الشرعي كثيراً أن أقول كلما دعيت الى المحكمة الجملة الآتية : أرضنا أميرية ندفع عنها الأموال والعشور ، ابتاعها أبي بماله ، وبأيدينا سندات تمليك ، وما أبيعه من حطبها هو مما غرسه أبي وغرسته انا . » فكان صاحب الوقف اذا قرؤا له ماكتبت تغيب طلعته عنا عشر سنين ثم يعود فيطالب بوقفه في صورة أخرى ، ونرده بكتابة تلك الجملة الذهبية في سجل المحكمة .

وقدر الله ودخلت في السياسة فطبقت فيها بعض مااستفدته في مدرسة الحياة من التجارب . واتفق ان بدا لرئيس وزارتنا أن ينحيني وينحي رصيفاً لي فلم ير أنجع من أن يضع علينا من الوزراء من ينبش بمهارته ماتكنه صدورنا نحوه ، فما رأيت احسن من أن أنسج على منوال تلك الجملة التي تعلمتها من المحامي الشرعي وانقذتني على ايجازها من تعجيز المطالب بالوقف ، فكان جوابي كلما سئلت عن الرئيس جملة سهلة لطيفة وهي ان الرئيس تفضل واستدعانا الى معاونته في وزارته فله الشكر على ثقته بنا ، فاذا رأى أن يستعيض عنا باناس اكفأ منا فانا مستعد للاستقالة لافرغ كرسي الوزارة لغيري لأني أريد نجاح الرئيس وبنجاحه نجاح بلادنا ، وارجع الى بيتي وانصرف الى شؤوني الخاصة .

وأما زميلي فكان يطلق لسانه في الرئيس وأبيه ويذكر افضاله عليه في معاونته بالمال ليصل الى الحكم ، ويتبع ذلك بسباب وقذف ليس من شأن

من يشتغل بالعموميات ان يعود لسانه التفوه بمثلها، ويذكر أموراً تسقط من قالها قبل ان تسقط من قيلت فيه . كنت ألقي هذا الدرس الوجيز ست مرات في الأسبوع ، والازمة الوزارية دامت مدة ، وما غيرت فيه ولا بدلت ، وكذلك كان من صاحبي ماغير شيئاً ولا بدل . وانتهت الأزمة باخراجه من الوزارة متهماً بأمور ربما كان منها بريئاً ، نسبت اليه ليرضى أهل الحل والعقد بتنحيته ، وأنابقيت في الوزارة ، وكان المظنون اني اقرب الى الاقالة .

وبهذه الألعوبة عرفت حكمة ماحفظته في الكتاب (سلامة الانسان في حفظ اللسان) وكررت درساً في اخلاقنا أحببت نقله الى أبنائنا ، وثبت لي ان من الأمور مايحل بعضه بعضاً لتشابه الاشياء ومنها مايقاس على غيره وان الاعتماد على الايجاز في معظم المواقف ادعى الى السلامة ، والمكثار عرضة للعثار ، وربما كان في الثرثرة خرم يدخل منه الخصم فيربح ، والمرء مأخوذ باقراره .

الالقاب والرتب والاوسمة

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكُنَى ومن الألقاب أبواباً
ولقّبوا رجلًا لو عاش أولهم ... ماكان يرضى به للحش بواباً
قلّ الدراهم في كفي خليفتنا ... هـذا فأنفق في الأقوام القابا

(أبو بكر الخوارزمي)

الحش (لامؤاخذة) مثلثة ، المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين .
القاموس المحيط

كان مما اخترعه بنو العباس (١) أيام ضعفهم اطلاق القاب على من كان مقبولاً في دولتهم ، وجرت أكثر الدول بعدهم على طريقتهم حتى إذا

---

(١) راجع ماكتبناه في الالقاب والرتب في الجزء الثاني من كتابنا (الاسلام والحضارة العربية) ص ٢٦١ - ٢٦٣ و ص ٢٩٩

كانت الدولة العثمانية غَلَتْ في اعطاء الرتب والاوسمة والألقاب غلواً لم يسبق له نظير ، فدخلت مسألة التشريف في طور من الهزل غريب ، والأمور تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وربما كانت نافعة اذا جرى الاقتصاد فيها ، ولا تلبث أن تتوسع في النهاية وتكون منها مضرة ، وعلى الالقاب والأوسمة تصدق هذه القاعدة . وظل العثمانيون على هذه الطريقة في رفع الناس وخفضهم ، يعدّلون في مصطلحاتهم ويزيدون وينقصون ، حتى إذا كان عهد عبد الحميد الثاني بلغ أمر الرتب والالقاب حد السخف فزادت الاخلاق فساداً وشغل الناس بالعبث وأُلقيت بينهم المنافسة في أمور لا نفع فيها .

وورثت مصر هذه العادة الضارة من دولة العثمانيين وراجت في أيام الخديوي عباس حلمي الثاني رواجاً مضحكاً حتى كان لها سماسرة يجتعلون جعالات كبيرة ممن يحرص على التشرف بها ، ولا نزال نرى في قلوب المغرمين بهذه الأمور في مصر بقايا يرثى لحال من أصيبوا بها . أما مملكة شرقي الأردن الصغيرة فأوغلت في منح لقب الباشا حتى حازه عشرات من أهل الطبقات الثلاث وعدّ من حسنات العراق والشام (سورية ولبنان وفلسطين) الغاؤها الألقاب وقضاؤها على الرتب وقد اخترع بعض حكوماتها اوسمة تجود بها على الاجانب وعلى من ترضى عنه لخدمة أسداها لوطنه . ويجنح بعض العقلاء في الدولة المصرية اليوم الى الغاء الرتب والالقاب على أن لا يبقى فيها إلا رتب الجندية لتنجو مصر من مصطلح يفسد التربية ويعلم الناس التحيل والزهد في الكرامة بما لا ينطبق مع جلال مدنية هذا القرن وترقي عقول أهله .

ولقد دخل التفاخر بالألقاب والرتب والأوسمة في بعض ممالك الغرب أيضاً في دور سخافة عجيب حتى صرنا نرى الممالك التي لا تعرف الألقاب كسويسرا مثلاً أرقى بأخلافها من فرنسا واسبانيا وقد أوغلتا أي ايغال في هذا الشأن . وهكذا الحال في جميع الدول الجارية على قوانين قديمة

بالية يعبث ولاة أمرها بعقول رعاياهم ويشغلونهم بامور تليق بالاطفال لا بالرجال .

بعد كتابة هذا اطلعت على بلاغ عام نشرته حكومة الجمهورية السورية على دواوينها واليكه بنصه :

جرت العادة ان تضاف الى الأسماء ألقاب أعجمية ولما كان من المستحسن صرف النظر عن هذه العادة نرجو الرجوع الى استعمال كلمة السيد بدلاً من كل مايقابلها من الألفاظ الأخرى ودمتم .

رئيس مجلس الوزراء

سعد الله الجابري

وكان الاكتفاء بلفظ السيد قرره مجلس الشورى السوري بعد خروج الأتراك من ديار الشام بأشهر قليلة فاستراح أهل البصيرة من هذه العادة وبقيت الحجاز ونجد واليمن الى اليوم على عادة العرب في اغفال هذا الضرب من التشريف .

ذكرت وأنا أكتب هذا كتاباً خاصاً اطلعني عليه أحد وزراء العدل في عهد الانتداب جاء من قاض جركسي الجنس في حمص أطلق فيه انواع الألقاب على وزيره فكان يقول له تارة فخامتكم ودولتكم ومعاليكم وسعادتكم وعزتكم ورفعتكم ، وطوراً يحليه بالألقاب المصطلح عليها في تلقيب رجال الدين فيقول له سماحتكم فضيلتكم غبطتكم نيافتكم سيادتكم بحيث لم يبق لقباً من الألقاب الا منحه لمخاطبه . فان كان هذا القاضي لايعرف الفرق بين هذه الألقاب فهو أبله لايصح أن يقضي بين المتخاصمين وان كان يريد الهزء بصاحبه فهي جرأة منه يستحق عليها الترقية في نظري لأن هذا شيء جدير بالهزء ولا اقول انه غير مؤدب بل أصفه بأنه فكه مداعب .

شاعر المهجر

أقامت وزارة معارف سورية برعاية رئيس جمهوريتها حفلة تكريم في الجامعة السورية يوم ٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ودعتني الى الاشتراك فيها فقلت ما يأتي :

الى ضيف سورية العزيز .

الى الشاعر الاجتماعي الكبير ايليا أبو ماضي .

اذا شهدت الحكومة والشعب هنا يحرصان كل الحرص على الاحتفال بك فذلك لأنك أهل لكل تعظيم وتكريم . وكل من قرأ شيئاً من شعرك العذب أو اطلع على أفكارك العالية منثورة يعجب بك ويعدّ ما يقام لك في كل مكان من بلادك هو بعض ما يجب لك عليها فأهلاً وسهلاً بالعربي المخلص أهلاً بالرجل الذي بيّض الوجوه ورفع الرؤوس .

وانا لنرجو أن تطيل مقامك بين أظهرنا ليتسنى لك الاختلاط بكل الطبقات فتحقق بنفسك مبلغ اعجاب السوريين بك وما أنت في الحق مفخرة السوريين فقط بما بذلت من جهد للنهوض بهم بل أنت مفخرة من مفاخر العرب في عصرنا ولذلك كان من الانصاف أن يكتب الى جانب جوازك الذي تحمله لتجتاز الحدود (جنسيته : عربي) فقط .

أحييك وأحيي بشخصك الكريم مئات الألوف من اخواننا المهاجرين الأعزة ممن تركتهم وراءك وهم يتلهفون شوقاً لوطنهم الاول وقد اثبتوا في مواطن كثيرة حرصهم على قوميتهم وتناغيهم بوطنيتهم وعربيتهم . ولطالما استحليت ممن أسعدني الحظ بالاجتماع اليهم ألمهم من ان من أولادهم من حرموا معرفة اللغة العربية لقلة المدارس ورأيتهم كيف يعنون في شمالي اميركا وفي جنوبها بتأسيس معاهد لتلقين لغتهم ومنهم من كان يرسل ولده

الى الديار الشامية ليحكم فيها لغة ابيه وامه . كل ذلك حتى لا يقطعوا صلاتهم بأهلهم ووطنهم وهم قادرون على ان يبقوها مطردة دائمة .

ايها الأستاذ العظيم .

متى عدت بالسلامة الى اهلك وراء البحار قل لهم ان سورية ولبنان اليوم غيرهما بالأمس وان النظام الجمهوري قائم فيهما على مايحب انصار الديمقراطية وان حركة الأعمال الزراعية والصناعية سائرة سيراً لم يعهد لها مثله في الماضي ، قل لهم ان عشرات من المعامل أُنشئت في عهد الحرية على مثال مافي الغرب منها وان الناس يعملون ويكسبون ويغنون وينعمون بما اتت به الحضارة الحديثة ، فأقاموا الدور المنجدة والقصور المشيدة والمصانع الجميلة والمرافق العظيمة مما لايقل بعظمته عما عند الغربيين منها ، قل لهم ان قيس المدنيـة سرى الى البوادي سرايته الى الحواضر ، وان السكان يتمززون ماحملت من مباهج ويتذوقونها لايخافون الا انفسهم ويعيشون بسلام كلهم . قل لهم ان الوطنية اتت على ما كان في بعض الأزمـان من عصبية جاهلية وان كل وطني اخذ يدرك ان اجتماع القوى المتفرقة اجدى من عمل فردي ضعيف ، قل لهم وانت خير رسول ان بلادنا هذه تتسع لابواء عشرة ملايين من الأنفس على الأقل وان الربح من استثمارها واستعمارها لا يقل عما يربحه المجدّ في خير الأقاليم . حدثهم أن عندنا أراضي كأراضي الرحبة شرقي الصفا مثلاً تعطي حبتها مئة حبة من غير ماحرث ولا كرث وان مناخ أرضنا يصلح لمعظم حاصلات الأرض وشجرها وان هناك أنهاراً عظيمة يمكن استخدامها للري على أيسر سبيل . وكل ذلك يحتاج الى رؤوس اموال اذا اجتمع بعض ما لدينا منها هنا ببعض ما لدى اخواننا في المهجر كان منها ما يأتي بالعجائب . ورابطة المال من أقوى روابط البشر .

يا أخي إيليا :

أكثر الناس لا يعرفون من بلادهم الا ما نظروه في الخريطة وتأملوه في كتب الجغرافيا ، معلومات لا تشبع من يريد كنه الأشياء وان يتعرف

الى حقيقة الواقع فهل لك أن تقترح تأليف لجنة من مهاجري الشمال والجنوب على أن يكون فيهم الزارع والصانع والتاجر والمهندس والكيميائي والطبيب ليرحلوا الى سورية ولبنان في الربيع القادم ويبحثوا بأنفسهم عما في أرضنا من خيرات مدفونة تعوزها العناية حتى تغني من يستثمرها . وأنا على ثقة أن مثل هذه الرحلة يأتي منها خير كثير ولا يقوّي حب أرض في النفوس أكثر من رؤيتها ودرس خصائصها وميزاتها .

قالت العرب :أرسل حكيماً ولاتوصه .وقالت أيضاً : أرسل حكيماً وأوصه ونحن نقول بالمثل الثاني نرسلك الى العرب في الأمير كتين معتمدين على وطنيتك الباهرة ونفسك الحساسة الشاعرة ونوصيك وان كنت في غير حاجة إلى توصية أن تصدق اخوانك الخبر وقل لهم طالت غربتكم ووطنكم في أشد شوق اليكم حياهم الله وبياهم وجعل التوفيق حليفك في حلك ومرتحلك .

تؤون

حدث ان اجتمعت الى احد رجال الدولة العثمانية اتحدث اليه في أمر يهمني فراح يتكلم ويحاول اشغالي بحديث تافه من مثل البحث عن صفاء الجو وجودة الموسم ، فرأيت أن اسأله في موضوع قريب من موضوعي كأن اسأله عن شخص في قصته شبه من القصة التي أحاول الوصول الى معرفتها وذلك على سبيل الهزل ، فتبدر على لسانه كلمات تنفعني في تلمسي ماأبغي الوقوف عليه ، واضفت الى قوله اشياء من عندي وتم الخبر المطلوب ونشرته في الجريدة فقامت قيامة محدثي واستغرب كيف وصلت الى معرفة ما يعده من الأسرار التي لم يطلع عليها انسان . وربما عاد على كاتم أسراره فقرعه على كشف ماستره بزعمه عن الشمس والقمر .

الصحافيون من اقدر الناس على استقصاء الأخبار اذا نووا كشفها ، وأنا لم استعمل هذا الاسلوب مع الوالي الغبيّ الا مرة واحدة غفر الله لي .

بعض الناس لا يحب أن يسمع مديحه ويعد مادحه متزيداً مهما اعتدل في مدحه ، وربما فاته بعض نواح ترفع قدر صاحبه الى اكثر مما قال فيه وانا خلقت من الكارهين للمدح لعلمي بعدم فائدته للممدوح ولا للسامعين والقائلين . وما فتىء بعض من يحسنون الظن بي يريدونني منذ اعوام على الرضا باقامة حفلة لي يذكرون فيها ما كان حظي من المشاركة في خدمة الآداب وأنا أجيبهم ان هذا لا يليق وانا حي ومن بعدي انتم احرار لتقولوا ما يرضيكم .

* * * *

كان لي صديق من الأعيان على جانب من الوفاء والرزانة متوسط الذكاء ، وكان كتوماً جداً يؤمن بقاعدة (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) عقد عقده على ثيب حسناء وهو في سن الشيخوخة دون أن يستشير أحداً من أصحابه وفيهم من لا يخفي عنه ما يعرف من سيرتها اذا استشاره . فرأى صاحبي من المهارة أن يكتم كل ما يحاول اتمامه حتى عن أصدق أصدقائه ، ولسان حاله : اذا أنا لم ابادر الى الاقتران بمن ظفرت بها افلتت مني واستمتع بها غيري . وكان زواجه العامل الأكبر في خراب بيته في مادياته ومعنوياته .

* * * *

قد يغفل المرء أو يتغافل عن شيء إذا حوسب عليه يخرج بعد الحساب خاسراً ويكون من ذلك عبث بالحق البين وقصور بما يوجبه العدل والانصاف. حدث أن ألقى صديقي الأمير شكيب ارسلان محاضرة في دار المجمع العلمي العربي في نهضة الأدب في الشام على العهد الأخير عرض فيها بذكر من قاموا بكبر هذا الأمر من الصغار والكبار وكنت حاضراً فلاحظ بعضهم أن الأمير لم يذكر المجمع وهو من أعضائه ، ولم يقدر ما كان له من يد في نهضة العلم العربي . وقالوا انه كان من باب اللياقة ان يذكر صديقه رئيس المجمع ولو بكلمة .

ولعل سياسة ذالك العهد والكتلة الوطنية مسيطرة ومن اعضائها من يكرهني وهي تبغي ان تأتي بالأمير لرياسة المجمع دعته الى هذا التغابي ، وقلت لمن أبدى تلك الملاحظة : دع هذا ورجح حسن الظن ، وما ضرك لو قلت ان الامير نسي فقط ، وانا لا أعتقد انه ممن يغمطني حقي ، وقد صدقته الود طول عمري . وما أعجب بأحد من ارباب الاقلام اعجابي به وربما لم يخدمه احد من معاصريه كما خدمته (راجع فصل وطنية الامير شكيب في الجزء الثاني من المذكرات) واذا جنحت الى التوسع في التحليل فقل ان شكيباً بُلي بصحبة بعض الزعانف ، بسائق من سلامة صدره ، يوسع لهم في مجلسه كما كان منه مع رجل لازمه ملازمة الكلب لاصحاب الرقيم مدة مقامه الاخير في دمشق فكبر له أناساً وصغر له آخرين ، وعادت وشاياته على الامير بالضرر اما هو فلم يخسر اكثر من بيع ضميره ولطالما باعه لمن يساومه ومن لا يساومه .

كثيراً ما قلت لشكيب اني أحبه اكثر مما يحبني فكان يبتسم لقولي ويستحي ان يجيبني .

الدواء الناجع

تلوث ارباب السلطة التنفيذية في الشام ومصر بالرشوة فذهب وقار الحكومات واحتقر المحكوم عليهم من عينوهم واهملوا النظر في أمرهم ، ويستحيل ان تكون عقلية شرطي كعقلية قاض مثلاً والقاضي تعلم في الجملة والشرطي او الدركي اقرب الى الأمية والعامية . ومن دهاء بعض الشرطة والدرك انهم جد أمناء لكل حكومة تتسلم زمام الحكم ، ولكل حزب يسيطر وتنتشر دعوته . والداهية الباقعة منهم قد يخدم عدة احزاب من باب لا ترسل الساق الا ممسكاً ساقاً . اما في مسائل الرعية فيعملون على الهوى ويسلبونها كأنما يأخذون من ملهم ، ويحكمون في أهل بيتهم . ومنهم من يسأل أرباب المصالح جهرة ان يمنوا عليهم بشيء لأن رواتبهم لاتقوم بأودهم واود عيالهم ، ومنهم من يرتقون الى اعلى من ذلك فيساومون على الجعالة ، يسلبون ماوسعهم السلب . ولطالما ضاعت الجرائم بدريهمات يدفعها المجرم لمن بيده التحقيقات الأولية التي عليها يبني الحكم ولذلك لم ينقطع دابر الأشقياء لأن أرباب الشحنة يغضون الطرف عنهم أحياناً ، ومن المتهمين من يحمل للدركي والشرطي حصته من الغنيمة ، وبهذه الشركة السرية بين الشقي ومن يقبض راتبه من الدولة لمطاردته ومطاردة امثاله ضاعت الحقوق وزالت الهيبة ومن رجال الامن من اذا قرت الاحوال وكسد عندهم سوق الانتفاع من الناس يخترعون مسائل لاأصل لها او يجسمون مالديهم من الوقائع ليملأوا جيوبهم من جيوب الأبرياء .

ولا دواء فيما نعلم لهذا الداء الا تفتيش كل ديوان وكل شعبة من شعب الادارة وتنفيذ تقارير المفتشين الأمناء من دون اهمال ولا امهال وبذلك ينزل معدل الفساد ويستريح الناس باخراج كل من يسرق من الخدمة على ان لايعين أحد مكانه وبهذا يقتصد مبلغ عظيم يضم الوفر منه على مشاهرات

ارباب الرواتب الصغيرة فلا تتضخم الموازنة ولا تبقى معذرة لمن يسيئون الاستعمال من العمال بدعوى قلة رواتبهم .

ربما يقول بعض من يحبون السلامة ان هذا الرأي خيالي لايتأتى تطبيقه لما يحدث منه للحكومة من الاتعاب وربما كان منه مايخل بالامن ونحن نعتقد ان افراداً فاسدين ويعرفون انفسهم أنهم فاسدون تستغني عنهم كل حكومة تحب الاحتفاظ بكرامتها واذا تم هذا الاصلاح تصفق الرعية وتغتبط لانها متبرمة بالفاسدين وتلعن أبداً من يخرجون عن جادة الحق ولا يمنعها من اهلاكهم الا تكريم مايلبسون من بزة والخوف مما يحملون من سلاح .

ونلخص بعد هذا ـ (وقد سبقت لنا هذه المعاني في هذه المذكرات) دعوتنا في كلمات : صرف المأمورين المستغنى عنهم ، تفتيش دقيق على الخائنين وطردهم من الخدمة بلا هوادة ، التوسعة على ارباب النزاهة من الموظفين واعطاؤهم مشاهرات جيدة .

وهذا الاصلاح يحتاج الى بضع سنين حتى يتم على مايجب وتظهر منافعه من السنة الاولى وهو انجع دواء .

خزانة عظيمة

ارادني صديقي العلامة ابو عبد الله محمد الزنجاني من علماء ايران عليه رحمة الله ان اكتب الى العالم الكبير الميرزة محمد علي خان فروغي رئيس وزارة ايران والى العالم الميرزة علي اصغر خان حكمت وزير معارفها أطلب اليهما عمل فهرست لمكتبة قصر كلستان في طهران وقال لي ان كتابتي اليهما تؤثر اثراً محموداً لانهما يعرفانك حق المعرفة ويستمعان لاقتراحك . فتجاسرت وكتبت اليهما فجاء جواب العلامة فروغي رحمه الله بالعربية وهذا نصه :

حضرة العلامة الاستاذ الأكبر دامت معاليه

تناولت كتابكم الكريم الحاوي حسن ظنكم بي وعواطفكم الجميلة نحوي ونحو بلادي فأرجوكم أن تقبلوا فائق شكري وامتناني على ذلك ويحسن بي أن أحيط علمكم الشريف أنه قد سبقت أيضاً الى السمع ذكرى فضائلكم وما تبذلونه من الخدمات الصادقة للعلم والاسلام فارجو الله أن يؤيدكم لذلك ويبقيكم ذخراً للعلم وأهله .

أما ما اقترحتموه من وضع فهرس للخزانة الملكية بقصر « كلستان » فقد بوشر بالعمل منذ زمن ونرجو أن يتم أمر التنظيم قريباً والشروع في طبع فهرس يتضمن ما احتوت عليه الخزانة من المؤلفات واذا طبع فانكم ستشرفون عليه ان شاء الله . هذا مالزم وتفضلوا في الختام بقبول جزيل سلامي .

والغالب أن حوادث الحرب الماضية وما لقيته ايران المحبوبة من ارهاق الدول المحاربة أخر انفاذ هذا المشروع النافع وعسى أن يكون الأخلاف على ما كان الأسلاف عند حسن الظن بهم ،

الوطنية العربية

ما عهدنا طائفة الروم الارثوذكس الا متضامنة مع السواد الاعظم من سكان البلاد الشامية في كل نازلة وها هي تقدم برهاناً آخر على عروبتها ووطنيتها في المسألة الصهيونية بلسان بطريركها العلامة الكسندروس طحان فقد نشر بياناً في قضية فلسطين دل على شعوره وشعور طائفته . ومما قال مخاطباً رجال الدين والدنيا من ابنائه :

لم يفت علمكم ما منّ به المولى سبحانه على جميع البلاد التابعة روحياً لكرسينا البطريركي الانطاكي من نعمة الاستقلال بعد الاستعباد والهناء بعد العناء فأضحت بلادنا تملك امر نفسها يسوسها ابناؤها البررة الاخيار . غير ان هذه الحالة الطيبة التي متع الله بها امتنا العربية وكنا نأمل دوامها قد تنغصت بالقرار الجائر الذي صدر في الآونة الاخيرة بتجزئة فلسطين الارض المقدسة الى منطقتين يهودية وعربية — التجزئة التي يقصد منها خلق دولة يهودية مستقلة في بلاد عربية عريقة في القدم - والذي يحمل في طياته خطراً مبيناً على مقدسات الشعوب العربية المسيحية والاسلامية في فلسطين العزيزة ويكوّن جواً دائم الاضطراب ربما ادى الى تعكير السلام العالمي لما لتلك المقدسات من الاحترام العميق عند اصحاب الاديان مسيحييها ومسلميها وقد كنا نرجو قبل صدور هذا القرار الجائر ان يتورع مصدروه من العبث بحقوق اولئك الشعوب الذين لم يأتوا امراً يستوجب التهجم على بلادهم التي مرّ على سكناهم فيها عدة قرون وهم فيها آمنون متضامنون . ولكن خاب الامل ووقعت الواقعة فداهمتنا ايام عصيبة هي اعظم ما حل بالبلاد العربية من محنة سوداء لم نجد معها مناصاً من ان نهبّ الى الدفاع عن حقوقنا وصيانة حرمة مقدساتنا . واي شعب من شعوب الارض كلها تتوقد في صدره جذوة الدين لا يبذل النفس والنفيس في سبيل الذود عن معابده

ومساكنه وحرماته التي هي اثمن ما يملكه في دنياه ؟ وما كاد القرار الجائر ينتشر خبره المؤلم في الاصقاع العربية حتى قامت التعديات الصهيونية على حياة السكان وعلى معابدهم وبيوتهم ومتاجرهم بصورة فظيعة تنبىء عن مهالك مبيتة للرجال والنساء والاطفال ليخلو الجو لمثيريها فيمعنوا في امتلاك الديار كما يشاؤون .

ولم تتقاعد الشعوب العربية الذين أُخذوا على حين غرة ورأوا الخطر المداهم عن الذود عن نفوسهم وعن كل ما له شأن في حياتهم الدينية والاجتماعية اندفعوا يحمون ذمارهم ويدافعون عن حرماتهم غير ضانين بكل ما لديهم من عزيز في سبيل تحرير فلسطين العزيزة .

واذ كنا أبناء الكرسي البطريركي الانطاكي تؤلف جزءاً من البلاد العربية فمن واجبنا أن لا نتقاعد عن المبادرة الى المساهمة الفعلية في الجهاد القائم أمامنا للدفاع عن فلسطين المقدسة والى التضامن مع اخواننا العرب بكل ما نملك من قوة وعزيمة ماضية لنصرة الحق وخذلان الباطل .

سرقة الآثار

زارني في داري الدكتور عبد الرحمن الكيالي وزير المعارف والعدل في وزارة السيد جميل مردم بك الكتلوية (نسبة للكتلة الوطنية) وقال لي انه اتصل به من مصدر وثيق ان الأمير جعفر الحسني مدير دار الآثار يتجر بالعاديات بصورة غير محللة اي يسرقها فتأثرت لهذا الكذب الصراح وقلت : ان الأمير يقل من يضارعه في نزاهته من عمال الجمهورية ولو كان يستحل أن يسيء استعمال وظيفته لعد اليوم من كبار الاغنياء ، واذا أنا سرقت فيكون جعفر قد سرق . وسراق الآثار والمتجرون بها هم يتهمون الاستاذ الحسني بهذه التهمة الشنعاء لانه سلم بعضهم الى القضاء لمحاولتهم اخراج آثار سورية الى خارج الحدود .

ولعل الكيالي حاول الصاق هذه التهمة بالامير يوم حاول مع رئيس حكومته ان يهديا أيضاً أحد المهربين من الارمن المتأمركين الاسدين الرخامين الرابضين الى اليوم في المحل المنسوب اليهما (ارسلان طاش) من الجزيرة ومنع المفوض السامي يومئذ اخراجهما من ارضنا بعد ان نشر خبر هذه الهبة العظيمة في الجريدة الرسمية . فبدا للكيالي ان ينتقم من الامير جعفر باتهامه بهذه التهمة الدنيئة ووقع في نفس الكيالي بعد المنع ان يقنع مدير دار الآثار بالتوسط لدى الحكومة المنتدبة حتى تغض الطرف عن الاسدين وتأذن باخراجهما من سورية فأبى .

ولما لم يستطع الوزير الكيالي ان ينال من الامير جعفر اضمر له الحقد هو ورئيس الوزراء وانضم اليهما مؤخراً رئيس الجمهورية فما شفى صدورهم من الامير جعفر الا اقصاؤه عن دار الآثار فاحيل الى لجنة تأديبية جزاء أهليته واستقامته . ومن طبيعة الكتلويين انهم يشق عليهم مشاهدة أرباب النزاهة في الحكومة لانهم يحاولون أن يكون الناس كلهم كاسنان المشط في الاستواء

هذا مثال من ذمة من طالما زعموا ان الوطنية وقف عليهم وعلى من يرضون عنه احتكروها لانفسهم وباعوا واشتروا باسمها ، وكان أهم موادها التزييف والظلم .

العلم يغني

كان الأدب العربي الى أواخر القرن الماضي لا يدر على صاحبه ما يسد به الرمق لأن الولايات العربية كانت تحت الأحكام التركية غارقة في الجهل ، والأتراك ليسوا من العربية في ورد ولا صدر ، ومصر ما كانت في درجة من الحضارة تعرف قدر لغتها . فكان بعض المتأدبين يجعلون من الأدب حلية يظهرون بها اذا كفوا مؤنة العيش ، ومنهم من اذا بَرَّح بهم العوز ينظمون القصائد في مدح الأكابر والحكام فيجيزونهم اجازات ضئيلة .

وكان في مدرسة اللعازارية بدمشق استاذ للعربية اسمه أمين الحلبي تعرفت اليه عندما كنت أختلف الى ذاك المعهد أتلقى الآداب الفرنسية فكان لفرط غيرته على أدب العرب كثيراً ما يعذلني على ولوعي بادب الفرنج واهمالي الأدب العربي ويذكر لي مافي هذا من البدائع التى خلت منها آداب الفرنسيين .

ثم انتقل صاحبي الى بيروت وحرر جريدة الأحوال مدة والغالب أنه سئم المراقبة على الصحف يومئذ وما كان صاحب الجريدة عليه من التعصب الذميم وملّ أيضاً العيش من شق القصبة على غرامه بالعرب والعربية وهاجر الى جنوبي افريقية فاشتغل بالتجارة واغتنى في سنين قليلة .

ومن حال صديقي الاستاذ أمين الحلبي تستخرج مسألة روحية تمازجها حالة اقتصادية ذلك أنه لو لم تشتد منافسة البرتستانت والكاثوليك في ساحل الشام في القرن الماضي لما ظهر الرعيل الأول من علماء العربية . أنشأوا المدارس لنشر مذهبهم وعنوا بتدريس العربية فظهر الأعلام من خدامها أمثال بني اليازجي وبني البستاني والحوراني والأسير والأحدب وغيرهم .

الصحف والكتب

يقول غستاف لبون ان الصحف والكتب تؤثر في نشوء الآراء وفي سرايتها تأثيراً عظيماً ولكن دون تأثير الخطب . وتأثير الكتب أقل من تأثير الصحف لان الجمهور قلما يقرؤها ومن الكتب ما استهوى العقول فأدى الى اهلاك ألوف من البشر كما وقع من كتب روسو فانها كانت توراة تشبع بها زعماء الارهاب ومثل ذلك كتاب « بيت العم توم » الذي ساعد كثيراً على نشوب حرب الانفصال الدامية في اميركا ، وقد أثرت رواية روبنصن كروزي وقصص جول فرن تأثيراً عظيماً في عقول الشبان وفتحت لكثيرين طرق الكسب . وقوة الكتب كانت شديدة عندما كان الناس يقرؤن قليلاً فان تلاوة التوراة في زمن كرومثل أنشأت في انكلترا عدداً كبيراً من المتعصبين . وفي العهد الذي كتبت فيه رواية « دون كيشوت » كانت قصص البطولة ذات تأثير سيء في العقول كلها حتى لقد اضطر ملوك اسبانيا أن يحظروا بيعها أما اليوم فان تأثير الصحافة أشد من تأثير الكتب . وقد ظهر في الصحف اليومية في كثير من الحوادث الخطيرة لعهدنا شيء من الاستهواء والاغواء ، وتبين الآن أن حرب الولايات المتحدة مع اسبانيا كان النافخ في ضرامها بعض الصحف ولو فرض وهذا الفرض غير عسير التحقيق ، ان صاحب مصرف متوسط الثروة ابتاع جميع صحف مملكته يصبح سيدها الحقيقي يعلن الحرب ويعقد الصلح على هواه . وقد رأينا الماليين يبتاعون القسم الخاص بالبورصة في جميع الجرائد آملين أن يعلنوا عن مشاريع من شأنها أن تأتي على الثروات التي جمعت من التوفير لتربحها . وما من حكومة تجهل هذه القوة القاهرة للصحف وغاية ما يحلم به السياسي المحترف أن يتخذ لنفسه جريدة منتشرة تنطق بلسانه وقد كان من وزارات الامبراطورية الالمانية أن حببوا للرأي العام معظم اعمالهم

بواسطة صحف غذوها بأموالهم فاستمالت لهم الرأي العام . ان سرعة تصديق القراء لما يقرؤنه في جرائدهم عجيبة من العجائب » .

هذا رأي الحكيم غستاف لبون في الكتب والصحف وهو كلام لايصدق على الاقطار العربية المتمدنة وقراء الصحف ما برحوا قلائل وقراء الكتب أقل بكثير من قراء الصحف . ثم ان القراء عندنا يسيئون ظنهم بارباب الصحف ويزعمون أن الصحافة تضلل العقول وتكذب وتختلق وتسير مع أغراضها وأحزابها ، ساءت سمعة الصحف فرميت بما رميت به وكانت الحكومات هي التي جنت عليها ، تنفق عليها وتفسدها بالمال لتقوم لها بدعايات ملفقة ، ومن أحسن ما تم في عهد الثورة الاخيرة في سورية الغاء نحو ثمانين صحيفة والاكتفاء بعدد قليل فقط . وبما أبقوا عليه من الصحف المحترمة يرجى أن تتحسن منازع الصحف وأن تصدق ولا تتحامل ولا تختلق وأن تحمل للقراء كل ما يفيدهم .

أما الكتب فهي في بلاء لا يشبهه بلاء لاعراض القوم عن تناولها الا مكرهين ، فالكتب المدرسية تؤلف للدارسين ولجيل خاص من الناس ، ومهما سمت درجتها لا يتناولها الجمهور ، وعلى الجمهور وما يتغذى به من الافكار المعول الأول . والجمهور عندنا يتغذى كثيراً بالقصص والروايات ومنها ما لايفيد في دين ولا دنيا وكتب الدين مقصورة على طبقة بعينها لا تتعداها الى غيرها وأكثر رجال الدين يستعيرون الكتب اذا حفزتهم الحاجة الى مطالعتها وقل فيهم من يطيل النظر فيها .

بقيت طائفة من الناس تحب كتب الثقافة وهي ضئيلة لا يعول عليها في نشر الكتب لأن عددها الى اليوم لا يتجاوز المئات واذا وصلت بعض الاسفار الى أن يطبع منها ألوف فهذه من الكتب التي ألفها أرباب النفوذ أو من يحسنون عرض بضائعهم على القوم بأساليب لهم تفردوا بها . والمؤلفون في هذا الصنف من الكتب الشريفة لايستطيعون أن يكونوا مؤلفين وتجاراً . وما برح الوراقون يربحون من الكتب أكثر من المؤلفين .

ومن أجل هذا نقول ان الكتب والصحف لم تبلغ المبلغ الذي كان

يجب لها في الشرق العربي ولعلها تصل الى ما يرجى منها من التأثير بعد جيل أو جيلين لأنا أخذنا نكثر من نشر المعارف ولا سبيل الى رواج الصحف والكتب بغيرها ولا بد من قضاء الوقت اللازم لنضج الأعمال وانارة العقول .

قال أحد سفراء اميركا وهو من هواة الكتب ان لأرباب الملايين في أميركا خزائن كتب جميلة والبلد لا يعد مثقفاً ثقافة حقيقية الا اذا كان فقراؤه يقتنون الكتب .

الصداقة والسياسة

اعجبتني كلمة قالها الدكتور عبد الجبار جومرد من نواب المعارضة في مجلس نواب العراق : اذا كانت السياسة هي الاشتغال للصالح العام فالسياسة شيء والصداقة شيء آخر ، اذا تكلمت بالسياسة لا ارى امامي صديقاً واذا قابلت صديقاً نسيت السياسة . وانا أحس بان هذه القاعة ـ قاعة المجلس العراقي ـ محراب سياسي للامة فالكلام فيها بأدب والمعاملة بالرفق ، ومن احترم هذه الندوة احترم امته فاذا تطرقت الى النقد في السياسة والنقد مرّ ، فارجو الايغضب علي احد واذا غضب فلا أبالي .

وصاحب هذه المذكرات جرى على هذه الخطة ففرق بين الصداقة والسياسة وقد لايحيد عن قانون الصداقة لخدمة السياسة ولا يتخلى عن واجبه في النقد مراعاة للصداقة . قال لي بالامس احد خلاني الاعزة لقد بالغت في المذكرات في الثناء على صاحبك محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية الاول ، فقلت له هذا ماعرفته فيه بعد طول العشرة ، وما ذكرته شهد الله الا بما فيه واشرت الى ماحمد منه والى ما انتقد عليه . وصاحباك اللذان جاءآ بعده هل قاما بحق هذا المنصب الجليل اكثر من صاحبي هذا ؟ ماذا كان من صاحبك الثاني وهو بالاجماع لم يضر ولم ينفع على ما انطوى عليه من اخلاق حسنة وعفة عن المال . وهل في مقدورك ان تنكر ان الثالث ساقنا بسوء سياسته

وفساد طريقته الى الخراب حتى آل امره الى ذاك المصير المحزن .

هذه هي عينات رجالنا لم تتعلق الأقدار بان يتولى هذا المنصب العظيم ارقى كعباً منهم او ان الحظ حظهم فبلغوا درجة من الظهور كان غيرهم احق بها واهلها . انا ياصاح أصف المترجم لهم بما يتراءى لي منهم في مرآتي وبما يحكم عليهم به عقلي ورويتي فأخطىء وأصيب ، وقد يكون صوابي عند نفسي اكثر من خطاءي . وليس لي من المقدرة ان اخلع على من اذكرهم حللاً من الثناء فضفاضة براقة ولا ان أعريهم مما ثبت لهم من الصفات فأشوهها وأسودها ، والحب لايؤثر في تصويري لهم فالرئيس الثالث احترمه منذ اول نشأته واقيم له بعض العذر فيما كان يأتي على يده فلما تولى زمام الامة واصابه الغرور فارتكب ماارتكب من خرق القوانين والسير بسيرة الظالمين نفضت يدي منه . ومن طبعي ان انفر ممن يباين الحق ويظلم الخلق وكنت ازهد في صداقة من يدوسون المصلحة العامة من اجل مصلحتهم الخاصة ولو كانوا اقرب الناس الي .

كنت اود لو صحت عزيمة صاحبي الناقد ورماني بالتشيع للرئيس الاول أن يكتب سيرة صاحبه الأخير او سيرة الرؤساء الثلاثة وهو من اقرب الناس اليهم يعرفهم كما يعرف نفسه وكان عشيرهم ورصيفهم . نعم انا مبتلى بالصراحة وقد امتدح عدوي واذكر مساويء صاحبي لاتعميني السياسة فأسلب هذا او اعطي ذاك على هواي وقد اجامل بعضهم الى حد محدود وانا موقن انه لو كانت له القوة لغمزني غمزة مسمومة وتعذر عليه ان يذكرني الا بالجمجمة .

حاولت منذ اخذت أؤلف وانشر ان اجعل للتاريخ المكانة التي له عند الغربيين وان أتوخى في كتابته الحق والارشاد لا الارضاء والعبث فغضب عليّ من غضب ورضي عني من رضي فما تضررت بالغضب ولاانتفعت بالرضا ، واغتبطت كل الاغتباط ان ارضيت ضميري وما باليت . وهذا فيما اظن الفرق بين ما اكتبه ويكتبه غيري ممن ينظرون قبل كل شيء لمصلحتهم ويهزأون مما اتوفر عليه ويعدونه نقصاً حماهم الله منه !

الدجل الديني

منذ عهد بعيد جاء قريتنا الشيخ محمد الدندراوي الصعيدي ينشر طريقته « الرشيدية » وسارع بعض سراع التصديق من الفلاحين الى تلقيها عنه . وبعد سنين جاءهم ابنه أبو العباس يتولى من القرية ما كان أبوه يتولاه ، وربما كان على شيء من العلم أكثر من أبيه ، قيل انه دخل الأزهر ، فكثر مريدوه وكان على مايظهر يوصيهم وكلهم أميون بعدم الاختلاط بغير جماعتهم واخترع لهم عمامة جديدة يمتازون بها عن غيرهم وهي عبارة عن طربوش ابيض تلاث عليه عمامة بيضاء ذات عذبة طويلة واوصاهم ألا يحلقوا لحاهم فطالت حتى ليرتبك بها صاحبها عندما يباشر اعماله الزراعية . ولم يعلمهم ولم يفقههم واكثرهم لايحسنون تلاوة الفاتحة . وفتن مريدوه بكل حركة تصدر منه ، وسحرهم بسكوته أكثر من كلامه ، وكانوا لفرط اعتقادهم فيه يجوزون أخذ ماء وضوئه وغسله يشربونه ويتبركون به ويرون انه شفاء من الامراض وكانوا اذا ارادوا الاقتراب منه ركعوا وسجدوا وقبلوا الارض ورجعوا الى الوراء ومن سعد بتقبيل يده حاز الاجر العظيم . وسمعتهم في ذكرهم وانا في حديقة مجاورة يصرخون ياأبا العباس اغفر لنا ويستغيثون به كما يستغيث المؤمنون بالمولى تعالى .

وما راعنا الا والجرائد المصرية ترمي صاحبنا بانه نبي كذاب ووصفت مقر دعوته في قرية من قرى قنا فكان مايأتيه جماعته هناك عين مايأتونه هنا من مخالفة الشرع . وأصدر العلامة مفتي مصر فتوى في تكفير كل من يقول بما اشتهر عن أبي العباس وجماعته . وعلى الاثر وافى أبو العباس دمشق واجتمع الى قاضيها ومفتيها فأقراه على طريقته وقالا انها لاتخرج عن سائر الطرق الصوفيه ليس فيها مايكفر به . والواقع ان دعوى النبوة بعيدة عن الشيخ

القناوي ولكن طريقته دنيوية يكلف بها الداخل لنفقات أكله ورفاهيته ما لاتتسع له جيوب الفلاحين الفقراء . وقد بنوا له بيتاً في دمشق سموه الزاوية وآخر في عين الخضرة لاصطيافه وكل ذلك من أموالهم وبأيديهم . ولو فقههم وعلمهم لنجا من الملامة لكنه احب ان يسلمهم كما استلمهم .

لما شطر الشيخ القرية شطرين تعذر عليّ وعلى أصحابي من نبهاء أهلها ان أقوم بما كنت أنويه من تعليم اهلها وتمدينهم وجلب المرافق لهم فغلب الجهل العلم وكثيراً ماكان منه ذلك .

الجامعة العربية

انشئت الجامعة العربية منذ بضع سنين وكان بعض المفكرين يتشاءمون منها لأنها مما أوحت به السياسة الانكليزية ، والانكليز خدام منافعهم لو أمكنهم أن يسخروا البشر كله لمصالحهم ما تلكؤا عن امضاء ذلك ساعة ، وكل محظور مباح في سياستهم .

وكان مما شغل الجامعة عن اتمام ما أُلفت له مسألة فلسطين المشؤومة وسعيها مع الحكومات العربية السبع لحفظ حقوق العرب في القطر المنكوب . ومع أن الجامعة وعلى رأسها صديقي الاستاذ عبد الرحمن عزام باشا لا ينقصها شيء من أدوات النجاح لم توفق الى تحقيق ماكانت ترمي اليه من الدفاع عن حقوق الفلسطينيين على ما يجب ، لأن نجاحها ليس مما تملكه الجامعة الجديدة ، فكيف بالنجاح وامام الجامعة دول كبرى اعتادت أن تملي ارادتها في سياسة العالم والعرب منهم وهؤلاء ما وسعهم الى اليوم أن يملوا ارادتهم على أحد .

فاذا لم يكتب للجامعة التوفيق في سياستها على ماكان يرجى فما أحراها أن تجدد همة لاتمام الباقي من برامجها ومنه الغاء الجمارك بين الأقطار العربية الداخلة في الجامعة ومنه توحيد الثقافة والنقد والبريد وغير ذلك

ليشعر العربي أنه واخوانه في القاصية والدانية متحد في بعض مايجمع الدول من الروابط ويؤلف منها كتلة تمكنها من رفع صوتها وحماية ذمارها .

والرجاء ألا تصاب الجامعة بما ابتليت به أعمال الشرقيين من اظهار النشاط في بدء كل مشروع ثم الضعف فيه رويداً رويداً حتى لا تكاد تجد له أثراً يذكر في الآخر ، خلافاً لاعمال الغربيين تبدأ بنشاط قليل ثم يزيد على مر السنين .

ولا مندوحة من التصريح هنا ان على الجامعة ان تشغل نفسها بما يدخل في الصميم من برنامجها تأخذ اللباب وتطرح القشور وتبدأ بالفروض قبل النوافل . واذ قد انقضت مهمة الجامعة في فلسطين او كادت نرى ان نلفت نظرها الى انفاذ سائر ما دون في جدول اعمالها لتثبت للأمة أنها تخدم جهدها وأن ما وقع من قصور كان غير مقصود وفي وسعها تلافيه .

جرت عادتي اذا رأيت الخلل في عمل ان ابادر الى اصلاحه بكل ما عندي من حيلة اما ان اهدمه على أمل ان اجد من البناء الجديد خيراً اكثر فلا اقول به لأنه من شأن العاجزين والهدامين . وبما اثبتته الأيام ان من الأوضاع ما اذا زهدت نفسك فيه فغضبت عليه والغيته لا يتسنى لك ولا لمن بعدك ارجاعه .

الكتب المقروءة

يظهر ان الامم مولعة بالقصص الغريبة ، ومما ترتاح اليه كثيراً كتب النقد والرحلات ، ولذلك راج هذا النوع من الاسفار في كل العصور ، ونمثل هنا بكتابين كانا ولا يزال لهما شأن عظيم في الغرب . الاول كتاب الاخلاق للابرويير ، وصف فيه اخلاق من كانوا يختلفون الى قصر لويز السادس عشر فأجاد من وراء الغاية ، وصار كلامه دستوراً يسترشد به . والكتاب الثاني كتاب دون كيشوت لسرفانتس صور فيه المجتمع الاسباني في القرن السادس عشر ، صوره بنبلائه وفرسانه وشعرائه وظرفائه وقساوسته وسوقته وباعته وغانياته وعاشقاته وطاهياته بما لم يبق بعده غاية لمبدع . وسخر في جملة ماسخر بالخاصة من فرسان ذاك العهد كما سخر ربليه من رجال القرون الوسطى وكلا المؤلفين ترجمت رواياتها الى اللغات الاوربية وصادفت من الرواج مالم تصادفه قصة الف ليلة وليلة في الشرق والغرب .

راج كتاب الكاتب الافرنسي وكتاب الكاتب الاسباني لوقوع الجمهور فيهما على وصف من اتصفوا بهذه الاوصاف والقوم متبرمون منهم حانقون على كبرائهم فنطق المؤلفان بلسانه ورددا نغمته وضربا على سندانه . والكتب من البضائع التي يروجها ذوق من يقتنيها والشعوب يتناولونها مقلداً بعضهم بعضاً بالعادة والعدوى .

وانا لنرى اليوم كتب الساسة المشهورين تصيب رواجاً عظيماً يوم ظهورها ويطبع الطابعون من مذكراتهم مئات الالوف فيغتني اصحابها لكثرة رواجها كما نجد رواجاً عظيماً لروايات المشاهير من المعاصرين فتنقل الى اللغات الحية الكبرى ، وتمثل رواياتهم التمثيلية بعدة لغات ، وكلما مثلت كان للمؤلف الأول حظ من أرباحها . وما برحت تآليف بعض ادباء فرنسا وانكلترا واميركا والمانيا وغيرها مثلاً باهراً من هذا الرواج . وان الغربيين ليتنافسون اليوم

في تلاوة قصص برناردشو أكثر مما يتنافسون في تصفح أي كتاب في الموضوعات السامية . ومن الكتب من يشترك الخاصة والعامة في تلاوته ومنها مايكون وقفاً على الخاصة فقط أو على العامة فقط .

قال كليمان ڤوتيل في جريدة جرنجوار مرة : اجمع النقاد والادباء على ان الكتب الصالحة لاتبقى مجهولة أبداً وان لها من عدل الاجيال القادمة من يظهرها ولا يخفيها ، على حين تتراكم الآثار ذات القيمة التي خانها الحظ في ظلام الديماميس الادبية . وقل جداً في الكتب التي احرزت اعجاب القوم وتمجيدهم ماكان نصيبه النسيان والاهمال . لنقل قولاً حراً من يقرأ الى اليوم كتب فولتير (ماعدا قصصه) ومن يتلو جان جاك روسو (ماعدا اعترافاته) ومن يتصفح شاتوبريان (ماعدا مذكراته عما وراء القبر) ومن ينظر في جورج صاند وتيرس وجيزو وميشله وبالزاك وفلوبر . فاذا كان الحال هكذا مع هؤلاء الصدور فما مبلغ كتب غيرهم من المؤلفين في باب الرواج . ألا يصيب كتبهم غبار النسيان حتى تستحيل تلك الكتب غباراً . وعناية الخلف باسفار السلف من الامور الشاذة الموقتة وما ارى مئة كتاب افرنسي من كل ماانتج الماضي تعيش الى اليوم عيشة حقيقية اه .

ولابد ان يتساءل القاريء ويقول ان هذا ماعرفناه عن امة مولعة بالقراءة اشتهرت بتفانيها في الادب وولوعها بالجديد فما هي ياترى الكتب التي خلدت عندنا على مر الدهور ؟ . وارى ان ما خلد من كتب الشريعة خلد على رفوف الخزائن اكثر مما خلد في الصدور ، وندر ان يرجع الخاصة منا اليها وهي بكتب الخواص أشبه . اما كتب الجمهور فمنها ماعتق فسئمت النفوس النظر فيه ومنها ما اصبحت حاجة الناس اليه غير حاجتهم في القرن الماضي الى مايشبهه فاقتضى ان تؤلف له كتب تروقه وتنفعه في آن واحد . واظن اكثر من وهبهم الله ملكة التأليف لايفكرون كثيراً في هذا الأمر المهم . ولو وضعوا مايدعو القراء الى الغرام بالمطالعة لاتى الجيل الجديد على غير هذه الخطة من التفكير . قالوا قل لي من تعاشر لأقل لك من انت ، ونحن نقول قل لي ماتطالع لاقل لك من انت .

يقلُ جداً المؤلفون الذين نبغوا بين اظهرنا حتى اليوم في الموضوعات اللذيذة المفيدة لان نهضتنا في الآداب حديثة العهد ومن اخذوا انفسهم بنشرها قلائل جداً ليس لهم ولا خجل من الحق مكانة المؤلفين الغربيين سواء كان بجودة الانتاج وكثرته وتنوعه او التحيل لاستمالة عقول القراء للاقبال على ما أُخرج لهم . ولندرة القراء ندرت الكتب الصالحة ولا تكاد تجد للقدماء الا تآليف معدودة لها طلاب يتداولونها على توالي الاحقاب والمحدثون من المؤلفين يقلدون الغربيين في تآليفهم وهم لم يصلوا الى أولى مراتبهم ايام كانوا في مبدء نهضتهم . وقانا غير مرة ان من رأى مؤلفاتنا في القرن الماضي ورآها الآن ادرك مابلغناه من درجات الرقي الذي نرجو ان يطرد حتى لانتخلف في ميدان الافكار الحرة والعلم الصحيح .

ذكريات الغربيين

اذكرني احتفال مدينة لشبونة في العهد الأخير بمرور ثمانية قرون على خروج العرب من البرتقال بما للغربيين من الذكريات التاريخية الكثيرة عندهم . يذكر البرتقالي مغادرة العرب دياره بعد أن حكموها نحو ثلاثمائة سنة وما جاروا عليها ولا ظلموها وأتوها كما أتوا اسبانيا بحضارة فيها عدل وفيها رحمة لم تشهد جزيرة ايبريا مثلها من قبل . وكان سكت أهل البرتقال عن احتلال العرب أرضهم زمناً طويلاً فلما كتب لأجدادهم التغلب على أعدائهم قام احفاد احفادهم اليوم يرددون صدى تلك الغلبة التي ثلجت لها صدور أجدادهم . وما نسي البرتقاليون وطأة الغريب وعادوا يعيدون ذكرى أتت من تسلسل الفكر فيهم وسعيهم الى كل مايورثهم المجد والعظمة .

بعد خروج الشام من أيدي العثمانيين كنت أضع ورصفائي في الحكم جريدة بأسماء الأعياد الرسمية التي يجب أن تحتفل بها الأمة كل سنة ولفت نظرهم الى الهجرة النبوية فما وافقني زملائي على وضعها في قائمة الاعياد

حتى نبهت افكارهم الى عظمة ذاك اليوم الذي كان مبدأ كل مجد سجله العرب في الاسلام . فانظر الى الفرق بين الغربيين والشرقيين : البرتقالي يحتفل بدفعه صائل المحتل عن بلاده وهو لايخاف عودة العرب ثانية والمسلم يتناسى ذكر المحطة العظمى في تاريخه وكان الخروج منها سعادة عظمى له .

من عظماء رجالنا من يجب علينا ان نحتفل بذكراهم العظيم لما أسدوا الينا من خير كنور الدين وصلاح الدين ونحن نتناسى جميلهم لاننا بلينا بعدم تقدير رجالنا قدرهم .

تحضير العشائر

رأت الحكومة الجديدة في سورية ان تعزل نواب العشائر في مجلس النواب عن نواب المدن والقصبات لان للعشائر مطالب اذا جرت مناقشاتها بينهم تكون اقرب الى التفاهم . وكان نواب العشائر مغبونين في الماضي مع رصفائهم من اهل الحضر لأن لهجة هؤلاء غير لهجاتهم واكثر ما يعرض في مجلس النواب مما لا يدركون الغاية منه وليس لهم الا رفع ايديهم مع جماعة حزبهم فقط وفي الغالب انهم لا يدرون على ما وافقوا وعلى ما خالفوا .

وقد يصعب تمدين العشائر على قرب منازلهم من الحضر الا بعد ان يتعلم ابناؤهم وتكون نسبة من خرجوا من الأمية فيهم اكثر ممن انغمسوا فيها ، وذلك في مدارس سيارة تتنقل بتنقلهم . وهناك مطالب لهم لو تحققت لاصبحت بادية الشام قرى عامرة وذلك باعطائهم الاراضي الموات يستثمرونها على الطرق الحديثة ، وتحفر لهم آبار ارتوازية يستقون منها وتنشأ مستودعات في الأماكن اللازمة من البوادي يدخر فيها العشب اليابس والعلف لأيام الشتاء وتشاد لهم بيوت من الخشب يأوون اليها في الأيام الباردة الى غير ذلك من ضروب الاصلاحات وعندئذ يقتربون من الحضارة ويتفاهم اهل الوبر مع جيرانهم من اهل المدر .

كثرة الكلام

قال احد ساسة الاجانب في حفلة حضرها في الشام وقد رأى بدوياً يعرض نفسه ليخطب القوم والظاهر من حاله انه من العامة : ان اهل هذه الديار مولعون بالخطابة كأهل كندا فقد رأيتهم اذا اجتمعوا لأمر يحاول كل من في الحفل ان يخطب قومه سواء كانوا في حاجة الى سماع قوله أم لم يكونوا .

خلق الانسان ملولاً ولا علاج لمله الا تنويع الاساليب والابداع فيها والجديد محبوب والقديم مما يزهد فيه على الأكثر . ومن لم يرزق طبيعة مؤاتية للخطابة أو الكتابة او الشعر كيف له ان يدعيها ويطمح الى التأثير في الجماعة والخطابة صعبة المنال لانها ابنة البديهة والعلم الغزير ، ويتعذر على من اعتاد صف الكلام فقط أن يؤثر في العوام فضلا عن الخواص . ومن ثرثر وماعرف ما يجب أن يقول كان كلامه كهذيان المحموم ومن قال كلاماً لا محصل له كان الخرس أولى به وأجدر .

كان المتشاعرون الى عهد قريب يزجون بأنفسهم في غمار كل نادٍ ومجتمع ويفرضون على الناس التصفيق لشعرهم البارد فلما ظهرت الحاجة الى الخطابة وأصبح لنا مجالس نيابية ومواقف لا بد من التكلم فيها قام من قام في انفسهم انهم خطباء أبيناء وادعوا ما ادعاه المتشاعرون في الماضي من التفرد بجمال الكلام وانهم اذا لم يقوموا هم بهذا الواجب لا يرجى نجاح الامور .

أما رجال الدين فبعد أن خانتهم قرائحهم في خطب الجمهور على البديهة عادوا الى تلاوة من وضعوا لهم الخطب في دواوين بحسب عصورهم واغراضهم يقرؤنها في المناسبات فلا تحدث تأثيراً في النفوس لانها لم تكتب لمن تلقى على مسامعهم .

غلطة كبير

لما اصدر الاستاذ محمد علي علوبة باشا كتابه مباديء في السياسة المصرية انتقدت عليه في مجلة المجمع العلمي العربي قوله لاارى الحاجة ماسة الى مايقول به البعض من التفكير في موسوعة عربية تجمع بين دفتيها جميع المعلومات الانسانية مدنية وعلمية وفقهية ورياضية وكيمائية ذلك لان الموسوعة بهذا الوضع تتطلب نفقات طائلة ووقتاً طويلاً والعلوم متجددة متقدمة اه .

فقلت في نقده وعلى مصر من الآن القيام بمثل هذا المشروع المفيد للامة العربية جمعاء فاذا كان النقص يبدو فيه بما يتوالى من تقدم العلم السريع فان الطبعات الثانية ستجيء امتع بالطبيعة . أما النفقات اللازمة فلا تعد شيئاً بالقياس الى ثروة مصر واسرافها في انفاق المال ، ثم ان جميع الدول العربية تساهم في انشاء هذه الموسوعة ونشرها والامر متوقف على الشروع والشروع ملزم . وكتاب كهذا افيد لمصر من كثير من المطبوعات التافهة والاموال الطائلة التي تصرفها في الدعاية . والاخصائيون الذين سيضعون اساس هذا العمل الخطير غير قلائل في مصر وغير مصر .

هذا ما قلته وأضيف عليه هنا أن صدور هذا الرأي الضعيف يستغرب من عظيم من علماء مصر وساستها وفي تضاعيف هذا الكلام من ضعف الثقة بالنفس ما لايلائم همة صديقي الباشا وهو المجلي المعروف بنشاطه الممتاز وكان مثال العالم المصري الحازم الموفق الى أبعد حدود التوفيق .

واذا كان الأمر كما يقول ان العلوم تتجدد وتتقدم كل يوم فمعنى ذلك أننا يجب أن نقف حتى تقف حركة العلم وعندها نأخذ ما نشاء ونطرح ما نشاء من العلوم والآداب وسواء عمدنا الى الترجمة أو الى التأليف وهو الأولى في معلمتنا العربية فان ما سينشر من ذلك للناس يفيدهم جداً واذا أحسسنا بنقص أو عدم اجادة في وضع هذا التأليف فان ذلك يصحح في

الطبعات التالية ، وأي كتاب صدر تاماً من أول نسخة أو طبعة . ويعلم الباشا ان الأمم الصغرى التي أصدرت الانسكلوبيذات كانت أحط من العرب اليوم لما أصدرتها فما زالت تتعاورها بالتصحيح والتنقيح حتى تمت على ما تريد .

ثم قوله ان المعلمة يستلزم وضعها وقتاً طويلاً وهذا لا يهمنا كثيراً فان التجويد في الاعمال كان أبداً يستدعي زمناً لينضج على ما يجب وهذا عمل جماعة لا عمل فرد يخشى أن يموت قبل أن يتمه ، أما القول بان وضع المعلمة يحتاج الى نفقات طائلة فالوزير العظيم ادرى مني بما تحتمله خزانة مصر للانفاق في هذه السبيل وأمة تنفق على البذخ وتسرف في التوافه اسرافاً عجيباً لا يعز عليها أن تبذل في طريق يشرفها كثيراً .

أستأذن حبيبي الباشا ، وأنا المعجب به وبحياته الحافلة بجلائل الاعمال أن يسمح لي ان افاتحه بان ما قاله بشأن تأليف المعلمة العربية لا يستشف منه الا ضعف همممنا عن معاناة الأمور العظيمة ، اننا نطلب المجد رخيصاً ولا نتخذ له أسبابه .

ذكرني هذا الرأي المنتقض من كل جانب بما قاله لي مرة أحد رصفائي في الوزارة وهو يريد أن نعدل عن ارسال شاب موسيقار موهوب الى الكونسرفتوار في باريز ليتقن فنه على الاصول الجديدة ويعود فنوسد اليه النظر في دروس الموسيقى في مدارس الحكومة : أراك تحرص على ارسال هذا الموسيقار ونحن في غنية عنه وعن درسه لان عندنا فلاناً العواد — المحترف الشيخ الهرم — اذا احتجنا الى من يطربنا نستدعيه فيضرب لنا بعوده مقابل ريال واحد ولا نتحمل باهظ النفقات على هذا التلميذ ، وأنا بالطبع سكت لأن هذا الكلام لا يستحق ان يتعنى المخاطب الاجابة عليه .

اما كلام الباشا فله وزنه والمبالغ التي ستصرف على هذا الكتاب العظيم ويعدها هو خسارة ستصرف في مصر على أبناء مصر وفي اعطاء رزق لهم ومن فوائده ايضاً القاء الرغبة في نفوس طلاب العلم بان ما يشتغلون به في شبابهم سيكون لهم منه ربح ان أحبوا الانصراف الى العلم ولا اريد ان ازيد على ذلك فالوزير المصري اعرف مني بما هنالك واعرف مني بما يبذله الغرب من الأموال في خدمة العقل والعلم ونحن نعد ما يبذلونه اسرافاً .

احسان واحتظار

شاهدت صديقي العلامة فيليب طرّازي في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) يطوف طول النهار ازقة بيروت ويقدم بنفسه خبزاً ولبناً وطعاما لمنكوبي المجاعة، وكانوا بحالة تتفطّر لها الأكباد عراة جياعاً لم يبق على اجسامهم الا الجلد والعظم.

وكان بعضهم يستغرب كيف يحصل صاحبي الكريم على هذا القدر العظيم من الحبوب يطحنه ويخبزه ويوزعه وهو متوسط الثروة لا يعد من كبار الاغنياء ويضيف الى ذلك التبرع سراويلات واقمصة يعطيها من لا ثياب له تستر عورته. وكان يتناولها من ثياب بيته وفرشه حتى لم يبق في داره شيئاً اسمه قماش ويضم اليه مايمكنه ابتياعه من المخازن.

تلك حسنة من حسنات طرّازي شاهدتها بأم عيني في أثناء الحرب المذكورة. وكثيراً ماكان يبذل المساعي وينفق المال لاجل معالجة المرضى ودفن الموتى المساكين وينقل صغار الفقراء الى المآوى ويعتني بنظافتهم وطعامهم حرصاً على حياتهم. زد عليه ان فريقاً من الادباء تعودوا الاختلاف الى بيته فكان يرحب بهم كأنهم هم اصحاب البيت وهو ضيفهم.

وبعد الحرب عُني الاستاذ الحبيب بانشاء دار الكتب اللبنانية عام ١٩٢١ وصرف عليها من ماله ووقته وصحته. وهو اليوم يصنف التآليف المفيدة وينشرها خدمة للآداب والعلم. ولم يحب ان تخلو شيخوخته المباركة من نفع أمته فأجرى الله الخير على يده في الحرب والسلم وفي شبابه وكهولته وشيخوخته.

وشاهدت شاباً من أكبر أعيان الروم في بيروت اشترك فيما قيل مع احمد جمال باشا قائد الجيش في الحرب العامة بالحبوب يأخذ مقادير عظيمة بالاسعار التي يعينها لنفسه. ولعله اشاع انه شريك جمال باشا ليلقي الرهبة في نفوس

المعترضين على هذه التجارة المحرمة زمن الحرب . وقد عرض عليّ مرة ان يعطيني مايلزمني من الحنطة ، لانه رآني من جماعة الباشاولي جريدة منتشرة فقلت له : ان عندي في الدار من الحبوب مايفيض عن حاجتي وعندي في انبار مزرعتي مقدار لابأس به يزيد عن بذاري ومؤونة عملتي .

وما هي الا اشهر حتى هلك شريك الباشا بالتيفوس بعد أن طعن في مروءته وتمزق ماجمعه وما اسف عليه انسان .

وكانت في بيروت خلال هذه الحرب أسرة مسلمة من قدماء التجار اتفق ان كان في مستودعاتها بضائع عظيمة ارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً ، وأضافت الى مستودعاتها ماتسوقته من مدن الشام من البضائع . ثم بدا لها ان توظف الاموال التي جنتها في احتكار القوت لان الربح منه مضمون ووافر ، فاحتكرت كل مايخطر بالبال من اصنافه حتى الترمس نقل الفقير وغذاؤه ، وهو من أدنى المأكولات .

ومن جملة ماتذرعت به لاكتساب المال ان ملأت مركباً من الاحجار وضمنته عند احدى شركات الضمان على ان فيه بضائع ، واوعزت الى النوتي أن يغرقه في ظهر البحر فأغرقه ، وعادت على الشركة تطلب منها ثمن المركب المغرق فأرسلت الشركة غواصين اكتشفوا الحيلة التي دبرها المطالبون بضمان السفينة .

وما ان عقدت الهدنة حتى هبطت أسعار البضائع التي جمعها اولئك المحتكرون هبوطاً ربما فاق ذاك الصعود ، وافلست الأسرة عن مليوني جنيه عثماني ذهباً . وبلغت بها الحاجة أن أصبح أفرادها لايصلون الى القوت الضروري الا بالاستخدام في اعمال حقيرة ، واستدان الدائنون من هذه الاسرة اجهزة نسائها وحليهن ، ومنهم من مات قهراً لم تبك عليه عين لانه طالما ابكى العيون باجاعة القوم بل باهلاكهم .

وهذا ايضاً اراد ان يرشيني ولكن لابالحبوب كما كان من شريك القائد العام بل بدعوتي الى داره مع احمد جمال باشا والح عليّ بالحضور

بواسطة عزيز عليّ (مختار بك بيهم) فأبيت قبول الدعوة ، وقلت للوسيط اني مازلت اهبط بيروت منذ ثلاثين سنة ، وانا اعرف صاحبك من زمن بعيد فلماذا لم يدعني على الاقل الى تناول أكلة حمص بطحينة في قهوة الحاج داود على البحر (وهي قهوة متواضعة والأسعار فيها متهاودة) والآن يحاول ان أجيب دعوته وهو مادعاني الا ليظهر أمام الباشا اني صديقه ومن حملة عرشه ، وقلت: في جيبي دراهم من فضل الله وطعامي في الفندق ينتظرني .

* * *

قصّ عليّ اصحابي ما كان من هؤلاء الأغنياء من الشراهة في جمع الثروة وما تأذى به الفقير من تحكمهم في قوته فكتبت سلسلة مقالات في جريدة الشرق نعيت فيها على المحتكرين سيئاتهم فوقع ما كتبت الموقع الحسن عند الحكومة وعند الأهلين وشكرني عليها والي بيروت عزمي بك وبعث همتي على متابعة الكتابة في هذا الموضوع لأعاونه على حل رابطة المحتكرين ، وكان يفهم من مقالاتي اني انتقد الوالي واثبت عجزه عن حل الاحتكار ، ولما رآني جاهرت باعلان حملة على المحتكرين لم يسعه الا استحسان ما كتبت واستزادني من الكتابة .

آغا خان ونظام حيدر آباد

الأول زعيم الطائفة الاسماعيلية في الهند ومن أعظم أغنياء الارض لا يتقدم عليه في غناه إلا نظام حيدر آباد الدكن فهذا أغنى رجل في العالم قيل انه يملك اربعمائة مليون جنيه استرليني .

ولا يزال زعيم الاسماعيليين يأخذ الزكاة من طائفته ، أما النظام فقد ضرب منذ زمن طويل ضريبة على كل من يدخل عليه ولو دخل عشرين مرة في اليوم ، والضريبة عبارة عن جنيه ذهبي واحد وريال فضة ملفوفين في منديل . ويعيش الزعيم الشيعي كأنه ملك من ملوك الف ليلة وليلة ليس في الملوك اليوم من يدانيه في بعض بذخه وسرفه . أما الأمير السني فيظهر التنسك والتقشف ويقيم الصلوات ويزور المرضى ويمشي خلف الجنائز كأنه أمير من أمراء الاسلام في الصدر الأول .

مرض آغا خان بأخرة فلما أبلّ لم تحدثه نفسه أن يتصدق على الفقراء كما جرت عادة الكبراء في مثل هذه الحال بل أعد رحلة الى مكان سحيق دعا اليها من واسوه في مرضه من خلان الصفا ، ولم يلبث أن جاء الريفيرا على طائرة مائية وكان من أهم ما شحنته صناديق الويسكي ثم استقل طائرة جوية الى افريقية قاصداً الى الادغال المعروفة بجنة الحيوان من المناطق الجبلية في مستعمرة كينا البريطانية وهناك كانت تنتظره اثقاله في أربع عشرة سيارة ضخمة تنقل الخيام والأسرّة والأغطية والثلاجات والفرش وادوات الاستصباح بالكهرباء والماعون وأواني المائدة والشاي والشراب ويحمل في جملة ما يحمل صناديق النبيذ المعتق والشمبانيا والويسكي وفي هذه القافلة ٨٠ خادماً منهم ٦٠ من أهل افريقية و٧ طهاة من الأوربيين وبينهم زوجته الفرنسية وماشطتها واحد ابنائه ، وقدر لرحلته العتيدة خمسة وعشرين مليون فرنك قابلة للزيادة لا للنقصان .

زعيم ديني يسرف هذا الاسراف ولا يتحرج من أن يقبض الزكاة بافقار شيعته ويتنعم هذا النعيم على حساب أتعس خلق الله ومنهم نموذجات تؤلم القلوب في سَلَمْيَة وجبال العلويين من الديار الشامية . آغا خان اليوم في الثامنة والسبعين من عمره لم يترك باباً من أبواب المرح الا ولجه ولسان حاله الدنيا زائلة ومن لم يغنم فرص الحياة فاته نصيبه من الدنيا . أما نظام حيدر آباد فما أثر عنه كصاحبه أن ندت يده بشيء المسلمين وهو المسلم الحنيف القانت !

الجهل في القديم والحديث

سبحان الله كيف تتبدل العقليات وتجهل جماعات وتتعلم جماعات ، كان العلم منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين ومحتكراً في أبناء الأشراف عند الغرناطيين والرومانيين وخاصاً باعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونانيين حتى جاء العرب بعد الاسلام وأطلقوا حرية التعليم وأباحوا تناول العلم لكل متعلم فانتقل الى اوربا حراً ، ومع هذا أتت عليها بضعة قرون وهي ترسف في جهالتها ، والعرب ينفحون العالم بعلمهم وعلمائهم ومكتشفاتهم وليالي الجهالة الجهلاء تعم الغرب بظلماتها .

ذكر روبرتسون الانكليزي في مقدمة تاريخ شارلكان أنه وجدت عدة قوانين ووثائق صادرة عن أعيان من أصحاب الدرجات الرفيعة يستبان منها انهم كانوا لا يعرفون كتابة اسمائهم ولا توقيع ما يوقعون ، ولذلك كانوا يصنعون صورة صليب على الوثائق التي يكتبونها تكون بمثابة تواقيع لهم .

وكان الكونت هريو رئيس المحكمة وأعظم القضاة في القرن التاسع لا يعرف كتابة اسمه وكذلك دوغسلين رئيس الجيوش الفرنسية واعظم رجال الدولة واكابرها في القرن الرابع عشر أمياً ايضاً . قال روبرتسون ولم يكن هذا الجهل مقصوراً على العوام بل كان اغلب القسيسين ارباب الرتب العالية

لا يستطيعون كتابة اسمائهم على القوانين التي كانوا يقررونها في مجالسهم ، ويسأل كل من يطلب ان يتقلد منصباً او وظيفة هل يعرف ان يقرأ الانجيل والرسائل ويفسر معناها ولو كلمة كلمة من غير نظر الى تفسير الجملة اه .

وانقلبت الحال بعد قرون فغرق الشرقي المسلم في الجهل وتقدم الغربي المسيحي الى ساحات العلم ، وعاد المسلم العربي بعد ذاك السبات العميق يذكر ماضيه ويحاول استرجاع بعض ما كان له فيه ويعتمد على الحكومات في تعليم أبنائه وبناته على الأكثر ، وما برح المسلمون مقصرين عن جيرانهم المسيحيين في البلاد الاسلامية في انشاء المدارس الابتدائية الأهلية (راجع تقرير معارف الجمهورية السورية عن سنة ١٩٤٦ لواضعه صديقنا الدكتور جميل صليبا) ، وكان في تلك السنة عدد المدارس الاسلامية (٦٥) وعدد المدارس الكاثوليكية (١٠٠) وعدد الارثوذكسية (١٠٧) وعدد البرتستانتية (٢٢) وعدد الاسرائيلية (٤) فليس توزيع المدارس الأهلية على المذاهب المختلفة موازياً لعدد افرادها ، فعدد الطوائف المسيحية مثلاً اقل من عدد المسلمين بخمس مرات ولكن عدد مدارسهم يزيد على عدد مدارس المسلمين الأهلية بثلاث مرات ونصف من مجموع سكان يبلغون في الاحصاء الرسمي ٢،٩٤٩،٨١٥ ونعتقد انه ينقصه بضع مئات من الألوف خصوصاً والمشهور ان عدد اعراب البادية في هذه الجمهورية لايقل عن مئات الألوف ، وفي هذا التقرير ان نسبة مجموع التلاميذ في سورية كلها الى مجموع السكان ٥ بالمائة اي انه يقابل كل الف من السكان (٥٠) طالباً فقط ، وهذه النسبة معادلة لنصف النسبة الطبيعية لأننا نقدر عدد الطلاب الذين هم في سن التعليم الابتدائي في سورية بـ ٩٠ في المائة من مجموع السكان اي ان عددهم يبلغ ٢٠٠،٠٠٠ تقريباً فاذا كان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية الرسمية والاهلية والاجنبية معاً ١٥٠،٢٥٠ كان عدد الاطفال الذين لايتعلمون في المدارس ١٤٩،٧٥٠ تقريباً ، فنصف الأطفال اذاً يتعلم في المدارس فقط .

أما تعليم البنات فما زال يحتاج كثيراً من العناية ، فقد جاء في هذا

التقرير أن عدد مدارس البنين في عام ١٩٤٥ — ١٩٤٦ (٦٠٧) وعدد مدارس البنات (١٣٠) وعدد المعلمين (١٨٠٢) وعدد المعلمات (٦٩١) وعدد التلاميذ (٧٣،١٣٧) وعدد التلميذات (٢٦،٤٦٦) .

أما في لبنان فنسبة المتعلمين فيه أرقى من سورية فقد سألنا أيضاً صديقنا الدكتور صليبا عن معارف لبنان فاجابنا بما يأتي :

كان عدد المدارس في لبنان خلال العام الدراسي ١٩٤٦ — ١٩٤٧ كما يلي:

المدارس الرسمية في جميع الدرجات ٦٣١ ، المدارس الأهلية ٨٧١ ، المدارس الأجنبية ٣٠٦ . المجموع ١٨٠٨

وكان عدد تلاميذ هذه المدارس (١٨٠٣٥٨) طالباً وطالبة منهم : ٥٣١٩٠ طالباً وطالبة في المدارس الرسمية و ٧٧٠٥٧ في المدارس الأهلية ، ٥٠١١١ في المدارس الأجنبية .

والمدارس الرسمية تنقسم الى قسمين : ابتدائية تكميلية ومسلكية ، وليس في لبنان مدارس ثانوية رسمية . والبيان الآتي يوضح عدد المدارس وعدد التلاميذ في التعليم الرسمي .

٦٢٣ في المدارس الابتدائية التكميلية تلامذتها ٥٢٤٢٢ ، و ٨ في المدارس المسلكية تلامذتها ٧٦٨ .

والمدارس الأهلية تنقسم كذلك الى قسمين : ابتدائية وثانوية وأعدادها كما يلي:

٨١٥ المدارس الابتدائية الأهلية وتلامذتها ٦٤٧٦٩ ، و ٥٦ المدارس الثانوية الأهلية وتلامذتها ١٢٢٨٨ .

ان تلاميذ المدارس الرسمية موزعون على مختلف الطوائف وفقاً للجدول الآتي :

المسلمون	٣٥٣٨٩	طالباً وطالبة
المسيحيون	٢٣٥٥٣	〃 〃
الدروز	٤٠٧٩	〃 〃
الاسرائيليون	٢٩	〃 〃
طوائف أخرى	١٤٠	〃 〃
المجموع	٥٣١٩٠	

والبيان الآتي يوضح لنا ايضاً توزيع المدارس الأهلية على الطوائف المختلفة :

	عدد المدارس		
	الثانوية	الابتدائية	المجموع
المسلمون	٧	١٢٢	١٢٩
المسيحيون	٤٨	٦٥٩	٧٠٧
الدروز	٠	٢٢	٢٢
طوائف أخرى	١	١٢	١٣
المجموع	٥٦	٨١٥	٨٧١

اما عدد البنات في المدارس الرسمية المختلفة فهو (١٢٦٩٩) وعددهن في المدارس الأجنبية (٢٦٦١٩) .

وليس عندي احصاء لهن في المدارس الاهلية

عدد سكان الجمهورية اللبنانية بلغ في عام ١٩٤٦ (١١٦٥٢٠٨) منهم (٥٩١٦٦٩) رجلاً و (٥٧٣٥٣٩) امرأة ،

ان نسبة عدد الطلاب في جميع المدارس الى مجموع السكان هي ١٥٪ تقريباً وهذا يدل على ان الأمية تكاد تكون غير موجودة في الشبان .

ذلك لأن النسبة الطبيعية للتلاميذ في سن التعليم الابتدائي لا يزيد على ١٢٪ وهي توجب ان يكون عددهم بالنسبة الى مجموع السكان (١٤٠٠٠٠) على الاكثر في حين ان عددهم في المدارس الاهلية والرسمية وحدها (١١٧١٩١) . واذا كان في لبنان اميون فهم من الذين تجاوزوا سن التحصيل الابتدائي او من ابناء القرى الفقيرة النائية .

كلام جديد

نشر حزب البعث العربي منشوراً اماط اللثام عن تعليل ثورة الشعب الأخيرة بقوله :

تزوير الانتخابات ، وافساد الحياة النيابية بشراء ضمائر بعض النواب واستعمال الضغط والارهاب مع البعض الآخر لمنعهم من حق المناقشة ، ومناوأة الاحزاب المعارضة وتسخير الدولة لخدمة انصار الحكم واحزابهم المصطنعة والتعطيل المتكرر للصحف المعارضة بقصد الجائها الى التوقف واغداق الاموال على الصحف الاخرى وقتل ضمائرها حتى تصبح ادوات مسخرة للسلطة ، وجعل الاذاعة التي هي ملك الأمة بجميع هيآتها بوقاً محتكراً للسلطة القائمة وأداة لتضليل الشعب ، وجعل وظائف الدولة وقفاً على الأنصار بصرف النظر عن الكفاءة والأخلاق ، وتحويل الميرة من مؤسسة تضمن الخبز للشعب بأيسر ثمن ، الى مؤسسة تضمن لكبار المزارعين أوفر المرابح وللموظفين من انصار الحكم اضخم الرواتب ، والاستهتار بقضية رئيسة كقضية النقد ومعالجتها بالكذب والمغالطة والمماطلة ، وتحميل الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة اكبر قسم من الضرائب وخاصة الضرائب غير المباشرة التي تسبب الغلاء الفاحش في أسعار المواد الغذائية والضرورية للحياة ، وحصر القطع النادر ورخص التصدير والاستيراد بفئة محدودة من التجار المتحالفين مع رجال الحكم ممن اصبحوا يستأثرون وحدهم بعظم الثروة ، وفتح باب الرشوة والسرقة والخيانة لكبار الموظفين في الادارة والجيش دون مسؤولية او محاسبة ، والاستئثار بالسياسة العربية والخارجية ودفعها في طريق الانفصال والانانية الشخصية والتآمر مع الاستعمار ، وأخيراً سد الطريق سداً تاماً في وجه اي امل في الخروج من دائرة هذا الحكم الفاسد وفي امكان تبديله او اصلاحه ، وذلك بطغيان السلطة العليا على السلطات جميعاً وتعطيل

الحكم الدستوري بالفعل رغم قيامه في الشكل ، تلك هي المفاسد التي ثار الشعب عليها وناضل من اجل القضاء عليها اهـ .

وليت هذا الحزب وهو مؤلف من رجال علم وأدب وقانون يتولى الامر بضع سنين لنرى ما يحقق من منهاجه لخير هذه الجمهورية الفتية .

الاونيسكو

الاونيسكو او منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة . جمعية جرى التفكير في تأسيسها سنة ١٩٤٥ في لندن وسرى الى الولايات المتحدة الاميركية ودخل فيها ثلاث واربعون دولة ، تولت بريطانيا العظمى دعوة المؤتمر التحضيري الاول في لندن ، وفي باريز سنة ١٩٤٦ عقد المؤتمر العام الاول وعقد الثاني في المكسيك سنة ١٩٤٧ والثالث في لبنان سنة ١٩٤٨ وقد اجتمع المؤتمر في بيروت في السنة الماضية واختار الاونيسكو محل اجتماعه كل دورة في بلد من بلاد الدول المشتركة فتارة يجتمع في بلدة شرقية وأخرى في بلدة غربية .

وبرنامج الاونيسكو مطول يتناول معظم مايدخل في موضوع العلم والثقافة ومن اعماله ترميم البلدان التي دمرت في الحرب وتبادل الاساتذة والخبراء والطلبة بين الدول والاتصال بالجماهير عن طريق الصحافة والمذياع والسينما ودور الكتب وتعليم الأميين وترقية الجامعات واصلاح الكتب المدرسية وبسط العلوم الى غير ذلك .

كل هذا يقصد به ان تتفاهم الشعوب وتتعارف من طريق العلم والثقافة حتى ترتفع الحرب بشرورها عن رؤوس العالم . وفي دستور الاونيسكو « ان الحرب تولد في العقول والواجب ان يقوم اساس الدفاع عن السلام في العقول أيضاً » . قال مندوب الولايات المتحدة : « اني على ثقة ان منظمة الأمم لن تنجح اذا فشلت الاونيسكو واعتقد انه ليس في وسع مؤسسة

سياسية او عسكرية مهما بلغ من قوتها ان تفرض السلم الا اذا قام الى جانبها ماينشر المحبة والتفاهم بين شعوب الارض ، وهذه هي مهمة الاونيسكو» وقال مندوب ايطاليا : « والكفاح من أجل السلم من طريق الفن والعلم والثقافة باعتبار ان هذه السبيل هي الاداة الناجعة لتعليل اسباب الاختلاف بين البشر انما يعني اعطاء هذه القيم معناها الحقيقي بنقلها من عالم المجردات الى عالم المحسوسات بغية انشاء عالم نرغب في ان يكون اكثر انسجاماً وتفاهماً وتعاوناً » . وطلب مندوب البرازيل في المؤتمر الى جميع الامم ان تجد العزم في تطبيق مباديء الاونيسكو الذي انشيء على انقاض حروب وآلام متصلة رافقت الانسانية منذ الحروب الصليبية في الشرق الى الحروب العالمية الاخيرة في الغرب . »

فكرة الاونيسكو فكرة كل عاقل في البشر ولكن التنفيذ يصعب على مايظهر .

رجال الوزارات

ماهتم رجال الانتداب على سورية ولبنان بانتقاء الكفاة للمناصب بقدر اهتمامهم بتقريب من كان قلبه مربوطاً بهم وكانوا ممن يحسنون مصانعتهم ، كان فيمن اصطفوهم الأكفياء وكان فيهم دون ذلك . جعلوا من سمسار صعلوك وزيراً للمعارف واتخذوا من مستخدم صغير في الاستخبارات ومن مطرود من شركة ماكنات وزيرين . وأكثرهم لم يتخرجوا في مدرسة وكان منهم رؤساء وزارات لا يحسنون فناً من الفنون ولا يتكلمون لغة من اللغات .

كان هذا أيام الانتداب فما عذرنا اليوم في تولية الجهلة الفاسدين أرقى المناصب ، ونعتذر عن خطإنا بان الحق على الحزب الذي اختار الوزير فولى بلا خجل (الحاج حمدو) وزارتين وهو عاجز عن ادارة ديوان صغير ولا تمرن في أقل وظيفة ادارية أو سياسية خالي الذهن من معرفة القوانين والفنون ويزيد الى ذلك فساد ذمته .

نكتة ذكرتها وأنا أكتب هذا الفصل : كان على عهد الانتداب في دمشق مدير داخلية ماهر في القوانين والادارة أخذ مرة يناقش مستشار البلدية وهو افرنسي في فتح شارع فكانت براهين المستشار براهين الجاهل الذي يتكلم سقياً ورعياً وبراهين المدير براهين العالم العارف بصناعته . ومما قاله المستشار للمدير ان هـذا الرأي الذي تبديه سعادتك لا يمكن تطبيقه فناً ، فأجابه المدير ومتى كنت يا صاحبي تعرف الفن ؟ أما كنت أنا على عهد الترك قائم مقام في يافا وكنت أنت بها صاحب حانة وكنت ارسل خادمي الى حانتك فابتاع منها ما يلزمني من الأشربة ؟ فمثلك وصنعتك هذه ماذا يحق له أن يدعي من معرفة الفن .

ويصدق هذا الشاهد على بعض من تولوا الوزارات في عهد الانتداب وبعده . ومنهم من يضيفون الى غباوتهم قـلة امانتهم وقلة الامانة على مايظهر من مستلزمات الجهول . ومثل ذلك يقال في (ابو كعود) وهو وزير ابتليت به هذه الامة منذ نحو خمس وعشرين سنة وليست له مزية من المزايا الا الاحابيل التي تعلمها ، هذا ان كانت الاحابيل تعد مزية يوم وزن الرجال . ومن أعظم العار أن ينقل هؤلاء الوزراء المنحطون من وزارة الى وزارة كما ينقلون هم أنفسهم من حزب الى حزب كأنهم اعلاق نفيسة لا يستغني عنها قصر ولا ندوة ، يرتكبون التزوير ليوسدوا اليهم أشرف الأعمال وهي النيابة ، وكأنهم من الدعائم في كل بناء اذا نسل حجر من الاساس تداعى وانهار .

كان من جملة النقمة على احدى الوزارات المنحلة أن من أفرادها من كان يتناول رواتب ومخصصات من عدة وزارات ورياسات خلافاً للقانون حتى بلغ راتبه فيما قيل ثلاثة أضعاف راتب أعظم رئيس ، ولسان حال من ابتدع هذه البدعة « من أحببناه أغنيناه ورفعناه ومن أبغضناه حرمناه ونكبناه » وبدون العدل ينقضُّ كل بناء وتضمحل أعظم أمة .

لايحسن انتقاء الوزراء الا بالبحث عن ماضيهم وحاضرهم فمن ثبت لنا ولغيرنا ذكاؤه وأمانته وكفاءته نصبناه والا فتشنا في الطبقات الأخرى فهي ما خلت قط من الصالح الذكي ، وملايين من الخلق مهما انحطوا لا تخلو من عشرين

وثلاثين رجلًا يصلحون أن يديروا بالعدل أمور دولتهم ، ولا نعود الى تجربة من جُرِّب ففي أمثال العامة « من جرَّب المجرَّب كان عقله مخرباً » ونحن لا غضاضة علينا اذا بدلنا من لا يصلح بمن يصلح ، نعتبر الصفات التي تتطلب من الوزراء ولا نعتبر كثيراً بحزبية الوزير ، فالحزبية ما كانت يوماً من الأيام عنوان الكفاءة ومقياس الاخلاق ، ولكم شهدنا وزراء لايحسنون حل أقل مسألة من مسائل وزارتهم ، وكان جلّ اعتمادهم على الضعاف من رجال دواوينهم يصرّفون لهم أمورهم لانهم من جماعة (حاج حمدو) و(أبو كعود) ولو فحصتهم ما وجدت مدار كهم تعلو عن « أجير شيخ حارة » أو « فراش قديم في ديوان » .

وأقول في الختام لمن بأيديهم البت في الامور : لا تعتمدوا بعد الآن على أجهل الوزراء وأعطلهم ولا تغتروا بكلامهم وهم على الكراسي فانتم الذين كبرتموهم في الانظار ولولا الكراسي لكانوا سالبة كلية ، أما هم فسيان عندهم رضي الناس عنهم أم غضبوا ماداموا آمنين على ما في جيوبهم ورئيسهم راضياً عنهم .

(كتبت في خريف سنة ١٩٤٩)

عشرة المتحابين

قال لي والدي في معرض تفضيل جيله الأول على جيله الثاني متلهفاً على مافات من سالف ايامه وهكذا اعتاد معظم الشيوخ : كنا خمسين رجلاً جمعت بيننا الصداقة وألفت بين قلوبنا العشرة وتقارب الجوار ، وكان اكثرنا من طبقة التجار فخرجنا من المدينة للاصطياف في قرية الهامة من جبل سنير. نزلناها أول يوم عيد الفطر وغادرناها خامس يوم عيد الاضحى اي صرفنا فيها شهرين ونصفاً . وكان نظامنا تاماً في كل أمر من أمورنا ، لم يلبس أحدنا نعل غيره ولا تخالفنا في شيء وكان أحدنا ينزل الى المدينة مرة في كل اسبوعين ينظر في أمور مخزنه ويجيب على ماورد عليه من رسائل في البريد. فقلت له : وكيف كنتم تصرفون هذا الوقت الطويل ؟ قال : كنا نقضيه في العزف على ماكان لدينا من أدوات الطرب ، وكانت الموسيقى والغناء والانشاد ورقص السماح من أهم ماكنا نلهو به ، ثم نلعب الالعاب الرياضية المألوفة وفيها قفز ونط وحركة ، ونتناقش في ايراد القصص والحكايات وحل الالغاز والمعميات وفي ضروب من الهزل والدعابات . وكنا اذا صلينا نطيل الصلاة واذا جلسنا الى المائده نطيل الاكل ، وهكذا يمر الوقت بدون أن نشعر . فقلت له وهو يفاخر بفرط أدب معاصريه : ان كسلكم وعدم حسابكم للمستقبل وقناعتكم بالقليل كانت مما جلب علينا الويلات ، فغدونا نسرع لنلحق العاملين المتقدمين ، ولا نزال بعيدين عن الغاية . ومما قلت له ولو كتب لي أن أكون شريككم في هذه النزهة لدخل الملل على قلبي من اليوم الاول وعددتني اقضي العمر الثمين في تافه الملهيات لالذة تتوقع منها ولا فيها للنفس سلوى .

ولو كان يجوز التوسع في الحديث مع والدي لقلت له : ولماذا لم يصحب كل منكم عياله يكتري لهن داراً فيأنس الرجال بالرجال والنساء بالنساء

ساعات معلومة من الليل والنهار ، اذا لم يبح قانون تلك الايام اختلاط الرجال بالنساء ، ولو فعلتم لكانت الأسرة تصطاف كلها وتستفيد بالعشرة ، ومعظم جماعتنا الى اليوم لا يفكرون في بنات حواء ، قتلتهم الأثرة وحب الذات. وفاتني أن أسأل أبي يومئذ وهل كان في جماعتكم واحد يستطيع أن يقرأ لكم في كتاب ويشرح لكم ما غمض عنكم حله وفهمه ، وبذلك كنتم تمضون ساعتين مفيدتين من كل وجه . والغالب أن هذا الطلب كان في غير محله لان كل هذا الجمع هو ممن تغلب عليهم الأمية فكانوا بذلك متماثلين ، ولهذا تمت ألفتهم ولم يشذ عنهم عقل عن عقل ولم تحدث أحدهم نفسه أن يميزها عن اخوانه بشيء على ما جرت عادة المتصاحبين ، وأعتقد الى هذا ان هؤلاء المصطافين لو كانوا ممن يقرأ ويفهم ما يقرأ ما أضاعوا شهرين ونصف شهر من حياتهم في مهازل لا تعود عليهم بغير تقطيع الوقت سدى .

وزنت أحاديث المجالس بميزان النقد ، وقارنت بين أمس واليوم ، فاستبان لي أن البون شاسع بين الآباء والأبناء وأكثر منه بين الأحفاد والأجداد ، فما كان يرضي الأسلاف من الأحاديث لا يرضي أبناءهم وما كان يُعد من مباهج الحياة يحسبه أهل العصر مضيعة للوقت بل سرفاً وسفهاً . ومن أجل هذا نرى بعض البيوت الى اليوم خالية من الكتب على غنى أصحابها لأن صاحب البيت الأول ما كان يقرأ ولا يكتب فخرج أبنه على غراره الا قليلاً هذا والكتاب مهما كان نوع تأليفه أعظم محدث ومسلي وليس الكتاب بالعزيز المنال بعد انتشار الطبع هذا الانتشار ، وكانت الكتب بالامس مخطوطة يعز وجودها وهي في موضوعات مملة لا تستسيغها كل الاذواق والكتاب اليوم منوع الابحاث جم الفوائد ، يروح عن النفس ولا يدخل الملل عليها مهما طالت عشرة المرء له .

معلمة الاسلام

او دائرة المعارف الاسلامية أو الموسوعات الاسلامية أو الانسيكلوبيذيا الاسلامية من أجلّ التآليف والاعمال التي قام بوضعها علماء المشرقيات في الغرب وأصدرتها مطبعة بريل في ليدن من بلاد القاع في ثلاث طبعات ألمانية وانكليزية وافرنسية وانفقت على تأليفها وطبعها ونشرها جمعيات علمية ودول غربية واشترك نحو خمسين عالماً غربياً في هذا التأليف النفيس ولم يشترك فيه غير عربي واحد وتركي واحد وهندي واحد واميركي واحد وما آزر فيه اسباني ولا برتقالي مع كثرة الموضوعات التي كان يفرض أن الاسبان والبرتقاليين يعرفونها عن بلادهم معرفة احاطة ، وقد وقع الكتاب في أربعة مجلدات ضخمة مع ملحق صغير ضم ما ظفر به الباحثون من المعارف عن ديار الاسلام ورجاله وما الى ذلك .

وتعلقت همة بعض الشبان في مصر بنقل هذه المعلمة الى العربية فاجادوا في ترجمة بعض مقالاتها وكبوا في ترجمة الآخر . وتتوقف الاجادة في النقل على ان يكون المترجم ممن أحاط بالموضوع احاطة تامة . وكان الواجب أن تشرف على الطبعة العربية لجنة من كبار الاساتذة فتعجلوا العمل واستسهلوه فسقطوا ، على مساعدة وزارة معارف مصر لهم . ثم بدا لهم ان يعلقوا على بعض مقالات المعلمة بأقلام فئة من الأدباء والعلماء ماارادوا به اصلاح بعض النقص الذي جاء في الاصل فأحسنوا في اكثرها . وقد وهم بعض المعلقين أن تطلبوا من مؤلفي المعلمة ان يكتبوا معلمتهم من حيث النظر الاسلامي لامن حيث نظرهم هم .

وكنت لاحظت على ادارة هذه المعلمة اشياء كتبت بها الى صديقي العلامة هوتسما الهولاندي رئيس تحريرها منها أنه فات المعلمة ذكر كثير من رجال الاسلام المتقدمين والمتأخرين ومن هؤلاء من هم احرياء ان يترجموا لهم بأطول مما ترجموا وان في بعض المقالات نزعة من التعصب لايليق ظهورها في صفحات

مثل هذا الكتاب كمقالات البلجيكي لامنس والروسي غراتشكوفسكي ومقالات هوار الفرنسي الموجزة ايجازاً مخلاً اليق بها ان تكون فهرساً من ان تنشر في معلمة يقصد بها التقصي ـ فاعتذر عما وقع وارادني على ان اتولى كتابة بعض المقالات في المعلمة فلم أجب طلبه ذلك لان معظم مقالاتها سبقني اليها بعض علماء المشرقيات وقد صدرت في جيل غير جيلي .

فات هـذه المعلمة ترجمة كثير من القدماء والمحدثين من رجال الاسلام ومنهم عبد الحميد الكاتب واحمد بن يوسف الكاتب واحمد بن يوسف المعروف بابن الداية وعمرو بن مسعدة وعبـد القاهر الجرجاني وعلي بن عبـد العزيز وأبو عبيد القاسم بن سلاّم وأبو هلال العسكري وأبو أحمـد العسكري وصالح بن جناح وابن الخياط الكفيف وابن خاتمة الاندلسي وابن عنين وابن الصيرفي والوهراني وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف وعمارة بن حمزة وابن طولون الصالحي وابن عبد الهادي وغيرهم من المتقدمين .

وترجمت المعلمة لمحمد بن عبد الملك الزيات وابن العميد ترجمة مختصرة من قلم كليمان هوار سابق الحلبة في اقتضاب التراجم التي لم يظهر عليها ادنى بحث وتعب ، يكتب مثلها اقل الطلبة بتصفح اي كتاب من كتب التراجم القديمة . وفات المعلمة من المعاصرين ترجمة الشيخ طاهر الجزائري واحمـد تيمور باشا واحمد زكي باشا والسيد محمود شكري الآلوسي واحمـد القباني (أبو خليل) والسيد محمـد عابدين والسيد محمود حمزة والسيد عبـد الرحمن الكواكبي واحمد شوقي بك وحافظ ابراهيم بك ومحمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري وامثالهم من العظماء والمأمول ان تنظر ادارة نشر المعلمة الاسلامية نظر تمحيص اكثر مما نظر فيها ومحص ، وان يعاد طبعها طبعة جديدة مضافاً اليها النقص الذي ظهر في بعض فصولها وان تضم اليها التراجم التي اغفلت . واذا عرضت هـذه المعلمة على كبار العلماء منذ الآن سدوا بعلمهم نقصها وحذفوا ماكان فيها نابياً عن الحق مغموساً بالتعصب والرعونة ، واضافوا الى صفحاتها ماكتشف من آثار العرب ومخطوطاتهم منذ صدر الجزء الاول اي منذ أربعين سنة .

اضل الله على علم

ادركته شاباً مكباً على النسخ والجمع في دار الكتب ، وزهو الشباب وزهو المعرفة ماثلان فيه ، اصابه العجب لتقدمه ابناء طائفته بمعرفة اللغة العربية وكان تخرج بأعظم علماء النهضة . واشتهر منذ بدأ بنشر ابحاث ومقالات في بعض المجلات الادبية حشاها بمغامز في الاسلام والعرب لانقل بسفاهتها عن مطاعن لامنس اليسوعي . اما مزيته فكانت في انه لم يقصد من الادب التكسب به وجعله حلية له وزينة ، ثم واسطة للتشفي ممن فطر على بغضهم من المسلمين ، كسب عطف المتعصبين من اهل نحلته وفقد عطف السواد الاعظم من قراء العربية .

وحاول في عهد الانتداب الافرنسي ان يظهر التوبة مما اجترح ويتقرب من رؤساء العلماء والادباء في بلده ليجعل منهم سلماً للوصول الى مظهر علمي كان يطمع فيه ، فما اعاروه انتباهاً وكانوا اذا نسي احدهم او تناسى ماضيه الاسود ذكره به اخوانه وذكروا له قلة انصافه فيما خاض عبابه من الابحاث العربية . وما زال وهو اليوم في عتبة التسعين على كثرة اجتهاده بعيداً عن النور الذي يسير بين ايدي العلماء محروماً الذوق الادبي لانه عاشر الكتب واصطحب الرهبان وهؤلاء لايدركون من امور المجتمع والبيوت شيئاً يعتدُّ به . قام والقحة سلاحه بحملات غير رشيدة على الاسلام وعبث بتاريخه وآخرة المعتدي الفشل . وأي اعتداء افظع من ان يحمل كاتب على دين يعد اشياعه بمئات الملايين واي سلاطة ان يحاول بعد الهرم تلافي مافات ولكن الصيف ضيعت اللبن .

المؤيد والمقطم

حوالى سنة ١٩٠٧ قصدت في القاهرة صديقي الدكتور يعقوب صروف احد صاحبي المقتطف والمقطم لأزوره في مكتبه فلم اسعد بلقياه ولقيت شريكه الدكتور فارس نمر فسلمت وسلم ثم قال كالمتهكم : انا استغرب ان يحرر مثلك في جريدة المؤيد . وقلت ولِمَ لاأؤازر فيها وهي اوسع الجرائد المصرية انتشاراً واهم الصحف الاسلامية في العالم . والغالب انه بدرت مني كلمة في الثناء على المصريين واشرت الى مطالبتهم بالاستقلال فاغتاظ وقال انهم لايليقون للاستقلال وان أقل جاويش انكليزي ارقى من اعظم رجل مصري . فتألمت لجرحي هذا الجرح وقلت له على البديهة : لايمدح السوق الا من ربح ، تقول ذلك لانك تبيع من الانكليز هذه البضاعة ، وتشتم أبداً ابناء مصر . وكدنا نتماسك ونتضارب لولا ان دخل علينا داخل فقطعنا الحديث وانتهى المجلس على هذا القدر من التشاحن .

واذكر اني دخلت ذات اليوم على الدكتور صروف في وقت الظهيرة فشاهدته يقرأ التجربة الاخيرة من المقطم ويحذف مقاطع منها وكلمات. فلما انتهى من النظر فيها التفت اليَّ بكليته وقال : ماادري كيف نجوّز شتم المصريين في جريدتنا ونحن نعيش بين اظهرهم ؟ . وصروف يحرر المقتطف ونمر يحرر المقطم ، وكان صروف رحمه الله الى الاعتدال يغلب عليه جلال العلم وتؤدة المحققين والمفكرين ،

اكرام الغريب

قال لي أحد شركائي في الزراعة انه كان في ضيافة أحد معارفه في قرية من قرى الغوطة وسهر عنده جمهور من اهل القرية كان بينهم رجل من وجوهها . فلما كاد المجلس يتقوض في الهزيع الثاني من الليل قال هذا الصدر : أوصيكم يا اخواني بالغريب ، اكرموه ماستطعتم ، وابذلوا جهدكم لادخال السرور على قلبه ففي ذلك فوائد لكم ولقريتكم . فقلت للراوي : وأنا سألت ذات يوم معلمي عن رجل من ابناء البيوتات في بلدنا وكانت له نسبة الى العلم : اراكم ترفعون من شأن فلان وهو على مابلغني قليل العلم لايستحق هذا الاكرام . فاجاب ان للرجل مزية جميلة يجب لاجلها احترامه . ذلك انه دأب من سنين طويلة على اكرام الغرباء القادمين علينا يكرمهم ويدعو اصحابه لاكرامهم يُزَوِّرهم الجوامع والمدارس والمزارات المقدسة والمصانع الاثرية ويعرفهم الى صفوة الفقهاء والوجهاء فيعود الغريب الى بلده شاكراً مغبوطاً بما رأى ووعى . قال : اليست هذه مزية تستوجب اكرامه ؟ فقلت لو كان لي يد في وضع موازنة الدولة لخصصت لبضعة اشخاص من ارباب المكانة مبلغاً عظيماً ينفقونه بمعرفتهم على اكرام الغريب وتحسين سمعة البلد فيعود ذلك على الحكومة والشعب بمنافع سياسية واقتصادية .

عقول مخربة

سمعت دعياً من ادعياء الفهم يطعن على أحد كبار العلماء لعدم عنايته بثيابه وهندامه ويعد ذلك منقصة فيه ، والمطعون فيه ملأ الدنيا خيراً والطاعن لامزية له الا مصانعة كل صاحب قوة ، هو يتذرع بمسألة لاتقدم ولا تؤخر في عظمة الرجال . وفي الامثال الافرنجية الناس كالمداخن فالمدخنة التي يكثر دخانها ليست ذات هندام حسن في العادة . وكأن القادح يحاول ان يتدرج من حكمه على أعظم عظيم في قومه ليشير من طرف خفي الى ان بزّة اهله هو كانت جميلة وهم جهلة ساقطون ليس لهم الا المظاهر البراقة وابنهم السخيف لايؤثر الا الجميل الثياب ولا يحفل بما تحتها من خزي وخبث . في العالم من يحلو لهم ان يحركوا السنتهم بمعنى وبلا معنى يبدون الكراهة مما لايدركون سره ولا يلتئم مع أذواقهم كأن اذواقهم المعيار الاكبر في الحكم على كل شيء.

وسمعت من يمخرق ويقول أي فائدة لنا من العلم ونحن كنا أسعد حالاً قبل عهد علمكم هذا أيام كان آباؤنا أميين وكانت أشغالنا موفقة وكنا نكسب وننعم من دون أن نتعب في تحصيل العلم ويتبجحون بان من الجهلاء من وصلوا الى مناصب في الدولة وهم أجهل من قاضي جُبّل ويقولون ان أناساً جمعوا ثروات طائلة وهم لا يقرأون ولا يكتبون ويزيدون على قولهم ، أنتعلم حتى نصير كفلان اشتغل بالعلم الذي تدعون اليه طول عمره وما اغتنى كما اغتنى جاره الأمي ، وبماذا تجيب مثل هذا الغبي وعقله بهذا الضيق الذي ترى .

انكم مهما بلغتم في تحاملكم على من لاتساوون قلامة ظفرهم لا تعودون بغير الخزي في محاولتكم اسقاطهم ومن تتطلبون اثبات فضائلهم بالطعن في أفضل الفضلاء هم أجهل الجهلاء .

المسلمون يتعلمون

كان أبناء الاغنياء على عهد ازدهار الاسلام يأخذون العلم في بيوتهم على أيدي المؤدبين ، وكان الفقراء يهرعون الى المساجد يتلقون فيها ماتطمح اليه نفوسهم من الآداب عن علماء ما قيدوا انفسهم الا بواجبهم الديني ، وما قصدوا الا نفع قومهم . وكان للمدارس في فارس والعراقين والشام شأن عظيم في نشر العلم الاسلامي وللمدارس الكبرى في نيسابور والري والازهر والزيتونة والقرويين مكانة ليست للمدارس التي أنشأها الافراد . وعادت مدارس العجم عامة بأعظم الخيرات على الاسلام والعربية سواء منها الصغرى أو الكبرى وظل نور المدارس الجامعة التي ثبتت على محن الدهر يسطع العصر بعد العصر ، حتى اذا كان القرن الماضي وبدأت نهضة مصر أخذت العلوم الاسلامية التي كانت تنبثق من الجوامع ينضم اليها ما تنتجه المدارس الحديثة فيتساند القديم والحديث ، ولمصر ميزة خاصة بأزهرها كان العامل الاكبر فيه كونها بقيت دولة أو شبه دولة وساعدها أيضاً غناها وتوسطها بين الاقاليم الاسلامية وكونها ابنة مدنيات عظيمة تسلسلت فيها قروناً .

واثبتت مصر بعد زوال دولة الترك عنها أنها ذات كفاءة للعلم وفيها كان على الدهر بقايا منه في كل زمن وما لبث العراق والشام في العهد الحديث أن طلبا الى مصر انجادهما بمدرسين مصريين يلقنون ابناءهما على الطريقة التي تقدم المصريون فاقتبسوها من الغرب ومزجوها بما كان عندهم من بقايا العلوم القديمة ، وقد بلغ عدد المدرسين المصريين في الاقطار العربية خمسمائة استاذ يدرسون في الثانوي والعالي ، وانتهى عدد الطلاب الوافدين على وادي النيل لدرس الشريعة والعربية والعلوم الحديثة الى ثلاثة آلاف فيهم الصيني والجاوي (الاندونيسي) والهندي والافغاني والقافقاسي والتركستاني والعراقي والشامي والمغربي وغيرهم من العناصر الاسلامية .

ومذ بدء النهضة تتجلى العناية بنشر العلوم على الطريقة الحديثة في

المدارس المدنية أكثر من المدارس الدينية حتى لقد ضعفت في بعض الارجاء العلوم الشرعية ، وعلى نسبة الرغبة في الجديد كان الزهد المحسوس في القديم ، وكان للحكومات يد في هذا التبدل عاون فيه الطلاب وآباء الطلاب لان السواد الاعظم منهم يطلبون علماً يكسبون به معاشهم وعلوم الدين لا يعيش بها طالبها إلا في ضنك خصوصاً بعد أن جعل القول الفصل للقوانين الغربية في معظم الاصقاع الاسلامية ، وما نجت من هذا التجدد الا اليمن والحجاز ونجد والامارات العربية في الجزيرة .

في خمسين سنة تطور العالم الاسلامي تطوراً ملموساً وكان أحباب الاسلام يتوقعون أن يتقدم خطوات أوسع من التي خطاها وتعذر ذلك لتوقف الاضطلاع به على بواعث ، منها ماهو مفقود ومنها مايحتاج الى الزمن فيصقل ما يصقل ويرذل ما يرذل . (وسيتلو القاريء الفصل الذي كتبناه في النهضة الشامية الاخيرة في مكان آخر) ويسرنا ان كانت العراق والشام أسرع الاقطار الى الاخذ بمذاهب الترقي لما كان متأصلاً فيهما من الصفات الصالحة لتلقف العلم . وكان هذان القطران أكثر الأقطار انتفاعاً بنهضة مصر ، وامتازت العراق عن الشام بانها ما ابتليت ببلية التقسيم كما ابتليت الشام فسلخ عنها لبنان ثم شرقي الاردن ثم فلسطين ثم لواء الاسكندرونة ، وكانت وحدة العراق السياسية عوناً لها على الوحدة العلمية .

وعلى شدة العناية بنشر التعليم في مصر ما زال من يقرأون ويكتبون أقل بكثير ممن كوفحت أميتهم وأنشأتهم المدارس وقد أخرجت مصر هذه السنة من الأمية البغيضة اربعمائة الف ، وأعدت العدة لمكافحة خمسمائة وخمسين الفاً من قابل ، ولا بد من قضاء جيلين حتى ترفع غشاوة الجهل المطبق عن عيون البنين والبنات في مصر وغير مصر .

عرش غريب

صاحب هذا العرش « انطوان دي طونين » من بريكو (فرنسا) ذهب سنة ١٨٦٠ الى باتاغونيا في اميركا الجنوبية وكان فيها قبائل من الزنوج صعب على حكومة الشيلي اخضاعهم لسلطانها فتقدم وداخلهم وجمع شملهم وعاهدهم على ان يدافع عن استقلالهم ونادى بنفسه ملكاً على باتاغونيا واروكانيا ومنح مملكته دستوراً مأخوذاً من الدستور الفرنسي . وفي السنة التالية قضى الجيش الشيلي على هذه المملكة المستحدثة ولم يرض الملك اوريلي انطوان الاول ان يتنازل عن الملك ولا ان يعترف بهزيمته ، فسجنه الشيليون اشهراً ثم رحلوه الى فرنسا فمات تاركاً وصية ذكر فيها من يخلفه في الملك فكان لوالده ان يتقلده اولاً ثم لاخوته وفي الدرجة الثالثة يجيء ابن عمه واذ أبى الاب واولاده تقلد هذا الملك قبل ابن العم الا أنه لم يرحل للقبض على زمام مملكته واكتفى بتأسيس مفوضية لباتاغونيا واروكانيا كان يبيع فيها القاب الشرف وطوابع بريد المملكة ونقوداً رسم عليها شعارها فنجحت هذه التجارة ونصب الملك قناصل لمملكته ونال بعضهم براءات بمناصبهم ولا سيما في ايطاليا وغدا قناصله يدعون الى المقابلات الدبلوماسية .

قال راوي هذا الخبر « اندريه موروا » : وهكذا كان الزهو البشري لمن يحسن اللعب به منبعاً لاينضب لريع يدر على ثاني ملك لباتاغونيا واروكانيا يعيش منه في باريز وما يعيش الا من غلة مملكة موهومة . وقد انقرضت هذه السلالة الملكية بوفاة هذا الملك ولكن براءات الشرف ونقود المملكة مازال عشاق المجاميع يتطلبونها . قلنا وبعض عروش الشرق الحديث لم تخل من غرابة في تأسيسها وسياستها وهي سخيفة بالقابها وبزاتها ومصطلحاتها .

باسم الدين

شهد العصر الذي نحن فيه مالم يكد يشهده العصر الذي سبقه من تبدل واختلاف وكان دور الانتقال ذا الوان واشكال يشبه ذنب الطاووس بجماله وسخام القدر في اسوداده . كان أهله متباينين في صفاتهم تباينهم في سحناتهم وغلب الشر الخير فيه واصبح الرياء والكذب من معتاد الازياء . والقانون الطبيعي يجري على رقاب الناس كافة لايفلت منه أحد حتى من باعوا واشتروا باسم الدين .

قال لي صديق عاقل ان المطران فلان جمع حتى الآن مئة وخمسين الف دينار جناها من ابناء طائفته في اميركا وطائفته هنا كما تعلم كثير فقراؤها وهو لايجود عليهم ببعض مايجب عليه لهم فقلت : أيقن ياصاحبي ان ماله سيذهب ويبقى عليه اثمه وعاره . فقد عرفت المطران ... — وكان يتعبد الله ببغض المسلمين في الغيبة ويدهن لهم في الحضرة — جمع باساليب رجال الدين عندكم اربعين الف ليرة عثمانية ذهباً وهاجاً ثم بدا له في آخر أيامه ان يعطيها لاحد ذوي قرباه ليثمرها له في مصرفه فما هي الا اشهر قليلة حتى افلس المصرف وتبخرت ثروة المطران في جملة ماتبخر فيه ، ولم يعش المسكين بعدها إلا قليلاً وراح آسفا على مالقي من نصب في بيع الغفرانات ومنح البركات .

واعرف شيخاً دلس على الامة ستين سنة وجاز على العامة وبعض الخاصة تدليسه وجمع مالاً كثيراً من طرق شتى ومن دول رأت استمالته فما ان دلي في حفرته حتى استولى أولاده على ارثهم وبددوا ما ورثوه في الطرق التي يبذر فيها المستهترون اموالهم وفي أقل من أربع سنين اضمحل الارث ونفذ القانون الذي يعاقب على الشر وبه يعاقب الشيخ والمطران لمخالفتهما روح دينهما .

بتمزيق اموال الاشرار تغتبط نفوس الاخيار .

الاخوان المسلمون ثائرون

« تألفت منذ سنوات جماعة اتخذت لنفسها اسم « الاخوان المسلمون » وأعلنت على الملأ أن لها أهدافاً دينية واجتماعية دون ان تحدد لها هدفاً سياسياً معيناً ترمي اليه ، وعلى هذا الأساس نشطت الجماعة وبثت دعايتها ولكن ما كادت تجد لها أنصاراً وتشعر بأنها اكتسبت شيئاً من رضا بعض الناس عنها حتى أسفر القائمون على أمرها عن أغراضهم الحقيقية وهي أغراض سياسية ترمي الى وصولهم الى الحكم وقلب النظم المقررة في البلاد .. وقد اتخذت هذه الجماعة في سبيل الوصول الى أغراضها طرقاً شتى يسودها طابع العنف فدربت أفراداً من الشباب أطلقت عليهم اسم الجوالة ، وأنشأت مراكز رياضية تقوم بتدريبات عسكرية مستترة وراء الرياضة ، كما أخذت تجمع الاسلحة والقنابل والمفرقعات وتخزنها لتستعملها في الوقت الذي تتخيره ، وساعدها على ذلك ما كانت تقوم به بعض الهيئات من جمع الاسلحة والعتاد بمناسبة قضية فلسطين وأنشأت مجلات اسبوعية وجريدة سياسية تنطق باسمها ، وسرعان ما انغمست في تيار النضال السياسي متغافلة عن الاغراض الدينية والاجتماعية التي أعلنت الجماعة انها قامت لتحقيقها ...

« الجمعية ليست جمعية دينية بالمعنى الذي يفهمه الجمهور وانما هي جمعية سياسية دينية اجتماعية تنادي بتغيير القوانين وأساليب الحكم الحالية وان الخطب الدينية لا تفيد في توجيه الجمهور الى تفهم غرضها الحقيقي وأن الوسيلة لبلوغ هذا هو اثارة الجمهور بطريقة طَرْق مشاعره وحساسيته لاعقله وتقديره » .

هذا ما ورد في بيان الحكومة المصرية بعد ان قيل ان هذه الجمعية ارتكبت اجراماً كثيراً من قتل ونسف واحراق وآخر كل ذلك اغتيالها رئيس حكومة مصر محمود فهمي النقراشي باشا الذي أمر بحل جمعيتهم ثم اغتيال أحد الاخوان رئيس جمعيتهم لان اخوانه شعروا بانه سيدل الحكومة

على ما لدى الجمعية من سلاح وعتاد وقذائف فيما قيل وقد ظهرت أوكار للجمعية كثيرة في القاهرة وغيرها من الاقاليم فيها من العتاد والسلاح ما لا يوجد عند دولة عظيمة . لاجرم ان جمعية الاخوان المسلمين من اعظم ماقام من الجمعيات السرية في مصر وغيرها من بلدان الشرق العربي وحق للناس أن يبالغوا في تقدير مكانتها . هذا وقد سرت دعوة هذه الجمعية الى من يحبون التقليد على العمياء فدخل فيها كثيرون ممن يتحمسون للدين في الشام وغيرها ولما كشف أمر جماعتهم في مصر تواروا وعمدوا الى التقية والبراءة من عمل اخوانهم في وادي النيل .

الاشتراكية في مصر

الاستاذ عبد الرحمن البَيْلي بك من وزراء مصر ومن رجال المحاماة فيها رزقه الله الغنى فأحسن التصرف به ، واخرجت منه التجارب والدرس اشتراكياً معتدلاً ، لامن الصنف الذي يدعو الى الاشتراكية باللسان وهو في ذاته من أقسى ارباب الأموال . هو يشارك فلاحيه في نعمته مشاركة لاتنقص من ماله ، وتزيد في ريع مزرعته . هو من طبقة تنظر الى المستقبل بعين البصيرة وتدرك ان الغني اذا لم يعطف على الفقير فالعاقبة عليه وخيمة .

وآخر ما ذكرت الصحف من اعمال هذا الدراكة ان اتخذ من يوم النصف من شعبان من كل سنة يوم برّ وجعل من برّه تزويج خمسة شبان من ابناء قريته على نفقته الخاصة يقدم لهم هدية العرس من ماله وهي مسكن صحي لطيف مع جهازه وادواته وفرشه وبقرة حلوب . يعمل هذا ويقول نحن في عصر جديد يجب ان تكون فيه محبة الزارع للمالك هي الراية الشرعية التي تنضوي تحتها القلوب .

لاجرم ان الاستاذ البَيْلي هو المالك الحقيقي للارض بما يصنع من خير لمزارعيه ينفعهم وينتفع بهم وسيقطف هو واولاده ثمرة ماتجود يده

على الفقراء يمتعهم بما يتمتع هو به وينقلهم بجميل صنعه الى حالة من العيش لو حصل عليها جمهرة ارباب الزرع ما كان الفرق كثيراً بين فقير وغني ولما خشي الاغنياء غدرات النظم الجديدة وويلاتها .

وبعد فقد دعا النائب المشار اليه الى المذهب الاشتراكي وقال ان الدول الكبرى ومنها بريطانيا العظمى أمّ الديمقراطية وحصنها الحصين تدعو الآن اليها وان بريطانيا انتدبت مائة وخمسين عالماً من اكبر علماء الاقتصاد والاجتماع لدرس مايمكن ان تنتهي اليه المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها العالم من سنين فقالوا لا بدّ ان تؤدي يوماً الى انقلاب عنيف لاسبيل الى تفاديه الا اذا عدلت الانظمة الاقتصادية في العالم بحيث تضمن للناس جميعاً مستوى من الحياة يتفق مع القواعد الانسانية وتمحى هذه الفوارق الهائلة بين مستوى المعيشة عند الاقلية الموسرة والاغلبية التى لاتكاد تظفر بعيش الكفاف .

قال ان ثلاثة ارباع المصريين اي اثنا عشر مليون من الفلاحين والعمال وصغار الزراع يعيشون في فقر مدقع يفتك بهم الجوع والمرض اي ان اثني عشر مليوناً من المصريين لايجدون حتى عيش الكفاف بل لايجدون جرعة من الماء الصالح للشرب وان اجور العمال في الزراعة قد بلغت من التفاهة حداً يهبط بهم الى مستوى الحيوان او ما هو دونه بكثير ، وان الثروة الزراعية في مصر موزعة توزيعاً عجيباً فبينا تجد ملاك الأراضي يقرب عددهم من مليونين ونصف مليون تجد أن من هذا العدد نحو مليونين لا يزيد متوسط ما يملكه الواحد منهم على عشرة قراريط في حين أن أصحاب الملكيات الكبيرة لا يزيد عددهم على اثني عشر الفاً يبلغ متوسط ما يملكه كل منهم مائة وسبعين فداناً أو يزيد اه .

وما زلت أقول للمصريين ان في مصر تسعة عشر مليوناً يشقون ابداً لينعم بتعبهم مليون من السكان وانه من السخف أن يصرف مليون جنيه على فتح شارع في القاهرة أو الاسكندرية للتباهي ولا يصلح ماء شرب الفلاح ومسكنه ولا تعنى الحكومة بتعليمه لتخرجه من البهيمية الى الانسانية .

هذا وقد ذكرت الصحف المصرية أن صاحب الدولة ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزارة سيتقدم الى البرلمان ببرنامج اشتراكي ، فاثبتت مصر بذلك أنها سائرة في نظام حكمها مع الزمن وكل ذاك بفضل بعض رجالها الاعاظم ووجيهم أمثال عبد الرحمن البيلي بك .

وآخر ما قرأته للاستاذ البيلي بك في جريدة المصري اثناء كلامه على ضريبة الاطيان الجملة الآتية : وفي سبيل هذا الهدف رأيت ان أتناول موضوع الضريبة على الأطيان من وجه آخر يربط بينها وبين ما تقتضيه حياة الغالبية العظمى من أبناء البلاد وهم سكان الريف — من نهضة ترتفع بهم الى المستوى اللائق بكرامة الانسانية والذي يجعل منهم مجتمعاً سليماً وكياناً وطنياً منيعاً واذا قلت سكان الريف فانما أعني مصر باجمعها اذ هم يمثلون ٨٠٪ من مجموع السكان وتقوم على اكتافهم وسواعدهم النهضة الزراعية والصناعية والثقافية والعمرانية ، ومن بينهم ينبت القادة وجنود الوطن وعدته في الدفاع وفي النشاط التنفيذي والمهني وفي كل ميادين العمل ومدارج الكفاية البشرية ، وبناء مصر الحديثة الناهضة يقوم على دعامة أولى هي النهضة بالريف وتهيئة وسائل الحياة الكريمة لساكنيه وفي هذا الميدان ينبغي أن تتجه جهودنا جميعاً وفي كل بقعة من بقاع الريف وكل قرية من قراه يجب أن تتوافر المرافق العامة الانتاجية والاجتماعية والصحية والثقافية والعمرانية الخ .

حديث النعمة

قال لي مدير التمليك : منذ خروج هـذا القطر عن الحكم العثماني لم يسجل احد من الاعيان ملكاً جديداً على اسمه الا ماكان من التناقل في الملك الواحد بين الاسرة ، ومن يسجلون الاملاك على اسمائهم من جديد هم من الباعة والطبقة الوضيعة ممن يلبسون الثياب الزرق ويتبلغون في يومهم بليرة سورية أو ليرتين .

ساءني هذا النبأ لان في اغتناء هذه الطبقة وخروج الامـلاك من ايدي من كانت تتنقل بين طبقتهم اجيالا اي فقر الاغنياء واغتناء الفقراء ، ثورة لاتحمد كثيراً لان فيه قطع ارزاق أُلوف من الخلق كانوا يعيشون من الطبقة العالية التي افتقرت وهي على الاكثر من الطبقات التي تنفق دخلها واحياناً اكثر من دخلها لتعيش عيشاً رغيداً وتظهر بمظهر لائق بين أهل حيها ومن تعاصرهم ، أما الأغنياء الجُدُد فانهم اشحاء ، وبالشح جمعوا ماجمعوا على الاغلب لاينفقون الا جزءاً ضئيلاً من ريع املاكهم ، والمدنية لايقيمها الا الاغنياء والطبقة الجديدة منهم تؤخرها بجمودها وبخلها .

والسر في انتقال الثروة هذا الانتقال الفجائي كون الجدد عملوا وما جمدوا وغامروا واقدموا والاغنياء الذين ورثوا غنـاهم تناسلوا كثيراً وتفرقت املاكهم ثم اسرفوا وما حملوا الى بيوتهم مالا جديداً وجمـدوا وما تلمسوا الطرق الموصلة الى الغنى مكتفين بالتوظف ، والتوظف قلما أغنى صاحبه ، ومعظم الموظفين يعيشون ويموتون فقراء مهما سرقوا وارتشوا .

من عادة الثروات التنقل وفي هذه الحرب اغتنى بعض التجار واشباههم غنى فاحشاً ومنهم من حدثتهم انفسهم بالتوسع في معايشهم وبادروا الى تعليم اولادهم يحاولون أن يظهروا للاعين على ماكان يظهر اهل السعة سابقاً واخذنا نسمع باسماء اغنياء ماسمعنا بهم من قبل ، وكانت من الطبقة الدنيا قبل عقد واحد من السنين . ومنها من حاز الغنى بطرق غير شريفة وظل بعد غناه يزوّر ويغش لايرد جماحه شيء .

طبقات الوزراء

عمل الوزير عظيم لايضطلع به الا من جمع الى العلم تمريناً والى السياسة خلقاً . ويتخرج الوزراء عندنا في مدرسة الاحزاب والمحافل والاندية وأروقة المجالس النيابية ومن كانت لهم دراسة خاصة وتجربة سابقة هم الصدور المقدمون . والاحزاب قد تختار نوابها وتجيد الاختيار وبالعكس . والنائب قد يصل الى كرسي النيابة بكفاءته وفي الاكثر بجربزته وواسع حيلته ، ومعظمهم يطلب رضا المحافل الماسونية ، وما زال مغروساً في العقول ان الماسونية قوة لايستهان بها يصل منتحلها الى المناصب وبها يحمي نفسه من القوانين وسيطرة الرؤساء .

المستوزرون الا من كان على شيء من عزة النفس يتحسسون المرجع الفعال في تنصيبهم فيتقربون اليه بما يقنعه بحسن بلائهم ويحمله على استدعائهم في حالة شغور المنصب وعندنا ان من تقلد الوزارة مرة حق له ان تكون له الأولوية أبداً ، والعامل الاكبر في تكرر مجيء الوزير الى الحكم أن يرضى عنه من بيده تعيينه والامة تختلف درجة حظوته عندها وفي الاغلب انها لاترضى كل الرضى عن الرجل مادام قابضاً على السلطة فاذا اعتزل أوأقيل برد حقدها عليه ، وربما عادت فاختلقت له المحامد . وما برح الرأي العام في ديارنا يتحرك بحركة الاغراض لايعرف الثبات والاستقرار ، والمرضي عنه اليوم مغضوب عليه غداً ، والناس أبداً اقرب الى الطعن المبرح فيمن كان لهم نصيب من الحكم منهم الى المدح المعقول .

ورأينا بعض من اختارتهم السلطة المنتدبة للوزارات في سورية ولبنان من الاكفياء لمناصبهم وكذلك من جاؤا بعدهم على عهد الجمهورية ، وتولى الوزارات من تنقصهم أشياء كثيرة واهم ماكانت تعوزهم الاخلاق ومنهم العجزة الذين لا يستطيعون ان يحلوا مسألة واحدة بأنفسهم وقد اعتادوا الايسيروا الا تحت يد من سيرهم ، وغرامهم ابداً بقضاء مصالحهم الخاصة وقلما

تهمهم المصلحة التي جاؤا لمعالجتها ومعظمهم يصلون الى هذه المرتبة بقوة الاحزاب وقل فيهم من نالوا الوزارة بقوتهم الشخصية وقل فيهم جداً من كانت لهم ثقافة لابأس بها ومعظمهم اذا عدلوا مع انفسهم لايكون منهم اكثر من موظفين من الدرجة الرابعة او الخامسة .

تختار الحكومات للوزارات من يوافق سياستها من بعض الوجوه وتتحمل الوزير على علاته وهي تعرف مواطن الضعف فيه وتدرك جهله وعدم نزاهته . وليست الأحزاب والمحافل أقل تساهلا ممن يعينهم مكتفية منهم بميزة خاصة تراها فيهم . وعندنا ان من اهم ماتظهر به كفاءة الوزراء دوام مهمتهم ثلاثاً او أربعاً من السنين اما الاشهر القليلة فلا تكفي لاعظم ذكي ان يدرس متشعبات وزارته وتنكشف له حركة الحبيث والطيب ممن سقط عليهم من الثابتين من موظفي دواوينه وعماله . والغالب ان صاحب الشأن لايهمه نقص كبير يشهده في اخلاق الوزير بقدر مايهمه خدمة غرضه وتطبيق سياسته .

حسنات الازهر

مهما قيل في خلل طريقة التعليم في الأزهر وهو خلل دام الى الثلث الأول من القرن الرابع عشر من الهجرة فانه خرج رجالاً خدموا الشريعة ونشروا اللغة العربية . نشأ في اواخر القرن الماضي عالمان جليلان شامي وعراقي درسا في الأزهر واحكما ما درسا ثم صار كل منهما شيخ رواق الشوام وشيخ رواق البغداديين فلما ارتويا من العلم رجعا الى وطنهما يجددان فيه ما عفا من رسوم الشريعة . عنيت العلامة الشيخ عبد القادر القصاب من جبل قلمون في الشام والعلامة الشيخ حسين العزى من عرب سقي الفرات ، وكلاهما قعد لاقراء الناس في عودته الى بلده ، فخرج الأول وعاظاً وفقهاء وتخرج بالثاني في العلوم الدينية كثيرون في ارجاء الفرات ومن انبغهم اليوم الشيخ سعيد العرفي واتم هذا التلميذ ما بدأ به استاذه من بث روح العلم في أبناء تلك الديار وكانت بلده دير الزور في جهلها كالبادية او اجهل من بادية قبل ان يقوم فيها ذاك الأزهري العظيم . ولولا عمل هذين العالمين لاضمحل الاسلام في هذه الاصقاع العظيمة ، فانظر الى فضل جامع الأزهر واعجب بما بثه ويبثه من الأنوار في القاصية والدانية .

عذر اقبح من ذنب

لما بدأت الجيوش الالمانية في الحرب الأخيرة تتوغل في الاراضي المصرية أيقن الانكليز بالخطر الداهم اذا استولى الالمان على مصر ، فلم يروا لتلافي الفاجعة احسن من اكراه ملك مصر على القبول بتوسيد الوزارة المصرية الى مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصري أكبر الاحزاب المصرية سواداً . دعا الانكليز الى المطالبة بمثل هـذه الوزارة لانه سمع في بعض المظاهرات من ينادون (الى الامام يارومل) ورومل قائد الجيش الالماني في افريقية ، ويستشم من هذا النداء ان مصر تحب استيلاء الالمان على مصر وربما عاونتها للوصول الى غرضها لتنفض يدها من يد بريطانيا العظمى وتتمتع باستقلالها تاماً .

فجاء القائد الانكليزي الى سراي عابدين بدباباته يفرض النحاس باشا على صاحب التاج فرضاً فآثر جلالته ان يرضى بالوزارة المقترحة لئلا يكون من رفضه سبب لحدوث فتنة تهرق فيها دماء المصريين . وهكذا انفض الأمر بسلام وما عاد يسمع في الشوارع « الى الامام يارومل »

الانكليز على تهذيبهم قد يسيئون الى من يرون في اساءته فائدة لهم ثم يعودون فيعتذرون ، وكذلك كان حالهم مع صاحب مصر عاملوه هذه المعاملة الخشنة لاكراهه على ما لايحب وتقدموا ليعتذروا .

لون من الوان السياسة لاتقدر دولة مهما بلغ من سلطانها ان تقلد فيه بريطانيا العظمى .

الكل مسؤولون

اعتاد بعض أرباب الزراعات العظيمة في غوطة دمشق ان يأدبوا كل سنة مأدبة كبيرة في مزارعهم يوم ضمان المشمش او القنب أو الكرم او الزيتون وغيرها من الاثمار والغلات فيجتمع لديهم مئات من فلاحى القرى ومن ينضم اليهم من الصعاليك وهم في ظاهرهم من الضمانة وفي الحقيقة انهم يحضرون السوق ليطعموا من طعام صاحب المزرعة ويتسلوا برؤية من حضر وسماع أقوالهم . وجاءت هذه الطائفة هذا العام الى سوق عقد في مزرعة كبير لبيع مشمشه فما ان رأى الحضور الطعام يقدم على السماط في القدور والاواني والصواني حتى أخذوا يلتهمون الطعام بشراهة ومنهم من كانوا يمدون ايديهم اليه قبل نوبتهم ويحملون منه في عبابهم واكمامهم بل في سطول يحملونها ومنهم من يتعمدون أذى من ينتظر نوبته في الأكل او من تقدم فأكل . وافسد بعضهم ماوضع من الطعام بالقاء التراب فيه ثم أخذوا يتضاربون ويتشاتمون ويكسرون الصحاف والاطباق والزبادي والكؤوس فأبانوا بما اجترحوا عن دناءة وهمجية فطردهم المتولون تنظيم الضيافة قبل أن يتم الآكلون أكلهم . وقد انكر أعيان الفلاحين هذه السلاطة وخجلوا من وقوع هذه القحة في بيت يجب على الأمة ان تحترمه . فقلت لهم لاتعجبوا وتصدروا حكمكم بهمجيتهم وابحثوا قليلاً في اصل هذه العلة وما كان الداعي الى تأصلها ، ولم لم يفكر المفكرون في استئصالها ، فان أرباب الاملاك لم تحدثهم أنفسهم يوماً في حمل النور الى الفلاحين يرون مايرون من خرق وسفه ساعة مايقع ثم يغلقون باب التفكير فيه . فلو قد بدأوا بتعليم أهل الزرع والضرع منذ أوائل هذا القرن لجاء منهم جيل مهذب يستحيل ان يرتكب مثل هذه الرعونات ، ولو بحثنا في درجة تهذيب المجتمعين ذاك اليوم لرأينا من ارتكبوا هذه الفظاظة غارقين في الأمية من فرقهم الى قدمهم

ومن ظهروا والأدب باد عليهم كانوا ممن درسوا في الكتّاب شيئاً هذب أخلاقهم . نحن نريد شعباً راقياً يخلقه الله لاجل خاطرنا خلقاً دون أن نسعى أدنى سعي لتهذيبه وتعليمه . ولو كانت أهمتنا مصلحة غيرنا كما أهمتنا مصلحتنا لأتى منا الشعب المهذب الذي نرجوه .

الأعيان مقصرون ، والمشايخ مقصرون ، والمدنيون مقصرون ، والقرويون مقصرون ، وكل مستنير العقل مقصر ، والجرم في الآخر يقع على الجاهل المسكين الذي لا يدرك عقله أكثر مما تدرك دابته ، نحاول ان نتمتع دون أن نتعب وان يعامل الجاهل بالقوانين الدستورية مع اعتقادنا أن مئة سنة لا تكفي لأن تخرج من متوحشي هذه الأمة شعباً يفهم ماله وما عليه .

كثيراً ما كانت قرينتي رحمها الله تقول لي : إلام تهتم بأمر الفلاحين هذا الاهتمام ، تشفق عليهم وتحاول رفع الظلم عنهم ، وتعمل على فتح طرق وكتاتيب لهم ، وما هم الا نماردة لو أعفت الدولة ظهورهم من ضرب العصى والسياط لما استطعت أنت على مكانتك أن تذهب الى مزرعتك آمناً على روحك ، فكل ظلم ينالهم يستحقونه ويستحقون أكثر منه ، ولولا الاستبداد بهم ما استقام لكم أمر معهم .

فكنت أجيبها اني أتحمل كل هذا العناء ليستنير عقل الفلاح وينشأ منه جيل أصلح من الجيل الحالي للحياة ، يدرك أن مصلحته مناط تمدينه وان لا سعادة له الا بتعليم الذكور والاناث من أولاده التعليم الأولي ، وانه لا تحسن حاله بدون الصدق في عمله والبعد عن الرذائل .

هلال رمضان والعيدين

كل سنة تحدث بلبلة في بلاد الاسلام من أجل اثبات هلال رمضان وشوال وذي الحجة ، والمحاكم الشرعية حتى بعد ارتقاء علم الفلك واتقان المراصد الفلكية ، لاتزال مصرة على اثبات الهلال بالعين المجردة لا تعتمد على الارصاد لأن الماضين ما عرفوا اثبات الاهلة بهذه الطرق الجديدة فلا بد من شهادة شاهدين ، وقد يكونان من العُمْصَ العُمْش ، يشهدان أنهما رأيا القمر ساعة ولد فيتناولان ما جرت العادة باعطائه من جعل لمن يشهد هذه الشهادة وعندها يصوم المسلمون أو يفطرون .

وتناقش أصحاب الفتيا في هذه المعضلة ففريق يقول برؤية العين في الاثبات وآخر يوافق على رصد القمر في المراصد ويؤكد أنها أقرب الى الثقة ، وألفوا في هذه المعضلة الخطيرة كتباً ورسائل ، وظل كل فريق مصراً على رأيه . وقد قبلت مصر سيدة العالم الاسلامي في الشرع نظرية المراصد وانقذت بلادها من الفوضى ، ولا تزال الشام متعنتة لايعنيها ان جعلت من مسألة الرؤية مهزلة يضحك منها الأجانب .

حقيقة نحن جامدون الى حد السخف لا ننزع القديم البالي بالسرعة الواجبة ، ولا ننزع الى الجديد النافع بدون جدال لا طائل تحته .

دمشق

قال احد ارباب المدارك ان لدمشق طابعاً خاصاً في طبيعتها وروحها ومرافقها لاتشبه المدن الداخلية ولا المدن الساحلية . وهذا الكلام يصدق على هذه العاصمة منذ فتحها العرب المسلمون . وانتقلت دمشق في أيام بني أمية من حاضرة صغيرة الى عاصمة كبيرة يمتد حكمها مسافة تسعة اشهر في اوربا وافريقية وآسيا . عاصمة تهوي اليها افئدة ملايين من الشعوب لابد ان يكون خلفاؤها قد هيأوا فيها اسباب الراحة والنعيم لمن ينزلونها واصبحت في مئة سنة سيدة المدن والعواصم في الارض كلها .

وما اقامه الامويون في دمشق من اعمال العمران تعذر على السفاح والمنصور من خلفاء العباسيين ان يقضوا عليه كله يوم فتح العباسيين . وكان الرشيد والمأمون يختلفان اليها في الاحايين ويعجبان بآثار بني أمية فيها . ذلك لانه كان في فطرة الدمشقيين الاحتفاظ بمصانعهم وعادياتهم على ما تبين من تاريخهم في القرون التالية فان جامعهم أو جامع بني أمية وهو أعظم جامع في الاسلام خرب بالحريق والزلازل مرات وأهل دمشق يعيدونه كل مرة الى سابق حاله وكذلك المدارس التي أنشئت من القرن الخامس الى القرن التاسع وهي لاتقل عن مائة وخمسين مدرسة لتعليم القرآن وفقه الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي عدا الرباطات والخوانق والزوايا والتكايا والمستشفيات ودور الزمنى والمجذمين وكانت كلها تدار ادارة حسنة ويدرس فيها اعاظم العلماء ولها اوقاف دارة ، فلما جاء العثمانيون في القرن العاشر اخذ الخراب يدب فيها ولم يغادروا دمشق الا وفيها ثلاث مدارس خربة لاغير.

وبقدرما احب الدمشقيون اهل الدول الذين رتعوا آمنين في ظلهم كبعض العباسيين والسلجوقيين وفي مقدمتهم الرشيد والمأمون وطغتكين ونورالدين وصلاح الدين ابغضوا الفاطميين الذين اعماهم التعصب الديني وعاملوا الدمشقيين

بالقسوة والجبروت ، وفي ايامهم خربت دمشق وضاحيتها . وكان عهد المماليك خيراً وشراً ، خيراً في ايام عقلاء ملوكهم مثل المنصور قلاوون وشراً في عهد بعض من خلفوه وتقدموه حتى اذا جاء الاتراك العثمانيون اصبحت دمشق من اول عهدهم تئن من سوء ادارتهم حتى اضمحلت اضمحلالاً كادت تشبه به قرية كبيرة فيها جوامع عظيمة وبقايا هندسة نشأت بفضلها قصور ومصانع في الماضي .

وما كانت معاملة الفاتح سليم الأول العثماني دمشق اقل قسوة من معاملة تيمورلنك التتري لها قبل قرن ، والاتراك كتيمور وجنكيز وغازان اميل الى تخريب مايستولون عليه منهم الى عماره . فقد اخذ تيمورلنك من دمشق جميع ارباب الصنائع وحملهم معه الى سمرقند . ولما استولى العجم على دمشق قبل الاسلام كان اول مافكروا فيه ان ساقوا امامهم ارباب الصناعات نقلوهم الى فارس كما حملوا وحمل الفاتحون ومنهم سليم الاول ماكان في هذه المدينة العظيمة من النفائس والعاديات وجميع مايحمل من انواع الثروة المنقولة .

ومن دواعي خراب دمشق تسلط الاعيان على سياستها في معظم القرون ولخوف الدولة من ولاتها تسارع ابداً الى عزلهم حتى لاتحدثهم انفسهم بالاستقلال . هكذا كان شأن المماليك وهكذا شأن العثمانيين بعدهم ، فالوالي الذي لايقيم في ولايته اكثر من سنة واحياناً شهراً او شهرين يستحيل عليه ان يعرف البلد الذي تقلد حكمه اشهراً قليلة مهما بلغ من ذكائه وتجربته فضلاً عن ان يفكر في اصلاح يدفع به الظلم ويقيم العدل . والوالي العاطل يشارك الاعيان ومعاول التخريب تشتغل من كل جانب .

ولولا ان في طبيعة الدمشقيين حيوية عجيبة في الصنائع والنجارة لاصبح اهلها بادية لكثرة مالقوا من الشدائد . ولقد اثبتوا في جميع الادوار انهم في صنائعهم آية وان الاتقان دأبهم ، وصنائعهم منوعة تبدأ من هندسة المباني

وتنتهي بالفرش والآنية ، وتجارتهم كانت منـذ القديم تمتد من الشرق الى الغرب واذا ساعدتهم الاحوال السياسية ووقفت الحروب حقبة من الزمن ارتاشوا واغتنوا واذا اختلت الحال ضنوا باموالهم وخزنوها في صناديقهم . وكانوا الى أواخر القرن الماضي اذا أمن التاجر شريكه وقد يكون بدوياً نجدياً يسلمه ألوفاً من الدنانير بدون سند وينتظره اعواماً حتى يتم تجارته على مايجب ، فالثقة كانت على اتمها بين التجار بعضهم مع بعض وبين التجار والمستهلكين . وفي كل بلد نزله الدمشقي للتجارة اغتنى في سنين قليلة هذا اذا كان على استعداد لمعاطاة التجارة ولائم جو الارض التي حلّ فيها صحته وفي الامثال العامية (اعرج الشام وصل الصين)

في قارة افريقية مستعمرة بريطانية غنية اهتدى اليها الدمشقيون ووافوها متجرين وكان سبقهم الى الاتجار فيها جماعة من تجار الانكليز فرأى الدماشقة ان البريطانيين كان من عادتهم اذا خرجت البضائع من البحر ضموا عليها خمسين في المائة ربحاً وخمسة في المئة قيمة ماتقرضه الفيران منها في السفن ، فارتأى الدمشقيون الاكتفاء اولاً بربح خمسة في المئة فما عتم التجار الانكليز ان عادوا الى بلادهم وتركوا الدمشقيين يتجرون في المستعمرة وحدهم . ولهم من ذلك حكايات تدل على صبرهم وحنكتهم وكذلك يقال في نسائهم فان المرأة الدمشقية لاتبالي بالهجرة ، هاجرت في عصرنا الى الهند واليابان والعراق وسائر الدول العربية وهاجرت الى أوربا والى أميركا وحيث حلت تظهر شخصيتها ، وهي مقتصدة تعنى عناية فائقة بزوجها وباولادها وتصرف من وقتها ساعة في عمل الخير وتتصدق على الفقراء ولا تخرج عن قواعـدها في الاقتصاد وتتجمل أبداً . واذا ساعدها الحال تتكرم على الضيفان واذا تأخرت حال زوجها ، وهي تشاركه في كل شيء ، قبضت يدها حتى عن شراء ثوب تتزين به امام جاراتهـا وأهلها . وللدمشقيين والدمشقيات في المهجر روابط متينة ليست لهم اذا كانوا في البلد الذي خرجوا منه ، ولذلك تحترمهم الاجانب ويمتازون على كثير من الشعوب المهاجرة ومن هؤلاء من يعتمدون عليهم في حل مشاكلهم وتعبيد الطرق أمامهم للاتجار والاغتناء .

وفي الحرب الاخيرة ظهر اقتدار تجار دمشق وكانوا استعدوا لدخول ميدان المضاربات منذ أكثر من سنة ولهم أموال أودعوها مصارف الدول الكبرى كالهند وانكلترا والولايات المتحدة وغيرها فسيطروا على التجارة في قسم عظيم من بلاد الشرق القريب واغتنوا اغتناءً ماشاهدوا ولا شاهد أجدادهم بعض بعضه ، فلما وضعت الحرب أوزارها هبوا بدافع من وطنيتهم ودينهم يعطون مما كسبوا حق الوطن وحق الله فأعطوا الدولة أموالاً استعانت بها على الظهور بمظهر دولة عظيمة وأعطوا حق الله بأن أنشأوا مستشفيات ودور احسان وعبادة وتعليم . وأنشأوا الى ذلك معامل على النمط الغربي من كل صنف حتى كادت بعض أراضي غوطة دمشق تشغل بالمعامل والدور التي أنشأوها لنزول العاملين فيها وأنشأوا من أرباحهم القصور الفخمة وأدخلوا مدينتهم في طور عاصمة غربية كبرى ومن زار دمشق اليوم وكان زارها منذ عشرين سنة لايكاد يعرفها .

ولدمشق في باب العلم أيام غرر كانت محجاً لطلابه منذ عهد الصحابة الى يوم الناس هذا ، وعلمهم كان الكتاب والسنة أو علوم القرآن والفقه والأصول والكلام والحديث ثم اللغة والأدب والطب والتاريخ والفلك والرياضيات والهندسة وغيرها ، وكان المشتغلون بعلوم الشرع والأدب أكثر عدداً من المنصرفين الى علوم القدماء أو ما نسميه العلوم العصرية ، ومن كان يظن ان دمشق كان فيها الى أواخر القرن التاسع أربع مدارس طبية ومدرسة هندسة ، واشتهر من أبنائها رجال في جميع الفنون ومنهم من اشتهروا شهرة عالمية كابن تيمية ، وهو في الاسلام كاوثيروس في النصرانية ، وامتازت دمشق بكثرة محدثيها كما امتازت بكبار مؤرخيها ، والعلاقة بين الحديث والتاريخ معروفة ، خرج منها مؤرخون ومحدثون من العيار العالي لم تخرج مثلهم مصر ولا غيرها ، خرج منها ابن عساكر وابن خلكان والذهبي وابن كثير وابن أبي أصيبعة والصفدي وابن فضل الله العمري وابن القلانسي وغيرهم . وهذان الأخيران كانا من رجال السياسة ولهما مكانة عظيمة في دولتي الفاطميين والمماليك . وخرج منها شعراء عظماء

كفتيان الشاغوري وابن حيوس وابن عُنَين واضرابهم ، وما خلا عصر من عصورها من شعراء مجيدين ومؤرخين محققين وأطباء ماهرين ومهندسين بارعين ، وقل فيهم الفلاسفة كما قالوا في مصر . وما خلت دمشق في كل عصر من رجال قوالين بالحق من علمائها يجرؤن على الملوك ويردونهم الى صراط الشرع ويضيقون عليهم الخناق في التحديد من الجباية حتى لايرهق الناس باسرافهم ، ومنهم العز بن عبد السلام والنووي ، وكان السلاطين والولاة ترتجف أعصابهم منهما يخشونهما كخشية الله ، ولما مات العز بن عبد السلام قال الملك الظاهر بيبرس : الآن ملكت وفي حياته ماكنت آمن على نفسي لأنه في مكنته ان يخلعني كل ساعة لما له من منزلة في قلوب الناس . وكثير من العلماء من كانوا يقفون موقف المرشد الناصح مع الملوك لا يلتوون في الحق ومنهم من رضوا أن يكونوا تحت جناح أرباب السلطان لتسلم لهم مظاهرهم ودنياهم .

وفي العهد الحديث أنشأت دمشق مجمعاً علمياً وجامعة وأصلحت التعليم بكل فروعه وأخذت روحها تسري الى الديار الشامية كما كانت منذ القديم. وقد أصدر مجمعها وجامعتها ورجال التعليم تآليف عظيمة في الفنون المختلفة ووضعوا الفاظاً لمصطلحات العلوم وادخلوا كتب التدريس في الابتدائي والثانوي في طور جديد لا يقل بمكانته عن كتب مصر . ومن تلاميذ هذه المدارس من تخصص في العلوم اخذوها من فرنسا وسويسرا وبلجيكا والمانيا وانكلترا والولايات المتحدة وغيرها وانبغت دمشق مئات من الاخصائيين ماكان لهم فيها اثر قبل ثلاثين سنة ، وحضانة العلم ثلاثون سنة كما قال نابغتنا عبدالرحمن الكواكبي .

ومن اخلاق الدمشقيين انهم يستسلمون لرؤسائهم على الاكثر ويعطفون على الفقير ويكرمون الغريب ، واحقادهم ضعيفة بالقياس الى غيرهم من الشعوب ، وسرعان مايقلدون في اقتباس مايقربهم من الحضارة ، ويتأدبون مع الكبير وقد يصدرون عن رأيه ، ويحبون الطرب ويفهمون النكتة ولهم في باب الهزل يد طولى ويوم الجد هم ممن يفاخر بهم ، ولهم استعداد

خاص لتلقف اللغات الغريبة وهم شعب اقرب الى الدين منه الى الالحاد ، ويعيش اهل الطبقة الوسطى عيشاً قريباً من عيشة اهل الطبقة العليا . والطبقات عندهم ثلاث لايكاد احد ابناء طبقة تحدثه نفسه بالتسلق الى مساواة واحد من طبقة اكبر منه . والمواطنون على اختلاف اديانهم يتحابون كما يتحاب اهل الدين الواحد ، وفي الوطنية كلهم سواء لاتخرج الاقلية عن رأي الأكثرية .

ويعجبني من دمشق انها تتخيل الى اليوم انها في حكم بني أمية مسؤولة عن كل مايحدث في العالم العربي اذا نزلت كارثة بمسلمي الصين كانت في مقدمة من يؤاسيهم وان حلّ بلاء بابن مراكش ولم تمد اليه يد المعونة خجلت من قصورها ، وهي في الثورة اول من يرفع علمها وفي السلم الكل في الكل ، فاذا كانت الحال تدعو الى الوحدة السورية ترفع صوتها اول الصارخين وفي الدعوة الى الوحدة العربية تنادي اول المنادين وفي الدعوة الى الاتحاد الاسلامي هي أمها وابوها وفي كل دعوة جديدة تتقدم لاتتأخر وتتحمل من الاعباء مايفوق طاقتها وتقوم بواجبها وباكثر من واجبها كما كان منها في الحرب الفلسطينية فاحتضنت اللاجئين اليها من الفلسطينيين كما تحضن ابناءها وبناتها .

هذه دمشق وانا عندنفسي اني ماوصفت الا ما شاهدت وما حدثت الا بما علمت وقلت فيها ماقلت برئياً من التعصب والعصبية .

اعمال الاداريين

على رجال الادارة تتوقف سعادة كل بلدة ، وهذا في نظر من ينظرون في الأمور الى أبعد من أنوفهم ويعتقدون أن العناية يجب أن تصرف في الريف كما تصرف في المدن ، والريف مادة المدن وبتحسينه كمال النهضة . ومما يكتأب له أن هذه الطائفة من الاداريين لايعرف أكثرها وظيفته ، ولا تحدثه نفسه أن يجود عملاً يعود بالخير على من يديرون شؤونهم ، ويعذر بعضهم على فتورهم ذلك لانهم لايقيمون طويلاً في منصبهم فاذا بدأ الواحد بعمل لا يتمه ويجيء من بعده يخربه على ما جرت به العادة ، والعلماء من رجال الادارة يتمون أبداً ما بدأوه مثل صديقي مصطفى الشهابي وعارف النكدي فقد بنى الأول دار كتب حلب ودار كتب اللاذقية مدة ولايته عليها وأقام الثاني ميتمين للذكور والاناث في السويداء في جبل حوران ووقف عليهما أملاكا بناها مجدداً هذا الى ما أحياه من وقف الامير السيد في عبيه من عمل لبنان وما بنى من المدارس والحوانيت والمصانع

المال لايعوزنا وانما الذي يعوزنا حسن التصرف به ، وتدبيره التدبير المثمر وانفاقه في المنافع والمصالح .

رأي عادل

جاءني وأنا في الوزارة استاذ من جامعة شيكاغو تصحبه قرينته وترجمان مؤتمن من أصحابنا فاستقبلته في داري ، وعرفت أنه يقصد من زيارته ارشاده الى مصادر يأخذ منها مادة لكتاب موضوعه (الانتداب) فقلت له هل اجتمعت الى الامير شكيب أرسلان ؟ قال : حاولت ذلك فلم أوفق ، وقيل لي انه شخص لا قيمة له ، فقلت له لقد غشك من قال لك ذلك فان في يد الرجل الذي أسقطوه من نظرك توكيلاً موقعاً عليه من سبعة وثلاثين الف رجل من أبناء سورية على ما بلغني ، وأنت اذا لم تجتمع اليه ولم تأخذ من أفكاره يصدر كتابك تافهاً ، فشكيب أقدر منا كلنا على معاناة هـذه المسائل . ثم التفت اليه وقلت له : أذكر لك على سبيل النكتة ، ان عالماً كبيراً من علماء الدين عندنا (البطريرك الكسندروس طحان) جاءه جماعة من الشبان المعنيين بالسياسة – قبل أن توافي اللجنة الاميركية المعروفة بلجنة كراين أرض سورية ولبنان تسأل اهلها عن الدولة التي تودان ان تنتدب عليهما – وطلبوا اليه ان يرشدهم الى الدولة التي يختارها لذلك ففكر قليلاً ثم قال : من الطبيعي ان نقول فرنسا ، ولكن لي رأياً خاصاً أرجو ان لا تنشروه عني وهو انه اذا كان الانتداب لاميركا تعلف هي البقرة ونحن نأكل لبنها ، واذا كان لانكلترا نعلف البقرة ونتقاسم درّها معاً ، واذا وسد الانتداب لفرنسا نحن نعلف وهي تتناول خيرها .

فلما سمعت العقيلة قرينة الاستاذ الاميركي كلامي هللت وصفقت كأنها في دار تمثيل وقد أعجبتها القطعة التي مثلت ، وزوجها بالطبع اهتز طرباً ، والتفت اليه وقلت له : اكتب هذه النكتة في كتابك الجديد ولو كلفتني خروجي من الوزارة .

بقايا الطرق

في مصر والشام بقايا من عادات الطرق هي مجموعة بدع ممقوتة تراكمت بفعل قرون الجهالة وعدها الجاهلون من الدين ، وكانت الاناضول مهد الطريقة المولوية انتشرت قروناً في أرجائها على العهد العثماني فلما أبطلها الكماليون مع ما أبطلوا من الطرق عدّ العقلاء ذلك من حسناتهم . بيد ان هذه الطريقة مازالت قائمة خارج الجمهورية التركية وطريقتها عبارة عن رقص وتواجد وغناء وناي ونقارات الى أمور ينكرها الشرع يأتونها في مجالسهم بل في مراقصهم .

ومن الظريف اني ما سألت فقيهاً عن حكم هذه البدع الا انكرها وطلب الهداية لمن يمارسونها فاذا قلت له فلماذا لا تجهر بانكارها زاغ مني وولى ، كأن انفاذ أحكام الشرع مما لا يدخل في برنامج المشايخ ، وداب هؤلاء فقط أن ينافقوا من يخافون ومن لا يخافون .

مسكين شرع محمد بن عبدالله يعبث به علناً في أرقى بلاد المسلمين أمام من وكل اليهم بحسب الظاهر القيام على خدمته لا يتكلمون ولا ينصحون ، والبدع تنخر العقول وتنحر الارواح ولا تجد لها ولياً مرشداً .

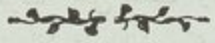

الفقهاء وكسوتهم

من اجمل ماقام به الكماليون خلفاء العثمانيين الاتراك من ضروب الاصلاح سوق كل من يدعي العلم من ارباب العمائم الى دخول الامتحان ليتميز الجاهل من العالم . وقد وسدوا للعالمين المناصب الدينية وساقوا الجاهلين الى الأعمال الصناعية والزراعية ، وحظروا عليهم طلب العيش من طريق لم يخلقوا للسير فيها . وقام البهلويون بمثل ذلك في فارس وعزلوا من ارتضوا علمهم في ناحية لا يتعدونها لينقرضوا مع الزمن . وكان لهذه الطغمة في ايران وتركيا مواسم في الدجل والشعوذة تذكر فلا تشكر .

والظاهر أن الشام تعذر عليها سوق دجاجلة الدين الى الفحص فرأت أن تخص العلماء الحقيقيين بزي خاص فصعب عليها أيضاً انفاذ ما ارتأت ، ذلك لأن حكومتنا تحاول ارضاء كل الناس وبهذا الاسلوب يستحيل قيام الاصلاح .

وما برحت فوضى كسوة الرؤوس ماثلة في أرضنا وكلها لا تناسب اجواءنا في صيفها وشتائها ، فمن طربوش الى بيريه الى قالبق الى سدارة الى كوفية بعقال وكوفية لاعقال لها الى قبعة الى عمامة بيضاء أو خضراء أو سوداء الى عمامة مزركشة (أغباني) الى غير ذلك من الكساوي المضحكة .

اصلاح كسوة الرأس واجبة والواجب قبلها اصلاح الرؤوس ، وذلك يكون بعزل الجهلاء عن العلماء ، والتوسعة على طلاب العلم وتوسيد المناصب الى ارباب الكفاءة والنزاهة ، وحرمان الجهلاء من أوقاف الجوامع والمدارس ، وترفيه أرباب الوظائف الذين يقيمون الشعائر بالفعل ، وحبس أموال الاوقاف عن الجهلة الذين لاصفة لهم الا ان يأكلوا ويشربوا على حساب قدماء المسلمين بلا عمل يقومون به ولا مزية ظاهرة يمتازون بها . ولو فتشت اوقاف المسلمين في كل صقع اسلامي لشوهد الاسراف في امتاع الجهلة بأموالها ولتوفر من ذلك اموال كان الأجدر بها ان تنفق على التعليم لا على من كان وجودهم ضرراً كله على أهل الاسلام .

السواد الاعظم

زرت بعض السنين مع اصدقائي امير الشعراء احمد شوقي والاستاذين احمد فهمي العمروسي وعارف النكدي ضريح أمير الغرب الامير جمال الدين عبد الله التنوخي في عبيه من قرى لبنان فأثرت هذه الزيارة في نفسي واذكرني هذا القبر والراقد فيه أموراً ذهب الخيال في تأويلها كل مذهب . ذكرت كيف يخرج العصر بعد العصر من كل بيئة ومن كل نحلة نوابغ ما كان يتوقع ظهور أمثالهم في بقعة ضيقة وفي قرن مظلم . وذكرت كيف ينشأ الاتقياء الصالحون في قوم يستغرب قيام رجل منهم يصفي النفوس من كثافاتها ويحبب الى من يستمعون اليه الخير ويبغض اليهم الشر .

نشأ الامير السيد (٨٨٤) — وهذا لقبه الذي كان يلقب به — في بيت مجد وامارة ، وأبت نفسه العظيمة الا ان يجمع الى الامارة علماً ، فجاء مرشداً دينياً وأميراً سياسياً معاً . كان أجداده قبلوا الدعوة الفاطمية التي حل القائلون بها لما جلوا عن مصر الى الشام ، في لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، وظل أهل بيته على طول عهد الدعوة الاولى يتطلعون الى الاصل الذي صدروا عنه تطلع صدق ولهفة (ج ٢ ص ٥٩٤ من المذكرات) . ولم يقف السيد عند حد الاخذ عمن يسهل التخرج بهم من اهله وجيرانه ، ورحل الى دمشق يتخرج بعلمائها في علوم الادب واللغة والتفسير والحديث والاصول ، وحفظ القرآن وكتب فيه تفسيراً ، ودرس في الجامع الأموي مدة . وكانت له مواقف غضبت عليه دمشق في بعضها فعاد الى مسقط رأسه ولما لم يصل الى بث تعاليمه في بلده على ما تحدثه نفسه عاد الى البلد الذي فقهه وأدبه . وكان الامير السيد يحرص على ارجاع قومه الى السنة ويحضهم على تلاوة القرآن وحفظه ووقف لذلك وقفاً عظيماً يصرف ريعه في تحقيق هذه الأمنية .

وقال من ترجموا له انه كان محباً لابناء وطنه محسناً اليهم من غير تفريق

بين الاديان والمذاهب وقد اختص لنفسه جماعة من النصارى في بلدته عبيه وأوصى لأحدهم وصية الرجل لذويه مما لا يفعله رجل دين من أي ملة كان في عصرنا فضلاً عن عصر الامير .

كان يقيم العدل بين الاهلين وينصر المظلوم ، ويعمر المساجد وينهى عن تعاطي المسكرات . ودأب على وعظ الناس في المجالس الخاصة وكثيراً ما كان يطوف قرى الجبل ينشيء المدارس والجوامع ويوسد أمور الهداية الى نبهاء تلاميذه ، وكان لا يتناول من طعام ذوي قرباه ولا يستصبح بزيتهم ، مخافة أن يكون دخل في ثمنه شيء من مال السلطان وفي مال السلطان شبهة حرام ، وكان يميل الى السذاجة في طعامه ولباسه وينفخ في قومه روح التجدد ويبعدهم عن التعصب ويحثهم على التمسك بالدين الصحيح ويدعو الى محاربة البدع والخرافات التي نشأت من الجهل وفساد السياسة ، وما كان يتقيد الا بالنص الصريح مما ورد في كلام الله الى غير ذلك من صفات العلماء العاملين .

الاستعمار البريطاني

منذ صدور وعد بلفور (١٩١٧) بمنح الصهيونيين حق تأسيس الوطن القومي في فلسطين واليهود يبتاعون فيها الأراضي ويقيمون الحصون وينشئون المستعمرات . وانكلترا وهي المشهورة بدقة استخباراتها تتجاهل مايحدثه الصهيونيون . وتخلت انكلترا عن انتدابها عن فلسطين وتركت العرب يتخبطون مع الصهيونيين وكانت تخلت عن الهند في السنة الماضية وخرجت من اكثر مستعمراتها مثل بورما وسيلان وكندا وجنوبي افريقية اي ان بريطانيا تنازلت طوعاً اوكرهاً عن معظم مستعمراتها ، وكان علمها قبل سنة يرفرف على خمس سكان العالم . ولولا تعاهدها مع الولايات المتحدة وعطف هذه عليها للروابط الكثيرة التي بينهما لاضحت دولة بريطانيا العظمى من الدول الصغرى .

أذكرني حال انكلترا اليوم وانحلال امبراطوريتها على اهون سبب بما كنت قرأته لاحد عظماء مؤرخيها من ان بريطانيا كانت تحسن لنفسها لو لم تزج شعبها في الاستعمار ، وكانت تحقن ما أهرقته من دماء ابنائها في هذه الغاية لو انها عمدت الى ابتياع ماتحتاجه من المواد الاولية بمالها ولكانت اكتسبت حب الامم كلها . ولكن هذا الرأي السديد كان يوم صرح به مؤرخهم من الآراء التي يستهزأ بها وكان كل انكليزي يحرص يومئذ على بقاء العلم البريطاني خفاقاً على ارجاء الهند ليغتني منها ابناء الجزر البريطانية وقد حققت انكلترا ماطمحت اليه من ذلك .

ولا يسع المنصف الا ان يقول ان انكلترا في حرصها على استعمار الاقطار كانت عاقلة وكذلك كانت يوم تخلت عنها وربطتها بنظام الدومنيون ، ولكل وقت حكمه ولكل جيل سياسته . وانكلترا التي حازت الشرف الاعظم بابطال الرقيق من العالم وكانت اول من نادى من الدول بتقبيحه

وانفقت باديء بدء عشرات الملايين من الجنيهات لهـذا الغرض الشريف لايليق بها استعباد قسم عظيم من البشر الى الأبد . واذا حدقنا النظر في الاقطار التي حكمتها مدة نجدها ولا نكران للحق قد نهضت بهـا وما أضرتها ووضعت لها أسس حضارتها وعلمتها حتى الدعوة لقوميتها والولوع بلغتها خلافا لسائر الدول ماعدا الولايات المتحدة .

ذكرى العظماء

الامة الاسلامية من اكثر الامم قصوراً في الاشادة بالمجد العظيم الذي خلفه لها عظماء رجالها في السياسة والعلم . وما كان ذلك الا للجهل الطارىء بعد القرن الخامس وتسلسله في آبائنا قروناً لم نسلم من عقابيله الى اليوم .

امة خدمها بروحه وجسمه مثل ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعـاوية ومروان وعبد الملك وسليمان والوليد وعمر بن عبد العزيز وهشام ومسلمة وعشرات من رجال بني أمية وقوادهم خليق بها ان تردد ذكراهم في كل مسى ومصبح .

وامة قام فيهـــا ملـكان عقمت الأيام ان تلد مثلهما وهما نورالدين وصلاح الدين ، ولو لاهما لقضى الصليبيون على الاسلام ولحلوا محلنا في الحرمين الشريفين ، من فروض العين على كل مسلم ان يعلم اولاده تقديسهما كما يعلمهم سور الصلاة .

وامة أنشأت من الخلفاء المنصور والرشيد والمأمون وطائفة من الملوك والامراء ما اشتهروا بغير السعي لسعادتها حري بابنائهـا ان تذكرهم ولا تنساهم على الدهر .

مثلنا بهؤلاء الافراد ويلحق بهم عشرات ليسوا دونهم بغيرتهم على امتهم ، واذا جئنا ننظر فى طبقات علمائنا نظفر بمئات يجب علينا اعظامهم وترديد أفضالهم علينا وعلى العلم في كل شارقة وبارقة ، ولم تخل ارض حل فيهـا

العرب من عالم واديب ، فتحوا لنا بايديهم الكريمة مغالق الحضارة فاصبح اهل الاسلام سادتها وسدنتها في الارض .

وبعد فان من الواجب قلب تاريخنا رأساً على عقب وان يعهد بكتبه الى عقول ثاقبة نقادة . فالتاريخ القديم دوّنه اصحابه بقدر ما كان لعصورهم من معرفة والتاريخ الحديث كتب جزء منه وهو المهم مستمداً من آراء الغرباء وقد يكونون من اعدائنا الذين يتعبدون الله ببغضة العرب ونبيهم وشرعه

يسرقون ولا يدرون

كم في الناس وهم في ظاهرهم من أهل الكمال يسرقون ولا يدرون ان مايأتون هو السرقة بعينها . وكم فيهم من يسرقون ويفتون أنفسهم بلا علم بان مايرتكبونه لاينافي الكرامة ولا ينابذ التقوى . كان لي صديق في احدى دور الكتب العامة وكل اليه أمر اقتناء المخطوطات فكان اذا جاءه من يريد بيع مخطوطة يستأذن صاحب الكتاب ليبقيه عنده ليلة ينظر فيه ثم يسارع فيدفعه الى المصور يصوره له بالاسود على الابيض ومن الغد يبدأ الشاري يساوم البائع على الكتاب فيدفع فيه الثمن الذي عينه له فاذا أبى البائع ان ينزل عن المخطوط بالثمن المدفوع ادعى الشاري ان لهذا الكتاب نسخة في احدى الخزائن وانه يعرف أخرى مصورة بالتصوير الشمسي ، وبهذه الحيلة يأخذ المخطوط بالثمن الذي يروقه ، يسرق عامداً معتمداً خدمة للخزانة ، والخزانة ملك الدولة والدولة لاتعطيه مكافأة اذا هو اقتصد من موازنتها على هذا الوجه . ومعنى كل هذا ان صاحبنا يتحيل لاخذ كل كتاب بالقيمة الهينة وليس له في ذلك أقل حق .

ومنهم من يسرق ويفتي نفسه بحل سرقته كأن يأخذ من القوة الكهربائية في بلده مثلاً وذلك بان يضع سلكاً في الجدار الموصل الى منبعث القوة ويحاول الاستصباح منها فاذا قلت له انك ياهذا تسرق الشركة بما لا يجوز لك اجابك اليست الشركة تسرق ماء نهرنا ، فأنا آخذ من حقنا ؟ فاذا قلت

له لايجوز سرقة السارق قال لك : اتركها لله ، وهكذا اكثر السارقون من سرقة شركة الكهرباء بلا نكير ، اما سرقة التجار من الجمارك وتهريب بضائعهم بلا رسم ، مقابل جعل يجتعلونه للعامل الصغير فهى مما عمت به البلوى ويشترك فيه أهل المتاجر الاتقياء الا من حماه الله من طعمة الحرام ، وكلهم متواطئون على استحلال مال الدولة بما يجوزون لانفسهم ، يفتاتون على العقل والشرع ويتجاهلون سوء أثر عملهم الاخرق .

حكمة حكيم

حدثني ثقة عليم قال : كان في بعض بلاد الشام رجل يعد في الطبقة الأولى من الأغنياء ، وكان بخيلاً جداً حتى ليضرب المثل ببخله ، مرض مرة مرضاً أعجز نطس الأطباء شفاؤه ، وكان ذلك أيام الحرب العالمية الأولى ، فوصف له طبيب الماني كان ينزل حلب زعموا أنه يشفي من جميع الأمراض ، فوقع في نفسه أن يرحل اليه يستطبه .

وكان الطبيب عندما استأذنوه في نزول الثري عليه سأل العارفين عن ثروته فعدوها له بأعيانها فوعاها بذاكرته فلما اجتمع الى الغني المريض سأله عن أملاكه وذكرها هو له واحداً واحداً ، قائلاً له ألست تملك القرية الفلانية والسوق الفلانية والحمام الفلاني والحي الفلاني ودخلك عظيم جداً وتعد أغنى غني في بلدك ، ثم قال : أما وأنت تملك كل هذا فما هي صدقاتك على الفقراء فاجابه : انا كل سبت نوزع عليهم من مائتين الى ثلاثمائة قرش ، فقال له الطبيب : وهل هذا كل ما تسمح به نفسك ؟ ألم تعمر جامعاً ألم تنشيء مدرسة ألم تعلم أطفالاً على نفقتك ؟ فكان جوابه سلباً بالطبع . فقال الألماني ما دمت على هذا الشح لاينتفع أحد من حياتك فالموت أولى بك وأنا لا أطبك ، فرجع الباشا الثري خجلان الى بلده .

وهذا من أبلغ ما سمعت من حكمة ، لو صارح عقلاء الناس الأغنياء هذه المصارحة لاستلوا منهم أموالاً ينفقونها في اغاثة البائسين ، وتعليم الجاهلين ومداواة المعلولين .

وقفة سوداء

في العادة أن تقدس المجالس النيابية لان في احترامها احترام من تمثلهم من أبناء الأمة ، حدث أن غلبت الحدة على حزبين حزب الأقلية وحزب الأكثرية في مجلس نواب سورية فتلاسن المتخالفون أولاً ولم يشف ما بهم الا الشتائم المقذعة ثم التضارب بالأكف والكراسي . دعا الى الخصام تخالف في مسألة دستورية اجتهد فيها الأكثرية فما أعجب الاقلية اجتهادهم . تجرى في بعض مجالس النواب ببلاد الغرب ملاكمات وقد يتشاتم المتخاصمون ، ولكن لا بهذه البذاءات . نحن مبتدئون بالحياة النيابية واذا أعوزنا العلم بما يرجى منه النهوض بالوطن فيجب ألا تفوتنا معرفة الأصول من الأخلاق .

أخلاق المربين

حمل من أرض العرب الى بلاد الترك طفلاً فنشأ نشأة تركية واقتبس اخلاق من عاش بينهم وسرى على طرائقهم ، ودعا الى قوميتهم ولغتهم ، وعاد الى مسقط رأسه وهو في الكهولة أعجم طمطم لايعرف العربية ولا تثقف بثقافة الاسلام ، وقصاراه ان ينقل عن احدى لغات الافرنج في الموضوع الذي تمحض له نقلاً لا تعرف مبلغه من الصحة .

ولقد حاول أن يتعلم في سن متأخرة ماكان عليه ان يتعلمه في الصبا فما افلح ، وكان لسان حاله انا شخص ولا كالأشخاص ، والعارفون كلهم دوني ، ولما أيس من الظهور من طريق العلم لم ير أحسن من أن ينتقص أهل الفضل ويبعدهم جهده عن الحظيرة التي لايريد ان يشركه احد فيها ، وساعده الحظ لأول أمره ان كان له انصار اكثرهم من الذين ماكان من مطمع لهم في الالتفاف حوله الا معاونته على دنياهم ، فهيأوا له دعاية واسعة النطاق خُدع بها من خُدع ، واقتنع بصحتها من اقتنع ، وبها وصل الى رياسات كان

جماع رأس مالها دعايات ، فظهر بعد حين عُواره واخذ حيث حلّ يعثر ثم تقال عثرته ، ثم يعثر ثم يُقال ، ثم عثر عثرة كان فيها سقوطه على ابشع صور السقوط ، وما كان السبب فيها الا تدخله فيما لايعنيه وادعاؤه معرفة مايجهل ، فخلط فيما لاتؤمن مغبة التجربة فيه ، مزهواً بتصفيق بعض ضعاف العقول له ، وخرج عن منطق الاشياء فضل ، وما كان بمن توهم انهم اعوانه الا ان ثاروا عليه لثورته على النظام .

شهرة تقوم على الدعاية المصطنعة ويغذيها النيل من مكانة اصحاب المكانات ، ودعوى عريضة لايتجاهر بتصديقها الا من اضطرهم الزمن الى ان يكونوا مرؤوسيه لا يصارحونه بما يجب ويغشونه كما غشهم . هذا نموذج من أخلاق بعض المربين وما هي الا أخلاق ضابط أخذ من صفوف الجند لم يدرس في مدرسة مايلزمه في صناعته فجاء أقرب الى الجهل منه الى العلم .

حظ الكتاب العربي

الكتاب العربي اتعس كتاب فى العالم حظاً اذا اعتبرنا ماضي الامة العربية فهو كاسد في بلده وكاسد في ارجاء العالم ينظر اليه بانه شيء عادي كما ينظر الى الادوات التي يستغنى عنها في البيوت .

الكتاب العربي مقصور النفع على فئة قليلة من الامة ما كتب له رواج ذات يوم ، واصابه قليل من الانتشار مؤخراً وظهوره بالقياس الى ظهوره في أمة غربية لايعد شيئاً اي ان ماينفق في كل من سويسرا والبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد والنروج لايوازي ماتنفقه أمة لا يقل سكانها عن ثمانين مليوناً ومعهم أهل الاسلام والفئة المستنيرة منهم يقرؤن العربية ايضاً

والسبب في هذا التأخر ان امر الكتب عندنا متروك للطبيعة لا تروّج له الحكومات ولا الجامعات ولا الشركات على خلاف ما يفعله اهل الغرب

ولا سيما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، ومن جملة ترويجهم للكتب أن يحملوا خزائن من الاسفار تطوف القرى وتعير كل طالب ما يستفيد من أسفارها ، ومن دولهم من يطبع مقادير عظيمة من الكتب يحفظها في المستودعات ليوزعها على من يطلبها من الأمم الضعيفة ولا سيما على الممالك التي تهدمت بفعل الحربين الماضيتين وبذلك اعادوا لبعض خزائن تلك الاقطار رونقها السالف ، ومن منا ، والمال لايعوزنا ، ابتاع مقداراً كبيراً من الكتب وجعلها في الخزائن الكبرى او اسس لها خزائن جديدة في الامصار التي هي في اشد العطش للقراءة . واي حكومة من حكوماتنا وزعت على الطلاب المدنيين والريفيين كتباً يتثقفون بها .

وما برح الكتاب بضاعة مهملة لا تتناولها الا ايد قليلة جداً ، ولا يصل صوتها الى غير الخاصة او من هم في غنية عنها . كثر المثقفون بثقافة العصر في بعض الاقطار العربية ولكن كم يبلغ عددهم يا ترى بالقياس الى السواد الاعظم وكم عدد من يتناول الكتب منهم ويدفع ثمنها طيبة نفسه (١) ، وكم جمع منهم مجموعة حسنة ينزع اليها آونة الفراغ .

ولذلك كان الكتاب العربي سيء الطالع جداً وعلى نسبة رواجه تشهد حال المؤلفين الذين يتوخون بما يكتبون نشر العلوم والآداب لانشر الروايات والقصص الساقطة والآداب المكشوفة والادب الرخيص في المجلات التي كادت تقضي على الكتاب بما تحمل للعامة من مغريات تهيج بها الشهوات وما يعبث أحياناً بالأدب .

---

(١) لما تولينا طبع كتبنا في العهد الاخير على حسابنا ، أقلقنا من الهدايا ورأينا بعضهم وهم من أرباب السعة والثقافة وقد يدعون صحبتنا يتطلبون أن نهدي اليهم وقال بعضهم لمن قبل له ابتع لك نسخة من المذكرات ، اني لا مال لدي ، أعيروني نسخة وأعيدها اليكم ! ومن الغريب أن وراقاً دنيئاً استلف بضع نسخ دون أن يدفع ثمنها وأطلقها للاعارة بأجر كأن الكتب العلمية بعض قصص الظاهر وعنترة . وطلب بعض من كان مظهرهم علمياً ولهم مال أن يحسم له شيء من نسخة يقتنيها والا فهو يستعيرها من دار الكتب ويستغني عن الشراء . بهذه العقلية المنحطة نريد أن نكون أمة رشيدة .

الغنى في مصر

ذكرت بعض الصحف المصرية ان بدراوي باشا من اعيان الغربية ابتاع مؤخراً (١١٠٠) فدان بنصف مليون جنيه دفع ثمنها دفعة واحدة فأصبح مايملك نحو عشرين الف فدان . وقالوا فيه انه متدين لايحب ان يأكل الربا ويضع امواله في المصارف بالامانة مع انه يجوز في بعض المذاهب أخذ فائدة الاموال لتصرف في الفقراء . ولااعرف مبلغ مايعطي هذا الموسر للفقراء وغاية ما عرفت ان عبود باشا وهو قريبه في الثروة اذا طلب منه ألف أعطى ألفين وذلك لانه من اصله مثقف ، هو مهندس وعقول المهندسين متسعة اكثر من عقول الفلاحين .

يجاد عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحداً

قلت غير مرة ان مسألة تضخم ثروة الاغنياء في مصر ليس لها الا سن قوانين تخفف الشر ، فلو سن مثلا قانون لايجوز لاحد ان يملك اكثر من الف فدان وينزل عن الباقي للدولة توزعه على الفلاحين والا يملك بعد ذلك مالك اكثر من مائة فدان لجرى التعديل في الثروات ودخلت في طور معقول ولا علاج للحالة الاقتصادية الحاضرة الا بابطال الملكيات الكبيرة وتكثير الملكيات الصغيرة .

عداوات البيوت

اراد المجمع اللغوي المصري ان ينتخب عضواً في مجلسه عن فلسطين وكانت الانظار متجهة الى اختيار افضل ادبائها الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي وجرى الانتخاب ففاز بالاغلبية خمس مرات ولكن الدسائس التي حاكها اعداء العضو الفائز انتهت باختيار عضو آخر . فكان من ذلك ان تأثر المرشح الاصلي عاداً ما وقع ثلماً لشرفه ، وافتئاتاً على مكانته ، فقضى بالسكتة القلبية شهيد من دأبوا على حرب من يسوءهم تفوق احد بالعلم عليهم وهم لاعلم لهم ، اما العبرة بماجرى فهو الاسف ان تتسرب الاهواء الى العلماء في مجمع فؤاد الأول

الرشوة والتنسيق

قال عمر رضي الله عنه : لا تولوا اليهود
والنصارى فانهم يقبلون الرّشا ولا تحل في دين الله
الرشا ، قال الشهيدي : فاصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم!

رأت الحكومة المصرية ان تنسق موظفيها اي ترقي درجاتهم فألفت في كل وزارة لجنة تنظر في امرهم وماهي الا ايام حتى ظهر ان بعض اللجان اتفقت مع من يُراد ترقيتهم على مال معين تقتضيه منهم يوم يصلون الى ما يطمعون فيه من الدرجات . وقد قال أناس ممن يدركون مايؤدي اليه هذا العبث من الفساد في جسم الدولة ان لصغار الموظفين بعض العذر في ارتكاب مايرتكبون لان رواتبهم ضئيلة لاتكفيهم في هذا الغلاء المرهق .

وعندي ان الدواء الناجع في هذه السبيل هو تنفيذ القوانين على الكبير

والصغير واجراء حكم الترغيب والترهيب على ما يجب فان تضخم الموازنة المصرية بالرواتب وانفاق الجانب الاعظم منهـا على المستخدمين كان يمكن تلافيه لو لم يفتح الباب على مصراعيه في التوظيف والارضاء كما حصل في سورية ولبنان

والعقلاء اليوم على ان نصف هؤلاء الموظفين يكفون لادارة مصر . وقد اشرنا في هذه المذكرات غير مرة الى هذا الاصلاح الواجب والى اتقاء الاسراف فيما لايفيد وما زلت اقول ان عشرة موظفين موسع عليهم اتصفوا بالمؤهلات اللازمة يجزؤن عن خمسين موظفاً لا كفاءة لهم . ومن اعظم الفضائح في مصر وغير مصر ان كل حزب يستلم الحكم يأتي بالقدر الاعظم من جماعته ولو كانوا من عيار ردىء لامزية لهم الا انهم صفقوا له وسعوا الى انجاحه سواء كانوا من الكفاءة بحيث يحسنون عملهم ام ضعافاً فيه ، ومن اسباب ذلك ايضاً ان السياسة والادارة شيء واحد في نظر الحكومات وكان الاولى فصلها فيتولى الادارة من ليس للسياسة سلطان عليـه وبذلك تسير البلدان نحو الاصلاح . وآية كل ذلك ان تجرى العقوبات والمكافآت في نطاق العقل والقانون ابداً

سخف العادات

لاأعلم ان كانت اوربا كلها تجري على مثال فرنسا في التنويه برجالها في كل فرصة ، وتحتفل باعيادهم وولاداتهم ووفياتهم ومواسمهم ، وتغالو في ايراد مناقبهم بل في اختلاق مناقب ما كانت يوماً لهم . فأهل الأدب يحتفلون بجماعتهم وأهل العلم بعلمائهم وأهل الحرب بقوادهم وأهل الدين بدعاة دينهم وقديسيهم وأرباب السياسة بساستهم . ولا تخلو فرنسا يوماً من تذكر الموتى ، والاشادة بهم ورفع اقدارهم ، وهذا بالضرورة يستلزم الاكتساء بكسوات تناسب المقام وبزات جديدة تلتئم مع الحفل وتستدعي ايضاً صرف وقت في الكتابة والخطابة . ويريدون من ذلك الا ينسوا رجالهم وان يرددوا على الدوام ذكراهم ، وهم ابداً يتنقلون من عيد الى عيد ومن حفلة الى اخرى ، كأن القوم خلقوا للتشريفات واجراء المراسم لايهمهم غيرها يبالغون في ذلك ويحاولون ان يعدوا لكل جلسة عدتها ، ولكل حفل تقاليده ، وما اظن عاقلاً يغبطهم على ما ابتلوا به من هذه العادات الثقيلة الوطأة

وانتقلت هذه المصطلحات الى بعض نصارى الشرق ولاسيما من ربوا في مدارس المبشرين فأخذوا يغالون في كل من امتاز عن اهله وجيرانه بشيء من المعرفة الضئيلة وكل من يموتون عندهم من هذا القبيل هم في الذروة من الفضل والنبل وهم من اعظم المعاصرين وافضل العارفين حتى دخلت المسائل عندهم في طور من الدجل عجيب . وكل من يموت عندهم يجب تأبينه وايراد صفات له ما كان يعرفها او يعرفها له عاقل ، ولطالما رأيتهم يَرثُون الامي والجاهل ويصفونها بالعلم والعمل كما شهدتهم يشهدون للصعلوك بالعظمة وللسارق بالنزاهة يكبرون من يرومون تكبيرهم كأنهم يعتقدون ان بالغلو في وصفهم يرضونهم ، وان من السهل الكذب على التاريخ والتمويه في كل شيء والتدجيل في كل موضوع يوجعون الرؤوس بما يكتبون في الصحف والنشرات

وأحياناً بما يضعون من الكتب المطولة فيمن يعتقدون انهم آية في تقدمهم في صناعتهم وكم نشروا من هذا السخف ماهو عار وسبة على قائله وكاتبه وناشره . وقد رأيت بعض مجلاتهم ولاسيما « المشرق » وهو بوق تبشير وصحيفة دعاية دأب على الحط من كل دين غير دين المسيح وقد دأبت هذه الصحيفة على هذه الخطة تدون من هذه البضاعة الرخيصة كل سخيف من اعمال رجالهم حتى ليخيل للمغرور ان رجال طائفتهم كلهم فضلاء ونبلاء ، وليس بعد هذا ضعف عقل .

أما المسلمون على الاكثر فانتهجوا نهجا آخر يصمون رجالهم بكل نقيصة ويخترعون لهم مساوىء ليست فيهم فاذا ماتوا سكتوا بعض السكوت عنهم ولا يتناولون بالنقمة واللعنة الا عظماءهم في حياتهم فما اكبر الفرق بين المغالين واضدادهم . المسلمون يتوخون ان يكون من يحوزون رضاهم بدون عيوب وما عهد ان اجمع قوم على تقريظ رجل خصوصاً من تولوا الامور العامة . ورأينا بعض من قصدوا الى ترجمة الناس من المتأخرين يدهنون لكل واحد ولكن على من جازت أقوالهم الملفقة ؟ وهل سلمت شهاداتهم المزورة امام قضاة العدل ونقاد الرجال ؟ وهل اشتهر من الصقوا بهم صفات ليست فيهم كما اشتهر من عدوا بحسب الظاهر في عصرهم من الخاملين ولم يرزقوا ما يستحقون من شهرة ؟ لا يثبت الا الصحيح والكذب والزور اذا انطليا على ضعاف العقول مرة ينكشفان بعد حين فيبدو صاحبها بما فيه من عيوب فاضحة .

المؤلفون السارقون

ويتساءل القارىء اللبيب عما عَنَّتْ له هنا قائلاً وهل في المؤلفين من يسرق ، والمؤلفون صفوة الخلق ومقام التأليف فوق كل مقام . نعم في المؤلفين سارقون ويسرقون بقحة وسلاطة كما كان على الدهر العالمون والجاهلون والصالحون والطالحون .

امتحنت بطائفة من ادعياء التأليف يتهجمون على ما لا يعلمون ويسلكون الى ترويج بضاعتهم مسالك لا يستجيزها لنفسه شريف ، لا يقصدون بها الا ان يتربحوا بما ينشرون ، ويتمجدوا امام الجهلة . ومن هؤلاء المؤلفين من يستحقون العتاب لانهم على شيء من الفضل وذنبهم اعظم من ذنب الجهلاء ممن يغفلون مراعاة المصطلح عليه في النقل والاحتذاء . ومنهم من نشر في الادب كتابين استصفيا بعض ماقلته واستشهدت به في (رسائل البلغاء) و (امراء البيان) فاخذا من النصوص ومن اقوالي اشياء وقال لي احدهما انه اخذ مني اشياء ولم يذكر اسمي فقلت له : عجيب ! وهل اسمي مما يتقزز منه ، والامانة تقضي بعزو القول لقائله . وكأن هذين الاديبين خشيا اذا اشارا الى مصادرهما ان يزيدا في شهرتي وشهرة كتبي او ان مثلها في ادبها لا يجوز ان ينقل كلام معاصر الا اذا مات .

ولما كان معظم المؤلفين عندنا قد خرجوا من صفوف المعلمين ، ومعلمو الصبيان متهمون منذ القديم بضيق العطن ، عفوت عن هذين السارقين وتجوزت فالحقتهما بمن سرقوا بعض الموضوعات التي عالجتها او استشهدت فيها بأمثلة انفقت في جلبها وقتاً ومالاً .

ان تهالك المتهالكين على الشهرة وهم متصفون بهذه الصفات في غمط حق الغير لن يوصلهم الى ما يشتهون ، وما داموا لا يقصدون من تآليفهم الا نفع انفسهم فانا أبشرهم بأنه لا يبقى لهم من مجد الا ما ربحوه من تصفيق تلاميذهم ان كان هذا بعد مجداً .

وهناك فئة حشرت نفسها حشراً في المؤلفين تستطيع ان تقبض عليها في حالة الجرم المشهود كل ساعة على نحو ما كان من مؤلف لبناني عاش زمناً في انتحال صفحات طويلة من كتبي وما اكتفى بذلك حتى سألني ذات يوم عن رأيي في تآليفه بلا حياء فادعيت له اني ماقرأتها . ومنهم من ينقل الشواهد التي آتي بها وهم في الواقع ماطلعوا على الكتب التي نقلت عنها وقد تكون من المخطوطات النادرة لا تصل اليها كل يد . ومنهم من يسرق الفكر ويصوغه في القالب الذي يقدره ويدعي انه من بنات أفكاره كبعض المصريين . وهذا من الصعب مقاضاة صاحبه لانه يزعم ان ذلك كان من باب توارد الخواطر . ومنهم من يذكر ثبت الكتب التي رجع اليها وهو ما رأى الا بعضها . ومنهم من يأخذ عباراتي بلفظها ومعناها يشير الى أنه أخذ عني وعن غيري ، وعرف المؤلفين المذكورين كما عرفتهم الى غير ذلك .

وهذا من اخلاق بعض المربين ايضاً فتأمل كيف تكون أخلاق من يربونهم

عمى الماديات

لأحد الأغنياء مزرعة تتاخم بعض حقولها مقبرة الفلاحين حدثته نفسه ان يستصفيها ليضمها الى أرضه فاوعز الى حراثيه ان يقلبوا القبور فخرجت جماجم الموتى فصار يدحرجها برجله بقسوة قلب ويقول : يا طالما سرقتم لما كنتم في عالم الاحياء . وهم ماسرقوا الا ما يسد جوعهم وغيرهم سرقوا وزوروا وهم في غير حاجة الى ذلك . فاطلع اهل القرية على الامر وجاؤه وشتموه واهانوه فاحب ان ينتقم منهم ويقدم عليهم شكوى الا ان مختار القرية سبق واطلع ارباب الشأن على ماأتاه ذلك الملاك فصدر الامر الى الجهات المختصة ان لا تسمع له شكوى فلم يسعه الا ان صالح المختار واهل القرية ونجا .

هذا الرجل على ذكائه تقدم في انتخابات مجلس النواب مرة فاخفق اخفاقاً مزرياً لانه دخلها وهو يدلّ بما عنده من ورق نقدي وما يكنز من

دنانير ذهبية وما يملك من ارض واسعة ، وما ادرك ان من لم ينفع الناس لايتعارفون اليه يوم يهزم لنجدته ، ومن لا يحب قومه لا يحبونه ، ومن ظن ان المال يوصله الى كل شيء يخطىء كثيراً .

نهضة الشام الاخيرة

في الربع الاخير من القرن الماضي كانت المعارف في الديار الشامية منقسمة الى معسكرين ، يقود الاول دعاة الكثلكة والبرتستانتية ، حملة علوم المدنية الحديثة ، ويقود الثاني دعاة تتريك العناصر اصحاب القومية التركية ومن ورائهم الدولة العثمانية . وكان معظم جماعة المعسكر الاول من المسيحيين في الساحل ، وعامة جماعة المعسكر الثاني من المسلمين في الداخل .

وظهرت شعلة العلوم الجديدة من مدينة بيروت بعد مذابح سنة ١٨٦٠ بفضل الجامعتين الاميركية واليسوعية وما أنشىء قبلهما وبعدهما من المدارس الطائفية والتبشيرية . وغدت اللغة العربية تدرس بعناية في تلك المدارس ، وشاعت اللغتان الانكليزية والفرنسية ، والعلوم تدرس باحداهما ، وكانت درست زمناً باللغة العربية في الجامعة الاميركية ، ثم جعلت اللغة الانكليزية لغة التدريس فيها الى الآن . اما مدارس الترك الرسمية فكانت لغتها التركية في الثانوي والعالي وتدرس العربية في الثانوي والابتدائي تدريساً ضعيفاً ومثل ذلك كان حظ اللغة الفرنسية من العناية .

وبينا كانت اللغة العربية تنهض في الساحل نهضة محمودة ، كانت في مدارس الحكومة وفي المدارس الدينية القديمة ظاهرة الضعف ، سقيمة الاسلوب وبينا كان طلبة المدارس التبشيرية والطائفية يتقنون من العلوم واللغات ما ينفعهم في معاطاة الصناعات الحرة وممارسة التجارة ، كان طلبة المدارس الحكومية يتناغون بتعلم اللغة التركية ، لينشأ منهم في الدولة موظفون في الجندية والادارة ، ولا اثر بين اظهرهم للتعليم الذي يؤهلهم للحياة الحرة .

نعم كانت اللغة العربية في حالة نزع في البلاد الداخلية ، اذا درست قواعدها في المدارس الاميرية (ولا يحسن التركية من لا يعرف العربية والفارسية) فتدرس بالتركية وتشرح بالتركية ، على صورة اشبه بالهزل منها بالجد . وربما كانت وزارة المعارف تتعمد يومئذ نصب الاتراك لتعليم العربية ، كما كانت تعهد الى بعض ابناء العرب بتدريس اللسان التركي . ووقع لها غير مرة ان عينت في المدارس الثانوية أناساً من الأرمن والروم لتدريس العلوم الاسلامية .

وبينا كانت الجامعة الاميركية وغيرها من المدارس الطائفية الكبرى في لبنان تخرج شعراء وكتاباً ومترجمين ومتأدبين مثقفين بثقافة العصر ، كانت علوم الدين واللسان تدرس في مدارس حلب ودمشق على الطريقة القديمة العقيمة ، والقوم لا يعرفون شيئاً يعتدُّ به عن الغرب وعلوم الغرب ، وبلغ بهم الجهل ان نسوا ان أمتهم كانت ذات عز علمي عظيم في سالف الاحقاب .

كانوا في العصور الاخيرة يحفظون القرآن ولا يقرأون تفسيره ، ويتعلمون الفقه ولا يبحثون عن اصوله وفروعه ، ويتبركون بتلاوة الحديث ويخلطون صحيحه بسقيمه ، ويتدارسون قواعد النحو ولا تستقيم لهم جملة صحيحة ، ويستظهرون دساتير التصريف ولا يصححون الرسم والاملاء ، ويدرسون العروض ومايطلقون عليه علم المعاني والبيان والبديع ولا يحسنون نظم ابيات ذات معنى طريف بلفظ جزل ، ولا انشاء خطبة مؤثرة أو صفحة بليغة . وليس في شيوخهم من يرتجل جملتين او يكتب سطرين .

وكانوا الى هذا يحرمون درس التاريخ ، ويقولون ولا يخجلون انه من لغو الحديث ، على حين كان هذا العلم في العصور الوسطى يدرس درساً عاماً في الجامع الاموي بدمشق كما يدرس الحديث النبوي . وكانوا يعدون علوم الطبيعيات والرياضيات والفلك مدرجة الى الزندقة . أما الفلسفة فان مجرد ذكر العارف بها كان كافياً للحكم عليه بالالحاد ، وأبيح دم المتفلسف وماله في بعض الادوار . بل لقد حرموا قراءة المنطق لما يلاحظ فيه من توسع

العقل ، وهم لايطلبون من العقل الا ان يكون ضيقاً . انقرضت بقية من طالما لغطوا بهذه الآراء السقيمة ، واستعانوا بالقوة الزمنية على اضطهاد من يتدارسون العلوم المادية ، وخلف من بعدهم خلف لاذوا بالتقية فما وسعهم الا السكوت لما رأوا ابناءهم يدرسون ما كانوا هم يحظرون على الناس تعلمه .

ولا عجب ان اصيبت العقول بداء عقام اشبه بداء الفلج ، بحيث لاتقوى على الحركة ولا على الانتاج واصبح الاهلون يرون العافية فيما هم فيه ، راضين بجهلهم اذا سلم لهم دينهم على الصورة التي يتخيلونها ديناً . وما كانت انفسهم تحدثهم بالخروج عما ألفوا عليه آباءهم ، ولا ان يحيدوا قيد انملة عما خطه لهم ساداتهم وكبراؤهم وحكام كان الظاهر من مصلحة حكومتهم ترك العرب ، وهم نصف سكان السلطنة في جاهلية جهلاء ، ويصرحون بان الملك لايسلم للترك الا بنزع سلاح العلم من العرب ، ولذلك كانت وزارة المعارف تحارب سراً انتشار التعليم بين المسلمين العرب ، زاعمة انه تقدم تقدماً كافياً ، فالرأى تأخيره الى الوراء لاالدفع به الى الامام ، ولما آخت الحالة الى هذه الدركة من الجهل خلا الجو للدجالين والمخرفين وعم الفقر والخمول .

وفي الحقبة التي كان فيها العلم العربي في احط مراحله ، والمشايخ يحاولون الاحتفاظ بسلطانهم الذي كان لهم على الملوك والسوقة ولايتحرجون من ان يزينوا الجهل للامة ارضاء لاولى الامر منهم ، قام في الشام استاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، وهو في هذه الديار كالاستاذ الامام محمد عبده في مصر فسعى بانشاء المدارس الابتدائية الاميرية (للذكور والاناث) في ولاية سورية العظيمة ، واخذ يؤلف لها الكتب في الفنون اللازمة ، ويلقن المعلمين اصول التدريس والتربية ، واشترك في تأسيس ثانوية دمشق وفي هذه المدينة انشأ دار الكتب الظاهرية ، ثم دار الكتب الخالدية في القدس . وكان طول حياته الحركة الدائمة في نشر العلم ، لايجد منفذاً لبث الافكار الا نفذ اليه ، ولا طريقاً الى نشر الثقافة الجديدة الا سلكه وعبّده امام السالكين . وكان ينشر كتب الاقدمين كما ينشر كتب المحدثين ، ويحيي

علوم الدنيا كما يحيي علوم الدين ، ويحبب الى النفوس الحضارة العربية كما يحث على اقتباس الحضارة الغربية ، وبارشاده انتفعت طائفة صالحة من الشبان ، وتخرج به من كان على استعداد لقبول دعوته ، ومنهم من تلقى تعاليمه مباشرة ومنهم من اكتفى بالاخذ عنه بالواسطة . وظهور هذا المصلح العظيم دليل على ان البلاد كانت ذات ثقافة محلية لاتحتاج الا الى يد صالحة تتعهدها وتوجهها .

ولما نفس خناق الشاميين بانتشار القانون الاساسي (سنة ١٩٠٨) هبت القوى الكامنة في بعض النفوس الى احياء كل ما كان فيه احياء مجد الامة العربية ، وغدت دمشق عاصمة الامويين مبعث تلك الحركة الرشيدة فصدرت فيها الصحف السياسية والمجلات العلمية ، وبدىء بارسال بعثات علمية الى مدارس فرنسا ، وانشئت في الحواضر الكبرى مدارس ثانوية اميرية تعلم العلوم بالعربية ، الى جانب المدارس الثانوية التي ظلت سائرة على ما كانت عليه تعلم بالتركية .

وما ان وضعت الحرب العامة اوزارها وخرجت البلاد عن الحكم العثماني (١٩١٨) حتى نهض القوم لتلقف العلوم بهمة عظيمة ، فأسس المجمع العلمي العربي في دمشق على عهد الحكومة العربية ، كما انشئت كلية الطب وكلية الحقوق ثم كلية الآداب ودور المعلمين والمعلمات ، واصلح نظام المدارس الثانوية والابتدائية وانتشر التعليم بالاستكثار من المدارس الابتدائية في المدن والقرى . واستعادت اللغة العربية بعض بهائها القديم ، واصبح لها المقام الاول في منهاج الدروس ، وجعلت لغة التعليم في درجاته الثلاث ، واصبحت اللغة الفرنسية تدرس تدريساً جدياً راقياً . بمعنى أن اهل هذه الديار اخذوا يتعلمون على الطريقة التي يختارونها كما نص على ذلك صك جمعية الأمم التي انتدبت فرنسا لتنفيذه .

وماهي الا اعوام قليلة حتى نشأ في الداخل شبان دارسون على النحو الذي كان ينشأ عليه شبان الساحل ، واصبحت دمشق او سورية الداخلية تدرس

من صنوف العلوم ما كان قد انقطع سنده اعصاراً طويلة ، وبقي على حالة جامدة ما تعدى الحد الذي عرف به عند القدماء ، وما بلغ المشتغلين به وهم افراد قلائل جداً انه طرأ على تلك العلوم ماغيرها رأساً على عقب بفضل الغرب وجامعاته .

وبعد حين ظهر الاطباء والحقوقيون والمهندسون والزراعيون ورجال التربية والتعليم ، ونبغ كتاب وشعراء وأدباء وخطباء ، وشارك النساء الرجال في هذه النهضة المباركة ، فأصبح منهن المؤلفة والمربية على مثال الرجال بمقياس صغير . واخذت الحكومة ترسل الى جامعات فرنسا بعثات من نبهاء الطلاب للتخصص في العلم والأدب ليتولوا التدريس في التعليم العالي والثانوي . وتعاطى بعضهم الاعمال الحرة وخدم بعضهم الحكومة ، ومنهم من تعلموا على نفقتهم الخاصة في فرنسا وفي مصر وغيرها ، ولايقل عدد من تعلموا العلم العالي في جامعات الغرب عن بضع مئات ، وهم الذين وضعوا كما وضع بعض اساتذتهم تآليف مدرسية ومصنفات راقية يظهر عليها الاتقان والبحث ، وذلك في الحقوق والطب والتاريخ والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والتربية والزراعة والمالية والاقتصاد والكيمياء والأدب والقصة . ونازعت دمشق بيروت في هذا الشأن ، وكانت هذه مستأثرة بطبع الكتب ونشر الجرائد والمجلات ، فبدأت عاصمة سورية تنافس عاصمة لبنان منافسة ظاهرة وانفسح لها المجال لذلك خصوصاً بعد ان اتجه التعليم في مدارس لبنان وجهة افرنجية في العهد الأخير ، وضعف الغرام بالعربية وآدابها .

وما صدر من التآليف العلمية في سورية الداخلية منذ عشرين سنة ، وما تلى على منبر المجمع العلمي العربي من محاضرات الاخصائيين ، وما حملته مجلة المجمع في ثلاثة وعشرين مجلداً من الابحاث باقلام علماء وأدباء شاميين ، وما نشر في مجلات الطب والحقوق والزراعة والتربية والادب من مقالات وتحقيقات عدا ماتنشره للشاميين الصحف المصرية وغيرها ، برهان جلي على

ما نقول . وكان للجمعيات الخيرية والمدنية اثر مهم في التربية ونشر الثقافة ومنها ماعلم اليتامى واليتيمات ، ومنها ما علم الكبار ، ولا سيما في المدن الاربع (دمشق وحلب وحمص وحماة) وذلك في مدارس ليلية تعلم فيها عشرات الالوف من الشبان ما خرجوا به عن حد الأمية .

وانا اذا نظرنا الى النهضة في سورية والنهضة في لبنان ، نجد أثر الغريب في النهضة الاولى اقل من القريب ونجد العكس في الثانية اي انا اذا حللنا النهضتين ، اذا صحت تسميتها بهذا الاسم ، يثبت لنا ان حظ الوطني من نهضة لبنان كان اقل من حظ الاجنبي ، وحظ الوطني في سورية ظاهر كل الظهور ، ويد الغربي ضئيلة الاثر فيما تم . ومن الظواهر الغريبة ايضاً ان اكثر من تعلموا العلم العالي في فرنسا وغيرها عادوا الى وطنهم يدعون للمدنية العربية ، اي انهم تلقفوا من المدنية الغربية ما استعانوا به فقط على بث مدنية أمتهم .

استفادت سورية لاول أمرها من نهضة لبنان ، كما تستفيد الآن من نهضة مصر ، ونهضة سورية اليوم تشبه النهضة المصرية من وجوه كثيرة ، ولسورية من الاوضاع مثل ما لمصر . والجامعة السورية هي الوحيدة من بين جامعات الشرق التي تدرس العلوم العالية بالعربية ، وقد وضع لها الاساتذة ألوفاً من الالفاظ العلمية في الكتب التي الفوها مباشرة اونقلوها من احدى اللغات . وسورية تتناول بكثرة كتب مصر ومجلاتها وربما عرف الشامي عن مصر اكثر مما يعرف المصري عن بلده .

ومن الظواهر في اخلاق المتعلمين على المناحي الغربية انهم يُعنون في سورية بان تكون أرضهم ميدان عملهم ومجالهم الحيوي في حين كان اكثر من تعلموا في مدارس لبنان يؤثرون الهجرة الى الامريكتين أو مصر او السودان ، وبمغادرتهم مساقط رؤوسهم ، وصرف جهودهم في الاصقاع التي ينزلونها ضعفت قواهم بالطبع عن خدمة بلادهم الاصلية ، وقد تطول هجرتهم او تصبح قطعية في ارض غير عربية ، فينشأ ابناؤهم بعيدين عن العروبة .

وفي الحق انه كان من منافسة الطوائف وجمعيات المبشرين نشر التعليم في لبنان ، فقل فيه عدد الاميين ، ولا تصل سورية الى مستوى لبنان في ذلك قبل عقدين أو ثلاثة عقود من الاعوام . والمأمول ان يزيد العلم في الفة المتخالفين في مذاهبهم ، وان تضمحل الفوارق من بين أهل الوطن الواحد ، ويدرك الخاصة والعامة معاني القومية التي لا تعيش الامم بغيرها ، خصوصاً في قطر كهذا تكثر فيه المذاهب والنحل ، وفيه منها عشرون او اكثر ، فهو فسيفساء اديان بعقيدته ومجموعة بدائع في طبيعته .

لاجرم ان اصلاح التعليم على اختلاف درجاته قد سهل اخذ العلم على معظم الطبقات ، ونظام البكالوريا الجديد ادخل الدراسة في طور عملي نافع ، وبالتعليم ارتقت لغة التخاطب والتكاتب ، واصبح ما كان يجهله الدارسون من الشيوخ يتقنه بل يتمثله صغار الطلبة الذين لم يبلغوا الحلم . وفعلت الثقافة في تحسين الملكات والعادات ، واصبح المتعلمون حتى من اقتصروا على التعليم الابتدائي ، يميلون الى التجمل والنظافة وحسن الهندام ، ويألفون النظام والترتيب في معظم مرافق حياتهم . وكانت المدن والقرى الى عهد قريب على حالة ابتدائية من مظاهر المدنية ، وبانتشار العلم في بيئات ما كان يظن انه يسرى اليها ، حسنت حالة البلاد الادبية والاقتصادية . ومما اعان في هذا الشأن كثرة التنقل في طلب الرزق في الممالك الاجنبية ، وسهولة تناول الكتب والصحف والمجلات ، ويسر الاستماع الى اذاعات المذياع ومحاضرات المحاضرين وخطب الخطباء ، والفضل الاول في هذا التبدل للمدرسة . ولو استطاعت الحكومات ان تبذل في نشر المعارف اكثر مما بذلت ، وعاون الاهلون في هذه السبيل معاونة صحيحة ، لعم التعليم القرى كما عم المدن ، ولاصاب من نعمته البدو كما اصاب الحضر ولظهرت الارجاء بالمظهر الذي يليق بعظمتها الطبيعية والتاريخية ، فجمعت الى قديمها حديثاً تغتبط به من كل وجه امام الغريب والقريب .

الثورة المباركة

في الساعة الثانية من صباح الأربعاء (٣٠ آذار سنة ١٩٤٩ وغرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧) قام الجيش السوري بقيادة قائده الزعيم السيد حسني الزعيم بالاستيلاء على زمام الأمر واعتقال رجال الحكم الماضي وبينهم رئيس الجمهورية السوريه ورئيس وزارتها ونشر البلاغ الآتي :

« مدفوعين بغيرتنا الوطنية ومتألمين مما آل اليه وضع البلاد من جراء افتراءات وتعسف من يدعون حكامنا المخلصين لجأنا مضطرين الى استلام زمام الحكم موقتاً في البلاد التي نحرص على المحافظة على استقلالها كل الحرص ، وسنقوم بكل ما يترتب علينا نحو وطننا العزيز غير طامحين باستلام الحكم بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديموقراطي صحيح يحل محل الحكم الحالي المزيف . واننا لنرجو من الشعب الكريم أن يلجأ إلى الهدوء والسكينة مقدماً لنا كل المعونة والمساعدة للسماح لنا باتمام مهمتنا التحريرية وان كل محاولة تخل بالامن والتي قد يمكن ان تظهر عن بعض العناصر الهدامة الاستثمارية تقمع فوراً دون شفقة أو رحمة .

القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة

وقال الزعيم في بلاغ آخر « انه رأى ما آلت اليه حالة البلاد من الفوضى واستثمار وخذلان ووجد العهد الحاضر مليئاً بالمساوي والمخازي من خيانات وسرقات ومن قضاء على الحريات الديمقراطية الى مخالفة الدستور والقوانين . ولقد رأى الجيش كل ذلك وايقن ان الامة تسير بخطى متسارعة نحو الموت والفناء فأبت عليه وطنيته وكرامته ان يقف مكتوف الايدي وابت على ابنائه نفوسهم النبيلة ان يرضوا بالذل والعبودية والفناء مصيراً لأمة عظيمة كتب لها المجد والخلود فصمم على ان يقف هـذا الموقف الشريف ويتدخل ليعيد الامور الى

نصابها . يعيد الى هذه الامة شرفها وكرامتها وحريتها » وقال قائد الجيش ايضاً : « ان السبب في الحركة التي قام الجيش بها هو الهجوم المتكرر على الجيش في المجلس النيابي وخارجه للتشهير به واظهاره بمظهر غير لائق . وقد نبهنا المسؤولين الى الحالة اكثر من مرة ، ولكن دون جدوى قال : « وقد لمسنا استياء الشعب من الوضع السابق وعدم رضاه عن الفوضى وشعرنا بان سمعة الجيش اصبحت مضغة في الافواه على اثر اعتقال بعض الضباط بتهمة السرقة والاختلاس وعدم اطلاق سراحهم رغم ثبوت براءتهم » قال : « والحركة داخلية بحتة لا علاقة لها بدولة خارجية سواء كانت اجنبية أم عربية ونحن عرب قوميون وكل سلطة خارجية مهما كان نوعها تحاول الاعتداء على سلامة استقلالنا وسيادتنا سنقابلها بالقوة ، ونحن سنتخلى عن السلطات الى الحكومة الشرعية التي سيتم تأليفها في اقرب وقت ممكن فتعود الحالة الى مجراها الطبيعي »

وقال : « ان قيادة الجيش قامت لانقاذ البلاد من الفوضى التي غرقت فيها والتي باتت تهدد استقلالنا تهديداً خطيراً ورغبتها صيانة الدولة من الانهيار وانقاذ الجيش السوري الباسل من محاولة العبث والتهديم التي تعرض لها في المدة الأخيرة فالجيش السوري الباسل الذي ضحى بزهرة شبابه وسفك دماء المخلصين من ابنائه في سبيل حماية حدود البلاد ورد اعدائها عنها واستطاع ان يسجل انتصارات رائعة لايمكن ان يقبل بأي شكل من الاشكال ان يتعرض للمعاملة السيئة التي كان يلقاها »

وفض الزعيم المجلس النيابي وبين في كتاب ارسله الى رئيس المجلس اسباب الحل وقال : « ان المجلس لا يمثل في اكثريته الساحقة رغبة الناخبين وارادتهم وانما جرى في انتخابه تحت ضغط الفئة الحاكمة وبضروب التزوير والعنف والاكراه . وكان قد ثبت بعشرات الادلة الدامغة تزوير انتخاب النواب والطعن في نيابتهم وكان الاساس الاول في اقامة حكم ديمقراطي هو القيام بانتخابات صحيحة حرة وقد يعبر فيها الشعب عن ارادته في جوّ حر تام لا زيف فيه ولا ضغط ولا اكراه . زورت انتخابات اكثر اعضاء المجلس

وكان البعض الآخر اقرب الى التعيين منه الى الانتخابات فماشى طغيان الفئة الحاكمة في اكثر من موقف وكان في اكثريته اداة طيعة في ايدي هذه الفئة تسيرها كيفما تشاء »

هذا ما صرح به الزعيم العظيم من الدواعي الى هذه الثورة التي عبرت عن اماني الأمة المظلومة اصدق تعبير واغتبطت ان كانت الثورة سلماً كلها لم يقتل فيها انسان ولم تجرح فيها اصبع واستلم الجيش زمام الحكم وشرع بتطهير جهاز الحكومة من ادرانه وبتنحية من ليس للجمهورية حاجة اليه وطرد المرتشين والمتلاعبين والجاهلين من اعوان الدولة البائدة وبات الرجاء معقوداً على تخفيف الآلام ورد المظالم وانقاذ الاوضاع الدستورية لتسير الامور على نظام وعدل

عدت الأمة في عهدها الأخير ثلاثة اعياد تتهلل وجوه ابنائها سروراً كلما ذكروها العيد الأول كان بخروج الاتراك من سورية والثاني بجلاء الفرنسيين عنها والثالث هذه الثورة المباركة التي قضي بها على سلطان الطغيان ابد الدهر ان شاء الله

الدواعي الى الثورة

كتبت الى احد اصدقائي في مصر كتاباً في الدواعي الى الثورة السورية الاخيرة اقتطف منه مايلي : تدارك الزعيم بحكمته وحنكته الجمهورية السورية من الانحلال ولم تخدش اصبع وطني واحد في العاصمة والأقاليم وتمت الثورة على احكم مايكون من السرعة والشعب يصفق ويهلل .

وتسألني وهل من داع لهذه الثورة ، نعم ان لها عدة دواع لان حكومة الجمهورية اصبحت بأخرة حكومة تخريب ولصوصية فما ارتكبته من المساوىء تردت الأخلاق وعمت الفوضى فكان من اتجروا بالوطنية زمناً وبها باعوا واشتروا وجعلوها وقفاً مؤبداً عليهم يسرقون الدولة باسلوب مفضوح مخجل ، كانوا من قبل يسرقون الالوف فاصبحوا يسرقون بمئات الألوف ولا يشبعون ولا يكفون ، وكيف لايسرقون ورئيس الجمهورية يستهدي النواب على ما قيل ويهدي هو لمن يريد استتباعهم من مال الامة ، ويفرض بعض الوزراء على كل رئيس حكومة يعهد اليه بتأليف وزارة . ومن الغريب أن من كان يقدسهم ظهرت سيئاتهم في الدور الجديد لما جرى حسابهم فكانوا من أكبر الخونة واللصوص ، وزور في انتخاب النواب من حزبه وزور في انتخابه ثانية للرياسة وبذلك خان الدستور الذي لا يجيز انتخاب الرئيس مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر ، وكان عليه تفادي كل هذا لانه مريض ولا يكاد يمضي شهر واحد الا ويقضي أياماً في السرير منقطعاً عن كل حركة ومن تداعت صحته لا يرجى منه أن يدبر صحة أمة .

ومما يؤخذ عليه اصطناع السفلة والاوغاد يغدق عليهم الاموال والعطايا ويخصهم بالامتيازات والاعفاءات الرابحة ويوزع عليهم قسطاً عظيماً من الحنطة والارز والسكر وغير ذلك من الحاجيات وفقراء الاهلين بل المتوسطون منهم لا يصلون الى حاجتهم منها الا بالبذل الكثير ، وقد جعل الرئيس

من اولئك الرعاع عشراءه وجلاسه وقد شوهد قبل يوم اعتقاله في قريتنا في طريقه الى مزرعته والى جانبه اثنان من هذه الطبقة فما استغرب القرويون ذلك منه لانهم طالما شاهدوا امثالهم معه يرفع مقامهم ويأنس اليهم ويتقزز من مجلس فضلاء القوم ولا يقبل لهم نصحاً .

واستكثر الرئيس من الموظفين الفاسدين. ومنهم أهله وأبناءحزبه يجود على بعضهم بعدة رواتب من دون أن يكون لهم عمل ظاهر وفيهم الاميون الذين ما دخلوا كتاباً حياتهم ، فضخمت الموازنة حتى بلغت ضعفي ما كانت والمجلس يقرر له الاعتمادات بالملايين دون أن يعرف وجوه صرفها ، وكان بعض من ولوا الوزارة ممن لم تسبق لهم خدمة في الحكومة من الطبقة المحدودة عقولها ومعارفها فتسلط أهلهم وأنصارهم على الناس وهتكوا الاعراض واستصفوا الارض من مالكيها ، وكان أبداً متمسكاً بهم حتى أن أحد رؤساء وزارته الذي ضجت البلد من سوء ادارته وعلت الاصوات بالشكوى من اضاعته الحقوق لم يتخل عنه رئيس الجمهورية حتى اندلع لسان الثورة واهرقت دماء الابرياء .

ولقد عطل رئيس الجمهورية الحدود عملاً بنصيحة أمه لانها أرادته على أن يتجنب القتل لانها تخاف على ابنها أن يصيبه شر من ذلك فأدخل بهذا النساء في مصالح الدولة . وكان الموظف الذي له امرأة حسناء يملي ارادته على القضاة ورجال الادارة فيفسق ويسرق وهو في حل مما يأتي لانه من حاشية الرئيس معدود في اتباعه والرجل « الموصى عليه من القصر » كان كأهل بدر ، وفني الرئيس في سياسة الارضاء والمصانعة كأن البلاد اقطاع له ولآله ومن والاه . وكان يتدخل حتى في تعيين الفراشين والآذنين لان امرأة أحدهم أو والدته سبقت فشكت ظلامتها لامرأة الرئيس أولأمه فصار لزاماً عليه أن يعينه وان كانت المصلحة تقتضي استخدام منافسه ، وكان بعض الوزراء يتبرمون بهذه السياسة الحرقاء ويعدونها اعتداء على حقوقهم ومنهم من استقال من رئاسة الوزراء بمثل هذه التحكمات فيه على ما بلغني الخ .

حزب الكتلة

لما تألف حزب الكتلة الوطنية في هذه الديار وجد له أنصاراً مخلصين يعاونونه على الوصول الى تحقيق غايته السياسية فاستطاع أن يصمد أمام فرنسا مدة انتدابها على سورية ويثابر على مطالبته بالاستقلال . وقيل ان الكتلة كانت تصدع بامر بريطانيا العظمى وأن الثورة السوريه (١٩٢٥ - ١٩٢٦) كانت بصنع الكتلة ومعاضدة بريطانيا العظمى . وكان البريطانيون يطمعون منذ وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها أن يشمل انتدابهم جميع الولايات العربية المنسلخة عن أملاك السلطنة العثمانية ، وما كان انتداب فرنسا على سورية ولبنان مما يحلو لهم ويطيب .

وضع السوريون ثقتهم بالكتلة فكانت اذا قالت لهم أضربوا أجابوا نداءها دون أن يسألوا عن السبب ، واذا أرادتهم على الثورة ثاروا سامعين مطيعين ، وإذا فرضت عليهم مالاً أعطوها ماسألت . والناس في العادة اذا اعتقدوا شرف دعوة لا يضنون عليها بما يحقق الآمال على شرط أن تكون الرؤوس والأعضاء سليمة . ومن أحق باجابة دعوة من يقول لك اني منقذك من استبداد عشت فيه قروناً لاجعل منك دولة مستقلة نيابية .

وأدركت فرنسا ما يراد بها وبانتدابها وان من مصلحة انكلترا أن يشغب السوريون عليها فما قصر رجال الانتداب في اضطهاد زعماء الكتلة اعتقلوهم وشردوهم وفرضوا عليهم الاقامة القسرية وقسوا عليهم قسوة شديدة غضب لها الشعب السوري ، وبقيت الكتلة مع كل ما لقيت ثابتة على دعوتها وقد كسبت عطف الامة عليها . ومضت أعوام في هذه المشادة ما وسع فرنسا بعدها الا ان ترضى عن تقليد الكتلة زمام الحكم وبدأ الضعف في إدارة الكتلة يتجلى شيئاً فشيئاً لما ظهر بعض أفرادها بمظهر ما كان يتوقع منهم . والناس لم يستغربوا هذا التبدل في رجال الكتلة لان الشرق مُني بالتحول والتلون ،

ولما عاونت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة سورية على نيل استقلالها خاطبت هاتان الدولتان بالطبع من كان في منصة الحكم من حزب الكتلة فرأتها هذه فرصة سانحة لتوهم الاهلين ان الكتلة كانت سبب هذا الاستقلال فانطلقت أيدي رجالها في الحكم ، وراحوا يخالفون بين أقوالهم وأفعالهم كأنهم يحاولون ان يتقاضوا ثمن سعيهم المشكور في الوصول الى الاستقلال . وظهر ان أكثر زعمائهم ما كانوا يهتمون الا لأشخاصهم ثم الهزوء بالأمة وبمطالبها ، وكان من ينصح لهم باتباع خطة رشيدة يرمونه بالخيانة ، ومن أبدى عدم رضاه عن « الوضع الحاضر » عدّ في جملة من يفضلون حكم الغريب على الحكم الوطني . ولقد اتهموا بعض الوطنيين بضروب من التهم كانوا منها أبرأ من الذئب من دم ابن يعقوب .

ما قبلت الكتلة يوماً أن يقوم في سورية حزب معارض ، هذا وهي تعرف ان المعارضة واجبة في المجالس النيابية لذلك اضطهدت كل من جسروا ، على المعارضة بل كل من كانوا على الحياد ، واتخذوا من المعارضين والمحايدين اعداء لانهم لم يدخلوا في زمرتهم ويكثروا سوادهم . واضطهدت الكتلة المعارضين وكان فيهم صفوة ابناء الوطن اضطهاداً ليس فيه شيء من الاعتدال . ولطالما اوعزت الى القضاة بالتشديد عليهم في الاحكام فاعتقلت من اعتقلت واقصت من خدمة الحكومة من اقصت وحرصت كل الحرص على ان تخص اهل حزبها بالمغانم فاسترسل بعض رؤسائها واتباعهم في ارتكاب ما كان يجب ان يتصونوا عنه فسهلت بذلك على اللصوص سرقاتهم . واذا سرق الزعماء فلا ملام على من بعدهم في الدرجات ان يسرقوا ، ويحتجون لتبرير مساوئهم بما يأتيه كبراؤهم

بسوء السياسة تأصلت العداوة الشديدة بين الاحزاب وبين جمهور الأمة وبعد ان كان اسم الكتلة عطراً اضحى وفيه نَتْن مستكره ، والكتلة من وراء ذلك لا تفتأ تعمد الى الدعايات الواسعة لتخفت اصوات الناقمين والناقدين وقد تلجأ الى القوة فتضرب وتشرد وتعتقل وتنتقم وتغلق صحف

المعارضة لتلقي الرهبة في قلوب المخاصين الذين يعدون الانكار على اغلاط الكتلة فرضاً وطنياً

ولا ينكر على الكتلة تماسكها امام اعدائها حتى تسنى لها ان تحكم هذه الحقبة الطويلة وكان منهجها في حكمها اشبه بمنهج حزب الاتحاد والترقي في المملكة العثمانية ، وكان على ايدي رجاله انحلال الدولة . قامت الكتلة بالعنف وحكمت بالجبروت شأن حزب الاتحاد ، وكان لسان حالها كل من ليس معنا فهو علينا . وكان الاختلاف أبداً على اشده بينهم ، وخصامهم في الاكثر على الاستئثار بالمنافع ، ورؤساؤهم يداوون هذه الخصومات بالمال يعطون كل ملح في تقلد وزارة راتباً يوازي راتب الوزير العامل

كان المخالفون للكتلة ضعافاً بالقياس اليها والسبب في ذلك ان الكتلة سبقت وحدها الى العمل السياسي واحكمت امرها بالحزم فكان ان مرن رجالها على معاناة السياسة أكثر من غيرهم ومن توفيقها ان ضمت اليها اناساً ، من ارباب البيوتات المتعلمين . اما جمهرة القوم فكانوا اذا رأوها قوية ماشوها لاتمام مقاصدها واذا آنسوا منها ضعفاً أعرضوا عنها . ولوكان للمعارضين قوة يعتد بها توازي نصف قوة الكتلة لطرحوها جانباً واستأثروا دونها بالحكم ، ينقلون الامة من حال فيها بعض الشقاء الى حالة قد يكون فيها شيء من السعادة

وكأني ببعض رجال الكتلة غداً ينزعون ثوبهم القديم الذي اكتسوا به زمناً ويكتسون ثوباً جديداً يرون من مصلحتهم الخاصة الظهور فيه ويقدحون بسلاطة فيمن رفعوهم ونفعوهم ويعودون يمتدحون من خلفوهم يصانعونهم كما صانعوا من تقدمهم لا لشيء غير دوام المغنم وهكذا دواليك .

ان حرص الكتلة الوطنية — وقد دعت نفسها مؤخراً بالحزب الوطني — على تولي زمام الحكم كان من اكبر الاسباب الداعية الى انصراف النفوس عنها ولاسيما عندما نظرت الامة الى ما ارتكبت في الانتخابات النيابية الأخيرة بمخالفتها احكام الدستور وهي تدعي انها حاميته والمدافعة عنه

بطل دمشق

هو الزعيم السيد حسني الزعيم قائد الجيش السوري الذي ثار على الظلم وغضب للحق ، وقضى على من أفسدوا عمود الحكم وما استعان بالاجنبي على تحقيق غرضه الشريف فعدّ المنقذ الأعظم حقاً وصدقاً .

أزال الزعيم حكومة كانت تحاول أن تعيش الجمهورية بجيش مضيّق على ضباطه وجنده ، مُدَنّق عليه في النفقة والسلاح ، وما عهد لأمة تحرص على كرامتها أن تعيش بلا قوة تحميها ، والجيش من أول مظاهر الدولة .

كان شأن الحكومة البائدة اغناء أفراد وافقار الجماعة توهم الشعب أنها تخدمه وهي تضحك منه ، فجاء الزعيم يقطع عليها طريق العسف والاسراف ويفادي بحياته ليحييها ، ويستهين براحته لتنعم وتسلم .

عقمت الايام أن تلد مثل ثورته الحكيمة ولا عجب أن سجل اسمه الكريم في ثبت بناة الممالك وقادة الشعوب .

كانت دمشق مهد المصلحين والمجددين اذا نبغ فيها نابغة في الجندية والادارة انضم الى لواء الدولة القائمة يعاونها على حفظ سلطانها أما الزعيم ابن دمشق الذي أدهش العالم بثورته فقد وثب وثبة جبارة للنهوض بسورية فحق لوالده صديقي الشهيد السعيد العلامة الشيخ رضا الزعيم أن يغتبط في قبره بان أنجب للعرب مثل هذا النجيب .

سياسة رئيس

بقى أمر رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مكتوماً إلا عن بعض الخواص مدة رئاسته الأولى ، ولما بدا له أن يجدد رئاسته ليستمتع بالحكم خمس سنين أخرى ، مع ان الدستور حدد الرئاسة بخمس سنين فقط لا يجوز لرئيس ان يتولاها مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر ـ لما تذرع بذلك كان منه ان حنث بيمينه الذي أقسمه يوم رئاسته الأولى وهو المحافظة على الدستور .

وراح الرئيس يعمد الى انتخاب بعض النواب من حزبه بالضغط والتزوير واذ تعذر عليه أن ينال أكثرية الأصوات ابتاع فيما قيل اصوات بعض النواب ومع هذا لم يتهيأ له الاجماع لاستنكاف حزب المعارضة من انتخابه .

وعاد الى ما كان جرى عليه من العطف على زعانف الأحياء ، ومزيتهم عنده انهم يتسلطون على الأهلين يوم الانتخابات ويخدمونه بما يشاء ، ولذلك فتح لهم الأبواب الرسمية يدخلونها بلا استئذان وهو يبالغ في اغداق العطايا عليهم ويخصهم بالامتيازات والاعفاءات ، ويجعل منهم عشراءه وأولياءه ، ووقع له أن سعى لانتخاب أحد أصحابه نائباً مشهوراً بطول اللسان ، وقال انا ما اخترناه لهذه المهمة الا ليسب غداً من يخالفون رأينا في المجلس ! وافرط في توظيف أهله وأنصاره ومنهم الأمي العامي ومنهم من كان يقبض عدة رواتب من بضعة دواوين وليس له عمل ، أفرط في ذلك حتى خيل للأهلين ان سورية اقطاع له ولمن يحب .

واذ اعتاد الرئيس التدخل في الصغير والكبير من شؤون الحكومة بما لاتتطلبه رئاسته كان من لهم شيء من عزة النفس من وزرائه يتأففون من تحكمه ومقترحاته ، أما المنافقون منهم وهو يفرضهم على كل وزارة فكان يسكت عن مساويهم كأنه شريكهم ، حتى عمت الرشوة وسادت الفوضى .

كان الرئيس يعبث بالقضاء فمن يحكم له من القضاة بما يروقه يرقيه ويرفع مقامه ومن يجري مع القانون يوبخه وقد ينحيه او يحول دون ترقيته . فقد حكم على احد ارباب الصحف باهانة الرئيس ولما لم يحكم القاضي النزيه بالقانون العثماني اي لم يقس القذف في الرئيس على القذف بالملك ، ولم يعتبر رئيس الجمهورية ملكاً اقصاه ونبذه ، اما الذي تفوه بما يسقط من قدر الرئيس وحكم القاضي عليه حكماً جائراً فأعلى الرئيس مرتبته وارضاه . وله أشياء من هذا القبيل لا يليق صدورها من المهيمن الأول على القانون فقد اختلف مع بعض جيرانه على حدود ارض فاضطر الموظف المختص ان يرضيه بالباطل ومستندات خصومه شاهدة ان لهم الحق دونه ، واكره وزارة الاشغال ان تفتح طريقاً ليتصل من مزرعته بأرض له بعيدة وهي سبخة ونزة لا تصلح للزرع فاستلزم قطع اشجار مثمرة من جانبي الطريق ، وكذلك الزمها بفتح طريق بيت امه فأنفقت في ذلك نفقات باهظة كانت طرق اخرى أحق بهذه العناية . ومنها انه كان يستعمل بضع سيارات على حساب الحكومة يخص بعضها بركوبه وأخرى بحرمه وبعضها لأولاده وبعضها لبناته وسيارتين لصهريه . ومنها اعطاؤه لأحد شعراء المهجر خمسة عشر الف ليرة سورية وانفق عليه مايقرب منها مدة اقامته في عاصمة الجمهورية ، وأعطى عشرات الألوف من الليرات لمن مدحوه او كتبوا رسالة او كتاباً باسمه ومن تغنوا بمحامده فيما كتبوا من كتب اغناهم . وكان يعطي بعض الصحافيين بلا حساب لأنهم رضوا ان يكونوا ابواقاً لتمجيد سياسته ، ومن غلط غلطة واحدة من ارباب الصحافة اوعز الى المحاكم ان تشدد عقوبته وتغرمه الغرامات الثقيلة . وكان يصرف جانباً من اوقاته في مثل هذه المسائل .

ولما كان من طبعه حماية اهل الطبقات النازلة لم يجوز ازعاج من كان يشملهم بلطفه وعطفه ولو كانوا من الجناة الأشقياء ومنهم احد المفاتي في قضاء ثبت انه لص كبير وجان تعددت جناياته بتحقيق قاضيين نزيهين فلم يرض ان ينحيه لأنه كان ينادي يوم الجمعة من أعلى المنبر : اللهم انصر

أمير المؤمنين شكري القوتلي وكان هذا الخطيب يدعو بمثل هـذا الدعاء البارد على عهد الانتداب الافرنسي فيقول : اللهم انصر فرنسا وجيوشها . ولعل هذا المفتي السخيف كان ممن يمهد للسيد القوتلي دعوى امارة المؤمنين .

ويتلخص ما اتاه الرئيس من الاعمال النابية عن القوانين في المواد التالية :

(١) العبث بالدستور وقداقسم ان يحافظ عليه

(٢) انتخاب نواب حزبه بالتزييف والضغط

(٣) افساد بعض النواب ليتم الاجماع على انتخابه

(٤) اعتماده على ارباب الدعارة واعطاؤهم الأموال والسكر والارز والحنطة والبترول والمازوت من مال الدولة بمقـــادير عظيمة جداً حتى اغتنى أكثرهم

(٥) افساد طلبة المدارس باعطائهم رواتب من الدواوين وهم لم يتموا دروسهم ولم يوظفوا على الاصول

(٦) استهزاؤه بنصح العقلاء من الوطنيين وثقته العمياء بالجهلاء

(٧) اسرافه البالغ باموال الجمهورية وحمله البرلمان على اعتماد أموال عظيمة لم يعلم محل صرفها

(٨) ادخاله في خدمة الحكومة الافاقين والاميين من أسرته وانصاره ومنهم من كان يعطيهم عـدة رواتب وكذلك يعطي بعض الوزراء الراضي عنهم تعويضات باهظة

(٩) اخذه بيد شاب من النواب حتى ألف حزباً خطراً من برنامجه القيام بثورة وقد اعد لها عدتها بالفعل

(١٠) لم يحقق مدة حكمه شيئاً يعتد به من اعمال الاصلاح على كثرة مادخل خزانة الامة من الاموال الجسيمة

وكان على الرئيس وهو يعرف انـه مصاب بمرض عضال ، ان يتنحى عن الرئاسة من تلقاء نفسه فالمريض يحتاج الى من يدبره ولايرجى منـه ان يدبر مملكة .

كان الرئيس قبل رياسة الجمهورية يتكرم من ماله فيحمد اويذم فلما

تولى الرئاسة غرف في الجود من مال الامة فتبرمت باسراقه

كان الرئيس ثورياً يحب الثورات ويمتدح الثائرين ويبالغ في اكرامهم وشاء القدر ان يصرف بثورة ، وماظلمه احد بل هو الذي ظلم نفسه باهماله ماعهد الى امانته

كان خروجه على القوانين بادياً لكل ذي بصيرة حتى خيل لنا انا عدنا الى العصر التركي ايام كان الوالي يحكم بلا محاسب ولا مراقب . وأصبح الحكم الجمهوري الذي يراد به رفع تسلط الافراد حكم الهوى لاحكم القانون . الشكل دستوري مدني والفعل استبدادي عامي

ولطالما نصح له العقلاء ومنهم من كتب له التقارير في بيان طرق الاصلاح وجاءته عدة وفود تصارحه في سوء مغبة السياسة المتبعة في الادارة فكان يؤلمه ان يسمع مايخالف اغراضه ويقلب الحديث من جد الى هزل ، وقد يبتسم ويسكت ويتأفف من مخاطبه ويتجهم له ويود لو عجل الانصراف من حضرته .

كان رئيس الجمهورية الثالث ضعيفاً في ارادته ، قوياً في حزبيته ، مسرفاً بماله ومال غيره ، حريصاً على تحقيق رغائبه الخاصة ، اخطأ طريق المجد وما عرف اختيار الأسباب التي تعين عليه . ومن الانصاف ان يقال ان له فضلاً على القضية الوطنية ، وقد ثبت انه في الامور السلبية اقدر منه في الامور الانشائية الايجابية

فاجعة فلسطين

من نحو جيلين واليهود المنشورون في اوربا واميركا يحلمون بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين (راجع الفصل الذي كتبه في الصهيونية الاستاذ عمر الصالح البرغوثي في الجزء السادس من كتابنا خطط الشام) ، وقد اتخذوا لذلك عامة الذرائع ، وهان على كل يهودي في الأرض أن يبذل النفس والنفيس في تحقيق هذه الأمنية ، وتوفر اليهود على احياء اللغة العبرية وكانت نسيت الا من كتب صلواتهم ومن ألسن رجال الدين عندهم ومالبثوا أن أصبحوا يتكلمون بها في بيوتهم وكانوا من قبل يتكلمون معظم لغات العالم الا لغة دينهم هذه ، أحيوا لغتهم بعد موتها وكانت كالسريانية والقبطية تعد من اللغات الميتة . والى هذا جدّوا في تلقين الآداب على ما يضمن تكوين دولتهم الجديدة .

وفي الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨)خدم اليهود دولة بريطانيا العظمى خدماً عظيمة فوعدتهم ان هي خرجت ظافرة من حربها ان تعاونهم على تحقيق آمالهم في تأسيس دولة لهم في فلسطين وبعد ذلك أقبلوا يهاجرون اليها من انحاء العالم وزادت هجرتهم منذ تم الانتداب لانكلترا على فلسطين وكانوا شرعوا قبل الحرب الأولى بابتياع الارض بالثمن الفاحش من ابنائها العرب يستعمرونها احسن استعمار وأغدقت جمعياتهم واغنياؤهم في الغرب الاموال العظيمة على فلسطين حتى عمر اليهود كل ما وضعوا أيديهم عليه من مزارع وأنشأوا المعامل والمدارس وأقاموا المصانع وشادوا القصور والحصون . وكانت حماية انكلترا للصهيونيين ظاهرة ومع هذا ما رضيت عنها بعض أحزابهم ومنهم من كانوا يتربصون بحامية الانكليز الدوائر ، وما ذلت بريطانيا في الشرق كما ذلت في فلسطين ، فكان رجالها يقتلون وتضطر الى مصانعة اليهود والتغاضي طوعاً أو كرهاً عن جناياتهم حتى

لا يفسدوا عليها يهود الولايات المتحدة وهي في الحرب والسلم محتاجة الى صداقة اميركا ، وما ان اعلنت انكلترا انتهاء انتدابها على فلسطين حتى زادت الحال شدة على العرب ، وكانت انكلترا تجور عليهم في جميع الثورات التي قامت وتراعي اليهود مراعاة لا تقبل الانكار . ولما تمت معدات الصهيونيين الحربية وحان وقت رفع العلم الصهيوني على أرض الميعاد بصورة رسمية أبدى اليهود للعرب نواجذ الشر اكثر من ذي قبل فكانت حرب العصابات ثم الحرب النظامية كالتي تنشب بين دولة ودولة ، وكان العرب الى العهد الأخير يعرفون ما هم قادمون عليه ولا يستطيعون ان يتذرعوا بما ينقذهم خوفاً من الانكليز ، وهم كانوا في كل فتنة اشتعلت بين العرب واليهود الى جانب هؤلاء كأن بريطانيا العظمى دولة يهودية لحماً ودماً وديناً ومدنية .

وبعد الحرب العالمية الاخيرة اوعزت انكلترا الى بعض رجال السياسة من العرب في العراق ومصر ان يتقدموا الى الحكومات العربية السبع (مصر والعراق والمملكة السعودية واليمن وشرقي الاردن وسورية ولبنان) بتأليف جامعة عربية ففرح العرب وظنوا ان باطن ساسة القوم كظاهرهم . وكان العرب لسلامة صدورهم او لأنهم مبتدئون بالسياسة يظنون ان الحرب الأخيرة علمت البريطانيين ان يعدلوا سياستهم في الشرق وقد عزموا ان ينظروا في خير العرب ، وما غايتهم في الواقع الا ان يجعلوا منهم في غربي آسيا قوة تعضدهم امام قوى اعدائهم ويستندون اليها في حال وقوع حرب مع روسيا أو غيرها . ولما نشبت الحرب الفلسطينية واشتركت فيها بالفعل خمس دول عربية مصر وسورية والعراق ولبنان وشرقي الاردن ، بقيت المملكة العربية السعودية والمملكة اليمانية بمعزل ، وكانت مصر وسورية من أهم الحكومات تأذياً بالحرب وخصوصاً سورية فانها هبت لجهاد الصهيونيين اول الدول العربية وقبل ان تتم استعداداتها تحدوها حماسة المتحمسين من اهلها . اما سائر الدول فمنها من اخذ يساوم ليضيف جزءاً من فلسطين العربية الى مملكته كالملك عبد الله ابن الحسين صاحب شرقي الاردن وشغلت اليمن بنفسها وثورتها وابن سعود

صرح بانه لايسير على مايريد ملوك العرب لانه اعرف بما يصلح مملكته ، والحقيقة انه خاف غضب الولايات المتحدة وهي صاحبة شركة البترول في مملكته التي تدر عليه ملايين من الليرات الذهبية كل سنة . وكان العراقيون جد أوفياء للوطن العربي الاكبر وما ابدوه من معاونة القضية العربية منذ كان لهم جيش وسلطان مما ترتفع به الرؤوس

وقدر الله ونزلت الكوارث بالجيش المصري والسوري وثبت انه كان في صفوف الصهيونيين قواد من الروس وكانت تشيكوسلوفاكيا الشيوعية تمد الصهيونيين بالسلاح مدفوعة بأيدٍ روسية وعاونت الولايات المتحدة الصهيونيين جهرة وكان الانكليز على عادتهم يراوغون وضلعهم مع الاميركان وما كان لهذه الحفنة من الجيوش العربية ان تغلب جيشاً مستميتاً في سبيل دعوته تعاضده دول كبرى ، فمصر والشام والعراق لم يحاربها الجيش الصهيوني فقط بل حاربتها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وروسيا اكبر دول الأرض الحربية اليوم ، ولكل من هذه الدول مآرب تحاول تحقيقها على حساب فلسطين ، فالانكليز السكسونيون يدعون انهم يحرصون على حماية بلادهم من الشيوعية عدوة الديمقراطيات ، وروسيا اذا كتب لها التدخل في فلسطين كما تشتهي تخرج الى البحر المتوسط بأساطيلها وهذه أمنيتها منذ القديم ، وجعلت الدول الكبرى من العرب آلة لقضاء غاياتها لما خصت به بلادهم من مركز ممتاز بين آسيا وافريقية واوربا .

وصل الصهيونيون لما سعوا اليه سنين وهو تقسيم فلسطين استأثروا بالساحل العامر وقذفوا بالعرب الى الداخل واكثره غامر وذلك على صورة مضحكة لم تعهد في أرض متوحدة الأجزاء متشابكة السكان ان قسمت على هذا الوجه المخزي ، هكذا اراد احباب اليهود ان ينيلوهم رغباتهم وضحكوا من العرب ودول العرب ، وختمت هذه المأساة التي يبكى لها كل عربي وكل مسلم في الارض بما اورث الحضارة الحديثة العار الأبدي ، نزعوا من المالك ملكه واعطوه ظلماً لمن أحبوا استمالته ، ومن اشق ما صدع

قلوب العرب ان أصبحت الدولة الجديدة فاصلة بين الأقطار العربية في افريقية واقطارهم في آسيا .

قلنا ان بريطانيا العظمى ذلت امام الصهيونيين لأن سياستها اقتضتها مصانعتهم حتى تبقى الولايات المتحدة حليفتها ولا يدس اليهود دسائس تحل رابطة الدولتين البريطانية والاميركية ، واي ذل لبريطانيا افظع من ان يقتل رجالها ولا تستطيع ان تضرب على ايدي الارهابيين من اليهود ، وكانت الدول حامية الصهيونية خلال الحرب الفلسطينية الأخيرة اذا ايقنت ان بعض دول العرب في ساحات الوغى كادت تظفر يشيرون الى جيوشها بالارتداد الى الوراء مهددين ، وما ذكر التاريخ حرباً مضحكة كهذه الحرب . وزاد في هذه المهزلة تفاشل العرب في الآخر لأن صاحب شرقي الاردن يحلم بتوسيع ملكه من ارض فلسطين وسورية ، ورئيس جمهورية سورية يحاذر ان تنحل جمهوريته وتتألف سورية الكبرى ، وصاحب الحجاز ونجد يخاف على توتر العلائق بينه وبين انكلترا واميركا ، ويخشى اذا صمد مع الحكومات العربية ان تفوته فوائد مالية كبيرة .

نكتب هذا وفلسطين البائسة لاتزال بين خفض ورفع وحرب وهدنة وسكان فلسطين من العرب الذين سموهم باللاجئين وهم يزيدون على ثمانمائة الف يهيمون على وجوههم في فلسطين وسورية وشرقي الاردن والعراق ومصر غادروا ديارهم بعيالهم لما نالهم من ظلم اليهود

فرح بعض ضعاف العقول من أهل فلسطين لما اخذ الصهيونيون يبتاعون من الوطنيين الأرض بالأثمان الفاحشة وظنوا ذلك مغنماً لهم لم يفز بمثله آباؤهم ولا اجدادهم وقال بعض المتشدقين ان الحالة الاقتصادية تحسنت جداً في فلسطين بما دخلها من اموال الصهيونيين وقدروها بمئة مليون جنيه بيد ان كثيرين ممن باعوا تراث اجدادهم وموهوا على انفسهم بأنهم غنموا مغنماً لم يكتب لهم مثله وكان من نساء اليهود أن استعدن منهم ما كانوا قبضوه قيمة اراضيهم بطرق دنيئة

كتبت كثيراً عن خطر الصهيونية في جريدة المقتبس ثم في كتابي خطط

الشام منذ نحو أربعين سنة وعاونني أربعة اصدقاء من أرباب التفكير السليم نلفت الأنظار الى مايتوقع من خطرها . اثنان من فلسطين وهما الاستاذان عبدالله مخلص وعمر الصالح البرغوثي وواحد من لبنان وهو الاستاذ نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل في حيفا والرابع دمشقي وهو الاستاذ شكري العسلي وكان قائم مقام الناصرة ثم نائب دمشق في مجلس النواب العثماني وكلهم لم يدخروا جهداً في بيان ماسينال فلسطين من الغبن العظيم اذا امتدت الدعوة الصهيونية

اما اليهود فقد تحققت احلامهم القديمة بذكائهم ومالهم ومفاداتهم ثم بمعاونة دول الغرب لهم « سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء »

عدم التوفيق

ثبت أن الرئيس السيد شكري القوتلي لم ينفع مدة رئاسته الا نفسه ومن اصطفاهم ، وكان السواد الاعظم من الشعب غاضباً على طريقته في الحكم ، وعلى صم أذنه عن سماع الحق ، وعلى سخريته ممن أجلسوه في مقام كان عليه أن يقوم حق القيام بما يجب عليه له .

كان هذا الرئيس كثيراً ما يعتب عليّ لقلة اختلافي الى مجلسه وعدم المبادرة لاجابة دعواته الى مآدبه الرسمية فكنت أعتذر بصحتي وضيق وقتي وان اجتماعي بمن لا أحبه ولايحبني قد يضر بصفائي وينغص المدعوين ، وقلبي يحدثني ، لكثرة ما تواتر عنه من الهزوء بما لا يوافق اغراضه من النصائح ، ان كل من لم يمدحه هو في نظره عدو حكمه ، وكل من ينصحه يكرهه ويحقد عليه .

وغالطت نفسي مرتين وعرضت عليه اقتراحين نافعين أحدهما خرق الطريق الضيق الموصل بين باب البريد الى المدرسة العادلية مقر المجمع العلمي العربي والى المدرسة الظاهرية وفيها دار الكتب الكبرى ، والى

ضريح صلاح الدين وأخيه العادل والملك الظاهر . والاقتراح الثاني تفريغ ما حول العادلية والظاهرية من الاكواخ والمساكن لأن الخطر محدق بهما ولا سيما بدار الكتب لمجاورة الحمام والقمين والفرن فاعتذر عن الاول بالحرب وضيق البيوت على السكان . وكان الاعتماد اللازم لفتح هذا الطريق مثبتاً في موازنة البلدية لذاك العام — ووعد بانفاذ المشروع بعد الحرب وما عاود الكلام فيه ، وكان الوعد بالاقتراح الثاني أن يباشر به في أقرب فرصة فما صدق بوعده ولا بر . وظلت هذه المصانع العظيمة وسط أزقة ضيقة حقيرة قذرة لا تنفذ اليها الشمس ولا الهواء ولا تتسع للمارة فضلاً عن السيارات والمركبات . وقديماً كانت تلك المحلة أشرف حي في دمشق لجوارها الجامع الأموي وكانت في القرون الأولى للاسلام منازل الصحابة والتابعين ورجال بني أمية ومن جاء بعدهم من العظماء والعلماء .

ما اهتم الرئيس لكل هذا والحريق يهدد مدرستين هما من أجمل ما شاد الفاتحون من ملوكنا ، وأهمه فتح شارع باسمه في غربي المدينة ونسي أن المنافقين من اتباع السلاطين كثيراً ما فتحوا لملوكهم شوارع وبنوا باسمهم المصانع فما ان مات اولئك الملوك او تنازلوا عن الحكم حتى كان الاعفاء نصيب ما بنوا . وكان على الرئيس ان يعتبر بسلفه المتأخر السيد تاج الدين الحسني وما كان من حرصه على تخليد اسمه . حفره على ما شيد ايام ولايته من جوامع ومدارس ومخافر ودور حكومة فلما جاءت الكتلة الوطنية وعلى رأسها عميدها السيد القوتلي نفسه ازالت كل ما زبر على الحجر وكتب في الجدران فذهب تعب الحسني عبثاً

كان يتعذر عليك ان تزين لهذا الرئيس عملاً لا يكون له منه منفعة ولو كانت عنايته بالعموميات اكثر من الخصوصيات لخلد اسمه بما تم على يده للخير العام اكثر من شارع يزال اسمه عنه بقرار من المجلس البلدي . ولكان من هذين المقترحين فوائد عامة منها دخول ذاك الحي ، وهو سرة المدنية ، في طور العمران الحديث . ولاتصل هذا الحي من الشمال بجادة الترام التي تربط شرق دمشق بغربها ولاستعادت تلك المصانع

الفريدة بهجتها الأولى ولربحت مدينة دمشق وبلديتها ربحاً عظيماً ولاستفادت اليد العاملة فائدة تخفف وطأة الأزمة . ولكن من حرم التوفيق لاسبيل لك ان تحمله على سلوك سبل الخير ولو أوتيت بلاغة سحبان

اديبة دؤوبة

ولدت السيدة وداد السكاكيني في بيروت وتثقفت فيها الثقافة الاولى ثم انتقلت الى دمشق بحكم اقترانها بالدكتور زكي المحاسني الشاعر الأديب وانصرفت الى التأليف والكتابة فاشتهرت في مصر والشام بما انتجت من كتب ادبية وقصص ومقالات واحاديث فيها روح الجديد يمازجه شيء من القديم ، وكان اعتمادها في ثقافتها على نفسها في الأكثر فجاء منهـا ما قلما يجيء من كثير من حاملات الشهادات العالية وذلك بفضل دؤوبها وبمـا انتجت اثبتت ان الشهادات شيء ولكنها ليست كل شيء وان المرأة الشامية اذا تساوت وسائطها والمرأة المصرية ، فاقت الاولى بثباتها وصبرها وهذا سر اشتهار « مي » من السوريات المتمصرات . ولولا غضب المصريات عليّ لصرحت باكثر من هذا . وقد قلت غير مرة ان ما صرف في مصر على التعليم كانت ثمراتـه اقل من نفقاته بكثير ولو وحّد التعليم في الديار الشامية لكان فيها للعلم اروج سوق ولأخصبت العقول أكثر ما اخصبت في مصر .

ملوك العرب

دخل التجدد في دول العالم وتبدلت على الزمن أوضاعها وادارتها وانظمتها يأخذ التالي عن الأول . اما دول العرب وفي الجزيرة خاصة فلم تتأثر بشيء مما سمعت عن الغرب وظنت المحافظة على القديم هو القوة وفي جهل رعاياها كل السلامة لها ، ولاينجيها وينجي ملوكها الا الضغط على الرعية واستعبادهم وقد يفيدها بؤسهم أكثر من سعادتهم ، وباطالة أمد جهالتهم يضلون طريق نجاة يخرجون منها الى اكراه الملوك على التخفيف من استبدادهم

وانا لنشهد ان قد آن لملوك الجزيرة — وكل عربي يحب لهم ولبلادهم السعادة — ان يدركوا حاجة شعوبهم الى التجدد ويبدلوا اساليب الحكم القديم بالنظم الجديدة المستمدة من روح القوانين الاوربية ابنة الدرس العميق والتجارب الحكيمة ، والدواعي والبواعث تدعو الى الأخذ منها .

نحن على يقين ان ملوك العرب منذ مئات من السنين لم يدخلوا على شعوبهم ما يصلح ان يطلق عليه اسم التجدد وكل ما عندهم من العتيق البالي ، هم لم يجددوا في لباسهم ولا فرشهم ولا مساكنهم ولا لهجاتهم ولا عاداتهم وهم الى الآن صورة مما كان عليه اجدادهم واجداد اجدادهم الى ابعد حدود التاريخ ، العالم يتحرك ويتحرر والعرب وقوف مستعبدون . وقصارى ملوكهم ان تجبى الجبايات من الرعايا فينفق اكثرها في البذخ والابهة ولا يحسب للمستقبل حسابه ، ولا ينال مُلكهم غير قسط ضئيل من هذه الأموال ولا يصرف شيء على انشاء مدارس ومستشفيات ولا على تعبيد طرق واصلاح ري ولا على غير ذلك من اوليات المسائل في قيام الممالك ، فالبلاد ينقصها كل شيء ، حتى لقد قال احد الاميركان انه ليس في كل ارض نجد على طولها وعرضها سوى صيدلية واحدة وليس فيها كل العقاقير . ان الحسنات التي تحققنا وجودها في نجد والحجاز بفضل مليكها ، ولطالما

ذكرناها لارباب الرحلات من الغربيين مفاخرين — لا تكفي وحدها في انهاض تلك الديار من كبوتها . ان تطبيق مفاصل الشريعة الاسلامية ولا سيما في العقوبات انتج انتشار الأمن والسلام في المملكة العربية السعودية بما لم تطمع باكثر منه ممالك الحضارة الحديثة . ان انشاء الهجرات وانقطاع سكان البوادي الى زراعتهم وابطال الغزو والغارات وانشاء ادارة صحية منظمة في البلدين الطاهرين ، كل ذلك حسن ونافع وهناك امور تنقص وفيها سعادة الشعب وفتح باب لارتزاقه واخراجه من انتظار الصدقات او آخر الشهر لقبض رواتب الدولة

ويبلغنا اليوم من حالة الحجاز مايرمض النفوس يترامى الينا ان الشعب جائع عريان ولا من يفكر في فتح ابواب الكسب له وهذه الحالة مطردة منذ سنين . نعم ان الدولة لاتستطيع على الدوام ان ترزق رعاياها كما ان الملك لايهدأ له بال اذا كان من وكل اليه أمر دنياهم في شقاء وهو وحده ينعم بخيرات البلاد ، ويوم تصح النية على البداءة بمشاريع جديدة ويرزق منها العملة والمرتزقة وغيرهم تتحسن حالة السكان كما حسنت حال الحكومة باستثمار الذهب والبترول ، ان انتظام الحالة الاقتصادية بتساوي الراعي والرعية في المنافع ، فالاسراف ما حمد يوماً من الأيام ومن يعمد اليه ملكاً كان أو سوقة فمصيره الخراب . المال اليوم موجود في ارض ملك العرب والضرورة حافزة والبدء بالأعمال المثمرة متحتم وصاحب هذا الملك يعرف وجوه الصرف والاقتصاد . وقد رأى في مصر يوم ان وافاها زائراً من ضروب الرقي الذي خلت منه مملكته ما يدعو الى العجب . ولا يفوت الملك العاقل ان في اليوم الذي قام محمد علي الكبير باصلاحاته في مصر كانت الحجاز ونجد على ما يقرب من نسبتها في الارتقاء ، وفعل الزمان فعله وانتقلت مصر من حسن الى أحسن حتى بلغت ما بلغت من العظمة ، والفضل للبادىء بالخير ابداً .

لو كنت ملكاً لا قدر الله لعددت من الخونة لي ولأمتي كل من لا يصدقوني عما يجب القيام به من الاصلاح ، ولطردت من خدمتي كل من

يحسن لي القبيح ويقبح لي الحسن ، ولأبعدت عن بلدي كل مداهن يعيش بأكل مالي ومال رعيتي ويجمع ثروة عظيمة في غفلة الدهر ، ولرددت كل ما في وسعي ان ارده من المال على اعمال ترفع مستوى العيش في رعيتي . فقد قال احد كتاب فرنسا ان صناعة الملوك فقدت كل لذة وسلبت من الملك الحديث جميع امتيازاته الملكية القديمة فليس له ان يأخذ من مال الخزينة ما يشاء ولا ان يفضل على وصيفاته على حساب الدولة ولا ان يسرف في اهوائه وشهواته ويبني القصور وعليه ان يظهر في مظهر وطني مقتصد وان يكون اباً صالحاً وزوجاً صالحاً وان يتحلى بالفضائل الطيبة كأنه احد افراد الطبقة الوسطى والا عرض نفسه للهلاك اهـ .

نحن لا نختط هنا خطة لصاحب نجد والحجاز يصل بها الى سبل الاصلاح ولا نقول بالوثبة المعجلة بل نعرض ما نراه في نظرنا صالحاً لملوك العرب وجزيرة العرب .

العلامة كرينكو

كرينكو عالم مستعرب اصله من شمالي جرمانيا اسمى نفسه في الشرق « سالم الكرينكوي » هاجر الى انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية واتقن من اللغات الاوربيه أزيد من اربع عشرة لغة يتكلم بها ، وتعلم العربية والفارسية والاردية بنفسه من دون معلم وهذه اللغات الثلاث يكتبها ولا يتكلمها ، ويكتب بالعربية كتابة المؤلفين من العرب وهو شاعر بالالمانية لغته الأصلية . وقد نشر بالعربية عشرات من كتب علماء العرب وعلق عليها وخدمها بما يخدم اعاظم علماء المشرقيات كتب اسلافنا .

أعجبت بدؤوبه منذ عرفته ونوهت به بالمناسبات وكان آخرها في محاضرة القيتها في جامعة فاروق الأول بالاسكندرية في فضل المستعربين من الغربيين على لغتنا وتوسعت فيها بذكر ما نشر العلامة كرينكو من

الكتب وعرضت لآرائه ومذهبه فبعث يقول انه لا يستحق هـذا التنويه وأنا اعتقد انه اهل لاكثر منه وما قلت الا أقل ما يقال شهد الله . قال اشكرك من صميم قلبي على حسن ظنك بي وان كنت غير مستحق لكل ما قلت فيّ . اني من نحو ثلاثين سنة اعمل خادماً للعلوم الاسلامية والشكر اولاً لاصدقائي في حيدر آباد الدكن لمعاونتي على القيام بهذا العمل فطبعوا لي في مطبعة « دائرة المعارف » الكتب التي كنت اعتقدها مهمة للنشر الخ .

ان عناية السيد كرينكو بتآليف اجدادنا قد زاد في خزانتنا العربية عدد الامهات المطبوعة من تراثهم الثمين ، فبفضله حي بعض ما كان ينسى أو يضيع من ثروتنا العلمية . وكان على علماء العرب ومنهم شيوخ الازهر ان يتولوا من علومنا ما تولاه السيد الاعجمي منها ، وهم لو ساروا على طريقته ما بقي كتاب مهم للقدماء مطروحاً في زوايا الخزائن معرضاً للحريق والتمزيق ، كانوا هم اولى ان يتقدموا فيحبوا تفسير ابن خالويه لثلاثين سورة من الكتاب العزيز ، ولكن شيوخ المسلمين في مصر والشام والعراق وتونس ومراكش يتدافعون على المظاهر والمناصب والحياة عندهم مشاهرات ورتب وأوسمة الا من رحم ربك .

الاستاذ كرينكو بحسب العرف غريب عنا ولكنه في الواقع قريب من قلوبنا لعطفه على ادبنا وتاريخنا ودِيننا بلا غرض الا خدمة العلم المجرد ، والعجيب في امره انه لم يتقيد بأحد فلا ينتمي الى جامعة ولا الى جمعية ولا الى جماعة وما عرف الا الاعتماد على نفسه والولوع بخدمة غرضه الشريف . ومن أراد برهاناً آخر على غيرته على مدنيتنا فليرجع الى ما حلى به جيد مجلة المجمع العلمي العربي من المقالات والابحاث والانتقادات خدمة للاسلام والعرب .

فرجل هـذا شأنه اما هو حري بأن نشكره على بيض اياديه علينا وعلى ادبنا ومدنيتنا وخصوصاً اذا نظرنا يميناً وشمالاً ولم نجد من يعشره من المعاصرين اصحاب هذا اللسان وهذا الدين ونحن لم نر من اكثرهم غير

الدعوى العريضة ، واذا وقع التنظير بين علماء الغرب وعلماء الشرق تظهر الفروق بين العقول .

ذكرت بعض صحف الغرب ان اندريه موروا من أعظم كتاب فرنسا وعلمائها القى بأخرة في اميركا اربعاً وثلاثين محاضرة خلال اربعين يوماً . ومحاضرة يلقيها مثل هذا النابغة لا بد ان يكون فيها شيء جديد وكثير من التحقيق الذي لا يصل اليه المحاضر العادي ، اليس من العار ان يموت العالم عندنا ولم تؤثر له محاضرة واحدة خلال عمره الطويل ؟ وهذا هو الفرق الطفيف بيننا وبين أهل الغرب !

غلو الشرقيين

يفحش الشرقي في الغلو بالدقيق والجليل من شؤونه الدنيوية والأخروية فقد بالغ في تصوير الامور الروحية حتى صار كثير من الغوغاء يؤلهون المخلوقات ويسجدون للجمادات ويثبتون لمن يحترمون من الآدميين من ضروب الصفات ما تضل في تكييفه العقول .

الشرقي يبالغ اذا وصف أحداً بالعفة والسخاء والشجاعة والمروءة وفي دواوين الشعر وكتب المحاضرات أمثلة كثيرة من ذلك . وأمة تقول « أعذب شعر أكذبه وأشعر الناس من استجيد كذبه » لا تتحرج من الغلو والمبالغة ، هي اذا عدت وقاست نسيت الحساب والمساحة واذا قدرت أوغلت في الخيال وخرجت عن طور المحسوسات وتناست التدقيق فكالتك أو وزنتك بالألوف وربما كانت الحقيقة في العشرات .

يبالغون في قوة الدول وأموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وثروة الاغنياء الموسرين يتوغلون في العدد ويتجاوزون حدود العوائد ويطاوعون وساوس الاغراب كما قال ابن خلدون فاذا استكشفت أصحاب

الدواوين عن عساكرهم ،واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم ، واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم ، لم تجد معشار ما يعدونه ، وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد ، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ، ولا يرجعها الى بحث وتفتيش ، فيرسل عنانه ، ويسيم في مراتع الكذب لسانه ، ويتخذ آيات الله هزواً ، ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة .

ترى كثيرين حتى من خاصتنا اذا سألتهم عن الثروة لا يسعك الا أن تقف شاخصاً تستعيذ بالله من غلو المشارقة وتجويزهم الكذب وضعف استقرائهم واستنتاجهم وغفلتهم عن القياس والمقارنة . قف واسأل الله السلامة وهم يصورون لك صاحب المئة من أصحاب الألوف وصاحب الألف من أصحاب مئات الألوف .

وقد كان بعض الظرفاء يقول اذا ذكرت أموال صاحب الثروة في الشرق وقدر ما تملك يمينه فاحذف صفرين من يمين الأرقام ، فاذا قالوا لك ان فلاناً يملك عشرة آلاف فاعرف أنه يملك مئة واذا قيل لك يملك مئة الف فاعرف أنه يملك عشرة آلاف وهكذا افرض أقل تعديل لعلك تسقط على الحقيقة . وكان يقول اذا لم تصدق فاسأل العادين ممن يقدرون ثروات الافراد الى آخر درهم مما عندهم ، على حين أنك لو سألت أصحابها عما يملكون ما عرفوا أن يقدروا لك الا بالتخمين والتقريب .

هذه زبدة ما كتبت في مجلة المقتبس (جمادى الأولى ١٣٢٥) ومثلت يومئذ بحادثين جرى أحدهما في مصر والآخر في دمشق وفي الأول قدرت احدى الصحف المصرية ما حشدته الدولة العثمانية يوم اختلافها مع بريطانيا العظمى على الحدود المصرية الشامية بثمانمائة الف جندي ولما قيل لها من الغد ان هذا العدد مبالغ فيه جداً قالت انه زاد صفر في العدد بالغلط فكان العدد الحقيقي ثمانين الفاً . وبعد التحقيق تبين أن ما كان جمع هناك من الجند

لم يتجاوز الألفين . والحادث الثاني مات أحد المعمرين فقال الناعي انه مات عن خمس وثلاثين سنة بعد المئة وأنه خلف خمسمائة نفس ذكوراً واناثاً وبعد التحقيق تبين أن عمره لم يتجاوز المئة وأن أبناءه وأبناء أبنائه هم دون الخمسين .

وفي هذه الأيام غلا الناس في تقدير الثروات على العادة لأن التجار ربحوا في الحرب الأخيرة أرباحاً عظيمة فاتسعت ثرواتهم وكثرت معاملاتهم ومنهم من بنوا القصور والمصانع ، ومما سمعته واستغربته أن أحد خونة وزراء سورية سرق من مال الجمهورية مئة مليون ليرة سورية (نحو عشرة ملايين جنيه مصري) والتحقيقات في حساباته لم تتم ، فذكرت ذلك لأحد أصحابي المعتدلين في السرد والتقدير فقال هذا مبالغة وانما الصحيح ان هذا الوزير كان قبل بضع سنين يعيش في بيت والده لا يملك نقيراً ولا قطميراً فقال والده منذ مدة لاحد خاصته : ان ابني صار يملك ثمانية ملايين ليرة فقلت له هذا صحيح أو أقرب الى الصحة .

هذه المبالغة متأصلة بحكم العادة والبيئة كالكذوب يرى أهله ومن يعاشرهم يكذبون فيكذب مثلهم ، ولا أحسن من الرجوع الى الاعتدال عند ذكر الارقام من أن يفكر المتكلم قليلاً ويقدر عظمة المليون الواحد حتى لا يضحك الناس من تقديره أو يروي المبالغة ويتبعها حالاً بما يسقط من الرواية ويقلل من الغلو فيها .

جمود العرب

كثيراً ما كان احد اساتذتي يقول : لا تطيب السكنى في بلد لاتنزله طائفة من ارباب القبعات فاذا كثروا كانوا مصيبة عليه . يقصد بقوله هذا — بقدر ما استنبط منه الفكر يومئذ — ان الدولة العثمانية لا تراعي اهل بلد الا بقدر مافيه من الأجانب يراقبون اعمالها فاذا خلت بلدة من هؤلاء الرقباء عملت الدولة فيها على هواها وكثرتهم ضارة . ويمكن تأويل هذا على معنى آخر وهو ان البلد لايتحضر الا بالاحتكاك بالغريب الراقي ولوقدر لسكان الجزيرة ان يختلطوا بالأجانب لما انحطوا هذا الانحطاط

لاجدال ان جزيرة العرب اليوم اكثر الاقطار العربية تأخراً في مضمار الحضارة وكانت حضارتها في اكثر عصور الاسلام والجاهلية ارقى من حضارة الغرب وما علة هذا التأخر الاقليم والهواء بل هجرة اهل الجزيرة في القرون الاولى للاسلام الى ما فتحوه من البلاد النائية وبقي الاعراب اي سكان البوادي وحدهم وتخلف في القرى اي المدن من العرب العاجز والشيخ والمتوسط الذكاء . ثم اتت عصور رأى امراؤها ضرب الحواجز بين ارضهم وسائر اقطار العالم فنشأت اجيال كلها جهل واتكال وعاد السكان يعيشون من صدقات الامراء وأهل الحجاز ينتظرون موسم الحج يسدون مما يربحون منهم بعض حاجتهم . وقل ان فكرت الامارات التي توالى حكمها على تلك الاقطار العظيمة ان تعمر بلادها وظل اهلها على حالة ابتدائية . واذا صح ما يرمينا به الغربيون من الجمود فيصح اولاً على سكان الجزيرة وجمود سائر الشعوب العربية نسبي . وكانت فرنسا وايطاليا واسبانيا في شمالي افريقية السبب في جمود المراكشيين والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين

ولا ينكر انه كان للفقهاء يد طولى في هذا الجمود الذي دام قروناً ، وبعض الاقطار التي نجت من استبداد الطغاة وتعصب الفقهاء وظهرت في

سنين قليلة بمظهر لا بأس به من الارتقاء قد اكذبت بنهضتها ما كان يصمها به المتعصبون من اعدائها . وبعد ان امتعنا العقل بحريته يسير بما يتراءى له وابحنا تعلم العلم على اختلاف ضروبه تبدل الحال وبات يرجى الا تقل حضارة مصر والشام والعراق عن حضارات ارقى الدول الغربية .

انشأ العرب في الجاهلية مدنيات عظيمة في جزيرتهم وانشأوا في الاسلام مدنية كانت الوحيدة في العالم خلال اربعة قرون ثم اصيب العرب بالضعف حتى اتهمنا بالجمود وبدأنا نشعر بنقصنا منذ القرن الماضي . وسيبدع كل قطر من اقطارنا الناهضة مدنية خاصة به ولاعار في اخذنا عن الغرب فقد سبق له ان اخذ عنا كثيراً (راجع في كتابنا الاسلام والحضارة العربية ما أخذه الغرب عن العرب)

روى احد علماء الانكليز (هارولد نيكلسون) قول المؤرخين من انه منذ وجدت في الأرض جماعـــات منظمة رأت الانسانية ثلاثاً وعشرين حضارة مختلفة سارت كل واحدة منها في ادوار معينة حتى انتشرت فنمت في اول نشأتها ثم استقرت وتوطدت ثم ثارت ثورة الفقراء فـكان من ثورتهم الانحلال . ومن هذه الحضارات من تركت عاديات ابانت عن قوتها وثقافتها ومنها ما لم يبق منها غير ذكراها

قال ولدت مدنية اوربا في اليونان قبل القرن الخـامس من الميلاد فوضعت قواعد انسانية جوهرية وعرّفنا اليونان فضل الذكاء الحر ومبلغ تأثير العقل ، واخذنا من الرومان حرمة المذاهب وعظمة الشرائـع . وعدلت النصرانية من قسوة المعتقدات الرومانية وقالت باغناء الفرد ورفعت مقام الفضائل واتت بالرحمة والرفق ، ونادت فرنسا في القرن الثامن عشر بتغلب العقل والعلم الصحيح . وجئنا نحن الانكليز بمثال من النظام لم نأخذه عن مقـام سام بل ولد من ذاته وتألف من عادات انبعثت من الشعب كان رائدها التسامح والاعتدال والتنظيم اه .

يجدّ العرب اليوم لاسترجاع حضارتهم القديمة يمزجونها بما يقتبسونه من

الحضارات الحديثة فيرتفع عنهم لذلك عار الجمود وخلق الاتكال ويستعدون لحياة طيبة فيها جماع القوى المادية والمعنوية ، وستكون حضارتهم على اختلاف اقطارهم منوعة الاشكال كالفسيفساء لاتشبه حضارة العرب ايام عزهم ولاحضارة الغرب لعهدنا بل تكون شيئاً جديداً فيه عبقريتهم وروحهم.

المطالبة المعقولة

وفقت الحكومة الجديدة في سورية خلال الشهرين الاولين من حكمها الى تحقيق اصلاحات لم توفق الى مثلها الحكومة البائدة في أعوام . منذ القديم كنت انزع الى الامتناع عن نقد كل حكومة جديدة وأترك لها وقتاً تجمع فيه شملها وتوجه دفة سفينتها حيث تريد على ماترى فاذا وفقت الى الخير فبها ونعمت والا فان اعمالها تسقطها على نحو ما حدث لرئيس الجمهورية الثالث ومن ورائه رجال الغيب أصحاب الكتلة الوطنية فان سيئاتهم في الحكم قضت عليهم ، ولو لم يبادر الجيش الى اسقاط حكومتهم لسقطت بنفسها بما جنته أيديها .

ليست الجرأة على نقد كل شيء بانفع من التأني فيه والاقتصاد منه ، ولا يعد التوقف في النقد قصوراً ولا اسقاط كل شيء معقولاً . وأي عمل وهو في مبدء تأسيسه خلا من هنات تؤخذ عليه . ولو أنصفوا ما كان مجموع ما عدوه من المنتقد يوازى مسألة واحدة ارتكبتها الحكومة السالفة وما وجدت من يحاسبها حتى الحساب اليسير . ولاحظ بعض العارفين بالادارة أن حكومة الزعيم أنجزت في أسابيع قليلة عشر مسائل كبرى لا تستطيع الحكومة القوالة الصخابة أن تنجز مثلها في سنين ، ولذلك وجب الثناء عليها . والعاقل اذا أصابته نعمة حمد عليها وشكر وأغمض الطرف عما عدا ذلك ، ويخطيء من يتطلبون الكمال وايجاده من أصعب الصعوبات .

منذ قرن وضع كردينال اسبانيا القواعد التى تستطيع بلاده — وكانت

يومئذ تمزقها الاختلافات الداخلية — أن تنشيء حكومة ثابتة مستقرة فيها ، قال هوفار من ساسة الانكليز : ولو كنت اسبانياً من أحزاب اليمين أو من أحزاب الشمال لكنت أردد كلماته الحكيمة وهي : يجب تأسيس حكومة لا تحتقر الماضي ولا تهمل الحاضر ولا تغفل عن المستقبل . يجب أن تكون حكومة لا تنكر ضرورات الساعة ولا تنسى الارث الثمين في الدين والاجتماع والسياسة من مخلفات الأجيال السالفة ، حكومة قوية لا تعرف العناد ، عادلة بلا قسوة ، شريفة بلا عظمة ، حكومة تكون مفتاح قبة بناء ضخم تحسن تلقي كل رأي معقول ، وتنجز كل مصلحة مشروعة .

وهذا ما نرجو أن يتم على أيدي رجال الحكم الحاضر في سورية العزيزة لتكون قدوة الحكومات العربية . والواجب أن لا نتطلب المحال وأن ننصف غيرنا من أنفسنا ، فالادوات التي تستخدمها الحكومات هي هي ، والمهارة في اختيار الاصلح فالاصلح ، وعلينا أن نبتسم للمستقبل نتفاءل ولا نتشاءم ، وألا نجسم الضئيل ولا نصغر الكبير ، وأن نتجرد عن الهوى ونتعاضد على الحق .

الحكم ملح الارض

عجب كل وطني شاهد عمال الحكومة بعد الثورة الجديدة وقد بدأوا دوامهم اليومي على صورة من التدقيق لم يعهد مثلها في الحكومات السالفة . يدققون في ضبط المواعيد في الذهاب والانصراف ويبتون في امور ارباب المراجعة بالسرعة الممكنة ، ذلك ان صاحب الشأن الأول قضى عليهم بهذا النظام رعاية لمصلحة من يدفعون اجور اولئك الموظفين فالامة تطالب هؤلاء بحقها عليهم ومن لا يروقه التقيد بارادتها فما عليه الا ان يعزل نفسه قبل ان يعزله غيره .

نعم ان العامل يتناول اجرته ممن انتدبه لخدمته وهذا يطالبه بالانقطاع الى خدمته ساعات معلومة في اليوم وعليه ان يخلص فيما تولى وان يبادر الى انجازه من دون ان يُدفع اليه . وكل من اعتاد أن يأخذ الحق ويعطي الحق تحصل له نشأة يستريح اليها وجدانه في الآخر . والواجب ونحن نسير في أصول الحكم على مثال الغرب أن نتقيّل أساليبه النافعة في مختلف المظاهر .

عمال الحكومة من أرقى الطبقات في الأمة لاستعدادهم الاستعداد الكافي قبل دخولهم في الخدمة وهم يتعلمون بالعمل في الدواوين أموراً مفيدة هذا اذا أرادوا تنمية عقولهم ومعلوماتهم . وواجب المستخدم أن يتعود التدقيق في محاسبة نفسه باحسان عمله قبل أن يحاسبه غيره والبطال الذي يحاول قتل الوقت يحس بوحشة اذا انقطع عما ألف . البطالة داءٌ ما كان يوماً مما يرغب فيه عاقل ومن أجل ذلك نرى الشيوخ يخترعون لأنفسهم عملاً يسليهم وقد يكون أكثرهم ممن لا يطلب اليهم أن يجدوا فما بالك بواجب الشبان والكهول . ونحن كثيراً ما شهدنا من شوهوا سيرتهم بما كان يجب تنزيهها عنه ان عاشوا يوم تنحيتهم عيشة ضيق ووحشة وما قدروا بترك ما تهيأوا له أن يأتوا في انتقالهم مما ألفوه الى مالم يألفوه الا الفشل وخيبة الأمل .

نحن والامم

تغلب على الامم عادات وأخلاق لا سبيل الى نزعها بالهين لأنها ابنة قرون طويلة . فأمة تغلب عليها الرعونة والثرثرة وأخرى تتملكها الرزانة والتزمت وغيرها تغرق في التبجح والتبجح ، ومنها ماخلق للنظام أو الفوضى ، وقد يشابه شعب شعباً في كثير من الخصائص خصوصاً اذا كانا متجاورين فالانكليزي يشبه الألماني من بعض الوجوه ، والصيني لا يشبه الفرنسي ، والطلياني ليس كالهندي ، وقد تشبه الشعوب اللاتينية في بعض المظاهر الشعوب العربية . وسكان جمهوريات جنوبي أميركا وأهل فرنسا وايطاليا وأسبانيا والبرتقال ورومانيا ينزعون الى التوسع في كلامهم وتآليفهم وخطبهم ومناقشاتهم بخلاف الأمم الانكلوسكسونية فانها تحب الايجاز في أحاديثها وابحاثها وخطبها ومحاكمها ومجالسها وتتوخى الابتعاد عن القلقة والتزيد في الجملة .

ثبت ان أبناء فرنسا أكثر طلاقة في السنتهم من أبناء انكلترا ، والانكليزي اقرب الى الصمت واطالة التفكير من الفرنسي وغرام هذا ببلاغته وبلاغته تقتضيه تقليب تراكيب الكلام وتلوين الجمل بالوان مغرية . والزبدة في كلام الانكليزي وكنايته أكثر حجماً وأثقل وزناً . الفرنسي خفيف الوزن مأخوذ لعواطفه والانكليزي رصين يسير مع عقله على الاغلب . والفرنسي يتكلم كثيراً ويفعل قليلاً ، والانكليزي يتكلم قليلاً ويفعل كثيراً وهذه الأحكام تكاد تكون من المجمع عليه بلغت حدّ التواتر ويعرفها من خبر أخلاق الأمتين .

يقول هايزارت البلجيكي في كتابه (باكورة في علم الاجتماع) الأخلاق امر نفسي طبيعي تولد مع الانسان . ويمكن تقسيم البشر الى طبقتين عظيمتين ظاهرة وقابعة فسكان الشمال يميلون الى الحياة البيتية يقبعون في

بيوتهم وسكان الجنوب يرتاحون الى الخروج والظهور . وفي الفرنسيس جفاء ولا ثبات عندهم وهم على جانب من الذكاء وطباعهم جافة وصدورهم ضيقة وفيهم فصاحة وزهو ويؤكدون ان قلوبهم عن شمائلهم وحافظة نقودهم على أيمانهم . والالمان اقوياء واصحاب امانة مولعون بالعمل ويجرون على قواعد لهم ، يحبون النظام وفيهم غطرسة تتجلى في معاملتهم الضعاف وفي مبالغتهم بمراعاة الأقوياء ، ويعرف افراطهم باكرامهم صاحب القوة ، يحبون الاحتكار وهم مفننون يميلون الى الخصام ويروغون اذا لم تكن لهم قوة ، ويبدون للأعين كأنهم قساة ونفوسهم عارية من الرحمة وهم يدققون في هندستهم وفيهم عاطفة وعندهم شعور وحساسية . وامزجة الانكليز بلغمية ويقل الذكاء فيهم وهم رجال عمل يحسنون الارتجال والابتداه وهم حذرون وبعيدو النظر وهم يميلون الى المذهب الانكليكاني وهواهم بالفردية . والروسي كسول محتال خبيث وفيه ما تقرؤه في سحنات الصقالبة من الرقة .

قال واذا تلطفنا في الوصف نعت الفرنسي بالبراعة في فن الطبخ والانكليزي بحذق الميكانيكيات والايطالي الغناء والضرب على الماندولين . وقد ذهب شعوب بالزعامة وآخرون بالحرية ومال بعضهم الى العبودية . ومن هذه الاحكام ما يؤخذ منه ويطرح ، وما يطرح منه كثير لأنه بني على تأثيرات غير ثابتة صدرت عن سياح ما كانوا يتريثون كثيراً في احكامهم يحكون ما يحكون مأخوذين بأوهامهم .

وقال تشرشل اعظم ساسة الانكليز في كتابه الأخير (جريدة سياسية) : « كثير من الامم ومنهم امتنا (الانكليز) تميل الى اعتبار فرنسا أمة متعاظمة متحمسة خفيفة تابعة لهواها ، وما الفرنسيس في الواقع الا امة صلبة معتدلة لا تأخذها العاطفة تجمع الى النباهة شدة من بين امم العالم » وبين قول العالم البلجيكي والعالم السياسي في وصف الفرنسيس وبين ما تعارفه الناس عنها تباين ظاهر مستغرب . ونظر السياسي على كل حال غير نظر العالم .

وانا اذا حكمنا بما حكم به العالم البلجيكي على من ذكرهم من الشعوب

نظلمهم ولو قال ان بعض افرادهم على هذه الاخلاق لكان قولاً عدلاً ، اما من يزعم انها اخلاق الامة كلها او الاخلاق الغالبة على سوادها الاعظم فتعنت وتعسف . واي غمط لحقهم اعظم من ان يدعي المؤلف ان الفرنسيس يحسنون الطبخ متناسياً ما لهم من الايادي البيضاء في الآداب والفنون ، واي ظلم اعظم من ان يدعي ان الايطالي لا يعرف الا الغناء والموسيقى ونسي النهضة التي قامت في القرون الوسطى في بلاده وكانت الداعي الاكبر في ادخال الحضارة على الشعوب الاوربية كافة ، اضف الى هذا ان الطليان هم الذين نشروا النصرانية في اوربا وانقذوها من الوثنية وهذا من مزاياهم . وهكذا يقال في حكمه على الانكليز والروس ولكل قوم ميزاته وخصائصه . ولكل شعب عيوبه ونقائصه .

وضع السيد جمال الدين الافغاني الانكليز والعرب موضع التنظير فقال : الانكليزي قليل الذكاء عظيم الثبات كثير الطمع والجشع ، صبور متكبر ، والعربي او الشرقي كثير الذكاء عديم الثبات قنوع جزوع قليل الصبر متواضع . يثبت الانكليزي حتى على الخطأ اذا تسرع وقاله او باشره ، والشرقي لا يثبت على الصواب ولا على طلب حقه فيصل الاول الى خير النتائج بفضيلة الثبات ويخسر الثاني كل حق برذيلة التلون وعدم الصبر . »

وهذا القول حق في مجموعه ولعله ما خلا من شيء من الغلو في الحكم على الامتين العظيمتين .

ونرى ان الحكم على العرب في القرن الماضي والحكم عليهم في هذا القرن يختلف كثيراً لأن العرب تبدلت عقليتهم باقبالهم على التعلم والأخذ من المدنية الحديثة .

تمويه الحقائق

قرأت في مجلة لاروس فصلاً عنّن له كاتبه (العالم العربي) جاء فيه حقائق تخللتها تمويهات . تخيل الكاتب أن العالم العربي عبارة عن مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد ، مساحته السطحية ثلاثة ملايين كيلومتر مربع وسكانه أربعون مليوناً . وبذلك أخرج من المجموعة العربية سكان الامارات العربية المنبثة على شواطيء المحيط الهندي والخليج الفارسي ، ويسكنها بضعة ملايين من الأنفس كما أخرج خمسة أقطار عربية في شمالي افريقية (برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ولا ينقص سكانها عن خمسة وعشرين مليوناً . دع بضعة ملايين من السودانيين في افريقية ثبت أن أصولهم عربية ويتكلمون العربية أي أن السياسة أوحت الى كاتب المقالة ألا يعترف بعربية أكثر من أربعين مليوناً ، فانظر كيف يكتبون أهم كتبهم ، واندب حظ العربي فيها اذا دعت مناسبة الى الكلام عنه وعن ماضيه وحاضره .

ومن تمويه هذا الكاتب أن نصارى لبنان وسورية هم الذين بعثوا النهضة العربية من مرقدها ثم تولت مصر كبرها ، وهي نغمة طالما رددها بعض جهلة اللبنانيين منذ زعموا أن لبنان سبق الى التمدن وأنه هو الذي مدن مصر وعلمها مع ان مصر تقدمت لبنان الى العلم بنحو جيلين . والدليل ان مدارس الطب واللغات والترجمة والادارة والصنائع والهندسة في مصر أنشئت قبل تأسيس الجامعتين الاميركية واليسوعية في بيروت باكثر من خمسين سنة . وما كان في لبنان ولا في سورية وفلسطين قبل ان تنهض مصر من يقيم للعلوم المادية وزناً . وبينا كانت كتب الطب والزراعة والحيوان والنبات والكيمياء والفنون الحربية والتاريخ والجغرافيا تتناقلها ايدي العالم العربي وهي من تعريب المصريين الذين تعلموا في اوربا على عهد حكومة

محمد علي الكبير كان ابن لبنان لم يصل الى اكثر من السواعية كتاب صلواته .

ومن ابشع السخافات دعوى احد اساتذة السوربون مؤخراً في جريدة (لنوفيل ليتريير) الفرنسية ان البربر هم اصحاب المدنية في شمالي افريقية والاندلس ، وما العرب الفاتحون الا شراذم من السلبة والمتشردين تعلموا في طريقهم الى فتح المغرب بعض ماعند اهله كما تعلم ابناء جنسهم في فتح فارس اشياء من الفرس اعانتهم على تأسيس مملكتهم الجديدة . فقامت المدنية الاندلسية والافريقية بفضل البربر فقط . ومن العجيب ان من يزعمون لهم هذا الفضل في التمدن لم تعهد لهم مدنية قبل الاسلام في شمالي افريقية ولا شيء من بقايا حضارة بعد سقوط دولة العرب في الاندلس وسقوط دول المغرب الاقصى والادنى .

كذب مفضوح لا يليق صدور مثله ممن يحمل اسم استاذ من اعظم جامعات العالم . ولذلك نرى من واجبنا ان ندعو كل عربي الى الشك في اكثر مايصدر عن كتاب فرنسا من الاحكام على الاسلام ذلك لانه تحقق ان اكثر الفرنسيين لاينظرون الى الاسلام والمسلمين الا بمنظار الاستعمار .

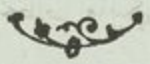

الدرر الكريمة

ولا اعنى بها الدرر المتعارفة التي تتخذ للزينة وهي من قِنْيات اهل السعة خاصة ، بل اقصد الدرر الثمينة التي لايظهر امثالها من الرجال في الحقب الطويلة . وممن عرفت في دولة الترك من هذا الطراز البارع رجلان عظيمان (وقد اشرت في مكان آخر الى بعض عظمائهم) احدهما فاق اقرانه في الأدب والسياسة والثاني في المالية والاقتصاد ، عنيت العالمين الكاتبين الخطيبين المبدعين علي كمال بك وجاويد بك .

كان الاول صديقاً لي تعاشرنا في القاهرة وباريز والاستانة اشهراً وتعرفت الى الثاني في استانبول على عهد الاتحاديين وكان يعدّ من كبارهم ، ولكل منهما مزايا عظيمة ليس لاحد مطمع في مثلها الا اذا كان ممن خلق للعظمة وخص بالعبقرية .

قرأت كثيراً مما كتبه علي كمال في جريدة بيام بيام وغيرها من الجرائد والمجلات ، وكان يحسن العربية اخذها عن احد أئمة اللغة في حلب (راجع ما كتبناه من اخباره في ص ١٤٦ من الجزء الاول من المذكرات) . وحدثني بعض تلاميذه في جامعة الاستانة انه كان في درسه التاريخ العثماني يورد على مسامعهم من اخبار ادوار الانحطاط مايبكي منه ويبكيهم ، ومرماه تربية ملكاتهم وتقوية روح الوطنية فيهم .

اما الثاني فقد قرأت اكثر كتبه في المالية وبعض ما كان ينشره من ابحاثه وتحقيقاته الاقتصادية في المجلات التركية وسمعته في مجلس النواب ، وكان وزير المالية العثمانية ، يخطب في الموازنة فما سمعت بالتركية نغمة ارق من نغمته ولا بياناً امتع من بيانه - اللهم الا صديقي الاستاذ لطفي فكري بك شيخ المعارضين في المجلس يومئذ - ماتلعثم ولا توقف وكان امامه وثائق وكتب ربما كان ينوي الرجوع اليها اثناء كلامه ، فلا والله ماالقى عليها

نظرة وانكفأ يخطب من عفو القريحة اكثر من ساعتين خلتهما دقائق لكثرة ماخذ من قلبي ببلاغته وسعة علمه ، وكان خلال الكلام يلعب بسلسلة في يده على نحو مايقلب لسانه بالعذب السائغ من الكلام .

هاتان الدرتان النادرتان قضى عليهما الكماليون بلا رحمة مزقوا الاول تمزيقاً يوم دخلوا الاستانة فاتحين ، وصلبوا الثاني صلباً ففجعت بهما الامة التركية واسفت الامم المتمدنة عليهما حتى ان احد كبار الانكليز قال لبعض ولاة الامر من الترك عند الحكم على جاويد بالقتل نحن مستعدون لان نستعير منكم هذا العظيم او نبتاعه ونؤدي فيه الثمن الغالي لما نتوقع من الاستفادة من علمه وتجاربه . وفي رواية أخرى انه قال ان صفقتنا ستكون رابحة اذا اخذناه منكم وليس في رجالنا من يدانيه .

ذهب علي كمال وجاويد رحمهما الله فدية السياسة وكم قتل مثلهما في كل امة بغياً وعدواناً دون فرق في نظر الطاغي المستبد ان يكون القتيل مجرماً او بريئاً ، والمهم القضاء على النوابغ ليذهبوا من طريق المتوسطين فلا يجدون اذا فقدوهم معارضاً فيما يبرمون وينقضون . وكان الكماليون كالاتحاديين في معاملة نبغائهم . وفي كل ثورة وعقبى كل حرب يقتل الغالب ماشاء الله ان يقتل ممن كانوا يعارضونه وينقدونه . رأينا من ذلك مايشيب له الولدان في عصر الحضارة هذه وفي كل امة سلفت وخلفت .

نبؤة عاقل

قال لي صديقي البطريرك العلامة الكسندروس طحان قبيل الحرب الاخيرة اني لاخشى اذا نشبت الحرب ان يكون الظفر للجنس الانكلوسكسوني وهو ما أُرجحه وتساءل ماذا يكون حال العالم مع اليهود وسلطانهم في الولايات المتحدة سلطانهم ، اذا تم هذا فتكون عقوبة الهية يرسلها الله على البشر تأديباً لهم .

وها قد تمت هذه النبؤة بعد عشر سنين واليهود الصهيونيون لايتحامون ايذاء العرب المسلمين منهم والمسيحيين ، وكان المشهور ان اميركا اقرب الدول الى العدل والاعتدال كما ظهر ذلك من استعمارها وسياستها العالمية فتبين انها عند تعارض مصلحتها مع مصلحة الغير تدوس كل حق حتى تصل الى مأربها .

آكل الحرام

حاز ارقى الدرجات في الماسونية واحرز القدح المعلى في الرشوة واللصوصية ، يكتب ويخطب خادماً لافكار غيره وتابعاً لمن يعطيه ، وهو قليل التدبير في كل ماتولاه من الاعمال الخاصة والعامة ، وكان كل ماجناه كالماء يجري الى قنطرة يدخل من جهة ويخرج من أُخرى . رأى مرة ان المصريين لايحسنون المقامرة وادعى انهم وان كانوا اغنياء فهم اغبياء ، فشد الرحال الى مصر يلاعب ابناء حرفته فغلبوه شر غلبة وما خلص منهم الا بان دفع لهم المدَّخر والمنتظر على أُصول المقامرين . وبدا له ان يشتغل بالزراعة ، وقد انهكه المرض وذرف على الثمانين ، وماسبق له ان تعاطاها . فابتاع

ارضاً واسعة قليلة الماء خبيثة التربة واراد ان يعمرها بمعرفته لابمعرفة العارفين فماهي الا سنة او سنتان حتى غدا ماابتاعه بمئة قرش يساوي خمسة قروش .

يعلل ارباب الاعمال ان السبب في اخفاق هذا العجوز جهله صناعة لايحسنها والزراعة يستلزم تعلمها زمناً فكيف له وهو في أُخريات ايامه غير صحيح الحواس . ويقول ارباب الدين لما كان جميع ماله حراماً قضى الله عليه الا يخرج من الدنيا حتى يخرج عن جميع ماجناه ، شأن كل من جوزوا لانفسهم كل مال وما فرقوا بين الحرام والحلال .

طلاب المدارس

دخل في العهد الاخير طلاب المدارس الثانوية والعالية في مصر والشام والعراق في طور ما كان لهم ان يدخلوه لو انتظمت السياسة وعقلت الحكومات فسارت على بصيرة كل حين . اخذوا يتدخلون في الامور السياسية ومنهم من كان يخدم سياسة بعض الاحزاب وينتقدون الحكام بحسب ما توحيه اليهم عقولهم النضرة ، وهم على صواب اكثر الاحيان في انكارهم ما ينكرون ، ومنهم من تهيجهم دواعي الوطنية فيتقدمون لقتل من يعتقدون فيهم العبث بمصلحة امتهم او التساهل بوضع ايديهم في يد عدو وطنهم ، ينظمون لذلك جمعيات سرية وجهرية ، ومنها ما ظهر الخير على يده ومنها ما كان المقصد منه الظهور او غايات شخصية أُلبست قالب العموميات .

وكأن هؤلاء الأبناء البررة اقاموا أنفسهم رقباء على الحكومات يردونها الى السداد بما يرون فيه الخير لوطنهم ، ويفادون ضروب المفاداة فلا يتأخرون عن اهراق دمائهم عند الاقتضاء في سبيل مصلحة الجماعة ، وهو مما لم يعهد قبل ان ينبعث نور العلم الحديث من المدارس ولا يزال في ازدياد كلما كثر عدد هؤلاء الطلاب .

وكأن التلاميذ قسموا اوقاتهم شطرين خصوا الشطر الاول بتحصيل

ما تيسر لهم من العلم والآخر وقفوه على عمليات قرؤا نظرياتها في الكتب . ظاهرة جديدة اهم ما نشأ منها ان الحكومات غدت تحسب للناشئة حساباً في المسائل السياسية ، والنابتة اخذت تغذي المجالس النيابية وتسوقها الى القيام بواجبها كلما شاهدوها الى جانب القصور وتحمسوا لدعوتهم وعدوا عقيدتهم السياسية هي المعول عليها دون غيرها .

وما كان للحكومات ان تصم آذانها عن نقد من ليسوا من عيار الطلبة في الغيرة والادراك ، ولا عار على حكومة ان تماشي ابناءها فيما يحفظ عليها ساطانها ولا يخل بانسجام النظام اذا نزلت على رغائبهم في الامور المعقولة وعلى ما يرمون به احياناً من قلة التجربة ، فهم ابناؤها من اصلابها ، وزينة ارضها ومعقد رجائها وخلفاؤها من بعدها ، وقد يستفيد الاب من ابنه احياناً اذا تعلم وتهذب اكثر منه .

قيض الله بعض نجباء الابناء يدعون للخير ويمهدون الطريق لمن عانوا سياسة الأمة ، ولو قد ترك النواب وشأنهم مع الحكومات التي تتألف من احزاب ، الله اعلم كيف اجتمعت ، لضعف امر الامة . كل هذا من البديهيات ولكنه من الخطورة على جانب . فدخول التلاميذ في مسائل سياسية كبيرة وصرف شطر من اوقاتهم الثمينة وهم في سن الدراسة يضيع به قسط عظيم من ثروة الامة وثروة الامة قائمة بالاكثار من تخريج اكبر عدد ممكن من ابنائها في العلوم .

وكنت اتمنى ان يكون جميع النواب ، وبأيديهم اقدار الشعوب ، على كفاءة تامة لا يحتاجون معها الى من يدلهم على طرق الخير وما توجبه عليهم وظائفهم لينقطع الطلاب الى ما يجب عليهم العناية به قبل كل شيء لا ينظرون في غير دروسهم حتى الزمن الذي يغادرون فيه مقاعد مدارسهم ، فاقتطاع وقت خص بعمل واشراك عمل آخر معه يورث الضعف في العملين ، والمرء لم يخلق بقريحتين ولا بقلبين . فمن الصعب الانصراف الى الدرس والدخول قبل الأوان في ميدان السياسة ، ولا يتأتى التذرع بأمرين مهمين دون ادخال الضيم على احدهما .

وقت الدراسة لا يشبه غيره من ادوار الحياة فهو لا يتكرر واذا فات لا يعود ، بل هو كنز مرصود اذا لم يكشف في سن مخصوصة يضيع ، وشيء يلزم به المرء لا يقوم به له غيره ، فاذا استهان الشاب بهذه الشروط خسره وطنه وخسره اهله وخسر هو نفسه وكان حرياً ان يعد فى جماعة انصاف المتعلمين وهؤلاء لا يصلحون للمواطن التي أعدوا لها .

الحسد على المنصب

يقول المؤرخ البرتقالي هركولانوم ان في عقلية الشرقي نوعاً من الغرابة يصعب تحليلها ، أنه مع ما أوتيه من الذكاء والاقدام والمقدرة ينقصه شيء من التعاون والالفة وعدم التحاسد على الوظيفة والمنصب اهـ.

ولعل التحاسد على الوظيفة والمنصب من أقوى انواع الحسد ، لأن المنصب مدرجة الى كل شيء ، فيه مانبتغيه الانفس من منافع ومظاهر ، وقديماً كان الامر والنهي من الذ الاعمال البشرية .

قامت ضجة في جوارنا ذات صباح بين اخوات وشقيق لهم فمما سمع من احداهن قولها لاخيها ان اباك صلبه الاتراك وانت باق بلا وظيفة و (كرد علي) جارنا وصل الى الوزارة . هذا مانقلته اليّ من سمعته ، وهو كلام السيدة لأخيها بمعناه ، ومن روته ليست ممن يحسن تصنيع هذا الكلام .

السيدة عيرت اخاها بان اباها صلب (في الحرب العالمية الاولى) . ألمقصد شريف كان يرمي اليه ياترى ، ام انى ماعده الترك خيانة وطنية فاوردوه حتفه ؟ وعند السيدة ان والدها لما صلب وجب على الحكومة الخالفة ان تكافيء أولاده بتوظيفهم ، ولا عليه اذا استدعى الاجنبي ليخلف التركي في حكم بلاده ، والعقل يقول ان الخيانة واحدة سواء كانت للغريب او للقريب ، فالمصلوب خان الترك ولم يدعُ للعرب .

هذه اعمال اب يريد اولاده ان يستثمروا اسمه بعد هلاكه ، ولولا ان

اعتاد الناس السكوت عن مساوىء موتاهم لملأوا بتعداد هذه المقابح الصحف والاندية . وكان المصلوب نال ممن خانهم مالم يكد يناله أحد من مواطنيه . كفر بكل هذا وحاول ان يحول وجهه وجهة أخرى ليعوض ما خسر من مال وجاه فكانت العاقبة مارأيتم .

نعم يتحاسد الشرقيون على الوظيفة والمنصب تحاسداً يخرجون به على كل قانون . وقد يحاول أحدهم قتل اخيه آملا ان يخلفه في مقعده ويضع يده على ثروته . اما الكذب على المحسود والتجسس عليه فهو من ايسر ، مايرتكبه الحاسد الموتور ولا يبالي ، لان فيه تحقيق امانيه واشتفاء صدره بقتل اعاديه .

ضيّق العقل يرتكب افظع ضروب الخيانة ويظن ان مايجنيه اذا كان في سرٍّ لن يفتضح ويعد من علائم سعادته انه احتال وتمت حيلته على من احتال عليه ولله في خلقه شؤون .

التعايشية

التعايشي من امراء السودان اطلق احد ارباب الدعابة من الفقهاء اسمه على كل شيخ غايته من دنياه ان يأكل ويعيش ، وهو في سبيل الوصول الى مبتغاه يسجد لكل صاحب قوة يضمن له معاشه ، لايخجل من ان يكون عبد من دامت سعادته ولايعبأ بما يتطبله منه قومه ووطنه من خير .

فالتعايشي اذاً هو طالب العيش لايعنيه من العالم غيره ، ونقيض التعايشي قلائل في كل زمن وفي كل امة وفي كل نحلة ، وكلما كثر عددهم في قوم عزّ وبزّ ، ولنا ان نسمي نقيض التعايشي «الفريق المختار» من كان مناهم من دنياهم ان يؤثروا أثراً نافعاً وقد تلذهم المغامرات واقتحام المصاعب ان كان فيها مايعود بفائدة على المصلحة العامة .

يود كل العالم ان يعيشوا بهناء وتضمن لهم اسباب العيش السعيد ، وليس في حياة السواد الاعظم مايفتخر به والفخر كل الفخر للاقلية النافعة . الاولى لاتذكر بامر ذى بال وعيشها الى البهيمية اقرب والثانية تذكر بحسب غنائها ودرجتها في المحامد .

ومن الفريق الثاني كل من يتوخى نفع غيره ولو قليلاً . فمن يرفع صوته بانكار المظالم والانحاء على المضرين فهو نافع . ومن يبشر بفكرة خير مهما بلغ من ضؤولته فهو نافع . ومن يدعو الى تهذيب الاخلاق وتعليم البنين والبنات فهو نافع ، ومن يحبب الى قومه تزيين كل فضيلة و تقبيح كل رذيلة فهو نافع . ومن يكرّه البطالة للمتبطلين ، ويصفق للعاملين والمجتهدين ، وينوه بالمحسنين والمتصدقين فهو نافع . ومن يعلم مواطنيه حب النظام والبعد عن الفوضى ويحملهم على احترام القوانين فهو نافع . ومن يدل على كل ما في الحضارة من حسنات ويحذر مما حملت من سيئات فهو نافع الخ .

وارقى من هذه الطوائف في باب النفع من يحققون مايعم الوطن أثره ، فمن يعمر طريقاً ويبني جسراً ويقيم مستشفى وينشىء مدرسة ويؤلف كتاباً ويعلم جاهلاً ويرشد ضالاً ويأتي بجديد يستفيد منه المستفيدون فهو نافع . واعلى كعباً من اخترع آلة لتذرية الحبوب ، وآلة كاتبة سهلة الاستعمال ، ومن ابدع آلة حياكة وآلة نسج وآلة خياطة وآلة طباعة وكل مايفيد في الصحة واللباس والمسكن والصناعات المختلفة ويقتصد من الوقت ويجلب الثروة .

اذا جد الجد

قامت مرة مظاهرات في عاصمة الجمهورية السورية وحواضرها حلب وحماة وحمص ودير الزور وغيرها اختلفت الآراء في الاسباب الداعية اليها . فمن قائل ان منشأها تطاحن الاحزاب ومن مدع ان لليد الغربية اصبعاً فيها والارجح ان الفوضى التي عمت اعمال الادارة لضعف تركيب الوزارة وعدم الالتفات الى شكاوى الجمهور والاسراف باموال كانا العامل الاول في ذلك . فان معظم الوزراء لم يسبق لهم تولي مثل هذه المناصب ولا اقل منها ، وجاءت بهم الى الوزارات احزابهم وتساهل من ضمهم الى مالايحسنون القيام به

كانت المظاهرات تدار بأيدي طلاب المدارس العالية والثانوية فوقع قتلى وجرحى من الاهلين ومن الشرطة وما استقر الامن في نصابه الا باعلان الاحكام العرفية ، وقد اشترط الطلاب الا يعود للحكم احد ممن كانوا في الوزارة السابقة لانهم اثبتوا جهلهم وضعفهم وقلة أمانتهم وأنه ماكان لهم مأرب في غير الحرص على مصالحهم الشخصية .

ولما جاءوا يؤلفون الوزارة الجديدة قيل ان رجالنا قلائل وما هم في الواقع الا بنسبة من تعلموا منا فخطر بالبال وضع قائمة يرجع اليها في تأليف الوزارات وبعض من انتقيناهم يصلحون للرياسات وبعضهم للوزارات وهاهم الاساتذة والدكاترة .

ادمون حمصي . اسعد هارون . اسعد الكوراني . اكرم الحوراني . امين رويحة . حسن الحكيم . حسني سبح . حكمة الحكيم . حكمة الحراكي . حيدر مردم بك . خالد العظم . خليل مردم بك . رشدي الكيخية . سامي العظم . سعيد الزعيم . شفيق جبري . عادل ارسلان . عارف النكدي . عبد الرحمن العظم . فائز الغصين . فتح الله اسيون . عزة الصقال . مصطفى برمدا . مصطفى الشهابي . مصطفى الكيلاني . ميخائيل ليان . ناظم القدسي نعيم انطاكي . وغيرهم ممن ليسوا الآن على خاطري ومعظمهم في الكهولة .

العداوات الموروثة

تتأصل في الشعوب عداوات يتوارثونها كما تتأصل في الأفراد ، وقد تتعادى الشعوب لأسباب جوهرية أو لأسباب يحكم العقل بتفاهتها ، فعداوة الاسبان للعرب من العداوات الجوهرية بالنسبة للاسبان ، وذلك لاستيلاء العرب عليهم نحو ثمانمائة سنة ، عادى المغلوبون الغالبين، وان حمل هؤلاء اليهم المدنية ، وأدخلوهم في حجر الحضارة ، وأذاقوهم طعم العدل والرحمة ، ولكن من طبع المغلوب انكار حسنات غالبه .

وعداوة ذوي القربى من النوع الذي لا تزيله السنون مثل العداوة التي حدثت بين الاسبانيين في حربهم المدنية الأخيرة من أجل نظام جمهوري أو نظام ملكي ، فهلك فيها من الفريقين مليون انسان واعتقل مائتا الف مجرم سياسي ، وخرب جزء عظيم من اسبانيا ، واختلت كل الاختلال صناعتها وزراعتها ، وحرم أهلها ضروريات الحياة . وأبان الاسبان عن وحشية عرفت عنهم مع أعدائهم ، واستغرب العارفون صدورها مع أهلهم وابنائهم ، وحشية قلما ظهر مثلها حتى في حروب البرتستانت في فرنسا ، وكان الكاثوليكي ينقض على البرتستانتي كالوحش الضاري يقتله فيقتل فيه شخصاً يخالفه في دينه ، أما الاسبان في حربهم الاهلية الأخيرة فاقتتلوا بلا تمييز فقد يكون اخوان احدهما يقاتل في صف والآخر يقاتل في الصف الذي يقابله من صفوف يعدها من اعدائه ، وافظع من هذا ، وهو مما دل على رقة قلوب الاسبانيات، ان النساء كن اذا انتهت المعركة يتقدمن للرقص على جثث القتلى وقد يكون تحت ارجلهن اخوتهن او ابناء عمهن (راجع ما كتبناه في حروب العرب والاسبان في كتابنا الاسلام والحضارة العربية .)

وكل من نظر نظرة خفيفة في معاملة الاسبان للعرب يوم أخرجوهم من ديارهم يدرك أن ما بدا من عداوة الاسبان للعرب في تلك الكارثة

العظمى لا ينساه العرب على الأيام . وحاول أحفاد اولئك السفاكين الظالمين من الاسبانيين أن يمحوا من تاريخهم لطخة هذه الوحشية فلم يفلحوا ، ومهما تلطفوا حتى ينسى جيرانهم في المغرب ما لقوه من القسوة والجبروت يستحيل أن يوفقوا الى ذلك . وكانت حرب مراكش في الريف بين الاسبانيين والريفيين من أعظم الخطوب التي حلت بالشعب الاسباني ، تلك الحروب التي أبانت عن ضعف اسبانيا في كل مقوماتها ، ولم ينقذها مما صارت اليه من الصغار الا فرنسا ، أنجدتها باسطولها وجيشها وطياراتها فأنهت لها الحرب وأعطتها جزءاً من الغرب الاقصى أي القسم المشهور بالريف ونصبت لها سلطاناً وعادت تبدل فيما قيل سياسة العنف بسياسة فيها قليل من اللين ، ولكن ما غرس في قلوب المراكشيين من البغض لا تزيله الابتسامات المصنعة ولا الرقة المخادعة ، وما برحت حكومة اسبانيا تتقرب من العرب للتخفيف من تلك العداوة الموروثة وأقل ما يخدع به السياسيون الاسبانيون العرب أن يزعم بعض افرادهم أن جدهم كان مسلماً تنصر كرهاً وان عواطفه مع المسلمين الى آخر ما يتفوهون به من هذيان .

وبعد فاذا قلنا ان عداوة الاسبان الكاثوليك العرب المسلمين طبيعة الحدوث فما القول في تعادي الكاثوليك والبرتستانت في كل مكان وعداوة الروم مع الكاثوليك وعداوة الهندوس مع المسلمين ، وكلها عداوات قديمة موروثة يبرأ الدين منها ولا تتعارف اليها الانسانية ، وما هي الا تعادٍ على امور الدنيا ، فما اسخف البشر حتى في عهد تحضره .

قلنا في غير موطن ان المسلمين لقوا الالاقي في كل زمن من الشعوب اللاتينية سواء في ذلك البرتقاليون والاسبانيون والطليان والفرنسيس . واذا اتفق ان نفّس خناق المسلمين مع الشعوب الغربية بعض الشيء فذلك على عهد الانكليز السكسونيين ومنهم النورميون الذين خلفوا العرب في حكم جزيرة صقلية وكانت حكومتهم مثال الرفق بالمسلمين والتسامح مع اجيالهم .

غرس الغرب في قلوب الشرقيين عداوات يرمض النفوس ذكرها ،

ويدعو المسلمين الى عدم الاغترار بالابتسامات والمجاملات . والغربي اذا كان لايتراحم وابن جنسه وابن دينه فهو اولى الا يتراحم وواحداً من بني الانسان . والشاعر العربي يقول :

لااتقى حسك الضغائن بالرّقى ... فعل الذليل ولو بقيت وحيداً
لكن اعدّ لها ضغائن مثلها ... حتى أداوي بالحقود حقودا
كالخمر خير دوائها منها بها ... تشفي السقيم وتبرىء المنجودا

داهية السياسة

لعل القاريء لاحظ من بعض فصول المذكرات ان علاقتي بالصديق السيد فارس الخوري دامت منذ اواخر العقد الثاني من العمر والى الآن صافية يغتبط كل منا بها ، ونمت تربيتنا على الايام ، يسير كل واحد منا في طريقه ، ويعمل على شاكلته . والذي كان يعجبني فيه انه كان يفسح المجال في صدره لكل مايصل اليه من صنوف المعارف يأخذ منها ماوسعه أخذه ويتركه جانباً الى ان يبدو له استعماله وعندئذ ينصرف اليه مدة فيتبرز فيه فهو لم يتلق الفقه الاسلامي والقوانين المدنية عن اساتذة معتمدين واشتغل فيهما لنفسه مدة فعدّ بعد زمن قليل عمدة في هذا الباب . واحكم اللغة الانكليزية في صباه ثم شغل عنها بعض الشيء ولما ناب عن سورية في المؤتمرات الدولية تجسمت فيه ملكة الخطابة بالانكليزية كما كانت تجلت فيه ملكة الخطابة بالعربية قبل ان يتم دراسته الاولى .

ويعجبني في هذا الاخ انه كان عملياً في حياته هكذا كان في التدريس والنيابة والرياسات وفي الوزارات والمؤتمرات حتى عدّ بحق رجل السياسة السورية ، وكانت حياته كحياة النوابغ لاتخلو من مرارة وحلاوة ، ولا اعرف سورياً خدم السياسة زمناً اطول من الزمن الذي خدمها به صاحبنا ماخلا الامير شكيب ارسلان ولا رجلا اجمع اولياؤه واعداؤه على الاعتراف بفضله ، واشترك في ذلك كل عربي .

درّس الاستاذ لأول أمره في بعض المدارس الطائفية ثم عين ترجماناً في قنصلية انكلترا بدمشق وبدأ شوطه السياسي يوم انتخب مبعوثاً عن دمشق سنة ١٩١٤ وكان له في مجلس النواب العثماني مواقف محمودة الى ان اتهموه بالاشتراك في تنظيم ثورة المغفورله الملك حسين وأودع سجناً منفرداً سبعة اشهر وخرج منه بريئاً ، واشترك في اعلان استقلال العرب وتنظيم المملكة الفيصلية السورية وكان فيها وزيراً للمالية مدة وجودها . وبعد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٠ تنحى العمل الحكومي وعاد الى مهنته في المحاماة والتدريس في معهد الحقوق بالجامعة السورية ووضع لدروسه مؤلفات قيمة .

وناب عن دمشق في مجلس الاتحاد الذي أنشأه الفرنسيون سنة ٩٢٢ ودخل وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٦ واتهم بمالأة الثورة السورية فاعتقل مع رفاقه الوطنيين وأرسل الى حسكة وأميون حيث بقي نحو سنتين في المعتقل بالاقامة الجبرية . وكان عميد الكتلة الوطنية منذ نشأتها سنة ١٩٢٨ (١) واختير عضواً في الوفد السوري للمفاوضة لعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٩٣٦ وانتخب نائباً عن دمشق ورئيساً لمجلس النواب طول مدة قيام هذا المجلس الى سنة ١٩٣٩ ومن سنة ١٩٤٣ الى هذا اليوم ما عدا سنة كان فيها رئيساً للوزارة السورية سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٥ . وكان رئيساً للوفد السوري في مؤتمر القاهرة لاقرار تأسيس جامعة الدول العربيه وفي مؤتمر سان فرنسيسكو ومؤتمر لندن وسائر دورات منظمة الامم المتحدة منذ نشأتها وعضواً في مجلس الأمن في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ورئيساً لهذا المجلس مرتين ورئيساً في احدى لجان الهيئة العامة في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وانتخب عضواً في ندوة وضع الشرع الدولي .

---

(١) كان الاستاذ مع الكتلة حتى سقوط بقاياها سنة ١٩٤٩ ولطالما أكد أن بعض المنطرفين من رجال الكتلة ما كانوا يستمعون له وقال ان تعديل الدستور ما كان عن رأيه وان كان في الدستور الاول بعض النقص لانه وضع على عهد الانتداب والعقلاء على كل حال يلومونه لماشاة جماعته سنين طويلة وكان يمكنه بما خص به من علم وبيان أن يدلهم على طريق الخير ويصحح لهم أغلاطهم الفاحشة وربما ادعى أن الأكثرية كانت تتغلب عليه والله أعلم .

هو عضو في المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه وعضو في أكادمية العلوم السياسية في جامعة كولومبيا ودكتور في السياسة الخارجية من جامعة كاليفورنيا الجنوبية . وتخرج على يده عدد كبير في الحقوق وهم اليوم يشغلون أهم المناصب من محامين وقضاة وقوام مقام ومحافظين ووزراء ونواب .

وله في العمل الاقتصادي مشروعان عظيمان هما مشروع ماء الفيجة الذي أنقذه من المستثمرين الاجانب ووضع له نظامه الحالي بأسلوب مبتكر اقتبس عنه كثيرون في أقطار الشرق . ومشروع الاسمنت الذي هو أول نجاح أحرزه الاسلوب التعاوني وأصبح النظام الذي وضعه مرجعاً للشركات التي نشأت بعد ذلك .

وفي الميدان السياسي أحرز نجاحاً عظيماً في سان فرنسيسكو بنيل صك استقلال سورية ثم نفذ الى لندن امام مجلس الامن سنة ١٩٤٦ باحراز قرار جلاء القوى الاجنبية عن البلاد ، وله في منظمة الامم المتحدة وفي مجلس الامن مواقف في الاشتراك بالمناقشات في الموضوعات المعروضة على هذه المنظمة العظيمة خصوصاً قضايا البلاد العربية والاسلامية ومنها قضية مصر وقضية فلسطين وقد أبلى في ذلك بلاء حسناً .

القوى الضائعة

كنت منذ وعيت اذا نظرت الى انسان اوحيوان او جماد لاينتفع به حق الانتفاع أعده قوة ضائعة فاذا رأيت شاباً ذكياً او فتاة نبيهة لم يعلمها اهلها أعدهما قوة ضائعة . واذا أحسست بوجود عشرة رجال متمائلين في التربية والمنزلة لايفكرون بمايعود على الناس بخير من مثل تأليف جمعية لتعليم اليتامى والفقراء وايواء العاجزين والعاجزات وتأسيس شركة صناعية او تجارية او زراعية يجمعون بها القوى المشتتة أعدهم قوة ضائعة .

والحسر اذا نظرت عيني ارضاً بوراً في وسع صاحبها او اصحابها تجويد حرثها وكرثها وزرعها وغرسها . واغضب اذا وقعت على بضعة افدنة بذل صاحبها جهده في تعهدها فأتته بأطيب الثمرات والى جوارها مئة فدان معطلة لاتغل ماتغله العشرة الافدنة العامرة . واغتاظ اذا نظرت الى نهر يجري في طريق غير صالحة فيؤلف في مجراه مستنقعات تضر بصحة النازلين حفافيه ، ويحرمهم الانتفاع بمياهه في سقياحقولهم ، وأتألم عندما ارى بناءً متداعياً لونقض وجدد لأتى بخمسة اضعاف رَيْعه . واقهر اذا مررت بغابة جارت عليها اسنان الماعز وفؤوس الحطابين وماحرست حراسة دقيقة ولاخدمت خدمة فنية لتصبح مورداً للسكان وزينة الآكام والقيعان .

والحال كذلك اذا رأيت عالماً او أديباً لايفيد قومه بعلمه وادبه ، لايدرّس ولا يؤلف ولايخطب ولا يحاضر ، واذا عهدت صاحب صنعة لايستثمر مواهبه اقول قوة مهملة وجودها وعدمها سواء . واذا عرفت موظفاً اميناً أحيل على التقاعد (المعاش) لبلوغه السن القانونية وفي مقدوره الدوام على الخدمة ، والدولة تظهر الاستغناء عنه آسف لهذه القوة الضائعة . وهكذا كلما نظرت العين قوة من قوى الأرض ومن عليها لاتستثمر الاستثمار الواجب اندب حظ العالم وأقول في نفسي لو استغلت كل القوى حق

الاستغلال لعمّ الاتقان كل شُعَب الحياة ولما جاع احد من بني الانسان

يبيح القانون الانكليزي تأجير الأرض تسعاً وتسعين سنة ولا يورث قانونها الا بكر الأولاد . وذلك لتعمر الأرض ولا تبدد الثروة . فماضرنا لو أخذنا من هذين القانونين ما وسعنا أخذه وضربنا عن بعض قوانيننا صفحاً كقانون الوقف الذي لايبيح ايجار الأرض الا ثلاث سنين ، أو يعمل المؤجر والمستأجر حيلة شرعية حتى يزيدا مدة الايجار شيئاً قليلاً وهناك مذهب من مذاهب اهل السنة يبيح ايجار الملك تسعين سنة ولكنهم لايعملون به .

علينا ان نعمل على الرجاء وطول الأمل لا على اليأس واهمال العمل .

المسألة الاجتماعية

يقول صاحب سر تقدم الانكليز السكسونيين : (ليست المسألة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما ان الحياة لا تقوم بكثرة تناول العقاقير والادوية ، اذ ليس الاسعاف او العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية ، والحكمة فيما يؤدي الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث لايستغني كل فرد منهم عن ان يقوم بأمر نفسه وان يرتقي بجده وعمله ، لان سلامة الاجتماع كالسلامة الاخروية تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل فرد ان يسعى اليها ، وقولي هذا لا يروق الذين اتخذوا السياسة حرفة وهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الأمة وضعف مدارك الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم في بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها القاصرين حتى يتيسر لهم ان يكونوا عليهم أوصياء) .

نعم يتيسر حل المسألة الاجتماعية بتنشئة ابناء الامة على حب الاستقلال في الحياة لا على الاتكال على الحكومات وجمعيات البر او اسخياء القوم . دب داء الكسل في نفوس العرب الا قليلاً فكان قصارى كل متعلم ومتعلمة ان يطرق ابواب الحكومات للاستخدام . ولو قد هيء لهم ان ينزعوا الى

الاستقلال في تحصيل عيشهم لكان ربحهم أضمن وحياتهم أرغد ولتمتعوا بحريتهم ، والحرية لا توازيها لذة من اللذائذ ولا نعمة من النعم . في اليوم الذي يتعلم فيه ابن الزارع وابن التاجر وابن الصانع ما ترقى به صناعة أبيه ويظل الزارع على زراعته والتاجر مشغولاً بتجارته والصانع مأخوذاً بصناعته لا يتعدونها الى غيرها نعد من الراقين في مجموعة الشعوب . ومن أخرجته على الاغلب من صناعة أهله فكأنك نقلته من القطب الجنوبي الى القطب الشمالي فجأة .

رأيت كثيرين في مصر والشام عزفت انفسهم عن الاستخدام وراحوا يعتمدون في عيشهم على قطعة من الأرض تفننوا في تعهدها ، فأتتهم بما عاشوا به في هناء ، وخلصوا من عبودية الاستخدام ، وضيق الرزق المحدود الجامد . وتحدثت الى عشرات منهم فشهدتهم جددوا طرق استثمار ما يملكون فكثر ريعه كثرة فاقت المأمول . سقياً ورعياً ليوم تضطر فيه الحكومات العربية الى عرض الوظائف ولا تجد راغباً فيها كما وقع في فرنسا في بعض الادوار ، انصرف الاذكياء الى الاعمال الحرة في الشركات وغيرها وابتعدوا عما فيه رائحة الرق في دواوين الدولة فاغتنى المستقلون وافتقر الاتكاليون . قد يعذر الاتكالي في بلد ضيق الرقعة ممحل التربة اذا زج بنفسه في الخدم المقيدة اما اذا كانت الثروة ماثلة للعيان امامه لا تحتاج الا ان يتعب نفسه قليلاً ليعيش ويخصب فلا عذر له .

قال لي احد اعيان المصريين من رجال المال والاعمال ان والدي خلف لي في قريتنا افدنة قليلة فما زلت اعمل مدة اربعين سنة في زراعتها حتى اتى علي زمن أصبحت أملك ألوفاً من الافدنة . وتعجبون اذا قلت لكم اني ما طلعت علي الشمس خلال تلك الأيام الا وانا في (الغيط) على رأس عملي وفيه افطر واتغدى وقد اتعشى . وكان ابي يمنحني كل سنة اجازة شهر ويدفع اليّ قائمة بما يجب ان نبتاعه من البنادر والحواضر فكنت اصرف اجازتي في تسوق ما يلزمنا من متاع وادوات واعود الى عزبتي لم استفد من اجازتي الا اقتناء ما كان لازماً لزراعتنا وبيتنا .

وباطل ان اقول ان هذا الصدر العظيم لو نشأ مستخدماً حكومياً وغفل عن تعهد زراعته بنفسه لكان اليوم افلس من المزلق .

رأيت في القطرين اناساً من أرباب المدارك يتخلون عن ادارة مزارعهم بأنفسهم ليأتوا الحواضر للاستمتاع والاستجمام ، ينفقون ضعف دخلهم ويضيعون جانباً من غلاتهم يتركونها للوكيل والحولي ، وغاية امانيهم ان تسجل اسماؤهم في سجلات الحكومة ، وفي مصر في جريدة الرتب والنياشين والتشريفات ، وأكثر المصريين جنوناً في الظهور من ينفقون العشرة والعشرين الف جنيه ليصلوا الى النواب او الشيوخ اويحرزوا لقب باشا اوبك .

أقل نظرة من صاحب الرزق يلقيها على أرضه وشغله تأتيه باضعاف ما يأتيه العمل الحكومي . لي صديق من أعيان الشرقية غادرته وهو لايملك أكثر من خمسين فداناً وهي مرهونة في المصارف ورجعت عليه بعد سبع وثلاثين سنة وهو يملك خمسمائة فدان قطعة واحدة من أجود الأطيان ، فسألته عن سر غناه فقال مسألتان الاولى اني كنت اذا استدنت من بعض المصارف مالاً لابتياع أرض اوتحسين زراعة أدفع التقاسيط المستحقة في مواعيدها ، الثانية اني كنت كل يوم اطوف على زراعتي ثلاث مرات ولا أتكل على عامل ولاأجير ، وهذا سر نجاحي .

ليست جميع الثروات الضخمة التي نشاهدها في مصر والشام وتعجبنا كثرتها هي كلها ابنة المصادفات بل هي وليدة الجدوالكد على الأغلب تراكمت في السنين الطويلة ونسج فيها الابن على منوال ابيه بتسلسل واطراد وكان صاحبها على جانب من الدماثة والثقافة ، تعرفت الى عشرات من الاغنياء الاستقلاليين فلم أستغرب ما وصلوا اليه ورأيت من فريق الاتكاليين عشرات جعلوا جلّ اعتمادهم على غيرهم فأصيبوا بالفقر والحرمان وخلفوا لأولادهم الفاقة والبؤس . وان قليلاً من التفكير يصرفه الرجل في تنمية حقله ومعمله يعود عليه بارباح قد لا يقدر مقدارها الا بعد ظهور نتائجها ، وكل حركة في طلب العيش لا بد أن تعقب بركة .

سويسرا المحبوبة

ليس في الممالك الكبرى والصغرى في الغرب بلد محبب الى القلوب كسويسرا (هلفسيا) اتفقت كلمة من زاروها من الشرقيين والغربيين على انها من خير بقاع الارض ، مانزلها غريب الا ودّ لو صرف فيها بقية حياته او رجا ان تطول مدة مقامه فيها وكثيراً ماوصى بعضهم ان يدفن فيها .

ماهو سر هذه المحبة وفي الارض اصقاع جميلة فيها مالسويسرا من ذلك ؟ فيها مصايف ومشات ، وفيها رفاهية ونعيم ، وفيها هدوء وسكون ، وفيها غابات وبحيرات ، فيها كل هذا واكثر من هذا ولكن ليس لها طيب اخلاق السويسريين . ومن اجل ذلك تعشق أرضهم أجيال الناس (راجع فصولاً لنا في سويسرا نشرت في كتابنا غرائب الغرب)

هناك جمهورية ولا كالجمهوريات جمهورية كالفسيفساء في الرقعة البديعة ، وهناك ديمقراطية ولا كالديمقراطيات ، نشأ ابناؤها منذ قرون على حبها وفدائها بأرواحهم وما حادوا عن قوانينها قيد شعرة . هناك شعب شريف ايسر مايوصف به انه زبدة صفات ممتازة ، لايعرف الغش ، ولا يدخل في الفضول ، ولا يرتكب جريمة الكذب ، وهناك مجموع بيوت نبيلة تقت الحرب لاتجيز قتل احد ، ولا ترى المجد والعظمة الا في اجراء العدل والاعتراف بالحق ، والظهور بمظهر المروءة والكرامة .

السويسري سعيد في بلده يشعر بهذه السعادة ، ويحمد المولى عليها ويطلب اليه دوامها ، سعيد لانه يعمل ولايكسل ، وماحدثته نفسه ان يعتدي حتى لايعتدى عليه ولا ان يستعمر ارضاً ليست له ، ولا أن يطيل يده بالاعتداء على ملك غيره ، يسير على الفطرة ويألف السذاجة وحضارته سهلة لاتعقيد فيها ، اذا حاولت ايجاد مثلها أعيتك الحيل لانها من جنس الحضارات التي رقيت مع الزمن لم ترتجل ارتجالاً ولم تنقل عن الغير نقلا . والعلم فيها موفور مبذول تفيض منه

على جيرانها وعلى كل طالب يقصدها ليأخذ عنها ، وفيها سبع جامعات لاربعة ملايين من الانفس ينزلون في ارض مساحتها (٤١٣٤٦) كيلو متراً ومعظمها جبال وبحيرات ، وهذا لم يعهد في ارض غير ارضها . ولما كانت تربية السويسرى المثل الاعلى اعتمدت بعض الشعوب في تنشئة ابنائها على مدارس سويسرا كما اتخذت بعض ملوك اوربا منذ اقدم العصور من هؤلاء السويسريين حراساً لهم وجنداً مأجوراً لان السويسري صادق العهد لايخون .

تحيط بسويسرا أربع دول كبرى (النمسا والمانيا وفرنسا وايطاليا) وكلها دول حربية لاتكاد تنطفيء جذوة حروبها ، ومع هذا تحسن سويسرا جوارهن احسانها لقاصديها ونازليها ذلك لأنها تنظر الى الخلق نظراً واحداً فيه حرمة وفيه عطف ولا زهو فيه ولا عتو .

ألسنا على حق اذا ادعينا أن ما وزع من الفضائل على أهل دولة كبرى كفرنسا او المانيا او انكلترا او الولايات المتحدة قد استأثرت سويسرا وحدها بما يوازيه او يزيد عليه مع مراعاة النسبة هذا على ضيق رقعتها وقلة اهلها .

فسويسرا مثال أمة تحب الحق وتدعو اليه وفيها من مظاهر الرحمة قسط كبير على ما يتجلى ذلك في تاريخها المجيد . مثالان من رحمة أهلها . حدث في القرون الوسطى ان هجم قائد نمساوي على الأرض السويسرية في جيش ضخم ، وكان هناك جسر على احدى البحيرات لا مناص من اجتياز الجند النمساوي عليه واتفق أن وقع ضغط شديد على الجسر فسقط بمن عليه من عسكر فما كان من السويسريين الا أن تركوا القتال وأخذوا ينقذون أعداءهم من الغرق والسهام تصوب الى صدورهم فدهش القائد النمساوي لهذه الشفقة التي بدت من عدوه ورجع عنهم وقد اعطاهم كل ما سألوه . ووقعة اخرى جرت في الحرب العالمية الأولى وقد اصبحت سويسرا معتصماً لأمم كثيرة حتى غدا عدد اللاجئين اليها والنازلين فيها مليون غريب وانقطعت المواصلات مع كل بلد فعز جلب المال وجلب الذخيرة ، وكان السويسريون في الحرب يستجدون الحنطة من الممالك المجاورة استجداء وهي تطعم منه هذه

المليون من الأنفس وتعطيهم رواتب تكفيهم ، وتؤويهم كأنهم في بيوتهم وبين أهلهم ، وأرجأت حناناً منها تسديد هذه المبالغ الضخمة التي تنفقها على الأجانب الى ما بعد الحرب .

حرية سويسرا مستفيضة على كل من يعتصم بها لا عبث فيها ولا لغو لذلك وجدت البرتستانتية الأولى معتصماً فيها وكانت للمذاهب السياسية المختلفة حمى منيعاً . يكثر الضجيج في ايتخاب مجلس كل أمة ويسفر عن انتشار روح العداوة بين الأهل والعشير ، وسويسرا المتزنة في اقوالها وافعالها لا عهد لها بهذا ، لا تعرف الا السلام حتى صح ان تدعى جمهوريتها جمهورية السلام .

صناعة الفنادق

أويت الى فنادق وأنزال في الشرق والغرب منها ما كان من الدرجة الأولى ومنها ما يعد من الدرجة الثانية او الثالثة فرأيتها كلها تسير على نظام بديع فيها من اسباب الراحة كل ما فيه متاع للجسم والروح .

ومن كان يظن ان أرقى ما عندنا من الفنادق اذا قيس بما عند الاميركيين منها يعد عادياً . تعرفت في دمشق الى مدير شركة كوك للسياحة فسألته عما اذا كان يصحب سياحاً فقال : نعم سبعمائة اميركي . فقلت له : وأين هم الآن ؟ فقال خرجوا الى البر من باخرتهم وزاروا بيروت فلم تعجبهم فنادقها وعادوا الى سفينتهم ليبيتوا بها ، وسكت وا كملت حديثه في نفسي وقلت : اذا لم تعجبهم فنادق بيروت فمن باب أولى ألا تعجبهم فنادق دمشق وغيرها من فنادق الديار الشامية . ثم فكرت وقلت : ترى كم خسر بلدنا بامتناع هؤلاء السائحين من نزول فنادقه .

يظن بعضهم أن القيام بادارة فندق على ما يجب من الأمور السهلة وما ادارته الاادارة حكومة مصغرة أو شركة كبيرة متشعبة بل أن الفنادق اصعب

ادارة لان فيها من صنوف الحاجيات والكماليات ما لا يكاد ينحصر ، ومن الصناعات ما يتناول معظم المخترعات الحديثة .

ومدير الفندق يتعهد كل مافيه من دقيق وجليل وهو وحده المسؤول أمام نزلائه وأمام حكومة بلده ولذلك اقتضى ان يكون على علم بفروع مايتطلبه السائح من ضروب الرفاهية وما يحتاجه من الاستعلامات ويتطلب صاحب الفندق الادلاء به على البديهة وهذا مايستلزم ذاكرة وحافظة ومعارف كثيرة عن الشعوب والدول والقوانين والاقتصاد والمالية واللغات والجغرافيا والطوبوغرافيا والتاريخ والاجتماع والسياسة وطرق المواصلات البرية والبحرية والجوية .

برّزت سويسرا في هذه الصناعة على سائر الشعوب الغربية حتى ان بعض الفنادق الكبرى في انكلترا والمانيا وايطاليا وغيرها توسد ادارتها للسويسريين كما تدار في حوض البحر المتوسط معظم المقاهي بأيدي اليونان لاشتهارهم بالنظافة ورقة الجانب واستجلاب رضا الزبن .

فصناعة الفنادق صناعة جليلة في ذاتها يعنى بها من وراء الغاية في ديار الغرب لما تدره من الارباح الطائلة على القائمين بأمرها ، ولايضمن ذلك للشركات والأفراد ان لم تتخذ لها عامة أسباب النجاح ويجري التجدد في طرائقها كل مدة يراعى فيها الذوق والطرافة والهناء . وهذا لايتأتى الحصول عليه الا بعناية فائقة ومعارف متنوعة ونظام دقيق اذا اختل طرف منه يكاد يسري الخلل الى سائر الأطراف ويكون الافلاس مصير الفندق المختل .

يدير الشاميون فنادقهم بأنفسهم ، والأجانب يديرون الفنادق الكبرى بمصر لعجز الوطنيين عن ادارتها . وما كان الشاميون عريقين في صناعة الفنادق وأتقنوها بعض الشيء في العهد الأخير . اما المصريون فلم تتنزل الطبقة الراقية منهم لادارة الفنادق تأخذها عن الغرب باتقانه المعروف حتى يدبروا بأيديهم فنادقهم وتدر على الوطن الارباح العظيمة التي يجنيها الغريب .

اذا تعلم العرب هذه الصناعة وبرعوا في فتح الانزال والفنادق تقرب روابط

الشعوب ويتعارف النزلاء وتتوطد العلائق التجارية وتوفر لأرباب الرحلات راحتهم وتحدثهم أنفسهم بالعودة الى ذلك الفندق كلما عنّ لهم، وتنقل من حسنات المدنية مافيه منافع كثيرة للناس .

الاحياء والاشياء

ضاق عيش بحرية طرابلس الشام زمن الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) لانقطاع الصلات مع البحر فقام تاجر خشب من صالحي أهل تلك الفرضة اسمه الحاج مصطفى حوّلا وأخذ على نفسه اطعام مائتي شخص كل يوم من سكان بلده خلال أربع سنين . نوهت بهذه المكرمة في جريدة الشرق ثم نقلت ماقلته فيه في كتابي القديم والحديث .

ذكرت هذا الاحسان لأديبين من المشايخ فكان مما انتقده الاوّل من سيرة هذا المحسن انه كان قبل ان يتجر بالاخشاب يصنع القباقيب وانه كان في شبابه يتعاطى المسكرات . وكان من الثاني الا ان قال ان عدد من يطعمهم مبالغ فيه ولعلهم لا يتجاوزن العشرة انفس . اراد الطاعن الاول الحط من صاحب هذه الحسنة فمدحه وما كان من وصلت به حرفته مهما كان نوعها الى الغنى ومن كان مستهتراً بالشراب في صباه ثم تاب واناب الا أهلاً لكل ثناء واعجاب . اما الذي ألقى الشك في عدد الآكلين ليقلل من شأن هذا الاحسان فانه على مايظهر قاس هذا الكرم على نفسه فاستعظمه وحسد فاعله وهو الذي ما أثر عنه ان تصدق بقرش على محتاج ، وربما كان ممن يعتقد ان من يخرج من مثل هذا القدر من المال برضاه يجب ان يعد في المجانين لا في العقلاء . والظاهر انه شق على الرجلين ان يفهم العامي من تعاليم دينه أكثر مما فهما وهما من طبقة اعتادت ان تأخذ ولا تعطي شأن معظم الموظفين يعتقدون أن الامة ملزمة باكرامهم واهدائهم وهم غير مضطرين ان يحسنوا الى فقرائهم حتى في أشد الازمات (لكل امريء من دهره ماتعودا)

عمل نافع

قلت لمستشار الزراعة السيد آشار (وكان يؤكد لي انه يغار على مصلحة الفلاح) ان الهمة التي بذلها السيد جميل الدهان متصرف حمص في تشجير اللواء من أعظم ما عهد لرجل من رجال ادارتنا فاجاب لاتصدق مايروى هذا : عمل مسطور على الورق فقط . فقلت له اني رأيت بعيني الشجر نامياً ونضرا ودخلت الغابات الجديدة وفحصتها فحصاً دقيقاً . ولعل حكم المستشار نشأ من ان المتصرف احسن التصرف باتكاله على نفسه اكثر من اتكاله على الحكومة المنتدبة ، انتفع منها ما استطاع ان ينتفع وراح يحث قومه على ابتياع الغراس يجلبها لهم من الاصقاع التي تجود فيها ، وما استعان بحكومته الوطنية الا في بعض الاحوال التي لابد من مراعاتها .

كانت عمالة حمص قبل ان يقوم هذا العامل بمشروعه تعمى عيون اهلها من الغبار طوال ايام الربيع والصيف والخريف ولا يجدون حطباً يحتطبونه لطبخهم وخبزهم ودفئهم فيعمدون الى روث البهائم يجمعونه بأيديهم ويجففونه ويسمونه « الجلة » وبه يوقدون وبه يستدفئون فلما جاءت هذه الغابات الغبياء كان لهم منها وقاية لصحتهم وغذاء لاجسامهم وانتفعوا بثمرها وحطبها ثم انهم اقتصدوا من روث الحيوانات فجعلوا منه سماداً زاد في خصب اراضيهم وقد بلغ عدد الاشجار المغروسة في مأتين وخمسين قرية ملايين . خصت الاراضي البعلية بالزيتون والفستق واللوز والتين والرمان والكرم واقتصرت اراضي السقي على الجوز والمشمش والتفاح والخوخ والسفرجل والدراق .

هذا ماتم على ايدي المتصرف المجتهد في ثلاث عشرة سنة وكنت اذا اثنيت عليه امام بعض رجال الادارة يتمعضون من تصريحي ويحاولون تقليل قيمة عمله ، شأن الخامل عند ذكر العامل والجاهل اذا نوى كيد العالم . وما كنت اقصد - وكلامي يومئذ مسموع لان عليه مسحة رسمية - الا ان

أبعث هممهم على حث الاهلين على التشجير حتى نبني ثروتنا على اساس متين وندخل الى الغنى من ابوابه . وكنت اجهر بقولي ان وظيفة صاحب الادارة تنحصر في عدة مواد اهمها تمهيد الطرق وبناء الجسور والمعابر وانشاء المدارس ودور الحكومة والمخافر واسالة المياه وتجفيف المستنقعات والتشجير ، لاصرف الوقت في حوالة الاوراق وكتابة التقارير الملفقة وارضاء المرجع بالحق والباطل .

وأخبرني احد الاخصائيين بالزراعة ان هذه الاشجار الكثيرة في لواء حمص لم تسلم كلها سطت عليها الاهوية فقلعت بعضها وكان الاهلون يقلعون البعض الآخر للانتفاع بارضها . ومن العادة الا تسلم كل شجرة تغرس ولو كانت في مأمن من اعتداء البشر والطبيعة عليها

دار الكتب المصرية

عُنِيَت هذه الدار بطبع أمهات من المخطوطات العربية على طريقة علمية عُورض منها الذي يراد نشره على النسخ المختلفة التي أمكن الحصول عليها ، وشرح المبهم من عباراتها ، ووضعت الفهارس المنوعة لكل كتاب حتى يسهل الرجوع الى مواده . وأصبحت المجموعة التي نشرت من أهم مصادر المؤلفين والباحثين في الأدب والتاريخ والشعر والرجال ، وكانت بعض الكتب تقع تحت نظر بضعة من العلماء بعد تصحيح المصححين في المطبعة فيظهر فيها قليل من الاغلاط ولا سيما في اسماء البلدان .

أما البطء في العمل فقد تعذر على الادارة تلافيه ، وجاوز الحد فارتفعت شكوى عشاق الكتب منه وهم يشتاقون لتناول مابقي من الكتب التي بديء بها منذ سنين . والسبب في ذلك أن المسؤليات تضيع في الأماكن الرسمية وقلّ أن يكون فيها الاتقان تاماً ، والتسامح ان صح في ذلك فلا يجوز أن يكون في اسفار يراد من طبعها الاتقان الذي لا يقدر الافراد علي

تحقيق مثله ، ولو كانت مثل هذه التسهيلات التي تتمتع بها دائرة حكومية لجماعة او شركة لأنتجوا اكثر مما انتجت دار الكتب ،وباتقان قد يكون أيضاً اعظم من اتقانها .

وبعد فلو كانت وظيفة مدير دار الكتب المصرية تطول عشرين سنة مثلاً لسدّ النقص المشاهد في معظم فروع ادارة هذه الدار ، ولكن وزارة المعارف المصرية لا توسد ادارتها الا لرجل كادت تنتهي خدمته الرسمية ، ومنصب المدير هنا يقتضي له تجارب كثيرة وعلم بهذه الصناعة الصعبة ولا تكفي فيها المشاركة الطفيفة ، والنتفة غير المحقق .

من أغنى العربية

أغنى اللغة العربية افراد وضعوا لمفردات العلوم الفاظاً عربية ما كان المدرسون يعرفونها واحيوها بوضع ما يقابلها من اللغات الغربية امثال رفاعة الطهطاوي ومحمود الفلكي وسالم سالم وشفيق مقصور ومحمد مختار وعلي رياض ودرّي وقدري واحمد فارس وسليمان الحريري وفانديك وبوست ويعقوب صروف وابراهيم اليازجي وابراهيم المصوّر واحمد عيسى وامين المعلوف ومحمد شرف وانستاس الكرملي وداود جلبي وشكيب ارسلان ومصطفى الشهابي ومصطفى نظيف ومرشد خاطر واحمد حمدي الخياط وحسني سبح ونجيب شاهين وجميل صليبا وصلاح الدين الكواكبي وجميل الخاني وعبدالوهاب القنواتي الى ضرباتهم اصحاب الفضل العظيم على العربية والنهضة العلمية . ولا ينكر فضل المجامع العلمية في توسيع دائرة العلوم واذا نشر ما وضع بمختلف طرق النشر سرى ما وضعوه في التأليف والصحف وعلى الالسن فتزيد اللغة اتساعاً وتغنى بالعلميات كما هي غنية بالادبيات .

كثرة الأصحاب

نصح لي استاذي العلامة محمد المبارك يوم وفاة والدي الا أستكثر من الأصحاب وأن اجتهد ان كان لي خمسة ان اقتصر على اربعة لا ان اجعلهم ستة لان للاصحاب حقوقاً لابد للصاحب من مراعاتها اذا اخل بشروطها كان من الخائفين على الصداقة ، وان حرص على القيام بما تستلزمه أضاع وقته وعمره .

نصيحة صعب على كل الخلق العمل بها تنفع بالأكثر من اراد العزلة والاشتغال بخويصة نفسه ، وهى نصيحة صوفي لصوفي والمجتمع يتطلب غير هذا ، ولو عملت بها لظلت العمر أجول في دائرة ضيقة ولفاتتني امور لاأصل الى معرفتها الا بالاختلاط وصرف زمن في ممارسة ما ينفع الوقوف عليه . حقاً ان الاسترسال في الاكثار من الاصحاب مضيعة للوقت ، وفي العزوف عنهم بعض الراحة . والاختلاط او العزلة تبع للصناعة التي يعانيها المرء . فقد نشأت صحافياً والصحافي اكثر الناس حاجة الى التعارف .

وكنت الى اواخر العقد الرابع من عمري أفرح اذا زاد عدد أصحابي ، وبعد هذه السن أصبحت نفسي تعزف عن الاستزادة من الخلان والمعارف ، وتشمئز من كل من يرى في مصادقتي فائدة له خاصة . ومعظم من تصحب يحرص على صداقتك مادام من ورائها مغنم له فاذا انقطع كانوا أزهد ناس في مجلسك .

المرء في حاجة الى اصحاب في فرحه وترحه وفي حِله ومُرتحَله . يحتاج أبداً الى من يأنس اليهم ويأنسون اليه ، ويبادلهم الأفكار ويجيل معهم الرأي ، ولا تضره كثرتهم بقدر مايضره سوء اختيارهم ، وليس أشق على المتصادقين من عدم المشاكلة في التربية والعقل ، والصداقة تقوم على تسامح الصديقين حتى قال بعضهم ما رأيت صديقين دامت صداقتهما الا كان احدهما متنازلاً عن بعض مايجب له على صاحبه .

الباب المفتوح

لي صديق قديم عجم عود الناس وأصبح على الزمن ممن يرجع الى آرائهم في معرفة نفسية الطبقات ؛ عَنَيْت ابا درويش السيد مصطفى سويد رجل الخير والظرف ، أخذ منذ مدة يلومني ، والاخلاص رائده على ابتعادي عن المدينة واتخاذ القرية سكناً ، ويقول انه لايرى معنى لاعتزالي هذا بعد أن تمت بعض ادواتي من التجارب والمعرفة ، وصار لي شهرة في الاقطار ، ورأي مسموع بين جمهرة من الشبان والكهول ، فمن واجبي أن أجلس في بيتي في الحاضرة وافتح بابه لاستقبال الضيوف ولقاء الواردين . فكان جوابي كل مرة ان لبدنك عليك حقاً ، وانا عند نفسي قد قمت بما فرض عليّ في هذا الشأن ، وواجبي بعد الآن ان استريح والا أدخل في مسائل لاأحب أن أدخل فيها ، والا أرى وجوهاً لاتميل نفسي لمواجهتها ، وغرامي ان أصرف الأيام الباقية من عمري فيما يلذني ، وليس اجمل مشغلة من الانقطاع الى النظر في تآليفي والعنايه بطبعها .

ووقع لي مؤخراً مايصح ان يكون منه حجة اخرى او تتمة لجوابي على كلام صديقي هذا . ذلك أنه زارني في القرية وقت الظهيرة في الصيف شابان من طلبة العلم الديني في عشر الثلاثين من العمر على غير معرفة سابقة ولا توسط متوسط للوقوف على ماإذا كنت ارتاح لهذا التعارف او لاأرتاح ، وأخذا يوردان عليّ أسئلة ليس من السهل الاجابة عليها في الحال ، ولا من الحكمة أن يبوح بها المرء لمن لايعرف ، ويطلبان رأيي الصريح فيها يحاولون مثلاً الاطلاع على تراجم من عنّ لهما الوقوف على تراجمهم من الرجال البارزين في السياسة والدين ومن طبقات المحدثين والاقدمين . ولما ضاق صدري من اصطياد ما يبغيان اصطياده قلت لهما : ان هذه الاسئلة يقتضي لها عشرون جلسة على الاقل وما يدريني اذا أنا صرحت بما تريدان أن

تنشرا اقوالي في الصحف فأخرج عن التوقي الذي يتطلب من الشيوخ . ساقني الى هذا القول أن رأيتها يطعنان في بعض كبار الرجال المعاصرين ولا يدركان من ماضيهم وحاضرهم شيئاً صحيحاً مما يدل على خبرة قليلة بالرجال ، وظهر الانقباض عليّ وذكرت لهما اني في دور النقاهة والواجب أن أقيل واستريح فصرفتهما عني صرفاً ليس فيه شيء من النعومة التي اعتاد الدمشقيون الظهور بها حتى مع اعدائهم .

أهكذا يريد صديقي البار ان أهدر وقتي في رد مسائل كهذه ، وكلام فارغ كهذا ، وأنقطع في داري لأستقبل امثال هذين الشابين اللذين اثبتا انهما لم يتعلما أبسط قواعد الاجتماع . ولو قدر الله أن اسير على هذا المنهج لما اتيت بعمل نافع ، وبعد فأنا اذا اعتقدت ان ماجريت عليه مما ينطبق على العقل لاأحيد عنه لأقوم بما لارى من نفسي استعداداً للقيام به .

وعلى ذكر الباب المفتوح ارى ان أشير الى من اعتادوا الاجتماع الى أصحابهم في أندية مفتوحة او في حديقة عامة او ثويّ او نديّ اجتماعاً علنياً ، أن مثل هذه المجالس لابد ان يدخلها طفيليون ينغصون صفاء المجتمعين وينقلون أخبارهم ويتجسسون عليهم . وأمثال هذه المجالس كثيراً ماكنت أعمل على تقليل شرورها ولاسيما في الاوقات التي ماكنت استغني فيها عن الاستئناس الى أصحابي . وجرت عادتي في الأزمات السياسية ان اتجنب الناس ، وحدث في احدى الثورات الاخيرة ان جاءني من قدماء جيراني شخص اعرف درجته ودرجة اسرته من الأخلاق وكان من عادته ان ينقطع عني اعواماً ثم يوافيني مستعلماً عن صحتي متشوفاً الى طلعتي ، ويسأل عما يهمه من الاخبار وهو ممن لايعنون باكثر من طعامهم وشرابهم ولذائذهم ، وسألني علناً : ونحن ماذا يكون مصيرنا ؟ وكان ذلك ايام خروج الفيشيين من سورية واستلام البريطانيين زمام الحكم فقلنا له جميعنا : الله اعلم ، وغمزت بعضهم ان يمسكوا ولا يفيضوا مع الداغر علينا . ومن الغد عاد يزورنا ووضع سؤاله بالأمس — ونحن ماذا يكون مصيرنا ؟ — وأجبناه بما كنا اجبناه في ثاني يوم وفي الثالث جاءنا بالنغمة ذاتها فتجهم له بعض جلسائي وفي اليوم

الرابع أقفلت البـاب وحرمت اخواني ثلاثة اشهر كوامل . وكان أصحابي يستغربون بعدي عن الاصحاب وانا اعـدهم بأن أبوح لهم بالسر متى حان الوقت وعدنا بعد ذلك الى ما كنا عليه من الاجتماع نخوض في احاديثنا ولا نقطعها الا اذا دخل علينا انسان لانعرف ترجمة حياته ومن هذه الطبقة من توقيناه واستعملنا لسان التمويه في خطابه فظهر بعد حين انه من الجواسيس كما تفرسنا فيه من اول الأمر ، وربما كانت أحاديثنا وهي مغموسة بشيء من الحرية تضر بعض الحضور في اعمالهم وعلاقاتهم مع الحكومة اذا نقلت الى من يبني عليها احكامه وحكومته .

في عالم الأحلام

في ليلة من ليالي كانون الثاني حلمت حلماً لذيذاً وددت لو طال أكثر مما طال . رأيت كأن الجمهورية تبدلت سياستها ، وصلحت تراتيبها وادارتها ، بأسباب تعد من الخوارق وما هي بها . قام الاصلاح من دون مظاهرات ولا مشاغبات ودون ان تمس الأوضاع وتبدل الأنظمة ، فدهشت لما رأيت وتجاسرت وسألت اول من وقعت عيني عليه ، وكان رجلاً ذا سمت حسن ووقار ورزانة ، توسمت فيـه العقل والحكمة فقلت له : اني لأعجب بما ارى من هذا التبدل الفجائي فكيف تم يا اخي هـذا من دون ما ثورة ولا تغيير وزارة ، ولا حل مجلس وانتخاب آخر ، فقال لك الحق ان تعجب مما ترى ، كل ذلك لم يحدث شيء منه ، ولا ازعج وطني ، ولا خرب شيء ولا تلف مال ، ولا صرف وقت ، وتحقق ما كان العقلاء يرجونه ويستبعدون الوصول اليه حتى كادوا ان يقنطوا .

قلت : والله يا اخي لقد دخل الملل على قلبي لكثرة ما طالبت الحكومات باجراء الاصلاح ، ولم تحقق لي الأيام بعض ما كنت ارجو ، مع اننا وصلنا

الى آخر المراحل بالنظام الجمهوري الذي قام بيننا ونحن ما طلبنا غيره لعلمنا بانه اصلح انواع الحكم .

قال : وانا مثلك يا صاحبي جدٌّ متعجب مما جرى ، وفرحت بتوفيقنا فرحاً لا مزيد عليه ، فرحت لما تقدمنا به من خطوات خطوناها وما ظننت انها تتم على ايدى هذه الطبقة من الرجال لأنهم الا القليل جداً لا يفكرون إلا في اشخاصهم فقط ، وقل ان ترى فرداً فيهم يفكر في الأمة ومستقبلها ، ورجال هذا شأنهم لا نرجو منهم ان يقوموا بما ينفع ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

قلت : عجبت من نزاهة محسوسة شاهدتها في القضاء على اختلاف درجاته ، وكان بعض القضاة بالأمس ملوثين بالرّشا ، يقضون على هواهم بلا مراقب من ذمتهم ولا من وزارتهم ، وكان القضاة او سوادهم الأعظم يسارعون الى التهام الرشوة قبل غيرهم ، واليوم يقضي القاضي وهو يحسب لقضائه الف حساب ، يقضي وهو يخاف ربه ، ويخاف ان يجمح به هواه فيخالف العدل ، يقضي بدافع من نفسه لا يخشى المفتش ولا امين الوزارة ولا الوزير ولا الرئيس . قال : وهل عندك علم بما وقع فقد انحلت بعض الحل تلك الشركة التي تعاهد الشركاء فيها على الحق والباطل ، وكان من اثر ذلك ان وصل القضاء الى هذه الدرجة من النظام ، وشاهدنا العدل عياناً على ما شهدناه في محاكم مصر فانقلبت هيئته في العهد الانكليزي وكان من قبل مهزلة من المهازل ، فما هي الطرق التي اتبعها رجال الجمهورية حتى انقذوا القضاء من ذلك الخلل المبكي ؟ قلت : لا يعلم الغيب الا الله . اما ما جرى فليس من علم الغيب في شيء وما هو الا من المحسوسات الملموسات ، ما فيه ما يعد من المعجزات ، بل هو طبيعي الحدوث ليس فيه ما يستغرب هو اشبه بالقضايا المنطقية تخرج النتيجة اذا صحت المقدمة قويمة صحيحة . ان القوم على ما تبين لي عرفوا الخطر من هذا الاهمال فتخلوا قليلاً عن حظوظ انفسهم ونظروا الى المصلحة العامة بجد فأخرجوا من الخدمة بعض الخائنين فارعوى الآخرون ممن كانت ذنوبهم خفيفة يمكن اصلاحها وأتوا بمن ينفعون لتولي المناصب الكبرى وهؤلاء ساقوا من تحت

ايديهم الى السداد ونصبوا اطيب طبقة من العمال ، وكان الصغار من قبل يفسدون الكبار والكبار يسكتون عنهم اذا رأوهم حادوا عن الطريق المستقيم ، يملون لهم ما شاؤا أن يملوا ، يتركونهم يسرقون ويضيعون الحقوق ويشاركونهم في سرقاتهم وهم يؤدون اليهم قسطهم من الغنيمة ويعاونونهم على مآربهم من باب أضيء لي أقدح لك ، وتنحصر فلسفة كل هذا في جملة مختصرة وهو أن ولاة الأمر عزموا على ترك المصانعات وأخذوا باطراف الحزم فنفذوا العقوبات على كل صغير وكبير ، فسلمت ادارة الحكم من لوثاتها بعد قليل ، وكان بعض الوزراء من رجال القانون في سبيل النفع الشخصي يلتمسون المخارج لاستصدار العفو عن القتلة كما كانوا يغضون الطرف عن لصوص العمال ، أطلقوا لهم العنان حتى كسروا عظم الرعية وعرقوا لحمها ، ولما رجعوا الى العقل وحذفوا من موازنة سنة واحدة ثلثها ولم يعتور الاحوال تبدل وقضوا على الحكومة السابقة وعلى غلوها في فرض الضرائب ينعم بها القائمون بالدولة جرت الامور في نصابها . وكان شكا بعض أرباب معامل السلاح في الغرب أن بعض رؤساء حكومات العرب ، وطعنوا في أمانتهم ، طلبوا اضافة مبالغ على قوائم ما يبتاعونه من معاملهم فردوهم لأن ذلك يضر بسمعتها ويؤذي تجارتها .

العالم من دون عقوبة يعمهم الفساد وتنتشر الفوضى بينهم ، ويختل عمود العدل ، وتضطرب أحوال الملك ، ومتى انقطعت آمال الامة من احقاق الحق وازهاق الباطل لا تدري ما هي فاعلة . قال : اني الى الاعتقاد بأنك تبالغ في وصفك هذا واني أحب أن أصارحك وقد رأيتك على شيء من التجربة فأقول : وماذا يترتب على انتفاع العامل بشيء من المال ينفقه على عياله وانت تعلم ان راتبه قليل وكذلك المدير والوزير اذا عقد أحدهما صفقة وتناول منها مبلغاً من المال يغنيه أو يستعين به يوم الانتخابات لابتياع الاصوات أو يجعل منه مجوهرات يهديها لمن يتوقع الخير على يده أو يجمع مقادير عظيمة من الحبوب أو الارز أو السمن يهديها لاصحاب المطابخ الكبيرة يعاونهم على

الظهور بمظهر يطمعون فيه وهذا يقابله على هديته بكلام فيعود القرش عشرة على الهادي وهكذا الناس ينفع بعضهم بعضاً .

قلت : ان ظاهر كلامك لا بأس به الا انه لا يقنع عاقلاً ، وهذه الاعمال كلها محرمة في الشرائع والمتدينون والمدنيون يحذّرون من ارتكابها . ومن يهدى اليه اليوم ويقبل الهدية لا ينجيه من تبعتها الا هَدْي سيد المرسلين في قوله لمن رآه يتناول مالاً من الرعية لنفسه وقال انه أهدي له : هلا قعدت في بيت أبيك وأمك وقلت انه اهدى اليّ ، وتقول ان الرسول قبل الهدية لكن كان يقابل عليها وهؤلاء المستهدون هل قابلوا مهدياً على هديته الا أن يقابلوه بكلام كأن يشهدوا بحسن حال من أهدى اليهم ويؤيدونه بالباطل في المآزق ليبقى في الحكم اكثر مدة ممكنة .

وقاطعني فقال : انت تريد ان تعيدنا الى عصر الصحابة في الحكم هذا عصر لايعود ولا يتكرر والناس كلهم اليوم فسدوا الا من رحم ربك ، ومراد الله من الخلق ما هم عليه ، العالم ياحبيبي لا يعرفون الا المادة ومن اختار لنفسه الذلة والقلة وعفّ وترفع عن الدنايا فهو وشأنه ، ومن اراد ان يتمتع بمباهج هذه الدنيا فليس له غير هذه الطرق التي يسلكها الكافة ، ولا حرج عليه ولا اثم ، وازيد على ذلك ان معظم الخلق لا يعتقدون بغير الدنيا ، والآخرة عندهم شيء مجهول بعيد الوقوع فلا يتركون المعلوم للمجهول ولا الخيالي للمحسوس .

قلت : دعنا من امور الآخرة وتعال نبحث في الدنيا ، هل تستقيم بحياتك الامور ان لم تقم على نظام وعدل ، هل يكون ذلك بغير تطبيق الأنظمة كما يفعل الغربيون لعهدنا في تنفيذها ، ولا ينظرون الا الى الحياة الأولى ، ولذا افلحوا اكثر منا في كل امر ، فهم اكثر غنى ، واكثر صدقاً ، واقرب الى العدل ، ونحن اذا ضاع الغش والكذب والنميمة وكل ما نهى عنه شرعنا تجده في بلادنا على حصة موفورة ، وتأتيه كل ساعة غير خائفين ، وبفتوى من مفاتينا ، وباقرار من اهل الحل والعقد فينا ، قوانيننا كلها جيدة لو نفذت ، لكنها مدفونة في القماطر تنفذ منها ما يروقنا فقط . قال : الا تعلم

ان الكبراء اذا اعطوا فهم يعطون من مال تقرره لهم الحكومة وكل مايقام من المآدب والسياحات المرفهة ونفقات الأبهة والبذخ واستمالة القلوب والاقلام داخل الوطن وخارجه ، قد اخذ من بيت المال بقرار فالآثم هو المقرر ، ومن انفق ماقرر له بريء من التبعة ، والمسؤول عن المال المبدد هو القانون الدستوري ، والامة في الواقع انحلت اخلاقها فوجدت لها من هذا القانون اعظم معوان . وبلغني ان احد رؤساء الوزارات لايقيم مأدبة خاصة او عامة ولاينفق شيئاً في سبيل مصلحة الدولة حتى في شراء السلاح والقذائف والطيارات والسيارات الا ويضيف الى قائمة ماصرف مبلغاً من المال يأخذه لنفسه وبذلك اغتنى كثيراً واقتنى املاكاً وكذلك اغتنى اقاربه واشياعه في المفوضيات والمحافظات من صعاليكهم من بنوا القصور ونجدوا المقاصير والدور يسرفون في الانفاق على رفاهيتهم ما لاينفقه رئيس كبير في ديار الغرب . ومن غريب ما أتى هذا السياسي ان احال الى مزارعه ما وقع في ايدي الدولة من المغانم كالمواشي والآلة كأن مغانم الحكومة مغانم له ولامن يحاسبه .

وأتبعت ذلك بقولي الناس ياحبيبي مع القائم وكيف يحاسبون او يعرّضون قليلاً بما تجنيه يد الجاني وهم يوقنون انه اذا غضب الله على احدهم وانتقد هذه الخطة عاقبه الوزير عقاباً مادياً وآذاه في ماله واحياناً ببدنه فان كان تاجراً عمل على خسارته ، وان كان مزارعاً سلط عليه ادنياء الفلاحين ، وان كان موظفاً اوقعوه في مشاكل يحاولون بها اقصاءه وخراب بيته ، والوزراء كلهم متضامنون وهم ابداً طوع امر رئيسهم والحكام كلهم عبيده مادام في منصبه الا من رزق نفساً قوية وما اهمته خدمة الاغراض . ومن الناس من يتحاشون ذكر المظالم بكلمة مخافة ان يعود الى الحكم مرة اخرى وينتقم منهم ومن أبنائهم وذوي قرباهم واصحابهم ، وهكذا يبقى الجرح ثغاراً والفساد مستحكماً متسلسلاً . ويذكر العارفون ان احد الوزراء في الانتخابات حرص على احراز اصوات تسهل عليه الوصول الى النيابة ، مع علمه بان النفوس مائلة عنه ، فلم ير أحسن من ان يعهد الى جميع موظفيه بمعاونته فالبسهم كسوة غير كسوتهم ، وأصحب كل واحد مسدساً خبأه في جيبه ،

وكان بهم يهدد الناخبين حتى احرز بعض النصاب وانه له حزب الحكومة بما وضعته في الصناديق من اوراق مزورة ففاز بالنيابة بهذه الطرق المزيفة وفاز بعض زملائه وانتشر سر هذه المكيدة، والسياسيون قد يزعمون ان افعالهم السرية تخفى على القوم وليس كل السياسيين فلاسفة حتى تردهم ضمائرهم الى الصراط السويّ . وهكذا يقال في بعض الرؤساء وبعض الوزراء اخترع كل واحد احبولة يلقيها فيصطاد فمنهم من يجوز ابتياع الضمائر بالمال ويدعي ان المجد لايبنى الا بهذه الاحابيل . ومنهم من لواعطيته عُشر خزانة الامة لمد يده الى التسعة الاعشار الاخرى ، ذلك لان اكثرهم لم يربوا تربية دينية ولا مدنية صحيحة وجاءوا الى ممارسة السياسة من طرق فيها الخديعة والكذب والنفاق وغير ذلك .

مساو لو قسمن على الغواني لما أُمهرن الا بالطلاق

ساءتني النماذج التي ادركتها من أولئك الكبراء ، رأيتهم يتنزلون لأقل الصعاليك ويخاطبونهم بما لايخاطبون به عظماء الامة ورأيت بعض عامة سكان الاحياء تنهال عليهم مقادير كبيرة من الحنطة والارز والسكر وغير ذلك من انواع المأكول ، وكان هذا في وقت عزّ وجودها وكان يكفي ما يهدونهم من انواعها لان يكون منه رأس مال كبير او ليطعم الف انسان ، بينا كان الفقراء لاتصل أيديهم الى القوت الضروري الا بشق الانفس ويطعمونهم الخبز المغشوش اما الارز والسكر فهذا ما كانوا يسمعون به ولا يرونه .

قال صاحبي : ان اكثر ماترويته اوافق عليه ، وهذا كله جرى على مارسمت ، ولكن حنبليتك قوية وتشددك عظيم في اقتضاء الناس مالا يملكون فأرح نفسك من هذا العناء فأنت لاتقوّم المعوج ولو كان معك اليوم فريق يعاضدونك ، ولن تنجح مادام الفاسدون اكثر سواداً من الصالحين ، والفاسدون اعرف بالدسائس وبما يبقي عليهم نعمتهم وهم عند حاجتهم احط الخلق لايستنكفون عن ارتكاب كل كبيرة .

ولما بلغ الحديث الى هذا الحد ومنه ماأنسيته تقلبت في سريري متألماً من أواخره ، فانتبهت على صوت المؤذن يقول : يارحم الراحمين ارحمنا .

ابراهيم باشا في الشام

من غرائب التاريخ في العصر الماضي قيام محمد علي الكبير بانشاء دولة عظيمة في مصر واسترجاع عبد العزيز آل سعود في هذا العصر ملك آبائه في نجد وما اليها وليس معه من الرجال أكثر من بضعة أشخاص ، وكلاهما أمي . ولولا مقاومة الدول لمحمد علي لاستولى على معظم العامر من ممالك افريقية وعلى أرض العرب في آسيا وعلى آسيا الصغرى من أرض الترك وعلى الروم ايلي وما وراءه من البلقان ولكان له الكلمة المسموعة على شواطيء البحر المتوسط وغيرها من الاوقيانوسات .

كان محمد علي بما خص به من نظر بعيد يعرف ان فتح الولايات العثمانية في آسيا ، ليس من الصعوبة على ما يتصور المأخوذون بالظواهر لأنه كان يقدر مبلغ قوتها الحقيقية اذا تصادمت القوى ، وقد حققت الايام حسابه فانه لما صحت نيته على فتح الشام أرسل اليها قوة من البحر وأخرى من البر بقيادة ابنه ابراهيم باشا ففتحت على أهون سبب ولو لم تقف دول اوربا في وجهه وتصده عن التقدم لفتح القسطنطينية وجعل دولة آل عثمان أثراً بعد عين . وتجلى في هذا الفتوح التي وصل فيها ابراهيم باشا الى كوتاهية أن الجيش القليل المجهز بالجهاز اللازم خير من الجيش الكبير العدد وفيه نقص في المعدات وفوضى في القيادة ، ولذلك كان الجيش المصري المنظم يومئذ أفضل من العثماني المختل .

والمزية الباهرة في هذا الفتح أن ابراهيم باشا ما اكتفى بالغلبة بالسلاح بل طمع فيما وراء ذلك بالنهوض بالديار الشامية المائلة الى الانقراض وسارع وأدخل فيها في بضع سنين جميع ما ينهض بها من أسباب المدنية الحديثة على أجمل ما تنظم دولة كبرى تأصلت فيها المدنية في دولة بكر ماشهدت الاصلاح منذ قرون .

ما كان من مصلحة البريطانيين يومئذ توسع محمد علي في الملك ولذلك لم تغمد السيوف في الشام مدة حكم ابراهيم باشا تحاول اجلاء جيشه وارجاعها الى الدولة الضعيفة صاحبتها القديمة فدأبت على تحريك من كانوا بالامس من انصاره مثل الدروز والنصيرية والموارنة . فقتل الدروز في اللجاه ووادي التيم مئات من جيشه . وكان ابراهيم لا يهدأ له بال يراقب العثمانيين في الشمال ويضطر الى مراقبة العدو الداخلي من الجنوب ، والانكليز والاتراك يبتاعون بالمال من يرون ابتياعه واستتباعه من الاكراد والتركمان والهوارة والنصيرية والدروز والموارنة .

وما حالت هذه الهموم السياسية دون ابراهيم باشا وما يرمي اليه من انشاء القلاع والجسور والمستشفيات والثكنات والخانات والفنادق وتجفيف المستنقعات وانشاء القنى لتصريف المياه القذرة في المدن وغيرها وترتيب المجالس الملكية والعسكرية وتأليف مجلس الشورى والمساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات يتمتع كل طائفة بحريتها وينظم الجباية والخراج ويبطل المصادرات ويقرر حق التملك ويوطد الامن وينشط الزراعة والصناعة ويعلم تربية دود الحرير ، فاستعادت اكثر القرى التي كانت على سيف البادية واقليم حوران وعجلون وحمص وحماة وغيرها عمرانها القديم . وما كان ابراهيم باشا ضنيناً بالمال ينفقه في الاصلاح ويدخر مافاض منه في الخزائن للطوارىء اي ينفق مال الشام في الشام .

قام ابراهيم باشا بكل هذا وحالة القطر السياسية غير مستقرة ، وامتد نشاطه الى جميع فروع الادارة يبني ويكثر البناء كأنه في ملكه الثابت الذي لاينازعه فيه منازع . وكان العثمانيون من قبل قضوا في القطر ثلاثمائة سنة لم يأتوا خلالها بعمل يذكر في باب التمدين ، وفي ايامهم لم يعمر طريق ولا ثكنة ولا مدرسة مهمة ، والمدارس والجوامع التي تنسب الى بعض ولاتهم في الحواضر عمرت باخراب المدارس والجوامع الاثرية القديمة وكان معظم مابنوه من الحصون من انقاض مصانع القدماء ، وسياستهم لم تبدل منذ احتلوا هذا القطر . تتقاضى الدولة الجبايات الكثيرة الانواع بطرق غير مشروعة

وتأخذ الشبان للجندية لتقتلهم في حروبها الكثيرة ، والامن ابداً الى الاختلال والارواح تباع ببيع السماح والشرع لاتنفذ احكامه الا على الضعفاء لان الاقوياء ومنهم الاقطاعيون لايطبقون من مواده الا مايروقهم ، والاقطاعيون اعوان الظلمة من الحكام الرسميين وكلهم على المظالم متفقون ولذلك شق عليهم حكم ابراهيم باشا لانه ساوى بين السكان وقطع على الاعيان طرق سرقاتهم ، فهم عضد للدولة العثمانية حتى تعود الى حكم القطر يحكمونه مع عمال العثمانيين الفاسدين ويتعاونون يداً واحدة على سرقة اموال الدولة واموال الرعية .

وكيف السبيل الى عودة العثمانيين الى هذه الديار وجيش ابراهيم باشا مانقص عن اربعين الف جندي منظم بنظام اوربا وبقيادة قائد حازم يعرف من اين تؤكل الكتف يسترشد برأي والده العظيم في المسائل المهمة . فكان كالمستقل في ادارته على ماتبين من الرسائل التي صدرت من محمد علي لابنه ابراهيم وبالعكس وفيها مثال من تلك الادارة الرشيدة . فاستخدمت انكلترا للوصول الى غرضها من اجلاء المصريين عن الشام جميع مالديها من قوة على يد القائم بكبر ذلك المستر وود السياسي المحنك الذي جاء سورية باسم مستشرق يرغب في درس اللغة العربية وارساوه الى بطريرك الموارنة فاسلمه الى احد رهبانه يعلمه ، فما هي الا ايام حتى رجع الراهب الى بطريركه يقول له ان الذي فوضت اليّ تعليمه ليس طالب علم ، بل هو يرمي الى مقصد سياسي على مايظهر فقال له البطريرك : قم بالواجب الذي عهدت اليك ولا تدخل في الفضول .

ورب قائل يقول وهل كانت اعمال ابراهيم باشا في الشام كلها سديدة فالجواب انها بالقياس الى اعمال العثمانيين عظيمة جداً وقد يغلط ابراهيم كمايغلط اعظم الرجال والغلط غير مأمون على من كان في مثل حاله . فمن اخطائه انه رخص لضباطه ان يتجروا وما ادري ان كانوا هم الذين جعلوه امام امر واقع فاضطر لاغماض الطرف عنهم وكان في ذلك الضرر على الرعية . ومن خطيئاته السياسية تنفيذ ارادة والده بتجنيد الشبان وكان عليه ان يقول له ان القوم غير مستعدين للتجنيد وانه تشق الجنديه عليهم والواجب اخذ البدل

النقدي بمن لايجب الدخول فيها . وقد اتخذ اعداء ابراهيم باشا من قضية الخدمة العسكريه مادة لحمل بعض العناصر على العصيان عليه والاشمئزاز من حكمه وكان في مقدمة من رفضوا الخضوع لارادته الموارنة والنصيرية والدروز وعربان جبل نابلس اما سائر الاقاليم فقد خضعت للنظام الجديد مرغمة .

كان حكم ابراهيم باشا في الديار الشامية سعيداً في الجملة ادركت الرعية الفرق بين حكم المصريين وحكم العثمانيين خصوصاً والمصريون اقرب الى الشاميين بطبائعهم ولغتهم . نعم كان حكم المصريين شديداً وبغير الشدة لايحكم شعب فسد كيانه وانحل في معظم مشخصاته واضعفت قرون استبداد مضت عليه قواه العقلية وحيويته الاقتصادية والعلمية . وكيف لقطران يسعد سعادة كاملة وقد اندمج في سكانه عشائر وقبائل ليس بينهم وبين الحضارة ادنى صلة وفيه اديان كثيرة وطرق صوفية غريبة . ولذلك رأينا من قاتلوا مع المصريين لاول الامر مغتبطين عادوا فانقلبوا عليهم بتأثير الدرهم والدينار . والوطنية لم تكن تعهد يومئذ في الشام ولا في مصر ، وكانت الوطنية مايريده صاحب القوة او الفاتح المتغلب .

وأكثر من ارتاحوا الى حكم ابراهيم السواد الاعظم من الشاميين سكان المدن والقرى وجمهرتهم من المسلمين (اهل السُنّة والشيعة الامامية) والمسيحيين ماعدا الموارنة . ولما صدر امر محمد علي الى ابنه ابراهيم بالجلاء عن الشام ودعه اهل دمشق بدموعهم آسفين على الأيام التي اراهم فيها من عدله ما هللوا له وكبروا . وذكروا ان المظالم بعد جلاء الجيش المصري ستعود الى سابق حالتها ، وان العثمانيين وان شاركهم الانكليز في حكم القطر بالمستر وود ومن استصفوهم على صورة غير ظاهرة لغير العارفين ليس في وسعهم ان يسيروا في ادارتهم على غير طريقتهم في الاهمال والاستخفاف بمطالب الشاميين وفاقد الشيء لايعطيه .

وننتقل الآن الى صفحة اخرى ذات معنى يفهم منه طرز ادارة ابراهيم باشا وهي حكايات تدل ايضاً على بعد نظره .

(١) ترامى اليه أن السيد أسعد البكري اتفق مع شريف باشا والي دمشق على بيعه مزرعته في قرية جرمانا فاستدعاه وسأله عن قصده من بيع ارضه فقال انه مضيق فاذا باعها تفضفض بثمنها وتبحبح في معاشه . فقال الباشا : تعرف أن شريف باشا صهري فانتقال ملكك اليه انتقاله الى اختي فأنصحك أن تعدل عن هذا البيع حتى لا تنكشف حالك بعد مدة عندما تسرف في الصرف ، واذا عصيت أمري وبعت ملكك أنفيك الى السودان .

(٢) شكت اليه امرأة فلاحة أن أحد جنوده اختطف من يدها علبة لبن وشربها ، فسألها هل تعرفينه قالت نعم ، فأمر بجمع الكتيبة كلها فحدجت المرأة عسكره ببصرها ، وقالت ها هو فقال لها : (ياولية) أنا الآن سأبقر بطن الجندي فاذا تبين انه هو شارب لبنك كان قد نال جزاءه والا فاني قاتلك به . فتناول الباشا النمشة - من سلاح تلك الايام - وقطع الجندي نصفين فسال اللبن .

(٣) اراد ابراهيم باشا أن يستصدر فتوى من علماء دمشق تخدم سياسة والده في نزع القطر من العثمانيين فاعترض كبير علمائها الشيخ سعيد الحلبي على صيغة الفتوى ونقضها من عدة جهات فاخفق القائد في الوصول الى غرضه وغضب وزاد في غضبه انه ما سبق للشيخ أن زار الباشا كسائر المشايخ كما هي العادة . فسأل أين يجلس الشيخ فقالوا له في الجامع الأموي وله غرفة فيه يقرىء فيها تلاميذه فتحين الباشا وقت وجود الشيخ في حجرته ودخل عليه وجلس فما التفت الشيخ اليه ولا قام اجلالاً له حتى أتم الدرس وهو يمد رجله ثم حول وجهه الى الباشا وسلم عليه سلاماً عادياً ولم يغير جلسته فاستاء الباشا من هذا الاستقبال البارد ، ومن الغد ارسل الى الشيخ صرة جنيهات فردها وقال للرسول : اني أشكر الباشا على عنايته وأرجو ان تقول له اني غنيٌّ ومن يمد رجله لا يمد يده . قال الباشا لخواصه لو قبل الشيخ صرة الدراهم لقتلته لاني اعرف عندئذ انه منافق ظاهره غير باطنه .

(٤) وشى واش بالسيد نسيب حمزة من الاعيان فنفاه الى عكا مطلق السراح على أمل ان يأتيه من يشفع به فيعيده الى بلده خصوصاً والوشاية ضعيفة فما تعرض انسان لهذه الشفاعة فاراد الباشا ان يجبر خطأه فاغتنم زيارته ثغر عكا وسأل عن السيد الشريف وعنده انه لا بد ان يخف للسلام عليه فيبلغه العفو عنه ولما لم يجيء الشريف للزيارة سأل اين يجلس السيد نسيب فقيل له في جامع الجزار وله فيه غرفة فقصد الى الجامع فلم يخرج الشريف للسلام عليه فسأل الباشا اين حجرته فقيل له هذه فقرع عليه الباب وخرج ابن حمزة فسلم عليه القائد سلام حب وعطف وقال له : أما اشتقت الى دمشق انا احب ان اراك هنـاك ، واصلح غلطه الناشيء عن التسرع باصدار امر النفي .

وله من ذلك قصص كثيرة لايزال اهل المدن والقرى يتناقلونها .

سألني الامير عمر طوسون (رحمه الله) اذا كان ما كتبته في (خطط الشام) من تأليفي في دور ابراهيم باشا بالشام هو صحيح كله فقلت له كله صحيح ما خرجت فيه عن تدوين التاريخ الحق فقد ادركت رجالاً ادركوا عهد ابراهيم وكانوا من المدركين فقصّوا عليّ ما سمعوه ورأوه ، ثم اني قرأت كل ما وصل الى يدي مما كتب عنه المعاصرون بالعربية والافرنسية ومحصت الروايات ، وهل أنا مصري حتى أجامل بما كتبت رجلاً من رجال بيتكم الملكي الكريم وأكتم الحق مراعاة للمصلحة ، فقال الأمير الحمد لله الحمد لله . بقي ان يقال هل كان من الخير ضم الشام الى مصر أم كانت الشام بعد استقرارها بيد المصريين تعود سيرتها الاولى من الاستبداد ، فأنا أرى أنها كانت تسعد بحكم محمد علي الكبير وحكم ابراهيم فقد شهدنا هذا بدأ باصلاح الديار الشامية من أول يوم رفع كابوس العثمانين عنها ، ولو اطرد الاصلاح لأصبحت الشام أرقى من مصر لاستعدادها الطبيعي لكل ضروب المدنية ، وربما كانت تكفي غائلة سلخ لبنان وشرقي الاردن من جسمها وتنجو من غائلة الغوائل واعني تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية تفصل بين جزيرة العرب والعراق والشام وبين مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

همسة في اذن الليالي

ألححت حتى انتخبك المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً له في حلب واشترطت عليك بصفتي رئيسه ان تجمع اعضاء الشهباء وتشغلهم بما ينفع العلم وينشر الثقافة ، فاعتذرت بان المال يعوزك فنزلت لك من موازنة المجمع العلمي عن عشرة آلاف ليرة سورية تنفقها في الوجوه التي يراها اعضاء حلب واجبة الصرف من طبع ونشر واقتناء كتب ، فماذا كان منك حتى الآن ؟ لم اسمع انك ألقيت أو أحد مواطنيك محاضرة ، ولا ان نشرتم كتاباً ولا أن عاونتم دار الكتب بما ينميها ، ويجبب الى شباب الحلبيين الاختلاف الى قاعاتها . اخذت لقب عضو المجمع واكتفيت بـه ، وقانونه يقصيك من عضويته اذا لم تقم بما اوجب عليك اما قانون الوجدان فأفعل من ذلك لمن ينصف . فان كنت مزمعاً ان تظل على حالتك التي درجت عليها منذ بضع سنين فما احراك ان تستقيل من هـذه العضوية حتى لا يخجل من كانوا وسطاءك وزعموا انك خدمت الوطن فكنت جديراً بهذا التشريف .

ثم اني أرجوك ان تنظر ملياً فيما تبعث به الى مجلة المجمع العلمي من مقالاتك وأن تقرأها على ارباب هذه الصناعة حتى اذا أقروك على ما كتبته تبعث به للنشر ومقالاتك في الحقيقة من النوع الذي لايمكن ان ينشر في مجلة كمجلة المجمع العلمي العربي لغموض في تراكيبها فهي أشبه بمقالات الزهراوي الحمصي والشربتلي المصري ، وأرجو ان تعرف بعد هذا ان العلم غير السياسة

آراء وأنباء

من أشد ما كان يؤلمني منذ أدركت مبلغ جهد الامم الغربية في القضاء على الأمية أن اشهد في اقليم من أقاليمنا جهلاً مطبقاً لا تصعب مداواته اذا قامت الحكومات والمحكوم عليهم يداً واحدة لتعليم الناشئة . ورأيت بعض النابهين أسسوا في حواضرهم جمعيات قصدوا منها تعليم من تجاوزت اعمارهم سن التعليم يدرسونهم في اوقات فراغهم من الليل ما يخرجهم من الأمية فيتعلمون القراءة والكتابة والحساب وبهذا الجهد الحسن انقذت عشرات الألوف من الجهل المطبق ، فلو قد كثر عدد هذه الجمعيات في كل بلد وأنشئت مدارس ليلية ونهارية في الأحياء والقرى لخففوا عن الحكومات بعض ما يقع عليها من عبء وتعاونوا كلهم على ما ينجي السكان من التواكل وذلك بان تأخذ الجمعيات على نفسها مراقبة مدارس الحكومة على نحو ماتراقب مدارسها نفسها فتكون الجمعيات الأهلية والحكومات النظامية كالشيء الواحد . والدول مهما بذلت من مال لنشر المعارف تبقى الى جانب القصور ان لم تشاركها الرعية وتدفع قسطها من هذه الخدمة الوطنية . واذا تم تعاون الحكومات والبلديات والجمعيات وساهمت كل منها بما يخصها من هذا الواجب لا تمضي سنون قليلة حتى يصبح الاهلون على جانب من التمدن الصحيح يفهم رجالهم ونساؤهم بعض ما لهم وعليهم .

والواجب حق الواجب أن تحبب المطالعة الى كل من يفك الحروف وذلك بوضع رسائل صغيرة توزع مجاناً على من يقرؤون ، وتكون موضوعاتها الاخلاق والزراعة والصنائع الزراعية واليدوية والصحة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع ، وحكايات تربي الملكات وتلقن الشجاعة والمروءة والوطنية . وتكون كتب الاطفال غير كتب البالغين تناسب مداركهم وتوفي بما تتطلبه الحياة منهم من المعارف وتكتب بعبارات سهلة معربة لا تعقيد فيها ولا ابهام

وفيها من الصور والرسوم ما يجبب النظر في صفحاتها لكل انسان ، تقدمها الجمعيات لكل من يستفيد منها بالمجان أو بمقابل قليل .

وقد رأينا من تعلموا التعليم الأولى والابتدائي ينسون ما تعلموه بعد سنين ويعودون أميين لاغفالهم تعهد ما تعلموا بالمذاكرة والمطالعة . وأهم ما تدعو اليه الجمعيات أن تعلم الفلاحين صناعات بسيطة يمكنهم معاناتها في بعض أيام العطلة ولا سيما في موسم الشتاء وفيه يزيد التبطل أكثر من المواسم الأخرى في جميع البلدان الزراعية فتصبح الصناعات بهذا مادة ربح في أيدي الفلاح ، وأداة جميلة لقضاء الوقت فيما ينتج لهم فائدة ، ويدفع عنهم بعض العوز ، ويحفظ لمجموع الأمة جانباً من ثروتها .

الأمية علة العلل في مجتمعنا رأيناً تأثيراتها السيئة في مصر لما انتشر الوباء الأخير فيها ، ولو كان القوم أكثر تعلما لما انفقت الدولة ما أنفقت من الأموال ، ولاأضاعت الأمة ما أضاعت بالجهل من النساء والرجال والأطفال

المؤلفون والملوك

حدثني صديقي الاستاذ حسن توفيق العدل رحمه الله قال : يوم كنت في برلين موفداً من وزارة معارف مصر لدرس علم التربية والتعليم سمعت أنه ظهر في ألمانيا مؤلف جديد ماكان من المشهورين قبل أن يؤلف تاريخ حرب الثلاثين سنة ، وما علم أحد بما شُغِل به سنين الا لما أنجز كتابه وطبعه . وأجمع الألمان على أنه كتاب ما أُلف في بابه مثله . قال وبعد أيام رأينا الامبراطور غليوم الثاني في مركبته والى جانبه ذلك المؤلف الذي بهر المانيا بتأليفه ، وهكذا أكرم العاهل العظيم المؤلف العظيم .

ومما يؤثر عن تيمورلنك من ملوك القرون الوسطى أن السعد التفتازاني

لما ألف كتاب المطول في علم البيان وعرضه عليه اعجب به وأمر أن تصنع منه نسخة نفيسة مذهبة وتعلق على باب شيراز ، دليلاً على أن تيمورلنك ومملكته يفاخران بعالم كالسعد . قام تيمور بهذا وهو على الأغلب لا يحسن العربية ولا البيان العربي ، وعلى الرغم مما كان عليه من ظلم وقسوة أكرم السعد هذا الاكرام ليقال انه يحمي العلماء ويقدر اعمالهم قدرها .

وجرت عادة الخلفاء والأمراء والوزراء في الاسلام أن يكرموا المؤلفين بالعطايا يُدرونها عليهم ليستدروا فيض قرائحهم فتنبعث الى خدمة العلم والأدب . ومن أرباب التواليف من جعل من هبات العظماء علة معاشه ، ومن عظماء الوزراء من كان لهم طبقات من المؤلفين يجرون عليهم الرواتب والجرايات . وكان أصحاب السلطان يعدون هذه المكرمات من واجبهم ، ويتنافسون في الاستئثار بكبار المؤلفين ، وبابواء أكبر عدد منهم في قصورهم . والملك الذي يكثر ببابه العلماء والشعراء يعد نفسه ويعده قومه من السعداء .

يقول جبون المؤرخ الانكليزي عند كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من ذلك أن انتشر ذوق العلم ووجد ان اللذة في تحصيله في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فارس وقرطبة

ومن عادة ملوك العرب في عصرنا أن يبادروا الى شكر المؤلف باللسان ان كان ممن يرخص له بمقابلة الملك ، واذا كان المؤلف بعيداً من الملك يشكره كاتبه بالنيابة ان كان المؤلف صاحب مكانة . والمؤلف الذي يفوز بشكر الملك يعد ذلك من دواعي الفخر له ولابنائه وأحفاده . أما رؤساء الجمهوريات فلا يعبأون بهذه الاعتبارات ولا يشكرون المؤلفين باللسان ولا بالقلم كأن الجمهوريات تقوم بغير الشعر والأدب كما قال أحد طواغيت السياسة .

أمية المشايخ

قوي الجهل في الولايات العربية على العهد العثماني والدولة ترغب في امتداد ايامه وتقوية أواصره لأنها تعتقد أنها تبقى حاكمة على العرب ما داموا جهلاء ، واذا تعلموا واستنارت عقولهم خرجوا عن حكمها . وساعد على نشر سياسة الجهالة من لا يخافون الله من ارباب المناصب الدينية الكبرى ، وما كان هؤلاء الا أرباب الوجوه الصفيقة من ورثة المناصب أو من ابتاعوها بالدراهم .

وتولى رئاسة العلماء في مدينة دمشق استاذنا العلامة سليم البخاري فشق عليه ان يشهد شرع الاسلام بأيدي الأميين الجهلة فبدأ باخراج السقيم من بينهم والابقاء على السليم منهم . وبدا للشيخ أسعد الصاحب وكان نشر كتباً ورسائل استكتبها بالأجرة ان يقنع شيخ العلماء بانه عالم ومؤلف فتأبط نسخاً من تآليفه وشخص الى مقام الرياسة ، فصادفه أحد اقرانه وهو على مستواه من العلم فسأله عن وجهته وعن الكتب التي يحملها فأجاب انه ذاهب الى رئيس العلماء ليطلعه على بعض مصنفاته . فقال له : أنا انصح لك ان ترجع من حيث اتيت انت وما تحمله من كتبك . فاني اخشى ان يفتح لك الرئيس ، وهو يعرفك معرفة جيدة ، صفحة من تآليفك هذه ويطلب اليك ان تقرأ له ، وانت لا تستطيع ان تتلو مقطعاً واحداً دون ان ترتكب عدة غلطات . فقبل المؤلف نصيحة زميله وعاد ادراجه .

ذكرت هذه القصة لما استعرضت تآليف بعض المحدثين من المؤلفين وكيف يحاول بعضهم ان ينفقوا على الامة ببضاعة مزجاة ، وينشروا سخافات وترهات ، ويساعدهم رخص الطبع والورق واعفاء الكتب من المراقبة . وما بلغ من فطنة الكثرة الكاثرة أن تفرق بين الجيد وغير الجيد مما تخرجه المطابع . وكان بعض شيوخ الأزهر في القرن الماضي لايحسنون من التآليف

شيئا ويستجدون زملاءهم تقاريظ لكتبهم قبل أن يشرعوا في تأليفها . فتنهال عليهم أماديح أقل ما يقال فيها انها شهادات مزورة (راجع فصل القول في تآليفنا من كتابنا اقوالنا وأفعالنا) .

ومما يسر ان التآليف التي صدرت منذ اول الحرب الأخيرة الى الآن أجود في الجملة من التي صدرت في العشر السنين التي تقدمت هذه الحرب . ومازالت تآليف الأذكياء تزيد على الأيام اجادة . اما التآليف السخيفة فهي كما جرت العادة أن تكون ولا يصدر عن السخيف الا السخيف والأسخف . والتافه مع هذا رائج والجيد كاسد ، ومن يميز بين الصنفين من التآليف مادام ذوق الجمهور منحطاً غير سليم ومما يغتبط به ايضاً ان بعض مانشر بعد الحرب من الكتب كان يقصد به الوصول الى غرض علمي أو ادبي أو اقتصادي أو سياسي وخفت الموضوعات الدينية ، وفيما ورثناه عن السلف الصالح غنىً عن كتابة كتب جديده في الشرع ، وأين اليوم من يكتب بمثل تحقيقها وتدقيقها .

ورأينا صدور بعض المؤلفين أخذت تتسع اليوم لسماع النقد على كتبهم ، وكانوا قبل ثلاثين أو أربعين سنة يتألمون من النقد والناقدين ، ويعدون قبولهم تصحيح أخطائهم اقراراً بجهلهم ، فكانوا يطعنون بالنقاد ويزيفون علمهم . ولك بذلك ان تحكم ان الذوق اخذ يرتقى بظهور هذه الطبقة المجودة من المؤلفين وعددها يزيد سنة عن سنة والسواد الأعظم منهم يؤثر اخراج مؤلفات قليلة مجودة ولا يسفّ الى معالجة الأبحاث التي سبق للاقلام ان تعاورتها ، والفرق ظاهر بين الكتب المؤلفة اليوم والمؤلفة قبل خمسين سنة

علم المال

يقول علماء النفس ثلاثة تحدو المرء على العمل : الخبز والحب والطمع . فليدّع بعضهم الرغبة في المال طمعاً ، وليسمه آخرون الطموح الى المجد فهذا مما لا يؤبه له . فليس من السعداء الحكيم ولا التقي ولا البطل ولا العالم ولا الشريف ، وما السعيد الا من له مال وله امرأة يحبها ويتمتع بصحة جيدة .

وعندنا ان السعيد من يحدد مطامعه ، ويرضى بما وصل اليه من المظاهر ، وما حصل عليه من مال ، وأن يكون آمناً في سربه مغتبطاً بقرينته قرير العين بأولاده .

لا تفرح لوقوع الشر حتى في بيت عدوك فانك لاتأمن سرايته الى بيتك .

تجنب التقية في بعض المواطن ، وعليك تضليل عقل من يحاول كشف خبيئتك ، واستدراجك الى الخوض فيما ينفعه ويضرك .

اتق مجالسة الأشرار واعمل على الا تسمعهم الا مبهات لايُبنى عليها حكم ، وتمويهات تضلل بها عقولهم .

قد تنحل المعضلات بتطاول الزمن ، وتسكن الحزازات والثارات ، وتضعف حدة الاحقاد والسخائم .

كلما تقدم الزمن يكثر الجنس الذي لايبالي بمايحدث للولى والعدو ، فتنحل روابط البيوت ، وتتراخى علائق حسن الجوار ، وينضب معين الرحمة من القلوب . ويوم كان الجار يهتم بجاره ، والصديق بصديقه ، والرجل بذوي قرباه كان الناس بخير أكثر من عهدنا هذا ، ما في ذلك شك . ولما كثر قول أنا ومن بعدي الطوفان دب التخاذل وشمل الضعف . ويقل ذلك ويزيد على قدر الاعتقاد بجوهر الأديان ، واسترسال الخلق في الكفر والالحاد .

تحجرت قلوب الناس اليوم وان دخلهم التمدن وكانوا بالامس مفطورين على الرحمة على قله حضارتهم .

اذا رأيت فرداً يصاب بمصيبة وليس حواليه من يواسيه فأيقن انه مامرّ في خياله يوماً ان يؤاسي انساناً . ومن لايهمه احد لايهتم له احد . واذا شهدت رجلا لايعطف عليه أحد فاعرف انه هو لم يعطف على انسان . واذا تجلى لك أن الاجماع كاد ينعقد على حب شخص فأيقن أنه هو تقدم ودفع ثمن هذه المحبة ، وعاد قومه يقابلونه عليها .

للمال زكاة وللجاه زكاة وللذكاء زكاة فاذا لم يؤد صاحب هذه الصفات زكاة مارزق من تلقاء نفسه يدب المحق فيما أنعم به عليه .

مادام جارك لايجد كفايته من القوت لاتعدنّ ماأنت فيه سعادة .

لاتأمل الخير ممن قدمت اليهم الشر ولا تغرنك ابتسامتهم فالبغضاء لاتنمحي من قلوبهم .

الابتعاد عن الاشرار خير دواء لينسوك .

اذا وقرت الكبير والصغير وقرك طوائف الناس .

لاتستمع الى حديث لايفيدك واقلل من نقد الخلق الا اذا كانوا ممن يهيمنون على المصالح العامة .

اذا طلبت رضا أبيك وأمك وأستاذك فقد حزت الكمال .

من قبيح العادات عادة استعارة الآنية والفرش والثوب ، ومن أقبحها استعارة الكتب المطبوعة فانها تؤخر نشر العلم وتضر بطابعيها ومؤلفيها .

لو كشفنا أخلاق طواغيت الملوك لكان لعنهم أقل مايجازون به .

كيف لا يخجل ابن اليمن ونجد والحجاز اذا شاهد اقطاراً عربية كالعراق والشام ومصر أرقى من بلاده في معظم شؤون العلم والمدنية .

ناصح الملك الغشوم يجلب لنفسه الكراهة والمقت .

قلّ في طبقة العمال من ينصح لسلطانه لانه وطن نفسه على العبودية امامه ، وليس في طبقة العبيد من يجرؤ على سيده .

من يكثر من تبديل الحرف ينتهي بالافلاس ، ومن يصاحب كل يوم

صاحباً جديداً لايبقى له صاحب حق يفزع اليه عند الشدائد .

من الاثرة العجيبة ان يطالبك بعضهم بان تكون له بوق دعاية ابداً واذا قصرت يوماً اكثر من لومك وعتب عليك كأنما يتقاضاك ديناً اسلفك اياه وهو لو حاسب نفسه حساباً يسيراً لتبين له ان ليس له عليك اقل منة .

اضحك من شح من يطالبونك ابداً بان تهدي اليهم وهم ماخطر لهم مرة واحدة في العمر ان يهدوك شيئاً ، يريدون ان تجود عليهم وهم يمسكون الامساك القتال .

روى بعضهم على لسان رئيس نزلت به محنة : أين من اطعمناهم لو كانوا كلاباً لعووا ولوكانوا قططاً لموا لم نسمع لاحدهم صوتاً ارتفع في الاحتجاج على ما حلّ بنا . وفاته انه لايرجى منهم ان يأتوا غير ذلك لانهم سفلة ومن يصطنع السافل ويعده خليلاً مخلصاً يرثى لضعف عقله ووضعه المعروف في غير اهله .

شهدت جيلين متناقضين من الناس احدهما يعتقد كل شيء والثاني ينكر كل شيء . الواحد الى الافراط والآخر الى التفريط . الأول مؤمن بكل الفروض والواجبات والنوافل يثبت ماصح وما لم يصح والثاني ملحد الالحاد كله ، وكفة الدين راجحة عند الاول ابداً وكفة الدنيا شائلة عند الثاني ، لايهنأ بال الاول والثاني الا اذا اقبل الناس على القول بقولهما دون بحث ولا نظر

بالامس كان الدجالون في الدين اوفر عدداً من الدجالين في السياسة واليوم زاد عدد الدجالين في السياسة على عدد الدجالين في الدين لان السياسة مما يهون الخوض فيه لا تحتاج الى رأس مال من درس وتعب وليس كذلك الدين .

إذا رأيت لفيفاً من العامة مجتمعين على أمر لا تدري ما هو أسرع خطاك لا تدخل في غمارهم ، فقد تدعى الى الشهادة في المحكمة فتضيع وقتك بين اهمال القاضي وتخلف الشهود والمدعيين .

لاتحرك عش الزنابير فانها توشك أن تقرصك وتؤلمك جزاء تهورك وفضولك .

لا تقدم على أمر تعتقد اعتقاداً جازماً أن الخطر فيه أكثر من السلامة فقد قالوا : « ليس المخاطر محموداً وان سلما » .

عجب بعضهم من أن من كانوا من أنصار الدولة الماضية عادوا فتقمصوا انصاراً للدولة الخالفة وما دروا ان السابقين ما كانوا مع الدولة القائمة إلا أدوات تديرها على ما تشاء وسيكونون كذلك في الدولة اللاحقة فهم طلاب عيش يتعبدون من يضمن لهم عيشهم لا يحفلون الأخلاق ولا الوفاء ولا معرفة الجميل هم عبيد من أطعمهم والممتنعون عن الدخول في أمر لم يسبق لهم أن دخلوا فيه هم من الشواذ والشواذ قلة .

قالوا ان الدولة الجديدة رضيت عن بعض رجال العهد البائد وكان الأجدر بها ان تعول على غيرهم من الفريق الذي لم ينصبغ بتلك الصبغة القبيحة فالجواب : كل دولة جديدة مضطرة الى استخدام بعض انقاض الدولة المنقرضة لأن الماضين على مافيهم من عوج وأمت يصلحون ان أخلصوا للاعمال أكثر ممن سيؤتى بهم وهم لاخبرة لهم ، والمجتمع يحتاج الى خبرة وتجربة وبيد صاحب الشأن أن ينحي كل ساعة من لم يسر على طريقته وينفذ رغائبه .

من تطال الى ارضاء النـــاس بحق وبلا حق يحتقره حتى من نالوا منه خيراً أكثر مما طمعت فيـه نفوسهم ، والشديد في الحق يكبر عمله حتى خصومه .

لا تألف من اشتهر بالكذب ولا تقبل حديثه ولو متفكهاً به ، وخير لك ألف مرة أن تخلو من أصحاب على أن تمازج الكذابين ، فالكذاب نار موقدة اذا تركت وشأنها تحرق المسكن والساكن .

اياك ان تغتر بتوبة من درج على أكل ما لا يحل له في شرع ولا عقل هو كالمرأة السوء يزيد فسادها كلما تقدمت في العمر .

في سير العظماء من أهل الشرق والغرب فوائد تتحلى بها النفوس ، أدم قراءتها تستفد علماً وخلقاً وتجارب وعبرة .

كثيراً ما أَلِمتُ بمن يقصد دور الامراض العقلية ليتفكه باحاديث المجانين كما اتألم من عشرة من تلذه عشرة المهوسين وارباب السذاجة والبلاهة .

لا تكثر من اصطحاب الخواص ولا تنقطع عن سماع احاديث العوام ، فعند الفريقين ما تتعلم منه وتستريح الى سماعه كالجد لا تحتمله النفوس ابداً فلا بد معه في الاحايين من دعابة وهزل .

بنيت المعتقدات الأخروية على التسليم فاياك ان تسلم بالمجهولات في هذه الدنيا كما عليك التسليم بمجهولات الآخرة فاذا كان في الاولى نجاتك فالتسليم بالثانية هلاكك . والسلامة ابداً في الاعتدال والتوسط .

رأينا من يكثرون من الصلاة اقرب الى الغش والخديعة ممن اقتصدوا في صلواتهم وليس الاسلام بالصلاة والصيام بل بالتحلي بالاخلاق الطاهرة والترفع عن الدنايا .

أقبح بكذبة يختلقها كذاب على من عرف بين الناس بالصدق .

من يعد الغضب للكرامة من التوافه هو أتفه التوافه ووضيع النفس يرضى بالذل .

من يختلق من الأكاذيب على خصمه ما ليس له أصل في غير مخيلته هو من السخفاء وإن تولى المناصب العلمية ودرّس وألف .

من ظن انه يسقط خصمه بالنقول عليه يسقط من الأنظار من حيث لا يدري .

من لا يفرق بين موقف الجد والهزل عدّه في المغفلين .

ما أسفت لشيء أسفي على عالم احرز مئة في العلم وكانت درجته في الأخلاق خمسة .

العلم صناعة يتقنها من جدّ والأخلاق فطرة لا تكتب الا لمن حسنت أصوله وفروعه .

قد تورثك الصراحة غضب بعض الخلق والصراحة خير من التمويه على أي حال .

ما أخطأت فراستي في المتعلمين من أبناء الطبقات الدنيا أُخرجوا من الجهل وما عروا من خشونتهم وخستهم .

في كتب المناقب من التخريف ما لا يصدقه صبيان اليوم فقاطعها كما

تقاطع كتب الكيمياء القديمة وكتب السحر والنجوم والطلاسم والجفر والتصوف.

ما لا يصدقه عقلك فانبذه وانبذ أهله لا تشغل قلبك بالترهات ولا بما وضعه ارباب الأهواء وما اختاقه أبالسة السياسة لاستتباع ارباب الغفلة والبلاهة.

ما كل ما كتب في الكتب ودوّن في الصحف مما وضع لنفع الناس، فكثير منه كانت الغاية من تدوينه تضليل العقول.

اطرح من خزانة كتبك كل ما تعتقد فيه الضرر على عقلك وعقل أولادك فالحشرة السامة تؤذي البدن السليم.

ما اكثر الكتب التي كتبها دعاة المذاهب الدينية والسياسية ولو صح ما قالوه لبدلت الأرض غير الأرض.

لولا ما في بعض ما روي عن لسان بعض المتصوفة من بحث الأخلاق لقلنا ان التصوف ما كان منه الا الاشتغال بالفضول.

لا تتصفح ما لا ينفعك من الكلام ولا تحفظ الا الجيد البليغ واختر من أسفار القدماء والمحدثين ما أجمع أرباب المدارك على استحسانه.

عجباً لمن بسط الله لهم في الرزق كيف يقترون على أنفسهم ولا يدركون أن الموت ملاقيهم وانهم لا يأتون الى العالم الا مرة.

ان أمكنك ألا تعامل صاحبك بمال فافعل فالاشتراك معه قد يفقدك صحبته والصحبة يجب أن تترفع عما يفسدها.

لو أعطى الغنيّ حق الله وحق السلطان وحق عياله وحق نفسه ما رأيت من يشكو الفاقة وما وجدت الشيوعية لها مستجيباً.

مما تطول له الحسرة ان الخاصة يعجزون عن ابلاغ دعوتهم الى العامة، والعامة يسمعون اصواتهم للخاصة كل ساعة.

مما امتازت به هذه المدنية الحديثة ان كل فرد يحاول أن يستثمر صاحبه انواع الاستثمار: يستثمر عقله ويستثمر ماله ويستثمر جاهه فاذا ما وصل الى بغيته ينسى أو يتناسى ما أُسدي اليه.

لولا الخوف من القضاء على المروءات والعمل على احياء غريزة اللؤم لدعوت جهرة الى الامتناع عن اسداء المعروف.

من احسنت اليهم واساءوا اليك اكثر ممن اساءوا اليك وانت لم تسوءهم.

لو ظفر الفقير بالغنيّ ما ابقى له قوت ليلة ، ولو كتب للمتخالفين في الاديان ان ينال فريق من فريق ما ابقى القوي على ضعيف .

من كان الخير في دمه زاده الدين كمالاً والفاسد في فطرته قلما يفيد من تعاليم الدين ولا مما كتبه علماء الاخلاق في كتبهم .

كان احد ساسة الغرب يقول ليست الصعوبة في حكم الطبقة الاولى ولا في حكم الطبقة الدنيا ، الصعوبة في حكم الطبقة الوسطى . وتعليل ذلك ان اهل الطبقة الوسطى يعرفون كيف يطالبون ويشاغبون وكيف يدخلون ويخرجون

لو فكر علماء الغرب في طرق ابطال الحرب كما فكروا في اسباب دوامها ما وصلت الانسانية الى هذا الحال المزعج .

اذا حللت السبب في فقر الفقراء تبين لك ان اكثرهم هم علة فقرهم .

لا يقف عمل الا من ضعف صاحبه واهماله اتخاذ الاسباب .

اذا اصاب الغرور انساناً كبر عليه فقد مات ، واذا اصاب دولة فقل انها دالت .

متى اكثرت من التواضع ظنك ارباب الرقاعة وضيعاً فكن مع من تلقى في حالة بين بين لاتتعاظم ولا تتصاغر .

قد يغتفر جنون العظمة فيمن كان اجداده على شيء منها ولا يغتفر في الوضيع الاصل الحديث النعمة .

ربات الشرف اكثر سواداً من الفاجرات والشريفة منها حدثتها نفسها بالخنا تدرك ان شرفها مثلوم من أول خطيئة ترتكبها .

لاخير في مجتمع لايكافح فيه الكذب كما تكافح الامراض السارية .

بأي وجه يقابل الكذاب من كذب عليه ؟

من العادة ان يمسك الناس عن نقد صاحب الشأن وهو في معظم سلطانه فاذا ماسقط اخرجوا له من مساويه الخمير والفطير . كأنهم كانوا يجمعونها

ايام عزته ليحملوها اليه صبره واحدة في محنته .

لو كان للخونة ضمير لانتحروا يوم ينكشف امرهم للملأ .

رجل الدولة الذي يسرق الالوف والوف الألوف موهماً انه في حل مما يأخذ هو اخس من قطاع الطريق .

لو كان من دأبوا على الاضرار بالناس على شيء من العقل لأقسموا ألا يضمروا شراً لاحد ولو في قلوبهم .

النظام صحة وهناء والفوضى مرض وتهلكة .

اذا أردت اختبار صداقة من تصادق اقصده في اقراضك مالاً ينجيك من ضائقة .

من خان سيده الاول كان حرياً أن يخون سيده الثاني .

السبب في أن العاطل في الوزراء وكبار رجال الدولة اكثر من الصالح ذاك الغرض الأعمى في اختيارهم .

من قضوا أيام شبابهم وشطراً من كهولتهم وهم يتجرون ويسمسرون ويبيعون ويدلسون لا يصلحون لشيء من ادارة الشؤون العامة فكيف بهم اذا تقلدوا الوزارة .

من أبشع العادات أن يتقدم أحد الاصحاب في المطعم أو المقهى أو المركبة أو الترام ليستأثر باداء ثمن ما أكلوا وشربوا واجرة ماركبوا فتراهم يتسابقون ويتدافعون ويحلفون الايمان المغلظة ، كل منهم يريد أن يكون صاحب هذه المكرمة دون رفاقه ، تشاهد ذلك في المدن والقرى كل يوم . ولو كان المبلغ الواجب اداؤه كبيراً لأحجم أكثرهم عن الدفع .

لو كان لسان الصاحب في غيبة صاحبه مثل لسانه في حضرته لتداعت دولة الرياء .

لو تفاهمت الشعوب حق التفاهم ما تيسر لقادة سياسة العالم أن يعلنوا الحرب ويعقدوا الصلح على هواهم .

لا تغتر بصحبة الاغنياء فالغني لا صاحب له الا ماله ، ينساك أو يتناساك ، ساعة مفارقتك اياه .

ثبت أن دني الاصل يبقى وأولاده أدنياء الى اجيال طويلة .

الفقراء اذا اغتنوا وحاولوا تقليد النبلاء في لباسهم وفرشهم ومسكنهم وحديثهم كالزنجي يكتسي ازياء الموصوفات بالاناقة من النساء .

لو اخذ الانتخاب الطبيعي حكمه في قومي فهلك ثلاثة ارباعهم وبقي الصالح للبقاء لما شكونا من جهل ولا أتينا من قلة تدبير ، وكان مجموعنا اذ ذاك افضل من مجموعنا الآن .

الكذب في العلماء اقبح اثراً منه في كل الطبقات فليتدبر العالم عاقبة كذبة يكذبها .

اقرارك بالحسن من صفات عدوك دليل على انصافك فاياك اذا غضبت عليه ان تعريه من كل ما خص به .

اذا اثنيت على أهل الفضل بما فيهم كنت قميناً الايغمطوك حقك من ثنائهم .

لا يخلو المرء من صفة تستجاد فيه فاعرف كيف تستخرج فوائده وتفيد من صفاته .

دامت دولة بني العباس بضعة قرون مع ظهور الضعف في كيانها منذ القرن الاول وذهبت دولة بني أمية بسرعة عجيبة على ما كان لها من اسباب القوة .

من بدأ حياته باعتقاد الخرافات لا يبلغ الشيخوخة حتى يكون مجموعة خرافات فاسأل الله السلامة من مداناة صاحبها .

لو أنكر كل عالم خرافة أو خرافتين ما بقي في العامة شيء يصح ان يطلق عليه اسم تخريف .

لو عريت معظم كتبنا القديمة من بعض ما شحنت به لظننتها مما كتبه أرقى علماء الغرب في هذا العصر .

ليس من شيمة الشريف أن يشمت بمصائب من لا يحبهم فالشماتة خلق الادنياء .

لو قام كل بواجبه في هذه الجمهورية الصغرى لعدت في ستين سنة في عداد الدول الكبرى .

بما جلب الويلات على الشرقي احتقاره كل شيء .

لو كان عمل العربي اكثر من ذكائه لما اضاع ملكه وانحطت حضارته .

من لم يتعارف اليك يوم عزه فان من حقك ان تبتعد عنه ايام ذله .

من خفة العقل ان يتكبر من صار له مال او جاه فالعاقل في هذه الحالات يزيد تواضعاً لاحتياجه الى الاستكثار من الانصار .

من اراد ان يعد في الحمير فليتكبر ما شاء .

مما اخرنا عن اللحاق باهل الحضارة الحديثة ان كل انسان يعفي نفسه من الواجب عليه ويلقي على غيره كل التبعات .

لو امكن البشر حذف وجبة واحدة من طعام كل يوم لسقط معدل عمله الى نحو الثلث .

الشدة في الاصلاح

من يعد نقد الاخلاق بما لا يروق المنتقدين غيبة وتعييباً هو ولاشك من الجاهلين بما تصلح عليه المجتمعات وتفسد . ومن حكمت عليه حنبليته بالسكوت عن النقائص لايجوز ان يقدح بمن يجب القدح فيه فهو ارتجاعي معطل يسره ان يرى قومه في عماية وغواية . وضالّ مضلّ لايدرك حكمة الأديان والشرائع من يحبب الفوضى الى الخلق ويحاول ارجاعهم الى الجاهلية الاولى ، وترك كل واحد ومايختار يكذب ويسرق ويعتدي ويرتكب الموبقات عامة . وبعد فماذا كانت حال الانسانية ياترى لولاخوف الضعيف من القوي ، وخشية الشقي من سلطانه ، وحذر المتلاعبين من كشف مساوىهم . لاجرم أن من يذهب الى اقرار كل أحد على هواه يعد مشعبذاً ممخرقاً .

دونا في هذه المذكرات بعض آراء في الاصلاح استدعاها المقام ، معتقدين انا لانصل الى تزيين الحسنات الا اذا حللنا السيئات بكل ما فيها من قبح وشناعة ، وانحينا على من يعبث بحقوق الجماعة اعتقاداً منا بان ذلك اللص الذي دللنا عليه لو كان عمله لايتعدى الا نفسه لطويناه على غره ،

اما وسيئاته تتناول الامة فنحن لانبالي بمن يجادلنا فيما لاسبيل الى الجدال فيه ، وشأننا معه شأن الجراح يقبض بيده على المبضع يشق الجرح النغّار لا تأخذه شفقة بصاحبه أو يخرج من جسمه المادة القتالة .

واي سخف اعظم من سخف من يريدنا على ان نعد الحق والباطل سواء ، ونلزّ الصالح والفاسد في قَرن واحد ، ونحن نعتقد انه لن يستوي الاصلاح على ساقيه ان لم يضرب المخربون على رؤوسهم بالمعاول الثقيلة .

تأذى بعض من وجهنا اليهم كلامنا بتلاوة ما كتبنا ، وما استطاعوا ان يردوا على ما غاظهم من فضح سيئاتهم ، وتململوا وتهامسوا بينهم لهذه الحرية التي كشفت بها اسرار من كانوا يطمعون في ان يسكت عنهم . وحاول بعضهم ان يرد علينا فيما كتبناه في بعض الصحف الرصينة فقال له صاحبها ان مؤلف المذكرات نشر كتابه باسمه فهل انت مستعد ان تزيل باسمك النقد عليه ؟ فقال : لا

ولم يرض بعض السياسيين خاصة عن بعض ما كتب لانهم في العادة يؤثرون التمويه ويتعلقون بالكتمان ولا سيما فيما فيه تجريحهم ، وقد عري بعضهم من صفات الخير . ولقد ودّ بعض الاذكياء لو صرحنا باسماء من عرضنا لهم ، وهذه الطريقة غير مفيدة لانا نقصد بما كتبنا العبرة والتعليم لاالتشفي والتشهير . وفي طي الاسماء شيء من الحكمة رحمنا به من سددنا الى عيوبهم سهامنا ، وحملنا اليهم ما يرجى منه لهم بعض الصلاح .

وترامى الينا وهذا ما كنا نرجوه أن أبناء التربية الحديثة من الشبان المتعلمين هللوا لما وقفوا عليه هنا من أفكار قلما عهدوا احداً يجسر على تدوين مثلها ، وتزغموا ان رأوا حملتنا صادقة على الظالمين والمخربين . والمقصود على كل حال فائدة الناشئة ، اما من دب الهرم في أجسامهم وعقولهم فاكثرهم لا يرتاحون الا الى من يزين لهم ما أتوه ، وان كان من القبح بمكان لا ينكره عاقل .

ربما وقعت لنا هنات كان الأجدر ان يسلم منها كتابنا ، وما السبب فيها الا بعض من ادلوا الينا بمعلومات وَهِموا فيها ، ومن ذا الذي عصم

من الخطأ ، والاجتهاد يختلف في الحكم على من اشتركوا في معاناة المصالح العامة اختلافه في انصافهم على ما يوجب الحق ، ويكفي المؤلف وهو يفيض ، في مسائل متشعبة ، ان يحمل الى قرائه ما خبره بنفسه .

مضت اجيال ما كان ارباب المدارك يجسرون فيها ان يقولوا شيئاً في انكار الظلم ولا ان يذكروا الفاسدين باللسان ولا بالقلم لا بالتصريح ولا بالتلميح ولو قيضت للامة طائفة تحسن السلوك الى طريق الاصلاح ما ظهر اليوم من يستحل الاغضاء عن السيئات ، ومن اجل هذا لا نكاد نجد مؤلفاً اجرى قلمه بهذه القسوة ، ومنهم من فضل التقية على مضض مخافة الا يظفر بناصر يحميه ، والقانون قد لا يرد عنه اعداء الحرية .

ربما قال من دأبهم الاعتراض على كل شيء ، والاستهانة بكل وهل يستحق انكار ماتنكرون كل هذه الولولة ، والعارفون في كل قرن ماقصروا في تقويم المعوج وما انجلت حملاتهم الا عن نتائج ضئيلة . الامر كما قلتم ايها السادة ومن ادعى ان كل حق يظهر اثره حين الدعوة اليه ، وقد لا تجنى النتائج بقدر ماقدر لها ، واذا نفذ بعض هذا الكلام عُدَّت الدعوة ناجحة . اما نحن فواجبنا ان نجهر بما نوقن نفعه وليس علينا ضمان النجاح ، كالطبيب لا ينقطع عن مداواة مريضه ولو كان الأمل في شفائه واحداً في المئة .

فهرس الجزء الثالث

من المذكرات

صفحة	
٦٥٩	الملكية ام الجمهورية
٦٦٢	مجالسنا النيابية
٦٦٥	النصح الخالص
٦٦٧	اللغات الغربية في الشرق
٦٦٩	ضياع الفرص
٦٧١	تعادي الأسر
٦٧٢	صراحة العلماء
٦٧٤	الحنبلية
٦٧٦	اختلاف الشرقيين
٦٧٧	الدعاية للفضائل
٦٧٩	المعلمة العربية
٦٨٥	الارمن وارتحالهم
٦٨٧	مساجلة صديقين
٦٩٨	الزواج بالاجنبيات
٧٠٤	المرأة العربية
٧٠٤	الشيوعية في الشرق
٧٠٧	فوضى المجتمع
٧٠٨	بلاهة

صفحة	
٧١١	الحزب السوري
٧١٣	اصلاح الاخلاق
٧١٦	جمعية المقاصد الخيرية
٧١٩	من آراء شيخ المصلحين
٧٢٢	موضع عجب
٧٢٤	المدنية الحديثة
٧٢٦	طبقات الناس
٧٢٨	الشيخ طاهر والسياسة
٧٣٢	الصغار والكبار
٧٣٣	فساد الطرق
٧٣٦	فرنسا في شمالي افريقية
٧٣٨	اقوال معسولة
٧٤٠	أهل السنة والشيعة
٧٤٦	بيني وبين الاستاذ الخوري
٧٥٣	مدرسة الجمال
٧٥٤	اصباغ النساء
٧٥٧	سخافة مؤرخ
٧٥٨	حوليات مصر

صفحة	
٧٥٩	تميز الفقير
٧٦١	اليهود في فلسطين
٧٦٢	اللحى والشوارب
٧٦٤	الجمع بين الثقافات
٧٦٧	العيار العالي
٧٧٠	رحلة الى المدينة المنورة
٧٩٠	بطء الادارة
٧٩١	اسقاط المجمع العلمي
٧٩٣	لانعاش اللغة العربية
٧٩٦	الكاسب حبيب الله
٧٩٧	السكوت من ذهب
٧٩٨	الالقاب والرتب والاوسمة
٨٠١	شاعر المهجر
٨٠٣	شؤون
٨٠٦	الدواء الناجع
٨٠٨	خزانة عظيمة
٨٠٩	الوطنية العربية
٨١٠	سرقة الآثار
٨١٢	العلم يغني
٨١٣	الصحف والكتب
٨١٥	الصداقة والسياسة
٨١٧	الدجل الديني
٨١٨	الجامعة العربيه
٨٢٠	الكتب المقروءة
٨٢٢	ذكريات الغربيين

صفحة	
٨٢٣	تحضير العشائر
٨٢٤	كثرة الكلام
٨٢٥	غلط كبير
٨٢٧	احسان واحتكار
٨٣٠	آغا خان ونظام حيدر آباد الدكن
٨٣١	الجهل في القديم والحديث
٨٣٥	كلام سديد
٨٣٦	الاونيسكو
٨٣٧	رجال الوزارات
٨٤٠	عشرة المتماثلين
٨٤٢	معلمة الاسلام
٨٤٤	اضله الله على علم
٨٤٥	المؤيد والمقطم
٨٤٦	اكرام العرب
٨٤٧	عقول مخربة
٨٤٨	المسلمون يتعلمون
٨٥٠	عرش غريب
٨٥١	باسم الدين
٨٥٢	الاخوان المسلمون ثائرون
٨٥٣	الاشتراكية في مصر
٨٥٦	حديث النعمة
٨٥٧	طبقات الوزراء
٨٥٩	حسنات الازهر
٨٦٠	عذر أقبح من ذنب

صفحة		صفحة	
٨٦١	الكل مسؤولون	٩٠٢	حزب الكتلة
٨٦٣	هلال رمضان والعيدين	٩٠٥	بطل دمشق
٨٦٤	دمشق	٩٠٦	سياسة رئيس
٨٧٠	اعمال الاداريين	٩١٠	فاجعة فلسطين
٨٧١	رأي عادل	٩١٤	عدم التوفيق
٨٧٢	بقايا الطرق	٩١٦	اديبة دؤوبة
٨٧٣	الفقهاء وكسوتهم	٩١٧	ملوك العرب
٨٧٤	السواد الاعظم	٩١٩	العلامة كرينكو
٨٧٦	الاستعمار البريطاني	٩٢١	غلو الشرقيين
٨٧٧	ذكرى العظماء	٩٢٤	جمود العرب
٨٧٨	يسرقون ولا يدرون	٩٢٦	المطالبة المعقولة
٨٧٩	حكمة حكيم	٩٢٧	الحكم ملح الارض
٨٨٠	وقعة سوداء	٩٢٩	نحن والامم
٨٨٠	اخلاق المربين	٩٣٢	تمويه الحقائق
٨٨١	حظ الكتاب العربي	٩٣٤	الدرر الكريمة
٨٨٣	الغنى في مصر	٩٣٦	نبوءة عاقل
٨٨٤	عداوات البيوت	٩٣٦	آكل الحرام
٨٨٤	الرشوة والتنسيق	٩٣٧	طلاب المدارس
٨٨٦	سخف العادات	٩٣٩	الحسد على المنصب
٨٨٨	المؤلفون السارقون	٩٤٠	التعايشية
٨٨٩	عمى الماديات	٩٤٢	اذا جد الجد
٨٩٠	نهضة الشام الاخيرة	٩٤٣	العداوات الموروثة
٨٩٧	الثورة المباركة	٩٤٥	داهية السياسة
٩٠٠	الدواعي الى الثورة	٩٤٨	القوى الضائعة

صفحة	
٩٤٩	المسألة الاجتماعية
٩٥٢	سويسرا المحبوبة
٩٥٤	صناعة الفنادق
٩٥٦	الاسخياء والاشحاء
٩٥٧	عمل نافع
٩٥٨	دار الكتب المصرية
٩٥٩	من اغنى العربية
٩٦٠	كثرة الاصحاب
٩٦١	الباب المفتوح

صفحة	
٩٦٣	في عالم الاحلام
٩٦٩	ابراهيم باشا في الشام
٩٧٥	همسة في اذن الكيالي
٩٧٦	آراء وانباء
٩٧٧	المؤلفون والملوك
٩٧٩	امنية المشايخ
٩٨١	علم الحال
٩٩٠	الشدة في الاصلاح

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الرابع

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
« المتنبي »

١٣٧٠ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٥١ م

السياسة في مصر

قال لي أحد أصدقائي من أعيان المصريين وعلمائهم يوم نالت مصر استقلالها ببعض القيود : ليت من منحونا هذا الاستقلال تريثوا عشر سنين أخرى ريثما تنضج تربيتنا السياسية ونستعد الاستعداد المطلوب .

رأي قد يستشم منه بعضهم رائحة الغرام بحكم الأجنبي ، وليس قائله ممن يرمى بانحلال الوطنية وقلة العلم والمعرفة ، وغاية مايوجه اليه أنه لم يمارس السياسة العملية ، وان علمه كان أقرب الى الكتب والدفاتر منه الى درس التقارير والأضابير ، ولعل حكمه هذا منبعث من معرفة النقص في اخلاق بعض مواطنيه وضعف تركيبهم السياسي يوم اعلان الاستقلال .

كان صاحبي يعرف أن الاستقلال ينقاضى مصر جهداً حتى تعتاد الحياة النيابية ، وتتذوق طعم الحكم الدستوري ، ذلك لأن الاُمية كانت غالبة على القطر ، ويبعد اليوم الذي تزول منه ، ومع الاُمية يتعذر تطبيق الأساليب الحرة في الحكم . وكان يعرف الى هذا أن بعض من كانوا يتولون الأمور من المصريين قد أفسدهم حب الانتفاع من الغريب ومصانعته حتى أصبحوا فئة لاتؤمن على شيء . أما الفريق المتفائل فيدرك أن النقص لا تسلم منه حتى الاُمم العريقة في الحكم النيابي ، ولا بدّ من مرور زمن حتى تنشأ طبقة راقية تعرف ما لها وما عليها .

بعد أربعين سنة قضتها مصر في نزاع شديد مع المحتل لم يسعه الا أن يحلّ وثاق المصريين ، فأصدرت بريطانيا العظمى التصريح المعروف بتصريح ٢٨ فبراير (١٩٢٣) واشترطت فيه أن تبقى مسيطرة على طرق مواصلاتها ، وهي تدفع عن مصر كل اعتداء أو تدخل أجنبي ، وتحمي مصالح الاجانب وتحتفظ لنفسها بالسودان ، وبذلك رفعت الحماية عن مصر فأصبحت دولة مستقلة ذات سيادة .

وظهرت مصر في عهدها الجديد بمظهر من التعقل ، وسنت لها دستوراً اقتبسته من أحدث الدساتير ، وأخذت ترتب أمورها وتلمّ شعثها ، وبدأ صوتها يسمع في الاندية السياسية ، وأثبتت في مواطن كثيرة استعدادها لممارسة الحكم بدون مراقبة أجنبية ، ونبغ فيها رجال يدركون كساسة الغرب ، كيف يطالبون بحقوق أمتهم ، وأنقنوا في حقبة قصيرة ما تعلمه رجال الغرب في الزمن الطويل .

وما كان هذا الاستقلال محض منحة تفضلت بها انكلترا على مصر ، بل كان فيه شيء من معنى الرجوع الى الحق ، واعطاء وادي النيل بعض مطالبه . وما فتىء المصريون منذ سنة ١٨٨٢ ، وهي سنة الاحتلال ، يطالبون بحرية ديارهم ويغلون الثمن في الوصول اليها ، يلحف أعاظم رجالهم في تلمسها بالطرق القانونية فيسجنون ويشرّدون ويغرّبون ويعاملون معاملة اللصوص والقتلة لا معاملة وطنيين شرفاء يطالبون بفك أسر بلادهم من يد المعتدي عليها . وعلى كثرة ما لقي رجال مصر من عذاب السلطة المحتلة ما يئسوا ولا أحجموا واستسهلوا كل صعب في سبيل تحقيق امانيهم . وكان الشباب يؤلفون الجمعيات السرية وينوعون أساليب الدعاية لانقاذ وطنهم ، وكثير منهم تركوا مدارسهم وما عادوا اليها فساء مستقبلهم ومستقبل بيوتهم في سبيل مصلحة بلدهم . وقام معظم الطبقات بدعاية واسعة في الصحف والمجتمعات والاندية في مصر وخارج مصر ليقنعوا العالم بعدالة مطالبهم . ومن لم يخدم مصر بقلمه وجرأته وخطبه خدمها بماله . فأنفقت في هذه السبيل ملايين من الجنيهات ، والقوم يعتقدون أن كل مابذلوه هو بعض مايجب عليهم . واشتركت في هذا الجهاد الاكبر جميع طبقات المصريين ومنها النساء المثقفات وبنات السراة .

وكانت مصر تثور من حين الى آخر ، وتجهر بالذي تثور من أجله ، وتقدم أعزّ الضحايا من زهرة أبنائها ، ويظهر الشباب المثقف ، وبعضهم من أبناء النعيم أهل الرفاهية والغنى ، بمظهر من الوطنية يفاخر به . وكان من أبناء تلك التربية النـــاعمة من يغتالون كل مصري وقع في

نفوسهم أنه يخون قضية مصر ، كما يغتالون بعض رجال الاحتلال ممن يعتقدون أن في اهلاكهم عبرة لغيرهم ، حتى ترجع دولتهم عن تشددها في اعطاء مصر حقها .

واستعمل الانكليز أقصى الشدة لصد المصريين عن المضي في مطالبهم ، وبينما كان الوطنيون عزلا من السلاح كانت الحامية تطلق النار على الشعب فيتلقاها بصدره صابراً محتسباً . وما حدث في ثورة سنة ١٩١٩ وفي غيرها من الثورات كان برهاناً جلياً على أن الانكليز يقمعون ثورة من يناصبهم العداء بشدة بالغة لا هوادة فيها . وقد استعمل الثائرون المصريون العنف في أكثر مظاهراتهم . وتحملت الحكومة المصرية الغرامات الباهظة لمن قتلوا من الانكليز ، فخسرت مصر من مادياتها وربحت بمعنوياتها ربحاً أظهرها أمام الامم الراقية في مظهر أمة متمدنة لا تنام عن حقها ، وتفادي بكل عزيز للابقاء على وطنيتها وقوميتها .

لا تنجح الثورات على الاكثر ، فثورة عرابي أخفقت لأنها أسفرت عن احتلال الانكليز مصر ، وثورة سنة ١٩١٩ نجحت لانها أدت الى تصريح ٢٨ فبراير . وكان في مطالبة مصر باستقلالها اعتدال وكياسة ، يراوح المفاوضة مع المحتلين أناس ان اختلفوا في أحزابهم فما اختلفوا في تحقيق غرضهم الشريف وهو خلاص وطنهم من يد الغاصب . دأبوا على المطالبة وما فترت لهم همة ، وكانوا أحياناً يعلقون على الزمن تحقيق رجائهم في حل مشكلتهم المعقدة . وكان منهم من يتلطف في الطلب ، ومنهم المتشدد في شروطه ، ومنهم من كان في حالة بين بين . وكلهم يطالب بالجلاء ، وهو مدرك أن خصمه ضخم لا سبيل الى استخلاص شيء منه بالقوة ، وكان المفاوض المصري اذا لم يصل الى ما يريد من المفاوض البريطاني يحوقل ويسترجع ولا يقطع أمله من بلوغ بغيته بمعاودة المفاوضة .

كانت حجة البريطانيين في مشروعية الاحتلال اعادة الامن الى نصابه ، وتوطيد عرش الخديوي ، والاشراف على ديون الدول ، وكانت بلغت سبعة وتسعين مليون جنيه ، منها ماهو لانكلترا . وكان الانكليز من أول

يوم يدعون أن احتلالهم موقت ؛ ولكن طال أمد هـذا الموقت حتى صدق فيه المثل الافرنجي « لاشيء يدوم كما يدوم الموقت » .

وفي الحق أن هذا الاستقلال الناقص أسفر عن فوائد عظيمـة لمصر ولغيرها فأصبحت تقدم وتؤخر في سياسة الشرق الأدنى ، وكان لهـا الشأن الاول في جامعة الدول العربية السبع (مصر وسورية ولبنان وشرقي الاردن والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن) .

ومن الطبيعي ان تكون الصدارة لمصر بين الدول في هذه الجامعة ، لألفها النظام منذ عهد محمد علي الكبير ، ولأن لها من أرضها ما يضمن لها القوة ويمتعها بالحياة على ما تتمتع بها الممالك الكبرى ، ولأن أهلها كانوا من أسبق الأمم العربية الى معاناة السياسة والأخذ بالمدنية الحديثة ، ولان لها مركزاً ممتازاً بين الممالك العربية ، وتعد لاعتبارات كثيرة برزخاً بين المشرق والمغرب ، وهي بمجموعها أرقى الممالك العربية وأكثرها سكاناً

واذا لم توفق مصر حتى الآن الى تحقيق رغائبها في الاستقلال الكامل فما ذاك لقصور منها في اتخاذ الاسباب ، ولا لضعف في سياستها ، وما السبب فيه الا أن الانكليز يخافون ان رفعوا القوة العسكرية من الترعة وردوا السودان للسودانيين والمصريين ، أن يكون من ذلك اختلال مواصلاتهم . وأصحاب السلطان في مصر يؤكدون أن جيش مصر قادر على حماية الترعة من كل اعتداء أجنبي .

ان ما خافه صاحبي الحصيف على مصر في طورها الجديد لئلا تسقط فيما لا تحمد عقباه هو اجتهاد منه ساقه اليه اعتقاده بأن ما سيجري قـد يحمل خيراً وشراً . وهو يتفادى الشر ولا يحب مناجزة دولة لا يصطلي بنارها . أما مصر فما أغمضت عينها عن هدفها الأسمى منذ ثماني وستين سنة الى يوم الناس هذا ، وتتحين الفرص لمطالبة انكلترا بوعدهـا الذي قطعته على نفسها بالجلاء التام ، وامتاع مصر باستقلالها الحالي من كل قيد .

عتاب أحباب

عتب علي الاستاذ ماسنيون لطعني في المذكرات باستعمار فرنسا ، ونعي على ظلمها المسلمين في شمالي افريقية ، وعجب أن ختمت صداقتي مع دولته بهذه الحملة المنكرة التي ما كانت تتوقع مني . وأنا أيضاً آسف أن يضطرني ظلم الظلمة الى استعمال هذا اللسان مع فرنسا ، خصوصاً وأنا أحبها ، وأحب شعبها ولغتها وأدبها وعلماءها ، ولي منهم أصدقاء أباهي بمحبتهم ، ولا أنسى لطفهم ووفاءهم ، وفي مقدمتهم العلامة ماسنيون .

وأنى لي أن اختار السكوت عن أعمال الفرنسيين في بلاد الاسلام ، والعالم المتمدن ، ومنهم بعض أهل فرنسا ، تألموا يوم ضرب جندهم دمشق ، وخربوا دار ندوتها ، وكانوا تحينوا وقت انعقاد مجلس النواب فقذفوه بحممهم ليقضوا على المجلس ومن فيه ، دع ما أتوه من الفظائع في سائر مدن هذه الديار ، وكل ذلك ليكرهوا سورية على قبول معاهدة تنافي مصلحتها . ولا أعرض هنا لما ارتكبه جيشهم في الثورة السورية ، فقتلوا الابرياء في بيوتهم وحقولهم وفي الشوارع والساحات ، وخربوا بقنابلهم وقذائفهم جزءاً مهماً من مدينة دمشق ، ودكوا كثيراً من معالمها التاريخية ودمروا قراها وأريافها ، فكانت الخسارة عظيمة لا تعوض .

سار الفرنسيس في حكمهم المسلمين على خطة واحدة في الظلم ، لم يغيروها منذ هبوا يعتدون على الشعوب الضعيفة ، يزهقون أرواح السكان بلا رحمة ، ويستصفون أرضهم بغير الحق ، ويمنعون التعليم عنهم ليبقوهم بهائم في صور آدمية . ومن هنا أتت كراهية المسلمين للاستعمار الفرنسي ، ولعنهم زبانيته في السر والجهر . ومتى أحب المظلوم ظالمه ؟ ومتى صفا قلب المستعبَد لمستعبده ؟

خالفت فرنسا في الجزائر أبسط قواعد الانسانية ، منذ وضعت قدمها فيها ، وكانت سياستها من أول الفتح الى أن خضع لها القطر خضوعاً كاملاً تدور على نزع الأملاك من أصحابها ، واعطائها من لا يحسن استثمارها من الفرنسيين ، ارتكبوا لتحقيق هذا الغرض من انواع الظلم ما ترتجف الأقلام من كتبه .

وما أتاه الجنرال بليسيه من اهلاك قبيلة بنسائها وأطفالها حرقاً بالنار داخل الغار الذي التجأوا اليه ، يشبه ما أتاه الجنرال اوليفاروجه في دمشق يوم ارتحالهم عنها في العهد الاخير . حقائق لا يجهلها السيد ماسنيون فيما أحسب ، وليس هو بحمد الله من المكابرين .

وما قول صديقي أيضاً في آخر وقعة لمستعمري أمته في الجزائر وهي الفتنة التي دكوا فيها احدى وأربعين قرية (تموز ١٩٤٥) لاتهام أهلها بقتل بعض الأوربيين ، فاهلكت السلطة في الحال ستين رجلا من سكانها رمياً بالرصاص ، انتخبتهم على ما اتفق بلا تحقيق ولا محاكمة ، ودمرت قراهم بالطائرات من الجو والوحدات البحرية من البحر ، وقدر عدد من قضوا بهذا الطيش الاستعماري من ١٢ الى ١٥ الف (وفي رواية ٢٥ ألفاً) هذا اذا فرض أن نصف السكان اعتصموا بالجبال (ص ٧٣٧ ج ٣ من المذكرات) .

رأى المستعمرون في هذه العقوبة الجائرة فرصة لابادة جانب من الجزائريين ، ولو كان مقصدهم التأديب واحقاق الحق لسلموا المتهمين الى القضاء وأخرجوا الفاعلين من بين هؤلاء الألوف من الأبرياء ، ولكن الاستعمار الفرنسي قام في كل عصوره على الظلم ، وليس مستعمرة القرن العشرين في بغيهم أقل من مستعمرة القرون قبله .

وآخر ما نقله الينا البرق من أخبار استعمارهم المقوت ما كان يوم ٣٠ حزيران ١٩٥٠ في تونس وقد أدى سمو بايها صلاة الجمعة في المسجد الكبير فاجتمع المسلمون يحيونه ويطالبون باستقلالهم ، فما كان من السلطة

الا أن أمرت الحامية بمهاجمة المسلمين داخل المسجد وخارجه ، وأخذوا يقذفونهم بالقنابل المسيلة للدموع ، ثم انقضوا عليهم بمدافعهم الرشاشة فسقط مئة وعشرون قتيلا ، عدا الجرحى ، في باحة المسجد وأمام بابه وفي الساحة الواقعة أمامه ، وصرع عدد من النساء والاطفال برصاص مسدسات الجند .

ومن غريب ما أتته حكومة تونس المستعمرة في تطاويس ابلاغها مؤخراً قبيلتي الطرائفة والمخالبة وجوب قلع اشجارهم واخلاء أراضيهم المجاورة لليبيا ، واعتقلت أئمة المساجد واكتظ معتقل تطاويس بالوطنيين الابرياء ويجري الآن تعذيبهم والتنكيل بهم ، واجبارهم على الاعمال الشاقة وحمل القذارات ويتركونهم بدون طعام .

أدون هذا والجيش الفرنسي المحتل في مراكش يضرب بمدافعه وقنابله أبرياء المراكشيين ، وسلطانهم شبه معتقل ، وقد سلب حريته وحيل بينه وبين رعيته ، لان امته طالبت باستقلالها . ويكفي ان يجري اسم الاستقلال في الألسن حتى تزهق أرواح المئات والالوف من الوطنيين . والى ساعة نشر هذا الفصل لم تعلم حقيقة ماارتكبه المستعمرون من ضروب الهمجية والقتل الذريع . وقد سبق لهم في شهر نيسان من سنة ١٩٤٧ أثناء زيارة السلطان محمد الخامس مدينة طنجة أن أطلقوا مدافعهم الرشاشة فحصدت ٥٦٣٠ من أهالي البلاد . نعم ٥٦٢٠ قتيلا . ولو أحصي من قتلوا في هذه الاقطار الثلاثة المنكوبة بالاستعمار الافرنسي لبلغوا ألوف الالوف .

فما قول السيد ما سنيون بهذه الفضائح التي لا تزال تتكرر في مستعمرات جمهوريته . وكثيراً ما شاهدت عقلاء فرنسا أنفسهم ينتقدون هذه السياسة فكيف بي ان امتنع عن الحملة على رجال الاستعمار وقتلهم أبناء جنسي .

واني لأعتقد أن ما كتبته في هذه « المذكرات » ، وفي « الاسلام والحضارة العربية » ، وفي « القديم والحديث » ، في موضوع استعمار القوم ، يوافقني عليه ثلاثة أرباع سكان فرنسا ، ولا يتحرج المنصف منهم من القول ان معاملة المستعمرين جماعة المسلمين هو العدوان المستديم والظلم الذي قلما

شهدت البشرية أفظع منه . وان استبداد فرنسا في الجزائر ثم في تونس ثم في مراكش كان من أشد ما عهد من ضروب الاستبداد ، وما كان لأمة أفحش جيش اعدائها القتل فيها أن تتناسى سيئاته ، لأن فيه بعض قواد فطرت قلوبهم على الرحمة ، وما وقع على المغلوبين من حيف لم يصدر عن رأي الرحماء منهم .

أحسن علماء فرنسا للانسانية ، ورجال الاستعمار من أبنائها أساءوا لأهل الاسلام خاصة ، ولكل بلد شرقي دخلوه عامة . حقيقة لا ينازع فيها منصف . وأنا اذا لم أغضّ الطرف عما ارتكبه أهل ديننا الأتراك من ظلم العرب مدة استثمارهم أرضنا وكتبت في « خطط الشام » وغيره من تأليفي ما يجب على المؤرخ تدوينه ، فمن باب أولى أن أنكر ظلم دولة لاترتبطني بها رابطة جنس ولا دين ولا لغة . على أني لم أتلكأ في هذه المذكرات أيضاً عن الاقرار بجميل الدولة المنتدبة في انهاض سورية ، ذكرت حسناتها يوم أحسنت ، وعدت عليها باللائمة عندما أساءت ، وما باليت بحنق أرباب المدارك من السوريين ، نوهت بالجيد من أعمال فرنسا أيام انتدابها على ديارنا ، وفي سبيل القيام بالواجب لم أعبأ بغضب من غضب ، وجادلت من جادلني فيما أعتقدت صحته ، لعلمي بأن في السكوت عن حسنات المحسنين غمط حق وانكار جميل ومدرجة الى امتناع المحسنين عن العمل الصالح .

وما أخال عزيزي ماسنيون وسائر أحبابي من بني قومه الا عاذرين لي على النهج الذي انتهجته في تقرير الحقائق التي لا يروق أحباب الاستعمار التصريح بها . ولو كان أحدهم في مكاني لجرى على طريقتي ، ولو أغضب عشرات الألوف من الناس . وعلى النافمين علي في مجاهرة المستعمرين بما جنت أيديهم ألا ينسوا أني عربي وتهمني مصلحة العرب قبل كل شيء .

قنصليات

ذكرت جريدة « اخبار اليوم » أن وزارة الخارجية المصرية طلبت الى وزارة خارجية فرنسا السماح لها بانشاء قنصليات في طنجة والدار البيضاء وغيرهما من بلاد المغرب الأقصى وتأسيس مدارس مصرية هناك ، وأن الحكومة الفرنسية لم ترد على هذا الطلب ، وأنه عرضت على المؤتمر الديبلوماسي بالقاهرة مذكرة تضمنت اقتراحاً يرمي الى التهديد باغلاق المدارس والقنصليات الفرنسية بمصر في حالة عدم تحقيق طلب الحكومة المصرية في مراكش . وذكرت هذه الجريدة أن القسم المغربي لمجلس شورى الحكومة ، وهو أحد مجالس البرلمان المراكشي ، دعي للاجتماع لاستماع بيان الحكومة عن التعليم ، فوجه أحد الاعضاء الوطنيين سؤالاً الى الجنرال جوان المندوب السامي الفرنسي في مراكش عن سياسة الحكومة في التعليم وموقفها من العون الثقافي الذي تستعد مصر لتقديمه الى المغاربة لانشاء مدارس مصرية ومراكز للثقافة العربية ، فرد المندوب السامي الفرنسي على ذلك بقوله : يسوءني أن تظل فئة من المغاربة تنظر الى مصر والدول العربية مثل هذه النظرة ، ويسوءني أيضاً أن تنتظر مراكش عوناً ثقافياً من هذه الدول في حين أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون . فالمغاربة اذ يلتمسون العون من الشرق يتجاهلون أن المغرب أكثر رقياً وثقافة من مصر ، وان الاتجاه الى الشرق هو أكبر خطأ ترتكبه المغرب ، ويجب أن تتجه الى أوربا بدلاً من أن تتجه الى افريقية والقاهرة .

وقد ردَّ العضو المراكشي على ذلك بقوله : ليست هذه أول مرة تحاول فيها فرنسا المقارنة بين مراكش ومصر والتعريض بالعرب ، فقد سمعنا شبيهاً لهذا الكلام من مندوب فرنسا في مجلس الوصاية . ومضى

يقول ومصر التي يحاول المندوب السامي الفرنسي أن يوهمنا بأنها دوننا ثقافة قد أنشأت خلال عشرين عاماً أتت عليها في الحرية أربع جامعات وأعلنت مجانية التعليم الثانوي والابتدائي بينما لا تزال أمنيتنا الغالية ان نستطيع اقناع الحكومة بانشاء لا أقول جامعة او كلية ، بل مدرسة ثانوية نوفد اليها أبناءنا . وختم العضو كلمته بقوله : أما الى اين نتجه الى الشرق أو الى الغرب فأمر قد درسناه واذعناه . لقد قلنا اننا من الشرق والى الشرق سنتجه ، ونحن عرب والى العروبة ننتسب . وهدفنا الذي يعلمه المندوب السامي هو الاستقلال والانضمام الى الجامعة العربية .

هذا منطق ممثل فرنسا الاكبر في المغرب الأقصى وجواب احد ابنائه عليه . وهذه السياسة في تعليم المراكشيين هي عين السياسة التى اتبعتها فرنسا في كل بلد اسلامي احتلته . وكلام مندوب فرنسا في جلسة مجلس الشورى المراكشي كلام من يحاول انكار الحقائق الظاهرة ، ومن لايخجل من التصريح بالكذب على رؤوس الاشهاد ، والف برهان يكذبه . مراكش ارقى من مصر ؟ هذه دعوى من اسخف ما سمع ، لا يقول بها عاقل . وكيف تدعي بلاد ليس فيها ، بعد احتلالها اكثر من اربعين سنة ، مدرسة ثانوية واحدة ، انها ارقى من مصر ؟ وبعد فانا كلما اردنا تجنب الكلام عن سياسة فرنسا مع المسلمين في هذه المذكرات ترانا مدفوعين بعامل انساني وقومي الى تزييف خططها ونقد مناهج سياستها ، ونعتقد اعتقاداً جازماً ان الكذب الذي يجري على السنة رجال الاستعمار وفي صحفهم كل يوم لايأول بغير احتقار العالم والعبث بالحق جهاراً . ان مصر على ما رأينا مصرة على فتح مدارس لها وقنصليات في أرض مراكش فاذا لم تجب الدولة المحتلة على هذا الطلب المعقول تغلق مصر المدارس الفرنسية في وادي النيل . وما دامت فرنسا تحتفظ بطريقتها السقيمة في استعمارها على حين تخلت أكبر دولة استعمارية وهي بريطانيا العظمى عن الاستعمار ، ما دامت على ذلك وهي عاجزة عن المحافظة على السلام في مملكتها الأصلية أنى لها أن تدبر ممالك عظيمة كالجزائر وتونس ومراكش تخالفها في جنسها

ودينها ومدنيتها ، وهي لم تر من ساستها منذ احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ سوى الشر والضر .

هذا وقد وافقت حكومة اسبانيا على انشاء معهد للدراسات الاسلامية في مدريد عاصمتها كما وافقت فرنسا على انشاء معهد اسلامي في طنجة وهي منطقة دولية حرة من أرض مراكش وليست منها في العرف الدولي وبقي طلب مصر عند هذا الحد .

لا تأليف ولا نشر

تحدثت الى صديق صرفت معظم حياتي معه في نفاد المطبوع من أكثر كتبي ووجوب اعادة طبعها ، وضعف الوسائل الآن الى تحقيق هذه الأمنية . فكان رأيه أن من كتبي ماحفظت نسخ منه في الخزائن العامة والخاصة ومتى مست الحاجة الى تكثير أعدادها في الأيدي يتقدم من يطبعها . والأولى فيما أؤلفه من جديد ألا أتكلف طبعه ، وأبقيه في مسوّداته ليطبع بعدي . هذا ما ارتآه الصديق العالم ، وهو يقصد بما يقول راحتي من عناء النشر ، بعد أن تعبت في التأليف . قال : اني قمت بما يجب عليّ من هذا القبيل ، فالأجدر بي الاكتفاء بما ألفت وطبعت وهو كثير .

وقال لي صديق قديم عرف الأيام والناس أني وفقت بما وضعته من الكتب واستحسنها من وقعت اليهم وقرأوها وانها انتشرت ماقدر لها الانتشار ، فمن الخير الآن ألا أفكر في غير صحتي ، والاحجى أن أمتنع عن التأليف بعد يومي هذا .

رأيان لحبيبين عاقلين يعلمان أني لا أقصد من وضع الكتب الا ما أعتقد النفع المعنوي منه . وأنا أرى أن واجبي لا يكمل الا يوم تكمل انفاسي . وثمت عامل طبيعي يحفزني الى المضي في التأليف ،

مادمت أتمكن من مسك القلم ، وأصبر على التحديق في الخطوط التي أخطها ، لأكتب ما أرى فيه بعض الفائدة من تجاربي في الحياة رجاء أن يكون مما أنشر القيام ببعض الواجب ، ولا أكتب لأتسلى أو أنال شهرة أو مظهراً ، وربما كنت امتنع من التأليف ، ويسقط عني التكليف فيه ؛ لو سمعت أن في المؤلفين اليوم من يعانون ذا الضرب من الكلام الحر .

ولا أمثل لما يدعوني الى معاناة ما أعاني الا بمسألتين صرفت فيهما جانباً من اهتمامي منذ وعيت على نفسي ، وهما الاستثمار التركي ببلاد العرب والاستعمار الافرنسي في بلاد الاسلام ، فقد عرضت لتزييف الاول فاستاء بعض رجال العهد البائد من العثمانيين لطعني بما أتوه هم واجدادهم خلال اربعة قرون في الولايات العربية ، ثم انتهت أيامهم فأصبح ما ارتكبوه في ديارنا من حق التاريخ أن يحكم فيه ، والتاريخ يقضي بالعدل بين الترك والعرب وبين العرب وغيرهم من الأمم . والمسألة الثانية غضب رجال الاستعمار الفرنسي مما أردّده في الأحايين من عسفهم ، ومن مصلحة المستعمرين أن يكتموا عن العالم مايبيتون للمسلمين ولغير المسلمين .

أنا الآن لا كلام لي مع الترك فهم اليوم وراء حدودهم ، والعرب يرجون لهم كل خير على ألا يقاوموهم في تأليف وحدتهم السياسية . ولكن الفرنسيين ما برحت أحكامهم نافذة في شمالي افريقيه وأوسطها في نحو خمسة وعشرين مليوناً من أهل الاسلام ، فمن الواجب أن أثبت أخبارهم بقدر الامكان ويدعوني الى ذلك في الاكثر أن العالم العربي في غفلة ، وأهل كل قطر منصرفون الى ما يهمهم فقط . ولم يبلغنا أن أحداً من المفكرين المعاصرين اهتم لما يقع من العظائم في الجزائر وتونس ومراكش ، اللهم الا ما يكتب الحين بعد الآخر في بعض الصحف السيارة من أخبارها المؤلمه ، ويلقى من الغد في سلة المهملات . فأصبح من المتعين علي والحالة هذه أن أعني بمسائل أحفيتها درساً ، وألا أتوانى في ذكر مصائب اخواني الافريقيين .

قد يكون الخوف من بطش الطغام دافعاً يدفع من يرجى منهم انكار ظلم فرنسا في مستعمراتها الى اهمال هذا الأمر الانساني والقومي . وفي الناس من يدهن للدولة ما دامت قائمة ولا يجسرون على نقد سياستها الا يوم تصبح من الدول المنقطعة او تكاد .

فمؤلف هذه المذكرات اذ يقيم النكير على الفرنسيس في قسوتهم على المسلمين يقوم بواجب ، ويعد نفسه جد سعيد اذا وفق الى اسماع صوته بعض عقلاء الجمهورية الفرنسية ، وهو يقوم بهذه الخدمة حتى الممات لا يبالي بما يعترض سبيلها من العقبات .

رثى لي بعضهم لانعاب نفسي في معالجة مسائل شائكة كان علي أن أختار السلامة ولا أخوض فيها ، حتى لا استهدف لغضب الدول والافراد ، وأنا ما جوزت لنفسي هذه الخطة الا بعد أن رأيت ما رأيت من تخاذل الامة العربية ، وبعد في تخاذلها سكوت القادرين على الكلام من أهلها في انكار ظلم المسلمين في شمالي افريقية ، ومن آثار تفاشل العرب ضعفهم البادية اعراضه مما كان منه سقوطهم من أنظار أعدائهم ، والسكوت موت أو ما يشبه الموت ، وأعداء العرب لا يطلبون منهم أكثر من هذا .

التمويه البارد

اتضح للسوريين أن رجال الكتلة الوطنية او الحزب الوطني ، وفي خواتيم امرهم خاصة ، ما انوا الا ما فيه نفعهم على الاكثر ، وانهم تمادوا في الانتقام من خصومهم بما لا تكاد ترتكب مثله حكومة مع معارضيها . ولا ادري بعد ان ظهرت سيئاتهم للعيان كيف يقنعون الامة بأنهم نفعوا الوطن ثم يحاولون الرجوع الى الحكم بالمؤامرات والثورات والمظاهرات ، على حين ظهر للعدو والصديق انهم قلما شرعوا بأمر نافع وأتموه ، وانهم ما أهمهم تخفيف كربة الرعية وتحسين حالتها الاقتصادية والاجتماعية ، وكانوا الى الغبطة ما غرقت بيوتهم في النعيم ، ويعدون من القوة أنهم يهيجون الشعب كلما بدا لهم ، ويغلقون الحوانيت ، ويعطلون المتاجر ، ويلقون المملكة في هرج ومرج فتسوء سمعتها في الخارج وتتأثر اقتصادياتها

أتت الكتلة الى الحكم وفي خزانة الدولة نحو مئة مليون ليرة سورية من الوفر فانفقتها باسراف في أعمال غير مثمرة ، وكانت واردات الدولة عظيمة في ايامهم فصرفوا قسماً جسيماً منها فيما لا يجدي على الرعية ، وتركوا على الجمهورية مائة وخمسة ملايين ليرة ديناً . وكانوا مدة حكمهم يتلمسون طرق التبذير ، وذلك بأن يتعمدوا المبالغة في تقدير الايرادات عند تنظيم الموازنة ليسوغ لهم التوسع في الصرف من اول السنة ، والموازنة في الحقيقة الى عجز ظاهر .

سخيف لعمر الحق من يذهب الى أن معنى سكوت الرعية عن مساوىء حكومة انها راضية عن حكمها . وسخيف من لا يدرك ان من عادة الدهر التحول والتبدل وان كل ما خالف العقل ونابذ الشرع والعدل مقضي عليه بالانهيار في النهاية .

انخلت الكتلة الوطنية لاعتمادها على السفهاء ، واغفال نصائح ارباب التجارب ، وظنت ان كل ما تخالف فيه المنطق ينطلي على الامة ، وان

قوتها تبقى لها لاينازعها أحد ، مادامت السلطة بيدها ، وهي في كل أولئك تظن نفسها مخلدة في الحكم . وكان من رجالها من لا ترضى حكومة بتوسيد المناصب العالية اليهم لقلة أمانتهم وضعف ثقافتهم .

ولو حللنا حياة البارزين من رجال الكتلة تحليلاً دقيقاً لتجلت للأعين قيمة حزبهم . ويُحكم على الأفراد والجماعات بما تمّ على أيديهم من خير وشر . بلغ أكثر رجالهم سن الشيخوخة ، ومن لم يأت الخير على يده وهو شاب وكهل يستحيل أن يُنتفع به وهو شيخ ، ولذلك رأيناهم لما خرج الحكم من أيديهم طاش سهمهم وراحوا يحاولون أن يعودوا اليه ، وليس معهم من الحق ما يوصلهم الى مايشتهون ، ولا قوة لهم يتأتى الركون اليها الاّ قوة من كانوا يتناولون منهم المشاهرات والانعامات والاعفاءات ، وهؤلاء تخلوا عنهم يوم الشدة وتناسوهم تناسياً ما كان يؤمل منهم غيره .

البدع الضارة

تعاون الحكومة المصرية شعبها جهرة على الاحتفاظ بخرافاته . ومن ذلك اطلاق الحرية لعاصمتها حتى تحتفل كل سنة بمولد السيد البدوي وغيره من أوليائهم . ويجري في هذا المولد من ضروب الفسق والفجور ومعاطاة المخدرات والخمور ما لا يكاد يقع أكثر منه في المواخير والحانات .

وانه ليسوء أرباب العقول من المصريين وغيرهم أن تظل مصر الى اليوم على ما كانت عليه منذ قرون محافظة على هذه البدع . ومصر من عادتها أن تجمع كل غريب وفيها الاضداد ماثلة ، فهي في آن واحد كهف الشريعة وبيت الدين وموطن البدع والخرافات .

لو كان لي رأي يسمع هناك لاقترحت على الحكومة المصرية ابطال هذه الاجتماعات لما فيها من العار على القطر المصري وعلى المسلمين كافة . وقد يخطر في الذهن أن الحكومة مقيدة بخاطر بعض رجال الدين ممن ربوا في الخرافات ونشأوا وسط البدع فلا تجرؤ على مخالفتهم ، وهم لايفتونها اذا استفتتهم الا بما يعتقدون وان اعتقدوا في باطنهم أنهم يخالفون بذلك روح الشرع مخالفة ظاهرة ، يضاف الى ذلك أن من بأيديهم البت في مثل هذه الامور لم يدرسوا من الدين مايعرفون به مايصح وما لايصح ، ومعظمهم من الصنف الذي لايهتم لغير راتبه ومرتبته .

اخلاق وزير

كان رئيس مجلس الوزراء السيد جميل مردم بك يود لو اهتدى الى حيلة توصله الى اقصائي عن رئاسة المجمع العلمي العربي مدى العمر كما وفق بمعاضدة حزبه ، فأبعدوني مرة عن هذه الرئاسة بضع سنين ، وماباليوا بتعطيل أعمال معهد يخدم العلم والادب ويدعو للعربية والعرب . ولا شأن عند السيد جميل للاضرار بالجماعة اذا كان فيه شفاء النفس من رجل يبغضه من غير ماسبب ، وهو يرى كل نفعه في معاضدة الرعاع لتأثيرهم في أهل الاحياء يوم الانتخابات ولا يأبه لما يقال له علم أو أدب .

والاصل في هذه العداوة فيما أحسب أني لم أقبل اقتراح أصحابه في عدم الاشتراك في وزارة السيد تاج الدين الحسني ، وكانوا وعدوني ان أنا صدعت بأمرهم أن يوسدوا الي يوم يستلمون الحكم رئاسة المجمع براتب ضخم . نعم كان السيد جميل مردم يريدني أن لا أشترك بوزارة السيد تاج الدين ، أما هو فجوز لنفسه وجوز له حزبه الاشتراك في وزارة السيد حقي العظم ، وهذا مثل الحسني انتدابي ومن صميم الانتدابيين . أي أن هذا السياسي المحنك اجاز لنفسه وهو غارق في حزبيته ما حرمه على غيره وهو حيادي مستقل لا حزب له.

وأخذ ابن مردم يتسقط لي العثرات مدة ولايته من غير ان يتظاهر انه مناوىء لي ، على عادته في عدم مجاهرة أرباب المكانة الاقوياء بالعداء ، والاكتفاء بالدس عليهم من ورائهم.

ومن ذلك أنه بعث كتاباً رسمياً الى وزير المعارف يقول فيه أن أعضاء المجمع العلمي العربي يتخلفون عن حضور الحفلات الرسمية وأنهم ماشهدوا الحفلة الاخيرة التي شرفها الرئيس الاول بحضوره ، وأنه يؤخذ على المجمع أنه لم يبادر الى اقامة حفلة تأبين للامير شكيب ارسلان

فكان جوابي أن ليس في قانون المجمع العلمي مادة تكره الاعضاء على حضور كل حفلة تقام في المدينة . أما تأبين الامير شكيب فقد تقرر أن يستعاض عنه بكتاب يؤلفه احد الاعضاء في سيرته السياسية والادبية ، وهذا الجواب لم يرض بالطبع رئيس الوزارة .

ما كان هذا الوزير يهتم في الحقيقة لغير مصلحته الخاصة لذلك كانت الفوضى سائدة على عهده في معظم الدواوين . وهو في الظاهر على اتفاق مع الرئيس الاول ، وقيل ان هذا كان يرمي الوزير بالانتفاع من منصبه انتفاعاً فيه ما يقال ، الا أنه لايجرؤ أن يفاتحه بشيء ، وكل واحد منهما مضطر الى الاغضاء عن صاحبه في مسائل حتى يغضي هو له عن أخرى . ودام رئيس الجمهورية محتفظاً برئيس وزارته والناس غاضبون حتى ثار الشعب وطالب علناً باقالته ، فقتل أناس في المظاهرات وتعطلت أعمال العاصمة أياماً .

ويقول العارفون ان السيد جميل مردم بك بعد أن كان أضاق قبل الوزارة ، وصدرت عليه عدة أحكام بالحبس أو أداء ماعليه لارباب الديون استفاد من منصبه ووفى ماعليه في برهة قصيرة ، وعاد يقول في مجلس النواب وقد عرضوا له بما يرتكب في حكومته من التلاعب : « ماذا أعمل وقد خلقني الله غنياً » وفي الحق انه اثبت غناه بما اقتناه في مصر بعد خروجه من الوزارة من اطيان وأسهم شركات وعقارات .

علو همة

قرأت في مجلة « المعلم العربي » ما بذله صديقي الاستاذ عوض العامري من الهمة في انشاء مدارس جديدة في سورية وماجأ اليه من الطرق حتى بلغ غرضه من دون ان يزعج الاهلين في جمع الاعانات لبناء المدارس ، وبهذه الطريقة الحازمة أنشأ مئتين وخمساً وثلاثين مدرسة في محافظات حوران ودمشق والفرات.

ولقد كنت تفرست فيه هذه الهمة واكبرتها منذ عينته مديراً لمعارف حوران ، ولعهدي به كلما قامت العقبات امامه يذللها ببعد نظره وحسن ادارته ، ولو وفق العمال الى ماوفق اليه الاستاذ العامري لدخلنا فيادخل فيه المتمدنون .

ولو كان جميع الموظفين يفكرون في التبعة الملقاة على عواتقهم لما جوزوا لأنفسهم أكل خبز الامة ثم هم لا يقابلونها على احسانها اليهم ، ولكن من المأمورين من يرون النجاح في أن يأكلوا ويشربوا وينعموا ويجمعوا ، ولا أرب لهم في غير ذلك .

صاحب غريب

جرى تعارف بالمراسلة بيني وبين المسيو لشاتليه مدير مجلة العالم الاسلامي الفرنسية في باريز . وكنت آزرت في صحيفته قليلاً فغدا يعدّني من أحبابه في الشرق .

ولما وافيت بلاده زائراً أكرم مثواي وتفضل وأصحبني بأديب من أصحابه يطوف بي المعالم التي يصعب عليّ وحدي الوصول اليها في عاصمة الفرنسيين . وجئت أودعه في العودة الى وطني فذكرت له أن من نيتي أن أزور ألمانيا ان تيسر لي ذلك ، فغضب غضباً شديداً لما سمع اسم ألمانيا . فطمنته أني لن أشخص اليها وانما هي فكرة عرضت لي ثم عدلت عنها . فرضي بعد ذلك عني ، وبقي على لطفه معي .

وشأن هذا الرجل غريب ، ووصوله الى مقامات العلماء أشد غرابة . فقد أكد لي بعض المحيطين به من المؤازرين في مجلته أن علمه قليل ، وهو يستكتب العارفين مايقوم في ذهنه أن يؤلف فيه من الموضوعات . وكان في أوليته ضابطاً في الجزائر ، ولم ينشأ نشأة علمية ، ثم تزوج من امرأة غنية ، كان يستعين بمالها على الظهور ، وما زالت به حتى نصب أستاذاً في « كوليج دي فرانس » يحاضر في علم الاجتماع الاسلامي الى جانب محاضرين من أعلام العلماء بالعلوم البشرية .

وأذكر أني أخذت منه كتاباً في القاهرة لم أهتد الى حل طلاسمه ، ولا قدر صاحب لي افرنسي وأديب كاتب أن يحلّ أكثر مما حلات . وبقي الكتاب بلا جواب . ولقد حضرت باصراره عدة دروس له في « كوليج دي فرانس » فما كان لي الا أن أهز رأسي أمام بضعة مستمعين مثلي ، ما اخالهم كانوا يفهمون من درسه أكثر مما أفهم ، وكان صاحبي يحتفل بدروسه ويدعو من يتصلون به الى حضورها ، واستبان لي وهو يتلو علينا درسه من فوق المنبر ان الابهام كان في قلمه ولسانه ، وأن الرجل صنيعة النساء وربيب أموالهن ، وأعظم بذلك قوة في فرنسا وفي غير فرنسا .

الرئيس المرءوس

لم أستغرب ماقصه عليّ صديق صادق من أخبار وزير اعتصم بمصر بعد انحلال رئاسته ، وظهوره بمظهر عظيم من البذخ والاسراف ليقيم الدليل على مافشا له من نعمة ، ويصدق فيه المثل « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها » .

لم أستغرب أن يأدب المآدب الانيقة لمن يعتقد أنهم يعاونونه على الرجوع الى الحكم لعلمي بوفرة ماجناه من مال ، يوم كان السلطان سلطانه . وكان بعض الرؤساء يحتالون على الانتفاع من كل مالا يحل لهم . وكان أحد الرئيسين يشكو الفقر أبداً والثاني يتبجح بدعوى الغنى وكلاهما غير صادق في دعواه .

حقيقة ان المناصب الكبرى تستر بعض عيوب أصحابها ما داموا في الدست ، فاذا مازُحزحوا عنه يبدو عوارهم جلياً بلا طلاء ولا غشاء . وتحركت في الرئيسين شهوة الحكم فأصابها مايصيب المحموم من هذيان ، وهيهات أن تعود الثقة لمن كبر في غفلة الدهر ، وأدرك قومه أنه لايصلح الا للتهريج .

ليس الحكم تجارة تقوم على العرض والطلب ، وما الحكم الا ثقة وحظوة من فقدهما كان من العبث تذرعه برجوعه اليه .

موجزات

من اقتصد ساعة من وقته كل يوم ، يصرفها فيما يعود عليه بفائدة ، يتم له في بضع سنين ما يسمو به على الأقران . وقتك حياتك فلا تصرفه الا فيما يفيدك .

مدنية مع فساد قليل أفضل من مدنية ضعيفة فسادها يقل ويكثر .

ليس من الحكمة القضاء على الأوضاع القديمة ، والمعقول ادخال الاصلاح عليها فلا جديد بلا قديم يسبقه .

لو عادت عادة مصادرة العمال الى ما كانت في معظم الدول الاسلامية لصلحت حال الحكومات العربية بعض الصلاح .

لا يرجى من الحكم الملكي المقيد ولا من الحكم الجمهوري خير لمن تجري عليهم أحكامها ان لم تكن فيهم شروط الحياة موفورة .

الملوك يشكون رعاياهم ، والرعايا يشكون ملوكهم ، فعلى من يقع القسط الأكبر من الملامة يا ترى ؟

متى أصبحت كلمة الفقهاء نافذة في سياسة أمة يخشى عليها الانحلال .

من كان الاستبداد في فطرتهم لا يفعل فيهم نصح ناصح ، فقد انتقم المستبدون ممن نصحوا لهم بتغريبهم ومصادرة أموالهم وأحياناً بقتلهم .

عجبت لعامل يظلم عملاءه أيام توليته ، ولا يذكر كيف يدفع اليهم حسابهم يوم تنحيته .

ماذا تكون حالة العالم اذا استولت اليابان على الصين والهند وطبعتها بطابعها ولقنتها مدنيتها ؟

رئيس يدعو مرؤوسيه الى الفوضى وخرق النظام أشبه برجل يشترك في نقض أساس بيته .

في قضايا الزوجية التي تعرض بالعشرات على المحاكم الشرعية في مصر والشام صور صادقة من ظلم الرجال النساء ، ومن ظلم النساء الرجال ، ومن تدني الأخلاق في الجنسين .

اشتغل المسلمون بالحديث بما لم يشتغلوا بعلم مثله من علوم الدين والدنيا ، فلما انصرفت الهمم عنه ، وانصرفوا الى علوم القرآن ، اقتصدوا من أوقاتهم واقتصروا الطريق الى الهداية .

انصرفت النفوس عن دراسة علوم الدين ، وكانت تدرس قديماً بعناية فائقة ، وكان الفقه أمس كالحقوق اليوم يرفع صاحبه وبوصله الى السلاطين .

كنت أذهب الى أن العرب لم يبق لهم من المفاخر الا الوفاء والكرم ، وأيقنت بأخَرَة بأن كلا الخلقين صار الى قلة حتى أصبح كهلال الشك لا يكاد يُرى .

لو بذلت العرب في ممالكها الشرقية ما كانت بذلته في عمار الاندلس من الهمة لكان عمران الاقطار الاسلامية اليوم أضعاف ماهو عليه .

تعوَّذ الغزالى من نصف فقيه ونصف متكلم ونصف طبيب ، فعلينا أن نتعوذ من نصف سياسي ، ذلك لأنه يفسد أكثر مما يصلح ، وقد تهلك على يديه أمته وهو يحسب أنه يخدمها .

يوم كان الجهل غالباً على الناس كان العَمَلة يتبلغون بما يفضل به

عليهم صاحب المعمل ، فلا يرون لهم حقاً يطالبون به ، ولا مطمع لهم في زيادة أجور تنزع اليها نفوسهم .

قلّ أن عُهد عبقريٌ جدّ أعداء فضله ليحولوا دون ظهوره ، الا أعانوه على انتشار صيته ، وباؤوا بالخزي والخيبة .

بقي الاسلام على بعض نضرته ما كان النزاع شديداً بين الفرق الاسلامية ، فلما ضعفت المناظرات بردت حرارة الايمان .

قد تبدو الكآبة على وجوه بعض الشيوخ لكثرة ماشاهدوا في دنياهم من اقبال وادبار ، وما عانوا من محن وشدائد ، وما قاسوا من علل وأوجاع .

ليت شعري هل استحق المشاهير شهرتهم ، أم كان للزمن والبواعث دخل في استفاضتها ، وما زلت أعتقد أن في الخاملين المغمورين من يوازون المشهورين النابهين ان لم يفوقوهم .

اجتمعت الى علماء وأدباء كانوا بعلمهم وأدبهم دون شهرتهم ، واجتمعت الى جماعة منهم كانوا أعظم مما يقدرهم الناس . تتوقف الشهرة على أمور لا على العلم والأدب فقط .

يطرأ الفساد على البيوت المالكة بعد انقضاء دور الترقي ، وهذا يكون عادة في أيام ملوكها الأول . حُكم محمد علي الكبير في مصر مما يباهى به أكثر من حكم عباس وسعيد .

من توفيق الانكليز أن بعض رجالهم في الشرق اذا غمزوا بعض ملوكه وأمرائه غمزة ، لاتلبث أن ترى من الغد وزارات تسقط وسياسات تتبدل ، وزعماء تنحى أو تقتل ، وحرباً تشهر وصلحاً يعقد .

تحرير ايرلندا من حكم الانكليز مثال من نزع ربقة الضعيف من

أيدي القوي . يأس الشعوب من أخذ حقها من غاصبها خَوَر في العزائم ، ولا يعيش شعب الا اذا اشتد أبداً في المطالبة بحقه ، وبسم لمستقبله وتوقع الخير فيه .

لو توالى ظهور الصالحين في الملوك ماقضت معظم الأمم على ملوكها ، ولما اعتاضت الحكم الجمهوري عن الحكم الملكي ، على مافي الأول من تلتلة وبلبلة .

غلب الانكليز في الحربين العالميتين الأخيرتين بثباتهم أكثر مما غلبوا بسلاحهم .

اذا اعتقدنا كما يعتقد الانكليزي أن كل مافي أرضه ملكه الخاص ، وأن أقل ضرر يصيب أقصى مملكته يعد اصابة له في بيته وملكه ، كنا كالانكليز بوطنيتنا وتربيتنا .

مهما بلغ من حرص حكومة على اصلاح ما تشعث من أحوال من تحكم عليهم ، لا تعدم أردياء يثلمونها ويحملون عليها . ويتألف جمهرة الناقمين ممن حرموا المغانم وطردوا من الخدمة .

اذا رأيت ديواناً يعج بغير المسلمين في هذه الديار ، فأيقن أن رئيسه لا يراعي قواعد الاكثرية والأقلية .

يخطر ببالنا عندما نقوم بشيء من الاصلاح عظم الجهود التي بذلها الغرب حتى بلغ ما بلغ من مقومات الحياة .

اضراب العملة عن عملهم للتهديد ، زيٌ جديد حدث بتقدم الصناعات ووسعته نهمة أرباب المعامل ، وما نشأت الاشتراكية الا من تجمع العملة في صعيد واحد يعدي بعضهم بعضاً بأفكارهم .

لو كان في بطانة بعض الملوك رجال ينظرون الى مايصلح عليه

ملك سيدهم أكثر من نظرهم في منافعهم الخاصة ، ما كانت حال ممالكهم من التدني على ماتدمع له العيون .

عجبت لمن رفعته المصادفات الى مقام ما كان يحلم به ، فظن الأيام تسالمه أبداً ولا تسير الا على ارادته . ما أشد غرور الزعماء والمتزعمين .

يوم كان للدولة العثمانية أعظم جيش في العالم بمشاته وفرسانه ومدفعيته كانت الامهات في أوربا تخوف أولادها بسليمان القانوني مليك بني عثمان العظيم .

كانت القرون الأخيرة عند مؤلفي العرب قرون الجماعين والمقتبسين ، وان شئت قل السارقين والمنتحلين ، وعصرنا هذا عصر المترجمين والناقلين ، وما كنا في الأول والآخر الا عالة على غيرنا .

ربما لم يصدر في مئة سنة أزيد من مئة تأليف عربي للمحدثين يحمل جدة وطرافة ، ولا يدخل في هذا العدد ماطبع من كتب الأسلاف .

كلما تقدمت أمة في طريق المدنية زادت تطلعاً الى الكمال ، وآية ترقيها عدّها نفسها أبداً مقصرة .

عاشرت ثلاثة أجيال من الأصحاب ، ونظرت ملياً في حياتهم ، فما عهدت أحداً شذّ عن صاحبه في شيء ، جاءوا الى الدنيا فكدوا وكدحوا ، وحزنوا وفرحوا ، وجمعوا وضيعوا ، ثم انصرفوا على غير ارادتهم ، فحزن أهلهم وأصحابهم عليهم أياماً ثم نسوهم .

في الزمن الذي يكتب فيه لتاريخنا أن يدرس تدريساً صحيحاً في المدارس الاولى والوسطى والعليا تقوى الوطنية العربية أضعاف ماهي اليوم .

قال بعضهم هنيئاً لأمة ليس لها تاريخ ، والأولى أن يقال هنيئاً لأمة كان تاريخها مطولاً ومشرفاً كتاريخ العرب .

مادخلت العرب بلداً وخرجت منه الا الأندلس وصقلية ، ذلك لأن الاستيلاء عليهما كان غير معقول لبعدهما عن دار الملك .

لو نزع التعصب من القلوب ما عبس وجه في وجه .

لا تشفق على من كان هو السبب الأول في زوال نعمته .

استسهال المضاربات والمغامرات يؤدي على الأغلب الى ضياع رأس المال .

احرص على أن يكون جلّ عشرائك أكبر منك سناً وأوسع علماً واختباراً ، فالمرء يتعلم من الكبير ما لا يتعلمه من الصغير .

قلائل ممن يصدعون بالحق ولايبالون ، فاذا ظفرت بطائفة منهم اجعل منهم عشراءك ونصحاءك ، فعشرتهم تطيب ، ونصحهم ينفع .

تخف وطأة الأحزان بمرور الزمان ، ولولا ذلك لقضى الانسان عمره في سلسلة من الكآبة لايدري أين طرفاها .

من حاول استصلاح كل فاسد كان كمن يحاول ارجاع الثمرة العفنة الى حالتها أول نضجها .

العمى أشكال وضروب ، ومنه عمى المال وعمى الظفر وعمى المنصب ، وأضرّها عمى المنصب لشمول ضرره المصالح العامة .

لا تحتقر القرش الذي تقتصده ، قد تجمع من القروش مبلغاً يعينك على ضعفك في شيخوختك .

لايحتاج الناس الى حكام ولا الى محاكم اذا قام كل عالم بما يجب عليه لتهذيب العامة .

لا تحاول التوفيق بين شيخ وفتاة ، الاختلاف بينهما طبيعي .

من ينشط ولا يثبط يعدُّ من المفضلين على الجماعة .

اذا سئل كل انسان عن ماله من أين اكتسبه يجري توزيع الثروات على نسبة عادلة .

يوم تظهر أسرار الرجال والنساء على جليتها يسوء ظن العقلاء بالصالحين والصالحات .

لولا حب البنين لكفَّ نصف العالم عن التكالب على الدنيا .

يهنأ الخلق عندما تتحقق بعض أمانيهم ويخف ما يقال له التشاؤم .

اذا أتى رزق الانسان بلا تعب يعروه الملل ويصبح في شره أفظع .
همُّ العيش عامل قوي من العوامل التي تسوق الخلق الى الحضارة .

لو لم يكن للعقول هذا التفاوت المحسوس ما كان للحضارة هذه الروعة الآخذة بمجامع القلوب .

لولا أخذ التالي عن الخالي لاستمرت المدنية على حالة ابتدائية .

متى تساوت المدارك في معرفة الحقائق بطل معظم المعتقدات .

الجامدون عن عمل الخير والمستحلون ارتكاب الشر أشبه بالأصنام ، من يحطمها يحسن لقومه احساناً ليس بعده احسان .

قابل الجميل بمثله ، فالمِنّة صعب على الحر تحملها .

لا تحسد امرءاً الا على علمه وعمله ، واجتهد أن تسير على الطريقة التي سار عليها العالم والعامل .

مالك لايتسع للتصدق على فريق عظيم من الفقراء ، فاسع لتهيء لهم أسباب الرزق الدائم ، وبهذا تبطل الكدية ويخف البؤس .

عود نفسك العناية بالبائسين ، أخذك بأيديهم من أفضل القربات .

لا تجعل لليأس سبيلاً الى نفسك ، فاليأس أخو الموت ، والعاقل لا يتعجل الموت .

قلَّ أن اقتصد رجل فندم ، وقلما أسرف انسان بماله وصحته الا حزن وأسف .

سماجة السمج تخرج الحليم عن طوره .

ما أكثر من لايعرف معنى الكلام الذي ينطق به ومن لا يفهم كلام غيره اذا ألقي اليه .

قالوا خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، واليوم يجب أن يخاطبوا على قدر علمهم وعقلهم .

ما أعظم المدى بين قرية أهلها جهلاء وأخرى أهلها متعلمون .

اذا خرج المرء من الدنيا ولم يعمل صالحاً كان حكمه حكم البهيمة .

تدارك بعض الأسر القديمة بيوتهم من الانقراض بالمسارعة الى تعليم أولادهم ، كأنهم أدركوا أن حكم الجاهل حكم الميت ، والأسرة لاندوم بميت لا يُنسل .

قد يظن خادمك اذا عاملته بما تقتضي به مكارم الأخلاق أنه أصبح شريكك ، فيملي ارادته عليك ، ويعترض على ما تعطي وتذر .

من الناس من يستخفهم التبسط معهم ، فعليك بالتوسط في محادثة أمثالهم .

الرحمة في غير مواطن الرحمة خُرق في الرأي .

أعجب بمن يذكر الشرف كل حين وهو عار منه .

لا تخط خطوة واحدة مع من عرف بقبح السيرة ، فأنت لا تفيد منه الا الضرر .

بانقان كل صانع صناعته تقلُّ العيوب في الاشياء حتى لا تكاد ترى . وفي الأثر ان الله يحب من العبد اذا عمل عملاً أن يتقنه .

مادمت حياً فأنت في حاجة الى معاملة الناس ، فأحسن جهدك معاملتهم ، وعاملهم بأقصى ماتتطلبه الأخلاق الطاهرة وان كانوا منحطين في أخلاقهم .

رغيف الفقير أمرأ من رغيف الغني ، ونوم المعدم أهنأ من نوم الثري .

المتوسطون في علمهم وقرائحهم أكثر من تخرج المدارس في أيامنا ، المتوسط يسد بعض الحاجة ، والمتفوق يسد كل حاجة .

بما تثلج له النفوس ويتجلى فيه عدل المجتمع ، تبرئة البريء وتجريم المجرم .

رزق بعض المحامين حرام لاستحلالهم استعمال كل حيلة حتى تحكم لهم المحاكم بما يوافق مصلحة موكليهم .

اقتصد في كل شيء الاقتصاد المعقول ، وليكن اقتصادك من وقتك بالغاً حد التقتير .

كم في أكواخ الفقراء من النساء والرجال من هم أليق بسكنى قصور الأغنياء ، لو أنصف الدهر .

اجتهد ألا تقع عينك الا على جميل ومنسّق فان القبيح أو المشوش يفسد الذوق ويقبض الصدر .

اذا صحت عزيمتك على أن تتعلم كل يوم مسألة واحدة وتهضمها ، تعذّر بعد حين على أعدى أعدائك أن يعدك في الجاهلين .

انفع قومك ما استطعت الى نفعهم سبيلاً ، فمن لا ينفع الناس لايعد منهم ، ومن لا يرجى خيره موته وحياته سواء .

لا تنفق زيادة على ماتحتمل انفاقه ، متى جاوزت في الصرف طاقتك أشرفت على الافلاس وأنت لا تدري .

من المتعذر أن يعد في أهل الاسلام من أغرقوا في اهراق دماء المسلمين ، ولو أفتى بصحة اسلامهم ألف مفت منافق .

يزيد اليوم بعد اليوم عدد الحانات في مصر والشام والعراق . اغلاق حانة أفضل من بناء جامع وكنيسة .

اطعام يتيم خير لك من أن تهب ديناراً لشخص يستجدي الأكف في الشوارع .

من جميل الذوق ألا تطلب من صاحبك أن يسدي اليك من المعروف ما أنت غير مستعد لأن تقدم له بعضه .

قلّ في صحف العالم من لا يجوز أخذ معونة من دولة أو حزب أو شركة ، لأنه ندر في الجماعات والافراد من لايستحل كل مال يُعطاه .

الرجل غير المرأة ، والفتاة غير العجوز ، والدينار غير الدرهم ، والذهب غير الفضة .

اذا أردت أن تعرف دين الوزير العامل عندنا الق نظرة على من ببابه تعرف هل هو بابوي أو أرثوذكسي أم شيعي أم سني .

من طبع الغربي أن يهتم لكل صغير وكبير ، ومن طبع الشرقي اهمال الأمر الصغير ، مع أن الصغير أصل في الكبير .

لما كانت الفردية من طبع الشرقي سبقه الغربي في باب الاجتماع والتعاون .

اذا أخذت الصين بمدنية الغرب دخل العالم في طور جديد .

اذا ضعفت الدعوة الشيوعية وتضاءلت الدعوة الديموقراطية استراح البشر من الحروب مئة سنة .

ليس في شعوب الأرض من يبغض لذاته ، وفي حكوماتهم مايكره لاصرارها على الاستبداد ، والمستبد ماحمد يوماً من الأيام .

من أفضل حسنات المدنية الحديثة جعلها من علماء الارض على اختلاف الجنس واللغة والدين والوطن أبناء أسرة واحدة .

اذا فرضنا أن الفساد في شعوب الغرب عشرون بالمئة فليس هو أقل من ذلك في الشرق .

استبداد فرنسا في الاقطار الاسلامية سيؤدي بها الى الانحلال كما يؤدي بالشعوب اللاتينية الاخرى .

بشر المستبد بزوال سلطانه كما قالوا بشر القاتل بالقتل .

تفاخر فرنسا باعلانها قانون حقوق الانسان ، وقد استثنت من الانتفاع منه على مايظهر جماع سكان مستعمراتها الاسلامية .

بقدر مايبهرك مافي المدنية الحديثة من لطف وذوق تقع فيها على

ما لا يطاق من عسف وعنف ، والمظلومون فيها أوفر من المرحومين ، والممتعون أقل من المحرومين .

لو كان للعنصر الشأن الاول في الاسلام ما استولى الديلمي والفارسي والتتري والتركي والكردي والشركسي والبربري على أقطار كان معظم سكانها من العرب . غاية ما يتطلبه المغلوب من الغالب ألا يظلمه ولا يذله ، وألا يظهر الاسلام وهو من ألد أعدائه .

لكثرة ما شاهدت من تلون بعض ساستنا كدت أعتقد أن هذه الطائفة أقل الطوائف مراعاة لقواعد الأخلاق وأكثرها نفاقاً ونسياناً للمعروف .

اذا أدارت أيد طاهرة ما يجبى من الصدقات كان منها ما يسد عوز العجزة والعميان وأرباب العاهات .

يقول الانكليز اننا لا نخلق الفرص ولا نضيعها اذا سنحت ، وتاريخهم السياسي العجيب ناطق بحرصهم على الأخذ بهذه القاعدة .

كان الانكليز خلال الحرب الماضية يصرفون كل يوم سبعة عشر مليوناً من الجنيهات ، فآل أمرهم على سعة حيلتهم ودقة نظامهم المالي الى حالة أشبه بالافلاس بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

يالبؤس أمة يقودها جهلاء . الأمية حكمت العالم منذ الدهر الأطول ، وكان العلم بمعزل ، واغتبطت الانسانية أن أصبح الحكم في العهد الأخير للعلم وحده والأمية متراجعة .

رأيت وزراء يجوزون لأنفسهم قتل بضعة أطفال حتى تسلم لهم وزارتهم مدة ، هؤلاء يدعون وزراء آخر الزمان .

تغنى الطليان بما تم على يد مليكهم موسوليني من ضروب الاصلاح ،

ولما خرجت القوة من قبضته نسوا كل ما قدم اليهم من خير فقتلوه شر قتلة . وتغنى الطليان بمدح هتلر حليف موسوليني أيام انتصاراته ولعنوه في هزائمه .

الشعوب التي تعمل أفضل من الشعوب التي تقول ، والعلم العملي أنفع من العلم النظري .

قلَّ في الملوك من لا يسيء استعمال القوة ، واذا قام في ذهن أحدهم أمر اعتقد به خدمة نفسه ، استحل في تحقيقه كل ما حظرته الشرائع والقوانين .

يندر تجرد دولة من فظيع الاستبداد ، وللنجاة من عاره تعمد الى أساليب تصبغها بصبغة قانونية ليشتهر عنها أنها على حق فيما تمضي وترسم .

لا تفلح أمة في عامة شؤونها الا اذا أفلحت سياستها أولاً .

كلما قال قائل ان الأمم يستغني بعضها عن بعض زادت صلاتها بفعل الحضارة ، ولا يسوغ لأمة اليوم أن تدعي انها مستقلة بسياستها بل ولا بأسباب معيشتها .

من لا يحسن تدبير ماله لا يحسن تدبير مال غيره ، وقديماً قال الحكماء من عجز عن سياسة نفسه فهو عن سياسة غيره أعجز .

عادت الماسونية على بعض من انضموا اليها بنفع طفيف ولم تستفد منها المصلحة العامة شيئاً .

قضى فن التمثيل ألفي سنة حتى وصل الى ما وصل اليه من الاتقان وارتقت السينما في نحو خمسين سنة بسرعة تضاهي سرعة هذا العصر في كل شيء .

كان الناس قبل سهولة المواصلات ينقطعون وراء حدودهم ، ويكتفون بما تعطيه أرضهم من رزق قليل ، وما تنتجه أيديهم من الصناعات الاولية ، والآن يركبون في طلب العيش أميالاً وفراسخ ، وبهذا يكثر سكان العواصم والحواضر ويقل أهل القرى والمزارع .

لو كان من خانوا قومهم من الملوك على شيء من الحياء ما ارتكبوا جناياتهم الظاهرة لكل ذي عينين .

من نعم هذه المدنية على العالم أن تذاع أعمال الملوك في زماننا شاءوا أم أبوا ، وكانوا قديماً يرتكبون كل كبيرة ولا ينكشف أمرهم الا لفئة صغيرة من المقربين منهم ، وهؤلاء من مصلحتهم الستر عليهم .

من لم تنفذ روح الوطنية الى قلبه يستحيل عليه أن يخـــدم وطنه خدمة صادقة .

شهرة تقوم على الدعايات الكاذبة محكوم عليها بالزوال ، وتجارة رأس مالها ديون وسُلَف تؤدي الى الافلاس حتماً .

لا تشكو الانسانية ضيماً يوم يكون ولع الانسان بأعمال الخير على قدر ولعه باستماع الغرائب .

من الجهل دعوانا أننا نبغنا في العلوم ، ونحن لم ننبغ في فرع واحد منها حتى الآن .

تسودّ الدنيا في عيني كلما رأيت الامانة تخف اليوم بعد اليوم ، كأن ارتقاء فن السرقة من لوازم هذا العصر الراقي في كل فن .

من يكتب التاريخ يخاف تأثيراته ، كالطبيب يدرك ما لا يدركه غيره من الخطر في مرض يداويه .

تفاءل لا تتشاءم ، فليس في التشاؤم الا ازعاج صاحبه على غير فائدة .

لا تسىء ظنك بكل الناس فالخير مانضب معينه في العالم ، اذا استحكمت فيك ملكة سوء الظن تبلبلت أعمالك فلا تدري من تترك ومن تعامل من الخلق .

مهما انتفخ المرء لا يشغل أكبر من حجمه ، ولا يقدر بغير قيمته .

عندما يستعدي الصاحب صاحبه يقلب محاسنه مساوىء ، ويتناسى كل يد له عليه ، ليقنع من حوله أنه على حق في هذه العداوة .

قلما رأيت رجلاً تولى الحكم ولم يبدل المنصب من معاملته أصحابه ، ذلك لان الحكم يورث المشارك فيه بأواً وزهواً .

قالوا فلان لا يعجبه أحد فقلت لهم : وهو على التحقيق لا يعجب أحداً .

ان قلت لا أدري واحتقرك بعض الناس ، أفضل من أن تقول جزافاً فتحتقر نفسك ويحتقرك جميع الناس .

لا أعتقد فيمن اعتاد أكل الحقوق أن يعف عنها يوماً ، ويستحيل على الملوث بالرشوة أن يطهر منها الا طهارة موقتة ، ثم يغلبه طبعه فيعود الى ما ألف .

قال أحدهم ان فلاناً أفلس فأجبته : كان يتوقع له الهلاك لا الافلاس لانه قطع كل صلة له بالشرف والذمة .

متى أشاحت الامة بوجهها عن كل من خانها لا يجد الخائن من يرد عليه السلام . نعومة الوجوه فتحت السبل للمدلسين فتاهوا في تدليسهم بلا وازع

متى خرج المرء عن الرضا بالحالة التي هو فيها أنشأ يفكر في المستقبل، والتفكر فيه دليل على أنه خرج من الهمجية الى المدنية .

لا تعترض على أحد في طعام تميل اليه نفسه دون غيره ، ولا على من ينظر في علم أنت تنكره ولا تؤثره ، فالجدال قديم في الاذواق والالوان .

من لا يشبعه ما كسب من المال الدثر لا تشبعه الدنيا وما فيها .

لو تحاسب المتعاديان حساباً دقيقاً ما تحقق لهم في أسباب عداوتهم ما تتألف منه مادة للتباعد والقطيعة .

من رضي عنه أصحاب الشأن عاش في هناءة، ومن غضبوا عليه بات في هم وغم .

بشر المنافقين بافتضاح أمرهم ولو في آخر عمرهم .

قالوا ان بشرة الانسان تتغير في كل سبع سنين ، أما هو خليق اذاً أن يغير في مثل هذه الحقبة رأيه واجتهاده .

لا تقاطع صاحبك اذا بدا منه ما ينافي شروط المحبة ، واعرض عنه اعراضاً موقتاً عسى أن يرعوي من نفسه ، ويعترف بخطائه فلا يعود الى مساءتك .

من العقوبات الطبيعية اضمحلال ثروة جمعها صاحبها من رزق العباد . عاش من تجردت نفسه من المطامع الخسيسة .

يأبى الخائن الا أن يظهر بثوبه الحقيقي حتى يعتبر الخونة .

عيوبك مستورة عن عينك لا يراها الا اخوان الصدق .

بعد سقوط الاخلاق هذا السقوط المريع لا تتوقع خيراً من أكثر الناس ، فأنت أنت مصدر خيرك وشرك .

ما أبهج مشهد ظالم يكف شره ، ومجرم يجازى على جريمته ، وكذاب يفتضح بكذبه ، وآكل حرام يهلك وما جمع .

فضائل الامهات تسري في أرواح أولادهن سريان الرائحة الطيبة في الثوب النظيف .

محبة من يحبك بلا عوض ولا غرض أصفى من محبة الاهل والاقارب .

لا شيء أثقل على القلوب ممن كان سلاحه الوقاحة ، وسبيله الخبث والاحتيال .

ان لم يظن الاشرار فيك قوة ، داسوك بأقدامهم وما حسبوا لك حساباً .

يكثر الجفاء في سكان الجبال ، وتكثر الميوعة في سكان السهول ، ولا يعدل هذين الخلقين الا التربية والتهذيب .

المناصب في العادة تولي صاحبها نصف روعته ، والنصف الآخر ينبعث من شخصه .

عندما يؤثر المرء السلامة ويعتزل الاشتراك في أمور المجتمع يكون كمن ينادي الموت ليروح فيستل روحه .

اذا أنت لم تفرح لفرح قومك وتحزن لحزنهم عدَّ نفسك دخيلاً فيهم .

تأتي على المرء أيام لايسليه فيها الا تربه الذي نشأ معه ، اخوان الصبا هم اخوان الصفا .

المكثرون من الثرثرة لايأتون بعمل ، وقديماً كان القوالون أكثر من الفعالين .

يكثر المتبطلون في العواصم والحواضر ، ويكثر فيها الناقدون والناقمون ،

رأي سكان الريف في سكان المدن أسوأ رأي ، ولا يقل عنه سوءاً رأي أهل المدينة في الفلاحين .

ما أجمع الناس على استحسان شيء قط ، اذا وافقك فريق من العقلاء على بعض رأيك في الاصلاح فأنت جد موفق ، واذا حصلت على جانب من آمالك فأنت الرابح كل الربح .

غبطت من ساروا على وتيرة واحدة في معاناة ما اختاروا من صنعة لهم أول أمرهم ، واستمروا على تحسينها مدة حيـــاتهم حتى كتب لهم النجاح فيها .

السير البطيء الدائم خـــير من السير السريع الموقت ، والساقية الجارية أعود على الحقل والحديقة من النهر المقطوع .

عود نفسك الاتقان فيما كان لك وما كان لغيرك . الاتقان تنبسط له النفس ، وهو أصل النجاح في الامور .

لاتهمل اصلاح خلل مهما تراءى لك أنه صغير . ثقب صغير في بارجة يغرقها في ثوان معدودة .

من دواعي تقهقرنا ادعاؤنا معرفـة ما لا نحسن ، الدعوى العريضـة يخفق صاحبها آجلاً أو عاجلاً .

لاتتطلب المستحيل ، ولا تتذرع بغير المعقول ، طلاب المحال كعشاق الخيال عاشوا تساورهم أنواع الآلام .

قد ترثي لحال امريء وهو في ذاته محبور مغتبط ، والرضا أهم أجزاء السعادة .

أنفق المنافقين من يُظهر لك الحب ويبطن العداوة .

من يمسك بيد الضعيف حتى يقوى ، ويلقن الجاهل حتى يتعلم هو من أعظم خدام الانسانية ، ومن يعاون على ذكاء الذكي حتى يظهر ، وعلى علم العالم حتى ينشر ، كان فضله على العالم لاينكر .

اذا ضعف استعداد المرء لقبول الافكار السديدة كان من الصعب أن يفعل فيه الوعظ والارشاد .

العامة كالعجائز دينهم دين امامهم ، فليعرف هذا كيف يلقنهم دينهم .

من طبع الانسان الملل من عمله ، انك لن تدفع الملل الا اذا عمدت الى المسليات المباحة .

متى عزت عزة النفس في رئيس شعب زاد الطغام في دياره .

أعظم ماكانت تثلج له النفس شهود مصرع أرباب القوة ممن لم يتقنوا الا حوك الدسائس .

مهما صفت نفوس الرجال والنساء وعرفوا بالتقوى والتدين تبقى فيهم فرجة من البهيمية لايفعل فيها الدين والتربية ، والخوف من الفضيحة يجنب بعض الجنسين ركوب مراكب الفحش .

عجبت من وصول بعض الرؤساء الى مقامات لايليق بهم عشرها ، ولما خبرتهم ثبت لي أن العلة في تأخرنا رفع الوضيع الى درجات الرفيع .

من عمال الحكومات من يجوز لنفسه ارتكاب كل عار لتبقى له

مشاهرته وقد يصرح بذلك ، والأشراف منهم يتشوفون ليوم خروجهم من الخدمة ليتحرروا من رقها ويفرغوا لأنفسهم .

طالبت بلادي باستقلالها حيناً من الدهر فنزعت يدها من غاصبيها الاشداء ، والمثابر على نشدان حقه واصل اليه لامحالة .

اذا انفق ملوك المسلمين على تعليم رعاياهم عشرة بالمئة مما يسرفون فيه من أموال دولهم يصبح المسلمون في مستوى الغربيين من الرقي بعد أعوام .

ما أسخف من يتوسل اليك لتشهد له بحسن حاله حتى يصل الى كرسي النيابة عن الأمة . لو كان هناك ما يسمونه بالوعي القومي لكانت الامة هي التي تكره الصالحين من أبنائها على قبول هذه المهمة الشريفة من دون أن يلحوا هم في طلبها ، فطالب الولاية لا يولى .

اذا أمكن ان تبيض بشرة الزنجي اعتقد أن طبع اللئيم يتبدل .

يكثر في النابتة من يصطنعون الغيرة على العلم ويجاهدون في سبيل الاشتهار به ومنهم من لا يجدون أقرب الى الظهور من الطعن فيمن تقدموهم مراحل .

قلما اجتمعت بلاغة القلم وبلاغة اللسان ، اذا قويت ملكتها في رجل كان النابغة الذي يردد ذكره في حياته وبعد مماته .

أضحكني رجل خامل حاول أن يبني شهرته على النيل ممن يتعذر عليه أن يلحق بهم . من يتناسى أن شهرته لا ينسجها له غيره فهو غر أحمق .

في الرجال من لهم عقول أطفال وأجسامهم أجسام رجال ، ومن الاطفال على ضآلة أجسامهم من أوتوا عقول الرجال .

بعض اللبنانيين كبعض المصريين مولعون بالالقاب . طلب أحدهم الى أمير من امراء لبنان المعوزين أن يكدنه الى ثوره ليحرث له أرضه ، فرضي بشرطه على أن يخاطب بلقبه أثناء الحرث ، فلا ينادي الا بلقب الامير ، كأن يقال له : ثلمك يا أمير ، بلّغ يا أمير ، يمينك يا أمير ، شمالك يا أمير .

سقوط الهجائين

اشتهر محمود زكي باشا بانه من أقدر كتاب الهجو في مصر يحفظ من معاجم اللغة جميع ألفاظ الشتم والقذف . وقد دأب زمناً على الطعن في الأغنياء ليأخذ من أموالهم مايطمع فيه ، شأن معظم أرباب الصحف الاسبوعية في ذاك العهد ، وكانت المحاكم تحكم عليه كلما اجرم حتى اضطر آخر الامر لكثرة ماصدر عليه من الاحكام الى مغادرة القطر ونزل الاستانة . وبعد حين عطف عليه الحزب المتغلب على الدولة حزب الاتحاد والترقي فأتى به الى الشام وعهد اليه بتحرير جريدة « المشكاة » وزين له الطعن عليّ وعلى اصحابي ، فأشرت عليهم ألا يطالعوا مايكتبه فينا ولا يردوا عليه ، فانطلق لايقف امامه شيء ، ولا من يجيبه او يتعرض له ، ثم ضاق ذرعه من عدم الالتفات اليه ، فتوسط لنا حتى نرد عليه في جريدتنا او في جريدته او في جريدة حيادية فما أعرناه التفاتاً . وانتهت مهمة الهجاء في دمشق ، ورحل منها مع من استخدموه في أغراضهم ، فلقيته في بعض شوارع الاستانة وكانت سورية خرجت من حكم العثمانيين — فاقترب مني يهش ويبش ويعتذر متذللاً عما فرط منه معي ، فقلت له : او كتبت في ماتعتذر عنه الآن ، وكن على ثقة اني لم اقرأ ماكتبته ، فكاد يصعق لقولي كأنه عدّ كلامي احتقاراً له وكانت نظرتي اليه في تلك الساعة نظرة احتقار من دون تعمد .

الاتحاديون مدة ولايتهم على الدولة العثمانية في آخر ايامها يعدون الشتم قوة لحزبهم ، وسلاحاً ماضياً يقاتلون به من ليس على رأيهم ، كأكثر ارباب الاحزاب في الشرق يعمدون الى المهاترات والسفاهات في مناقشة خصومهم السياسيين .

قصصت مؤخراً ما جرى لي مع هذا الهجاء على بعض اصحابي الالباء فقال : هذا مما يستغرب ، ومن يحاول الجري على طريقتك في الاعراض عن السفهاء يجب ان يكون ذا اعصاب قوية جداً . فقلت له : هـــذه الطريقة في معاملة الشتامين من افضل ما يعاملون به حتى لايبلغوا مأربهم من اضاعة اوقات من سخروا للطعن فيهم . والطعن على الاغلب لاينتج الا سقوط الطاعن ، وقد يعلو قدر المطعون عليه اذا وقف الناس على مرامي الطاعنين من طعنهم .

المغتربون الشاميون

جاء لبنان وسورية في صيف سنة ١٩٥٠ مئة وخمسون رجلا وامرأة من المغتربين السوريين واللبنانيين في الاميركتين الشمالية والجنوبية ، ومنهم المولود هناك والمثقف بثقافة المملكة التي نشأ فيها ولا يتكلم بالعربية ، ومنهم من هاجر في صباه ولا يزال يتكلم بلغة بلده الاول ، وبينهم أناس من رجال المال والاعمال وهم قلة . وليس جميع أبناء يعرب في أميركا أغنياء كما يتوهم المتوهمون ، فالاغنياء كما قال العارفون ، خمسة بالمئة والمتوسطون ٢٠ والمكفيون ٥٠ والفقراء ٢٥ .

واحتفلت الجمهورية السورية بمقدم أبنائها الأعزة ، وطافت بهم أرجاء القطر تطلعهم على مافيه من عاديات ومصانع ومعامل ومناظر وخيرات طبيعية ، وأقامت لهم من المآدب أفخرها ومن الملاهي ألطفها وأطربها . ورحبت بهم الأمة على اختلاف طبقاتها ومذاهبها . وعادوا الى موطنهم الثاني شاكرين معجبين . وقيل انهم على عزم أن يشاركوا مواطنيهم في المشاريع التي تعدها حكومتهم للنهضة بسورية .

كانوا يقولون ان ثلث المهاجرين من الشاميين يهلك في مهاجره ، وثلثهم يعود إلى بلاده بعد أن يرتاش ، والثلث الآخر تستهويه الأرض التي نزلها فيتأمرك . وتبدلت هذه القاعدة فيما أحسب وما اخال الآن أنه يبلغ عدد العائدين من النازحين عشرة بالمئة ، فان الأقطار التي نزلوها صبغتهم بصبغتها وصعب عليهم أن يعودوا ويتركوا ما هم فيه من سعة والمثل العامي يقول (مطرح ما ترزق الزق) وهكذا كان حال المتمدنين وغير المتمدنين في هجرتهم على توالي الأحقاب . ويقدرون اليوم عدد المغتربين من لبنان وسورية وفلسطين وشرقي الاردن الى أميركا وغيرها من بلاد المهجر بأكثر من مليون مغترب جلهم من جبال لبنان .

داء الاتكال

كان المسلمون يجودون من أنفسهم على الخيرات ، يبنون بدافع ديني الجوامع والمدارس والرباطات والقناطر والحصون والسبلان وغير ذلك من المصانع والمرافق وروح الاستقلال يتجلى فيها أكثر من الاتكال . ولما بدأ الانحطاط أصبحت الاعمال النافعة لا تقوم الا بضغط الحكومات وتدبيرها على الاغلب .

قد تقوم الاعمال عندنا بأيدي أفراد ، فاذا أصبحوا جماعة تضاءلت قوتهم واختلفت كلمتهم ، والمشاريع في ديارنا تبدأ بقوة ولا تلبث أن يبدو عليها الضعف ، تدرك ذلك اذا اعتبرت همة الجماعة في البداءة بأمر وهممهم في آخره ، وهي هنا همة شخص أو بضعة أشخاص يعروها الفتور ، وفي الغرب همة جماعة نجمعهم غاية متحدة يتحمسون للوصول اليها . ومشاريع الغربيين تطرد في رقيها ومشاريع العرب تدوم مدة قليلة ثم تميل الى التلاشي . فالجامعات في بلاد السكسونيين مثلاً هي من عمل الرعية قامت بأيدي أفراد أذكياء ، أخذتهم الغيرة على دينهم وآدابهم ولغتهم فتوفروا على نشرها ، ولا تزال العصر بعد العصر تنمو النمو الذي قدر لها ، ومصر على توفر أسباب النجاح فيها ، لم تستطع الى النهاية أن تقوم بالجامعة التي أنشأتها أوائل هذا القرن ، فتنازلت عنها الى الحكومة بكل مالها من أملاك لتثبت أننا قوم اتكاليون في كل شيء .

كتب الخيالات

في العهد الاخير انصرفت همم بعض من يشتغلون بالفلسفة والالهيات من رجال الجامعات العربية الى نشر بعض كتب قدماء الفلاسفة والمتصوفة ، وكانت بعض النفوس تتشوف للوقوف عليها يتخيلون أن فيها أسراراً لو ظهرت لكشفت من نواميس الطبيعة ماتتقدم به الانسانية وتصفي الأرواح من كثافاتها وينجو البشر من القتل والتزوير والسرقة والكذب والظلم . ولما ظهرت أسفار المتصوفة في حلتها الجديدة من العناية تجلى للأنظار أنها تافهة الا من العبث الذي أحب بشـــه عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات على الأيام ، فضاعت فيها أعمارهم واضاعوا اعمار من اشتغلوا بها .

نحن والقومية

اذاع السيد (آصف علي اصفر فيضي) وزير الهند في الشرق الأدنى (٨ حزيران ١٩٥٠) رسالة باللغة العربية وجهها الى الشعب اللبناني قال فيها : ان الهند قاومت تقسيم فلسطين لاعتقادها انه ضار بمصالح العرب كما قاومت مشروع سفورزا ـ السياسي الايطالي ـ في تقسيم ليبيا حرصاً على بقاء وحدتها ، ولما في ذلك من مصلحة لوحدة العرب . وقارن بين لبنان والهند مشيراً الى الفارق الكبير بينهما من حيث الضيق والاتساع . ثم ذكر اختلاف الطوائف وتعددها في الهند كما هي عليه الحال في لبنان .

وقال ان المهاتما غاندي دعا الى الأخذ بالقومية وجعلها في المرتبة الأولى ونبذ الطائفية وجعلها في المرتبة الثانية .. ونصح للبنانيين ان ينهجوا هذه السبيل للمحافظة على وحدتهم القومية .

نصيحة ثمينة تقدم بها سياسي شرقي الى لبنان وقد شاهد فيه مضرة الطائفية وسوء مغبتها عليه . ولطالما اقترح صاحب هـذه المذكرات على اخوانه اللبنانيين تعديل دعوتهم الطائفية لتعذر قيامها في هذا العصر على ما يرجو لها أنصارها . وكثيراً ما توسل اليهم أن يؤلفوا من لبنان وسورية دولة واحدة فما أظهروا ارتياحاً لمقترحه قط ، لأن بعض الأدمغة في الجبل مصابة بحمى التعصب الديني على صورة مضحكة ومبكية . ولعل الليالي تهدي الى هذا الأمر الحيوي فقد شاهد أهل لبنان ما أصابهم من نقص ثروتهم يوم تمت القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان ، وتبين لمن يعرف ولمن لا يعرف أن حياة لبنان بالوحدة ويستحيل أن تعيش حفنة صغيرة من السكان بانعزالها عن جاراتها وهي مثلهـا في كل شيء وكل مواطن في حاجة الى مواطنه ، لا يحيان الا اذا نزعا من بينهما الاختلاف واتحدا قلباً وقالباً .

القصة

كاد فن القصة او الروايات بمظهره الحديث يعد اختراعاً غربياً . اقتبس الأوائل من كتاب الغرب عن اليونان والرومان والعرب ما هيأ لهم الأسباب الى ظهور عبقرياتهم في هذا النوع من الأدب ، فغدت القصة من الأدوات التي جمعت بين التسلية والتعليم عند الافرنج ، وازداد مع الزمن مطالعوها من جميع الطبقات زيادة عظيمة جداً .

أردت غير مرة على أن أشارك في القصة أكتب فيها او أنتقد بعض ما يظهر من أصنافها بأقلام كتاب العرب المحدثين في الشام ومصر ، فما طابت نفسي للدخول في موضوع لم يأخذ منها ، وليس لي يد في القصص التي نشرتها أول أمري لانها مترجمة . وأكبر داعٍ الى عدم عنايتي بالقصة اعتقادي أنها مختلقة ، والاختلاق مما تأباه طباع من اعتاد التدقيق في النصوص وتشرب روحه بالنقد الأدبي والاجتماعي . فمن العبث أن يُعنى من ألف هذا بغير ما ألف وما يكون الاختلاق هو المحور الاعظم الذي يدور عليه الكلام .

نعم كانت الروايات آخر ما استساغه ذوقي من فروع الأدب الحديث ، وقلما طالعت رواية بشوق الا روايات الاستاذ محمود تيمور لانها عربية فيها طابع الشرق ثم روايات مولبير الشاعر الفرنسي ورواية دون كيشوت لسيرفانتس الكاتب الاسباني لما حوت من هزل ونقد .

وقرأت مرتين جميع روايات اناتول فرانس كاتب فرنسا في القرن العشرين وأخذت بسحر بيانه وسعة علمه .

الاخلاص للدين

سمعت الشيخ محمد بخيت من كبار علماء مصر يقرأ بعد صلاة العصر في شهر رمضان بمسجد سيدنا الحسين بالقاهرة درساً دينياً لم أفهم ان كان موضوعه وعظاً ورقائق أو فقهاً أو تفسيراً أو حديثاً . وكان الشيخ تجاوز التسعين فيما أحسب وصوته ضعيف وهو يحرص على تعليم قومه ، وقد بلغت منه الشيخوخة أن يحمل من سيارته حتى يجلس على مقعده في الجامع ، وقومه لا يتلكأون عن الحضور عليه والتبرك بما يقول . وكأن سيرة الاستاذ كانت تنعي على معظم العلماء من بني وطنه انهم جد مقصرين في تثقيف العامة ومن عادتهم انهم متى أحيلوا على المعاش وتقاعدوا عن خدمة الحكومة يقبعون في بيوتهم ذاهبين الى انهم قاموا بواجبهم وانتهت مهمتهم في خدمة العلم والدين . اما الشيخ بخيت عليه الرحمة فظل يكتب ويؤلف ويدرس الى آخر أيامه .

قلت ذات يوم لصديقي الاستاذ الشيخ عبد الله المنجد شيخ القراء بدمشق : أراك ملتاث المزاج فلماذا لا تصطاف وتريح نفسك من عناء الدرس أياماً ؟ فكان جوابه : ان ما تقوله سديد ، والامور ميسورة ، لكنني أرى أن أتريث الآن لأن تلميذي الشيخ عبد القادر قويدر العربيلي بقي له من القرآن اشياء يسيرة يجب أن ألقنه اياها وأخاف اذا تغيبت مدة عن المدينة ان تفوت الفرصة وأموت قبل ان يختم ما أري تختيمه اياه . ومات شيخ القراء خلال الأشهر القليلة التي مضت على هذا الحديث بعد ان اتم لتلميذه كل ما يجب ان يلقنه اياه .

فهل بعد هـــذا اخلاص أعظم من اخلاص هذين الشيخين العظمين للدين والعلم ؟

الحجاب والسفور

بحثت وأحد أحبابي من أعيان الموارنة في حجاب المسلمات ، فشهدته يعجب من تأخر النساء المسلمات في كشف حجابهن الى اليوم على حين سفر معظم نساء الامم . فقلت له : نحن نحاذر اذا عمدنا الى القوة في ازالة الحجاب قيام فتنة يستغلها الرجعيون ، وأرى أن مسألة الحجاب آخذة بالانحلال من نفسها فهو ضئيل في الريف ، وفي المدن أخذ يتقلص سنة عن سنة ، وجميع الآنسات اللائي يدرسن في المدارس يخرجن اليوم سافرات ، ولا يرغبن في العودة الى الحجاب بعد التخلص منه ، هذا اذا لم يحملن أمهاتهن وأهلهن على الاقتداء بهن في كشف وجوههن .

نعم يسير هذا التجدد من نفسه ، ومن دون تعمل ولا أمر حاكم ولا تشريع مشرع ، ويزيد السافرات شئنا أم أبينا . وانا نشهد التبرج أيضاً ينقص قليلاً ويرجع المخدرات فيه الى السذاجة وعدم التكلف ، وكل ذلك بدافع طبيعي لا دخل فيه للحكومات ولا للجمعيات . ويقل الآن عدد المنكرين على السافرات كما كانوا ينكرون عليهن منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، بل لقد رأينا نساء من كانوا الى أمس يتمسكون بالحجاب من أول من تقدمن لكشفه وتظاهرن بأنهن سفرن في غفلة أزواجهن وما سفرن الا برضاهم .

لم يشترط الاسلام الحجاب على النساء على ما كانت حالهن الى عهد قريب وما نزلت آية الحجاب الا في نساء الرسول وفي حالة خاصة . والاسلام يحظر الخلوة والتبذل ويتطلب الحشمة ، حرمة للمرأة ومبالغة في تكريمها . هذه مسألة معقدة بدأ بحل عقدتها في مصر محرر المرأة قاسم امين المصلح الاجتماعي عليه الرحمة ، ثم زاد التوسع في حلها انتشار التعليم وشيوع المدنية والاختلاط بنساء الغرب ، وكانت مصر وتركيا من أول الدول التي

بادرت الى تمزيق الحجاب ، ولا ينكر ان السفور باديء بدء أسفر عن قليل من المفاسد وقد أسفر أيضاً عن كثير من المحاسن . وكان النفع منه أوفر من الضرر على أي حال . ولا بدَّ في نهضة كهذه من وقوع ضحايا في أول الأمر ثم تصفو المشارب وتألف النفوس هذا الضرب من التجدد ويصبح كأنه من الأمور المعتادة .

الماضي والحاضر

ما دخل حب الربح في أمر من أمور العقل الا أفسده . ولَعُ قدماء الوراقين بالمكاسب أفسد الكتب ، منذ وهموا ، ومنهم الأميون ، أنهم لا يربحون من النساخة الا اذا قتروا في الانفاق عليها ، فصار أمر الاستنساخ الى العامة ومن في حكمهم من الجهلاء ، وبذلك انتشر الغلط والسقط حتى كان عامة الناسخين المتأخرين لا يدركون معنى لما ينقلون ، وبذلك كانت جناية الوراقين على العلم أعظم جناية .

في التقارير التي كان لورد كرومر عميد الاحتلال الانكليزي في مصر يصدرها كل سنة عن حالة الادارة والسياسة في القطر المصري مثال من العقل الانكليزي ومن مهارة المستعمرين الانكليز . وفي تاريخ مصر الحديث لصديقي العلامة عبد الرحمن الرافعي صور من صفاء العقل العربي وكشف حيل المستعمرين .

لما جرد العثمانيون مع حلفائهم الألمان في الحرب العالمية الأولى حملة على الترعة عازمين على فتح مصر ، سألني أحد أغنياء التجار ، وكان عامياً كمعظم أبناء حرفته في ذاك العهد ، أن أذكر له رأيي في مصير هذه الحملة . فقلت له : أقول لك ان كنت تكتم . فقال : لك ذلك وأعاهدك على الكتمان . فقلت : انهم لا يرون جدران مصر ، ولا يستولي العثمانيون

على الترعة حتى يموت عليها آخر انكليزي ، أي ملك انكلترا . فاستغرب التاجر بعد حين كيف صح تقديري ، فردَّ المهاجمون عن مصر خاسرين .

اجتاز غلادستون من عظماء الساسة الانكليز في القرن الماضي بأولاد يلعبون في زقاق من أزقة لندن ، فوقف منهم موقف الاحترام ورفع قبعته مسلماً ، فقال له صاحبه : ولِمَ تسلم عليهم وهم أطفال لايستحقون هذه العناية منك ؟ فأجابه اني أقوم بهذا الواجب رجاء رعايتهم لنا غداً متى استلموا زمام الحكم .

الانكليز من أكثر البشر حساباً للمستقبل .

التعقيد لا تستسيغه جميع الأذواق ، تبدلت أساليب الكتابة العربية مرات في الاسلام ، وما بقي من أساليبها في الآخر الا الاسلوب الذي لا تكلف فيه وهو حري أن يقبله ذوق كل قاريء .

الى القرون الأخيرة ما كان لطلاب العلم رغبة في غير الفقه ، ذلك لأن معرفته كانت توصلهم الى الملوك ، ويكون منه لصاحبه مجد وثراء . واليوم تشتد الرغبة في درس الحقوق لان صاحبها يصل الى النيابة ، والنيابة مفتاح باب الوزارة ، وفي الوزارة كل الخيرات .

يقل الراغبون في درس الطب والعلوم الزراعية والميكانيك على ما فيها من المكاسب لمن يتقنها . ومن الطلبة من يحاول مع درس الحقوق درس الادب لاعتقادهم أن في الجمع بينها تُفتح لهم مغالق الغنى .

من الصواب ألا يزهد في القديم وأن يُتعاور أبداً بالتحسين فالجديد تتمة القديم . وقد قال غستاف لبون : « ان الاحتفاظ بأوضاع الماضي مع تبديلها بما لا يشعر به قوة كبرى للشعوب . عرف الرومان في الدهر الغابر ، والانكليز لعهدنا كيف يحققون هذا المطلب » .

أخرج هذا العصر ثلة من النقاد أصلحوا ما عثروا عليه من الاغلاط الشائنة في بعض ما طبع من أسفارنا القديمة ، فغدونا بفضلهم نقرأ الجيد والمعتمد ، وكنا الى أمس نقرأ السليم مخلوطاً بالسقيم . انتقل العلم من جهلة النساخ والطابعين الى أيدي العلماء المحققين فأدخلوه في نظام من التدقيق يفاخر به ، وأعظم بها من مرحلة قطعناها .

كان معظم من اشتهروا من العمال على عهد الانتداب الفرنسي والانكليزي في الديار الشامية والعراقية من صنائع الدولتين يسيرهم المستشارون على ما يبدو لهم . فعلينا اذا أحببنا أن نأتي برجال يخدموننا باخلاص أن نختار من غير هذه الطبقة التي نشأت على العبودية لصاحب القوة .

« تتغير الاحكام بتغير الازمان » من القواعد التي سارت عليها انكلترا في سياستها خلال القرون الثلاثة الاخيرة . كانت تحارب من تتوهم أنهم عثرة في طريق سياستها حتى تضعفهم ولا يبقى أمامها من تخشاه . فعل الانكليز ذلك بالهولانديين والاسبانيين والفرنسيين والالمان ولما توترت حالة السياسة العالمية في العهد الاخير ، وبدا شبح الحرب في الافق بدلت انكلترا سياستها ، وقد رأت الدعوة الشيوعية تسري في الارض سريان النار في الهشيم ، واذ لم يكن لها مأرب في قتال أحد الآن اعترفت بالصين الشيوعية ، ولو شاع هذا المذهب في بلاد الرأسماليين « بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا » لجعل ثروتهم وتقاليدهم ومفاخرهم أثراً بعد عين .

تجود الصحة وتنشط النفس بتغير المناظر وبالتنقل من أرض الى أرض ، وبترك العمل اليومي الرتيب الى آخر يخالفه . من عظماء ساسة الغرب في أيامنا من يترك السياسة . وينصرف ساعات الى التصوير كل يوم ، ومن الاطباء من يصرف بعض وقته في الموسيقى ومنهم من يعاني الادب . وكم من ملوك وعظماء خصصوا جانباً من أوقات فراغهم بالصناعات اليدوية

أو بتربية الازهار والورد والدواجن والجوارح وركوب الخيل وسوق السيارات والقوارب ومعاناة الصيد والقنص والرياضات البدنية العنيفة ، والتسلق على الجبال والتزحلق على الثلج . وكان العظماء في الدهر السالف يكثرون من لعب الشطرنج والصوالجة .

الطب من أصعب العلوم ، وصاحبه قد يصل الى المجد من غير طريقه . كان كليانسو من أعظم الساسة المعاصرين طبيباً ومثله الحكيم غستاف لبون . وفي الاقدمين كان ابن سينا والرازي طبيبين قبل أن يكونا فيلسوفين ، ومثلهم كثير في الافرنج اليوم وفي العرب أمس .

معظم ما في الولايات المتحده الاميركية من مرافق ومصانع وخيرات بالغ حد الغرابة ، فهي غريبة بتكوينها الطبيعي يحدها بحران عظيمان ، وغريبة في تكوين شعبها ونموه ، كان سكانها سنه ١٧٩٠ ، ٣٩٢٠٠٠٠ فأصبح في سنة ١٩٥٠ نحو ١٦٠ مليوناً . أما نمو ثروتها واقتصادياتها ومناجمها وزراعتها ومتاجرها وعلمها واختراعاتها فأمر يفوق الوصف . زادت نفوس العالم زيادة عظيمة في القرنين الاخيرين أما نمو أميركا فلا يشبه غيره ، تألف سكانها من عناصر أوربية راقية « وأمركتهم » أي جعلتهم أميركاناً بلغتهم ومنازعهم ، ولم يكتب للغة من لغات الارض أن تقدمت تقدم الانكليزية فيما نعلم . كان تقدمها غريباً في بابه ، ثم على وجه لا يشبه انتشار الاسبانية والبرتقالية والالمانية والروسية الا قليلاً . كان نمو الانكليز يجمع الى اللغة ثقافة والمتكلمون بها اليوم لا يقلون عن ٢٣٠ مليوناً وما كانوا يزيدون منذ قرنين على عشرين مليوناً فيما نظن . ولهـــذا كان تاريخ الشعوب الانكلوسكسونية من أدهش تواريخ البشر .

يقول مؤرخ معاصر من الافرنج : لم تستطيع الامارات التركية (من السلجوقيين) في ايران والشام أن تترك سكانها من الفرس والعرب ،

وعلى العكس رأينا الفرس « فرّسوا » من نزلوا عليهم من الاتراك ، وعرّب العرب الشاميون من احتلوا أرضهم من الترك . وهذا دليل القوة العظيمة الكامنة في العنصرين الفارسي والعربي ، وبرهان على أن العنصر العريق في الحضارة لا سبيل لعنصر آخر أن يتمثله . القوي يهضم الضعيف والضعيف لا يهضم القوي ، ولا عبرة بكثرة جيوش أمة بل العبرة بما انطوت عليه نفوس من تتألف منهم من حيوية وأخلاق .

ذكرت بعض الصحف التركية أن الدستور السوري الجديد من أرقى دساتير العالم وأن السوريين أثبتوا أنهم من الشعوب الخليقة بالاستقلال ، وهم يعرفون الى ذلك طريق المحافظة عليه . هذا ما قالته وليس في ذلك غرابة فان السوريين لما ارتفع عنهم الضغط انبعثت عبقريتهم ، وكانت جراثيم الرقي كامنة في نفوسهم فلما أزيل عنها ما يعوقها قامت بأحسن ما تقوم به أمة راقية .

كانوا يعيبون على العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي ـ أشهر كتاب عصره وخادم اللغة العربية العظيم عليه الرحمة ـ تبييضه كتاباته مرة أو مرتين مبالغة في التنقيح ، وبفضل هذا التدقيق كتب البقاء لما كتبه الشيخ وانتفع قراء العربية به . أما الذين نشروا ما جادت به قرائحهم باديء الرأي وقدموا للطبع المسودة الاولى فما قدر لكلامهم أن يغني الغناء المطلوب ، وذهب ما كتبوا من الوجود كما تذهب صحف الاخبار غداة نشرها .

كثيراً ما كنت أسأل أترابي من الشاميين تلاميذ المدرسة الملكية في الاستانة أرقى مدارس السلطنة في عهدها عن صورة التدريس في صفوفها ، وعن أساليب أساتذتها عند الخوض في الموضوعات التي لا بد فيها من استعمال الحرية كدرس التاريخ ، وكان السلطان يحاذر انتشار الأفكار الحرة في المدارس ويراقب أساتذتها أشد مراقبة . فما رواه لي أحدهم ان أستاذ التاريخ عبد الرحمن شرف كان يلقي درسه بانطلاق تام ، وقد

قال في بعض دروسه : هذا هو الكلام الرسمي الذي يجب أن يلقى عليكم ، واذ كنتم من الرجال الذين سيتقلدون زمام الحكم والسياسة أرى أن أزيدكم في هذا الموضوع مالا يستحب كتمانه عنكم ، وأفاض في هذا الباب افاضة حسنة وباح بأسرار لم تتعرض لها الكتب المتداولة ، ولا يكاد يعرفها الا بعض الخاصة ممن يرجعون في بحثهم الى الوثائق المدفونة في مستودعات الدولة ، أو تنقل من صدر الى صدر ولا تقيد في الورق . وكان أساتذة هذه المدرسة من أعلم رجال الدولة في ذلك الزمن فيهم أمثال حقي (الصدر الأعظم) وعلي شهباز وعلي حيدر واسماعيل حقي وأوخانس وعاطف وعبد الرحمن شرف وغيرهم من العلماء رحمهم الله .

فتح العثمانيون الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ومصر والشام والجزيرة والعراق وجزيرة العرب ، وطال حكمهم فيها ، ولو قيض الله لهذه الاقطار أن تتمتع بحكومات عربية تعدل وتعقل ، وتجمع الشمل ولا تفرق الكلمة ، ما أصيبت بداء الانحاط الذي برح بها هذا التبريح .

تطلب شعوب الشرق كل شيء من حكوماتها ، وما شأن الحكومات الا حفظ الامن واقامة العدل والتمهيد للعاملين . اما التوفر على الزراعة والصناعة ، وتعليم البنين والبنات ، ونشر العلم والدين ، وانشاء القصور والمصانع ، وما ينشأ عن الحضارة من نعيم وسعادة فهو من عمل الرعية تبرز فيه ما انبعثت همتها الى أقصى حدودها ، وما أحس النبهاء من بنيها بعظم ما عليهم من تبعة .

يوم تجمع حكومة كل السلطات يصبح الرعايا كالعبيد تسيرهم أيدي مواليهم ، ويعدون بالطبيعة من الامم الاتكالية المنحطة ، واذا كانت الامة مصدر كل سلطة حقاً وصدقاً تعد حكومتها أرقى حكومة وشعبها أسعد شعب .

من أسخف ما صدر عن سياسي مسؤول حمله بعض صنائعه على شتم مخالفيه شتماً قبيحاً ، وما أدرك ان من يوالونه اليوم يعادونه عندما يحول الدهر وجهه عنه وتنقطع صلاته بهم فيقولونه ما لم يقل ويوسعونه شتماً واهانة.

رأيت بعض من تولوا أعمالاً سياسية كانت فوق اقتدارهم يطعنون اليوم علناً فيما كانوا أمس يُغْلون في مدحه جهرة ، كأنهم يظنون أن من سمعوهم بالامس كانوا من الصم البكم .

كنت أستبعد نشوب حرب أوربية عامة لما وقر في النفوس من بعد نظر الغربيين في السياسة ، فخاب ظني لما شهدت الحرب العالمية الاولى وقد جرّت على الغالب والمغلوب من الويلات ما جرّت . ثم زعمت أن حرباً ثانية لن توقد نارها قبل جيلين فكذب ظني أيضاً ، واشهرت الحرب الثانية في آخر العقدين الأولين من الحرب الأولى .

اذا فرض ان دب الضعف في الدول الحربية العظمى ، أفتأمن الانسانية يا ترى من غوائل الحروب ، أم تتقدم الدول الصغرى لتمثل في مجال السياسة ما كانت تمثله الدول الكبرى ؟

كانت الأولية في سياسة الغرب لاسبانيا والبرتقال فانتقلت الى فرنسا وبريطانيا العظمى والنمسا وروسيا واميركا ، والظاهر ان السياسة العامة لا تقام لها سوق في الدول الصغرى لقلة سكانها وضيق نطاق بلدانها . فالسويد والنروج او الدانيمرك وسويسرا لا يتأتى ان تكون كفرنسا وروسيا واميركا.

قال لي احد اصفيائي من كبار رجال القضاء ان الحكومة الحالية ترى أن تختار الرعية نوابها في المجلس النيابي العتيد من الشباب فقط ، وكان الاولى أن تقول ان الواجب انتخاب من يصلح لهذه المهمة بعلمه وتجاربه ، ولا فرق في أن يكون النائب شاباً أو كهلاً أو شيخاً .

كان بعض من حظيت بلقياهم في حياتي من ملوك الشرق وأمرائه وزعمائه من الفئة التي تغلب عليها السذاجة القريبة من البلاهة ، ومعظمهم مملوكون لرعونتهم وشهواتهم . فعجبت كيف تدار ممالك كبيرة بهذه العقول الصغيرة .

كلما رجونا ان يصفو الزمن وننعم بالاستقرار لنعوض ما فاتنا أيام الخمول يعرض لنا ما يؤخرنا الى الوراء ، كأن الفطرة لا تختار لنا الهدوء ، ولا تحب أن تُعدنا للسعادة .

لو لم أكره تدخل الأجانب في شؤوننا الداخلية لطلبت الى كل وزارة مستشاراً غربياً أمتعه بالسلطة المطلقة حتى لا تكون فوق يده يد ، فيدربنا على العمل الصالح ويعلمنا القيام بواجبنا .

قال لي أحد رؤساء الوزارات في عهد الانتداب : اني لأعجب من حال عمالنا وحال المستشارين ، اذا استدعيت عاملاً لمفاوضته في مسألة يهمني الوقوف على ما تعاقب عليها يأتيني لا يحمل شيئاً من المعلومات ، واذا طلبت المستشار يجيء حاملاً جميع ما تعاور على القضية من أول يوم الى آخر يوم . فقلت له : هذا سر من أسرار تفهقرنا ، ولو كنا مثلهم في العناية بأشغالنا ما احتجنا الى مستشارين يقودوننا كما يقاد الأعمى في طريقه الى داره .

حدثني أحد ابناء السودان من خريجي كلية غوردون أن الانكليز هناك كانوا يقولون انا لا نحب أن نقع في الخطإ الذي ارتكبناه في مصر باطلاقنا حرية التعليم للمصريين ، فحصلوا العلوم العالية وجاءوا بعد يطالبوننا بالتوظف ، وليس للحكومة وظائف تكفيهم ، فكادوا لنا بأن انضموا الى جماعة المتبطلين ، وساروا على طريق المشاغبين . وانتبهنا بعد ذلك فكنا اذا احتجنا الى عشرة أطباء مثلاً نقترح على كلية غوردون ان تخرجهم لنا

ليكونوا على استعداد للخدمة في سنة كذا ، واذا مست حاجتنا الى غيرهم من دارسي العلوم الجامعية نطلب كذلك من الكلية تخريجهم ، ونضرب لتعيينهم موعداً يرون بعده مقاعدهم مستعدة لقبولهم من أول يوم يحرزون فيه شهاداتهم . وهكذا أقلنا من المشاغبين بأخذنا من أرباب التعليم العالي كفايتنا فقط .

سألت سائحاً حضرمياً من ساكني جاوة عن سياسة حكومة هولاندة مع الجاويين يوم كانت تستبد بحكمهم أبشع استبداد فقال : ان هولاندة كانت الى قبيل الحرب العالمية الاخيرة اذا تعلم بعض شبان اندنوسيا العلوم العالية في هولاندة او في غيرها تفرض عليهم الاقامة القسرية في احدى جزائر اندنوسيا ولا تترك لهم مجالاً للاختلاط بأبناء وطنهم حتى لا ينشأ من اجتماعهم أمور لا ترغب فيها الحكومة المستعمرة . قال وقد أصبح عدد المحكوم عليهم بهذا التغريب العجيب ألوفاً (وأظنه قال عشرون ألفاً) من الشبان المثقفين . وهذا من أفظع ما عرف من تحكم الانسان بحرية الانسان ، ومن ظلم الانسان للانسان .

بقي رجل انكليزي اسمه لنجهان يتعبد في مسجد من مساجد دير الزور زهاء سبع عشرة سنة ويعتاش من العاب يعملها من الورق ويبيعها من الصبيان بقطع من الخبز وعندما احتل الجيش الانكليزي دير الزور عين حاكماً سياسياً على المدينة برتبة كولونيل . ما أصبر الانكليز في خدمة امبراطوريتهم .

من أول واجبات الحكومة توحيد كلمة شعبها . الطرق الصوفية من فروض العين اعلان حرب عليها لادخالها الخلل على بنيان الجماعة . وما كان من المذاهب الحديثة الا اختراق الصفوف وكانت من قبل متراصة .

يوم فصلت الامم النصرانية الدين عن الدنيا سارت أمورها على سداد .

وما وسع الدول الاسلامية في القرون الاولى الا سلوك طريق الدنيا كما سلكت الى الدين طريقه . وكانت تبتعد عن الخلط بين الطريقتين ما ساعدتها الحال .

قالوا ان فلاناً وفلاناً اغتنيا غنى فاحشاً بخدمة مليكهما فقلت : ليس في ذلك عجب فقد اغتنى في مملكته كل من هان عليه أن يبيع ذمته بعرض قليل . وما دام القول الفصل للأفاقين في مثل هذه الدول فلا سبيل الى اقتراب أهل الخير من ملوكها ، ولا رجاء الآن أن تخطو ديارهم خطوة تذكر في سبيل الحضارة .

يكفي في عقوبة من صرف من خدمة عامة ظهرت فيها خيانته أن تنزع السلطة من يده الاثيمة ، وهو على التأكيد لن يهنأ بما جمع من الدناءآت .

مهما أحسنت الظن لا أذهب الى ما يذهب اليه بعضهم من أن رئيساً كان بيده القبض والبسط ، يغني من يرضى عنهم من مال السلطان ، وينسى نفسه فيحرمها حقها من الغنائم ، ليخلف الفقر لأولاده ويعيش حياته في قلة وضنك .

رثى بعضهم لاحد الرؤساء لما وقع في محنة وادعى أنه أباع دكاناً له وأشجاراً عليها ثمرها ولما ينضج ، ليسد بعض عوزه ، فقلت : لا تصدقوه انه اعتاد الكذب وبرع فيه ، وهذا احتيال منه لاقناع الرأي العام بنزاهته .

أكد أحد العارفين أن المدافعين عن الديمقراطيات بدأوا ينفقون في الشرق الادنى أموالاً عظيمة على الدعاية . فقلت له : كن على ثقة أن الحرب العالمية الثالثة سيندلع لهيبها عندما تبدأ الدول العظمى بالبذل الكثير . فقد علمتنا الحوادث أن الغربيين لا يجودون الا اذا أحدق الخطر بأممهم ، يصرفون قرشاً ليكسبوا ألوفاً . أجارنا الله .

من مذهب المعتزلة أن يتولى الخلافة صاحب الكفاية ايا كان أصله وجنسه وشرفه ، وهذا مما جلب عليهم نقمة بعض الخلفاء . ولما ضعف أمر بني العباس وأصبح يتقلد الخلافة الجاهل والبليد تعاون علماء السوء وجهلة الملوك على المعتزلة وحاربوهم حتى قرضوهم ، فلم يبق أمام خلفاء العباسيين بعدها عائق يحول دون تمتعهم بخلافتهم التي أصبح راعيها أشبه بشيخ طريقة او ناظر على وقف .

من التجارات التي كانت تدر أرباحاً على أحد الرؤساء أنه كان اذا أرسل سفيراً عنه في مهمة الى بعض الملوك يحمله هدية ثمينة يدفع قيمتها من خزانة الامة ، فاذا قابله الملك على هديته بهدية مثلها أو أعظم منها أخذ الهدية لنفسه . ومعظم الهدايا معمول بالذهب الابريز والاحجار الكريمة .

لما عظمت جيوش الترك العثمانيين وصلوا الى مدينة فينا وسط أوربا ، ولما ضعفوا طردتهم دول الغرب الى موطنهم الأصلي في آسيا الصغرى . كتب النصر لاعلام الترك فاستولوا على زهاء عشرين مملكة مختلفة العناصر ومنها بلاد العرب ، ولما تراجع أمرهم كان ساسة الغرب في القرن الماضي يتآمرون على تقسيم تركة الرجل المريض ، يعنون به الدولة العثمانية ، ولو تم اتفاقهن يومئذ لكانت تركيا اليوم في عداد الدول المنقطعة .

لفت نظري من لا اتهمه بالاختلاق الى أن المسيحيين في فلسطين وسورية في الفتنة الصهيونية الاخيرة ، لم يدنسوا شرفهم بالتجسس لليهود ولا بتموينهم من البلاد المجاورة كما فعل بعض الساقطين من الوطنيين ، أغواهم الصهيونيون بالمال فأقدموا على ارتكاب ما ينفع الاعداء . المسلمون والمسيحيون شركاء في هذه النكبة نكبة فلسطين ، ومن عاون العدو أبان عن جهل وانحلال وطنية .

صبأ أحد أجداد طاغور شاعر الهند عن الاسلام دين آبائه وانتحل

الوثنية ليسوغ له تولي الحكم . وعزم نابليون على انتحال الاسلام لما تخيل أنه بدينه الجديد تفتح له أبواب الهند . وانتقل الشاه الصفوي من مذهب أهل السنة الى مذهب التشيع لينشيء دولة العجم .

قال احد رجال الانكليز في الهند : المسلمون يحرمون أكل الخنزير والهنود يحرمون البقر ، ونحن الانكليز نحل الخنزير والبقر فكان من الطبيعي أن نحكم الهند ، ولما آذنت ساعة رحيل الانكليز عنها لم يفدهم جمعهم بين لحم الخنزير ولحم البقر .

لقيت في مصر زمان الشباب مفتي المسلمين في بكين عاصمة الصين في طريقه الى الحج فرأيت فيه عالماً جليلاً سالماً من التخريف فيما يظهر . وكان يتعذر عليه التكلم بالعربية فيكتب في ورقة ما يريد أن يقوله بلغة عربية فصيحة وبخط نسخي مقروء ، ويأخذ الجواب على هذه الصورة ، فكنا نتفاهم في أصعب الاحاديث ، واستفدت منه فوائد عظيمة عن المسلمين هناك . وتمنيت لو يرحل الى الصين بعض أرباب النباهة من المصريين والشاميين لدرس أحوالها درساً علمياً لما في ذلك من الفائدة العامة .

لم يثبت للمسلمين في الهند ملك عظيم تطول أيامه مع أنه كان في جملة فاتحيها محمود بن سبكتكين وأكبر خان من أعظم الملوك . وذلك لان المسلمين فيها قلة ، والكثرة الكاثرة وثنية .

ما رضيت هولاندة أن تمكن الجاويين من اطلاق اسم اندنوسيا على جزائرهم أيام احتلالها لها مخافة ان يكون من احيائهم اسمها تذكيرهم بذكريات وطنية من مصلحتها أن تنسيهم اياها .

قل في الشرق من وسد اليه شيء من أمور السلطان الا واغتنم الفرصة المتاحة فأتى الى الوظائف بطائفة من اصحابه وجيرانه وحزبه وذوي قرباه

واهل دينه ، ولو كان في استخدامهم الضرر على خزانة الأمة وعلى سير نظام الحكم ، لأن من يؤتى بهم في مثل هذه الحال هم على الأغلب من البضائع الرديئة الكاسدة . أما ذاك المتفضل على صنائعه من مال الأمة فهو مثال السارق المنافق .

ليس من الوطنية التفريق بين أهل الوطن الواحد . فمن قال هذا مصري وهذا شامي وهذا عراقي وهذا حجازي ، وهم أبناء نبعة واحدة كان عدو وطنه الأكبر يسعى الى تمزيق شمله ولا يدري ما هو صانع .

يختلف أهل بلدين على مسائل قد تعد تافهة وهم يعدونها جوهرية . من ذلك ان مدينتين من مدن الشام تكاد تكون العداوة بينهما ظاهرة لأن الأولى فقدت فريقاً من شبانها تزوجوا من بنات جارتها ، ورحل تجار من الثانية وتوطنوا في الأولى ، واستولوا على جانب من تجارتها ، فتكونت من ذلك عداوة سببها المال والجمال .

بعض رجال السياسة من أقدر الخلق على تضليل قومهم والحط من كرامة خصومهم ، وهؤلاء يكيلونهم الصاع صاعين يوم يتصدرون ويحكمون .

يزعم بعض المفكرين أن الحكومات الاسلامية اذا أباحت الزواج بين المتخالفين في المذهب تنقذ نفسها من وصمة التعصب ويقوى أمرها عند دول العالم . ومن عاداك لتخالف في الدين والجنس لا يرضيه منك شيء ولو تمذهبت بمذهبه وتجنست بجنسيته .

أول ما يفكر فيه بعض الوزراء اذا صاروا الى الحكم أن يغتنوا بطرق لهم يأباها العقل والشرف ، والمتوسط الذكاء منهم يدخل ويخرج من الحكم لا يعمل عملاً يذكر لنفسه ولا لوطنه .

عرفت خمسة وزراء في سورية ولبنان على عهد الانتداب كانوا على جانب من الذكاء ، وعلى حصة موفورة من قبح السيرة ، لو قسمت مساويهم على ثلاثين وزيراً لاستحق كل منهم أن يحكم عليه بالسجن المؤبد مع التشغيل . وكانت الحكومة المنتدبة على معرفتها بهم تدعوهم الى الاشتراك بالوزارات . قد يجد الموبوءون أيضاً من لا يبالون الاقتراب منهم .

عملت الولايات المتحدة الاميركية سنين طويلة بمبدإ مونرو القاضي بان تكون أميركا للاميركيين ، لا يتدخل الاميركيون في شؤون دولة ولا يرضون أن تتدخل في أمورهم دولة . وفي الحرب العالمية الأولى أقنعت بريطانيا العظمى جمهورية أميركا بالخروج عن عزلتها ، وأشركتها في الحرب حتى ظفرت بريطانيا وحلفاؤها ، وسقط قانون مونرو . دليل آخر على ان مصير كل شيء الى الزوال في هذا العالم .

كلما تأملت حال بعض الممالك العربية التي أُنشئت لأغراض استعمارية وما خلقوا لها ، على ضيق مساحتها وقلة رجالها ، من ملوك ووزارات ومجالس وألقاب وتمثيل خارجي ، أضحك وأنشد قول الشاعر الأندلسي : ألقاب مملكة في غير موضعها .

ينحصر رأس مال بعض رجال السياسة في الأنافة المتكلفة والبزة الجديدة والتعاظم والتفاصح وتكلف الرزانة وايهام من يجتمعون اليهم أن في صدورهم اسراراً لو أفشوها لبدلت الأرض غير الأرض .

لا بد لكل سياسي من أذناب ينوهون به في الصحف والمجتمعات ، ومن هؤلاء المطبلين من لا يأخذ درهماً على هذه الدعايات المصنعة ما دام من يقرظونه متبطلاً ، وهو يكافئهم يوم يجيء الى الحكم على تبرعهم بالدعوة له ، ولكن من مال الدولة لا من ماله .

ما خجل رجل من رجال السياسة من الدخول في بضعة أحزاب يناقض بعضها بعضاً ، رجاء أن يكون له الظهور أبداً . وحاول مرة أن يخدم دولتين متنافستين فنبذته الأولى وتغافلت عنه الثانية .

رفعت الدولة العثمانية رجلاً من أبناء العرب الى أرقى المناصب فلما تراءى له أنها ستنجلي عن دياره انضم الى عدوتها وأخلص في خدمتها . وكان هو في حجر الدولة التي ربته وعاش بخيرها حتى بلغ الشيخوخة يشتغل سراً بقلبها ، ويتقرب من الدولة الحالفة بما يخالف شروط الأمانة ، يزعم بعض الأغبياء أن هذا التذبذب في الأخلاق يجوز في السياسة ، أقبح بهذا الخلق وهذه السياسة .

ما زاد عدد من درسوا العلوم العالية في مصر والشام عن حاجة البلدين الى الآن ، وانما فضل الدارسون عن حاجة حكوماتها ، ذلك لأن غاية معظم الدارسين من دروسهم الدخول في خدمة الدولة وهذه لا تستوعب دواوينها كل طالب يعشق التوظف فيها ، ولا تتسع موازنة هاتين الدولتين لاعطاء كل واحد منها .

لو بذل ما صرف على التعليم العالي منذ نصف قرن في القضاء على الأمية في مصر والشام لزال منهما أثرها ولكن كان يعوز القطرين رجال الاعمال التي لا يحسن القيام بها الا أرباب الدراسات العالية .

كان مجلس صديقي سليمان نظيف بك من علماء الترك أمتع مجلس أختلفت اليه في الاستانة أيام مقامي فيها في آخر سنة من سني الحرب العامة الأولى . كان يتألف من صفوة رجال القضاء والادارة والسياسة ، اهتديت بأحاديثهم الى أمور كنت أجهل وجودها عند الاتراك وأنا أعاشرهم في الولايات معاشرة رسمية . وكان أهل هذا المجلس يتوجسون خيفة من عاقبة الحرب على العثمانيين ويذكرون أمراض دولتهم بتفصيل ويصرحون

بما لا يجوز التصريح به أمام الناس . وكان رب المجلس رحمه الله يعرفني الى من لم يعرفني من قبل تعريفاً جميلاً حتى لا يكتموا شيئاً من الافكار المدخورة في صدورهم أمام غريب عنهم .

كانت القرون الوسطى عند المسلمين من حيث الرقي كالقرن التاسع عشر عند الغربيين ، ومن كان يظن أن من الرجال عندنا يومئذ من كانوا يتلقون الحديث ويأخذون الفقه عن النساء ، وان بعض مدارس دمشق أسسه النساء ووقفن عليه ورتبنه ترتيباً جميلاً لخدمة الدين والعلم .

فتشت مدارس احدى العمالات وجئت الى القصبة وسألت قائم مقامها عن مدرستها — وكان تولى ادارة تلك العمالة منذ أشهر — فبدا الخجل على وجهه وقال : الحق اني لم أتفرغ لزيارة المدرسة حتى اليوم . ونظرت الى جانب دار الحكومة واذا بالمدرسة على بضع خطوات منها . وبعد أشهر جاءني هذا العامل وشكا اليّ أنهم نحوه من عمله وأنه ظلم وانه مستقيم ويحمل شهادة أرقى مدارس السلطنة فقلت له : احمد الله على أن اكتفى وزيرك بتنحيتك ولو كنت وزيراً للداخلية لاحلتك الى القضاء وعزلتك على ألا تستخدم بعدها ، وذكرته باهماله وعدم عنايته بالنظر فيما وسد اليه . وطلبت منه أن يعفيني من التدخل في ارجاعه . وكان هذا العامل على نزاهته ممن غطى اهماله على كل حسنة فيه . قد يبدع في الادارة الرجل الامي اذا كان ذا نشاط وغيرة وذكاء بما لايصدر من حامل الشهادات العليا فان هذا لا تنفعه شهاداته اذا كان مهملاً كسولاً .

باغتّ أحد قوام المقام ذات صباح في مركز عمله فجاءني في الساعة التاسعة صباحاً والخمار بادٍ عليه ، والنوم آخذ بعينيه ، فانقبضت نفسي من مشهده ، وظهر ذلك في سحنتي . وسألته عن الأوساخ المتراكمة في سوق البلد فقال : نعم انهم كنسوا أمس فقلت له : ان السوق لم يكنس منذ أيام والواجب أن ترفع قماماتها كل يوم مرتين على الأقل .

ومن لا يرجى منه أن يأمر الكناس بكنس ساحة داره كيف يتوقع منه ـ وهو كسول ومدمن ويسهر الى ما بعد نصف الليل بساعتين أو ثلاث ساعات يتعاطى الكأس ـ أن يفتش المدارس ويراقب الدواوين وسير الحكم وينظر في شكاوى الأهلين وما يصلحهم نظرة سديدة . مسائل صغيرة في ذاتها تتولد منها مسائل خطيرة .

كتب اليّ صاحب من نبهاء المسيحيين يقول ان الاسلام دخل في قلبه ويريد أن يعلنه لولا ما يحول دون ذلك من العوائق . فأجبته ان الايمان في القلب فان كنت مؤمناً حقاً فلا يتوقف اسلامك على المراسيم المعتادة والوقوف أمام المحكمة وتلقينك كلمة الشهادة والاشارة في السجلات الى انك مسلم . وربما كان من بقائك بين قومك وأنت على الاسلام أنفع لك وللمسلمين من خروجك من دينك ، خصوصاً واشهار اسلامك قد يضرك بمادياتك الآن فيحرمك أبوك ارثك منه ، وأبوك شيخ كبير قد يسوءه ما تأتي فيعجل عليه . ومتى تمهدت الصعوبات فالاعلان ميسور لك كل ساعة . فقبل نصحي وعدل عن اعلان اسلامه . وقال لي بعد سنين انه كتب بمثل كتابي الى صديق لي فكان جوابه يشبه جوابي على غير تواطوء بيني وبينه . وما عرفت ان كان صاحبي بقي بعد ذلك على دينه الأول أو انتحل الدين الذي أحبه .

بقليل من المعارف بثتها المدارس في عقول الناشئة أصبح الصبي يدرك أن المهندس غير النحات والمزين غير طبيب الاسنان والنجار غير الحداد وكان الشخص الواحد في الأيام الخالية يتعاطى عدة صنائع .

فرحت أربع فرحات في حياتي ، الأولى يوم ضبط الأتراك في ولايات الشام أوراق القناصل أوائل الحرب العالمية الاولى ، وقد ظهر فيها أني

بريء مما كانوا يتهمونني به من خيانة الدولة العثمانية . والثانية يوم قبل ملك مصر فؤاد الاول عذري في عدم اجابة طلبه بالانضمام الى عمال قصره . والثالثة عندما نجوت من تقلد رئاسة الوزارة السورية على عهد الانتداب ، وكانت عرضت عليّ مرتين . والرابعة لما ظهرت أخلاق رئيس جمهورية سورية للغريب والقريب على حقيقتها .

يوم كان أهل دمشق على شيء من الرقي الديني مات خطيب الجامع عندهم ولما لم يظفروا في بلدهم بمن يماثله أتوا بخطيب عظيم من قرية داريا يخلفه .

شهدت الفلاحين وعامة المدن أمس يفرون من مراجعة المتطببين ويكتفون بوصفات العجائز وعقاقير الدجالين ، وشهدتهم اليوم يهرعون في حالة مرضهم الى الطبيب الاخصائي يقصدونه من أول الأمر . ظاهرة غريبة تدل على ارتقاء الافكار .

شاهد بعضهم معظم ركاب السيارات العظيمة التي تروح وتغدو بين دمشق ومرج غوطتها عند عودتهم مساء الى قراهم وفي يد كل واحد منهم جريدة أو مجلة يقرؤها بشوق . وقص عليّ أحدهم أنه شاهد في السيارة العامة التي تختلف الى بعض قرى الغوطة الوسطى امرأتين تبتاع كل منهما جريدة . فسأل الواحدة عن سبب شرائها جريدة فقالت له والغبطة بادية عليها ، ان ابنها يقرأ وهو يقرأها لها ويشرح لأمه مايغمض من معناها . وهاتان الفلاحتان من قرية اشتهر أهلها بالجهل والبخل . وهذا أيضاً مما يعد في باب الارتقاء الحديث .

قالوا ان أحد الوزراء السالفين لا يستنكف عن بيع الفاكهة التي غرس أشجارها بيده في مزرعته على طريقة بعض صغار الفلاحين والباعة .

فقلت لهم : مافي ذلك غضاضة ، ولا عار الا على من أساء لأمته يوم كان في الحكم ولم تؤثر له مأثرة .

لو لم يفتح العرب مملكة الاندلس وينشروا فيها مدنيتهم لظل الغربيون يتهمون العرب بالتوحش ، وكان عمل العرب في الاندلس يومئذ عمل دولة عاقلة عادلة . ومع هذا بقي البغض الجنسي والديني كامنين في نفوس الاسبان قروناً حتى تيسر لهم اخراج أعدائهم من جزيرتهم .

لما فتح الترك القسطنطينية انتشر الاسلام في الروم ايلي وما وراءها من الممالك ، وكان الاتراك يومئذ مخلصين الاخلاص كله لدينهم .

قال رئيس البعثة العسكرية الأميركية بعد أن شهد مناورات الجيش التركي الأخيرة ان روسيا ستستغرق يوماً واحداً في القضاء على هذا الجيش وسبعة أيام في احتلال تركيا بأسرها ، هذا وما كانت الدولة منذ خلقت الا عبارة عن جيش لا تملك من مقومات الدول غيره . فان كان الجيش الروسي يغلب الجيش التركي في يوم واحد فياطول حسرة تركيا ، على ما بذلت في بث روح الجندية في أمتها . كنت أعتقد أن الروح العسكري تأصل في الترك تأصل الروح الاستعماري في الفرنسيس ، فظهر أني كنت على خطأ ، غرتني الدعايات وكان أكثر ما زعموا انه تم من الاصلاح في ديار الترك بعد القضاء على آل عثمان هو من الدعايات التي افتضحت وتجلى الحال في ثوبه الحقيقي .

لما وافى دعاة البرتستانتية الى الديار الشامية في القرن الماضي لنشر مذهبهم بين الطوائف شاعت في لبنان وما اليه من الأقاليم قصص وحكايات عن الرهبان والراهبات لا يكاد العقل يصدقها وتناقلها الناس وتفكهوا بها على ما كانت تحمل من صدق وكذب .

قلّ أن شهدت حكومة طلبت اعانة من الاهلين فأدوها عن رضا مثل الأعانة التي فرضت عليهم في الثورة الاولى . كان كل سوري يدفع ما يدفع عن طيب خاطر وما ذاك الا لأن القوم اعتقدوا في قرارة أنفسهم أن ما يؤدونه يصرف فيما يرفع من شأن الجمهورية .

سرني ما روى لي أحد أصدقائي قال : كنت حاضراً في مجلس عربي كبير من رجال السلطان عبد الحميد في الاستانة فالتمس منه أحد ذوي قرباه أن يتوسط له بتقليده وظيفة ادارية فقال له : انني أعرف سيرتك العاطلة فيما توليته من العمالات وأنا لن اعينك على الوصول الى ما تطمح اليه بعد الذي بلوت من أخلاقك . وحرامٌ عليّ أن أزيد بك هذه الامة نكبة فوق نكبتها . وكان هذا العامل يعلق صورة قريبه العظيم هذا فوق رأسه بدار الحكم في كل قضاء تولاه . فاذا أتي بمن يريد التضييق عليه حتى يأخذ ماله يقسم برأس صاحب هذا الرسم قريبه الا بدّ لخلاصه من دفع مئة ريال وكلما كان يتوسل اليه المظلوم لتخفيفها يعود فيغلظ الأيمان على زيادة المبلغ مئة أخرى ، وهكذا حتى يدفع التعس ما غرّم ظلماً .

عرفت الدولة العثمانية كيف تحرك العرق الديني الحساس في رعاياها العرب حتى حكمتهم أربعة قرون .

أخذ المسلمون لاول أمرهم من العلوم المادية ما كان لهم منه عون على القيام بدعوتهم حتى اذا تم لهم ما طمحوا اليه من التوسع في الملك فترت الهمة في العلوم ، ودامت العناية بالدين سائرة سيرها العادي ، ثم قوي السواد الاعظم وهم أصحاب الدين على الاقلية وهم رجال العلم فكان من ذلك رجوع الامة القهقرى .

اذا وضعت جامعة الدول العربية منذ اليوم أساس التعليم بما يلائم كل قطر ثم سيرته في طريق الوحدة تنشأ كل الاقطار العربية بعد جيلين في تفكيرها وحضارتها .

بدأ الخليفة الثاني في مصادرة العمال وما زالت المصادرات تزيد مع الزمن ، وكانت قليلة في عهد الامويين كثيرة جداً في أيام العباسيين وزادت في عهد الفاطميين والمماليك والعثمانيين ، ثم بطلت في أواخر أيام الاتراك ، وقد أصبح الكبير والصغير في دولتهم يسرق من غير نكير . قرأت في الصحف ان لجنة تألفت في مصر للنظر في محاسبة الوزراء والعمال الذين اغتنوا فجأة من أموال الامة لتسترد الحكومة منهم ما سلبوه ومثل ذلك فعلت حكومة سورية وأعلنت عن لجنة ألفتها . فكر جميل ، وما أكثر الافكار الجميلة ، ما أظنه يتحقق في أرض هذا الشرق لانه لاعهد له بمثل هذا التأديب . وأكبر دليل على أن اللجنة المصرية والشامية لم تنتجا شيئاً بعد مرور أكثر من سنتين على تأليفهما .

قسط (١) العرب من حضارة أوربا

وقسط أوربا من حضارتهم القديمة

منذ مقتل مسلم بن قريش آخر أمراء العرب في الشام بأيدي الاتراك السلجوقيين لم ينبغ أمير من أصل عربي صِرف ، من عيار الامير فخر الدين المعني الثاني الذي استولى على لبنان والساحل الشامي الى أنطاكية في الشمال وارجاء فلسطين في الجنوب . فان هذا الرجل أدرك في القرن السادس عشر ببعد نظره أن الغربيين أخذوا يتفوقون على العرب في مدنيتهم ، وان عندهم أشياء نافعة في قيام الامم من علوم وصناعات ليس للعرب مثلها . ففتح موانيَ بلاده للافرنج ، يغشون الديار الشامية ويستزيدون من متاجرهم مع أهل الساحل ، ورخص لهم بانشاء قنصليات وأنشأ خاناً كبيراً لتجار الافرنج في صيدا ، وعمر مدينة بيروت وأقام فيها حديقة حيوانات . وأجاز المبشرين والبعثات الدينية أن يدخلوا الديار أحراراً ، يحيي بذلك سنة أهل دينه وجنسه من العرب الذين كانوا في عهد عزتهم ومجدهم مثالاً غريباً من التسامح مع المخالفين .

غضبت الدولة العثمانية على الامير فخر الدين فسافر الى ايطاليا فاستقبله كوسموس الثاني كبير دوقات طسقانة في ليفورنا باحتفال عظيم ، وأقام في تلك الديار زهاء خمس سنين متمسكاً بعاداته ومعتقداته . وقد أنشأ في البلدة التي أقام فيها جامعاً صغيراً ومأذنة ، فكان يقيم الصلوات ويأتم بإمامه . وقد عرض عليه ملك اسبانيا أن يدين بالنصرانية ويملكه على مملكة أعظم من مملكته فاعتذر بلطف . وعقد الامير مع فرديناند الاول كبير دوقات طسقانه محالفة دفاعية هجومية في سنة ١٦٠٨ . واطلع على مدنية آل ميديسيس وأراد تقليدهم فيها . ووصف مؤرخه الصفدي ، وكان رفيقه

---

(١) ألقيت هذه المسامرة باللغة الفرنسية في المدرسة العلمانية بدمشق .

على الغالب في هذه الرحلة الطويلة ، عادات الطليان وعمران بلادهم وتراتيب حكوماتهم ، مُعْجباً بها اعجاب أميره . وكان هذا استعان ببعض المهندسين والبنائين من الايطاليين في بلاده ، وانصرفت همته الى تنظيمها بالنظام الغربي ، وأن يقتبس ما ينفعها من أسباب النهوض .

ولا يفوتنا النظر أن الايطاليين كانوا بعد أن استولى النورميون على جزيرة صقلية وأزالوا سلطان العرب منها هم الحاكمون على البحر المتوسط ، فاستأثر الطسقانيون والجنويون والبيزيون والبندقيون من الشعوب الايطالية زمناً طويلاً بالتجارة . وهم من أكثر الامم الغربية اختلاطاً بالشرق العربي لقرب بلادهم منه . حتى ان سفن الايطاليين في الحروب الصليبية كانت المعول عليها في نقل جيوش حملة الصليب الى الشام ومصر . ولا نعد مجازفين اذا قلنا ان الامم الاوربية التي اشتركت في الحملات الصليبية قد افتقرت وأفقرت بلادها من الرجال وكان من أثر تلك الحروب المشئومة اغتناء تجارة الطليان وتجار الطليان . وعاون البنادقة المماليك في مصر على انشاء سفن تمخر عباب البحر الاحمر لتصل الى المحيط الهندي للاشتراك في حرب البرتقاليين الذين هبوا يومئذ لاستعمار الشرق والاستئثار بتجارة الهند دون أهل الشرق والغرب .

وبقضاء الدولة العثمانية على الامير فخر الدين المعني قضت على برامج أعماله في التمدين وترك الاخذ عن الغربيين نحو قرنين آخرين كانت النهضة في خلالها قد اتسع مداها في الديار الغربية . وكانت الشام ومصر والعراق وغيرها من الولايات العربية بأيدي الترك العثمانيين لا همهم الا أن يتقاضوا من أهلها الضرائب بعيدين عن كل ما يثقف العقل ، والعرب بعيدون عن النور الذي فقدوه منذ قضى البربر في الغرب والتتر في الشرق على مدنيتهم . وكان العرب خلال اربعة قرون في تاريخ البشر هم الامة الوحيدة بين الامم التي كانت تحمل مشعل العلوم والآداب والصناعات ، وظل الغرب تحت احتكارهم وسلطانهم في هذا الباب ،

يملون عليه ولا يملى عليهم ويعلمونه ولا يتعلمون منه ، على ما كان من اليونان قبلهم حكموا العالم حكماً علمياً ، أي حكموه بعلمهم وأدبهم ألف سنة ثم ذهبوا بقيام دولة العرب .

وتداولت الايام وفعلت الليالي فعلها في العرب فسلبتهم عزتهم بخروج الحكم من أيديهم الى عناصر أخرى ، فأصبحوا في القرنين السابقين على قرن النهضة العربية لاخيرة ، وليس عندهم رجل يذكر في الهندسة والتصوير والنقش والشعر والانشاء والخطابة والفلك والكيمياء والطب . وأصبح التأليف عبارة عن نقل المتأخر عن المتقدم ، والعلوم المادية والفلسفية محرمة أو مهملة ، بعد أن كان أعظم خلفاء الاسلام في قرونه الاولى يغالي في نقلها عن الاقدمين ليحملها الى أمته ويضيفوا ما فيها من الفوائد الى صدر المدنية العربيـة . وعرا الضعف لغتهم أيضاً ففسدت بالسجع في منثورها وخطبها وبالمعاني المكررة والصيغ الضعيفة في شعرها وفقدان الخيال اللطيف والابداع المعنوي الفاتن .

وبينما كانت البلاد متدهورة في أعماق هذا الانحطاط المحزن جاء نابليون بونابرت في سنة ١٧٩٨ يفتح مصر ويحمل في جملة ما يحمله من العَدّ والعُدد طائفة من العلماء والنوابغ في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والادب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن وطبقات الارض والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الري والقناطر والجسور والميكانيكا وكان معه زمرة صالحة من المصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين وعددهم مائة وستة واربعون عالماً وفناناً . وأنشأ في مدينة القاهرة مجمعاً علمياً يبحث في الفنون والعلوم ويدرس الابحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية . وأنشأ خزانة ضمت أنفس الكتب الفرنسية والعربية ومعملاً للطبيعة والكيمياء وأخـــذ يشتغل كل واحد بما اختص به ، فمنهم من يجوب الديار ويرسم مصوراتها ، ومنهم من يبحث في النيل وما يتعلق به ليحسن الانتفاع به ، ومنهم من يبحث في طبائع الحيوان والنباتات والمعادن . وكتبوا كتاباً

ضخماً في مصر وما يتعلق بمصر ما زال الى اليوم مثالاً جميلاً من همم أولئك العلماء وواسع علمهم . وحل شامبوليون حجر رشيد فحل الخط الهيروغليفي فأولى العلم يداً لا تنسى له على الدهر كما كان لنابليون الفضل الاول في جلب الحروف العربية الى مصر وبها طبع أول جريدة عربية وكان الناس يطبعون على الحجر في الشام ومصر .

ومن غريب ما دون في هذا الباب أنه كان في طليعة من اختلطوا بعلماء حملة نابليون جماعة من علماء المسلمين في مصر اذ ذاك كانوا يعلمونهم العربية والشريعة الاسلامية ويأخذون عنهم العلوم المادية . ومن أجلهم في هذا الشأن مؤرخ مصر الشهير عبد الرحمن الجبرتي واحد علماء الازهر الشيخ حسن العطار الذي تولى مشيخة الازهر بعد حين وألف في الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكتبه ورسائله مطبوعة مشهورة في هذه الفنون . واختلط رجال الادارة والسياسة من أهل مصر برجال الحملة وضباطها فنشأ بين الفريقين تعارف كان انقطع منذ عهد سان لوي احد ملوك فرنسا في القرون الوسطى الذي جاء مصر فأخذ اسيراً في دمياط وافتدى نفسه من الايوبيين بثمانمائة الف دينار .

وهكذا عرفت المدنية الفرنسية في هذا الشرق القريب وظلت وارفة الظلال على بلاد الفراعنة . حتى لقد مضى على الاحتلال الانجليزي ثنتان وخمسون سنة والاولية فيها للغة الفرنسية . وفي حواضر مصر تصدر الى اليوم بضع جرائد يومية باللغة الفرنسية ، وليس فيها غير نصف جريدة انجليزية والنصف الآخر عهدي به وهو يطبع بالفرنسية . ولقد قال احد الوطنيين العارفين من المصريين : « لئن فشلت حملة نابليون فان العمل العلمي الذي قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير ابقى الى اليوم اثراً علمياً فاخراً باهراً تطأطىء امامه الرؤوس اجلالاً واكباراً » .

كتبت الاقدار لمحمد علي الكبير ان يستولي على مصر في سنة ١٨٠٥ فأوحى اليه ذكاؤه النادر ان يتعرب وينشىء مملكة عربية وان يقتبس

النظم الادارية الحديثة ويدن مصر العربية تمديناً عربياً فاعتمد على علماء فرنسا في الاكثر وعلى مدارسها لتعليم أبناء مصر فيها . والى رجاله وصنائعه من المصريين يعزى الفضل في ايجاد مصر الحديثة .

اعتمد محمد علي وأبناؤه على علماء افرنسيين في تنظيم الحرب وتنظيم الجيش والادارة ، وفتح معامل لصنع السلاح والجوخ والطرابيش ودور صناعة لعمل السفن وأنشأ مدرسة للطب واخرى للهندسة وأنشأ دار الآثار وأسس المستشفيات والى اليوم لا يزالون في وادي النيل اسم سيف وماريت وشامبوليون وكاوت ودى ليسبس وبيسون وهوسار الخ وان ما كتبه الاعلام من علماء فرنسا في الفنون المختلفة في مصر ليتألف منه خزانة كتب كبرى ما برحت الى اليوم والى ما بعد اليوم مرجع الباحثين والدارسين وتذكر بالاعجاب من الخصوم والاحباب .

فلوالي مصر محمد علي ولاسرته الكريمة من بعده الاثر الطيب في تمدين مصر ونقل ثمرات الحضارة الغربية اليها طيبة جنية . فانهم ما قصروا في السير حسب مساعدة الاحوال لهم بسيرة جدهم الاكبر الذي يحق لنا أن ندعوه محيي العرب والعربية وواضع أساس النهضة الجديدة في مصر وفي غير مصر .

وما فتئت مصر منذ قيام الدولة العلوية وقبلها تبيع من العالم العربي بضائع علمها وترسل على بلاد العرب أشعه من نبوغ أفرادها . ولولا مصر وما جدّ فيها من التجدد لقضي حتى على اللغة العربية . ولئن لم تستطع مصر أن تضم اليها ما كانت تطمح اليه من الاقطار المجاورة فإنها غزتها ولا تزال تغزوها بعلمها ، ومصر منذ القديم وارثة مجد الامويين والعباسيين كتب لها بما حفت به من الصحارى المحرقة أن تكون بمأمن من غزوات الفاتحين ولا سيما التتر الذين لقي منهم المسلمون في القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر من الهجرة ما دك معالم عمرانهم في الشام والعراق والجزيرة وفارس وأواسط آسيا ، فساغ ان نقول ان العرب الذين أوجدوا مدنيتهم الباهرة في أربعة عصور صَرف أعداؤهم التتر أربعة قرون أخرى في دك معالمها .

نعود الى اشباع الكلام قليلاً على مصر فقد قلت في كتابي الحديث « الاسلام والحضارة العربية » انه كان من محمد علي وطريقته المبتكرة في التمدين الذي اقتبسه نبهاء أولاد مصر كل ما قرب الامة المصرية من المدنية الغربية . وكان وادي النيل بجميل صنعه المثال الحي الذي دل به العربي بصورة محسوسة على أنه ليس في دينه ما يحول بينه وبين الحضاره وأنه حفيد أولئك الفاتحين ان نامت فيه زمناً جراثيم النهوض فانها تدب فيها الحياة عند أقل محرك لها . وفي مصر أُنشئت أول مدرسة لتعليم البنات سنة ١٨٧٣ على عهد اسماعيل الذي أخذ من مدنية الغرب بالكبير والصغير وفاخر بأن بلاده أصبحت قطعة من أوربا بتمدنها كما كان ابنه الملك فؤاد الاول واضع أساس الجامعة المصرية واليه يعزى الفضل في احرازها مقاماً عالياً بين جامعات العالم . وكان الخديو اسماعيل يشبه محمد علي كثيراً ويعنى بالتعليم عناية خاصة وقد أنشأ في أيامه مدارس ثانوية وغيرها . ومنها دار العلوم التي خدمت اللغة العربية اجل خدمة .

كانت الحركة الادبية المصرية مبدأ كل نور في الشرق العربي استفادت منه البلاد المجاورة بحكم الطبيعة ولا سيما أبناء الشام ، فان منهم من درسوا في مدارس مصر وتمصروا فخدموا البلاد التي هذبتهم ومنهم من نقلوا قليلاً من النور الى مواطنهم . ولما استولى محمد علي على الشام ودام حكمه فيها تسع سنين أثر بابنه ابراهيم ورجاله في ادارتها وتمدينها . فمصر اذن هي التي بدأت تقتبس من نور العلم الصحيح ، ومصر ادخلها من تخرجوا بعلم الغرب في دور ارتقاء لم يسبق له مثيل في الديار العربية ، ومصر هي التي ظهرت فيها آثار المعارف قبل أُمها الدولة العثمانية . ومصر أثبتت استعدادها للأخـــذ بأساليب الارتقاء ، وانها كل ساعة مستعدة لقبول الخير لا تسأل عن مَصْدَره ومُصْدِره

وكان للغرب في هـذه الديار منذ أمد بعيد رهبان ومبشرون ولا سيما في الارض المقدسة من فلسطين وفي جبل لبنان من الساحل يعلمون مبادىء العلوم واللغة العربية واحدى اللغتين الفرنسية او الانجليزية وكثر توافدهم منذ جاء البرتستانت سنة ١٨٣٨ يدعون لمذهبهم ، وأسسوا مطبعة كانت منذ سنين في مالطة تطبع الاسفار المقدسة بلغات مختلفة لنشرها في الشرق، ثم تبعهم اليسوعيون

من الطوائف الكاثوليكية فأنشأوا لهم مطبعة طبعوا فيها كثيراً من الكتب العربية القديمة وكثرت بعد ذلك مدارس التبشير تغذيها أمم مختلفة من أمم الغرب وأصبحت بيروت مدينة علم بعد حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤمة وأنشئت فيها جامعتان احداهما تعلم بالانجليزية والاخرى بالفرنسية . ورقيت تجارة بيروت بارتقاء المواصلات البحرية وكانت أصبحت قرية سكانها بضعة آلاف منذ خربتها الزلازل وكانت فيها مدرسة الفقه في عهد الرومان تخرج قضاة المملكة ولها شأن لا يقل عن شأن مدرسة البطالسة في الاسكندرية .

وتأخرت دمشق عاصمة الامويين القديمة ومبعث النهضة العربية الاولى في باب التمدين ، لان الترك العثمانيين لم يكونوا أمة علم وفن كما كانوا أمة حرب وسياسة فأغضوا عمداً أو عن غير عمد عن المدارس القديمة التي أنشئت في اربعة قرون ، وكان في هذه المدينة لما افتتحوها أكثر من مائة وخمسين مدرسة للقرآن والحديث والفقه على المذاهب الاربعة واربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة وما كان جامع ولا مدرسة ولا رباط تخلو من مدرسة قائمة امامها ، يتعلم فيها الفقراء واليتامى الدروس الاولية ، بحسب عرف تلك العصور ، دع ما كان من عشرات مثلها في حلب والقدس وحماة وحمص وطرابلس وغيرها من المدن الشامية . وكانت كلها تخرج الناس من الامية بحيث كان عدد المتعلمين من اهل البلاد في ظلمة القرون الوسطى اكثر منهم في القرن العشرين لما غادرها الاتراك وهكذا القول في مدارس العراق والحجاز واليمن ومصر وما اليها من شمالي افريقية .

وكان في معظم هـــذه المدارس خزائن كتب وتكثر فيها عامة المرافق واسباب الراحة والتشويق للطلبة . كل ذلك اتى عليـه الخراب ، واكل من فسدت ضمائرهم اوقافها واحباسها ، ودكوا معالمها فجعلوها دوراً او حوانيت او اصطبلات او خرائب محزنة ينعق البوم في ربوعها ، وتشاهدون منها امثلة كثيرة في جميع احياء دمشق وصالحيتها وسائر المدن الواقعة بين صحراء التيه والفرات .

ولكن دمشق ، والذكاء مغروس في فطرة أهلها وهم من عناصر راقية تمثلتهم البوتقة العربية ، تداركت امرها بعد الحرب العالمية فانشأت لها المجمع العلمي العربي والجامعة السورية ودور المعلمين والمعلمات والمدارس النجهيزية - حكومية وخصوصية - واستكثرت من المدارس الابتدائية في المدن والقرى فلحقت في سنين قليلة مانقدم غيرها للاستعداد له أعواماً طويلة .

بدأ سكان جبال الشام بالهجرة الى الاميركتين منذ سنة ١٨٧٦ يطلبون الرزق ، فاختلطوا بالغربيين في ذهابهم وإيابهم وفي حلهم وترحالهم ، فكان من لا يعود منهم الى وطنه بمال يذكر يرجع الى أهله بما اقتبس من بسائط المدنية . وكثر بعد ذلك في تونس والجزائر ومصر والشام وغيرها من الامصار التي يتكلم أهلها بالعربية عدد السائحين والمتجرين والباحثين في الآثار وطبائع الامصار من أمم الغرب يزورون ما أبقته المدنيات القديمة من العاديات الدينية والمدنية ، ومنها ما تقدسه أمم الغرب لأنها موطن المسيح ومظهر عجائبه ومنها مايدهش له الغربيون كآثار الفراعنة في مصر وكمصانع تدمر وبعلبك وجرش ووادي موسى في الشام وآثار قرطاجنة وغيرها في افريقية .

وكان من أثر اختلاط الجزائريين والتونسيين والمصريين والشاميين بالغرب ومن أثر أخذ بعض أبناء هذه الأقطار بأساليب المدنية الجديدة أن دخل الاصلاح أيضاً على المدارس الدينية القديمة . فالأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس ليسا اليوم على حالة من الجمود الذي كانا عليه من قبل ، لأن التنظيم الجديد دخل اليهما ما أمكن ، فتحسنت حال المتخرجين فيهما أكثر من المدرستين العظيمتين اللتين تماثلهما في انشاء رجال الدين ، عنيت بهما مدرسة النجف الأشرف في العراق ، وجامع القرويين في فاس فانهما مابرحتا على قديم حالهما الذي لانغبطان عليه كثيراً .

وعلى أثر هذا التمازج بين المدنيتين تم استبطان أدباء العرب أسرار ماتم للغرب من النهوض بآدابه . ومعظم السبب فيه تعلم الناهين بعض

اللغات الغربية ولا سيما الفرنسية والانجليزية ، فخلعت الآداب العربية ثوبها القديم البالي في عصور الانحطاط وتحلت بثوب جديد ، فنبغ فيها بعض شعراء أعادوا الى اللغة رونقها الذي كان في العصور الخمسة الأولى للاسلام . واتخذوا للكتابة والخطابة نمطاً جمع بين متانة القديم ورشاقة الحديث ، ودخل التأليف بالعربية اليوم في طور يأخذ بمجامع الالباب ، فصح أن نقول : ان العربية في الخمسين سنة الأخيرة ارتقت ارتقاء عظيماً لم تبلغه في عصر من عصورها ولا نظن أنه كتب للغة من لغات الارض مثله في هذه المدة القصيرة . فكأن العرب أعادوا بذلك تقاليدهم القديمة أيام فتحوا في مائة سنة لأول أمرهم معظم العالم القديم ، ونشروا في ربوعها لسانهم ودينهم وأوضاعهم على مالم يسبق له مثيل في التاريخ .

وبقدر ما كان العرب سراعاً الى الخير في أيام قوتهم أصبحوا الى تباطؤ في أيام ضعفهم . مثال ذلك أن الغربيين بدأوا بطبع الكتب العربية في أول مطبعة أنشئت في مدينة فانو على بحر الادرياتيك سنة ١٥١٤ ومنذ ذاك العهد هم يحيون من أمهات كتبنا كل مفيد . ونحن مع هذا لانبالي بما يصنع الغريب لنا ولا نصنعه لأنفسنا . ومضى أكثر من قرنين والغربيون يطبعون من كتبنا في ايطاليا ثم في هولاندة وغيرها حتى انتبهنا في القرن الماضي لصنع الحروف والطبع بها ، هذا بعد أن أنشأت معظم الدول الأوربية مطابع لها عربية وكانت بدأت منذ القرن الرابع عشر تنشيء مدارس في بلادها لتعليم اللغة العربية وتحرص على جمع مخطوطاتنا حرصها على أهم ذخر تقتنيه ، ولذلك كانت خزائن العواصم في الديار الاوربية لا تخلو الواحدة منها من ألوف من المخطوطات العربية التي أخذوا أكثرها بالشراء الشرعي من خزائن الشرق بعد أن زهدت فيها وما عرفت لها قيمة أدبية ولا مادية . أما الغربيون وعلماء المشرقيات منهم خاصة ، فما فتئوا الى الآن يطبعون النفائس النادرة من كتبنا بأمانة وتدقيق يخدمون بذلك العلم عامة والعرب والعربية خاصة .

لو لم يكن من نتائج هذا الاحتكاك بين المدنيتين الغربية والعربية الا أن الناس أدركوا بعد زمن أن لاحياة لهم بغير العلم والصناعات على مثال الغربيين لكفى في عظيم شرفه وجزيل فائدته . فقد كان الناس قبل سبعين أو ثمانين سنة يساق أولادهم الى الكتاتيب في البلاد الشامية بقوة الجند والدرك ، وكان التعليم على عهد محمد علي في الديار المصرية مكروهاً عند المصريين كرهاً شديداً حتى اضطرت الحكومة المصرية في بعض أدوارها الاولى أن تتخطف تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى كما يتخطفون عساكر الجيش ، فزاد اليوم اقبال المتعلمين على المدارس زيادة مستغربة وغدا أهل كل قرية بل أهل كل قبيل في البوادي يحتالون الى تعليم أبنائهم بكل حيلة . دع سكان المدن فانهم من ذلك على حصة موفورة .

هذا ما كان من أمر التعليم أما سائر مرافق الحياة فكانت أحط من ذلك أيضاً . فالطب وأمور الصحة وتنظيم المدن واختيار المياه الصالحة للشرب كان مما لايؤبه له كثيراً ، ولذلك كانت الطواعين والاوبئة والأمراض الوافدة تحصد الناس حصداً كلما انتشرت ، والناس لا يعرفون دواءها ولا من يفكر في تخفيف ويلاتها . ومنهم من يعزو ذلك الى أسباب سماوية ، يغضب الديان على الانسان فيرسل عليه هذه المهلكات ، أو يقوى سلطان الجن على الانس فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، او يحل بهم نكد الطالع فتساورهم النقم وتتخطاهم النعم . ولذلك كان من الناس من يفزعون في مداواة أمراضهم وجنونهم وآلامهم العصبية الى المشايخ والرهبان ، وكان لمزارات الأولياء وأديار القديسين نصيب وافر من الاقبال ، لا يجد بعض الناس ملجأ غيرها لمداواة عللهم وأسقامهم ورقية شياطينهم وأبالستهم التي تلبستهم ولابستهم ، فان كان في فرنسا « لورد » ففي بلاد العرب منها عشرات . أما اليوم فأهل المدن الا قليلا عرفوا مسائل الصحة والوقاية وأصبحوا يتطهرون على الأصول ويتبعهم من أهل القرى الاقرب فالاقرب

من المدن ، وصار البدوي والحضري على السواء يعرفان قدر التطبب في الجملة .

ويطول بنا مجال القول اذا أردنا تفصيل ما أخذه العرب عن الافرنج فقد تعلموا من أهل الغرب معنى الوطن والوطنية وحب الجنس والقومية ونقلوا أوضاعه الاجتماعية والمدنية والسياسية كالمجالس النيابية والحكومات الدستورية وأخذوا منهم أصول الصحافة فأنشأوا صحفاً ومجلات تعنى بالأمور السياسية والمالية والأدبية ، ومنها الهزلي والجدي ، ومنها ما يكون في موضوعات اختصاصية ، ومنها ما يصدر لتسلية الشعب وتعليمه البسائط على مثال ما عند الغربيين منها ، فأثرت مطالعة الصحف في عقول من أكثروا تلاوتها ، ودخلت الأفكار الجديدة أوساطاً ما كان يظن أنها تهتم بها وتستفيد منها ، وبدلت من طرق التفكير وأصول المعايش ونظام المجتمعات ، وعلمت الناس شيئاً من التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والزراعة وحالة الأمم وبماحكات رجال السياسة وغيرهم في العالم وأصبحت الصحافة حاجة من حاجات المجتمع لا يستغنى عنها بحال .

وبفضل الصحف السيارة والدورية والكتب المؤلفة على الطراز الغربي ودروس بيوت العلم ومواعظ المعابد ودور الغناء والتمثيل واسطوانات الحاكي واذاعات الراديو أصبحت الفُصَح من الألفاظ العربية في ألسن الناس وعلى أسلات أقلامهم ومكتوباتهم كأنها من المتعارف . وظهر في العرب رجال نابهون في القانون والادارة والجندية والطب والهندسة والزراعة والكيمياء والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والشعر والكتابة والادب والتصوير والموسيقى والنحت والنقش والطيران ، ومنهم من لا يقل عن أرقى الطبقات أمثالهم في الغرب . وعرف العرب أن أعظم سبب لارتقاء العلوم والصناعات في الغرب هو الاختصاص فأخذوا يخصون في العلوم ويتقنونها اتقاناً محكماً على مثال من سبقوهم فيها .

ولا نبالغ اليوم اذا ادعينا أن جمهرة كبرى من شبابنا بما اختصر لهم من مراحل التعليم وبما حدث من طرق التدريس العملية الجميلة قد

تعلموا أشياء كثيرة من ضروب العلم أصبحوا بها مفخرة بمعارفهم ، وما كنا نسمع بمثلها يجتمع لفتى في الخامسة عشرة من عمره ، ولا بالاطفال من البنين والبنات يربون في رياض الاطفال هذه التربية العملية الصحيحة ولا بربات الحجال ينافسن في التعليم العالي الرجال .

كل هذا أتانا من حسنات المدنية الغربية وتقبلناه بقبول حسن ، والغرب في معاناته ليس قديماً كثيراً على ما يظهر ، ذلك لأن العلم كما قال شارل ريشه في كتاب العالم (من مجموعة أخلاق هذا الزمان) يسير الى الامام بسرعه تحير العقول ، ومع هذا لم يبرح فتياً غض الاهاب وعلى ما كتب لطاليس وأرخميدس من النبوغ لم يعرفا شيئاً مما يعلم اليوم في المدرسة الابتدائية ، وأجهل شاب حاز الشهادة الثانوية يحسن اموراً كثيرة كان جاليله يجهلها بالمرة ، ولم يمض من عهد فرنكلين الى آنشتين مائة وخمسون سنة كاملة ، ولم يكن يعرف علم مطمورات الارض من النبات وغيره ولا علم الجراثيم ولا الحاكي ولا الطيران ولا السكك الحديدية ولا الحل الطيفي . فعمر الانسانية العلمي لا يقدر له أكثر من مائة وخمسين سنة ، وهي أربعة أجيال نرى وأنت ترى أن هذا العمر غير طويل اهـ .

أخذنا من الغرب طب الحيوان والدواجن ومكافحة الحشرات ، وكان الجراد وحده اذا انتشر في قطر يفقره ويقفره ، واستعملنا الأسمدة الكيماوية والطرق الحديثة في الري وحرث الأرض وزرعها وحصد الغلات من الحقول وحملها ودرسها وتذريتها بأدوات ما كنا نعرفها . وهكذا استعملنا المكابس والمعاصر والمحالج والمغازل والمناسج وتعلمنا تمديد الخطوط الحديدية وفتح الانفاق وبناء الجسور والطرق والمرافىء والخزانات والمنائر وحفر الآبار الارتوازية واقامة الدور ذات الطبقات الكثيرة وتوليد الكهرباء ومد أسلاكها وانارة المدن والقرى بها وتسيير عجلاتها في الحواضر والضواحي واتخذنا أصول البريد الجديدة والبرق والهاتف واللاسلكي والسلك البحري والراديو . واقتبسنا منهم تنظيم المدن والبلديات وفتح الشوارع

والساحات ورصف الطرق وجر المياه في قساطل ومناهل وتجفيف المستنقعات . واقتبسنا أصول الجندية والبحرية وتدوين الدواوين وأسلوب الجباية وادارة المصارف والجمارك وأصول الشركات وتأليف الجمعيات والمؤتمرات ووضع الاحصاءات والمفكرات والجزازات والاعلانات وجميع الأصول الحديثة ، وتمثلنا أكثر صناعات الغرب القريبة المأخذ فأنشأنا معامل الأنسجة والأصواف والأجواخ والجلود والاسمنت وحفظ الثمار والبقول وغير ذلك . كما أنشأنا مدارس على مثال مدارسهم ومستشفيات على صورة مستشفياتهم وفلدناهم في الحسن والقبيح . وأثروا فينا بمدارسهم وجامعاتهم وأنديتهم ومعاملهم ومخابرهم ، وشاركناهم في الانتفاع بأكثر ما اخترعوه وكشفوه الا أننا ويا للأسف حتى اليوم لم نر اسماً لعربي واحد معاصر اخترع اختراعاً مفيداً وكشف كشفاً جديداً ، يضاف الى مئات من المخترعات والمكشوفات التي كشفها علماء الغرب وبقينا عن عملهم بمعزل وكان أجدادنا على مثالهم اليوم يفكرون ويبحثون .

وجاء فيهم أمثال الكندي وابن سينا وابن رشد والفارابي وابن زهر والرازي وابن جابر والبيروني وابن الهيثم وابن باجة وابن خلدون وابن الرومية والبتاني وبنو موسى بن شاكر وأبناء بختيشوع وأبناء ماسويه وابن جزلة وابن يونس والفرغاني وابن البيطار والخوارزمي والهمداني الى أمثالهم ممن نبغوا في العلوم المادية . ولا نذكر الا بعض من اشتهروا عند الغربيين منهم . أما علماء الشرع والآداب فأكثر من أن يحصوا أو أن يشار اليهم وفيهم من هو كأفضل الممتازين من علماء الغرب منذ انبعثت نهضته الاخيرة . وعلماء العرب هم الذين نقلوا علوم اليونان والفرس والهند وزادوا عليها وبرزوا في أكثر مظاهرها وهم الذين عرفوا أوربا اللاتينية والانكلوسكسونية بالآداب اليونانية والفلسفة اليونانية ، ونشروا أنوار معارفهم في الغرب من أرض الاندلس وصقلية ، فشبه جزيرة الاندلس تولت نقل الحضارة الى غربي أوربا ، وجزيرة صقلية تولت نقلها الى أواسط أوربا . وفي بلرم عاصمة صقلية أنشأ العرب أول

مدرسة طبية في العالم ، ولم ينشأ مثلها في الامم الاخرى الا بعد سنين وكانت كتب العرب في الطب وفيرة تقرأ في جامعات الغرب بل عليها المعول مدة ستمائة سنة .

نعم كان أجدادنا العرب كذلك في العلم والعمل على ما بسط ذلك جملة من العلماء أمثال دوزي ودروي وسيديليو ولبون وغوتيه وسنيوبوس ورنان وهوار وريسون ودي كاستري وميجون ولافيس ورامبو . قالوا ان العرب برزوا في علم الفلك لأنهم امتازوا بالرياضيات واخترعوا أساس حساب المثلثات . وقد كتبوا أول كتاب في الجبر وكشفوا الاقطار فدونوا كل مايفيد علم الجغرافيا وقالوا بكروية الارض ، واخترعوا البارود وعمل ابرة السفينة ، وعلموا أوربا صنع الكتاب والورق ، وعرفوا طريقة عمل الجليد الصناعي ، ولم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من الآلات . وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الاثقال ودعاهم الى استعمال الربع والاصطرلاب في علم الهيئة ، واستخدام الموازنة في الكيمياء وصنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة . ورسموا خرائط النجوم المنظورة في فلكهم وعرفوا حجم الارض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين واستعملوا أول الناس الساعات المتنوعة ولا سيما الساعة الرقاصة وكشفوا أجزاء مهمة في الكيمياء كالحامض الكبريتيك وحامض النتريك والكحول فاستخدموا الكيمياء في المعالجات الطبية ، وكانوا أول من نشر تركيب الادوية والمستحضرات المعدنية ، وقرروا نواميس سقوط الاجسام وكان لهم رأي جلي في طبيعة الجاذبية ورأي سديد في القوات الميكانيكية واصطنعوا في نقل الموائع وموازنتها الجداول الاولى للجاذبية النوعية ، وأصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويحس المرئي فيظهره ، فقالوا

ان الشعاع يمر من المرئي للعين ، وأخذوا ارتفاع القطب ودور كرة الارض المحيطة بالبر والبحر وحققوا طول البحر المتوسط الذي قدره بطلميوس باثنتي عشرة درجة فأرجعوه الى أربع وخمسين أولاً ، ثم الى اثنتين وأربعين درجة أي الى الصحيح من مقداره تقريباً .

وعرفوا النشوء والارتقاء فكانوا يدرسونه في مدارسهم ، واكتشفوا مرض النوام وكادوا يهتدون في الاندلس الى معرفة الجراثيم على ما يفهم ذلك من كتاب ابن خاتمة الاندلسي في الوباء ، واكتشفوا منابع النيل قبل أن يتصدى لها الافرنج ، ووصلوا الى أماكن من مجاهل افريقية ونشروا فيها دينهم ، قبل أن يبلغها الغربيون بقرون . وأدركوا أن في الارض أقطاراً لم تكشف قبل أن كشف كولمبس وفاسكودي جاما ما كشفاه من الارض بمعاونة بحارة من العرب . وبالاستفادة مما كتبه علماؤهم في الجغرافيا والفلك والرياضيات .

وسبق العرب الى اختراع طريقة الكتابة بالحروف البارزة وبدأوا في الاندلس بالطيران ، حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى ووضع الآلة المعروفة بالمثقال لمعرفة الاوقات ، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلاً يخيل للناظر أنه حقيقة .

وعرف العرب الطبع بغير الحروف قبيل مخترعه جوتنبرج بأربعمائة سنة ، وهم الذين عرفوا صنع الشمع والجوخ وعلموهما أهل أوربا ، وما علموه في الزراعة والري واستخراج المعادن المختلفة وكل ما ينفع التجارة من دور صناعة ومرافىء بحرية في كل أرض حلوها مثال من مدنيتهم الباهرة . واذا أردنا أن نحكم عليهم بآثارهم تكفي نظرة قليلة على ماتركته الايام منها في الاندلس ومراكش وتونس ومصر والشام وغيرها وبها نتبين جمال ذوقهم في الفنون الجميلة وانهم أمة شعر وخيال كما أنهم أمة علم وعمل .

كان يقرأ الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية في أوربا في كتب

العرب ، وظل قانون ابن سينا في الطب يقرأ في جامعات الغرب حتى القرن الثامن عشر ، ولذلك نرى مئات من الالفاظ الطبية والفلكية والبحرية وغيرها دخلت في لغات أوربا ولا تزال برهاناً على مدنية أعطى فيها القوي الضعيف بعض مايملك . وأفضال العرب على جامعة مونبليه وجامعة بادو لاتنكر ، وكثير من كنائس فرنسا هندسها مهندسون من العرب ولاسيما كنيسة نوتردام دي باري في باريز ، فانه ثبت انه عمل فيها مهندسون من العرب . وربما كان ربع اللغة الاسبانية من اصل عربي وكذلك دخل مئات من الالفاظ العربية في البرتقالية والفرنسية والايطالية حتى ان لغات شمالي اوربا نفسها قد دخلها كثير من الالفاظ العربية ، وأهم ما نشره العرب بين الامم وما كان لهم به عهد على ما يقول غوستاف لبون هو « التسامح » و « حسن الاخلاق » فدلوا بذلك على ان المحافظة على الدين في الانسان لاتمنعه من ان يتقبل كل فكر جديد نافع .

أرانا نكاد نخرج عن موضوعنا الذي رسمناه في أول المحاضرة ، وهو حظ العرب اليوم من اقتباس مدنية الغرب ، وما كان تعرضنا لما أخذه الغرب عن العرب الا للتذكير ، والتفصيل في ذلك قد كتبت فيه كتب مطولة في لغات العلم الحديث وكل من درسوا الحضارة العربية من الغربيين مجمعون على الاعجاب بما أتته العرب بتجاربهم في الصناعات والطب والكيمياء والاقرباذين وفي تبليد الاشجار والازهار وغير ذلك .

كان من أهم الدواعي في تراجع الحضارة العربية أن أعظم عظيم في العرب كان يرى من الطبيعي أن يعمل بيده في صناعة من الصناعات وأن يعنى بزراعته ويعمل فيها بنفسه ، فلما ضعفت الاخلاق وانغرس روح الاتكال في أهل الاجيال التالية وأخذوا يعتقدون أن الصناعات اليدوية ومذاهب المعاش الطبيعية لا تورث صاحبها شرفاً كما يورثه التمجد الذي يناله المرء في أعمال الحكم والقضاء والجندية سقطت حضارتهم وزاد فقر أهلها وأصابهم في هذا المعنى ما أصاب الاسبان لما قضوا على العرب في بلادهم ، ثم فتحت أمامهم أميركا ، فكان المال يأتيهم بدون تعب ،

واستنكفوا بما أصابهم من الغرور عن تعاطي الصناعات فأمسوا أفقر أمة في الغرب ، وربما عدهم بعض الباحثين كالفيلسوفين الفريد فوليه وغوستاف لبون من أحط الأمم الغربية ، وأنا أجسر وأقول ان مصر العربية اليوم أرقى من اسبانيا في كثير من مظاهرها .

اشتدت سيطرة رجال الدين المتعصبين في الاسلام بعد القرن الخامس من الهجرة بما كان لهم من النفوذ في قصور الملوك المستبدين الجاهلين فضيقت منافذ العقل على الباحثين ، فبدأ الانحطاط يتسرب الى أوضاع الشعوب العربية . والامة التي لا ترتقي تتراجع . وكأن نسبة الترقي في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر عند أمم الغرب كانت على مقدار التدلي في كل شأن في البلاد العربيه . ومن أهم ما قذف بالأمة العربيه من حالق كون من استولوا عليها كانوا من عناصر غير عربية ، اهتموا بدوام سلطانهم أكثر من اهتمامهم بالمحافظة على تراث العرب العظيم ، فأكلوا من ثمراته وانتفعوا ببقاياه ، فلما نضبت هلكوا واهلكوا من حكموهم .

علل بعض الباحثين في ان العلة في انحطاط العرب كانت دينية ، والحقيقة أن الدين في سذاجته الأولى لم يحل دون العرب والاخذ بكل جديد في الفلسفة والفكر ، وما تسرب هذا الضعف الا بما دخل على الدين من الاوهام فأخذ بعضهم يعده ديناً وما هو به . مثل الطرق الصوفية التي اخملت النفوس وأضلت العقول . وهذه الاوضاع هجمت عليهم من الاعاجم والآريين من الهنود ، فصاروا في بعض الاصقاع يفكرون في الآخرة على الصورة التي صورتها لهم طرقهم اكثر من تفكيرهم في أمور الدنيا التي لا تستقيم الا للعامل والباحث والمفكر ، وبالانغماس في هذه المعتقدات — التي يقضي عليها العلم والتربيه الحديثة اليوم — زهدوا فيما عندهم وعند غيرهم من طرق النجاح وأحالوا مسائلهم على الاقدار وكان الاعتقاد بالقضاء والقدر على وجهه المعقول ، من موجبات ارتقائهم لاول عهدهم ، وأصبح أيام ضعفهم من دواعي تخاذلهم وفشلهم .

مهما قيل في سيطرة الكنيسة في الغرب قروناً طويلة حتى تحررت الشعوب من سلطانها فانه كان منها أمر واحد لا مجال للشك في فائدته وأعني النظام المشدد على رجالها حتى لقد حرمت الكنيسة عليهم الزواج وما كان في اصل الدين محرماً على رجال الدين حتى لا يدخل خلل في تطبيق الانظمة المرعية ، وبهذا وجهت الهمم الى مقصد واحد معين مهما كان في سبيل تحقيقه من المتاعب فهو من حيث النتائج نافع لانه يعلم التسلسل في الاعمال والدؤوب عليها ويلقن الناس حب النظام والتدقيق ، وهذا ماحرمه العرب لان لا رهبانية في دينهم وليس لاحد على احد سلطان الا ماقضى به الشرع العام .

اما ما قيل من ان المدنية هي ابنة الارض الباردة ، فلا يصدق الا الى حد معين ، ولو كان الامر كذلك ما قامت مدنية العرب قيامها الباهر ، وهي من صنع عرب الجزيرة اولاً ، ثم من صنع من انضم الى لوائهم من الفرس وغيرهم من العناصر التي انضوت اليهم ، واقتبلت بالرضى معتقداتهم وأوضاعهم . بل لو صح ذلك لما قامت مدنية الفراعنة ام المدنيات القديمة كلها في قطر نصف سنته حرارة ورياح سموم . لاجرم اننا نشاهد اليوم في الغرب اهل الشمال من كل امة أرقى وأنشط من أهل الجنوب في عدة اعتبارات ماخلا الجزائر البريطانية التي لايكاد يختلف شماليها عن جنوبيها بهوائه وسمائه . ولكن هذا النظر أيضاً يختلف ، ويتخلف اذا درسنا حالة رقي اليابان وعارضناها بالانحطاط الطاريء على الصين ، ولو صحت نظرية البرودة والحرارة في ارتقاء الامم لكانت سيبريا أرقى من فرنسا وألمانيا وانكلترا ، ولو جاز أن يقال ان للمعتقدات اثراً ظاهراً في تدلي الشعوب لناقضنا ما في اديان البراهمة والبوذيين من اشياء ، وقد رأينا في تاريخ من يدينون بها أدواراً مهمة من الارتقاء لا يسع منصفاً انكارها .

المدنية العربية في مجموعها وليدة البحث والدرس والنظام وحسن الادارة وهذا ما تطمح اليه الشعوب العربية واخذت تقتبسه وتتمثله ، ونأتي على ذلك

ببرهان قريب اذا نظرنا الى الشعوب العربية التي خملت ولم تتمثل الحضارة كأهل اليمن والحجاز ونجد اذا قيسوا بأهل مصر والشام وتونس الذين عملوا وتعلموا . وفي اليوم الذي يدخل العلم حراً طليقاً على عامة الشعوب العربية والمستعربة ترقى كلها الى الدرجة التي تتطاول اليها من الاخذ بقسط وافر من المدنية ، ولا يكون حظها على الاقل في هذه السبيل اقل من حظ الشعوب البلقانية ان لم نقل اكثر من حيث الاخلاق والتربية وصحة التفكير والتقدير .

في خدمة العربية (١)

هل وفت العربية بغرضها

اذا تدبرنا ألفاظ الكتاب والسنة وألفاظ الشعراء والخطباء ، وأمعنا النظر في بنية الكلام العربي منظومه ومنثوره ، منذ كانت اللغة العربية لغة شعر وخطب الى أن غدت لغة شريعة وأدب الى أن درجت لسان علم وسياسة ، ثم نظرنا فيما أبانت عنه هذه الالفاظ ، وما تركب منها من أغراض ساذجة أو مركبة — اذا تدبرنا كل هذا يعرض لنا سؤال يستلزم جواباً ، وهو هل وفت العربية بما تفي به لغة عظيمة خلال هذه القرون الطويلة ، أم عصت على القيام بالغرض المطلوب لما تم لها عهد الجاهلية ، ويقدر بمئة وخمسين سنة وقد خرجت من جزيرة العرب الى الاقطار التي رحبت بالاسلام .

وعرفنا من سير هذه اللغة وسيرتها أنها كانت في جاهليتها وعالميتها سواء ، تؤدي المقاصد وتوفي على الغاية ، كانت كذلك وهي بمعزل عن العالم ، وكذلك صارت لما عرفت لها معان اقتضتها وضع ألفاظ ومدلولات

---

(١) فيما يلي نموذج من الخطب التي القيناها في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة

واصطدمت يوم امتزجت بالاجانب ، وسرت اليها لوثات أغلاطهم وأساليبهم ولهجاتهم ، كما سرت اليها طرق تفكيرهم واللهج بأساليبهم بالجدل والمناقشة

العربية ما خارت قواها يوم أُريدت على نقل علوم اليونان والفرس وغيرهم ، بل زادت قوة عندما ضمت الى متنها كلمات وكلاماً ماعرفها أبداً ابن الجاهلية ولا ابن الصدر الاول ، تبنت كل ما دخل عليها وما أنكرته فعاد كأنه أصيل فيها غير دخيل عليها . وطريقتها أن تشتق من أصلها ما استطاعت اشتقاقه فتضع له لفظاً يقارب ما تقصد اليه من معنى ، وما لم تجد له في بحرها الطامي مقابلاً من الالفاظ تنحته أو تشذبه حتى تقرّبه من ذوقها فاذا أعجزها كل أولئك اقتبست اللفظ كله وان خالفت بعض حروفه حروفها ، وبعد بأسلوبه قليلاً من أسلوبها . وهذا من بعض الادلة على أنها مستعدة للتجدد غير جامدة ولا راكدة .

مضت اللغة على هذا النحو تقوى بانتشار العلم وتضعف بضعف أهلها والضعف ينالها من زهد أبنائها في العلوم والتجانف عن دراسة الآداب دراسة تبحر . ولقد كاد يذهب من يشخص أعراض أمراضها زمان التراجع الى أنها من اللغات الميتة المحكوم عليها بالانقراض ، فلا تلبث ان تكذب ظنون اعدائها وتعود فتهب هبة جديدة ملؤها صحة ونشاط . ويرجع الفضل في ابلالها من اعتلالها ابداً لاحتفاظها بكتابها الكريم ثم لاستمساكها بآثار المجودين من بلغاء السلف .

قضت هذه اللغة في الاسلام نحو نصف حياتها في استعمال الاسجاع والجناسات فأوشكت ان تضيع رشاقتها بهذه البدعة في نسج كلامها ، وما زالت تهوي فتفسد ملكتها وتخرج عن طبيعتها حتى قيض لها آخر القرن الماضي من نشلها من سقطتها وعاد بها سيرتها الأولى من ترك التكلف والرجوع الى الطبع . ورحنا نشهد كتابتها أشبه بكتابة القرن الرابع ، ونرى شعراءها ينحون مناحي شعراء الحضارة في العصر العباسي الأول والثاني ، ومن قرأ مقالة مما تنشره الصحف والمجلات أو فصلا من تأليف حديث صدر من قلم رجل درس العربية دراسة نظامية او قصيدة من

قصائد المعاصرين ، يدرك بأدنى تأمل كيف أخذ الكتاب والشعراء يحسنون وصف الكلام البليغ ويقدّرون الالفاظ بقدر المعاني ، وكانوا الى عهد قريب يَصُفّون الالفاظ صفاً لا ينم عن ذوق ، ويكثرون من المترادفات ليتألف معهم السجع والازدواج وتستقيم القافية والوزن . أي أن اللغة آضت في النصف الثاني من القرن الاخير ورأس مالها الفاظ لا يعرف مالكوها كيف يتصرفون فيها . والالفاظ مهما تنوّق في اختيارها لا تبرز في قالب مقبول الا بجودة التركيب ، فالبلاغة في التركيب والفصاحة في تخير الالفاظ . ومهما حاول الكاتب احسان القوالب لا يكون الا الى التماهة اذا كان المعنى في ذاته مبتذلاً مطروقاً . والمعاني كما قال العارفون صوغ العقل واللفظ صوغ اللسان .

وحاول في هذا العصر بعض المتحذلقين الذين لم يُعنوا بدرس أدب هذه اللغة أن (يفرنجوا) ألفاظها وتراكيبها ، فعمدوا الى استعمال كل ساقط من اللفظ والتراكيب يعبرون عن أفكار لا تستسيغها أذواقنا ، يريدون بهذه البدعة أن يستروا نقصهم بدعواهم أن كتابتهم عصرية ، وشعرهم عصري ، وأنهم يحببون اللغة الى أهلها بهذا الاسلوب الذي ادعوا له الرشاقة وما هو الا السماجة بعينها ، وكيف لعمري تصح دعواهم وهم مادرسوا الأدب العربي ولا الادب الافرنجي يملون مالا يحصل له ، ويضعون جملًا لو سألتهم تفسيرها لعجزوا وجمجموا .

حاولت غير مرة أن أنفذ الى روح هذا الادب العصري الذي حمله الينا المفسدون فلا وربك ماتفهمته ولا تذوقته ، ورجعت بعد العناء وبيدي شعر غث بارد تجرد عن الشاعرية وخرج أحياناً عن الاوزان العربية لا موضوع له ولا مغزى ، وانقلبت بنثر لا ماء له ولا رواء ، خال من كل جزالة ، معقد غامض لا يصدر مثله الا عمن يهذي . هذا ادب هؤلاء القوم الذي صدّعوا به الرؤوس ، وعتبوا على دهرهم ان كان المقبلون عليه اقل من القليل . ولقد قرأنا ادب الافرنج فأعجبنا به واستفدنا منه ، وقرأنا طائفة من ادب الامم الاخرى منقولاً الى لغة

الافرنج فهدينا به الى اشياء كثيرة ، اما هذا الادب العصري فعصرناه عصراً متيناً فما رأينا له بلة ولا طلاوة ، وحرنا وقد أزعجتنا دعوى أدعيائه وصافهم في أي رف ندحسه وفي أي كوة ندسه .

انهم يحاولون ان يأتونا بلغة يبتدعونها على هواهم ، ويرغموننا على ان نشايعهم بأنها لغة عربية ، والفصحى يخالف روحها ذلك ويأباه ، العربية ترذل من يعقها ويزعم أنه بار بها ، العربية خلقت كما قال العلامة رنان كاملة من اول نشأتها خلافاً لاكثر اللغات التي كان الأيام يد في تكملها ، تكيفها حاجة الناطقين بها ويعمل الزمن في تنميتها . وقد جرت لغتنا منذ عرفت على نظام واحد وجاءت تامة بصيغها ومبانيها تتجدد بالمعاني التي تدخل عليها والالفاظ التي تستدعيها تلك المعاني .

ولقد رأينا أدب العرب في الاندلس والغرب كأدبهم في فارس والشرق لاتفاوت بينهما في القواعد والروابط والالفاظ والتراكيب اللهم الا ان كانت هناك مسحة أتت من بعض صور المعاني المنبعثة من علم المؤلف أو الكاتب او الشاعر ومصطلحات اقليمية وعادات أهله . وهذا لان المصادر التي يستقي منها أهل الخافقين واحدة وما حدثت نفس احد ابناء اللغة ان يخرج عنها قيد أنملة ، وأن يخرق اجماع العارفين الذي تسلسل اكثر من خمسة عشر قرناً . ولو لم تصب العربية بمصيبة التكلف والاسجاع لكانت صور الاداء في القرون التي سبقت الاسلام كصورها في القرون التالية الى يوم الناس هذا . كانت الالفاظ اذا لوحظ فيها الابتذال في بعض العصور بضعف ملكة الادب يقوم أناس يرجعونها الى محجتها المرسومة ، ويحيون من معالمها ما تعود به اشد رصانة ، ويبعثون من شواردها وفصحها ما اماته الجهل وقلة العناية .

نعم كانت اللغة اذا مرضت حيناً من الزمن لاتلبث ان تبرأ بظهور أساة من البلغاء يكشفون اسرار فقهها ، ويقومون منآد الالسن والاقلام ويتوفرون على « التوسع في علم اللغة خاصة » لتكثر الالفاظ عند « من يطلب الترسل وقرض الشعر وعمل الخطب » ، « وليعرف العلوي من الكلام فيستعمله والعامي فيتقيه ويجتنبه » .

وجاء عصر منع الفقهاء في بعض الاقطار العربية قراءة التفسير زاعمين ان بقراءة تفسير القرآن يموت السلطان وما يموت في الواقع الا الجهل ، وما حاول العابثون بذلك الا ابقاء الناس في عماية والتزلف من السلاطين ويستحيل على من لم يحفظ القرآن ويتدبر معانيه وينظر في احكامه ان يحرز منزلة في البلاغة وعلوم الشرع ، وهذه العلوم لايتقنها من ليس له حظ من الكلام العربي ، وهل القرآن الا كتاب ادب العرب كما هو كتاب شريعتهم ؟ وفرق بين فقه يدونه فقيه يكون على شيء من تذوق البيان وفقه يكتبه فقيه ليس من البلاغة على عرق ، وهكذا الحال في سائر العلوم . ولو كتبت جميع علوم الاسلام بلغة بليغة ما استلزم تحصيلها الاعوام الطويلة .

وما خلد ماكتبه نصارى العرب وغيرهم من ارباب النحـــل الذين ظهروا في عصر الاسلام الذهبي اي في القرآن الثالث والرابع من الهجرة الا لانهم كانوا يدرسون القرآن على انه المصـدر الاول في احكام اللغـة العربية ، ولا نمثل الا بأبي اسحق الصابي وحنين بن اسحق ويحيى بن عدي ممن كتبوا تآليفهم مؤمنين ببلاغة القرآن وان لم يؤمنوا به ايمان المؤمنين من اهله .

وبعد أن دخل الفساد على اللغة أواخر القرن الأول للاختلاط بالأعاجم غدا أهل اللسان يتعلمون لسانهم في الكتب ، ويتخرجون بجهابذة اساتذته تخرجاً لمنابذة العامية والابقاء على الفصحى . ومن قعـدت به الهمة عن اختيار الجيد من المفردات والجيد من المركبات فهو العيّ كل العيّ ، وإن قضى أعواماً في درس الصرف والنحو والبيان والبديع .

ما اللغة الا مفردات وقوالب لا دساتير وتعليلات ، وكم من حافظ للقواعد عاجز عن البيان العجز كله ، وما نخال الجاحظ وابن المقفع حفظا من مطولات النحو ما حفظه بعض علماء النحو وما كان الأحمدان أحمد ابن يوسف الـكاتب وأحمـد بن يوسف المعروف بابن الداية كابن المعتز والعسكري في معرفة الجناس وزخارف البديع ، وثقوا أن ابا تمام

والبحتري والمتنبي ما عرفوا علم العروض كما عرفه اقل العروضيين ، وان القاضي علي بن عبد العزيز وتلميذه عبد القاهر الجرجاني ابدعا ببيانهما ما لم يبدع بعضه من وضعوا قواعد هذا الفن . ولو حصر اهل البلاغة قرائحهم في الحدود الضيقة التي حددها البيانيون لما ارضوا انفسهم ولا ارضوا الادب ، ولرجع هذا اللسان القهقرى فأجدب بعد الخصب ، وشحب بعد النضرة . لا جرم ان اللغة كانت تضعف اذا ظن الأمناء عليها ان حفظ القواعد وحدها مما يقيها عوارض الانحلال .

كانت اللغة وافية بحاجة اهلها اذا كان المنتدبون لتغذية عقول بنيها على جانب من المحافظة على الرسم الذي وضعه البلغاء يجهدون جهدهم في تنمية ثروتها من الألفاظ والمعاني ، مراعين حالة جسمها وروحها ، وجسمها ألفاظها وروحها معانيها . واذا كان معظم اللغات الأوربية يشتق من اللاتينية واليونانية ما يعوزه من الالفاظ الجديدة فان العربية تستقي من مادتها الثرّة التي لايكاد ينضب معينها على الدهر .

والى هذا ما كانت العربية لغة بداوة حتى يوم كانت لاتعرف غير الجزيرة موطناً ، بل خصت على اختلاف الأزمان بدقة التصوير ووجازة التعبير فبرزت لغة حضارة تقبل أصناف المعاني ، بقدر ما يتسع له صدرها وتشتد اليه حاجتها . ولو كانت العربية لغة بادية جافية جاسية ما وقفنا في المعلقات السبع وغيرها من الشعر الجاهلي على أخيلة عجيبة ، وحكم بارعة ، ومعان لا تصدر الا عن مجتمع يتسامى ببلاغته ، ويُزْهى بأدبه ، وفي معلقة زهير بن أبي سُلمى مثال ظاهر يؤيد هذه الدعوى . وهل يتأتى أن يقول مثل هذا الشعر الا رجل شاهد ما شاهد فوصف ماوقعت عينه عليه

وهذا ما يحدونا على أن نؤكد أنه لا عيب في اللغة بل العيب في الدارسين لتخلفهم عن اعطائها استحقاقها من النعهد ، كما يبذل طلاب اللغات الأجنبية جهداً فائقاً لاتقانها . ورأينا في القديم أهل فارس وخوارزم يبرّزون في تمثل آداب العرب حتى كادوا يبذون أصحاب هذا اللسان

أنفسهم ، وجاء منهم بلغاء عزّ نظيرهم في العرب الأقحاح . وأتى الترك بعد الفرس فكانوا عنهم جدّ مقصرين ، يصرف مشايخهم أعمارهم في دراسة العربية ولا يفصحون بها . وما عرفنا منهم على طول أيامهم وهي ستمائة سنة كاتباً جزلاً ولا شاعراً فحلاً بلغة العرب ، على حين يعد بلغاء الأعاجم بالمئات ، والسبب في هذا النقص فساد طريقة التعليم عندهم على ما نظن .

وأكثر ما خلفه الترك من آثارهم بالعربية يدور على التفسير والفقه والكلام والتاريخ والنحو والصرف والبيان وبعضه لا يخلو من العجمة ، وبوشك ألا يتفهمه الناظر فيه الا بعناء وجهد . وكل من طالت عشرته لكتبهم يدخل الضيم على بيانه العربي ولو كان عربياً بحتاً . نعم كان معظم من تعلموا العربية من قدماء الأتراك لا يحسنون النطق بها ، ولايقوون على سبك جملة مقبولة خلافاً للأعاجم من علماء المشرقيات اليوم ، فان في وسع المتوسط من المستعربين منهم أن يكتب جملة مفهومة وينطق بها على وجه الصحة ، وربما كان في فهم النصوص بمكان لا يقل عن أبناء عدنان وقحطان .

ولقد رأينا الهنود والأفغانيين ينقنون العربية ويكتبونها برشاقة تكاد توازي رشاقة البلغاء من أبنائها الخلص ويعترفون ضمناً أن اللغة الأوردية والأفغانية ولغة الملايو لا تتسع لما يتسع له صدر العربية ، ولذلك كانوا يعتمدون على اللسان العربي في التأليف ، وندر في الفرس من كتبوا تآليفهم بالفارسية وكانوا يفاخرون بوضع تآليفهم بالعربية ، ولولا أن رنّت في العالم نغمة القوميات في القرن الماضي فحاول أهل كل جنس أن ينشروا لسان بلدهم عادين ذلك من الوطنية ، لرأيت الفرس والهنود والأفغان والأتراك والجاويين والصينيين وغيرهم يكتبون الى اليوم تآليفهم بالعربية خصوصاً وبعض لغات الأعاجم ليست من الالسن المكتوبة كالطاغستانية والجركسية والسودانية والكردية والبربرية . ويحاول دعاة

قوميتها مع هذا أن يضعوا لها الآن معاجم وقواعد لتصبح لغة مكتوبة كما هي لغة محكية (٢) .

ومنذ القرن الرابع قال أبو هلال العسكري : ولا نعرف اليوم علماً جاهلياً ولا اسلامياً الا وأهله عربيون ومتعربون يكتبون باللفظ العربي والخط العربي . وقال ابو الريحان البيروني : والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به اذ لا تصلح هذه اللغة (أي الفارسية) الا للأخبار الكسروية والاسمار الليلية . وقال في مناسبة اخرى : والى لسان العرب نقلت العلوم من اقطار العالم فازدادت وحلت في الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة .

روى حمزة الاصفهاني عن علماء الآزادمردية اي الاحرار انهم الفوا جميع لغات الامم في الكمية على ما كانوا ناطقين بها ، وعلى الجبلة في بدء التكوين لاتتولد فيها الزيادات ، وانهم وجدوا العربية على الضد من سائر لغات الامم لما يتولد فيها مرة بعد اخرى ، وان المولد لها قرائح الشعراء الذين هم امراء الكلام بالضرورات التي تمر بهم في المضايق التي يدفعون اليها عند حصر المعاني الكبيرة في بيوت ضيقة المساحة . فان كان هؤلاء الاحرار يقصدون بقولهم هذا غمز اللغة العربية من طرف خفي ويعدون من ضعفها ان يضع لها الشعراء الفاظاً جديدة فهو عند العارفين كمال لها ، ذلك لأن التوليد والاشتقاق والتعريب في اللغة دليل حياتها لا موتها وقوتها لا ضعفها .

والغالب أن أحرار فارس نسوا يوم رموا العربية بهذه السبة أن لغتهم في القرون الأولى للاسلام كانت جافة خلوها من الالفاظ العربية فاضطرهم نقصها الى أن فتحوا بابها على مصراعيه لقبول الالفاظ العربية

---

(١) راجع في كتابي « الاسلام والحضارة العربية » الفصل الذي عقدته لذكر مواطن العربية واثرها في اللغات الشرقية والغربية .

فأصبح القدر الذي دخل الفارسية من العربية أكثر من الألفاظ الفارسية الأصيلة فيها . وهكذا الحال في لغة الترك ولغة الاوردو والملايو وغيرها من لغات الشرق . فلا قبول هذه اللغات ألوفاً من الألفاظ العربية مما يعد نقصاً فيها ولا سراية الدخيل والمولد الى لغتنا مما يحسب عليها . وقد قال أبو حيان التوحيدي ان اللغة جارية على التوسع كما هي جارية على التضيق ومن ناحية التضيق فزع الى التحديد والتشديد ومن ناحية التوسع جري على الافتدار والاختيار .

لا جرم أن العربية من أوسع اللغات وفيها من الخصائص التي يقل أن تشاركها فيها لغة شرقية ، وفي تعلمها تنافس المسلمون على تباين عناصرهم وعصورهم مأخوذين بسحر القرآن على ما أخذ به بلغاء العرب العرباء .

الاستعمال محكم

لو حلفنا للعامة بكل محرجة من الايمان أن كلمة سيارة ودراجة وقاطرة وشاحنة وسفينة أرق وألطف وأدخل في موازين اللغة من أوتوموبيل وبيسكليت ولوكوموتيف وفاغون ووابور ما استجابوا ولا صدقوا . ولو قلنا لهم أن لفظ برق وبريد وهاتف أرشق من بوسطة وتلغراف وتلفون ، وجسر خير من كوبري ، ومستشفى من اسبتاليه أو خستخانه ومعمل ألطف من فاوريقة أو فابريكة ، والشّوي أحسن من السلاملك والمثوى أنفع من بانسيون ، والحساء من شوربة ، والشطيرة من سندويتش والذّرور من بودرة ، والجعة من بيرا ، وعقود من كنتراتات ، ويانصيب من لوتريا ، ووقاد أحسن من عطشجي ، ومصرف من بنك ، ودار الندوة ودار الآثار ودار الكتب أحسن من بارلمان وانتكخانة وكتبخانه ما سمعوا ولا أرعووا .

وحيثما انقلبتم في مصر وأنصتم الى المتكلمين في مدنها وأريافها يترامى الى أسماعكم نموذجات غير جميلة من الأسماء التركية ، حتى لتسمع في بعض البيوت القديمة الى اليوم لفظة ابله ، انشتة ، داده ، تيزه ، نانا ،

بابا ، فرشه ، طقم ، طربه ، بقجه ، شنطه ، شلته ، يشمق ، طلمبه ، ساده ، بويا ، يغما ، ماشه ، قولنق ، كليم ، تخته ، خوجه ، جزمه ، شادر ، شاكوش ، أرمان ، بشاورة ، بشكير ، خرده الى عشرات غيرها .

وفي الشارع تسمع كلمات طليانية ورومية وافرنسية وتركية فتراهم يقولون في المطاعم مستاردا ، كومبوستو ، روستو ، فينو ، فلمتو ، كوتليت ، اومليت ، سبكيتي ، ترشي ، بلاو ، ضولمة ، يخنى ، كفته ، اوزي ، صلاطة ، صلصة ، جاتو ، فروتو وعشرات مثلها مما له مقابل في لغتنا وهو أسهل وأسلس على النطق من اللفظ الأعجمي .

نسمع من أفواه المتمدنين والمتمدنات في الصباح والمساء كلمة فاتورة ، مانيفاتورة ، فورمة ، مزورا ، موضة ، بروتستو ، اسقنطو ، كارو ، مناورة ، بلاج ، كابين ، كابينه ، كاباريه ، بوفيه ، اوبرج ، كورنيش ، فرنيش ، مايو ، كلسون ، كومبينيزون ، شورت ، سبور ، لوكاندة ، اوتيل ، اوسته ، فانتيزي ، ياقة ، باترون ، مارمتون ، جارسون ، ميتردوتيل ، روب ، روب دي شمبر ، بيجاما ، جاكيتة ، بالطو ، بنطلون ، ساتين ، موسلين ، اشارب ، ماتينه ، سواريه ، كريم ، بودرا ، روج ، مانوكور ، تواليت ، فيترين ، بانيو ، صالة ، صالون . ولهذه الألفاظ كلها ما يقابلها من العربية وقد يعرفها العامة دع الخاصة ، ولا تحدثهم أنفسهم باستعمالها نكاية بهذه اللغة وكيداً لأهلها ، أو حتى يقال عنهم على الأقل أنهم متمدنون ، والألفاظ الافرنجية أقرب الى أذواقهم من الألفاظ العربية وما شاء الله كان .

وليت شعري متى يبطل في مصر ما تأصل فيها من الالفاظ التركية في الجيش والحياة العامة ورسخت في الالسن والاقلام وليس هناك من ينكرها مثل صول ، قول ، صاغ ، بيكباشي ، يوزباشي ، باشكاتب ، باشمهندس ، سواري ، بيادة ، طوبجي ، الى كثير غيرها ، وقد قيل أن ألفاظ الجيش وحدها تبلغ ألفي كلمة ، وكان مجمعنا عهد الى رصيفنا

العلامة الشيخ احمد الاسكندري رحمه الله النظر مع خبير عسكري في وضع أسماء عربية تقابل تلك الاسماء التركية فوضعا ما وضعا لها من الالفاظ ، ولما هلكا لم نعد نسمع خبراً عما تعبا في وضعه من المفردات . ولا تزال مصر الى الآن مقصرة عن العراق والشام في تعريب ألفاظ الجيش وكان المأمول ان تتوحد هذه المصطلحات في هذه الاقطار الثلاثة .

مساكين علماء اللغة يكدون أذهانهم ويتعبون عيونهم في البحث لايجاد كلمات لا يقبلها الجمهور الا اذا وافقت هواه واستسهل النطق بها وعرضت له عوارض تذكر بها في كل شارقة وبارقة . والعامة على ما يظهر تختار من الالفاظ ما يطرق سمعها بادىء الرأي وتحفظه لا تحفظ بيره . وصعب اكراهها على استعمال ألفاظ بعينها اذا رأت في مألوفها ما يجزيء عنه ويعبر عن حاجات النفس . وثقوا أن كلمتي الجريدة والمجلة اللتين وضعها العلامة احمد فارس اثابه الله لو لم يكن أرباب الصحف انفسهم هم اللذين دلوا عليها لظللنا الى اليوم نطلق اسم بولتين اورفو او مكازين على المجلة وجورنال او غازيته على الصحيفة او الجريدة ، ومع هذا لا نزال نسمع كثيراً من خاصتنا الى اليوم يقولون الجورنال ومن العامة من يقول جورنان بالنون .

وضع هذا المجمع ومجمع الشام ألفاظاً لمسميات أفرنجية ولم تنتشر كلها الانتشار المطلوب لقلة العناية بطرق نشرها ، ولا أكتمكم أني يائس من شيوع بعض ما وضعناه لناطحات السحاب مذ قلنا (الصرح) ومذ اطلقنا (الطزر) على البيت الصيفي و (المشعب) على السيفون و (الاردبة) على البالوعة الواسعة و (المشن) على الدوش و (الوشيعة) على حظيرة الشجر حول الكرم والبستان ، و (الوفيعة) على تلك الخرقة التي يمسح بها الكاتب قلمه من المداد و (الدريئة) على بارفان و (المشوش) على السرفيت و (الدُّدُل) على خدم القهوة أو الكارسونات و (الابريج) على الممخضة و (العتابيات) على المكشطة .

وليت شعري كم يقتضي من الزمن حتى تنتشر كلمة (المجسدة) التي وضعناها لنوت على نحو ما انتشرت الجزازة والاضبارة للاعراب عن فيش ودوسيه ومثل ذلك قولوا في (الاراض) التي وضعت للبساط العظيم الذي يفرش في الأبهاء والردهات و (التحذيف) لتصفيف شعر المرآة وقص أطرافه و (المنوار) (لفربير) أي المصباح الكبير الذي يعلق في الشوارع والحدائق العامة و (المرصدة) التي وضعت لتلسكوب (والمصوات) لميكرفون و (الاجمية) وحمى الاجمية للملاريا .

ومهما يكن فلا ينبغي لنا أن نيأس من نشر ما يعنينا من الألفاظ ، فقد حاولت أن أنشر بعض الفصيح المنسي منذ بدأت أكتب في الصحف فكنت أستعمل لفظة أو لفظتين في المقالة الواحدة أو الفصل الواحد فأصبح ما استعملته مألوفاً بعض الشيء في البيئة التي عملت فيها ، وحصلت بها أنسة للقراء فلم تنفر منها الأسماع . فلو كانت وسائط النشر أوسع لدي لصادفت تلك الألفاظ من الرواج بالضرورة أكثر مما صادفت ، وبخاصة اذا تبناها بعض رجال الصحافة فان منهم من عاونوا على اشاعة بعض الألفاظ حتى كدنا نعافها لكثرة ما رددوها في كل موطن مثل لفظ (أجل) و (فحسب) و (الهيل والهيلمان) .

نعم يجب أن يكون أحدنا كالطبيب المداوي لا ينقطع عن معالجة مريضه ولو كان الأمل في شفائه واحداً في الألف ، قص عليّ أحد زملائي في المجمع العلمي العربي أنه كان في بعض العشايا ماراً في زقاق وكانت تلك الليلة من ليالي المرافع (الكارنافال) فسمع ولدين في نحو العاشرة من عمرهما يسأل أحدهما صاحبه أين كنت الآن قال كنت في المقنع Bal masqué فدهش صاحبي من سريان هذه اللفظة الفصيحة الى لسان الفتيين .

ومن الحزم أن يعوّل على الفتيان والفتيات في تقبل الفصيح يلقنهم اياه أساتذتهم منذ عهد الكتاتيب الى آخر مراحل التعليم في الجامعات

حتى اذا تمكنت من ألسنتهم انتشرت بحكم الطبيعة في العامة ومن قرب من طبقاتهم وعندئذ يتعذر على العامية أن تقتل الفصحى .

ولا بد أن يأتي يوم يكثر فيه استعمال ما نضعه أو يضعه غيرنا من الفصيح، ويقضي على الاسماء الأعجمية ، ويجب على كل حال أن نذكر الخطوات الناجحة التي خطوناها منذ خمسين سنة لاحلال الفصحى محل العامية المتلونة كل عهد بلون .

لا جرم أننا مقصرون في الدعاية لما نضع من الألفاظ ، ومن هذا التقاعس ما يمكن تلافيه ، ومنه ما دعت اليه أسباب قاهرة . فقد حالت الحرب دون نشر مجلتنا وهي أداتنا الوحيدة في الاعلان عن بضاعتنا ، فما طُبقت قاعدتنا في نشر الالفاظ التي نحاول احياءها أو اشتقاقها من أصولها ، وقاعدتنا هذه ألا تصبح اللفظة الجديدة معمولاً بها إلا اذا أتى على نشرها في المجلة حول كامل ولم يرد اعتراض عليها . ولذلك يكون يوم عودة مجلة المجمع الى الصدور من الأعياد السعيدة ، وعساه يطرد ارسالها هذه المرة الى القاصية والدانية تتناولها ايدي عشاق العربية في الآفاق . نحن في حاجة لدعاية واسعة النطاق لما نحييه من المفردات ونقرره من القواعد لتسهيل اللغة . نحتاج الى نشر مانضع في الصحف والمجلات وفي نشرات ورسائل نوزعها على من ينتفع بها بالمجان في أوقات معينة لا نخل بها واذا استطعنا ان نقنع الحكومات بمعاونتنا في هذا الشأن يزيد ما نريد نشره في الناس انتشاراً كثيراً ، وبقليل من العناية يمكن الاستغناء عن مئات من الاسماء الاعجمية وذلك بأن تصح عزيمة الحكومات على حمل الفنادق والمقاهي والحانات مثلاً على استعمال الفاظ عربية فتحظر على أربابها استعمال الالفاظ الافرنجية بتاتاً . وما أظن ما نسمعه في كل يوم في المقاهي مثل (اوناسكيتو) و (اونافاريليكي) و (اونامتريو) الى غير ذلك من الاسماء يرضى الناطقون به ان ينادي به مناد بالعربية في مقاهي بلادهم وحاناتها وفنادقها . هذا ونحن نرى القهاوي

البلدية تنادي على هذه المشروبات بألفاظ عربية منتقاة جميلة تسمع نموذجات منها في مقاهي سيدنا الحسين وغيرها من مقاصف الاحياء .

ولو ان حكومة مصر عاونت هذا المجمع على بث الصحيح لما انقضت سنة الا واكثر الالفاظ الاعجمية تنجلي من الميدان ويطويها النسيان فلا يعثر عليها الا في معاجم لغاتها وتحل محلها الالفاظ العربية في قطر هو عربي خالص منذ ثلاثة عشر قرناً .

أما أن نترك ما تعنيّنا في وضعه للطبيعة تنشره أو تغمره فنطبع من مجلتنا بضعة ألوف ونوزع منها مئات ونخزن الباقي في المستودعات يأكلها الفأر ويسودها الغبار فهذا تقصير أخشى أن يكون داخلاً في نقص القادرين على التمام .

أما ولم يبق أمامنا الآن عائق يعوقنا عن اتمام عملنا فواجبنا أن ننشط وندخل بعض التعديل في أساليبنا والزمن يدعونا الى ذلك ، فقد كان ابن القرن الماضي يكتفي بحفظ الفين أو ثلاثة آلاف كلمة يقلبها في وجوه استعمالاته ، وابن هذا العصر يحتاج الى استظهار الوف من الالفاظ ما كانت تخطر ببال أبناء الاجيال السالفة ، فالمصلحة اذاً في نشر أكبر عدد ممكن من ألفاظنا المعربة والموضوعة واخراجها في معجم صغير يكبر مع الزمن ثم يجعل منه ما يفي بحاجة المبتدي والمتوسط والمنتهي .

يشتد عوز الامة العربية الى نشر معجم صغير قبل كل شيء . وهنا أبرىء نفسي من تهمة أدبية همس بعضهم بها وهي أني كنت من جملة الرافضين نشر معجم رصيفنا العلامة فيشر . أنا لم أرتكب هذا الجرم وانما قلت يومئذ انه كتاب ينفع خاصة المشتغلين باللغة فهو (اللوكس) ونحن نتطال أولاً الى البسيط العادي واني أفضل الاهم على المهم ، والاهم نشر معجم المجمع الذي طال الوعد باصداره ، واني لا قصد لي الا قصدكم ولن أحيد عن خطتكم ، والمصلحة في الاسراع بعرض أعمالنا على العالم ، والزمن لا يحتمل التسويف وعصرنا عصر السرعة والمفاجآت ، وعملنا لا يكلله النجاح الا بالدعاية بكل أساليبها على ماتجري عليه كل دعاية سياسية ودينية ، والله الهادي الى ما فيه خير اللغة العربية .

من عمل المجمعيين

رأيت ألا ينفرط عقد هذا الحفل الكريم قبل أن أحدثكم حديثاً يهتم له من يحرص على سلامة العربية ويسر لانتشارها ووفائها بأغراض أمة متحضرة .

آتيكم بمثال مما يعمل أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية لا أقصد به الذود عن قصور قد ارتكبناه ، ولا أن أباهي بما تم على أيدينا . وما أشار اليه الاستاذ الرئيس والاستاذ أمين السر يجزىء في هذا الباب . وأريد أن أقرر فقط أن عمل المجمع لا ينتهي في عقود قليلة من السنين لأنه عمل شاق طويل . وكما يحتاج تحصيل العلم الى أعوام يقتضي للانتاج فيه أعواماً وأعواماً . وتجويد كل عمل موقوف على أمور كثيرة وقد يعرف صاحب العمل نواقصه أكثر من غيره .

المجالس في العادة تتناقش في المعاني ونحن معاشر المجمعيين أو اللغويين قضت علينا صناعتنا أن نقصر مناقشاتنا في الالفاظ ، والسعيد منا من يأتي بكلمات تستسيغها الأذواق جميعاً ، وتدخل في الكتب المدرسية من أيسر سبيل تصل الى عقول الناشئة ، وكل لفظ تسارع الصحف الى تبنيه يكتب له الرواج ، وعمل المجمع محدود المهمة في نحت الألفاظ ، وعليه ترك البناء المهندسين والبنائين ، ولسان حال كل واحد منا (عليّ نحت القوافي في معادنها) فنحن اذاً نحاتون لا بناؤون نستخرج من الأنقاض أو المقالع ما يحسن استخدامه في البنية الجديدة ، أعاننا الله على ما نلقى من عنت وتعب .

لا ترون رصيفاً من رصفائي يداخله اليأس من الظفر بطلبته مهما شقت الشقة لبلوغ المقصود ، بل تشهدونه مغتبطاً مسروراً بما يرجو أن يقع عليه في مناجم اللغة وركازها . ونحن بعد ذلك اذا وفقنا الى تحقيق جزء صغير من أمانينا في بث الفصيح ونبذ العامي والأعجمي عددنا أنفسنا مخترعين ولكن لا من عيار مخترع الراديو والراديوم مثلاً .

فالواحد منا اذا تعلقت همته بايجاد كلمة تقابل الكلمة الافرنجية الشائعة في لغات العلم على عهدنا ولم يوفق الى ايجادها يندب سوء حظه ويقف حيران (وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه) واذا عثر على لفظ ظنه موافقاً لغرضه في أداء المعنى الذي يريد أن يقابله بمثله يفرح ولا فرحة المحب بلقاء حبيبه وقد طال افتراقهما . وأجمل ساعات المجمع ساعة يتناقش فيها أعضاؤه في وضع كلمة ، ويعج بأصوات الموالين والمعارضين وكل واحد يتصدى للادلاء برأيه بما يستخرج من محفوظه من الألفاظ . ومع ما يلاقي المجمعيون من العناء في تحقيق غرضهم الشريف يعترض عليهم من يعرف ومن لا يعرف ويهزأ بعملهم كل من يبدو له ان يتسلى ، والكل يطالبونه بالكمال المطلق ، كأن أعمال المجامع كلها كملت ولم يبق منها ناقص الجهاز الا هذا المجمع الحديث .

وبحَ المجمع كم لقي من سخرية بعض الصحف التي ماتعففت عن أن تغمزه الفينة بعد الفينة لتضحك قراءها ، وقديماً كانت المجامع العلمية موضوع دعابة لايعذرها على بطئها في اخراج أعمالها الا الراسخون في العلم ممن صفت نفوسهم عن الأغراض وحبب الأنصاف اليهم .

وغفر الله لي بقدر مادافعت عن المجمع في مصر والشام لنبرئته من التهمة التي الصقوها به ظلماً ونسبوا اليه وضع لفظ (الشاطر والمشطور والكامخ بينهما) لكلمة سندويتش . وأعترف أني ماتمكنت من اقناع متعنت لان هذه الكلمة الملصقة بالمجمع هي عندهم من الادلة على عدم معرفته او على الأقل على قلة ذوقه . وما زالت التهمة بحالها حتى شهدتها تتسلل من الصحف الى الكتب ، لتثبيت دعواهم على عدم اضطلاع المجمع بما وسد اليه . وكل من أحب أن يتندر الينا يغمزنا غمزة خفيفة ليذكرنا حفظه الله بما ارتكبناه من اثم بوضع هذه اللفظة (الوحشة) والله يتوب على العاصي اذا تاب ، أما بعض الآدميين فقل أن يتسامحوا بهفوة يهفوها انسان وهم يتغاضون عن جماع حسناته .

وغير نكير أن بعض اللغويين قد لايراعون المقام في استعمال الفاظ

استظهروها يفرضونها على الناس فرضاً لايراعون اعتبارات العصر . وأذكر أن أحد علماء اللغة في لبنان (رحمه الله) أصدر في القرن الماضي جريدة زراعية أسبوعية حشاها بكل ما في معاجم اللغة من عويص الألفاظ . وكنت يومئذ آخذ الأدب عن المشايخ فدفعت العدد الأول منها لأستاذي وكان اماماً في اللغة فقال لي : هذه الجريدة لاتفهم بغير شرح فاشرحها لنا فصدعت بالأمر . واتفق أن كانت هوامش الجريدة متسعة فاستعنت بها على شرح الكلمات اللغوية حتى أصبحت صفحات تلك الصحيفة بمتنها وشرحها مثالاً من كتب الأزهريين الصفراء اختلط رأسها بذنبها وامتزجت حواشيها الأربع بنصها وفصها . حقيقة أن محرر الجريدة الزراعية أثبت براعة فائقة في اللغة ولكن كم كان يأتي عدد من فهموا من أهل اقليمه ماخطته يمينه وأملته قريحته .

وأذكر أن أحد المشتغلين باللغة نقل عن الافرنجية كتاباً من كتب الأطفال أتى فيه بألفاظ الزمخشري وابن منظور والفيروزبادي . ولفت نظره الى عقم طريقته في وضع ألفاظ أمام أطفال لا يفهمها أكثر أساتذتهم فغضب . والغالب أن معظم اللغويين يحاولون لاول أمرهم أن يسيروا على طريقة العلامة الشنقيطي أجزل الله ثوابه في رصف شعره بما وعى من المفردات ، ثقيلة كانت أم خفيفة ، ساغت في ذوق سامعها وقارئها أم لم تسغ .

وأغرب من كل أولئك أن يرمى علماء اللغة بضعف العقل حتى لقد قال رنان : كان البحث في أصول اللغة ولا يزال عندنا سبباً من أسباب ضعف العقل حقيقة ، وأرى أن من الحق بمكان عظيم ما قاله أحد مشاهير علماء الأمراض العقلية لعهدنا ، ان الأسباب الثلاثة التي دعت الى جنون كثير من الناس وكانوا من قبل من أرباب المدارك ، البحث في أصول اللغة والعشق والتعمق في اللاهوت (التيولوجيا) أجارنا الله وإياكم من كل ضعف ولا سيما ضعف العقل .

والآن ننتقل بكم الى الحديث اللغوي . في علمكم أيدكم الله أن الفساد عرض لألسنة العرب بعد الفتح بقليل لمجاورة العجم ومداخلتهم . وكان هذا الفساد يزيد وينقص بقدر بعد العرب وقربهم من الجزيرة ، وقد سلمت اللغة الفصحى في بعض الأرجاء الى ما بعد القرن السادس من الهجرة كما كان من شأن بعض قبائل اليمن لأنها كانت تعيش في أوديتها وجبالها بعيدة عن الأعاجم . واحتفظ أهل الشام بكثير من الفصيح لانعزال بعض سكانها في أقاليم يكاد يكون الاتصال بينها معدوماً . وما كان الناس في القديم يرحلون كما نرحل ويسيحون كما نسيح بهذه الكثرة ، ولا يتمازجون بجيرانهم وغير جيرانهم هذا التمازج ، ورأينا الشام تكثر فيها الالفاظ السريانية كما تكثر الالفاظ النبطية والفارسية في العراق والقبطية في مصر . وبقيت في الشام ومصر والعراق والحجاز ألفاظ ليست بقليلة أصلها رومي وتركي . وكانت الفاظ الزراعة والفلاحة في الشام سريانية والفاظ المدنية فارسية صقلتها الألسن فعاد أكثرها كأنه عربي الاصل ودخلت في معاجمنا وأصبحنا لا نعرف غيرها .

فمن الالفاظ النبطية أو السريانية أي الآرامية الباقية في لهجة غوطة دمشق (شتل الغراس) أي غرسها ومنها (المشتلة) أي المغرسة او المستنبت و (دلل الغراس) غرسها بعيداً بعضها عن بعض و (الدّليل) من الزروع ما كان بعضه بعيداً عن بعض ومنه (الشرش) الجذر ويقولون شرش أزال الشرش من الارض (قلم الشجرة وقلّمها) قطعها و (شفاها) قطع شفاها أي أطرافها (جم الكرم) قطع بعض أغصانه (شور) الشجرة ركم التراب حولها وفي الفصيح شور لوح بشيء وهي مستعملة عندهم أيضاً (عرّم التراب) كومه وكدسه (الطربون) رأس الغصن او القضيب المورق (كوّش الزرع) او الحنطة جمعها (شكارة القمح) مقدار ما يزرع في قطعة ارض (تخ الحشب) او الحطب او تختخ يبس وجف وتهرأ (الساروط) الاخدود الذي تحدثه المياه في

الارض لشدة جريانها ولهم منه فعل فيقولون (سورطت) الارض اي حدث فيها أخاديد (جهجه الضوء) لاح (الثوب) الحر و (طرش الثوب) وسخه .

وأخذوا من الفارسية الجادة والدهليز والدولاب والزنبيل او الزبيل والسختيان والابريق والدورق والكاس والكشكول والقمقم والجام والفنجان والزنبرك والهاوون والبركار والصنج والدف والناي والكمنجة والبرواز والحرج والكمر (منطقة من الشعر) والهميان . والتخت في الاصل وعاء تصان فيه الثياب وفي الاصطلاح مقعد كبير من الخشب . والبشتخناية من بشتخته خزانة تجعل امام القاعد لحفظ الاوراق والخاتون والخاقان والدرويش والاستاذ والبلور والياسمين والنسرين والنرجس والآذريون والشوندر والجلنار والخضراوات والريباس واللوبياء والكعك والطاجن والتازج يقولون تازة بحسب اصلها و (الجلاب) ماء الورد ومنه كل آب لصنف من المشمش حرفوه فقالوا الكلابي والسميذ والخشكار الطحين الخشن ، والجوسق والميزاب والخنجر والصابون والاشنان والخلخال والخمار والزركش والسرداب والسراي = السرايا ، والدابة القابلة والديدبان الحرس والغوغاء الجلبة وكثرة الاصوات والسنجاب والهزاز والسنديان والهذار والغار والهليون والفهرست والدستور والفرمان والخان معناها الدكان والحانوت والايوان والميدان والانبار والاخور والكوخ والمسطاح والخردة والدستة .

وأخذوا من الرومية السمت والصراط والقرطاس والبطاقة والخارطة والاطلس والترمس والطرخون والابرشية والابريز والاريكة وأساطير والاسطرلاب والاسطول والاسقف والماس والانبيق والافيانوس والايقونة والبرج والفانوس والبطريرك والبلغم والترياق والجغرافية والدرهم والازميل والسفسطة والطقس والفندق والاقليم والكورة والقصدير والقيراط .

وفي اللغة الدارجة في مصر والشام كثير من الالفاظ اللاتينية والايطالية مثل اسكلة وانفلونزا وبابور وبارجة وبالة وبالو وبتية وبترول

وبرذون وبرطاش وبرميل وبرنيطة وبسبور وبطارية وبنادورة وبيرا وتياترو وليمونادة وجرنال وجندرمة ومالاريا وجنرال ودوطة ودينار ولوكندة ورصيد وسطل وصابون وطاولة وطلمبة وفاتورة ومسطرة وفاصوليا وورنيش وفسقية وقنطار وقرصان وقوماندان وكولونيل وكبسول وكربون وكرتون وكرنتينا وكروسة وكمبيالة وكمبيو ومن التركية اسماء البقول والمآكل مثل البقدونس ودره اوتي (حشيشة الوادي) واسباناخ حرفوها بسبانخ ، والقاورمة اللحم المجفف والشاورمة اللحم المشوى بالنار والباصدرمه اللحم المجفف بالشمس والدندرمة او الجلاس ويابراق الورق وبورك ويخني وترلي واكمك قطايفي وامام بايلدى ولحنة وجركس طاوغى (الديك الرومي) وشوال كيس وبازار السوق والقشلاق من قشلق اي المشتى وكل اسم انتهى بخانه او جي مثل جبخانه او كرخانة وخسته ودوه جي وبازجي وخانجي الخ .

هذا مثال من الالفاظ الدخيلة اما الفصيح الباقي في الالسن على ما كان العرب يستعملونه فهو كثير وقد عرض لبعضه قليل من التحريف . فمن فصيحهم قولهم في زجر الغنم وغيرها من البهائم اذا أبعدت وطردت حايّ حايّ وحاى حاى وحاين حاين ويقال هذا اذا دعيت وأريد قربها ودنوها . وهكذا ينادون على غنمهم ومعيزهم وابقارهم وحميرهم ويقولون ايضاً هس لزجر الغنم وهقط زجر للفرس وتخ تخ زجر للدجاج وسق سق زجر للثور وعاى لزجر الخروف والغنم والنخ قولك للبعير اخ اخ ليبرك نخنخه فتنحنخ . والقرمشة صوت الخبز المقمر وفى الاصل صوت الجوز وقرقرت الدجاجة صوتت ودن الذباب صوت وطن ونقت الضفدع والدندنة ان يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا تفهمه يقولون سمعته يدندن أي ينغم بحيث لا يفهم معناه . فلان ينود ويرفع صوته بالشكوى من ناد ينود تحرك ومنه نودان اليهود في مدراسهم أي تحريك رؤوسهم وأكتافهم في بيت عبادتهم . وعندهم الزياط واللغط والخشخشة والحمحمة (صوت الفرس دون الصهيل) والنشنشة صوت المقلى والزقزقة والوقوقة

والقرقرة (الضحك العالي حرفوها فقالوا كركرة) والبقبقة والغرغرة والولولة والرجرجة والخرخرة والوشوشة والثرثرة والفأفأة والتأتأة .

ومن فصيحهم (البحيرات) جمع بحيرة وهي ما انخفض من الارض وعندهم أرض تسمى البحرات (الحسي) سهل من الارض يستنقع به الماء وعندهم مستنقع يسمى الحسى (بالنصفير) ومنهم من يلفظه بالصاد . (الحير) البستان أو مجتمع الماء والمكان المطمئن وكلها تصدق على أرض في الغوطة تجمع هذه الصفات (الزور) الارض البعيدة من الارض الزراعية والاجمة ذات الحلفاء والقصب والماء وهم يطلقونها على حرم نهر بردى ويضمون زايها كما يطلقها الحمويون على حرم نهر العاصي .

ومن فصيحهم (الضيعة) (القرية) (الغيضة) (الروضة) (المرج) (الجنينة) (الحاكورة) (الحرجة) بالتحريك مجتمع الشجر الملتف ج حرج وحراج يقولون حرش وأحراش . ومنه حرث الارض وعمرها وخربشها وخرمشها وقلبها وكربها وحفرها وسحاها وعزقها ونبشها ومهدها .

ويقولون انا محادّه اى ارضي او داري في حدود ارضه وداره . وفلان (زليقي ولزقي وبلزقي اي بجنبي) ومنه (القلاع) المدر يقتلع من الارض يرمي بها (الكَدَرة) القلاعة الضخمة (الكذان) (البلاط) (الرخام) ومنه (العدان) بالكسر والتشديد وهم يفتحون عينه ومعناه الزمان يطلقونه على اعطاء كل صاحب حق قسطه من الماء وعدنه تعديناً .

(أطعم الغصن) وصل به غصناً من غير شجره كطعّمه (هاف الزرع) ذبل وذوى (أسبل الزرع) (أفرك الحب) (أقمح السنبل) (الباحور) شدة الحر في الصيف (الشمالة) الحزمة من الحنطة وهي طرية (أطعمت الشجرة) أدرك ثمرها (أصمغت) صار لها صمغ . (نطف الحور) طلع من مكان آخر (النصبة) بفتح النون ماينصب في الحقل من الغراس (السطمة) ما يغرس من عيدان الحور والصفصاف والحلاف . وفي المراجع السطم (بضم السين والطاء) الاصول . (المروشة) غرسة شجر الزيتون ولعلهـا من الامتراش أي الانتزاع والاختلاس لانها تنزع من الشجرة الكبرى .

ومن أمثالهم الفصيحة (نأنأ في الأكل) أكل أكلاً ضعيفاً (دهبل) كبر اللقمة ليسابق في الاكل يحرفون هذا الفعل فيقولون دعبل ، البرطمة غضب مع عبوس فلان مبرطم مغيظ (لطيء بالارض) لزق (خب في الارض) خاض (لزه على العمل) حثه عليه (دحس الثوب) في الوعاء أدخله يلفظونه بالشين كما يقولون الفرشخة وهو أن يقعد الانسان ويفتح مابين رجليه يلفظونها بالشين وفصيحها بالسين . ويقولون (قلّعنا) يافلان من هنا من قلعه حوله من موضعه أي هيا بنا ننزل مكاناً آخر (شاشت النفس) اضطربت كما يقال شاش البلد اضطرب (قب الجرح) اذا يبس وذهب ماؤه (قيّح الجرح) صار فيه القَيح وهو الصديد . (بط القرحة) شقها (خنخن في كلامه) اذا تكلم من خياشيمه فهو أخن ويقولون له خن (زنأ البول) احتقن (أح الرجل) سعل (قرقف) رعد من البرد (ففّ الشعر) قام من الفزع (قفقف من البرد) اذا انضم وارتعد (أصن) سكت فهو مصن (ودّر) الرجل أوقعه في تهلكة يقولون ودّر هذه القطة أي ألقها في محل لا تعود منه (حبق) متاعه جمعه وحبق المال أيضاً جمعه (هبش) لعياله اكتسب (دغر عليه) هجم (طمس على مال فلان) استحله من اطمس على أموالهم أهلكها ، وفلان مطموس القلب ميته ، وعندهم يطلق على الجاهـــل الذي لا يتعلم ، (الفضفضة) سعة الثوب والعيش ويقولون خذ هذه الدراهم تتفضفض بها أي تتسع بها وتقضي حوائجك ، (رحرحة) الثوب اتساعه وثوب مرحرح . (خشت فيه) دخلت فقولهم خشّ يافلان عربية الاصل . (غلغل في الحقول) دخل وفي الفصيح تغلغل أيضاً (فلان بت على فلان) يعيره أو يمزق عرضه (فلان متعنفص) متصلف مزهو . (الصقلب) شرك ينصبه ناصبه ليصرع من يريد صرعه من صقلبه صرعه . ويقولون أعطني قماشاً من (بابة) كذا أي من سعر كذا وهـذا بابته أي يصلح له أو شرطه (قرط عليه الدراهم) اذا أعطاه منها قليلاً قليلاً أو حرمه (التجليط) الكذب من جلط . (نوس) المصباح قلل اضاءته . (امرأة هطلى) كسلانة

أخذوها من ناقة هطلى تمشي رويداً . يقولون وقف الماء في (زراديه) والزردمة الغلصمة أو موضع الابتلاع . (ثوب بايخ) متغير وحديث بايخ لا محصّل له (الرتوت) الرؤساء واحدها رت (مافي البيت تومري) أي أحد يقولون دومري . (السرب) الجماعة من النساء والحيوان . الفوج ، الجوقة ، الجف ، الغوغاء ، الزمرة ، اللمة ، الاوباش ، الشرذمة : كل هذه أسماء معناها واحد وهو الجمع من الناس وهي دارجة في اللغة الدارجة (العزوة) (العصبة العصابة) واعتصبوا صاروا عصابة . هو (شرواك) مثلك . هو يمشي مع (سبره) أي اقرانه والسبر الشبه والهيئة (العكرة) الفتنة والهوشة . أعطني (شوية) أي قليلاً وفي الفصيح مابقي من الشاة الا شواية بقية يسيرة ، والشواية بالضم الشيء الصغير من الكبير . يقولون سقاني (نتفة) من اللبن أي شيئاً وهي ندفة في الفصيح . يقولون اللبن والحب طيس أي كثير من طاس يطيس كثر . (الصوبة) ما تجمع من الحنطة والتمر يقولون له الصبة (الشلية) بقية الماشية وعندهم الشلعة قطعة من الماشية (العزيب) الذي لايروح الى أهله من الماشية . يقولون هذه الارض عدية أي خالية من الوخم والوبالة وأصلها عذية من عذا البلد طاب هواؤه (الطابونة) من طبن النار دفنها لئلا تطفأ وذلك الموضع طابون والطابون فرن في الارض وكانوا يستعملون الطوابنية للخبازة وقد أهملت اليوم كما أهملت (الشرائحية) باعة شرائح اللحم واستعاضوا عنها بالشوائين أو الشواية وأهملوا (المقاصف) واستعملوا بدلها القهاوي والمقاهي . وأهملوا (النحيرة) واستعاضوا عنها بالمسلخ وأهملوا (البلس) واستعملوا بدلاً عنها القلي ، ثم استعملوا البوتاس وكانت لفظة (النقانقيين) شائعة يطلقونها على باعة النقانق أو المقانق وهي المصير المحشو باللحم وكذلك (الحلاويون) باعة الحلواء يقولون اليوم الحلوانيون واحدها حلواني ومن أمثالهم ماكل من صف الصواني قال أنا حلواني .

ورأينا بعض ألفاظ المآكل وباعتها قد أهملت مثل الهرائسي بائع الهريسة ، والرآس بائع الرؤوس ويقال له الرواس وهو لحن ، الفقاعي

بائع شراب من الحبوب والاثمار وغيرها سمي به لما يرتفع في رأسه من الزبد وكان يطلق في الشام على باعة نقيع الزبيب . الاقسماويون من الاقسما وهو شراب قد يجعل من الدبس ويثلج كالسويق قال الشهابي المنصوري

أيا سيداً قد أشهد الله أنه أناب فلم يحسُ الشراب المحرما
هلم فاني لا أخالك مقسما وان كنت لم تشرب مداماً فأقسما

وأهملوا لفظة الشرابيين باعة الأشربة ، ولفظ المثلث عصير العنب يطبخ قبل أن يغلى ويشتد حتى يذهب ثلثاه وكانت مستعملة في مصر في القرن الثالث واعتاضوا عن الطاهي بالطباخ أو العشي . وأهملت ألفاظ كانت تطلق على أمور بطلت مثل سوق العطارين وكان أصحابها يبيعون فيها العطور فأطلقت على باعة البزور والسكر والارز والأفاوية ، ومثل الأبارين والمسلاتيين صناع الابر والمسلات والمرادنيين صناع المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب السامم أو السنط الاحمر ، والفاخرانيين صناع الزبادي والسلطانيات من الحصى المطحون ، والغضاريين باعة الكيزان والقزازين صناع القزاز وباعته ، والبزازين صناع البز أو القماش ، والبزوريين باعة البزور ، والسكريين باعة السكر ، والامشاطيين باعة الامشاط والسدارين والبواردين يطلقونها على من يصنعون الامشاط ويطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون والدلوك والاشنان والبوارد طعام البقول المطبوخة ، وكان فيها سوق الدباغين والصباغين والدقاقين والقماحين والناطفانيين (الناطف نوع من الحلواء) وسوق الخريزاتية الذين يخرزون الاواني وتناسوا لفظ الاقباعيين صناع الاقباع جمع قبع وهي الطاقية أو العرقية وكان في دمشق لكل من هذه الصناعات سوق خاص ومنها سوق الحرير وسوق القطن وسوق القشر (قشر القنب) وسوق القوافين من كاف الاديم يكوفه كوفاً كف جانبه وهو اعداد الجلد لعمل النعال ، قلبت كافها قافاً . ومنه سوق المناخليين باعة المناخل وصناعها ، وسوق الزرابليين صناع الزرابيل جمع زربول ، وسوق السروجيين صناع السروج ، وسوق

النحاسين ، وسوق الحدادين ، وسوق القصاعين باعة القصاع ، ومنها سوق الزنوطيين وفي معجم دوزي أن زنوط لغة مصرية معناها الطاقية وان كانت من زنط جمع زنط فمعناها السيور والسياط ، وسوق القلباقجية والقالباق من أكسية الرأس التركية ، والدماجية صناعة الديما وهي أثواب تعمل من الغزل . ولا يزال سوق الخيل وسوق الجمال وسوق الغنم وسوق البقر وسوق الحمير بالطبع ويقال لمخزن الحطب الشونة وهي مصرية ويضمون شينها . وكانت لهم أسواق بحسب أيام الاسبوع فسوق الجمعة وسوق الاحد وسوق الثلاثاء تباع فيها أصناف المأكول والملبوس ، فمن هذه الالفاظ ما بطل استعماله بابطال ما كان يطلق عليه وباختراع ما أغنى عنه وعن اسمه ولكل عصر ألفاظه كما أن لكل عصر أدبه . فبعض الالفاظ التي راجت في القرن الثالث والرابع نسيت في القرن السابع والثامن وما راج في هذين القرنين نسي في العاشر وما بعده . فألفاظ عهد المماليك في مصر غير الفاظ الترك بعدهم فقد كانوا مثلا يستعملون كلمة التقليد والتصرف فأبدلوهما بالتولية ثم بالتعيين والنصب والاستخدام وكانوا يستعملون لفظ القماحين والدقاقين ويقولون اليوم تجار الحبوب والطحانة . وألفاظ مصر زمن المماليك وحدها تحتاج الى مبحث خاص برأسه . ومن نظر نظراً خفيفاً في كل قطر عربي لا يلبث أن يرى أن ما كان شائعاً في العراق لم يشع في الشام ومصر وما كان في مصر لا يعرفه الغرب الاقصى ولا الأندلس من قبل .

وفي كتب الحسبة وبعضها الى الآن لم يطبع ، كثير من الالفاظ دونت المعاجم بعضها ولا نستعملها اليوم نسقط على نموذج منها في كتاب نشوار المحاضرة للمحسن التنوخي وفي كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوي . منها (البزبون) ضرب من نسيج البز ومن رقيق الديباج (المطبق) كمحسن السجن تحت الارض (الفامي) بائع الفوم أي الحنطة والحمص وسائر أنواع الحبوب التي تخبز . (الزيرباج) أكلة بلحم وحمص

وخل وسكر ولوز (البزماورد) طعام من اللحم والبيض (العصيدة) دقيق يلت بالسمن ويطبخ . ومنها (المطالب) الكنوز (البذرقة) الخفارة (الفيج) رسول السلطان . . الخ وهذه الالفاظ تتطلب درساً خاصاً كما تتطلب مآكل العرب في الجاهلية ومآكلهم في الاسلام دراسات أخرى . وأطعمة العرب ما تعدت الالبان والتمور واللحوم وتقل فيها الخضراوات والبقول وكلها بين مطبوخ وملتوت وملبون ومتمور ومسمون ومعسول .

سادتي :

أوردت مثالاً ضئيلا من أشغال هذا المجمع الفني وذلك بقدر مايتسع له الوقت وأرجو ألا أكون أدخلت الملل على نفوسكم . أعاننا المولى على القيام بواجبنا في خدمة لغتنا المحبوبة وحياكم وأحياكم .

عجائب اللهجات

كان اختلاط العرب في الجاهلية بالامم المجاورة لجزيرتهم قليلا اذا قيس باختلاطهم بهم في الاسلام وفيه فتحت عليهم الاقطار ، وشاهدوا فيها ما لم يعرفوه من أسباب الغنى والترف ، وهذا يستلزم للتعبير عنه ألفاظاً جديدة ما كان لهم ولا لأجدادهم عهد بمثلها . واذ كانوا في هذا الدور مأخوذين بدهشة الفتوح لم ينظروا ان كانت تلك الألفاظ عربية صرفاً أو جاءت من احدى اللغات السريانية والنبطية والقبطية والحبشية والسندية والبربرية والفارسية . وربما ظنها بعضهم من لهجة عربية غير لغة قريش وليس لهم مانع من قبولها مادام الاسلام وحد اللهجات العربية ، وبلغة قريش أفصح اللهجات نزل القرآن .

وما لبث الداخلون في الاسلام أن أدخلوا ما كان متأصلا في ألسنتهم من الكلمات فأصبح لكل صقع لهجة اتسعت مع الزمن أي كان لكل قطر بل لكل اقليم لهجة على حيالها ، ومعظم المولّد لا يمت الى الفصحى بسبب ، والغالب أن الالفاظ الاعجمية التي صاغوها على أسلوبهم تكاد تزيد عن الالفاظ التي أبقوها بحالها . وبديهي أن يكون لكل صقع نغمته واصطلاحه وألفاظه ، واللهجات ابنة السموت والميول على الأغلب ، وما تحسه من النغمة العذبة في اللهجة المصرية اليوم لا تذوقه في لهجات جبال الشام . نعم ماتشدد العرب أو خاصتهم في قبول بعض الألفاظ الاعجمية بادىء بدء تشددهم في اللحن والزراية على من يرتكبه ، لأن الجمهور لاينتظر في شؤونه اليومية الحافزة صدور ارادة الخاصة في اختيار اللفظ الفلاني دون غيره ، بل يسارع الى تلقن ما يعرض له بادىء الرأي مؤثراً الطريقة العملية السهلة ، ويتشرب الالفاظ التي تكاد تكون مرتجلة ترسخ فيه بكثرة التكرار ، ويغدو من المتعذر نزعها والاستعاضة عنها بمصطلح آخر أتى على أصول الوضع الصحيح .

تساهل أرباب اللغة بادخال بعض المفردات طوعاً أو كرهاً كأنهم رأوا أن لا مندوحة لهم عنها وان خرجت أحياناً عن صيغة لغتهم ، ثم تطورت اللهجات بتطور الزمن ، والزمان سلطانه يثبت وينفي على مايشاء والتحول يجري على مقياس واسع في الشارع ، وعلى مقياس ضيق في أندية الخاصة وقصور الملوك والأمراء ومعسكرات الجيوش .

أخذت العرب من الاعاجم مئات الالفاظ مما له علاقة بالحياة اليومية أو المصطلحات العلمية وكان لكل دولة تولت أمر هذه الامة أن أورثتها ألفاظاً منها ما دخل في المعاجم ، ومنها ما مات بموت الدولة التي وضع في عصرها ، وسعت الى بثه في الناس ، أو سقط من الاستعمال لعدم الحاجة اليه .

فكانت الألفاظ الاعجمية من عهد الامويين أقل مما جاء مع العباسيين

لقرب عهد بني أمية بالعربية الفصحى ، وأخذ بنو العباس من الدخيل بالكبير والصغير ، أعداهم الفرس للجوار والاختلاط بالشعوب غير العربية حتى خيف على اللغة أن يصبح جزء عظيم منها من غير الاصول العربية . ثم قامت دول الطوائف فكانت الالفاظ الحديثة في مصطلحات الدولة على الاكثر تركية وفارسية ومغولية ، وهكذا كان شأن دولتي نور الدين وصلاح الدين ودولتي المماليك البرجيـــة والبحرية ثم دولة العثمانيين . وما يقال في هذه الدول ، والالفاظ الطارئة عليها ، يقال في دول صقلية والاندلس والغرب الاقصى والاوسط والادنى . ولعل الدخيل كان نادراً في أرض الاندلس ، وقد توخى الامويون واضعو أساس دولتها التوحيد في كل شيء حتى أن الرحالة ابن جبير لما رأى كثرة الفِرَق والمذاهب في هذا الشرق القريب في القرن السادس قال لا اسلام الا ببلاد الغرب ، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشِيَع الا من عصم الله من أهلها .

وكان في تفنن الاندلسيين بتعريب أسماء بلاد الاندلس مثـال ظاهر من العناية بصيانة اللغة مما يعبث بها ، وكانت اللهجة الاندلسية من أجل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء الى البلاد التي نزلوها : مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام ، ولعلها كانت لقربها من الفصحى أشبه بلهجات اليمن والحجاز . والاندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام فكان الاندلسيون مثـلاً يقولون القابض لمن نطلق عليـه الجابي او المحصل ويطلقون المتقبل لما نقول له الملتزم او الضامن ويقولون اهل الاموال لأرباب الاملاك او الملاك ويطلقون الطومار على البطاقة .

وهكذا أبقى كل قرن في تضاعيف هذا اللسان قدراً من الألفـاظ الدخيلة ، ولوّن كل لهجة بلون بعض اللهجات المجاورة وغيرها . ولكل جيل ولكل اقليم لهجة تختلف واحدتهـا عن الاخرى ، وكان العارفون باللغة في كل عصر يردون مادخل على الفصحى من المولد ، واذا غلبتهم

قوة الدخيل يتساهلون بقبوله ومن جهة أخرى يكتبون الرسائل والكتب في تزييفه ، حاول الغيُر على اللغة في كل قرن من قرون الاسلام ان يحيوا الفصحى ويبقوا عليها في الخطاب كما حفظت في الكتاب فكان الجهلة يهزأون بهم ويتغامزون منكرين صنيعهم ، وأقل مايقولون في المتكلم بالفصيح أن ينبزوه بأنه يتكلم بالنحوي .

وبعد أن كان مثل الحجاج بن يوسف يحتال على بعض من خرج عليه فيفسد لغته أصبح الخاصة والعامة في القرون التالية يتفاهمون بلغة العوام ولهجتهم بدون نكير ، وسواد العامة أكثر من سواد الخاصة في كل عصر ومصر . وبعد أن كان ينظر إلى من فسدت لغته كما ينظر الى من أصيب بمروءته وشرفه أصبح هذا مما لايؤبه له كثيراً ، وبعد أن كان الحجاج نفسه ينفي من بلده أحد الفصحاء لأنه صارحه بأنه ألحن ونفاه لئلا يسري في النلأ رأيه فيه .

ولما سمع رسول الله رجلاً يلحن في كلامه قال « أرشدوا أخاكم فانه ضل » ولما كتب أحد عمال عمر كتاباً لحن فيه كتب اليه « قوّم كاتبك سوطاً » . وكان عبد الملك يقول : اللحن في الكلام أقبح من الجدري .

عربوا أسماء العلوم في القرن الماضي فكانوا على الاغلب يحرصون على التعبير عن المعنى بأي لفظ عرض لهم ، يهمهم التعبير عن المسمى لا الفصاحة ، ولعل أجدادهم كانوا في مثل هذه الحال يوم نقلوا عن الفرس أسماء الاطعمة فلم يكن لهم متسع من الوقت ليضعوا لها أسماء عربية واغتبطوا أن اهتدوا الى تحضير تلك المآكل اللذيذة فقالوا الفالوذج واللوزينج والجوزنيق واللوزنيق وما بالوا بثقلها وعجمتها . وكان في مكنتهم أن يقولوا اللوزية والجوزية الخ . ولكن كان همهم أن يصيبوا أولاً من هذه الحلواء الشهية . ولو كان واضعو الالفاظ العلمية في بدء النهضة العربية الاخيرة على جانب من معرفة اللغة الفصحى لأطلقوا باديء

بدء ألفاظاً فصيحة على المسمّيات ، وحالوا دون عناء المجامع اللغوية الحديثة بعض الشيء .

ولعل من اضطروا الى وضع ألفاظ غريبة مولدة عمدوا الى استعمالها في الاحايين يؤثرون الكلام في العربي القح والعربي الدخيل على السواء مادام المقصود من الكلام افهام الخواص والعوام ، ولا نقول ان اللغة كانت تحون الفصحاء فلم يوفقوا الى ايجاد ألفاظ عربية خالصة تقوم مقام الالفاظ الاعجمية بل نقول انهم غلبهم حب السرعة على جميع الاعتبارات ، وأنوا بما حضرهم واكتفوا بما كان في متناولهم ، وهم الى ذلك كانوا يعلمون أن مئات من الالفاظ المولدة لاتضر بلغة تحوي مئات الالوف من المفردات الفصيحة ، ويزيد التسامح في قبول الغريب المولد اذا صيغت اللفظة ، صياغة عربية لاينبو عنها ذوق أبناء هذه اللغة .

كتب معاوية رضي الله عنه أيام فتنة صفين الى قيصر الروم لما بلغه أنه ينوي غزو الشام : « لئن أقدمت على ما بلغني من عزمك لأصالحنّ صاحبي ولأكونن مقدمته اليك ، ولأجعلن القسطنطينية البخراء حمة سوداء ولأنتزعنك من الملك انتزاع الاصطفلينة ولأردنّك أريساً من الارارسة ترعى الدوبل » . وفي هـذا الكتاب الموجز على ما نفهم نحن اليوم ثلاثة ألفاظ لا نسمعها وهي الدوبل ومعنـاه الخنزير ، والأريس وهو الفـلاح والارار من أرس فلح ، والاصطفلينة وهي لغة شامية قديمة لا تستعمل اليوم ومعناها الجزرة التي تؤكل ، آثر الخليفة استعمالها على الخروج عن مألوف الارض التي صدر منها الكتاب .

وكذلك كان من الحجاج بن يوسف لما استحث احد عماله على المسارعة بإداء الخراج فقال له من كتاب : فأيم الله لتبعثن اليّ بخراج اصفهان كلها او لأجعلنك طوابيق على باب مدينتها والطابق بكسر الباء وفتحها الآجر الكبير فارسي معرب وكذلك الآجر . خاطبه بما شاع ولو قال له لأجعلنك لبنة لما كان لها تلك الرنة ، ولو كان الكاتب في مصر لاستعاض عن آجر وطابق بلبنة وطوبة .

ومن اللجهات ماراج في قرن وكسد في آخر . كانوا يقولون في القديم فندق خان ، فأنشأوا يقولون في الزمن الحديث لوكندة هوتيل او اوتيل . وقالوا بيمارستان او مارستان او دار المرضى فشاعت على الالسن اليوم هوسبتاليا او اسبتاليا . وقالوا صيدنائي وصيدلاني وصيدلي وفرمشاني واجزاجي لبائع هذه العقاقير والمركبات والمعاجن كما اصطلحوا في كل قطر على اطلاق اسم يفسر ما اصطلح عليه للقطر الآخر فللابانة عن لفظة المشاهرة قالوا الجامكية والمعاش والمعلوم والمقرر والراتب والمرتب وقديماً كانوا يقولون الادرارات والاعطيات . ويقولون في مصر اليوم الجوارب للجوربين وفي لبنان الكلسات وفي مصر كوانتي وفي الشام كفوف اما من يقولون قفاز ويجعونه على قفافيز فهؤلاء من الذين انعم الله عليهم وحفظوا من متن الفصحى عشرة آلاف كلمة على الاقل حتى وصلوا الى قفاز . وفي الشام يقولون شلح اواعيه ، وفي لبنان خلع ثيابه ، وفي مصر قلع هدومه وتقول الام لابنتها روحي اتبدلي اي غيري ثيابك .

وقد يعمدون لاستعمال ما كان له أصل في اللغة كالحناشير والطراطير والخنشور الذي لا يعجبك يقابله بالشامية الشرشوح والطرطور الضعيف الذي لا عمل له ، وهكذا في المصرية متعنطز متحنشص متنرفز الى كلمات غيرها ، ومنها ما له أصل عربي مثل اطلاقهم لفظ نغنوغه على السيدة ذات الدل والخفر وهي السيدة السمينة جاءت من نغنغ الطعام والفطير زاد في سمنه . وفي مصر يقولون بص أي انظر وفي لبنان اقشع وفي الشام شوف .

وقد يختلف كل قطر عن جاره في مدلول اللفظ الواحد وفي صيغة الجموع وغيرها ففي مصر يقولون طقطوقة لذاك الوعاء الصغير الذي يطرحون فيه رماد اللفائف وأعقابها ، ويطلقون الطقطوقة على الاغنية البلدية ، والقرينة هي التي تفرق بينهما ، كما هو الحال في كثير من الالفاظ ولو قلت الطقطوقة لذاك الاناء لضحك الشامي ونظر باهتاً فلا يعرفها تطلق

إلا على الاغنية ، وفي الشام يجمعون سيكارة على سيكارات وفي لبنان على سواكير وفي مصر على سكاير ويقولون في الشام طنش بالشين غض الطرف وما بالى وفي مصر طنس بالسين لهذا المعنى ، وفي مصر لبش تحير وارتبك وفي الشام لبش جمع متاعه وارتحل ، وفي مصر محنتف متزين لطيف ، ومعناها في الشام بخيل مقتصد .

وكما اختلف مدلول بعض الالفاظ في الاقطار المجاورة تنوعي كثير من الفصيح جملة ، فكانوا يطلقون على الارض الكثيرة الخضرة (البخضور) وعلى الرجل الكثير الكلام (البهمور) وعلى الرجل الاحمق (البانوف) وعلى المثقل بالدين (المفرح) وعلى كثير الطرب (المطرابة) وعلى من يتكلف الالحان من غير صواب (العاعة) ، وعلى الخبيث الشرير (العارم) وكانوا يقولون أخذ ماله كملا واليوم يقولون كاملا وفلان لا يؤاكل رغيباً ولا زهيداً ، والرغيب الكثير الاكل والزهيد القليل الاكل ، الى مئات غيرها مما لو عادت اليه الحياة وجرت به الالسن لحي جانب عظيم من الفصح ومات جانب من المولد مع الزمن ، وضعفت اللهجات وقويت الفصحى ، او جانب عظيم منها .

من الصعب تعيين زمان دخول كل لفظة بعينها لان اللهجات لا ضابط لها ولا هي مدونة بأسرها فمن الواجب وضع معجمات لها كما نراهم في الغرب وضعوا معاجم للالفاظ العامية وأخرى للالفاظ المحرفة ومعاجم للغة أرباب الدعارة واللصوص يعبرون عنها بالفرنسية بكلمات :

Argot, Jargon, Baragouin, Patois

وفي كتب الجاحظ ألفاظ كثيرة من هذا القبيل لاتعترف بها الفصحى وكان تدوين أبي عثمان لها من مزايا لغتنا واتساع صدرها لكل جديد ماسبقت لها معرفته ، والحمد لله على أن المجمعيين لم يعترضوا على بعض ماوضع ، مثل ثلاثة ألفاظ أفرنجية وهي فيلم وترام وسينما فأقروها راضين ومثل مخيم ومصح ومعزل وهي مشتقة من أصل عربي وربما تفننوا وأطلقوا

أكثر من اسم على مسمى واحد كما وقع للمقدسي البشاري صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم من أمتع كتب الجغرافية عند العرب فقد أسماه الناس خلال رحلته بستة وثلاثين اسماً دعي بهـا المسكين وخوطب ، فأطلقوا عليه المقدسي والفلسطيني والبصري والمغربي والخراساني والسلمى والمقريء والفقيه والصوفي والمولى والعابد والزاهد والسياح والوراق والمجلد والتاجر والمذكر والامـام والمؤذن والخطيب والغريب والعراقي والبغدادي والشامي والحنفي والمؤدب والبكري والمنفقه والمعلم والفرائضي والاستاذ والدانشمند والشيخ والنشاستة والراكب والرسول .

لما ورد مصر ابن جرير الطبري صاحب التاريخ في سنة ٢٥٦ قادماً من العراق نزل على الربيع بن سليمان فأمر من يأخذ له داراً قريبة منه قال : وجاءني أصحابه فقالوا : تحتاج الى قصرية وزير وحمارين وسدة فقلت أما القصرية فأنا لا ولد لي وما حللت سراويلي على حرام ولا على حلال قط (ياخسارة) ، وأما الزير فمن الملاهي وليس هذا من شأني ، وأما الحماران فان أبي وهب لي بضاعة أنا أستعين بها في طلب العلم فان صرفتها في ثمن حمارين فبأي شيء أطلب . قال : فتبسموا . فقلت : الى كم يحتاج هذا ؟ فقالوا : يحتاج الى درهمين وثلثين . فأخذوا ذلك مني وعلمت أنها أشياء متفقة . وجاؤوني باجانة وجب للماء وأربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط وقالوا الزير للماء والقصرية للخبز والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث فنفعني ذلك وكثرت البراغيث فكنت اذا جئت نزعت ثيابي وعلقتها على حبل قد شددته وانزرت وصعدت الى السدة اهـ . يقول أناطول فرانس الالفاظ هي الافكار وأعتقد أن الشعب الاول في العالم هو الذي كان كتاب قواعده أجود من كتـــاب غيره وقد يهلك الناس بعضهم بعضاً بألفاظ لا يفهمونها فاذا تفاهموا يتعانقون ويتعاطفون .

تطور الالفاظ والتراكيب

ألقى علينا الثعالبي من أهل القرن الخامس في المضاف والمنسوب درساً مستوفى من التراكيب والاضافات التي كان بعضها شائعاً في الجاهلية ، والآخر حدث في الاسلام ، وقد خرجها في احدى وستين باباً فمنها ما أضيف الى اسم الله تعالى : أهل الله ، بيت الله ، رسول الله ، كتاب الله ، أرض الله ، ستر الله ، ناقة الله ، رحمة الله ، أمر الله ، لعنة الله ، صبغة الله الخ . وكل شيء كما قال الجاحظ أضافه الله تعالى الى نفسه ، فقد عظم شأنه وشدد أمره ، وقد فعل ذلك بالنار فقال نار الله الموقدة ، ومنها ما يضاف الى الانبياء مثل سفينة نوح ، عمر نوح ، مقام ابراهيم ، نار ابراهيم ، صحف ابراهيم ، ناقة صالح ، قميص يوسف ، عصا موسى ، صبر أيوب ، مزامير داود ، خاتم سليمان ، ومنها ما ينسب الى الملائكة والجن والشياطين مثل سحر هاروت ، ديك الجن ، جند ابليس ، قبح الشيطان ، حبائل الشيطان ، رؤوس الشياطين . ومنها ما يضاف الى القرون الاولى : ريح عاد ، صرح هامان ، كنوز قارون ، سد الاسكندر ، نوم أصحاب الكهف ، ومنها ما يضاف الى الصحابة والتابعين مثل سيرة العمرين ، درة عمر ، دهاء معاوية ، فقه العبادلة ، حلم الاحنف . ومنها ما يضاف الى رجالات العرب في الجاهلية والاسلام : حاتم طي ، زيد الخيل ، سحبان وائل ، عروة الصعاليك ، سعد العشيرة ، وضاح اليمن ، مجنون بني عامر ، أشجُّ بني أمية ، جبار بني العباس ، ومنها ما ينسب الى القبائل ايلاف قريش ، تيه بني مخزوم ، جود طي ، أو الى رجال مختلفين : حكمة لقمان ، بلاغة قس ، عي بأقل ، حديث خرافة ، مواعيد عرقوب ، وفاء السموأل ، كذب مسيلمة ، طمع أشعب ، ومنها ما ينسب الى العرب : تيجان العرب ، نخوة العرب ، كسرى العرب ، ومنهـا

ما أضيف الى الاسلام . قبة الاسلام ، بيضة الاسلام . ومنها الى القراء والعلماء . فقه أبي حنيفة ، حاجة أبي الهذيل ، أو الى ملوك الجاهلية والاسلام . سيرة ازدشير ، عدل انوشروان ، ايوان كسرى ، شقائق النعمان ، خلافة ابن المعتز . أو الى الكتاب والوزراء في الدولة الاموية والعباسية : بلاغة عبد الحميد ، بلاغة جعفر ، يتيمة ابن المقفع ، تيه عمارة أو الى البلدان عزيز مصر ، أو الى أهل الصناعات ، كلب القصاب ، تيه المغنى ، رغفان المعلم ، كذب الدلال . ومنها الى الآباء والامهات والبنين والبنات مثل ابو قلمون ، أبو مثوى ، أم الكتاب ، أم القرى ، أم المؤمنين ، أم حبين ، أم قشعم ، ابن الليالي ، ابن جلا ، ابن آوى ، ابن السبيل ، بنو الايام ، بنو الدنيا ، بنت الفكر ، بنات الصدور . أو الى الاذواء والذوات : كاذواء اليمن ، وذو الاوتاذ ، وذو القرنين ، وذو النورين ، وذو الرياستين ، وذو الكفايتين ، وذات النطاقين ، وحمالة الحطب ، خضراء الدمن ، ضرائر الحسناء . ومنها ما ينسب الى النساء مثل كيد النساء ، مرآة الغريبة ، بكاء الثكلى ، ومنها الى الاعضاء . سويداء القلب ، حبل الوريد . ومنها الى الابل حمر النعم ، صولة الجمل ، ناقة صالح ، خبط عشواء . ومنها الى الخيل والبغال . نواصي الخيل ، فرسا رهان . ومنها الى الحمار : حمار العزير ، صبر الحمار . ومنها الى البقر والغنم : بقرة بني اسرائيل ، أذناب البقر ، لحية التيس . ومنها ما يضاف الى الاسد : ليث عفرين ، ليث الغاب ، جرأة الاسد ، وثبة الاسد . ومنها الى الذئب والسباع والوحوش والسنور والفأر والضب والظربان والقنفذ والسرطان والحية والعقرب والحشرات والهوام والطير والغراب والذباب والبعوض ، ومنها الى الارض والدور والامكنة والابنية والبلدن والاماكن ومنها الى الجبال والحجارة والمياه والنيران والشجر والنبات واللباس والثياب والطعام والشراب وما يتصل بها والى السلاح والحلي والازمان والاوقات والآثار العلوية وغير ذلك .

هـذا ماعنى الثعالبي بتدوينه وفيه صورة من صور المجتمع الجـاهلي والاسلامي ومنه ماجاء كالمثل ومنه ما كان فيه اشارة الى وقعة تاريخيـة وتصوير لحالة نفسيـة مثل عرق القربة وعرق الموت ومعنى الأولى الشدة والمشقة ويضرب الثاني مثلاً لأشد الشدة وكان الحسين الخادم خادم المعتضد والمكتفي يتولى البريد بمصر ويلقب بعرق الموت قيل أن المكتفي لقبه بذلك .

وكل مانسب وأضيف وأتانا به الثعالبي ماخرج عن تركيب عربي ولفظ عربي . ولقد حدثت بعد تراكيب واضافات وألفـاظ كان الواجب تدوينها ولعله كان ينتظم منها مجلد آخر ، أما في العصور الحديثة عصر الطباعة والصحف والمجلات وانتشار الكتب وعهد ايناع العلوم المادية فقد يسقط الباحث على اضافات ونسب منها مانقل عن اللغات الغربيه وتحس فيه أثر الترجمة وهجنة العجمة .

وتطورت الالفاظ والتراكيب في عصر العلوم هذا ، وقضت الحال على النقلة أن يختاروا ألفاظاً لتراكيب جديدة فمنها ماجودوا فيه ومنها ماقصروا ، وكله دخل على اللغة وحفظه الناس وتناقلوه . وتكثر هذه التراكيب والألفاظ في مصطلحات العـلوم والسياسة والاجتماع والفلسفة والاقتصاد والمالية والتربية ، كثرت لأن سند هذه العلوم انقطع عنـد العرب أو كانت علوماً جديدة لايعرفها أجدادنا ، وكانت المادة من التعابير قليلة ، وكان المترجمون لأول النهضة ضعـافاً في اللغة ، ولعـل بعضهم لم يدرك ماتحويه الالفاظ الفرنجية من معان ، فترجموا كيفما اتفق لا كما يجب أن يكون ، وأكثر التراكيب التي جاءنا بها العصر الجديد اذا ألقيته على مسامع العربي الاصيل اضطر الى أن يفكر ساعة ، وربما ما خرج بعدها بشيء يصور له المعنى تصويراً حقيقياً لأنه لايعرف جهة العلم الذي كانت هذه الالفاظ والتراكيب من ألفاظه وتراكيبه . وقد شاهد هذا المجمع من تلك الالفاظ مئات .

ولا أكتمكم ياسادتي أن سمعي لم يتألم قط أكثر من تألمه من لفظ أو

اضافة جاءنا بها المشتغلون بعلم التربية فنسبوا الى التربيـة (التربيوية) وأتونا بعد ذلك بألفاظ وتراكيب لو حلفنا لأهل عصور زهو العربية بالطلاق والعناق أنها عربية ماصدقوا ولا آمنوا ، وجاءنا المتفاصحون من المترجمين بتركيب النزعة الوافعية ، القوة الوجدانية ، الذاتي ، الموضوعي ، الاقليمي ، الفكرة الاساسية ، الفكرة الرئيسية ، الطريقة الاعتباطية ، السبب المباشر وهكذا سرت الى الأقلام عشرات من التراكيب على اعتبار أنها وردت في كلام بعض العارفين فاحتذاها من قضت عليهم صناعتهم بالعجلة وعدم التريث ككتاب الصحف ، وقد يعبرون عن المعاني التي يحتاجون الى أدائها من حاضر الوقت لايطيلون التفكير فيها والمراجعـة ، نعم جاؤونا بطائفة من التراكيب ما أنزل الله بها من سلطان ، ومنها قولهم تغلبت العناصر التقدمية الرجعية . وطن معنوي مثالي ، الوطن المرقوب المرغوب ، من حيث الاساس . تعرض نفسها على اتجاهـات السياسـة القبتاريخية أي قبل التاريخ ، الاحلام الطوبائية ولو قال أبو عذرة هذا التركيب السياسة قبل عصر التاريخ بدل القبتاريخية والخيالات والأوهام بدل الاحلام الطوبائية لأدى المراد ونجا من هـذه السماجة . جاؤونا بضرب الرقم القياسي في الشيء الفلاني ، النزعات السياسيـة السائدة ، عمله على ضوء كذا ، رفع رأس أمته عالياً ، يحيطونها بهالة من الرهبة ، استغل الموقف ، جرى على خطته التقليـــدية ، خلقت جواً من الشبهات ، المفاوضات تجري في جو يسوده الود ، الوضع الحاضر الوعي القومي سر المهنة فقيد الواجب . التربية المثالية ، المجال الحيوي ، المُثُل العليا ، الشخصيات البارزة ، السوق السوداء ، الجهود الجبارة ، الحل الحاسم ، حقل الادب والعلم الروح الوثابة ، موضوع أخاذ أتون الحرب ، الرغبة الملحة جملة داوية صارخة صخابة . وأخيراً تم الشيء الفلاني ، بحسب الخطة المرسومة ، رجل الساعة الاهداف القومية ، حركة خاطفة ، الروح المعنوية المتوثبة ، في ظل النظام ، ظهر على مسرح السيـاسة ، يضحي على مذبح أغراضه ، طلب يدهـا ، ذر الرماد في العيون ، يشق طريقه الى الحياة ، فشلت المناورة ، انفرجت شفتاه

عن عدة ابتسامات كان لها أثر طيب في تلطيف جو الاحتفال . ومنها مايكررونه في اليوم والليلة مرات حتى مجته الأذواق وبرمت به الآذان وهي ليست في شيء مما قاله علماء البيان في التكرار أو عمد اليه الجاحظ في ترديده بعض ألفاظه الحلوة كفعل كان أو تركيب أما بعد . وتكرار الجاحظ على كل حال لا يشبه ما أحصيته لأحد البلغاء في حديث له في المذياع كرر فيه لفظ (اللهم) مراراً وأذكر أني عددت له منها عشر مكررات ثم ملت ووجهت وجهي عن الاستماع ، والغالب أن صاحبي - وكان شيخاً والمشيخة فيه أعلق به من شعرات قصه - انقطع عن الصلاة أياماً وأحب أن يعوض عن لفظ اللهم التي فاتته فجمعها كلها في محاضرة واحدة ، ولعله ظن أن المحاضرة صلاة ودعاء فتوسل الى الباريء تعالى ماوسعه التوسل في حديثه مع أنه كان من سعة المادة اللغوية على جانب عظيم ولا يحتاج بيانه الى مثل هذه التكآت .

ومن التراكيب والاضافات الجديدة ماتغثى منه النفس وهذا تجده في كثير من الكتب المترجمة ممن يكون مترجمها وسطاً في اللغة التي نقل منها واللغة التى نقل اليها . ترجمنا وبذلنا الجهد فكان في ترجماتنا الرديء والجيد ولم يكن لنا بد من الدخول في هذا الدور ، أما الآن وقد كثر عدد الفريق الذي تخرج بآداب لغته واللغات الغربية ، فالواجب ألا ننشر الا ماسلم كل السلامة من العِوَج ولم يسبق للسان العربي أن جرى به . فبالله ألا تصابون بالبرداء ، وقاكم الله شرها ، اذا سمعتم مترجماً يقول هذا الشعور ليس سلبياً بل ايجابياً ، تربية فلان الايجابية العملية ، المركز الاستثنائي ، المبدأ الانقلابي ، دال بها على جوهر قومي مركّز ، التركيز في التقسيمات ، حركة تحريرية تجديدية ، نصوص متنية شريفة ، الوطنية تستمد وحيها من نواميس كذا .

ومن التراكيب أو الألفاظ ما استلزمته طبيعة العصر لأنه ينم عن معان لاسبيل الى التفصي منها لأنها تدل على أمور ذات أثر في سياسة الدنيا اليوم ومنها الارهابيون الوصوليون النفعيون الانتهازيون المداورون

العدميون الفوضويون الاشتراكيون الشيوعيون النازيون الفاشستيون الجمهوريون الملكيون الديموقراطيون الارستقراطيون الديكتاتوريون الرأسماليون المحافظون الحياديون الحزبيون . ولا أطيل عليكم في ايراد الاضافات والصفات والأسماء الجديدة ، وعلى من يحب التوسع في تلقفها أن يتتبعها في الصحف والكتب الحديثة ولا سيما في المعربات . وتكثر التراكيب والألفاظ النابية عن مناحي البلغاء في كلام أهل القرن الماضي ولا ترى الوسط في نقله وتصنيفه الا معتذراً عن جهله بأنه يكتب الكتابة التي تروق جمهور الناس ويهزأ في باطنه ، وأحياناً يبدو هزؤه على سحنته ممن يكتب كتابة عربية في الجملة ويسمها بأنها كتابة جامعية أو مشايخية نسبة للجامعة أو لدار العلوم .

قلت في بيان ألقيته في السنة الماضية في مثل هذا الحفل الكريم أن من الألفاظ مايُعمر قليلاً ثم يموت ويحيا غيره فينسي الآخر الأول ، وان لكل عصر ألفاظه كما أن لكل عصر بيانه ، وقد أُتيح لي أن نشرت خمسة كتب للقدماء حوت من هذه المعاني أشياء كثيرة ، فكان في الأول طائفة كبيرة من ألفاظ القرنين الأولين للاسلام ، وفي الثاني ألفاظ لم يعرفها هذان القرنان ونسيت في الرابع والخامس وفي الكتاب الثالث ألفاظ وتراكيب عرفت كثيراً في الرابع والخامس وفي الكتاب الرابع ألفاظ علمية اشتهرت في الخامس والسادس ، وكان ابن القرون السابقة بمعزل عنها ، وفي الكتاب الخامس ألفاظ وتراكيب عرفت في فارس وخراسان .

وأعني بالكتاب الاول رسائل البلغاء وفيه نصوص نادرة لعبد الله ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وغيرهما من أئمة البيان وبالكتاب الثاني سيرة أحمد بن طولون للبلوي من أهل القرن الثالث ، وبالكتاب الثالث المستجاد من فعلات الأجواد للمحسن التنوخي من أهل القرن الرابع ، وبالكتاب الرابع كتاب البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي من أهل القرن الخامس ، وبالكتاب الخامس تاريخ حكماء الاسلام للبيهقي وفيه من ألفاظ الفلسفة والحكمة التي كانت معروفة عند أهل القرن السادس .

كان الكتاب الأول من محصول العراق وفارس في الجملة ، وكان

الكتاب الثاني مما أخرجته مصر ، والكتاب الثالث مما صدر عن الدور العباسي الأول والثاني ، والكتاب الرابع مما أُلف في مصر أيضاً وفيه ألفاظ مصر ، والكتاب الخامس مما صنف في فارس وفيه ذرو من مصطلحها .

والالفاظ التي حملها الكتاب الاول من أسهل الألفاظ استعملت قروناً ثم بدأ الناس ينسونها فهجرت وصار ابن هذا العصر اذا سمع بعضها فكأنه يسمع الفاظاً أعجمية واذا حاول الكشف عنها في المظان ملّ وكلّ ولا عجب فقد بلغ بنا الضعف في لغتنا أحياناً أن صرنا الى حالة اذا حاولنا قراءة شعر جاهلي فكأننا نقرأ لغة غير لغتنا ، ونقع فيه على ألفاظ نجد في بعض الالفاظ الفرنجية أنسة أكثر مما نجد في هذه الالفاظ العربية ، ولا أحيلكم للتدليل على دعواي الا أن تلقوا نظرة على بعض ماطبع من دواوين الجاهليين وبعض الاسلاميين أمثال زهير بن أبي سُلمى وجرير والفرزدق ، وعوض الله شراح هذه الدواوين المعقدة خيراً عما بذلوه من أوقاتهم في سبيل حلها ، فمن ألفاظ هذا الكتاب الاعتمال الاضطراب في العمل والحركة وفيه زمين كسيح ، زميت وقور قذعه منعه وكفه آنق أحسن وأعجب ، استعتب طلب الاعتاب واستقال من الذنب ، مدخول في أموره غش وعيب وفساد ، أرض تهمة مصوبة الى البحر ومنه تهامة ، أرض جلس غليظة ، الواهن الضعيف في العمل التارك له ، الفالج الفائز ، المناقلة المحادثة ، الاستطراد نوع من المكيدة ، الحبار ما لان من الأرض واسترخى والجدد الارض المستوية الغليظة وما استرق من الرمل وفي المثل من تجنب الحبار أمن العثار ، ومن سلك الجدد أمن العثار ، العقدة العقار ونحوه يقال اعتقد فلان عقدة اذا اشترى ضيعة أو اتخذ مالاً من عقار وغيره وهي مستعملة عند عوام الشام ، الكفاة الخدم الذين يقومون بالخدمة ، الخانة جمع خائن والغدرة جمع غادر ولا نستعمل هذين الجمعين اليوم وكثير من الجموع أغفلناها مع الزمن كالجورة والحزمة والخونة والكذبة . الاعتاب مصدر قولك أعتبني فلان اذا عاد الى مسرتك راجعاً عن الاساءة ، الاستئثار المشاورة أعذر الرجل بالغ في اظهار عذره ، الطرق ضعف العقل وفلان به طرقة

أي هوج ، أجم الطعام كرهه وملّه ، استجهام القلوب اراحتها ، السوقة خلاف الملك نطلقه على أهل الاسواق وليس بصحيح ، الاحتلاط (بالحاء) المبالغة في الحلف واليمين ، البأو الفخر بالنفس ورفعها ، اتلاد المال تنميته ، فاش الرجل اذا افتخر ومنه التفيش وهو الكبر والادلال ، اتزر ركب الوزر أي الاثم ، حقرية الذلة ، خبال الامر اضطرابه واختلاطه ، الشرج المثل والنوع ، يتبيغ يهيج ، الاستجراح الفساد والعيب ، استحسر أعيا وتعب ، القعدة الكرسي أو الطنفسة ، الظهري مايجعله المرء عدة له عند مسيس الحاجة اليه ، الشكيمة قوة القلب وشكمه أثبته ، أغمز في فلان اذا عابه واستضعفه وصغر من شأنه ، استأكل الضعفاء اذا أخذ أموالهم ، أوتغ دينه بالاثم أفسده ، الحجه بعرض فلان أهتكه منه بشتمه ، الانفهاق في الشيء التوسع فيه ، اكتهف وتكهف لزم الكهف والكهف المغارة والملجأ ، أخطر جعله في خطر ، رضخ له من ماله اذا أعطاه ، ضن الشيء يضنه فهو موضون ووضين ثنى بعضه على بعض ونضده ، العقوة ماحول الدار والمحلة ، الكسى (بالضم) مؤخر العجز في كل شيء والجمع اكساء وركب اكساه ، سقط على قفاه ، اجتالهم بالشد حولهم عن طريق قصدهم الخ ...

ومن ألفاظ الكتاب الثاني (١) العقابان خشبتان يشبح الرجل بينهما ليجلد (٢) الفيج الحارس أو رسول السلطان أوحامل البريد (٣) ، العطعطة حكاية صوت المجان اذا قالوا عيط عيط وذلك اذا غلبوا قوماً (٤) ، الابليز وطين الابليز طين مصر وهو مايعقبه النيل بعد ذهابه عن وجه الارض لغة مصرية (٥)، تقبل العامل العمل تقبيلاً التزمه بعقد ومنه المتقبلون أي الملتزمون باصطلاحنا اليوم (٦) ، هذا عول الدولة أي المستعان به أو أحدخدامها (٧) ، يعرّب عليه يرد عليه بالانكار (٨) المُجْمَل المستعمل على جملة أشياء كثيرة غير ملخصة جاءت هكذا : عرض الغلام عليه مجملاً بما يجري يوماً يوماً وليلة ليلة (٩) المطرح المفرش وزناً ومعنى (١٠) المسورة بكسر الميم نخدة مدورة (١١) الخردادي ابريق من البلور الحجري ذو عنق ضيق

وجسم يزداد اتساعا من أعلى الى أسفل . والخردادي الخمر ، والغالب أن هذا الاناء كان خاصاً بوضع الخمر كالباطية . وقال العلامة كرنكو إنها خرداذية بالذال في الثانية وهي كلمة فارسية لنوع من أنواع الشراب كانوا يشربون فيه أيام الأعياد (١٢) القصرية كالاجانة اناء لوضع الزهور أو الطيب (١٣) الرقاص اجير البناء وهاتان اللفظتان مصريتان (١٤) بعّض الشيء جزأه وتبعض له أي ناوله بعض ما على المائدة من الطعام تحبيباً (١٥) يزل معه مايقدر على حمله من زل الطعام أخذه وتناوله والزلة اسم لما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك . (١٦) البذرقة الخفارة . (١٧) في الكلام على هندسة جامع ابن طولون (فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت) فسرته بأنهم كانوا يرسمون مخطط البناء على الجلد ، ثم اطلعت على كلام للجاحظ يقول فيه : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكاك والعهود وفي الشروط وصور العقارات وفيها تكون نموذجات النقوش ومنها تكون خرائط البرد وهن أصلح للجراب ولعفاص الجرة وسداد القارورة (١٨) ورد فيه فتخرج الينا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً أو تطاريف ، وفي كتب اللغة اختضبت المرأة تطاريف أي أطراف أصابعها وطرّفت المرأة بنانها اذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء (١٩) الزيرباج : قطع لحم صغيرة تجعل في القدر عليه غمرة ماء وقطع دارصيني وحمص مقشور ويسير ملح فاذا أغلي تؤخذ رغوته ثم يطرح عليه رطل خل خمر وربع رطل سكر واوقية لوز حلو مقشراً أو مدقوقاً ناعماً يداف بماء الورد وخل ثم يطرح على اللحم (٢٠) البوارد البقول المطبوخة الموضوعة في الخل وماء الحصرم والسماق وماء التفاح والريباس (٢١) السفتجة كقرطقة أن تعطي مالاً لآخر ، وللآخر مال في بلد المعطي فيوفيه اياه ثم فتستفيد أمن الطريق وفعله السفتجة بالفتح والمال المسفتج المرسل الى بلد آخر سفاتج (٢٢) الذَّرَبُ : فساد المعدة .

ومن ألفاظ الكتاب الثالث : أبرد القوم دخلوا في آخر النهار ، حبا الرجل مشى على يديه وبطنه فنظر اليه عن عرض وعرض من جانب

أربد وجهه وتربد احمر حمرة فيها سواد عند الغضب ، يقال هو حدث ملوك بالكسر صاحب حديثهم ، وكثير الحديث حين السياقة له ، المتلدد الحائر المتلفت يميناً وشمالاً ، تذمم استنكف يقال لو لم أترك الكذب تأثماً لتركته تذمماً ، أتانا بعد هده من الليل وهدأة وهدي وهدوء ، أي بعد هزيع من الليل أي حين سكن الناس ، يقال ما يريم يفعل ذلك أي ما يبرح وما رمت أفعله وما رمت المكان وما رمت منه وريم بالمكان أقام فيه ، احتشم منه وعنه وحشمه واحتشمه أخجله ، فلان موطأ العقب صاحب سلطان يتبع ، رجل أثير مكين مكرم ، أوجره الرمح طعنه به في فيه ، نكد زيد حاجة عمرو منعه اياها ، غمزه بيده نخسه ، الطائف العسس العُسُّ القدح العظيم ج عساس ، القصب القدح الضخم ، تطفيل الشمس غروبها ووجبت الشمس غربت ، شق الدار والخيمة ناحية منها ، فلان ما يليق درهماً من جوده مايسك ، الصرم البيوت المجتمعة ، يوم صائف حار ، تغز نفسه تنقبض ، الخريطة وعاء من ادم (جلد) وغيره يشرج على مافيه أي يشد ، عاقه خاصمه ، فلان ملزوم لازمه غرماؤه ، البهلول كصرصور السيد الجامع لكل خير ، حادرت السنة اذا قل ماؤها ومطرها ، الاشراف بالشين الحرص ومنه الحديث من أخذ الدنيا باشراف لم يبارك له فيها ، عُبّر الشيء بقيته ، زهر السراج تلألأ ، العوراء الكلمة أو الفعلة القبيحة ، الشاكري الاجير أو المستخدم ، أبن نفي كغني نفاه أبوه ، رجل أخن وأمة لحناء لم يختتنا ، يقال افعل ذلك وكرامة لك وكرمى وكرمة لك وكرماً لك وكرمة عين ونعيم عين ونعمة عين ونعامى عين ، ويقال نعم وحباً وكرامة ، انقطع به ان كان ابن سبيل فانقطع به السفر دون طيته وهو منقطع به ، يقال للرجل عند التوديع معاناً مصاحباً ومن قال معان مصاحب فمعناه أنت معان مصاحب ، صهرته الشمس أي صحرته آلمت دماغه ، أقاد القاتل بالقتيل قتله به ، لببه جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره ، استشرف الشيء رفع رأسه لينظر اليه ، تطول

عليهم امتنّ كطال عليهم ، وتطول تفضل ، الباطية اناء عظيم والرطلية وعاء يجعل فيه الخمر وغيره ، رب الأمر أصلحه ، الرافعة الجماعة تذيع الى الناس مايقال ، تقول أوطأتني عشوة أي جعلتني أطأ ما لا أراه أي أوقعتني في أمر متلبس وغررتني حتى اغتررت ، احتسب عليه أنكر ومنه المحتسب ، تواعدوا اتعدوا أو الاولى في الخير والثانية في الشر ، وثب به هجم عليه وتوثب في ضيعتي استولى عليها ظلماً ، الربع الدار بعينها حيث كانت ج رباع وربوع وأربع وأرباع . الفحل الرجل الكامل الرجولة ، القرم السيد .

ومن ألفاظ الكتاب الرابع (١) الطيهوج ذكر السلكان واحدها سلك كصرد والسلك فرخ القطا أو الحجل (٢) السمك قبيح رائحة اللحم ، الحنز (المنتن) وريح السمك (٣) غضف الاذنين استرخاؤهما (٤) البشتمازك هو الذي يكون في آخر الاضلاع من داخل الحمل ويسمى الكمازك ، وهذا تعريف المؤلف له ولم نجد له ذكراً في كتب اللغة (٥) أسطارم الغالب أنه من أمراض الجوارح ولم نجده في المعاجم : ومعلوم أن المعاجم لم تستوف جميع ألفاظ اللغة وقد وجد دوزي الهولندي مئات من هذه الالفاظ ملأ بها كتاباً له في مجلدين أسماه ملحق المعاجم العربية (٦) الحوجلة القارورة (٧) القدير اللحم المطبوخ في القدر (٨) قمر فلان الرجل غلبه في القمار (٩) الكندرة مجثم البازي يهيأ له من خشب أو مدر (١٠) الحن وعاء الطيب (١١) تقرش الشيء أخذه أولاً فأولاً (١٢) خربع المشارع جعل فيها الخربع والخربع نبت كالسم يغشى على آكله ولا يقتله والمشارع جمع مشرع معناها طريق الحوض (١٣) التبان كرمان سراويل صغير يستر العورة المغلظة (١٤) قرنص فلان البازي اقتناه للصيد (١٥) اركب الطائر تهيأ للطيران أو ضرب بجناحيه (١٦) عبّر الطير زجرها (١٧) رمح الطائر ألقى ذرقه (زبله) (١٨) سبق الطائر ألقى السباقين في رجليه والسباق القيد (١٩) الشهدانج ويقال له شهدانج حب القنب وفي اللغة الشامية القنبس (٢٠) قبض الطائر وغيره اسرع في الطيران وهو قابض

وقبيض بين القباضة والقبض منكمش سريع ومنه والطير صافات ويقبضن (٢١) الفانيذ نوع من الحلواء يصنع من السكر ودقيق الشعير والزنجبين .

ومن ألفاظ الكتاب الخامس : الاسطقسات أو العناصر والاكسير دواء اذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهباً او فضة أو غيّره الى البياض أو الى الصفرة ، الطين ويعرف بالطين الارمني وفي الشام يسمونه التراب وهو الطين الذي يؤكل ، وسئل عما كان يأكل ويشرب كل يوم فقال المدققة والمرققة والملبقة والمروقة (الملبق الملين بالسمن) . البربط العود وأصلها بالفارسية بربت أي صدر البط لأن صورته تشبه صدر البط وعنقه وأهل هذا الفن وغيرهم اعتمدوا على لفظة العود ، السكبينج نوع من العقاقير ، الاحبلتجين عقار من ورد وعسل ، متريديطوس ويقال مترا اختصاراً ومعناه المنقذ من ضرر السم (والاصل في هذا الاسم اسم الطبيب مخترعه ومركبه) ، التفسرة بول يستدل به على حال المريض وعلته ، القيفال بالكسر عرق في اليد يفصد ، الدستور الوزير الكبير الذي يرجع في أحوال الناس الى مايرسمه ، القولنج مرض معدي يعسر معه خروج الثفل والريح . وقد وقعت له عدة تعابير وتراكيب نسيناها او تناسيناها ومنها تشور خجل ، اجعلني من أدمة اهلك وارض عني ويقال جعلت فلاناً أدمة اهلي اي اسرتهم وأدمه بأهله خلطه بهم وجعله كواحد منهم ومنها الحافد اي المعوان ورجل محفود يخدمه اصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته .

هذا ما امكن اقتباسه من ألفاظ الأسفار الخمسة التي نشرتها ، فكم في الكتب المطبوعة والمخطوطة من امثالها ما أنسيناه ونحن له محتاجون كما انسينا من الحلويات العصيدة والخبيصة لما جاءنا من الفرس الفالوذج واللوزينج ثم انسيناها لما جاء الترك بروانى وكلاج ثم انسيناها جمعاً لما اتانا الافرنج ببربوش وبردنج والله اعلم مايدخر الغيب لنا من الالفاظ في المستقبل ، وفي هذا دليل آخر على حيوية هذه اللغة وقابليتها للتطور بحسب الزمن مع الاحتفاظ بأصولها وقواعدها وبالفصيح من مفرداتها وشواردها .

الثورة الثانية

في يوم ١٢ آب ١٩٤٩ قام الجيش السوري بثورة ثانية بقيادة الزعيم سامي الحناوي والعقيد بهيج الكلاس وزمرة من الضباط ، فطوقت مدينة دمشق في الساعة الثالثة صباحاً وقبض على المشير حسني الزعيم صاحب الثورة الاولى ورئيس الجمهورية الرابع ، وعلى رئيس حكومته السيد محسن البرازي ، وانعقد مجلس حربي فحكم عليهما بالاعدام بالرصاص . وفي ثكنة المزة تولت فئتان من الجنود تتألف كل منهما من اثني عشر جندياً بقيادة نائب لتنفيذ حكم الاعدام على كل من حسني الزعيم ومحسن البرازي بعد أن عصبت أعينهما وشد كل منهما الى عمود ثبت في الارض ، فخر الاثنان مضرجين بدمائهما ، وتقدم منهما رئيسا الفئتين وأطلقا عليهما طلقتين من مسدسهما للاجهاز عليهما .

والى القارىء الاسباب الداعية الى هذا القتل في بلاغين رسميين صدرا عن قائد الجيش والقوى المسلحة الزعيم سامي الحناوي .

بلاغ رقم (١)

أيها السوريون :

لقد قام جيشكم الباسل بانقلاب يوم الثلاثين من شهر آذار الماضي لينقذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت اليها من قبل ، وقد استقبلتم ذلك العمل بالفرح والتقدير لما وعد به زعيم ذلك الانقلاب من انقاذ البلاد من فوضاها ، واعادتها الى عزتها وكرامتها في بياناته الاولى ، ولكنه مالبث حين استتبت له الامور ان اخذ يتطاول هو وحاشيته الى أموال الامة ، فيبذرونها بالاثم والباطل ، والى كرامة البلاد ومقدساتها فيدوسونها ويلوثونها ، ويعبثون بقوانين الامة وحريات الافراد .

هـذا عدا ما صحب ذلك من سوء الادارة والفوضى والتدهور ،

بحيث أخذ الناس يسخرون من الجيش ورجاله لما صارت اليه البلاد من حالة أفظع بكثير مما كانت عليه من قبل ، واذا أضفنا الى هذه الفوضى الداخلية تلك الفوضى التي صارت اليها سياستنا الخارجية رأينا أي مصير سيء قد بلغته البلاد .

لهذا ، وبعد الاعتماد على الله القوي العزيز ، عزم جيشكم الباسل الذي لايريد الا الخير للبلاد أن يخلصها من الطاغية الذي استبد وعتا هو ورجال حكومته المسخرة ، وقد أتم الله للجيش ماأراد فأنقذ شرف البلاد من ظلمهم وعتوهم ، وقد آلى على نفسه أن يسلم زمام الامر الى الاحرار المخلصين .

هذا وان الجيش وقواده ليعاهدوكم أمام الله والتاريخ أنهم لايبغون من حركتهم الاخيرة للبلاد الا أن تعيش عزيزة الجانب حرة مستقلة ، وسيترك الجيش لزعماء البلاد أنفسهم قيادة البلاد .

فعلى كل سوري أن ينصرف الى عمله هادئاً مطمئناً ، واثقا من أن قادة الجيش سيعودون الى ثكناتهم لتنظيم الجيش وترك أمور السياسة الى رجالاتها والسلام .

دمشق في ١٤/٨/١٩٤٩ القائد العام للجيش والقوى المسلحة
الزعيم سامي الحناوي

بلاغ رقم (٥)

أيها السوريون الأحرار :

بحمد الله العلي العظيم تم الانقلاب الحقيقي ونجت البلاد من طاغيتها المجرم الباغي ، الذي حاد عن الجادة المستقيمة وعتا عتواً كبيراً بعد أن وعد المواعيد الخلابة ، وخدع الخاصة والعامة ، وتظاهر بحب الخير والغيرة على الوطن الى أن استتبت له الامور فكشف عن حقيقة نفسه وأخذ يسير البلاد حسب أهوائه ، وقد زاد الطين بلة اعتماده على رئيس وزراء عرفه الناس جميعاً بسوء الاخلاق والخيانة والاساءة الى كل وطني شريف والقضاء على الروح الوطنية والنزعة القومية والمبادىء العربية ، وقد كان أحرار البلاد من مدنيين وعسكريين يرون كل أولئك فيحاولون

تقويم الاعوجاج ولكن هيهات للعاتي ان يصحو ، وللمجرم ان يفيق .

لقد قال الطاغية لتبرير انقلابه أنه قام بحركته انقاذاً للبلاد من حالة البؤس والفوضى اللذين صارت اليهما في العهد الماضي ، ولكنه سار بالبلاد سيرة جعلت الناس تذكر بالخير العهد الماضي ، وتتمنى لو عاد على مافيه من عيوب ومساوىء .

واتهم الطاغية رجال العهد الماضي بتزوير الانتخابات ، فاذا هو يزور استفتاء شعبياً كاملاً ويسخر من الناس أجمعين ، ويجعل سورية مضغة في أفواه العالمين ليتسنم أريكة الجمهورية التي حلف الايمان يوم حركته أنه لايبغي من وراء حركته منصباً ولا زعامة فاذا هو كاذب خداع .

اتهم الطاغية الحكومة الماضية بمناوأة الاحزاب المعارضة والقضاء عليهم وتسليط زبانية الحكومة عليهم فاذا هو يفعل شراً من تلك الحكومة ، فيقضي على كل حركة انتقاد ويسخر الدولة لخدمة أنصار الحكم وجماعته .

زعم الطاغية انه قام بانقلابه خدمة للأمة وانقاذاً لصحافتها من التضييق على حريتها ولأحزابها من العمل والنشاط ولشبابها من التحرر فاذا هو وحكومته يفتكون بالأحرار ويضيقون على الحريات ويعيدون أنصار الانتداب الى منصة الحكم ، حتى اخذنا نرى وجه الانتداب من خلف ستار صفيق .

لقد حمل ذلك الطاغية على رجال العهد الماضي بكثرة الحفلات والولائم وانفاق مال الامة بالباطل وجعل وظائفها وقفاً على الانصار بصرف النظر عن الكفايات والأخلاق ، والاستهتار بقضية رئيسة كقضية النقد والمصالح المشتركة ومعالجتها بالكذب والمماطلة ، فاذا هو يفعل شراً منهم ويجعل الناس يترحمون على النباش الاول .

لقد زعم حسني الزعيم وأبواقه المأجورة أن رجال العهد الماضي أفسدوا ضمائر الشعب واستعملوا الضغط والارهاب ، وملؤوا السجون بالأحرار والوطنيين فما قولكم فيمن أخذ يفعل فعلاً شراً من فعلهم معتمداً على كل خائن وحثيل مجهول الأصل ، يفتك بأصحاب البيوتات ويضغط

على أهل الكرامات مالئاً سجون المزة وحلب وحمص وحماه واللاذقية بالأحرار من الوطنيين والشباب المخلصين .

لقد ادعى ذلك الطاغية أنه انما ثار على العهد الماضي لأنه حمل الطبقتين المتوسطة والفقيرة أكبر قسم من الضرائب وخاصة الضرائب غير المباشرة التي تسبب الغلاء في المواد الضرورية ، وحصر القطع النـــادر ورخص التصدير بفئة محدودة من التجار ، ولكنه كان في عمله أقسى وامر ، فقد استمر ظلم الطبقتين الفقيرة والمتوسطة وأخذ رجال الطبقة الغنية يقتربون منه بما يهدونه من هـدايا وما يغدقونه على أقربائه وأنصاره من رشوة وسحت ، فسكت عنهم وقربهم من مجلسه واخذ يستمع الى اقوالهم حتى صاروا هم الساسة الحقيقيين للبلاد .

قال حسني الزعيم انه جاء ليغلق باب الرشوة والسرقة وخيانة كبار الموظفين وتقليل النفقات وتطهير الدوائر من العناصر الضارة وتنسيق كافة الجهلة والخونة فاذا هو يفعل العكس فيقرب الجهلة والخونة وينسق صغار الموظفين الشرفاء الفقراء ولا يعتمد في كل دائرة او ادارة الا على انصار الاجنبي والمرتشين والسارقين واعداء البلاد ويقضي على كل حر شريف مخلص لبلاده ، معروف باصالته وشرف نفسه .

قال الزعيم ورجال حكومته السابقة انهم يريدون توجيه السياسة الداخلية والخارجية توجيهاً صحيحاً فاذا هم يدفعونها في طريق ملتوية ، ويستأثرون بالسياسة العربية والخارجية ويدفعونها في طريق الانفصال والانانية والتآمر مع الاستعمار ، ويعملون كل الاسباب لقطع اوصال الأمة العربية وتأييد الحزبيات .

زعم الزعيم انه جاء ليصون دستور البلاد وكرامتها ولينتقم ممن عطلوا دستورها وحكمها الشوري ، فاذا هو يخرق الدستور ويعطل القوانين ، وكلما قيل له ان البلاد لابد لها من دستور خدر الناس والصحافة بتأليف اللجان وعقد الاجتماعات حتى اذا انتت اللجنة صياغة بعض مواد الدستور على غير هواه وعقله الملتوي الاخرق ثار على اللجنة وأفحاها ، وشرد رجالها بعد ان كانوا بالامس من اقرب المقربين .

وبعد فهذا طرف مما نقم الناس على حسني الزعيم في اعماله العامة وادارة دفة الحكم . أما اعماله الخاصة واخلاقه الشخصية هو وحاشيته فحدث عنها بما تشاء من السوء والانحطاط وكأنه نسي ان ديار الشام بلاد محافظة لها تقليدها واخلاقها وانها تكره الميوعة والتخنث كما تكره الطفرة والاعمال المبتسرة ، ولكنه كان يظن انه قد اصبح الدكتاتور المطلق يفعل مايشاء وما على الشعب الا ان يقلده ويتتبع خطواته فان اعماله دستور مقدس ، وحركاته نماذج صالحة .

ايها السوريون

لقد قام جيشكم من جديد بانقلاب وان قائده الاعلى ليحلف لكم انه ما قام بحركته الا انقاذاً لسمعة البلاد وكرامتها مما صارت اليه ، وانه سيدعو في اليوم التالي احرار البلاد على اختلاف النزعات والاحزاب لتسلم دفة الحكم على الشكل الذي يريدونه وانه هو ورجال الجيش سينزوون في مراكزهم لحماية الحدود وحفظ عزة البلاد بعيدين عن التدخل في السياسة فان لها ارباباً غيرهم ، وان قائد الجيش العام يرجو من كافة المواطنين ان ينصرفوا الى اعمالهم كالمعتاد بكل سكينة وهدوء تاركين لارباب السياسة تسيير دفتها معتمدين على اخلاص رجالاتها المعروفين بشرف النفس وطهارة اليد ونقاوة الماضي والفكرة القومية والاخلاص .

دمشق في ١٩٤٩/٨/١٤ القائد العام للجيش والقوى المسلحة

الزعيم سامي الحناوي

هذا ما نشره اللواء الحناري على الناس ، ومعظم ماقاله في المشير حسني الزعيم غير صحيح .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع في دار الحكومة بدمشق بعض النواب والوزراء من رجالات سورية وعهدوا الى فخامة السيد هاشم الاتامي رئيس الجمهورية الثاني تأليف وزارة من الاحزاب المعارضه وباشرت من الغد أعمالها برئاسته ، وقد منح سلطة رئيس جمهورية وسلطة رئيس وزارة ريثما تجري الانتخابات للمجلس التأسيسي وينتخب رئيس جديد للجمهورية .

المجلس التأسيسي

جئت صديقي الرئيس الجليل السيد هاشم الأتاسي شاكراً له قبوله رياسة الدولة ، عقبى مقتل صاحب الثورة الاولى السيد حسني الزعيم ، وقلت له : ان رضاه باستلام زمام الأمر على علو سنه ، رفع من قدر سورية في أنظار العالم ووقاها شر فتنة لايُعلم عما تنجلي ، لأن الشبان والكهول قد لا يتفقون على من يوسد اليه الحكم ، فتحدث مشادات لا تحمد ، وهو بالنظر لما خص به من مكانة سامية يرتضي رئاسته كل عاقل . فقال : (وصدق في قوله) ان غاية ما أرجو أن يكون لسورية مجلس مؤلف من نواب يعرفون قدر مهمتهم . وقد تحقق قوله فكان النواب على الجملة من الفئات الصالحة بعلمها وأخلاقها ، ذلك لأنه ماجرى انتخاب حر في هذه البلاد مثل هذه الانتخابات (١٩٥٠) .

قضى النظام الجديد على الأمية والاقطاعية ، وكان مجلس النواب السابق غاصاً بالأميين والاقطاعيين ، وأعطى الحق للنساء المتعلمات التعليم الابتدائي أن ينتخبن نوابهن ، وهذه ظاهرة تقدمت بها مدينة دمشق سائر بلاد الاسلام بفضل حكومة المشير الزعيم . فأصبح للنساء في سورية كيان سياسي معترف به ، ودل هذا الانتخاب ان الأمة اذا تركت لها حريتها تحسن القيام بواجبها ، وتعرف مايصلح لها وما لايصلح .

وبهذا ذهب من طريق النيابة جمهور غير قليل من ادعياء الوطنية ، والأميين والاقطاعيين ، والملوثين بالرشا وسماسرة منافعهم والذين امتهنوا الجاسوسية لحساب الاجنبي .

وأحيا هذا الانتخاب في الامة ما كانت ضعفت فيها مظاهره كالاعتزاز بالقومية ، وأشعر قلوب أبنائها معاني الوطنية ، وتحررت الأعناق من الاستعباد لأرباب القوة ، وكانوا يملون على الشعب ارادتهم ، وليس عليه

الا الخضوع والطاعة ، وأدرك حتى العوام معنى الحكم النيابي ، وأنشأوا يستشفون ما انطوى عليه من الخيرات ، اذا تولته أيد طاهرة وعقول مفكرة ، معتقدة في سرها وجهرها أن حياة كل وطني مناط حياة أخيه وأن شركتها لايضر بها الا الاختلاف الذي يحل الروابط ويمزق القوة .

ومما أثبت حياد الحكومة في هذه الانتخابات أنها حرصت على دخول الكتلة الوطنية ـ حزب الحكومة السالفة ـ ليتولى المعارضة في المجلس ، وبذلك فائدة للحكم النيابي ، فأبى رجالها أن يشتركوا مع معارضيهم بالأمس ، لتخوفهم على ما يظهر من ألا تصدق الحكومة في حيادها ، وأن تستعمل معهم الطريقة التي كانوا يلجأون اليها من التزوير والضغط ، وهم الذين اعتادوا أن تكون الحكومة عوناً لهم في فوزهم وتمكينهم من النيابة .

تمثلت في هذا المجلس معظم الأحزاب ولا سيما حزب الشعب الذي أصبح حزب الأكثرية فصدق على المجلس الجديد الى حد بعيد ماقاله غستاف لبون من أنه مضمون أعظم رقي من مجالس البلاد الديموقراطية عندما ينتخب الناخبون أناساً يعرفون حقائق الحياة ، من أرباب الصناعات والتجارة والزراعة ، بدلاً من انتخابهم من صفوف رجال المحاماة ، ومن صرفوا أوقاتهم في دفاترهم وكتبهم .

وبعد أن وضع المجلس التأسيسي القانون الاساسي انقلب الى مجلس نيابي وانتخب رئيساً للجمهورية فخامة السيد هاشم الأتاسي .

سياسة سياسيين

لقي الغربيون العظائم من استبداد الملوك ، فهدتهم تجاربهم الى ان الحكم الجمهوري أقرب الى السلامة من الحكم الملكي ، ورأوا أن يضعوا لرئيس الجمهورية قيوداً حتى لا تحدثه نفسه بتعدي السلطة التي خوله اياها مجلس الأمة ، ومنها ألا يجوز له أن يتولى الرئاسة الا دورة واحدة ، وبعد أن يخلفه رئيس آخر لا مانع من توليته ثانية . اشترطوا هذا وهم العارفون بما في الطباع البشرية من الأثرة والطمع ، وما نسوا أنهم ما كان ينجيهم من ظلم الطغاة من الملوك غير موتهم ، أو اعلان ثورة عليهم ، او تنازلهم عن عروشهم اذا ضعفوا عن مقاومة خصومهم .

واغتبطت سورية ان أصبح حكمها جمهورياً في عهدها الاخير بعد قرون مظلمة أتت عليها في الاستبداد ، وكان ان وقعت في الغلطة التي حاول الغربيون تفاديها بتحديد مدة معينة لرئاسة الجمهورية ، فأنهى حزب الحكومة القائمة مدة الرئاسة قبل حلول أجلها مع الرئيسين الأولين السيد محمد علي العابد والسيد هاشم الأتاسي ، ولما خلفهما الرئيس الثالث وهو من المسيطرين على ذاك الحزب لذّه الحكم فلم يكتف بقضاء مدته القانونية في الرئاسة ، وحاول أن يتولى الرئاسة دورة ثانية ، والدستور يحظر ذلك ، فهون عليه أعوانه الوصول الى غايته بنقض ما كان أقسم اليمين على المحافظة عليه ، وشايعه أكثر النواب وبعضهم من صنائعه « ومن سعى في نقض ماتم من جهته فسعيه مردود عليه » « والحكومة التي لاتطبق المباديء التي انبعثت منها ليست حكومة شرعية » وما كان قصد من زينوا للرئيس خرق القانون في الحقيقة الا خدمة أنفسهم ، لما وقر في نفوسهم من سهولة العمل معه لضعف ارادته ، أما اذا كان الرئيس قانونياً وحازماً فتفوتهم المغانم وتنقطع أرزاقهم .

وسلك الرئيس الثالث للاستمتاع بالرئاسة ثانية طريقته الشاذة التي وافقه عليها بعض النفعيين والوصوليين ، وما استمع لنصح العقلاء ممن كانوا يدركون عاقبة ما يحمل عمله الثاني من البلاء على البلاد . وقد نصح له أكبر شخصية سياسية في الدولة رئيس الجمهورية الثانية السيد هاشم الأتاسي وهو المشهود له بمواقفه المشرفة ، وماضيه النقي ، ومعرفته الواسعة بسياسة الامة ، ويعرف الى ذلك أخلاق الملتفين حول الرئيس الذي لم يبال بنقض نظام مقدس في سبيل جر المنفعة الى نفسه ، نصح له ألا ينقض القانون الأساسي . لأنه خاف اذا عبث السيد القوتلي بالدستور أن يسنّ سنّة سيئة فيطمع بعدها في نقضه كل أفاق تحدثه نفسه بالرئاسة . وما كان الرئيس الأتاسي ممن يتهم في نصحه لصديقه الرئيس القوتلي ، وكان المعروف أنه يعطف عليه ويرعى صداقته ، ويؤثره على أكثر أصحابه ، ولكن القوتلي عصى على النصح اذ لم يكن يجول في فكره الا تجديد الرئاسة له ، بأي صورة من صور الاعتداء على القانون ، ويعدّ كلام من ينصحون له بما لا ينطبق على هواه كلام خياليين لا عمليين .

ولم يكد يتم للسيد القوتلي ما أراد من تجديد رئاسته حتى بدت للأنظار صحة آراء من نصحوا له وفساد رأيه فيما ارتآه ، فأخذ ، وفي ظنه أنه نجح في مسعاه ، يسترسل في استبداده ، ولا يرعى غير مصلحته الخاصة وبدت عيوب ادارته تتجلى عياناً وأغلاطه السياسية توالى ، ومنها اقدامه على الحرب في فلسطين ، وليس للجمهورية الاستعداد اللازم لخوض معركتها . وكان من نتائج عبثه الثورة عليه وعلى حكومته ، حمله على ترك الحكم على الرغم منه ، ولما تمض أشهر على رئاسته الثانية ، في حالة من الذل والاهانة لاتحمد . وكان الى آخر ساعة وهو في معتقله حريصاً على الاحتفاظ بالكرسي ، وما وقع كتاب استقالته الا بعد الالحاح الشديد عليه ، وممن ألحوا عليه بعض أصحابه . ولو قد اكتفى السيد القوتلي بقضاء مدته الأولى في الرئاسة على نحو ماقضى به نظام الجمهورية لذهب من ميدان السياسة بما كان في أيامه الأولى من خير وشر ، وباصراره على انتخابه ثانية

بدت للناس عيوب ادارته ، واعوجاج سياسته (على مافصلنا ذلك في الجزء الثالث من المذكرات) أما الرئيس الثاني الذي خلفه في الحكم يوم الثورة الاولى فان الرئاسة أتت اليه تجرر أذيالها ، وما قبلها الا برجاء الساسة والنواب وأهل الرأي وكلهم مجمعون على أنه خير من توسد اليه الزعامة في هذا الزمن العصيب .

وفي كل ما جرى ظهرت حكمة المشرع الغربي في تحديد مدة رئاسة الجمهورية ، وتقييد من يتولاها بقيود حتى لا يظن أنه أصبح ذا سلطان قاهر ، لا يمنعه مانع من مخالفة ماتواطأت عليه الامة . أين رئيس من رئيس وعقل من عقل . سبحانه أرضى الناس بعقولهم ولم يرضهم بأرزاقهم .

نجح الرئيس الأتاسي فتولى رئاسة الجمهورية مرتين بمدوح السيرة موفق المساعي ولم ينجح الرئيس القوتلي في رئاسته الاولى ولا في الثانية على مايجب . والسبب أن الرئيس الاتاسي مارس الادارة والسياسة بالعمل منذ نال شهادة المدرسة الملكية الى أن تولى رئاسة الوزارة ثم رئاسة الجمهورية في المرة الاولى وما زال طول حياته متوفراً على زيادة معلوماته ، فزادت مع الزمن زيادة كبيرة ، وطبق النظريات على العمليات . أما الرئيس القوتلي فلم يعمل فكره منذ خرج من المدرسة في غير اثارة الثورات على ما فيها من المضار في أغلب الحالات ، ولم يدخل في شيء اسمه ادارة أو سياسة من أعمال السلطان ، ولا تقلد عملاً يتمرن فيه ولم يعرف الاصول والانظمة ، ولم يدرس أخلاق الرعية وما يصلحها ، وكانت أول وظيفة تولاها وزارة المالية ، لم يصرف فيها أكثر من بضعة أشهر ، ومنها انتقل الى رئاسة الجمهورية . والادارة والسياسة تمرين وتوجيه ودؤوب ، ومن الصعب على من اعتاد التخريب بسياسة سلبية لا يحسن غيرها ، أن يضطلع بسياسة ايجابية لم يتعودها .

الرئيس القوتلي

ما جوزت أن أخط حرفاً قط في نقد من يعملون لانفسهم بمعزل عن المصالح العامة . الا اذا كان من سيرتهم عبرة يراد منها رفع مستوى الاخلاق . أما من كان لهم مدخل في العموميات يرفعون ويخفضون ، ويغنون ويفقرون ، ويسعدون ويشقون ، بكلمة تخرج من أفواههم ، فهؤلاء من حق كل وطني أن ينتقدهم لتناول ما تكسبه أيديهم بجموع الامة . وأنا على هذا مع رئيس جمهورية سورية الثالث .

سألت صديقاً لي أن يذكر ملاحظاته على الجزء الثالث من المذكرات فقال لي : في المحاسن أم في غيرها ، فقلت له في غير المحاسن . قال : أليس ما كتبته عن الرئيس المنحّى شديد اللهجة ؟ فقلت أما هو ضعيف الارادة قوي الحزبية ، أما بدد أموال الامة في غير فائدة ، واصطنع السفلة وأغناهم من مال الجمهورية ؟ أما حنث بيمينه وخان الدستور ؟ أما باشر انتخاب المجلس النيابي بالحراب والتزوير ، واشترى ضمائر بعض النواب حتى ينتخبوه ثانية ؟ قال : هذا صحيح ولكن ما كتبت فيه سيكون تاريخاً ولا يترجم الا بما وصفته به . فكان جوابي : ولماذا ما حسب هو هذا الحساب ؟ كان عليه ياصاحبي أن يدرك أن بيده تحسين تاريخه فشوهه بنفسه ، ولو أنصفها لعلم أن أقل ما ارتكب يكفي في الحكم عليه .

استكتب السيد شكري القوتلي أيام رئاسته رسائل وقصائد في مدحه دفع ثمنها من بيت المال . فاخترع له بعض الافاقين صورة لا تشبهه في أفواله وأفعاله ، وألبسوه الحلة التي تهفو اليها نفسه . ومن أحب الوقوف على مبلغ حبه المديح فليلق نظرة على الجرائد التي اصطنعها وعلى مبالغاتها الفاحشة في مدحه . وعند نفسه انه بذلك يخدع الامة ويتم له كل ما يريد .

قلت لأحد أصحاب الرئيس وأصحابي : أنا أعرف ما بينكما من صداقة

وقرابة ، وأنكما ممن جمعتهم المحبة وألفت بينهم الحزبية ، فماذا حدث حتى تنافرت القلوب وانحلت تلك الرابطة التي جمعت بينكما حقبة من الدهر ؟ فأجاب : ياسيدي انه لايرضيه الا من يصانعه ، ولا يحب أن يفاتحه انسان بما يكره ، وبما يكره أن تصدقه حال الموظفين . وأنا أربأ بنفسي عن أن أدهن له ، وأرى من الخيانة أن أكتمه مايجب اطلاعه عليه من حالة الدائرة العظيمة التي وُكِل اليَّ أمرها ، ومن طبع صاحبي أن يرى لزاماً على كل انسان في الدولة أن يطأطىء رأسه أمامه ، ومن لم يفعل عده من المستهزئين به شأن المستبد المسلط .

يقولون انه كان طاهر اليد ، وأنه لم يظهر في صندوقه يوم فتش بعد سقوطه الا أربعون ليرة ذهب فقط . وسواء صح هذا أو لم يصح فالرئيس استحل على ما يظهر أخذ هدايا بعض التجار والنواب والوزراء وهذا الصنف من الناس لا يهديه شيئاً لو لم يكن في الرئاسة . وقال بعض المدافعين عنه في معنى قبول هذه الهدايا ، إنه كان يطلب مالاً من التجار وغيرهم لينفقه في مسائل وطنية مستعجلة تعجز موازنته الخاصة عن الوفاء بها . وكان يجوز لنفسه اتيان كل ماحظره القانون والعقل لاعتقاده أنه فوق القانون لايهمه الا رضا جماعته ، ومن يعتقد أنه بتألفه لهم فائدة لشخصه ، فيجود عليهم بما يشتهون ويصانعهم الى أقصى ما تقتضيه سياسة المصانعة ، ولا يهمه الا بقاؤه مدة حياته رئيساً للجمهورية بالاسم ، وملكا مستبداً غير متوج بالفعل .

ولا نحب هنا أن نورد له عشرات من المسائل خالف فيها القوانين وتعدى اختصاصه ، وليس أغرب من غضه الطرف عن المختلسين ، وفي أيامه شاعت الاختلاسات شيوعاً كبيراً ، وكان المختلس يهتدي الى من يعطف عليه فيبرأ ويعاد الى عمله ، وكان بعض المفتشين اذا طالبوا باحالة السراق الى القضاء يعدون من أعداء « الوضع الحاضر » ، ومعنى الوضع الحاضر الرضا بالحكومة الحالية على عُجَرها وبُجَرها ، وعلى رأسهم من يرتضيهم الرئيس . مثال صغير من عقليته في الحكم وتساهله بأموال الجمهورية . اختلس مدير المؤسسة التعاونية نحو ثلاثة وعشرين ألف ليرة وثبتت سرقته

بمعرفة مفتش نزيه فلم يرض الرئيس بمعاقبته على سرقته وقال : انه ليس في حكومته عشرة شبان من عياره ، وأمر أن يتركوه له ليوليه منصباً في السلك السياسي أي أنه أزمع أن يرسل الى الخارج لصاً يمثل سورية .

ومنها أنه وهب أحد الرعاع فضلات الطرق في بعض أطراف العاصمة ومعها أحجار أثرية عظيمة ، فكان من مجموعها مزرعة حسنة بلغت مساحتها نحو خمسين فداناً . وكان هذا يتولى اعطاء أهل حيه حصتهم من السكر والأرز . وقد يأخذها لنفسه في بعض الشهور ويقبض ثمنها لجيبه ، ويحرم ألوفاً من الخلق مادة مهمة في طعامهم . والرئيس يعرف ذلك فيما قيل ويسكت عنه . وله من هذا القبيل أشياء ما كانت تجري لولا تناهيه في الحلم ، ومنها أن أحد موظفيه استهدى باسمه أشياء ثمينة من بعض الاعيان وعرف الرئيس بالأمر بعد مدة وسكت عن المحتال ، ولم يؤاخذه على فعلته القبيحة ، ورقاه وأحسن اليه .

كان الرئيس مغرماً بالدخول في كل أمر من أمور الحكومة والرعية حتى ولو كان مما لا يدخل في خصائصه ، ولا يليق أن يتذرع به . وكان بعض معتمديه يتلاعبون ما طاب لهم التلاعب ، ويشاركون في أمور لم تجر عن رأي سيدهم ، أو كانت في نظرهم من المسائل التي لاينكرها اذا اطلع عليها ، بما فطر عليه من سعة الصدر مع بطانته . حدث أن أرسل أحد صنائعه الى اوربا في مهمة سياسية ، فسرقت منه مومس مفتاح المفاوضة بالارقام وغير ذلك من الأسرار فعفا عنه وأعاده الى الخدمة بعد هذه الخيانة المخزية .

ومما خالف به الروح الدستوري جهاراً طلبه اعتماد أربعة ملايين ليرة سورية فقررها النواب وهم لا يعرفون وجه صرفها ثم تبين أنه كان ينوي السفر الى العراق ولما لم يذهب بقي المبلغ معلقاً في الفضاء ولم يعرف أين صرف بعد ذلك .

وكانت توصيات الرئيس الى الوزارات والدواوين لاتنقطع ، وقلّ أن يكون للمحق نصيب من عنايته كما كان للمبطل ، ذلك أن صاحب

الحق موقن على الاغلب أنه يصل الى حقه بمراجعة الطرق القانونية . وكلمة واحدة يرسلها أحد مستخدمي قصر الرئاسة في الهاتف أو في بطاقة تقدم وتؤخر في مستقبل شخص ، أو تقضي على حق ظاهر وتقر غبناً وتستر عسفا ، والسابق الى الشكوى هو الفائز أبداً . والويل لمن لايرق له قلب الرئيس أو أحد حاشيته أو بعض أفراد أسرته وأتباعه .

أراد الرئيس مرة أن يُدخل فتاة جميلة من بنات الأعيان الى القصر الجمهوري يعهد اليها أمر التشريفات مع الاجانب ، بحجة أنها تحسن لغة أجنبية ، على أن تتناول راتبها من وزارة المعارف . ولما كان القانون يمنع من انتداب السيدة على هذا الشكل غضب الرئيس على مدير المعارف وما وقاه الله شر غضبته الا سقوط الرئيس . وأتاني مرة كتاب من أحد المستخدمين في القصر الجمهوري يقترح انتخاب أحد المتشردين من لبنان عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي ، قائلاً انا اذا انتخبناه عضواً يكون رئيس المجمع اللبناني العتيد — والمجمع اللبناني لم يؤسس ولم يجتمع الى اليوم — وكان الرئيس يكتفي لو أنصف بما يعرض عليه من جواب أن يعرف أن صاحب الادارة أعرف بما يصلح ادارته وما لا يصلحها ، ولو كان في ديوانه من يعرف قانون المجمع في اختيار الاعضاء ما كتب على لسان سيده هذه الوصاة المخجلة .

قلنا ان الرئيس كان يعطف على أناس يرى في اصطناعهم قوة له ، ومن الأسف انهم خذلوه يوم عزله ، وتناسوا أياديه عليهم ، وراحوا يعرضون خدمتهم على خلفه متخاضعين متذللين ، ولطالما انخدع هو بظواهرهم وجاز عليه هذيان من كانوا يختلفون الى مجلسه ويغرونه بعسلطانهم ، ومنها أن الامة كلها لا تتخذ عنه بديلاً . فنام مغتبطاً بأكاذيب الكذابين . وما كان يرضيه من عماله الا من ينافقه على النحو الذي يبتغيه ، ومن يجرؤ عليه فيصدقه الحقيقة ينبذه ويقصيه ، لذا كان من سياسة جماعته أن يدهنوا له الى أقصى ما يسعهم من ضروب الدهان ، وأن يكتموا الحق عنه لان نفسه لا تحتمل وقعه فيها . واذا فاتحوه بما لا تهوى نفسه نصب لهم

عداوة تنمو أبداً ولا تنقص . ومن البلية أنه كان محاطاً بموظفين يخلصون فقط في قبض الرواتب وما وراءها من هدايا وعطايا ، ولذلك يتفانون في الابقاء على حسن العلائق معه ، ليبقوا في مناصبهم أكبر مدة ، ومنهم السيد محسن البرازي من وزرائه . سمعته في حفلة أقيمت في مدرج الجامعة السورية برئاسة الرئيس يخطب فيمتدحه مدحاً لم يبق بينه وبين الالوهية الا خطوة واحدة ، حتى خجل الحضور من سماع هذا النفاق البايخ ، وكاد بعضهم يصفر استهجاناً وما خجل الوزير من قوله لان الرئيس لايرضيه منه غير هذا . والله أعلم بما كان يقول له في الخلوة حتى يستديم عطفه . ويقال انه خانه بعد أن متعه بثقته زمناً وأعطاه من مال الدولة كثيراً ، وكان يفرضه على كل وزارة تؤلف وينتدبه في المهمات ، ويرى فيه له الاخلاص الكامل . وقيل ان الرئيس كان يقترح كلما تألفت وزارة أن يدخل فيها السيد أحمد الرفاعي ، لكثرة ما كان يقدم له من الهدايا على ما شاع وذاع ، مع أن هذا الرفاعي ليس ممن اخترع البارود ، ولا عنده من المؤهلات لمنصبه ما يمكنه من حسن القيام به .

كان عقلاء الأمة والرئيس في منصبه يصونونه عن النقد بعض الشيء مخافة أن يؤدي ذلك الى التشهير به ، والرئيس رمز الأمة . وكان الى ذلك في مقام يسهل عليه الانتقام ممن يغضب عليه ، أما وقد ذهبت الحشية من بطشه ، فالعقل يقضي أن يصارح بما أتى ، ويذكر شذوذه في الحكم من دون تزيد ولا غلو . وليس بدعاً أن يسأل الآن عما اقترف فقد جرت العادة أن يحاسب صاحب المهمة عند انتهاء مهمته ، ومهمة الرجل تمت يوم اعتقل في قلعة المزة .

فكرت ملياً في عمل السيد تاج الدين الحسني وهو انتدابي عريق في انتدابيته ، وعمل السيد شكري القوتلي وهو وطني ، وقد طال عهد كليهما في الحكم ، فرأيت حكومة الاول على ضعف مواردها قامت بكثير من الاصلاحات النافعة ، فقد شادت مدارس وجوامع ودور كتب

ومستوصفات ومستشفيات ومتاحف وقصور حكومة في العاصمة والأقاليم وجسوراً ومعابر ومخافر وفنادق وشوارع ، وعبدّت ألوف الكيلومترات من الطرق العامة . وحكومة الثاني اقتصر عملها على انشاء بعض مدارس تجهيزية في الشمال ، بنيت بالحاح نواب تلك الأصقاع وكانت تصميات بعضها موضوعة قبل تأليف حكومة الكتلة . وأنشأ بعض المستشفيات أيضاً بعوامل تشبه هذه العوامل وبالحاح المحافظات ونوابها . أما الهاتف الآلي الذي أنشأه في العاصمة وصرف فيه نحو ثلاثين مليون ليرة سورية ، ارضاء لرجل له سلطان نافذ على الانتخابات في الشمال ، ليكون منه رزق دارٌ لشقيقه ، فقد كان غيره من المشاريع أحق بالتقديم باجماع العقلاء ، ومشروع الهاتف كان يمكن ارجاؤه بضع سنين ليصرف هذا المال الكبير في احياء مليون دونم من أرض الجزيرة يعيش بها عشرات الألوف من الخلق .

ويقول بعض المعتدلين في حكمهم على ماتم في حكومة الحسني وحكومة القوتلي ان ماجرى في حكومة الأول كان بمعرفة رجال الدولة المنتدبة وتوجيههم ، فلما جاء الوطنيون وتركوا لأنفسهم ، عسر عليهم أن يسيروا بسيرة الحكومة التاجية . وعندنا أن هذا دليل آخر على عجز حكومة القوتلي ، ولا يقوم من هذا القول اعتذار عن تقصيره .

اعود فأكرر ماقلته في هذه المذاكرات اني لا أخترع لمن أعرض لذكرهم مزايا ليست لهم ، ولا اسلبهم ماخصوا به من المزايا(١) . واني

---

(١) كتب اليّ صديقي الأمير مصطفى الشهابي في معرض الاعتذار عن الرئيس القوتلي فيما اتاه في رئاسته يقول : ان الاعمال العمرانية التي تمت ايام رئاسته ليست قليلة « وذكر عدداً منها » وأما غلطاته في الحكم فقد بالغ خصومه فيها ولعل مردّ معظمها الى كون رجال السياسة عندنا قد قضوا شطراً كبيراً من حياتهم يكافحون الانتداب ، فليس بعجيب أن تبدو مقاتل بعضهم في الحكم ، والحكم بعدُ يحتاج الى مران طويل ورجل الكفاح لا يستطيع أن ينسلخ رجل دولة بين عشية وضحاها . ثم من المعروف ان بعض الذين احسن فخامة الرئيس القوتلي اليهم ، وخصهم بالمناصب الرفيعة كانوا مصدراً مهماً لمتاعبه في الحكومة بسبب حرصهم على الوزارات والمناصب السائرة . قال ومن المعلوم أن الاستقلال التام اقتضى استلام الجيش الوطني ، وتأسيس التمثيل الخارجي ، ودوائر المكوس ، ودوائر الأمن العام ، ومراقبة الشركات والمدارس الأجنبية ، وكلها أمور صعبة في بلاد حديثة العهد بالاستقلال ويشؤون الحكم . ولهذا يغتفر لرجال الدولة عندنا مالا يغتفر لاشباههم في البلاد العريقة في استقلالها ا ه .

أعمد الى تصوير الحوادث والاشخاص بحسب ماتعطيني الأدوات التي لدي والمعلومات التي حصلت عليها . وقد يعثر القلم وسلامة القصد شافعة لما يقع من الخطأ . واني الى ذلك أتحدى من يتهمني بالتحامل على هذا الرئيس أن ينقض كلامي بحادثة واحدة اختلقتها ، او خالفت شروط الأمانة في الحكم عليه ، او بالغت في النقل والرواية . ولا أقصد شهد الله الا توفية واجب المؤرخ وأن أصون قومي بعد الآن عن الوقوع في حبائل المتلاعبين حتى يرعوي كل من يتولى شيئاً من أمر الامة ويعرف أن ميزان التاريخ دقيق يحاسب على الخير والشر .

الثورة الثالثة

لا ينطبق اسم الثورة على هذه الحركة العسكرية لانها كانت عبارة عن تجريد فصائل من الجيش قطعت بعض الطرق في دمشق مصحوبة بالدبابات بقيادة العقيد أديب الشيشكلي وذلك يوم ١٨ كانون الاول ١٩٤٩ ونشر بلاغاً على الشعب السوري جاء فيه أنه ثبت لدى الجيش ان رئيس الاركان العامة اللواء سامي الحناوي (وهو صاحب الثورة الثانية التي قضى فيها على المشير حسني الزعيم والبرازي رئيس حكومته) كان وبعض ممتهني السياسة يتآمرون على سلامة الجيش وكيان البلاد ونظام الجمهورية مع بعض الجهات الاجنبية ، وان ضباط الجيش كانوا يعلمون هذا الامر من بدايته ، وحاولوا بشتى الطرق بالاقناع تارة والتهديد الضمني تارة اخرى أن يحولوا دون قيام المؤامرة وأن يقنعوا المتآمرين بالرجوع عن غيهم فلم يفلحوا فاضطر رجال الجيش حرصاً على سلامته وسلامة البلاد وللمحافظة على النظام الجمهوري أن يقبضوا على المتآمرين وعلى رأسهم اللواء سامي الحناوي وبعض الضباط . وبعد اعتقالهم بضعة أشهر اطلق سراحهم فخرجوا من أرض الجمهورية واعتصموا بلبنان ثم اغتيل اللواء سامي الحناوي في مدينة بيروت بيد ابن عم محسن البرازي الذي كان قتله مع رئيس الجمهورية حسني الزعيم .

حكومة شرقي الاردن

وفت بريطانيا العظمى للملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الاردن فعاونته على ضم قسم من الجزء العربي من فلسطين الى مملكته بعد أن استولى الصهيونيون على ما أهمهم الاستيلاء عليه من أرض فلسطين لقيام دولة اسرائيل . وقد ساء جامعة الدول العربية أمر هذا الضم واحتجت على الملك الهاشمي فلم يعبأ باعتراضها . ولو لم يضم هذا الاقليم الى مملكته لضمته اسرائيل اليها ، ومن المتعذر انشاء مملكة على حيالها من جبال نابلس والخليل وما اليهما لضعف مواردها ، وقد عرف ان الحكومة البريطانية تعاون حكومة شرقي الاردن كل سنة بنحو أربعة ملايين جنيه لتنفق على جيش صغير وعلى حكومة نظامية .

ولقد نشرت بعض الصحف المصرية صوراً من المفاوضات التي دارت بين الملك عبد الله وحكومة اسرائيل خلال الحرب الفلسطينية الاخيرة وألقت عليه تبعة الكوارث التي أصابت فلسطين واستنكرت عمله في الوقت الذي كانت مصر تحارب اسرائيل وتعتقل الصهيونيين وتحجز أموالهم وتنفق الملايين من الجنيهات في حربهم ويموت المصريون برصاص اليهود . قالت وبينا كانت مصر تعمل كل مافي طاقتها لدفع العداء الصهيوني عن فلسطين كان الملك الهاشمي يحرص على تحسين علائقه مع اسرائيل . أما الاقليم الذي ضم الى دولة شرقي الاردن فقد اخرج في الانتخابات النيابية عشرين نائباً كما اخرج الاردن نفسه عشرين مثلهم . وما أظن سكان ضفتي الاردن يصلون الى ثمانمائة الف ساكن الآن .

حكم الانكليز

قال غروسه في كتابه ميزان التاريخ Grosset : Bilan de l'histoire حكم الانكليز العالم في القرن التاسع عشر فكانت انكلترا كألمانيا أو أكثر كتلة من الفحم الحجري والحديد مهيأة للثورة الصناعية . الانكليز أمة بحرية واخوان الهولانديين والسكنديناويين بالدم ويفوقونهم في باب الاستقلال وبما يتمتع به سكان جزائرهم من الخصائص .

تقدم الانكليز خلال القرن الثامن عشر فرنسا وهولاندة في الاستيلاء على البحار ، ولم ينشئوا المستعمرات البريطانية على سطح الارض فقط بل أقاموا من المستعمرات ما يوافق سكناه صحة الاوربيين ، وكانوا يجهزونها بمثل ما جهزت به انكلترا من أسباب الرقي فيؤسسون انكلترا جديده في كل مستعمرة . وتمنح الارض الهولاندية في افريقية ما تمنحه اوستراليا قانوناً يمتعها بحريتها - وهي من جملة أملاكها - ولما أخضعت لسلطانها ما استعمره المستعمرون من الاوربيين قبلها كالفرنسيين في كندا والهولانديين في الترنسفال . واستطاعت بما خصت به من سياسة حرة أن ترد على المغلوبين استقلالهم الداخلي المطلق وتمتعهم بلسانهم وثقافتهم وادارتهم ، وكانت سياستها رشيدة توازي في نبلها نبل الغرض الصادرة عنه . ومعنى هذا انها تزرع في نفوس أعداء الامس جراثيم الاخلاص التي تتجلى في ساعة الخطر . واذا تيسر التوسع في الملك على مثل هذه الصورة يسامح المغلوب غالبه ، وتفتح له القلوب بعد فتح الأرض . وهنا فوارق عظيمة بين الأساليب الألمانية والأساليب الانكليزية ، وقد ذهبت انكلترا بالفضل في ذلك فتلطفت ومنحت الهند وهي ملكها الحكم الذاتي مراعية قواعده كل المراعاة .

ما قام منذ عهد تراجان في رومية تسامح أكثر من هذا التسامح ، ولا شهدت حرمة جماع العناصر والأديان والثقافات أكثر من هذه الحرمة وما تمت عظمة قط بأكبر من هذه العظمة . وما كانت الامبراطورية البريطانية كقرطاجنة ضيقة الرقعة ، بل كانت واسعة الأطراف ممتدة الآفاق على نحو ما اتسعت امبراطورية الرومان أيام الصالحين من امبراطرتها . وقامت انكلترا وهي مؤلفة من ٤٥٥ مليوناً بأول تجربة جربها البشر بأسرهم للجمع بين دول متخالفة بأصول شعوبها ، فحاولت ان تجعل منهم وحدة حرة أو في طريق التحرير على أن تنقلب هذه الوحدة الى عصبة أمم بلا حدود ترسم لها ، عصبة ترعاها وتشرف عليها ، ثم يقودها خير القواد .

هذا رأي غروسه في استعمار الانكليز وقوله صادر عن حرية ممزوجة بالغرام بقول الحق شأن المؤرخين في العادة . وليته أدلى الينا برأيه في استعمار أمته دون أن يعرض بألمانيا خصيمة فرنسا . ولو فعل لكان رأيه سديداً من كل وجه ، وهذا الاستعمار الانكليزي على عظم شأنه ماخلا من عيوب يعرفها من عاش زمناً في مستعمرة انكليزية أو بلد يحتله الجيش الانكليزي . فقد نصب الانكليز مثلاً مستشاراً للمعارف في مصر اسمه دنلوب كان مثال التعصب الذميم فأغضب المصريين لأنه ما أحب انتشار المعارف على الطريقة التي تنفعهم بل على المثال الذي رسمه له ساداته الموحون اليه ليبقي المصريون تحت سلطة دولته عبيداً خانعين . فحدث ما لم يدخل في تقدير البريطانيين ، وتعلم المصريون التعليم العالي بأموالهم وارشاد أرباب البصيرة منهم ، وأنشأوا الجامعة المصرية الاولى وطمعوا في أن يعلموا أولادهم تعليماً حراً وما استمعوا لنصح عميد الانكليز لورد كرومر يوم صرح في حفلة افتتاح الجامعة المصرية الاولى بأن التعليم الابتدائي أجدى على المصريين من التعليم العالي . والتعليم الابتدائي يصوغ من المصريين فلاحين متمدنين بعض الشيء ولا يعدهم للمطالبة باستقلالهم وانشاء حكومة راقية ، وبالتعليم العالي ينشأ افراد يحسنون المجاهرة بحقوق بلادهم وهذا ما حصل .

هذه الغلطة في سياسة التعليم في مصر على عهد الاحتلال الانكليزي وهي غلطة متعمدة لم تجيء عرضاً ، وهناك اغلاط تنتقد واي عمل خلا مما ينتقد عليه مهما بالغ صانعه باتقانه ، ولكن اذا أردنا الجميل على القبيح فهناك الاستعمار المقبول في الجملة . والظاهر ان الانكليز وهم عمليون في ادارتهم وسياستهم يكتفون من المستعمرات بالاحتفاظ بمصالح امبراطوريتهم العليا ولا يتدخلون في الكبير والصغير بأحوال المستعمرة .

عزة نفس

قلت ان الموظفين طبقة مهذبة ومنهم العف النفس ومنهم من لا يرى بأساً من املاء جيبه من ايدي من يراجعونه في قضاء مصالحهم . وليس لدي احصاء اعرف به السليم من السقيم ، لأن سليمهم أو ماعرف انه كذلك ، اعتاد الستر على سقيمهم فيختلط في جمهورهم المرعيّ بالهمل . لكنني اقدر بالعقل ان ارباب الاستقامة قلائل يضيعون في غمار الفاسدين . ولقد لاحظت طبقاتهم في عهود مختلفة فما كان الا طرازاً واحداً في الاحتيال على الرعية يسلبونهم مايقدرون على سلبه منهم بسيف الارهاب احيانا وبسيف الحياء تارة ، وتقل هذه الاخلاق وتكثر حتى فيمن يتعففون بحسب الظاهر عن الرشوة ، والعادة فيمن لا يرتشي ان يقبل دعوة صاحب العلاقة ، ومن انواع الرشوة هدية الثياب والطرائف والحلي وتقديم القينات ، ورب رشوة حملت نفعاً مادياً غير ظاهر كأن تهدي شركة صناعية رئيس جمهورية جانباً من اسهمها عادةً له من المؤسسين ، وما كانت تجود عليه بنصف سهم لو كان بعيداً عن منصة الحكم .

اعتاد بعض الموظفين هذه العادات القبيحة فأصبحت فيهم غير مستنكرة ولا مستكرهة ، وتكون على أشد حالاتها فيهم اذا كان في أهلهم من

عرف باضاعة الحقوق . هذا وقد ألف الآخذ والمعطي فعلته بالتكرار وعدم الانكار . وأحسن أصناف الموظفين من ورثوا من أهلهم أو من عملهم السابق ثروة قليلة تكفيهم للظهور بالمظهر الذي يجب أن يظهروا فيه من دون أن يسفوا الى أخذ البراطيل ، فهؤلاء في الغالب مثال محترم من المحسنين بين المنصوبين وخدمتهم خالصة على الاكثر .

قلة ثبات

كتب صديقي الاستاذ سليم النجار جملة في مجلة الورود اللبنانية ترجم فيها لصديقه وصديقي الشيخ يوسف الخازن رحمه الله فقال انه من أسرة لبنانية كبيرة لم يألف رجالها العمل الجدي المتتابع كمعظم رجال الجبل في عهده . فقد عاش مثلهم كبيراً في مطالبه كبيراً في تفكيره ، يفكر في العمل فيثب عليه بنشاط ثم لا يلبث أن ينصرف عنه بمثل السرعة التي أقدم عليه بها كائناً ما تكون النتيجة التي تعود عليه ، ولذلك لم تعد عليه جهوده الجمة بالفائدة التي كان ينتظرها منها ، فتعددت الجهود وتشابهت النتائج اه .

وكأن الاستاذ النجار في وصفه مكان الضعف من أخلاق صاحبه وصف نفسه في هذه الكلمة . فهو كالاستاذ الخازن صحافي قليل النظير في افتنانه . صرفت معهما في مصر زمناً فكنت أسر بما يكتبان وينشران ولا أعتم أن أراهما يسكتان فجأة وينصرفان الى وجهة أخرى . وقد آزرا عشرات من الصحف العربية والافرنجية وأصدرا جرائد ومجلات وما ثبتا في تحرير واحدة منها . ولطالما صارحتهما بذلك لما كان بيننا من صداقة فكانا يناقشانني أحياناً ويسكتان تارة ، معترفين آسفين للأحوال التي قضت عليهما بالتقلقل وقلة الثبات .

لو رزق صاحباي من الثبات ما رُزقه العالمان يعقوب صروف وفارس نمر والاديبان سليمان البستاني وجرجي زيدان لجاء منهما في السياسة والأدب أكثر مما جاء منهما . فالعمل المتقطع لا تأتي منه مجموعة نافعة ، والمرء غالباً لا يثمر إلا ما تمنّ به الفطرة عليه .

واذ كنت جد حريص على استفادة الجيل الحاضر والقادم مما خطته أنامل الخازن والنجار وأمثالهما من اخواني اللبنانيين تمنيت لو جمعوا أو جمع لهم بعض ما أبدعته أفكارهم في رسائل وكتب حرصاً على تخليد آرائهم فيكون ما يدون كتاب تفننهم وسجل نبوغهم .

وكان هذا الرعيل في أهل الجيل الماضي غير قليل ومعظمهم من أصدقائي أمثال شكيب أرسلان ، خليل مطران ، رشيد رضا ، داود بركات ، اسماعيل حافظ ، حسن بيهم ، عبد الباسط فتح الله ، نجيب شاهين ، خليل سعادة ، خليل زينية ، ابراهيم مصوّر ، أنطون جميل ، أمين تقي الدين ، عمر الفاخوري الخ . ومنهم من هاجر الى مصر وظهر فيها نبوغه بفضل الحرية التي تمتعت بها منذ كان الاحتلال الانكليزي فيها .

السينما

مما أعان على انتشار الغرام بالسينما أن أكثر الناس مولعون بسماع الغرائب والاكاذيب . وكان من الولوع بالقصص والروايات أعظم عون في هذه السبيل . واذ كانت سدى القصة ولحمتها الاختلاق وهي الملهاة الوحيدة في الاكثر جاءت السينما تشاطرها هذا اللهو وهذا العبث .

والسينما تفوق التمثيل بأشياء ، وتجمع بين الطيب والخبيث . ومن طيبها استعمالها في المدارس والثكنات لالقاء الدروس وتربية الملكات تشرح غوامض العلوم وتقرب منالها للمستفيدين .

يقول العارفون في وصف هوليود مدينة السينما في الولايات المتحدة (وهذه أعظم الممالك اصداراً للأفلام في العالم) ان مدينة هوليود تضع سلاسل من الظرف والشهوات والهزل والسرور واللصوصية والقتل والفضائل البشرية عامة وتمثلها على الشاشة البيضاء . وكل ما ينبعث من هوليود يقتبسه الرجال والنساء والاطفال والبنات ، ويشهده في العالم ٢٥٠ مليوناً من الخلق كل اسبوع . والسينما من أعظم الصناعات الحديثة يقال انه بلغ ما يستثمر فيها من الاموال في العالم نحو خمسمائة مليون جنيه .

اصلاح الصحف

ورد في الدستور السوري الجديد (سنة ١٩٥٠) أن القانون ينظم أسلوب مراقبة موارد الصحف ولا يجوز تقديم معونه مادية لها من خزانة الدولة أو الادارات العامة أو البلديات مهما كان شكلها . وقد بدلت هذه المادة في النص الاخير من الدستور الذي نشر على الامة . وما وضع أعضاء المجلس التأسيسي هذه المادة الا بعد أن نظروا النظر البليغ في أمر الصحف وثبت لهم ما جر التساهل مع بعضها في الماضي من اضاعة حقوق وتضليل عقول . وكان للشركات وما بذلته صناديق استخبارات الدول من معاونات وما تعطيه الحكومات القائمة من المشاهرات مدخل كبير للعبث بالامانة على حساب الرعية . وأتت أيام ، على عهد الترك والفرنسيس والعرب ، عز فيها الصدق في الصحف . ولو قدر الله وطبق القانون الجديد على الصحافة لبطل في الجملة تمويه الحقائق وجرت الامور في نصابها ، ولقل الكذب والتغرير ، ولكانت تظهر حسنات هـذا القانون كلما تشددت الحكومات في انفاذه . وبقطع المخصصات عن الصحف لا ينبت منها الا السليم ذو الموارد القانونية ، ولا يتلو القارىء فيما بعد

ذلك الا ما صح من الأخبار والأفكار . وبذلك تسلم الصحافة ويفتش أربابها في اتقانها فتحوز رضا الجمهور ورضا الحق ويزيد انتشارها وتتوفر اعلاناتها ، وتخلو من الغش الا ما لا سبيل الى توقيه .

نعم كانت بعض الصحف فيما مضى تصدع بأمر من يعاونها وتنزل على ارادته تذيع عنه ما يشاء وتكتم عن الناس ما يشاء . ولولا المراقبة وخوف الصحف من الاغلاق ومن الحكم على مديريها ومحرريها لرأى الناس عجباً من تلاعب يحمل خراب أمة ، مثال ذلك أن بعض الصحف كانت تعرف من أخلاق أحد الروساء ما يعرفه كل وطني فلم تكتب فيه يوم سقوطه كلمة واحدة تخدم بها التاريخ والحق لأنه كان أشبعها بل أتخمها من مال الامة فرأت من باب الاعتراف بالجميل أن تكافئه على بيض أياديه عليها بالسكوت عن سوء ادارته ، وبعض الصحف تأمل رجوعه الى منصبه واستعادة حظوته فيسلفونه مدحهم وثناءهم ، ويوهمون القراء ان الرجل يعود الى الحكم لا محالة ببرقيات يضعونها تنشر بتواقيع ما عرف أحد ممن وشحت بأسمائهم المجهولة .

قال لي صاحب أديب : أعترف لك وللحقيقة والتاريخ أني لما اشتدت الأزمة بين وزارة المعارف في عهدك وبين رئيس الجامعة السورية استدعاني هذا وأنا تلميذ في الحقوق وطلب مني أن أخطب فيك لأنك تنوي اغلاق الجامعة ودفع الي مكافأة على مهمتي خمسمائة ليرة فتلقفتها مسروراً لأني كنت محتاجاً الى مال ، وكان والدي يقتر علي في النفقة حتى لا أسرف على نفسي . وذكر لي أسماء بعض من أعطاهم الرئيس من تلاميذ الحقوق وغيرهم لهذا الغرض . أما الصحف التي أكرمها حتى سكتت عما ظهر من تفتيش الجامعة من السرقات وسوء الاستعمال فانها بفضل ما قبضت التزمت السكوت المطلق وأغمضت الطرف عما كانت الوزارة ترمي اليه من اصلاح الجامعة لا اغلاقها كما أشاع رئيسها وأنصاره .

مؤامرة دنيئة

نشرت جريدة المساء الدمشقية مايلي :

اكتشفت في حلب مؤامرة خطيرة حاكها موظفو شركة « الآي . بي . مي » البترولية الانكليزية بايعاز من رؤسائهم ، وكانت غاية هؤلاء اثارة الفتنة الطائفية في حلب ، الا أن مؤامرتهم هذه احبطت بفضل العقلاء من المسلمين والأرمن معاً ، وتتلخص هذه المؤامرة فيما يلي :

استيقظ سكان حي الميدان وهو من أحياء حلب النائية التي يشكل الأرمن أغلبية سكانه ، استيقظ السكان في صبيحة أحد الأيام ليشاهدوا باب مسجد الحي قد لوث بالأقذار . وانتشر هذا الخبر في كافة أحياء المدينة انتشار البرق وما لبث الاستياء الشديد أن شمل المدينة بأجمعها وأخذ الغليان ينتشر بين صفوف الناس لاهانة مسجد اسلامي على هذا الشكل الاجرامي . وكاد الحادث يتمخض عن أشياء لا تحمد عقباها لولا أن سارع العقلاء من المسلمين والأرمن الى عقد اجتماع فيما بينهم للبحث في أمر هذه الجريمة ، وخلال هذا الاجتماع أعلن زعماء حي الميدان من أرمن ومسيحيين لاخوانهم المسلمين أنهم على تمام الثقة واليقين بأن أحداً من رجال الطائفتين لا يمكن أن يقدم على مثل هذا العمل القبيح المنكر وتم الاتفاق بين المجتمعين على مراقبة مسجد الحي مراقبة دقيقة وكذلك مراقبة الاشخاص الغرباء الذين يدخلون هذا الحي ، وبالفعل فقد رتب أمر المراقبة من قبل مندوبين عن العناصر الثلاثة بشكل محكم .

وبعد يومين من وقوع هذا الحادث شاهد المراقبون سيارة جيب تدخل الحي في الظلام وتقف أمام باب المسجد ليترجل منها اثنان من ركابها ويقوما باعادة العمل المنكر « تلويث باب المسجد » وخلال قيامهما بهذا العمل وجدا نفسهما قد طوقا مع سيارة الجيب من قبل عدد من سكان الحي ، وهكذا تم القبض على المجرمين متلبسين بالجريمة . وبعد التحقيق الدقيق تبين أن هؤلاء الشباب يعملون كموظفين في شركة « الاي بي مي » الانكليزية في حلب ، وأنهم قاموا بهذا العمل مرتين بناء على توجيه رؤسائهم .

خلل في الادارة

كثيراً ما يعهد الى بعض العمال ، أو هم يعهدون لأنفسهم ، بتولي بضع وظائف يتقاضون عليها ماينص عليه القانون من اجر اذا أديرت بالوكالة . وقد يزيد مجموع رواتب العامل من هذا الصنف على ضعفي راتب الوزير .

ان جمع رواتب كثيرة في يد واحدة لا يضر أكثر من ضم عدة أعمال لعامل واحد . ذلك أن الرجل مهما بلغ من الذكاء والمقدرة في صناعته لا يجود الا عملاً واحداً ، ومن المستبعد أن يحسن الفرد عدة أمور فيترتب على هذا ضعف في معاناة ما وكل اليه من خدمة ولو كان لا يصرف في العمل الاضافي الا ساعات قليلة . فالضرر يشمل الوظيفة اذاً ، وكان الأولى أن يتولاها من استعد لها ويتناول راتب الوظيفة كاملاً .

ان الحكومة التي تتساهل في مثل هذا الشأن لترضي من ترضيهم ، أو ترجو تحقيق أغراض لها ، قد يقضيها الوكيل على ما تشاء ، ولا يقضيها الأصيل ، هي حكومة تشهد على نفسها بالضعف . ومما يزيد في تفاقم هذا الخلل كون معظم حكوماتنا الدستورية لا يدوم حكمها مدة طويلة . فاذا كان الوزير على شيء من الحزم يبت في مثل هذه المسائل حالاً ويخلص دواوينه من التقلقل ، واذا كان يعتقد أنه يعمل لأجل مسمى ، لا يهمه الا ارضاء حزبه ، ولا يحب أن يتأذى بعمله أحد ، ولا يتعمد اصلاح ما يجلب له ضجة . واذا قيل ان الوزارة لم تجد الكفوء لهذه المناصب فرأت من الصواب أن توكل بها شخصاً نعتقد أنه يديرها ، فليس هذا من حسن الادارة في شيء . وكل حكومة صحت عزيمتها على توظيف الأليق للعمل لا تعدم حيلة للظفر به . واذا كانت على ريبة من اقتداره فما أحراها أن تعينه بالوكالة حتى تثبت لها كفايته .

تقوم مصلحة الدولة بتوزيع خدماتها على أرباب الكفايات وتكثير سواد الاخصائيين في دوائرها . وهي اذا رزقت مئة عامل ترجو منهم تجويد عملهم ، أفضل من أن تغني ثمانين عاملاً ، ذكاؤهم محدود ، ومعرفتهم قليلة ، وشغلهم بادي الخلل .

وكما لا يتوقع غير الضعف في أمور الحكومة اذا أدارت بعض فروعها بالوكالة ، وجمعت بضع وكالات في يد شخص واحد ، يشاهد الخلل أيضاً في تنقل العمال بين مختلف الوزارات . ومن ربي في الهندسة لا تصوغ منه ادارياً ، ومن كان في الجندية لا ينشأ أستاذاً في المعارف . وندر نجاح من يتنقل في فروع كثيرة من الوزارات ، كما ندر نجاح من يغير عدة حرف وصناعات ، يقفز من واحدة الى أخرى ، والنجاح متوقف أبداً على الثبات والمران وحصر الوكد في عمل واحد .

الدعايات الحديثة

سلطان الدعاية في أيامنا فوق كل سلطان . بها تستطيع الدول أن تقلب الباطل حقاً والحق باطلاً ، فهي تقوم على الأكثر بالاختلاق المعيب ، اذا كان فيه تعظيم أمتها ، وقد تنسب لرجالها من المجد ماليست لهم فيه الا مشاركة خفيفة . واذا قرأت في بعض كتبهم مثلاً أسماء المخترعين صوروا لك دولتهم على رأس الدول كلها في باب الاختراعات ، وأوهموا أنه ماتم اختراع على يد مخترع من أبناء أمة أخرى الا كان رجالهم سابقين الى التفكير فيه قبل أن يخترعه مخترعه . هكذا الانكليز والامريكان وهكذا الفرنسيس والالمان وهكذا الروس والطليان .

والتاريخ أكثر مايحدث فيه التخليط فان كل أمة تكتب التاريخ بما تقتضيه سياستها ومصلحة وطنها . تجسم الصغير اذا كان لأمتها حظ منه ، وتصغر الكبير اذا جرى على يد دولة أخرى . وقد لانعرض للخطيئات

التي ارتكبها قادتها الا بشيء من التلميح أو التمويه . فاسبانيا مثلاً لا يذكر مؤرخوها ماأتته دولتهم من السيئات في استعمارها أميركا الجنوبية وغيرها من الجزائر كما وقع ، ولا ما اجترحته من الفظائع في اجلاء العرب عن الأندلس ، ولاتشير انكلترا الى هول المجزرة التي تولت كُبَرَها في الهند يوم ثورتها في نحو منتصف القرن التاسع عشر . وفرنسا تغمض الطرف عما ارتكبت ولا تفتأ ترتكب من الفظائع في الأقطار الاسلامية والشرقية . وروسيا تتناسى ماعاملت به شعوب قافقاسيا وتركستان من الاستبداد المريع .

انغمست معظم الأمم في غمرة هذا ، لافرق بين الشعوب الكبيرة والشعوب الصغيرة في استعمال الكذب على التاريخ ، يزعمون أنهم يحاولون بذلك تربية الوطنية في أبنائهم ، ولا يهمهم ان كان يحدث من ذلك عداوة بين الشعوب . ولكثرة تكرار الباطل بدعاياتهم ظنت كل أمة أن الحق ماهي فيه وما عداه باطل . ولو قد سألت بعض النبهاء عن أمرٍ أبرمته حكومتهم وهو ينافي العدل والعقل لوافقوا على نقدك ولأشاروا اليك أنهم لايسعهم الا أن يصدقوا رجالهم .

فالحقائق على الجملة أصبحت في العصور الحديثة في بلاءٍ لايعدله بلاء ، ومن أنحس البلايا عبث من وكل اليهم أمر الدعاية والنشر ، وهم يتعلمون الكذب تعلماً حتى كدنا نظن أن الكذب أكثر مانسمع ونرى .

وضعت العرب قواعد لكشف الكذب بوضعها علم الجرح والتعديل وكانت لهم طرق غريبة في الوصول الى الحقائق ، وغدا للكذب في هذا العصر وسائط شيطانية تؤثر في البعيد والقريب ، ومنها الصحافة والمذياع ، فانهما زادا في مادة الكذب وسهل بهما سريانه في الأفكار فاستشرى بذلك فساد العالم . وكانت الكذبة الواحدة في الزمن السالف تحتاج الى وقت حتى تنتشر في الألف والألفين من الناس ، واليوم تنتشر في ساعات قليلة من طريق الصحافة والمذياع في ملايين من الخلق في الغرب والشرق .

ذكرني بكل هذا ماطالعته في صحيفةٍ غربية مؤخراً من غلو الصحافة

ومحطات الاذاعات في روسيا بما كان لهذه الدولة من أثر عظيم في باب المخترعات والمكتشفات ، حتى بلغت المدنية الحديثة هذا الحد ، ولا أحسن في رد هذه الدعوى مما قاله القصصي الروسي توركانيف سنة ١٨٦٦ في احدى قصصه قال : زرت قصر البلور في لندن فرأيت فيه نماذج من جميع الاختراعات حتى ليصح ان يقال انها دائرة معارف الانسانية ، فقلت في سري لو كتب لأمة أن تنقرض من سطح الأرض ويفنى من هذا القصر كل مااخترعته هذه الأمة أما كانت أمنا روسيا الأرثوذكسية تغرق في التترية من دون أن تحلحل مساراً ، أو تزعزع دبوساً من مكانه ، فالسماور (آلة طبخ الشاي) وسياط الكنوت Knout وهي ماتنتجه مملكتنا لسنا نحن مخترعيها أيضاً .

كتائب الفداء العربي

هو اسم جمعية ارهابية أسست في دمشق ، ولو تيسر لهم تطبيق خطتهم لخرب جانب عظيم من هذه العاصمة وهلك مئات من أهلها لكثرة ما ادخرت في مستودعاتها من القذائف والمدمرات والسلاح الجديد مما لا تجمع مثله الا الحكومات المنظمة ، وهو عمل تجرد من الانسانية وليس من الوطنية في شيء . وثبت أن بعض الحكومات المجاورة كانت تغذي هذه الجمعية بالمال لتستفيد من ذلك فوائد سياسية تتوقعها .

القسوة على العلماء

حدثني الاستاذ محمد علي الطاهر أنه أرسل من القاهرة الى السيد شكري القوتلي يوم كان رئيساً للجمهورية يخبره بما آل اليه حال الامير شكيب أرسلان أيام الحرب الأخيرة من الضيق وطلب اليه اسعافه فما أجابه الرئيس بشيء مع تكرر الطلب ثم توفي الأمير وساءت حال زوجه في سويسرا حتى أن السلطات هناك حجزت أثاث دارها فأرسل الاستاذ الطاهر يخبر الرئيس القوتلي بما صارت اليه حالها ويرجوه أن يمدها بالمال فما اجابه أيضاً . ان الرئيس القوتلي ضن على الامير شكيب الذي خدم العرب والاسلام ، خدمة لم يخدمها الا أفراد قلائل جداً في حين كان ينفق الأموال جزافاً على من كان يسميهم « زعماء الأحياء » لاكتساب تأييدهم في الانتخابات ، ولو كان الأمير شكيب نظم قصيدة أو كتب مقالة في مدح الرئيس لخفّ الى نجدته أيام عسرته ولكن الرئيس اعتاد ألا يعاون الا من يعاونونه في سياسته ، وبهذا العمل أثبت ما للعلماء من قيمة في نفسه .

مصر والنهضة العلمية (١)

عقدتم مؤتمركم الثامن في هذه المدينة ففتحت لكم أحياءها الثمانية أو جميع أثمانها ، وللجنة فيما زعموا ثمانية أبواب فكان اليمن حليف هذا العدد ، حقاً لقد اغتبطت عاصمة الشام الطبيعية الغنية بتاريخها أن رأت مؤتمركم يتفيأ — ظلال غوطتها وأن تشهد هذه الشخصيات العلمية تأتمر في صعيدها لخدمة الانسانية والمدنية وتخفيف آلام اشرف مخلوق درج على هذه الارض والعناية بصحته لتطول حياته .

طب الابدان من أشرف علوم الانسان وصناعة الطبيب أشق الصناعات واشدها خطراً على صاحبها ، والاطباء أبداً عرضة للعدوى بالامراض التي يعالجونها في هذه البنية البشرية أفليسوا وهم الأمناء على الأرواح والأشباح أحرياء بكل رعاية وكرامة .

سعدت جمهورية سورية الفتية أن شهدتكم ياسادتي تصرفون أياماً في أرضها تنصرفون الى أعمالكم العظيمة تقصدون فيها خدمة العلم عامة وأرض العرب خاصة ، واغتبط أبناء الجمهورية أن شاهدوكم تنزلون بلادهم على الرحب والسعة في سبيل أشرف المقاصد العلمية .

في الاسلام فتحت العرب الشام والعراق قبل فتح مصر . وغدت دمشق ثم بغداد عاصمتي العلم ، ولكن مصر مع بعدها عن دار الملك ماعتمت أن أخذت بحظها من نعمة البحث والنظر تحت ذاك اللواء وأخذت تسير السير الطبيعي في خدمة العلوم والآداب حتى اذا دالت دول العرب ورثت مصر بطبيعة الحال ذاك التراث العظيم وكانت المأمونة عليه غذته وتعهدته وحنت عليه حنو المرضعات على الفطيم .

وبعد انحلال دولة بني العباس لم يجد العلم المادي والديني ملجأ

---

(١) خطاب لنا في المؤتمر الطبي الثامن في دمشق .

يعتصم به غير مصر ، وبعد استيلاء المغول على الأرض العربية فزع العلم العربي الى حمى مصر ، وظلت مصر في معظم أدوار تاريخ هذه الأمة مبعث العلم ومثابته . ولما كتب لها أن تنهض نهضتها الأخيرة كانت أول من هبت لتتلقف الحضارة الغربية من أهل الأقطار العربية ثم أخذت هذه تنسج على منوالها ، بيد أن مصر وهي السابقة في هذه الحلبة غدت كالأم الرؤوم ترضع بنيها وبني جيرانها راضية مرضية .

ابتدعت مصر لها في عهد الفراعنة مدنية رائعة كانت أجمل المدنيات القديمة وعنها أخذت الأمم أصولها وفروعها وفي جملتها علم الطب ، وكان كهنة مصر أول من وضع أساسه على ما حقق ذلك شيخ أطباء مصر الدكتور علي باشا ابراهيم وأصبحت لمصر في الاسلام شخصية معروفة في العلم . وما شحت في زمن من الأزمان باشراك الأقطار الأخرى فيما ثقفته وتلقفته . ولولا مصر مابقي أثر يذكر في هذه الأقطار لشيء يقال له علم عربي وعلم عقلي . ذلك لأن الغفوة أيام الانحطاط كانت ويالأسف طويلة في عامة بلاد العرب أكثر مما كانت في وادي النيل المبارك .

وكأن أهل مصر خُصوا بالانتفاع من كل قوة تأتيهم من الداخل والخارج ، وطبعوا بطابع خاص في واحتهم البديعة منعزلين عن الشعوب الأخرى وقريبين منهم ، يتناغون أبداً بالحرص على حريتهم ، ولذلك كانت أيام مصر المعدودة في الاستقلال أطول عدداً وأجل أثراً من أيام غيرها . واذا عددنا أفراداً طالبوا بحرياتهم في غير مصر ففي مصر من تفانوا في هذه الأمنية ، شهدنا جماعات يتولى الخلف منهم ما بدأ به السلف ، وهكذا في مسائل العلم والمدنية .

يوم قامت مصر تؤسس مدرستها الطبية منذ زهاء قرن كانت الاقطار الأخرى قد نسيت معظم ماكان لها في سالف الزمن من مجد علمي وصناعي ، فتقدمت مصر غيرها جيلين وثلاثة من أجيال الناس حتى اهتدى العالم العربي الى الاقتباس من نورها والجري في الطريق التي نهجتها ، وفي مقدمة الأمصار التي باكرت أخذ مناهج العلم والحضارة عن مصر هذه الديار الشامية ، ولذلك ترى الشام أن كل اكرام يقل للمصريين

في ربوعها . واذا حاولت أن تقوم بواجب اكرامكم فهي تحاول أن تكرم في أشخاصكم مصر المحبوبة صاحبة النهضة العربية ، تكرم فيكم الذكاء الذي أحسن محمد علي الكبير استثماره فأحيا دولة العرب بعد دثورها ولولا هذا الذكاء ما تم لمصلح مصر ما أراد . ولولا ذكاء المصري ما اجتمع هذا المؤتمر في هذا البلد الطيب ولا خطر ببال مصري أن يؤسس جمعية طبية ثم يعقد المؤتمرات ثم يشرك أطباء البلاد العربية بأعماله .

والواقع يا سيداتي وسادتي أن الأسرة العلوية لم تقتصر في كل زمن في اتخاذ أسباب النهوض بمصر لترفعها من طور ولاية مقطورة الى غيرها الى مستوى دولة عظمى مستقلة بأمرها . وقد ازهرت النهضة المصرية في عهد وارث ذاك المجد المؤثل جلالة الملك فؤاد الأول ملك مصر المعظم وهو الذي أسس الجامعة المصرية وأحيا الأزهر بتأسيس كليات التخصص فيه وعطف على كل مشروع علمي وجغرافي وصحي واقتصادي وصناعي ولم ترض نفسه الأبية أن يكون هذا الخير وقفاً على مصر فقط ، بل تعلقت همته السامية أن يشارك المسلمون في هذه النعمة التي أصابتها مصر فأمر أدام الله دولته بفتح أبواب مدارس بلاده العالية والثانوية لكل من يحب أن يتعلم من أبناء الشعوب الاسلامية . وهو عمل جليل لم يعهد له مثيل في غير الدول الاسلامية الكبرى في الدهر الغابر .

ورجاؤنا وأنتم اليوم على أوفاز أن تحملوا من شاطيء بردى الصغير الى اخواننا سكان النيل الكبير سلام أهل هذه الديار ، وأن تتفضلوا وتسبلوا ذيول المعذرة اذا لحظتم قصوراً بواجبات الضيافة على ما تستوجبه مكانتكم ، فان قصرنا في الواجب فما قصرت قلوبنا في أن تخفق لطلعتكم حباً واحتراماً . واذا كان لي ما أقوله باسم مجمع اللغة العربية الملكي فليس الا شكركم على ما أوليتم موضوع المصطلحات الطبية من العناية في مؤتمركم فسهلتم بذلك على مجمع مصر اللغوي عمله وأثبتم بتضامنكم معه أن العلم سلسلة واحدة كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها وان العلماء في الارض أسرة واحدة رغم الحواجز والتخوم واللغات والاديان ورغم الاعتبارات السياسية والعنصرية ، وهذه قد تزول ولا يزول من الافئدة عطف العربي على العربي والمصري على الشامي ، والله يسدد خطاكم ويجعل التوفيق رائدكم وقائدكم وينفع بكم أمتكم سادتي الاعزة .

نظرات

لو كان من حرموا التاريخ يتدبرون القرآن لأدركوا أن ماجاء فيه من أخبار الماضين هو التاريخ بعينه مقروناً الى فلسفته والتعليق عليه .

اذا درس العربي القرآن حق دراسته لا يحتاج الا الى قليل من كلام العرب ليعدّ في البلغاء الفصحاء .

من ادعوا أن القرآن يحمل في دفتيه جميع العلوم لايدركون أنهم جعلوا منه بهذا الوصف مختصراً في دروس الأشياء ، وما القرآن الا كتاب حكمة لخلق أمة تصلح للمعاش والمعاد وكفى بذلك اعظاماً لشأنه .

اذا لم يحفظ الفقيه القرآن من أين له أن يعرف الاسلام ، وبأي أداة يقضي ويفتي .

كتبت فصلاً في أصل الوهابية سنة ١٩٠٠ في مجلة المقتطف أثبت فيه أن الوهابية حنابلة ، ولما كان من عادة القوم أن يسبوا من يخالفهم في مذهبهم ، ويعدون من لا يشتم كما يشتمون أنه من أهل المذهب الذي بحث فيه ، كان نصيبي منهم التضليل والتكفير ، وهو من أيسر ما تلوكه ألسن الغيراء على الدين .

يزيد عدد من فقدتهم من العلماء والأدباء في نحو ستين سنة من الشاميين (ويدخل فيهم اللبنانيون والفلسطينيون) والمصريين والعراقيين على مئتي رجل ، ويدخل فيهم اخواني من علماء الترك والمستعربون من علماء المشرقيات وأترابي في مجلس الشيخ محمد عبده وحلقة الشيخ طاهر الجزائري وغيرهم ممن عاصرتهم وعاشرتهم وأخذت من علمهم وأدبهم ،

واسترشدت بآرائهم ، وأعجبت بصفاء أذهانهم وجميل مذهبهم ، ناديت وقد تمثلت لي أشباحهم : يا رب كيف تطيب لي الحياة بعد رحيل ذاك الرعيل الجميل .

كان أحد الوزراء يصرف جانباً من وقته في سماع مراجعات أهل دينه من القسيسين والمطارنة ، وكان الظاهر من حركته أنه لايهتم لغير مصالح أبناء طائفته ، هكذا علمته مدارس الافرنج التي تخرج بمعلميها ، ولكم كان أهله يحسنون اليه والى بلده لو ادخلوه في الرهبنة كما ترهب أخواته الثلاث ، وكان مخاطبه لايتبين من وجهه الا أنه راهب في ثوب مدني ، خرف الدهر فأجلسه على كرسي الوزارة ، وهو لا يليق لأكثر من وكيل نيابة أو معاون لرئيس دير .

بذل أعداء بني العباس كل ما لهم من حيلة حتى يسقطوا كبار خلفائهم فوضعوا فيهم الحكايات ، ورموهم من المخازي بما هم منه أبرياء يقصدون من الغض منهم نقض بناء الدولة ، والحط من أبناء الدعوة ، وما كان بعض خلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ممن تكثر لهم الامثال في الدول ، ولذلك وجب على محب التحقيق أن يحذف بعض ما حملته كتب المحاضرات من أخبار الخلفاء ، ويأخذ كل ما قاله اهل الأهواء في خلفاء الأمويين والعباسيين بتحفظ واحتراز .

السرُّ في ان الشرقي يبالغ بحضارة الغربي ، والغربي يغالي بانحطاط الشرقي ، كون كل فريق لا يعرف ماعند الفريق الآخر على حقيقته ، ولو استبطن الاول ماعند الثاني لأنصف كل منهما صاحبه في حكمه عليه .

قال احد حكماء الغرب لو لم يقف شارل مارتيل امام العرب في بواتيه لسبق الغرب الى التمدن ثمانية قرون . ونحن نقول لو لم يشغل معاوية بحرب علي لانتشر الاسلام في اوربا منذ القرن الاول من الهجرة .

عجّل اختراع الطباعة بالحروف انتشار الحضارة ، فهي أفيد اختراع نشرت فوائده بين البشر .

كان من انحطاط جزيرة العرب حجة لمن يزعمون أن في تعاليم الاسلام مايحول دون نهوض اهله ، لقد أخطأوا فالامر على غير ماتوهموا. السبب سياسي اجتماعي ، والدين بريء من هذه التهمة .

حاول المسيطرون على سياسة مصر بعد أن حلّوا جيشها القديم ان يصدوها عن التقدم وينسوها الاستقلال ، فما رأوا افعل من جعل مدة دراسة الضباط قليلة جـــداً ، يأخذونهم على الأغلب من الساقطين في الشهادة الابتدائية ، فكان جماع ما يتعلم حماة مصر لبس بزة جـديدة ، وحمل عصي في ايديهم فقط .

لاينجى المسلمين مما يُرمون به من الانحطاط الا ان يرجعوا في دراسة دينهم الى اصوله على ماكان يُعلّم في القرون الأولى ، وان يتعلموا علوم الحضارة كما تعلم في جامعات الغرب لعهدنا .

ليس من الغلو أن يقال ان بعض المستعربين من علمـاء المشرقيات عرفوا الاسلام وأكبروه أكثر مما عرفه بعض أدعياء العلم المشار اليهم بالبنان بين أظهرنا . ذلك لأن معرفة الاسلام متوقفة على الدرس والبحث والمستعربون يدرسون ويبحثون على الأصول أكثر ممن تمحضوا للعلم عندنا .

صعب على طبع الفرنسيس الاعتراف بمـا أخذوه عن العرب من أسباب تمدنهم كأنهم باعترافهم بالأمر الواقع يصغرون من شأن مدنيتهم . دعوى الوطنية لاتكتسب بانكار الحقوق الثابتة .

يظهر أن الشرقي يعترف بفضل الغربي عليه بمـا فتح له من أبواب التوسع في العلوم أكثر مما يعترف الغربي بما أخذه أجداده من الشرق وما انتفعوا به من علوم العرب وحضارتهم .

اضحك من رجل يحاول أن يسير الزمان على هواه ، ولا يسير هو بما يتطلب الزمان منه .

قد ينبغ في أمة رجل عظيم وهي غير مستعدة لقبول ما يدعوها اليه من أسباب النهوض فتعصي على اصلاحه ، وتحتقر حكمته . ومتى كان في أمة استعداد للنهوض يخلق الرجل الذي يضطلع بهذا الأمر ، وهذا من النوادر وقوعه .

أبشع ما أتت به النظم الغربية ما يدعى بالطريقة القرطاسية ، أي تطويل المعاملات ونقلها من ديوان الى آخر حتى يستوثق صاحب الشأن أن القضية المعروضة لم يدخلها زغل . بالطريقة القرطاسية لا تنحل مسألة في أقل من بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ، وبالطريقة العادية يبت بها في ساعة . والحكومة المبتلاة بطريقة القرطاسية تضطر الى الاستكثار من العمال . حتى قال أحد كبار ساسة الانكليز لعهدنا لصاحب له ايطالي : لقد أصبحنا معاشر البريطانيين واثنين منا من الموظفين والثالث فقط يشتغل . والى أمس كان الانكليز من أشد الأمم زهداً في الطريقة القرطاسية .

من الصعب على المسلم أن يحب فرنسا ، وقد رأى ظلمها أبناء دينه في كل أرض استعمرتها من الاقطار الاسلامية . وصعب على المسلم أيضاً أن يميل الى اسبانيا والبرتغال وايطاليا وهي ما كانت أقل ظلماً لاهل الاسلام من الفرنسيس .

لو فرض استيلاء دولة اسلامية على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وكان أهلها ينتحلون النصرانية ، لقامت أوربا وأميركا قومة واحدة حتى تحذف اسم الدولة المتغلبة على هذه الاقطار من قائمة الدول

كان يكتب لنا التوفيق لو اقتبسنا من حسنات المدنية الغربية ما يربو على ما أخذنا من سيئاتها . والسبب في تأخرنا عن الغربيين اهمالنا التفكير

زمناً في كل ما يدفعنا الى الامام . أبطأنا في الاقتداء بمن كان الواجب الاقتداء بهم وما حدثتنا أنفسنا من أول جيل بالأخذ من المدنية التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد عصر النهضة .

شهدنا بعض الغربيين يربأون بأولادهم عن الاجتماع الى من يوافون ديارهم من المشارقة مخافة أن تسرق طباعهم من طباعهم .

جرى تبادل السكان بين دولة الترك ودولة اليونان فأخذت تركيا من اليونان من عندها من المسلمين الاتراك وأعطت تركيا لليونان رعاياها من الروم . وكان عدد المقايض عليهم من الطرفين عظيماً ، فدب الفناء في المغتربين تركيهم وروميهم ، لاختلاف الهواء وصعوبة النقلة ، فاستدللنا بذلك على أن الهجرة لا تنجح الا اذا كانت بمقياس مصغر ، وكانت المهاجرين رغبة شخصية في تركهم مساقط رؤوسهم ، فاذا أكرهوا على النزوح منها ، يصبح شر الهجرة أكثر من خيرها .

لو تأصل الغرام بالتمثيل عند العرب تأصله عند الغربيين لقربت مدنيتنا من المدنية الغربية ولكان مجتمعنا أرقى مما هو الآن .

طبق العرب قواعدهم في الحكم على الشعوب التي أخضعوها لسلطانهم فعدها هؤلاء نعمة بالقياس الى ما كانوا فيه من الظلم ، وبخاصة لانهم رأوا روحها لا ينافي روح أديانهم الأصيلة في باب الرحمة . ولما ضعف أمر الدين وضعف العرب في انفاذ مقاصده السامية كانت نقمة المحكوم عليهم من الحاكمين وبهذا بدأ الانحلال .

عُدَّ من الخياليين المخدوعين بالظواهر من يذهبون الى أن سكان تركيا بتقليدهم الغربي في بعض أوضاعه قد أصبحوا أوربيين . الاتراك يظلون أتراكاً مهما تجردوا من مشخصاتهم القديمة . ان كنت تستبعد أن يتمثل العربي في الجزيرة هذه الحضارة الحديثة فأنا مثلك استبعد أن

يصبح ابن الأناضول بعد أجيال غربياً بمدنيته . وأرجو أن يغلب رأي المتفائلين ظن المتشائمين في هذا الحكم .

اشتبك أهل الولايات المتحدة الاميركية في القرن الماضي بحرب أهليه طاحنة دامت اربع سنين وكان السبب في نشوبها دعوة رئيس جمهوريتها ابراهام لنكولن الى تحرير العبيد لأن الخلق كلهم متساوون ، فانتصر حزب التحرير ولم ير انصار الاستعباد تشفياً لنفوسهم الا قتل الرئيس الحر وكان عمله اعظم عمل انساني ، وعمل قاتليه اعظم عمل وحشي .

سألت هولانديا في هولاندة أصحيح أن أبناء وطنك في جاوة يكرهون الجاويين في الطرق ليمدوا ظهورهم فيركبوهم كما تركب البهائم ؟ قال صحيح واذا نحن امتنعنا من هذا لا يستقيم أمرنا هناك ، لأننا قلة تضيع في الكثرة . ووجهت مثل هذا السؤال لقاض هولاندي من قضاة جاوة فسكت وما جسر أن يكذب والسكوت اقرار . ظلم الهولانديون الجاويين ثلاثمائة وخمسين سنة ثم ساعد هؤلاء الزمن فتحرروا من سلطة الهولانديين الغاشمة .

ما برح المستعمرون يقللون من عدد المسلمين في الصين ينزلونهم الى الخمس أو الى العشر من حقيقتهم ، وظلوا زمناً على هذا الرأي يدونونه في أسفارهم ويتناقلونه في مجلاتهم وصحفهم ، وقد ألف أستاذ من جامعة باريز كتاباً في الصين عني فيه بحفنة من الكاثوليك هناك ، ذكرهم وذكر أوضاعهم بكل خير ، وربما بالغ بعددهم ، وأغفل الكلام عن خمسين مليوناً من المسلمين الصينيين كانت لهم مدنية جميلة وربما كانوا ارقى من جيرانهم في الجملة .

نسخف بمن ينسى من رفعوه حتى عزّ وساد ، وكان الى يوم صرف

من الخدمة ليستميت في حب من عاد يسبهم ، ويغار عليهم كما يغار الكريم على الحرم .

شاهدت رجلاً من عظماء رجال الدولة عندنا يذل ذلاً لم أكد أشهد صدور مثله من كبير ، وذلك ليدخل مع جماعة يؤلفون حزباً يتوقع له الاستيلاء على الحكم . دعاه الى هذا الاستخذاء الخوفُ من أن يحرم المناصب ان لم يكن عضواً في الحزب الجديد . ما أصغر نفوس بعض من يصفونهم بأنهم من الكبراء ، وما كبروا الا بكبر المناصب التي تولوها فقط .

عهدي برجل صُرف من الحكم يلزمني في جريدة المقتبس بضع ساعات من النهار . دام على ذلك مدة . وكان نُحي من منصبه ويحاول الرجوع الى خدمة الدولة . ولقد كنت علم الله أخجل من تكرر مجيئه الى مكتبي ومكثه أمامي طويلا وهو لا يخجل ولا يخطر بباله أن ادارة تحرير الجريدة دار أسرار تقضي المصلحة كتمها عن كل انسان . ولما تولى هذا المعجّز منصباً كبيراً في الدولة الحالفة صعر خدّه وكاد ينكر معرفتي . بهذا وأمثاله ممن عرفت نفسيته كنت أقول دائماً ان حاجتنا الى الأخلاق أشد من حاجتنا الى العلم ، وأن الدنيء الأصل لا تسوّده المناصب .

يظن بعض قصار النظر أن الشعوب التي أعماها جهلها تسهل مغالطتها وأن سكوتها عن ماضي من استهان بحقوقها هو من جملة غباوتها . أما الشعب فيدرك سرَّ كل مؤامرة دنيئة على حياته ، ويحاسب متى أراد الجاني على جناياته السابقة واللاحقة .

قال لي أحد أعيان داريا : سألني أحدهم في موسم الحج بمكة عن بلدي فقلت له : اني من قرية من قرى دمشق . فقال : ما اسمها فقلت له داريا . قال : هي القرية التي لحق أهلها الدبور الى سهل كوكب .

اشارة الى أنهم بخلاء جداً . قال له : نعم ياسيدي ، لاحول ولا قوة الا بالله . وتضاحك الحاجان . ما أكثر شيوع الأخبار في الأرض العربية لولا ما يناقض ذلك النبأ الذي رواه لي صديق مدرك من أن احدى الامارات العربية على شاطيء المحيط الهندي ما زالت الى اليوم تدعو على المنابر في كل جمعة للخليفة الأموي بدمشق . وخلافة بني أمية زالت من الشرق منذ أكثر من اثني عشر قرناً !

جربت زراعة القطن في بعض أرجاء سورية فأتت من الغلات بما فاق المأمول ، فعزمت الحكومة على تنشيط هذه الزراعة حتى قيل ان ماسيزرع من الأرض البور وغيرها هنا تزيد مساحته على مساحة الأرض المزروعة قطناً في مصر . ومن التدابير الحكيمة التي عمدوا اليها استدعاء الشاميين المهاجرين الى القارات الأخرى للعودة الى بلادهم ، لأنه أصبح فيها مرتزق لكل من يوطن نفسه على أن يعمل بعد الآن ، ولا يبعد أن يصبح السوريون بعد عشر سنين نحو عشرة ملايين من الانفس . زيادة السكان تابعة لوفرة الخبز في الأرض التي يدرجون عليها .

مضمونُ النجاح في كل عمل يمارسه صاحبه ، ويأخذ من نفسه ، والتأليف من أظهر المظاهر في هذا الباب . ولا أمثل الا بما وقع لي . فاني لم أصرف من عمري نحو خمس وعشرين سنة في تأليف « خطط الشام » الا لأني ولعت بماضي بلادي وحاضرها ومستقبلها . ولم أكتب كتابي « الاسلام والحضارة العربية » الا لأن الموضوع أخذ من قلبي . ولم أكتب « غرائب الغرب » الا بعد أن تذوقت مدنيته بعض الشيء وشاهدتها في أرضها . ولم أعن بجمع « رسائل البلغاء » الا لندرتها وتعذر الوصول اليها . ولم أؤلف « أمراء البيان » و« كنوز الأجداد » الا لأطالع قراء العربية بأخبار العلماء والأدباء الذين انتفعت بكلامهم وعلمهم ، ولم أضع كتاب « أقوالنا وأفعالنا » و « المذكرات » الا لأجمع ماوقع لي من تجارب ومحن حرية بالاعتبار .

مهما بلغ من صلاح حكومة لا تخلو من ناقمين عليها طامعين في تبديلها . هذا والرعية تدرك أنه لا يتوقع أن يجيء الخالف على غرار السالف في المقدرة وسعة التجربة . الا أن النفوس مولعة بالتجديد ولعها بتبدل المناظر وسماع الغرائب .

حكومة ثابتة ترتكب بعض الاغلاط أفضل من حكومة متقلقلة تنقض وتبرم من دون روية ولا تجربة ، الأولى أقرب الى اصلاح هفواتها والثانية تخبط وتخلط .

ليس من الحزم أن يدعى الى الحكم رجل مُجرّب في المصالح العامة أعواماً فما أفلح . النقص من خلق الانسان ويستحيل تقويم أخلاق من جاوز الستين من عمره ، ومن ضعف استعداده لشيء من العبث أن تطلب منه اتمامه على ما ينبغي .

آخذ بعضهم رجلا سياسياً لغضه الطرف عن جماعة أكرموا مثواه يوم كانت الحكومة تطارده ، وأقدموا على حمايته وما بالوا بالخطر الذي يحيق بهم من اخفائه في بيوتهم ، حتى اذا فوضت اليه الوزارة تجهم لمن أكرموا مثواه كأنه ماعرفهم وما أكل طعامهم . فقلت لهم : لاتعجبوا هو دنيء الطبع ماوفى حياته لغير مصلحته ، وما توفر الا على توفير ماله بسرقة الدولة وسرقة معامليه وسرقة أسرته ، وذلك بأسلوب فيه كل النذالة والقحة ، وهو في البخل وأكل الحقوق المثل السائر .

مهما صفا الجو السياسي في دولة وانقطعت بها تملك من موارد الى عمارة أرضها ، تظل تشكو نقصاً في بعض مصانعها ، ذلك لأن الجماعات كالأفراد يُعنون بأمور ويُغفلون أخرى على غير قصد .

قلت لرجل يُظهر الغيرة على بعض ملوك العرب ويحرص على ستر عيوبهم لئلا يكون في اشهارها فضيحتهم : ياهذا ان كنت تمت الى هؤلاء

الملوك بصلة من الصلات فلا كلام لنا معك وان كنت ممن يقصدون الى الاصلاح فثق أن بعض رجال الغرب يعرفون من عيوب ملوكنا وزعمائنا مالم يطلع عليه ألصق الناس بهم ، وعلى هذا فلا معنى للتمويه في أمرهم .

أكد لي صاحب أقام في احدى المستعمرات الانكليزية زمن الحرب الاخيرة أن الانكليز كانوا يضيقون على كل من يشكون في اخلاصه لهم من نزلاء المستعمرة ، ويوهمونه أن القتل مصيره اذا عصى لهم أمراً ، وسواء كان هذا القول مبالغاً فيه أو هو الحقيقة لا غُبار عليها ، فان كل انكليزي يرى من واجبه الوطني ان يتسقط الاخبار التي يقدر أنها تنفع دولته .

أسر الانكليز في الحرب العالمية الأولى ضابطاً عربياً فألحقوه بأحد ضباطهم فعهد اليه تعليم ابنه . قال : فكنا نطوف بعض أحياء مدينة لندن للرياضة ساعات كل يوم ، وفي جملة ما زرنا دار احدى الوزارات وكانت ذات ساحة عظيمة ، فرأيتها ملأى بصناديق صغيرة لم أعرف أكانت قنابل أم خراطيش فقال تلميذي : لاهذا ولا ذاك ، هي صناديق ذهب برسم اميركا الشمالية . وبعد انقضاء اسابيع قليلة على وصول الصناديق الى الولايات المتحدة ـ وتوزيعها على الشيوخ والنواب والعمال والقواد ورجال الصحافة ودور التمثيل والسينما واللهو وعلى كل من له تأثير في عقول العامة والخاصة ـ شهرت اميركا الحرب على دول المحور .

ما أعجب الانكليز باستمالة قلوب الشعوب يوم يحتاجون الى استمالتها .

تمنع بعض الحكومات العربية المطبوعات الحرة من دخول بلادها وتُعد مافيها من الافكار والاخبار مما يشوش عقول رعاياها ويفسدهم عليها . أما كان الأجدر بها ان تنتفع بما تقرؤه وتطبق منه ما تقدر

على تطبيقه ، فاخفاء الحقائق لاينتج خيراً للراعي والرعية كما يتوهم بعض رجال السياسة .

عرفت رجلا كان من العمال المقدمين في عمال اليمن على العهد العثماني نهب وسلب هناك ماشاءت قلة ذمته وسقوط مروءته فلما كشف أمره وحاول الفرار بما سرق من الاموال انقذه من ايدي العدالة احد مواطنيه من كبار رجال السلطنة العثمانية يومئذ ، واصطفاه لنفسه ، وأدخله في خواصه وجعله سميره وعشيره ، فما عتم ذاك اللص أن كافأ من أحسن اليه بأن قدم فيه تقريراً الى السلطان يسقطه من نظره ويرميه بالخيانة ، ولما قصّ عليّ صديق ما اجترحه المحسن اليه مع البار به قلت : صدق من قالوا : من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه .

العاقل يلزم السكوت عند تبدل الدول وكذلك يوم تشن الحرب في ديار ، والا جعل منه صاحب القوة ذريعة لالقاء الرهبة في القلوب .

بذلت انكلترا جهدها لاشراك مصر في الحرب العالمية الثانية فلم تجبها الى رغبتها وصانت مصر نفسها من الخراب الذي كان ينتظرها ، ذاكرة ان الدولة البريطانية كانت وعدتها وعوداً خلابة في الحرب الاولى اذا هي حاربت معها . ولم تحقق شيئاً مما وعدت به ، وكان من ذلك عبرة لمصر .

انتشرت الشيوعية انتشاراً سريعاً في العالم فخاف الانكليز تسربها الى اوربا الغربية من طريق الهند ، وكانت هذه حانقة على البريطانيين ويخشى ان تنتحل الشيوعية اذا أخرجت ولم تنل استقلالها ، فما كان من الانكليز الا ان تخلوا عن الهند وتركوها لأهلها طوعاً او كرهاً ، وأخذوا يقتربون بأنظمتهم من الانظمة الشعوبية يأخذون من ثروات

الاغنياء حتى لايبقوا لهم الا ما يرفعهم قليلا من درجات المتوسطين في عيشهم . وهذا مما يشهد للانكليز ببعد النظر في ادارة الملك .

اطلعت على ما كتبه أديب ذو مكانة كبرى في العالم العربي الى أحد أدعياء الشعر ممن كان الغموض والركاكة من خصائص شعره ، يقرظه ويطلق عليه من الألقاب ما كان يجب أن يكون خاصاً بأهل الطبقة العليا من أرباب هذه الصناعة . فقلت في نفسي : لو لم يجد دجاجلة الأدب من يصانعهم ما أظهروا من القحة ما أظهروا في طلب الشهرة بشعرهم الركيك وبيانهم السقيم . وهؤلاء المداح يصانعون الكبراء أيضاً وهم في باطنهم يلعنونهم . والظاهر ان عند هؤلاء المداحين الفاظاً يطلقونها في مخاطبة العالم والجاهل سواء ، وماذا عليهم اذا وصفوا بالنبوغ وجمال الأدب كل من يلقونه ، ووصفوا بالعدل والاحسان كل من يخشون بأسهم ويرجون نوالهم ، لا يفرقون بين الفاضل والمفضول والمشهور والمغمور . اذا عرفت هذا فلا تستغربن اذا رأيت هاتيك الشهادات المكذوبة ساقطة من ذاتها فان اصحابها ما أحسنوا تطبيقها على مستحقيها يرضون بها من يخاطبهم ويكاتبهم ومن يعرفون ومن لا يعرفون ، على طريقة مشايخ الأزهر في القرن الماضي لا يتوقفون في تقريظ كل زميل لهم ألف كتاباً ولو كان مما لم يعهد عالم التأليف أسخف منه ولا أردأ .

عرفت اثنين من كبار أدبائنا اشتهر الأول بالسياسة والخطب واشتهر الثاني بالشعر والأدب عاشا ما عاشا بملاطفة الصغار والكبار ومجاملة الموافقين والمخالفين . ولو قد حللت ما صدر عنهما لارضاء كل واحد بما يحب لما حكمت الا أنها أماديح مستهجنة تذهب في الهواء وهيهات أن تخلد ولو طبعت في كتب ورسائل وجُلدت وذهبت .

أشرت الى سعي بريطانيا العظمى بتأليف الجامعة العربية وقلت ان بعض المفكرين كانوا يشكون في نجاحها وقد حققت الأعوام التي مضت

على تأسيسها رأي المتشائمين بعض الشيء ، وثبت أن دولاً مختلفة النزعات والحضارات يتعذر أن يتألف منها كيان واحد ، فكيف اذا كان وراءها دولة أو دول في مقدورها كل ساعة أن تنقض الائلفة وتقوض البناء . واهاً للشعوب الضعيفة ، هي أبداً ألعوبة بأيدي الاقوياء .

لما رضي بعض رجال الانكليز عن سورية ولبنان كانوا يصفونها بأنها مهد المدنيات وأنها يتمتعان بمدنية راقية ، فلما اقتضت الحال أن يقلب لها ظهر المجن كتبت احدى الصحف الانكليزية تقول أن هاتين الجمهوريتين بلاد رسم على علمها المثلث الألوان : الحشيش ، البخشيش ، ما عليهش . أي أن البلدين حرما عزة النفس تتجران بالمحظورات وتستحلان الحرام وتستجديان وتشحذان ولا تباليان بما تفعلان . وتتأول هذه الكلمات الثلاث في هذا الكلام بتأويلات أخرى ، فيا سبحان الله .

بضعة أشخاص متماثلين في التربية والعقل يجتمعون على تحقيق غاية معقولة يفلحون غالباً .

في المدنية الحديثة ظاهرة عجيبة ما كان أجدادنا يعمدون الى استعمالها على ما انتهى الينا من أخبارهم . وذلك أن كل انسان يحاول أن يستهدي جاره ومواطنه وصديقه كل ما يقدر على أخذه منه وألا يقابله بشيء على ما أُعطيه . وبمعنى آخر ان مدنية الماديات تبيح للناس أن يسلب بعضهم بعضاً علناً .

تتجلى الرعونة في بعض الشعوب اللاتينية حتى لتكون حكوماتها مهددة بالثورات على الدوام ، خلافاً للشعوب الانكلوسكسونية فان هذه اعتادت أن تفكر قبل الاقدام . الثورات في الجمهوريات اللاتينية

من الأمور المألوفة (١) والثورات في أميركا الشمالية تحدث مرة في كل قرن وفي بريطانيا العظمى لا تحدث الا مرة في الزمن الطويل .

كانت الدسائس الاجنبية العامل الأكبر في اخفاق الجامعة العربية ، وأعان على ذلك أن كان تركيب الدول الداخلة فيها تركيباً غير مزجي. ابن صنعاء وصعدة والقصيم والرياض ومكة والمدينة وعمان لا يرجى أن يشابه ابن القاهرة والاسكندرية ودمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد والبصرة .

في الأمثال العامية « الولد الذي ليس من ظهرك كلما جن افرح له » وقد مضى ساسة الغرب مع ساسة العرب على ذلك . فانهم قلما يعيرون اهتماماً لما يضر بالشرق ويؤذيه . وقد يفرحون لملوكنا ورؤسائنا كلما أسرفوا وأجحفوا لاعتقادهم بأن ما يأتونه يعجل الخراب الى دولهم وفي ذلك مصلحتهم . كانوا يقولون : « اذا كان جارك بخير فأنت بخير » وانقلبت هذه الحكمة العامية اليوم فصارت « انك لن تكون بخير الا اذا كان الشر عند جارك » .

مئات الالوف من الليرات يصرفها رئيس على الاوباش ، ومنهم من يعطيه الف ليرة في الشهر ، أي ما يوازي أكبر راتب في الدولة بعد الوزراء ، هي طريقة له ابتدعها وما سلكتها حكومة تحترم نفسها وتقدر دخلها وخرجها .

جار الحلفاء على ألمانيا بعد انهزامها أمامهم في الحرب العالمية الثانية

---

(١) ذكرت احدى المجلات الغربية ان رئيس جمهورية غواتيمالا تنتهي مدة رئاسته في شهر آذار بعد ان قضى فيها ست سنين شهد خلالها تسعاً وعشرين ثورة وربما لا تنتهي مدته حتى يتمها الى الثلاثين ثورة . قالت أن صبره على هذه الثورات خلال رياسته دليل ظاهر على انه فيلسوف محنك وبالفعل هو يحمل شهادة دكتور في الفلسفة !

ففضوا جيشها ، وقضوا على صناعاتها ، وقسموها قسمين قسم أخذ الروس بخناقه فأدخلوا فيه النظام الشيوعي ، وقسم للانكليز السكسونيين ومن تبعهم بثوا فيه الأنظمة الديمقراطية ، وكل ذلك رجاء ألا تقوم الألمان قائمة . وكأني بهم بعد حقبة غير طويلة من الزمن وقد عادت اليهم وحدتهم وعظمتهم ، ذلك لأن من المتعذر جداً القضاء على مئة مليون انسان بلغوا من المدنية غاياتها .

لما نظمت أمور مصر ونجت حكومتها من أن تعيش بالقروض اغتنى المصريون ، وانقلب القطر في أعوام قليلة من مملكة غامرة الى مملكة عامرة ، وجمعت بريطانيا بنهوضها بمصر عدة مطالب كان من أهمها انشاء أرقى مملكة في الشرق الادنى تنادي على الدوام أن بريطانيا العظمى أرحم دولة في استعمارها .

الفرق بين استعمار فرنسا في الجزائر وتونس ومراكش وعمل انكلترا في مصر أن فرنسا ما توخت من احتلال هذه الاقطار الثلاثة الا منفعتها الخاصة ، وما عبأت بمصلحة السكان ، وجمعت انكلترا بين منفعتها ومنفعة المصريين فأبدعت في مصر مثالاً منقطع النظير في احياء الممالك قامت به طائفة صالحة من نبهاء ساستها ونبغاء مهندسيها . ولا يسع المتشدد في أحكامه اذا تأمل صنع البريطانيين في وادي النيل الا أن يقرّ لهم باحسانهم .

طال أمد الاستعمار الانكليزي والاستعمار الهولندي في الهند وأندونسيا وختمت أيامه لما عزم سكان تينك المستعمرتين العظيمتين على طرد المستعمر طرداً أبدياً . استعمر الرومان واليونان معظم العالم القديم قروناً ، وما خرجوا من أرض احتلوها الا بانحلال دولتيهما ، وتنازلت انكلترا وهولندة عن استعمارهما وهما في معظم قوتهما .

أعظم العيوب عيوب يتعدى أذاها الى المصالح العامة ، وصاحبها فاسد في نفسه ومفسد للجماعة . وما أعجب الا ممن يحاول الستر عليه ويخترع له المخارج .

قال أحد رجالنا في معرض وصف أحد المشتغلين بالسياسة : « ما هو إلا خولي ببنطلون » أي قيّم مزرعة يلبس سراويل المدنيين وعقله محدود ، فحققت الايام هذا الحكم عليه لما تولى منصباً جليلا اضطر فيه أن يصدر عن قريحته .

لا قوة تحول دون انتشار الفساد في معظم الاشياء يوم يصير الحكم الى العامة . العوام على الاكثر لا يحسنون الا التخريب ، وقد ينفق الخواص أعواماً في تنظيم أمر فاذا آل النظر فيه الى العامة دمروه في ساعة .

لما شكوت مستشار المعارف الى المفوض السامي على عهد الانتداب في سورية ولبنان حقق معه ، فثبت لديه صحة ما عزوت اليه فأنهى خدمته . ولما نقمت على مدير الاستخبارات كلاماً أهان به المسلمين نحاه المفوض السامي لما تبين له صدقي . ولو كان من شكوت اليهم من جماعتنا لكان غاية ما يأتونه أن يصالحونا ، ويكرهونا على أن يقبل أحدنا شارب صاحبه ، وتذهب المصلحة العامة في الريح .

الحق أولى أن يقال أن الفرنسيس في انتدابهم على الشام خمساً وعشرين سنة أصلحوا أشياء كثيرة في أدوات الحكم ومنها توطيد الأمن واصلاح القضاء والمعارف والأشغال ، لكنهم بثوا روح التعصب بين المواطنين ، وأحدثوا التفرقة بين الطوائف ، وعاونوا الجمعيات والطرق التي تفت في عضد الاسلام ، فتمت لهم قسمة الأمة أقساماً متعادية ، وما وازى النفع الضرر .

كان من طبع أحد الرؤساء اذا حقد على انسان أن يبالغ في مساءته ويطعنه طعنة لايبرأ منها . واذا بداله استرضاء أحد يرتكب كل وضاعة في سبيل استمالته . فطر على مخاشنة فريق مخاشنة جائرة ، وعلى الخروج عن المألوف في مخاشنة آخر . وما من عاقل يقول ان هـذه الأخلاق من أخلاق الرؤساء .

حكمت احدى المحاكم لرجل على أولاده الأطباء الثلاثة بالانفاق على أبيهم العاجز عن الكسب . عقوق هؤلاء الابناء والدهم بعـد أن رباهم بماله حتى أصبحوا أطباء يدل على بلوغهم في القسوة غايتها . ومن قسا قلبه على أبيه لا يرجى منه أن يشفق على أحد . ليت ولي الأمر يسترجع من هؤلاء العاقين شهادة الطب ويتركهم يتسكعون كالحيوانات التى لا تنفع للنقل ولا للنسل .

ما أوقح من لم يدرس الطب أن يشارك الأطباء في طبهم ، فعلى من لم يدرس السياسة أيضاً ألا يشارك فيها الا مشاركة يقف بهـا على الحقائق ليطمئن على مستقبل وطنه وأمته . السياسة أصعب العلوم وأدعياؤها ما زالوا متوافرين .

في سيرة من سقط وما أسف عليه الا من أتخمهم بأموال الدولة عبرة لمن يتظاهرون بالدين وهم منه أعرى من مغزل ، ويتناغون بالوطنية ووطنيتهم تقوم باملاء جيوبهم وجيوب أنصارهم من المال المشبوه ، وتقوم حياتهم على الكذب في كل أمر .

كان الناس في أمر أحد الرؤساء بين مصدق ومكذب ولما صرف من منصبه وكفّ المطبلون والمزمرون تبين أنه ما كان الا لعبة ألبسها الأبالسة ثياب السيم والقصب .

مهما عظمت يدٌ يسديها انسان لصاحب قوة ، فان هذا يوشك أن ينسى بلاءه لخاطر يعرض له ، ووهم يتوهمه . الخليفة العباسي كافأ بالقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس دولته .

انهزمت فرنسا أمام ألمانيا في الحرب الأخيرة ولم تحارب الا أياماً قليلة ، وبفضل حليفتها بريطانيا – التي جعلتها منذ القرن الماضي وقاية لها من صدمات اعدائها – عاملوها معاملة الظافر .

يتناغى شرشل أعظم ساسة الانكليز المعاصرين بحب فرنسا ويعشق كل ماخص به أهلها من طباع وما تفردت به حكومتها من حكمة . يكتب هذا في كتبه ويردده في خطبه . ولو كشفت عن قلبه لتبينت أنه لا يهمه أن يسجل في عداد العابثين بالحقائق اذا كان في ذلك خدمة دولته .

قد يهمل بعض السياسيين أمراً عاماً يطلب منهم ويشتغلون بمسائل فيها حظ أنفسهم فقط ، وفي ذلك البلاء العظيم .

أنارت الصحف عقول من أطالوا مطالعتها وأتتهم بمعلومات كان يعزّ الظفر بها على الخاصة في الدهر السالف . عرفت أناساً أصبحوا من الساسة المحترفين بما تلقفوه بقراءة الصحف . وعرفت أناساً شاركوا في بعض العلوم الحديثة مشاركة لا بأس بهـــا لتوفرهم على تصفح المجلات العلمية ودرسها بامعان .

ربما كانت صناعة السينما أعظم اختراع احتاج الى عدة علوم وأدخل على سكان القارات الخمس متعة ما ماثلتها متعة .

لو قيل لأجدادنا ان الانسان اليوم يقطع في طيارة الألف من الكيلومترات في ساعة وأن الطيارة تحمل الأثقال العظيمة مع أكثر

من ثلاثمائة راكب لقالوا لنا أن من يهذي هذا الهذيان مجنون وجنونه مطبق .

هزأت سرعة الطيارات والسيارات في العهد الأخير بما كان يقال له بالأمس بعد ومسافة . في ساعتين تقطع المسافة في الطيارة من دمشق الى بغداد ، وفي أقل من ساعتين تصل من دمشق الى القاهرة ، وتجتاز المسافة من دمشق الى الأرجنتين في ثلاثة أيام تتخللها محطات تقف فيها والمسافة بين سورية والأرجنتين لاتقل عن نحو ثمانية عشر الف كيلومتر . وكان من اختصار المسافات أن هان على الرجال والنساء التغرب عن اوطانهم ، وسكنى بلد يجدون فيه رزقهم وهناءتهم . وهذا من العوامل في اختلاط الشعوب العربية ، سهل به على ابنة الشام أن تتزوج في مصر ، وعلى ابنة العراق أن تؤسس أسرة في الشام ، وعلى المصرية أن تنزل الحجاز ، الشعوب العربية سائرة في طريق الوحدة الشاملة الا أن سيرها من جنس السير الذي يختلف بين السريع والبطيء .

ضجة الطيارات في الجو ، وضجة السيارات والمحركات فوق سطح الأرض ، وضجة السفن في البحار ، وضجة المناجم في بطون الأرض فهل بقي مكان على سطح الأرض وفي بطنها لم يلجه الانسان بضجيجه وعجيجه .

قال أحد حكماء الافرنج « السياسة علم الربح من دون رأس مال » ويذهب بعضهم الى أن الفرق بين السياسي الموهوب والسياسي المحترف أن الموهوب تفزع اليه أمته في الشدة والرخاء ، والمحترف لا أرب له في غير نفعه . ولم تستقر الأمور في هذا الشرق حتى يصح الحكم على المشتغلين بالسياسة حكما عادلاً لأن معظم من يحترفون السياسة عندنا دون الوسط في ذكائهم وعلمهم وأخلاقهم ، ومن كان كذلك لايستحق أن يترجم له

استعرض أسماء من كانوا يعدونهم من أكابر الرجال ، وانظر النظر النقاد في سيرتهم ، وأنا الضمين أنك لا تراهم يصلحون لغير المكث في بيوتهم حتى توافيهم آجالهم .

قطع صاحب الحجاز ونجد بضعة أيدٍ على السرقة ، فسقط في أيدي اللصوص وانتشر الأمن في بلاده ، وتساهل رئيس في الشام بالحدود الشرعية فضاعت الحقوق وسادت الفوضى .

قالوا ان فلاناً حسن الأخلاق طيب القلب ، أوعز الحزب المتغلب الى عامل بلده أن يعاونه على الوصول الى النيابة فناب سنين عن مقاطعته وما سمع له صوت في المجلس لأنه لا يحسن شيئاً مما يتطلب من النائب فقلت لهم : نعم ان خصمه أيضاً من حزب الحكومة وذنبه أنه متحل بالصفات التي يجب أن يتحلى بها من ينوب عن أمته : أدب ، وجرأة ، وعناية بالمصالح العامة . وعدت فراجعت نفسي وقلت الغالب أن من الاحزاب ولا سيما في الشرق من لا ترى أن ترفع من شأن النابهين المنورين ، وتحاول ان أمكنها تناسيهم ، ولا تتطلب ممن يخدمها الا أن يتابعها على رغائبها على العمياء ، ولذلك يسرها ان تنصب في المجلس نائباً أشبه بلوح من الخشب ، ولا تضع فيه رجلاً تتمثل فيه الحياة والغيرة على النهضة بالأمة .

من أكبر العوامل في الانحطاط الظاهر بين القرية والمدينة في الديار الشامية ، ان الفلاحين وهم نحو ثلثي السكان تركوا للطبيعة ، فلم تتعهدهم الحكومات ولا الجمعيات بتربية دينية ولا مدنية ، حتى ليشبهوا العجماوات في بعض الأصقاع الخالية من المدارس ، الا أنهم ينطقون كالانسان .

في تاريخ ايرلندا السياسي مفاخر للايرلنديين يُعجب بها ، وفيه درس نافع لكل شعب يحرص على نزع يده من غاصبه ليتمتع باستقلاله . في ماضي هذه الأمة النبيلة مايتعلمه كل من يحب وطنه .

قلْ في رئيس رأى من السياسية اقصاء الفضلاء وادناء السفهاء أنه لايحسن من كتاب السياسة حروف الف باء .

الفرق عظيم بين من أفنى أعمرته مدة رئاسته عن الوظائف وهي عريقة في خدمة الحكومات ، خشية أن يستطيلوا على الخلق ويظلموهم ، وبين رئيس حمل أقرباءه على رقاب الامة ، وكان بعضهم من المتشردين ، ومن باعة الفجل والطرخون والبصل .

غلطة واحدة يرتكبها زعيم تقلب شعباً كبيراً رأسا على عقب .

رجال السياسة كالممثلين على المسرح ، اذا أحسوا بالتعب فالواجب عليهم أن ينصرفوا الى بيوتهم ، ابقاءً على صحتهم ، ورعاية لأذواق النظارة . وهؤلاء يتوقعون ممن يخلفونهم موضوعات طريفة تخترعها قرائحهم ونغمات عذبة ترددها افواههم .

لا يعقل أن يشترك الانسان في كل امر نافع من امور وطنه . فالعمر قصير لا يتسع للمؤازرة في الامور كلها ، واذا اتقن المرء مايدخل في خصائصه قام بما يفرض عليه . رأيت في الغرب علماء لا تسمح لهم اوقاتهم بتلاوة الصحف ، فلا يدرون بما يجرى في القرب والبعد ، ذلك لانهم منصرفون الى اتقان ما يشغلهم فقط ، وهذا لايقدح فيهم بل يرفع مقامهم « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » .

ما عهد نظام حكم ارقى من نظام بريطانيا العظمى تتعاور الحكم فيها ثلاثة احزاب « المحافظون ، والاحرار ، والعمال » وفي بعض الدول كفرنسا نحو عشرين حزباً وفي اليونان مثلها وحدث ماشئت ان تحدث عن الفوضى في هاتين الدولتين . ويندر فيهما قيام حكومة سنة كاملة وفي بريطانيا تثبت سنين .

قُتل في الحروب الدامية بين فرق الاسلام في فارس والعراق عشرات الألوف من المسلمين ، وخربت مدن برمتها ، ولم يحدث من ذلك شيء في مصر والشام في وقت من الأوقات ، وهذا مما يمتاز به هذان القطران .

من بعض منافع الجرائد انها لم تبق سراً مكتوماً ، وكانت تبقى اسرار الدول طي الخفاء أعواماً لاتذاع ، وقلما يَطلع احد على مايجرى داخل قصور الملوك ، الا اذا احب اربابها اطلاع الناس عليها ، وذلك بعد افراغه في قالب سموّه . من طبيعة هذا العصر على مايظهر اذاعة كل شيء ، ومن طبيعة العصور الغابرة كتمان كل شيء .

لكبار ناشري الكتب في الغرب يد طولى على التاريخ الحديث ، لاغرائهم بالمال اعظم رجال السياسة المعاصرين ليتولوا لهم نشر مذكراتهم ، تحمل صوراً غريبة من طباع هؤلاء الكبراء ، وما خصوا به من حسن حيلة لبلوغ غرضهم في الجمع بين خدمة انفسهم وخدمة امتهم .

ارى همة اهل ليبية اليوم مصروفة الى وضع نظام حكومتهم ، بعد أن فازوا باستقلالهم ، ويقال ان السواد الأعظم من أهل طرابلس وبرقة يميلون الى الحكم الملكي ، وأن يبايع السيد ادريس السنوسي ملكاً عليهم . انا لا اعرف الملك الجديد وربما كان من اصلح الملوك ، ولكنني افضل الحكم الجمهوري لأهل ليبية فقد علمتنا الوقائع انه ندر تسلسل الملوك الصالحين في مملكة شرقية او غربية . وعندي انه كان يسع اهل ليبية ماوسع اهل اندنوسيا والباكستان والهندستان التي استقلت في العهد الأخير ، ونادت بالحكم الجمهوري كما نادت به المانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، واعلنته ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية ونادت به من قبل روسيا والبرتقال واسبانيا ، وارتضته تركيا ورومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا

والبانيا وبورما وسيام واوستراليا وكندا الخ . اي ان الشرقيين والغربيين على اختلاف في درجات تقدمهم لايتخذون لعهدنا عن الحكم الجمهوري بديلاً .

لو كان الحكم جمهورياً في ايران والأفغان ماكانتا من الانحطاط على مايقص علينا من رحلوا الى تينك المملكتين . الشعوب تشمئز من حكم الفرد وتتاح الى الحكم النيابي وليست الدول بعد الآن مزارع خاصة للملوك يتصرفون فيها تصرف المالك بمزرعته وزراعه .

كانت الولايات المتحدة بمأمن من فظائع الحروب الى يوم دخلت في الحرب العالمية الاولى ، وجلبت بيدها الغوائل على رعاياها . كأنها ما أحبت بعد أن تمت جميع أدوات الحياة فيها الا الجري على خطط الدول الاخرى تربح وتخسر وتقوى وتضعف ، وقتل مئات الألوف من بنيها ، وضياع ألوف المليارات من الدولارات لا شأن له في جانب قول العالم : ان أعلام أميركا تكللت بأكاليل النصر .

قضت انكلترا على الاسطول الاسباني فأصبحت سيدة البحار وتحكمت في مقدرات العالم ثلاثة قرون ، وقضت انكلترا في العهد الحديث على الاسطول الالماني فما ربحت من ذلك الا تأخر اقتصادياتها ، ثم اضطرارها الى الخروج من معظم مستعمراتها .

اعتادت صحف الأحزاب في الشرق والغرب أن تتراشق بالنقد والمطاعن ، وأن تقلب حسنات القابضين على الحكم سيئات . وما كل مايقوله حزب في منافسه أو معارضيه يصح في الواقع . وكذلك كلام المخالف قد لا يخلو من حقيقة ، والحكومة القائمة في العادة تؤثر أبناء حزبها في التعيين والترقية والمكافأة على غيرهم ، ولا تخرج عن نطاق القانون ولو بالصورة الظاهرة . وما كنا نظن أن حكومة الوفد المصري وهي حكومة تتمتع بالأكثرية المطلقة ، ورؤساؤها وأعضاء الوزارة فيها

ومن يتبعهم ويعمل لهم من خير رجال مصر ، ما كنا نظن أنها تغلو في خرق القوانين خرقاً ظاهراً ، وتبالغ في سياسة الارضاء ، تكافيء فتجزل المكافأة ، وتعطي عطاء من لا يدرك قدر المال ، وتسرف على صورة قد تغتفر من حكومة بدوية ، لامن حكومة فيها صناديد السياسة وأرباب الثقافات العالية ، وهم ولا شك يدركون قبل غيرهم عاقبة المسرف بمال الدولة والمسرف بماله الخاص .

روت جريدة « الجمهور المصري » أن محاكم القاهرة نظرت خلال سنة ١٩٥٠ ثلاثة آلاف قضية من قضايا الغش : غش الدقيق والمواد الدهنية والجبن والحلوى واللبن والالكحول الخ .. قالت ان سوس الانحلال والانهيار ينخر في جسد الدولة ، وعللت السبب في أن الوزراء هم من ذوي الاطيان ، ومعظم أعضاء البرلمان من أصحاب العقارات ومن الممولين والمستوردين والمصدرين ومن أصحاب النفوذ ، وأصحاب رؤوس الاموال يسيطرون على الحكومة . وكبار الموظفين هم ذوو نفوذ في مختلف الدوائر الرسمية ، ومن هؤلاء جميعاً تتألف القوة الحاكمة التي تسيطر على مفاتيح الدولة اه . ومن العادة أن أمثال هؤلاء المتغلبين من أرباب السلطان لا يهتمون لغير مصالحهم الخاصة وبقدر ما في مصر شقاء من حيث المجموع تجد فيها سعادة عند الافراد ، فمصيبة مصر مصيبة كل بلد عربي .

يقال لمن يحملون أخطاء الحكومات السالفة على حكومة لاحقة ان اصلاح الأخطاء يحتاج الى وقت . وليس في وسع حكومة مهما بلغ من اقتدار القائمين بها أن تصلح في أشهر قليلة . وما زال الانتقاد أسهل من العمل . ثم ان حكومات قام أساسها على فساد من المتعذر اصلاحها دفعة واحدة ، ولا بد من تجزئة الاصلاح المنشود الى أجزاء حتى لاينهار الاساس اذا أريد تغييره .

ظهرت في الأيام الاخيرة خيانة عظمى في الجيش المصري اتهم بها عشرات من القواد والضباط واتهم بالاشتراك فيها أحد النبلاء وذلك بأنهم ابتاعوا أسلحة عاطلة استخدمت في حرب فلسطين فكان منها انهزام الجيش المصري أمام جيش اسرائيل . فاكتفت حكومة مصر بأن جردت الجناة من رتبهم وأنهت خدمتهم ولم تقض بالقتل على من كان السبب الاكبر في هذه الخيانة التي سودت صحيفة مصر خاصة وصحيفة العرب والمسلمين عامة .

ربحت سورية أرباحاً عظيمة بالانفصال الجمركي بين سورية ولبنان ، وكان لبنان يستأثر بها فانتعشت الزراعة والصناعة ونمت بذلك الثروة العامة . ويخيّل الينا أنه لا تمضي بضع سنين حتى تصبح سورية بلداً غنياً لا يقاس غناها الماضي على غناها المستقبل . لاجرم أن الامم تغنى كما قال أحد علماء الاقتصاد اذا زادت ريعها ولا تغنى اذا اختلس بعض طبقاتها ريع طبقة أخرى . تغتني اذا باعت كمية أكبر من حاصلاتها بسعر واحد لأنها تكون عندئذ قد أنتجت انتاجاً أكبر وينمو وارد الفقير كما ينمو وارد الغني ولا يربح الغني مايضيعه الفقير .

أحصيت وأحد أصحابي من تخرجوا في الادارة والسياسة من أبناء سورية في المدرسة الملكية في استانبول أواخر العهد العثماني ، فكان عدد من سلم من نوابغهم من وصمة الرشوة نحو عشرة في المئة وهم مدينون باستقامتهم لأهلهم . وتلوث بعض مقتدريهم ومتوسطيهم بالرشا تلويثاً شائناً . ونظرت نظرة اجمالية فيمن درسوا في المدرسة الحربية العالية في الاستانة ايضاً فرأيتهم لم يفلحوا في الاعمال المدنية وهم معذورون لأنهم لم يألفوها ولم يتعلموها ، وما أدري ان كانوا أفلحوا في الجندية لأني شاهدت الدولة في أيامهم تخرج من هزيمة الى هزيمة وما شهدت لهم نصراً الا على الرعايا اذا ثاروا وهم عزل من السلاح .

يقول العارفون ان كل ثورة تبدأ بها طائفة من الخياليين ثم تتولاها طائفة من المخربين ثم تنتهي بحكم طاغية . والظاهر أن بعضهم رأوا نجاح الثورة السورية الاولى على الطغيان فحاولوا القيام بثورة ثانية وما أدركوا أن مثل هذه الثورات اذا لم تكن الامة في حاجة اليها محكوم عليها بالفشل ، والنفوس في العادة تميل الى الاستقرار ولا تميل دائماً الى الضرب والقتل .

ملكة الانشاء

كان من دأب أحد الوزراء المتأدبين كلما جمعتني به المصادفة أن يسألني عن الطريقة التي سلكتها حتى كان لي هذا الأسلوب في الانشاء ولا يتمالك من التصريح بالاعجاب به ، على ما عرف عنه من الهزوء بالعلماء والأدباء والزراية بما يؤلفون وينشرون . فكنت أقول له : ربما كان للدوام على المطالعة ومعالجة الموضوعات المختلفة بالكتابة مدخل في تكوين الأسلوب يضاف اليها ثلاث ثقافات عربية وافرنسية وتركية ، والتمرين الطويل من أهم العوامل في هذا الباب . فكان سائلي لا يرضيه جوابي ويعتقد أن هناك سراً لا يوافقني أن أبوح به ، فكنت أضحك وأقول : لو كانت لي طريقة خاصة ما اهتدى اليها أحد لبادرت الى نشرها على الناس حتى يعم استعمالها ويأخذ بها من يود أن يأخذ . أما هو فكان يمتعض امتعاض من يحاول استخراج سر فيمتنع عليه ، ولطالما ورّى بأني ضنين لا أحب أن أشرك أحداً بأسلوبي . وكأن هذا الوزير الحريص على تقوية ملكته كان يعتقد أن الآداب كالسياسة منها ما يكتم ومنها لا بأس به أن يعلم .

كنت في محاولة الوزير انتزاع ما يزعم أني أخفيه عنه أفيض تارة واقتضب أخرى ، والجواب واحد لا يتغير وهذا ما كان يسوءه ويزيد

في سوء ظنه . وذكرت له مرة كيف تعلمت ، وما كانت المجملات مما ترضيه بل كان هواه في التفصيل وأخذ الفائدة في دقيقة . فقلت له اني أتلو القرآن بتدبر ، قرأته على أساليب مختلفة لتفهمه وتمثل بلاغته واني طالعت طرفاً صالحاً من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة وحفظت المعلقات السبع وطرفاً صالحاً من دواوين العرب وحفظت نحو نصف ديوان المتنبي ، وعدة قصائد لعمر بن أبي ربيعة والبحتري وأبي تمام والرضيّ وابن الرومي والطغرائي والأرجاني والمعري وعلي بن عبد العزيز وغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين . وتدارست الكامل للمبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والتاريخ اليميني للعتبي والمثل السائر لابن الأثير . واستظهرت أشياء كادت تفسد عليّ ملكتي مثل بعض مقامات الحريري ورسائل الهمذاني ومقاماته ورسائل الخوارزمي وبديعية النابلسي . وما أخرجني من تكلف النسج على منوال المتأخرين ، كالقاضي الفاضل والصابي وابن الأثير الا الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي . اما ما وصل اليّ مما كتبوه وكتبه أمثالهم من السهل الممتنع فقد قرأته مرات ولا أزال أقرؤه . ولا يتيسر هنا سرد أسماء ما طالعت من الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة ، وما نظرت فيه من أسفار العلماء الذين كانت لهم يد باسطة في الكتابة الرشيقة أمثال ابن حزم والغزالي وابن قتيبة والطبري والمسعودي والدينوري والباقلاني والماوردي والزمخشري والراغب الاصفهاني والميداني وأبي الفرج الاصفهاني وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن خلدون .

هذا اجمال ما يقال في المادة التي تخرجت بها لتقوية ملكة البيان . ولطالما سمعت بعض أساتذتي يقول ان أسلوب المرء يخترعه صاحبه لايقتبسه عن غيره ولا ينقله من كتاب فهو ابن مزاجه وتربيته وبيئته وذوقه وفنه . وهذه المادة التي درستها يصل اليها كل مجتهد ويتمثلها الذكيّ الأديب بيد أنها لا تعدو الألفاظ غالباً ، والعبرة بالتراكيب ، والتراكيب ابنة من يصوغها ويزيدها جمالاً علم الكاتب ووفرة اطلاعه . ولا تجود

الكتابة بما تحمل من الألفاظ بل بما تنطوي عليه من المعاني والتلطف في أدائها واطراح التكلف ، وأهم ما تتوقف عليه الاجادة في الانشاء عدم الخوض في موضوع لم يدرسه الكاتب ولم يأخذ من نفسه . والمعاني اذا تجمعت في الذهن لا تعدم قالبا مقبولاً تظهر به ، وهذا من السهل على من كان له نصيب وافر من اللغة .

ويجاب من يحاول سرقة الأفكار بأهون سبب ان من المستحيل على من درس العربية سنين محدودة في المدارس الرسمية ولم يمض له الوقت الكافي حتى يتخرج في الانشاء بأستاذ من كبار أساتذة هذا الفن أن يلحق بمن صرف عمراً طويلاً وهو يطالع ويكتب ويتمرن .

الرجوع الى الصواب

بقدر ما أحسن أتاتورك (مصطفى كمال) الى تركيا بجمع شملها والنهوض بها أساء اليها عندما حاول القضاء على لسانها وخطها ومدنيتها القديمة ، وتتريك كل شيء فيها حتى الاذان والخطبة والصلاة والقرآن . وكان يرجى من خلفه عصمت اينونو أن يعيد النظر فيما ابتدعه الرئيس السابق من الأوضاع المعوجة ، ويرجع الأتراك الى ما كانوا عليه من الاعتماد على اللغة العربية في شؤونهم الدينية ، ولكنه ماشى الكماليين فأبقى كل شيء كما كان وضعه الرئيس الأول .

ولقد أشرنا في هذه المذكرات الى ما ارتكبه الكماليون من محاربة العربية والعطف على كل لغة من لغات العالم ما عداها ، وقلنا ان الزمن سيفصل في هذه القضية ، وها قد حققت الأيام ظننا بعض الشيء وعاد الأتراك الى اقامة صلواتهم وأذانهم باللغة العربية .

ومما يؤثر أن المجلس الوطني في أنقرة عاصمة تركيا الجديدة ، وبعض أعضائه على دين رئيسهم أتاتورك ، لما عرضت عليه مسألة الرجوع الى

العربية في العبادات وخاف أنصار القديم أن يغلبهم المحدثون قام أحد أعضاء المجلس يؤذن بالعربية فأسكتوه وتبعه ثان فتابع ما بدأ به الأول فأسكتوه ، ثم نهض ثالث فأتم الأذان الى آخره . . فتكهرب المجلس وقرر في الحال اعادة اللغة العربية الى تركيا على النحو الذي كانت عليه منذ ستمائة سنة وعلى الطريقة التى جرى عليها المسلمون بأسرهم منذ قام الاسلام . وأصبحت جرائد تركيا تجاهر بتعلم العربية قائلة انها أحق بالعناية من اللغة اللاتينية وهي الأصل المهم من أصول اللغة التركية وبها كتب الكتاب العزيز . سبحان محول الأحوال لا يبقى الا الأصلح والأنسب ، ويتوقع كل ساعة القضاء على ما يخالف العقل مهما أتى عليه من الزمن .

حرية الكلام

كتب الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الزيات الوزير يقول سمعت بأن شعراً قد رفع اليك فيه عيب لك ، ونقد لبعض عملك ، فغضبت له وضقت به ، وأمرت بالبحث عن قائله ، لتذيقه غضبك ، وتصب عليه عذابك ، وتعلمه عاقبة طيشه ، ومغبة استخفافه بالسلطان ، واجترائه على الحكام . ثم لم يكفك ذلك ولم يقنعك ، فأمرت أعوانك من الكتاب والعمال أن يتقدموا الى أصحاب الشعر المنظوم والكلام المنثور ، والى ذوي الأقلام المشرعة ، والألسنة المنطلقة ، ألا يذكروك فيما ينظمون من شعر أو يكتبون من نثر ، أو يديرون من حديث ، الا بالخير ، وان جنح منهم عن ذلك جانح ، وانحرف منهم منحرف ، فان السجن له مهيأ ، والعقاب له مرصد ، والعذاب عليهم محتوم . قال : وأنت بعد ذلك لا تستطيع أن تعقل الألسنة المنطلقة ، ولا أن تحطم الأقلام المشرعة ، ولا أن تمنع القلوب من الشعور ، والعقول من التفكير ، فدع الناس وما يشاءون أن يقولوا فيك من الخير والشر ، ومن الحمد

والذم ، وانتفع من ذلك كله في اصلاح نفسك ، وفي تجنب ما يشينك الى ما يزينك اه .

وبهذا ألقى الجاحظ على أعظم وزراء عصره واعلمهم درساً في اطلاق الحرية للناس يقولون ما يشاءون ، وليس له هو الا الانتفاع من ذلك في اصلاح نفسه . ودعاه الى امتاع الناس بحرية الكلام مبيناً له مغبة منعهم منها وأنه ليس له أن يكم ألسنتهم لحظ نفسه ومجاراة هواه .

وتنطوي هذه النصيحة الثمينة على معنى جليل وهو أن ابن الزيات على جلالة قدره وسمو منزلته في الدولة ليس في وسعه أن يحول دون الناس وألسنتهم ، وواجبه اذا كان ما يقال فيه حقاً أن ينزله منزلته من الاستفادة ، وان كان غير صواب أن يرمى به عرض الحائط . والسفيه الذي يتقول على عظيم اذا رأى منه اعراضاً وأنه لا يهتم للأقوال الصادرة عن هوى يضطر بعامل الملل الى أن يكف عن هجائه وأذاه .

ولقد رأينا من غرام الملوك والكبراء بالمديح ما أدى الى أن جلب لهم القدح والذم أيضاً ، ولو لم يحرصوا كثيراً على المدح لما كان شأن لما هجوا به ، واذا لاحظ الهجاؤون أن هجاءهم مما تنخلع له قلوب المهجوين زادوا وأفرطوا ، واذا أيقنوا أن صاحب النفس العظيمة لا يأبه كثيراً لما يقال فيه يحاذرون صرف أوقاتهم فيما لا يجدي عليهم . وقد رأينا العلي المنزلة النزيه في ذاته لا يعبأ بثرثرة الثرثارين مدحاً كان أم قدحاً . ورأينا هذا الضرب من الاقوال خفّ الاهتمام به في عهدنا ، لأن الناس تعلموا والمتعلم يخجل أن يصفق للباطل وأن يهرب من الحق .

الحكومة التاجية

أرادت حكومة السيد تاج الدين الحسني أن تنشر كتاباً في المشاريع التي تمت في أيامها وعهدت اليّ بتأليفه ، فتوخيت أن أدعم الأقوال بالأرقام الصحيحة وأبتعد عن الخيـــال والدعوى التي لا تثبت . وصدر الكتاب باسم « الحكومة السورية في ثلاث سنين » : (من ١٥ شباط ١٩٢٨ الى ١٥ شباط ١٩٣١) فتألم رجال الكتلة الوطنية وحاولوا بكل قوتهم أن يضعفوا من عمل الحكومة .

وقد قدمت للكتاب تمهيداً هذا نصه : لما استلمت الحكومة السورية الحاضرة زمام الأمر قدرت عظم التبعة الملقاة عليها ، فرأت من واجبها معالجة مشاكلها بالتؤدة والحزم لاعـداد أسباب الراحة للسوريين وانقـاذ البلاد من وطأة الأزمة الاقتصادية التي كانت الدولة تتقاذف في غمرتها ، فبدأت بتوطيد الأمن وعمدت الى الضرائب والتكاليف فخفضتها ونظمت طرق الجباية وضاعفت الهمة في ذلك خصوصاً عندما شاهدت رداءة الموسمين الاخيرين ، وكان المحصول في الاول قليلاً والأسعار في الثاني متدنية . وكافحت الحشرات الزراعية التي كانت تعبث بالغلات منذ سنين . ثم كان انتشار الجراد في ربيع سنة ١٩٣٠ فكافحته مكافحة عز نظيرها وأتت عليه بكل ما لديها من قوة حتى أنقذت المواسم وحفظت الاشجار من التلف . ولما تحقق لها بؤس حال الفلاح أعطته مبالغ كبيرة يستعين بها على تقـويم شأنه وأمهلته في أداء الديون والضرائب المستحقة ، ومنها ما أسقطت عن المكلفين بعضه ، ومنها ما سامحت به كله ، واحتفظت بحقوق الدولة بالنسبة لسائر البلاد المشمولة بالانتداب ليحصل التوازن المعقول بين الغنم والغرم في باب المصالح المشتركة ، ولئلا تضطر الى الاقتراض لتعد موازنة يتلاءم خرجها مع دخلها .

ونشطت الحكومة الصناعات الوطنية ورخصت بتأسيس مصرف صناعي واعفت المواد الاولية من الضرائب والرسوم . حتى نشأت في المدن صناعات قللت من الواردات الاجنبية ما امكن . وساعدت على بعث الصناعات الوطنية من مرقدها . وكان المعرض الذي اقامته بدمشق في صيف ١٩٢٩ نموذجاً ناطقاً بتقدم البلاد من هذه الناحية . وبذلك هيأت أسباب الرزق للسكان بحيث لا تكاد تجد عاطلا عن العمل ، في هـذه الازمة العالمية الشديدة التي اضطربت بتأثيراتها أرقى بلاد المدنية ، ونال من في جوارنا من الاقطار والاصقاع نصيب وافر منها أمست معـــه بلادنا بالقياس الى جيرانها في رخاء ودعة . ويرجع معظم السبب أيضاً في تخفيف ويلات الضائقة المالية الى ما صرفته دولة سورية من الاموال الطائلة على أعمال العمران . كانشاء الطرق المعبدة لتكثير أسباب المواصلات بين البلاد ، وهي تنفق على هذا الفرع مبالغ لا يستهان بها تصرفها من موازنتها السنوية راضية مختارة ، لأنها بعملها هذا تعمر البلاد وتحدث مرتزقاً للطبقات التي تتوقف حياتها على عملها اليومي . وبهذا اتصلت المدن بشبكات من السكك المعبدة . ولا تزال الهمة مصروفة الى انجـاز طرق القرى لربط امهاتهـا بالحواضر ومراكز الأقضية والنواحي ليستطيع المزارع أن يحمل حاصلاته الى الاسواق الكبيرة على أيسر وجه .

وسعت في انعاش البلديات وأقرضتها اموالاً لجلب المياه النقية ، وتنظيم المدن والدساكر على أحدث طراز يضمن راحـة السكان والمختلفين اليها فلبست أكثر المـدن بل القرى الكبيرة حللاً جديدة . ولا تمضي سنون قليلة حتى تنزع عنها ثيابها البالية الرثة ، ويصيب من هذا المعنى قسط من العناية امهات القرى التي أخذت تنشيء مجالس بلدية .

وعنيت الحكومة عناية خاصة بالصحة العامة فأنشأت عدة مستشفيات ومستوصفات وأقامت الأطباء في الأصقاع التي كان الناس فيها محرومين عناية من يطبهم ويرعى صحتهم . وأخذت تنشر بين الطبقات النازلة فائدة الاستشفاء

على أيدي الطبيب بعد أن مضى عليها قرون وهي لا تلجأ في تقويم أبدانها الى غير الدجاجلة ، واهتمت بمياه الشرب فأسالت الى بعض المدن والقرى الصالح من الماء للاستعمال فزادت المواليد وقلت الوفيات ، ولا تقدر الزيادة في عدد السكان كل سنة عن ستين الف نسمة . وجففت بعض المستنقعات المضرة وغرست عليها الأشجار لتحسين الهواء والزينة، وأنشأت دوراً للحكومة ومخافر لرجال الأمن ومدارس لتلقين العلم ، وجسوراً للتيسير على أبناء السبيل ، واستكثرت من الاسلاك البرقية والهاتفية لتربط أجزاء البلاد بعضها ببعض .

ولقد نشطت الزراعة الى الحد الذي ساعدتها عليه أسبابها المادية والفنية فأدخلت أصنافاً جديدة من الزروع والاشجار . واهتمت بالصناعات الزراعية ونشر الادوات الحديثة والاسمدة الكيماوية . وعملت على زيادة رأس مال المصرف الزراعي وتسهيل اقتراض الفلاح منه بفائدة معتدلة مما ستجني البلاد فائدته عاجلاً أو آجلاً ، ومن جملة الدواعي التي حملتها على الغاء نظام حصر الدخان ووضع نظام الاطلاق أي حرية زراعته وصنعه والاتجار به ، انشاء زراعة رابحة في أرض الدولة كانت في حكم العدم من قبل ، ونعني بها زراعة الدخان على أنواعه ، وايجاد موارد جديدة من الارتزاق تأتي من صنع اللفائف ، وبما تفتح هذه التجارة للناس من أبواب الربح ، فألفت لذلك الشركات وبدأت المنافسة بينها مما يُنتج تحسين هذا الصنف لما فيه فائدة المستهلك والمستحصل . وقد زادت واردات الدولة بهذا النظام الجديد الى أكثر من ضعفين ، استطاعت الحكومة معه تخفيف العشور والخراج وغيرها وهي تفكر في الغاء الاعشار والاستعاضة عنها بخراج مقبول ، يقلل مشاكل الفلاح ويضمن له عيشاً فيه بعض الرخاء . وكانت الحكومة أبداً في سياستها الاقتصادية ترمي الى تنويع الانتاج والاكثار منه الى أقصى حد ممكن ، والى القصد في طرح الضرائب وانفاقها في وجوه تأتي بفائدة مثمرة في الجملة .

ولهذا الغرض انشأت لاول عهدها ادارة الري وأمدتها بالمال اللازم لها وقد ظهرت تباشير أعمالها في بعض الاصقاع . والمأمول أن تحيا بالري مئات الالوف من الافدنة تروى من الانهر العظيمة التي تجري بقربها كالفرات ودجلة والخابور والبليخ وجغجغ وعفرين والعاصي والاعوج وبردى أو من الاقنية المخزونة مياهها في جوف الارض ، وكانت مهملة لا ينتفع بها ، أو بواسطة السدود القريبة المأخذ أو من رد المياه الطاغية على أرض للاستفادة منها في أخرى محرومة ، كما هو الحال في بحيرتي العتيبة والهيجانة . وسيزيد في المستقبل القريب ربح الاهلين من ذلك فلا يضطر بعضهم الى الهجرة ، والذهب مكفول للعامل على سطح أرضه . وبعض هذه الاعمال في السقيا مما يساعد على تحضير البدو ، لا سيما بعد ان شرع بانشاء آبار لهم في الفلوات البعيدة وظهرت آثار الارتفاق بها واضحة جلية ، وهذه الآبار تساعد ولا شك على تعهد المواشي والاستكثار من انواعها الصالحة في سهول تنبت اجود الاعشاب ومناخها في الغاية من الملائمة لتربية الماشية ولا ينقصها الا ماء طاهر لشرب القائمين على استدرار خيراتها .

ومما تذرعت به الدولة النزول عن املاكها بالتدريج فباعت في المدن ما لا حاجة لها به وتبيع كل سنة عشرات من القرى من النازلين فيها أهل الزرع والضرع بأسعار متهاودة . تتقاضى اثمانها على نجوم وتقاسيط وذلك لتنشيء الزراعات الصغيرة وتوفر موارد العيش لمن كانوا فيما سلف أشبه بالمتشردين وستعطي جانباً من الارض القريبة من البوادي مما تراه صالحاً لنزول العشائر الرحالة وانصاف الرحالة .

ولقد أيقنت الحكومة أن نشر التعليم الابتدائي في المدن والقرى وبين القبائل هو العامل الأكبر في النهوض بالدولة فوجهته وجهة عملية على اسلوب يختلف بعض الاختلاف في القرى عن المدن وفي تعليم الذكور عن الاناث ، ولم تغفل التعليم الثانوي والعالي والصناعي والتجاري والزراعي

وعنيت كثيراً بدار المعلمين والمعلمات وخرجت عشرات في مدارس فرنسا العليا ليجيء منهم أخصائيون في العلوم والفنون . فجبرت بذلك بعض النقص الذي كان محسوساً في صفوف الاطباء والصيادلة والحقوقيين والمهندسين والماليين والزراعيين والأساتذة على اختلاف فروعهم ، ولا تزال عاملة على املاء الفراغ الماضي برجال يأخذون العلم على أحدث الطرق العصرية ، ولم تضن في هذه السبيل بالمال فضاعفت في عهدها موازنة وزارة المعارف فكانت سياستها في التعليم محاربة الجهل والامية وتثقيف فئة صالحة من أرباب الكفاية لممارسة الأعمال الحرة وتولي الادارة والحكم والتعليم والتنظيم .

وكان من عمل الحكومة في تصنيف الموظفين أن أخرجت من الخدمة عدداً غير قليل واستعاضت عنه بعناصر صالحة من أبناء البلاد المتعلمين . فانتقلت الأعمال الحكومية أو أكثرها الى أيد تحسن العمل بنشاط ومعرفة ونزاهة ، مع ما هناك من مراقبة وتفتيش . فأمن الصالحون من العاملين على حاضرهم ومستقبلهم ، وأصبحوا ونظامهم الخاص يحميهم لا يخافون الا من أنفسهم أو يوم يخالفون القوانين المرعية ، ويعبثون بمصلحة الأمة . فقد حظرت عليهم مثلا الاشتغال بالسياسة ليصرفوا أوقاتهم في تجويد عملهم الخاص ، وتركت الاحزاب يستمتع القائمون بها بحرياتهم كاملة . على أن لا تخرج عن مضامين القوانين ولا تخل بشيء من أسباب السلام العام .

وقد وسعت الحكومة سلطة رجال الادارة في الألوية والأقضية وسنت نظام التقاعد فحفظت به حقوق المتقاعدين وضمنت لهم مستقبلهم ومستقبل عيالهم . وساعدت ادارات الأوقاف على استبدال الوقوف لتغدو ملكا صرفاً لأربابها لا ينازعها فيها منازع . فالتفتت الاوقاف الى توفير ريعها من أملاكها ، وبذلك قامت في دمشق وحلب مبان عظيمة للأوقاف كانت مثالاً جميلاً في باب الهندسة والاستغلال . ونظرة عجلى

على المحاكم والدرك والشرطة ودور الحكومة والقضاء في العاصمة وأعمالها يدرك بها الفرق الواقع بين الامس واليوم في التنظيم والتقنين وفصل القضايا وطرق التعليم والتمدين .

وقصارى القول ان البلاد دخلت في طور تجدد محسوس واخذت بالاساليب الحديثة في نشوئها وارتقائها ، وانشأ الاهلون يحسون بان السكينة مستقرة وان الحكومة عاملة على احقاق الحق بينهم وانها توفر لهم ماوسعتها قوتها اسباب الاعتمال والاتجار . ومن ذلك مااتخذته من الاسباب الكثيرة لراحة السائحين والمصطافين للاستمتاع بهواء البلاد ومشاهدة مصانعها وعادياتها ، ومنها درس مشاريع الكهرباء في بعض المدن الصغرى بعد ان جعلت الحظ الاوفر من ذلك للمدن الكبرى ، ومنها مشروع الترامواي والكهرباء في حلب وحماة وحمص وانطاكية ومعاونة الحكومة شركة الجر والتنوير في دمشق لتمدد خطوطها من غرب المدينة الى شمالها الشرقي وتتوسع به نحو ثلاثة عشر كيلومتراً حتى يبلغ قصبة دوما فيعد بعد ذلك قسم من الغوطة الشمالية في جملة احياء مدينة دمشق .

والحكومة تدرس الآن شروط شركات اخرى لانشاء خطوط حديدية تصل بين الساحل واقصى حدود الدولة من الشمال الشرقي الى غير ذلك من المشاريع التي قد لايظهر اثرها الآن والقصد منها استخراج خيرات الارض وتقريب الابعاد وتيسير المواصلات وفتح منافذ العيش لمن يحبون ان يعتاشوا بكدهم ، وتعليم الناس اصول التآلف والاجتماع ومن ذلك انها هيأت طرق العمل لنقابات الحرف وغرف التجارة والزراعة في المدن ، وكثيراً مانزلت على رغائب القائمين بها حتى احسّ القوم بما ضمن لهم من حرية العمل ان كل صوت يرتفع بالحق للحصول على ماينفع يسمع لصاحبه ، وان كل انسان في صعيد هذا الوطن هو شريك متضامن مع جاره ، ونهوضه مناط النهوض ببلاده وسعادته تنبعث من سعادتها . ومن اجل هذا لم تدخر الحكومة وسعاً في معاونة الجمعيات الخيرية على

اختلاف مقاصدها ومدت يد المعونة للمدارس الوطنية والطائفية والاجنبية ناظرة الى مصلحة البلاد قبل كل مصلحة .

وفي الصفحات التالية صورة اكبر من هـذه الصورة المصغرة تمثل ماقامت به الحكومة من الاعمال التي تعد نفسها سعيدة بتحقيقها . وترى من واجب الانصاف ان تذكر بالخير عمل حضرات المستشارين الفنيين الذين آزروا الحكومة الوطنية احسن مؤازرة بفضل مايستمدونه من روح صاحب الفخامة المسيو بونسو المفوض السامي في سورية ولبنان وما يصدرون عن آرائه الصائبة في المسائل الجوهرية . والله المسؤول ان يوفقنا الى خدمة الوطن العزيز لتقوم دعائم مجده الحاضر كما كانت دعائم مجده الغابر على الاوضاع الرشيدة التي يرضى عنها كل صادق الوطنيه اه .

عزة العلماء

كان العلامة سعيد الاسطواني قاضي دمشق من كبار علماء عصره مشهوراً بالتقوى والصدع بالحق ، وهو صاحب الخزانة العظيمة التي أحرقت في حريق سوق الحميدية وكان فيها من الامهات المعتبرة الشيء الكثير . وشغر في بعض أيامه منصب افتاء دمشق وكان السيد الاسطواني في رحلة له الى حمام أبي رباح في جبل قلمون يصحبه قريبه الاستاذ عبد المحسن الاسطواني فقال له هذا : اني مستغرب تركك دمشق في هذه الآونة ووظيفة الافتاء شاغرة وأنت بها أحق المطالبين بتقلدها . فأجابه ان فلاناً وفلاناً من المقدمين في الحكومة كانا يقفان على الاقدام أمام الوالي ساعة وأنا أوقع الاوراق الرسمية كبعض المستخدمين العاديين وأصبحا الآن يقدمان ويؤخران في أمور الولاية ورجالها فأنا غير مستعد لأن أرفعهما على كتفي حتى يرضيا عني ويساعداني على أخذ الافتاء . وكان لمنصب افتاء دمشق مكانة معنوية يجيء المفتي بعد الوالي في المرتبة . وهذا مثال من عزة نفوس العلماء .

لباس الرأس والبدن

من أضحك ما في الشرق العربي تخالف أهله في لباس الرؤوس وكسوة الأبدان ، لا يكاد يشبه قطر قطراً ولا مدينة مدينة ولا قرية قرية . وعلى كثرة المتفلسفين في الدول العربية لم يفز العرب الى الآن بتوحيد لباسهم اللهم الا في جزيرة العرب وما البها من الأقاليم ، فان معظمها اعتمد من القديم على الكوفية والعقال والعباءة كما اعتمد عليها سكان الريف في الشام والعراق ومصر . احتفظت هذه الأقطار بهذه الكسوة مئات من الأعوام وما أدخلت عليها تعديلا لملاءمتها هواء أرضها في صيفها وشتائها . أما لباس الرأس في المدن فأنواع وأشكال . واتجهت النفوس في الأيام الأخيرة الى استعمال القبعة الافرنجية فحاذر ولاة الأمر في مصر اثارة ثائرة المتعصبين اذا أجازوا لبسها فاضطروا الى العدول عن هذا الرأي . مع أن اللباس من العادات ، وما كان له يوماً اتصال بالدين ، والعرب حتى في عصر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام كانوا يكتسون الكسوة التي يجدونها وتكون مما يقيهم الحر والقر . وثبت أن الرسول نفسه لبس ألبسة كانت مما يلبسه الروم .

أما أكسية البدن في المدن العربية فأشكال وألوان أيضاً ، منها ما يقرب من لباس الغربيين كالسراويل والمعاطف ومنها مايشبه ألبسة المنامة وثياب التبذل وكلها مما يمكن توحيده ، وفي توحيده الراحة للابسين واقتصاد محسوس .

الشعر الرمزي

تهوس أحد المتمصرين منذ سنين ، وهو دكتور في الآداب على ما يدعي ، فنظم شعراً مجرداً من الأوزان والقوافي ومن المعاني والخيال سماه الشعر الرمزي . وما عتبي عليه للمناداة على شعره في سوق الكساد فالمرء مفتون بشعره ، ولكن العتب على بعض رجال الصحافة الذين يتولون نشر هذا الهذيان المؤذي الأذن المفسد للذوق . قرأ له الناس عدة قصائد فخرجوا منها بلا محصل وأظنه هو لا يستطيع أن يفسر ما كتب . ما أغرب حال طلاب الشهرة وبخاصة اذا حرمهم الفاطر معظم الأسباب للوصول اليها .

جريمة لا تغتفر

ارتكبت جريمة لا تغتفر في نظر صاحب الجمهورية فقلت في كتابي « دمشق مدينة السحر والشعر » ما فحواه ان الثورة السورية أضرت بنا فتوقفت الاعمال وخربت البيوت وهلك الناس وأن الثورات تضر أكثر مما تنفع ، فغاظ الرئيس قولي لأني ما لاحظت أنه ثائر ومن أنصار الثورة ، فآخذني على ما صرحت به بواسطة رئيس ديوانه . فقلت له : أمامكم أمران تعمدون الى أحدهما فاما أن تردوا على ما كتبت في الصحف ، تنقضون رأيي في الثورة والثورات ، واما أن تعرضوا الأمر على القضاء فيحكم عليّ بما جنيت . ثم ان ما صرحت به من هذا الرأي في مضار الثورات قال به بعض علماء الغرب ومنهم الحكيم غستاف لبون .

وما كان من الرئيس على عادته مع من يغضب عليه الا أن سلط

علي بعض الصحف الدمشقية الناطقة بلسانه والمتغذية بمعوناته وانعاماته ، تتهكم بي وبآرائي . واسترسل أتباعه في هذيانهم أياماً ، وما ذكرتني من قبل جريدة عربية بمثل هذه السلاطة . وهكذا كان الرئيس يتشفى بمن لا تروقه أفكاره ، يؤدب بلسان أتباعه كل من لا يقول بقوله ليحملهم على مشاركته رأيه بالقوة . يسلط السفهاء على الشرفاء وهذا من باهر سياسته .

عاطل وممطل

في العادة أن من لايحب العمل يثبط العاملين حوله . نبغ في القرن الماضي في دمشق رجل من أولاد التجار ، طلب العلم وظهر نبوغه فيه ومالت نفسه الى التأليف ، أواخر العقد الثاني من عمره ، فبلغ شيخه ما يحاوله فقرّعه على جرأته فلم يعبأ بتقريعه ، ودام على ما أخذ من نفسه ، فجاء منه فقيه عدّ من أعظم فقهاء الملة وهو لم يبلغ سن الكهولة ، عنيت العلامة السيد محمد عابدين صاحب الحاشية ، وعليها المعوّل في الفتيا في بعض بلاد الاسلام اليوم .

ونشأ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وفي دمشق أيضاً رجل درس العلوم الاسلامية وزاد عليها شيئاً من العلوم العصرية ، وبدا له أن يؤلف فألف رسالة وهو في الثامنة عشرة وعرض ما ألف على شيخه فغضب وقال هازئاً به : لم يبق الا أنت حتى تؤلف . فانقطع الطالب وقطّع ما ألفه ، وبقي ممتنعاً عن التأليف الى آخر حياته ، لم يكتب فيه الا ما لابال له . وهذا هو الاستاذ سليم البخاري . وكان رفيقه الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري يقول : ان انقطاع الاستاذ البخاري عن التأليف خسارة ولو اطرد عمله لكان مؤلفاً ينتفع به .

وكان الشيخ طاهر ينشط المؤلفين الناشئين على التأليف والنشر ولطالما أخذ بأيديهم في مصر والشام . وهذا هو الفرق بين عقليته وعقلية معاصريه ومن سبقوهم من المشايخ . وهؤلاء كان همهم مصروفاً الى معرفة القواعد وحل عبارات الكتب التي يتدارسونها ، وما كتب لهم أن فكروا في العمل بها على مايجب . ويزيدون الى ذلك سيئة أخرى وهي قطع الناس عن الخروج على مألوفهم .

الطيب والخبيث

كثيراً ما رجوت بعض المتسرعين في أحكامهم ألا يجروا نقدهم بصورة عامة ، وأن يخصوا بانتقادهم الفرد لا يؤاخذون المجموع بما ارتكبه واحد أو آحاد ، وأقول ليس المعيار في الرجل مذهبه ولا بلده ولا جنسيته وما المعيار الا أخلاقه ، والأخلاق تختلف في رجل رجل كما تختلف صور الآدميين . وأضرب مثلا لذلك بشاعرين معاصرين أحدهما نجفي عراقي والثاني عاملي شامي . هاجر الأول الى الشام فأكبر الشاميون أدبه وأخلاقه وكثر أصحابه ومريدوه في كل بلد نزله ، وكان اذا وافى مجلساً ودّ جلاسه لو أطال جلوسه ليمتعهم بحديثه ويطربهم بنفثات شعره

وكان الثاني اذا دخل مجلساً تنقبض النفوس منه لأنه جاسوس لدولة أجنبية والجاسوس مكروه بالفطرة فكيف اذا كان يجادل فيما لا يعلم ويطعن برجال الاسلام ، ولا يخجل من التدخل فيما لا يعنيه ، وكان ثقيل الظل اذا اختلف الى مجلس يضيع أوقات أهله بمماحكاته ، ومن عادته أن يسأل كل من تقع عينه عليه عن الأخبار ، ويحاول كشف خبيثات النفوس . الأول أجمع على حبه كل الطوائف والثاني تكرهه حتى طائفته .

اجتماعيات

من يطلب اماناً من الدهر كان كالذي يطلب ان تطلع الشمس ويغيب القمر بأمره .

لاتخطب فتاة الا بعد تقصيك أخبار أمها وجدتها ، حياة الفتاة تكملة حياة أهلها .

عدَّ من يكذب عليك أنه يحتقرك ، والأمثل بك مع من كانت هذه حاله ألا تسمعه كلامك ولا تريه وجهك .

ماأضيق عقل من يكذب عليك كذباً ظاهراً ، وهو عند نفسه أنه يخدعك .

الخلوة بغير المحارم فتنة ، ان دعت الدواعي الى الاجتماع بالنساء في معزل ، فليكن ذلك بحضور أهلهن وأزواجهن .

خلاصة ماتوصف به التربية الانكليزية والتربية الفرنسية أن الشاب الانكليزي يتعلم مسائل قليلة ويتمثلها فتعده للحياة خير اعداد من أول يوم يدخل في معتركها ، والفرنسي يتعلم أشياء كثيرة ويحفظ ما لا يلزمه ، ولكثرة ما يحشو رأسه من المعلومات تضعف فيه ملكة الابداع . ومتى جنح الفرنسي للعمل بعد الدراسة الطويلة لا يدري من أي يبدأ ، وما يبدأ الا من حيث ينتهي الانكليزي . وهذا سر تفوق التربية الانكلوسكسونية على التربية اللاتينية .

خلو مجالس الرجال من النساء نقص في شروط الاجتماع ، والمجلس المؤلف من احد الجنسين فقط مصاب بالجمود .

من بعض انحطاط المسلمين خروجهم في الحجاب عن هدي الشرع وسنة قدماء العرب ، وأخذهم بمصطلح الأعاجم المشارقة .

راقتني كلمة لشيخ شيوخ الأزهر عند كلامه على الصيام في رمضان . قال : ان من يفطر ويقول فطرت لعذر مشروع يقدره هو نفسه أفضل عند الله ممن يكذب ويدعي انه صائم .

لا تحرم نفسك اللذات المحللة . اذا ابتليت بما يحرمه الشرع وينكره العقل فأقلل منه جهدك .

متى عودنا أولادنا كراهة الكلام البذيء يخف ما نسمعه من بذاءات ، ومتى دربناهم على النفرة من الكذب لا يجد الباحث بعد جيلين أو ثلاثة كذاباً ولا بذيء اللسان .

ما قيمة الحكومات الدستورية اذا عهد بتطبيق قوانينها الى أناس لا ترتقي عقولهم عن عقول العوام : الاوضاع أوضاع الخاصة، والعامية هي الحاكمة المتحكمة .

مأتم الى عرس ، بكاء الى ضحك ، بؤس الى نعيم ، فقر الى غنى . هذا تعريف الحياة الدنيا .

كانوا يقولون لا تخف الا من صاحب الكتاب الواحد ، لاحكامه غالباً كل مافيه . ولا يكتفي طالب العلم في عصرنا من الكتب بعشرات المجلدات على حين لايستحضر في ذهنه جزءاً صغيراً مما حوته ، ولهذا عمد الغربيون الى الاستكثار من الجزازات والفهارس المرجوع اليها عند البحث ، حتى كاد العلم ينقلب الى جزازات وفهارس .

اتفق أن رأس أحد المجالس النيابية أعلم الأعضاء ، فلما غاب ناب عنه أجهلهم ، وفي قانونهم أن يرأس في غياب الرئيس الأصيل أكبر الاعضاء سناً ولو كان أجهل من قاضي جبّل . ما أغربه من قانون .

السياسة غير الادارة ، والطب غير الصيدلة ، والخطابة غير الكتابة ، وقلّ أن تفوق من يحاول الجمع بين فرعين .

يؤكد بعضهم أن ممن يعانون المحاماة والطب اليوم من لا يكسبون من مهنتهم ما يسد الرمق ، وكان الأليق بمن لا استعداد لهم للدرس والبحث أن ينصرفوا الى الاشغال اليدوية والتجارات العادية . تتوقف المحاماة والطب على ثقوب ذهن ، والشهادة وحدها لاتنفع للنبوغ في هاتين الصناعتين .

كان بعض من سمعتهم يخطبون في المأ أقرب الى الركاكة والفهاهة ، ولطالما اشمأزت نفسي من سماع كلام المرتجلين منهم ، وعتبت على أرباب المدارك لتقصيرهم في ارشاد من يندسون في جماعة هم في الواقع غرباء عنهم . الخطابة كالشعر والموسيقى والتصوير لا تفعل في النفوس ان لم يرزق صاحبها استعداداً فطرياً يكمله الدرس والاشتغال .

اذا خافك صاحب لك بدّد خوفه ، واذا استضعفك انسان أبرز قوتك ، وحاذر ان استطعت ألا يعرف من يحيط بك كل ما لك من أسباب القوة والضعف .

أنكر أحد أرباب المجلات المصرية وجود المجمع العلمي العربي لما غضب على رئيسه فكان شأنه في ذلك شأن من حنق على شخص من بلدة فأنكر المدينة ومن فيها .

تظهر الثورات حثالات من الناس كانت قبلها خاملة مغمورة ، كالغدير متى عكر ماؤه يظهر فيه الوحل والطين .

ما برحت الدولة اليونانية منذ نزعت يدها من حكم الأتراك في القرن الماضي تضم اليها كل من تيسر لها ضمهم من أبناء جنسها ، الوطنية اليونانية قوية في معظم مظاهرها على قلة عدد أبنائها وصغر مساحة أرضها .

كانت الدولة العثمانية كلما انسلخ عنها قطر أو أقطار تحمل ما كانت تأخذه منه من المغارم على ما بقي لها من ولاياتها . فلما خرج عن تركيا في الحرب العالمية الأولى نصف أملاكها جزأت مابقي منها وصاغت منه ولايات متعددة ليقال انها مملكة كبرى على نحو ما كانت أيام الامبراطورية العثمانية .

قال الحجاج لابن الكلبي : أخبرني عن خمسة أشياء أضيعت في الدنيا . قال نعم أصلح الله الأمير : سراج يوقد في شمس ، ومطر جود في أرض سبخة ، وامرأة حسناء زُفت الى عنين . وطعام اجتهد صاحبه في صنعه فقدمه الى سكران أو شبعان ، ومعروف تصنعه الى رجل لا يشكرك عليه . وأزيد على قوله : وعلم يبثه صاحبه في جهلاء لاستعداد لهم لتلقيه .

الكسل عامل قوي في خراب البيوت القديمة ، يتكل كل فرد من أبنائها على أخيه وعمه حتى ليصبحوا كلهم كسالى اتكاليين ، وما كان آباؤهم كذلك على ما يظهر .

أثقل ما كان يثقل على نفسي علم الرسوم (البروتوكول والاتيكيت) . من الناس من خلقوا لها ولذتهم في معاناتها ، ومنهم من يستثقلون القيام بما تفرضه عليهم . يُضيع الملوك وكبار الدولة بعض أوقاتهم في الرسوم والرسميات ، وقد يجدون فيها غبطة وبهجة ، ولو جنحت الحكومات الى السذاجة في رسومها لتوفر لها وقت ما كان أجدره أن يصرف بما يفيدها ويفيد رعاياها .

عهدت رجالاً برعوا في علوم ينافي بعضها بعضاً . شاهدت كيماوياً يبرز في الادب ، وطبيباً شاعراً ، ورياضياً ناثراً .

رأيت بعضهم يدهشون بجمال احدى العقائل وشاهدت غيرهم يستقبحون ما فيها من القسمات . وهذا من العوامل التي تيسر زواج بعض القبيحات ، فان عين المستحسن ترى ما لا تراه باصرة المستقبح .

اذا اجتمع بضعة أشخاص ترأسهم واحد بالطبيعة ، ومتى حادوا عن هذا النظام يسري اليهم الاختلاف وسوء التدبير .

لو أزمع المغتربون من الديار الشامية العودة الى أوطانهم يحملون ما اكتسبوه في مهاجرهم من ثروات لأصبحت الشام من أغنى أقطار العالم .

قالوا ان حب فلان على مقدار منفعته من حبيبه ، أصلحهم الله وهل الحياة الا منافع ونحن أبناؤها ؟

ليت المجتمع يستبقي ما لا سبيل الى البقاء بغيره من أسباب المدنية وذلك بصقل مدنيته الحاضرة صقلاً خفيفاً وبرفع معظم ما فيها من قيود وتعقيد .

عجبوا من رجل كان معدوداً في أغنياء التجار فلما مات لم يخلف الا ما لا بال له من عروض وتحف . فقلت لاتعجبوا ان من عادة الخلق التجوز في تقدير الثروات ليثبتوا قلة تقديرهم ومن شأن التجار أن يكتموا حقيقة ماتملكه أيديهم .

كثيراً ما كنت أتمنى لو تيسر جمع من أحب من أصحابي في صعيد واحد ، وأن يبعد عن عيني من يبغضهم قلبي لرداءتهم ونذالتهم .

لو جوّز المسلمون لانفسهم أن يعاملوا غير من يدينون دينهم كما

اعتـاد بعض هؤلاء أن يعاملوا من يخالفونهم أي لايتعاملون الا وابنـاء مذهبهم — مامضت مدة الا اضطر المقاطعون انفسهم الى الهجرة .

اعتاد معظم من تقلدوا كبريات الاعمال من غير المسلمين أن يحشروا في خدمة الحكومة أكبر عدد ممكن من أبناء نحلتهم ، والا يعاونوا غيرهم من أرباب المذاهب الاخرى ان امكن . عادة دنيئة تدل على ضعف وطنية وقلة عقل .

الصحف المعتدلة اللهجـة أقرب الى الانتفاع بما تكتب من صحف الاحزاب والمهوسين بالوطنية ، وضرر الصحف التي لا تعرف غير الهدم ولا تحسن البناء أشد من نفعها .

كلما ضعف عدد الاميين زاد قراء الصحف وعقد الرجاء على صدورها آخذة بنواصي الكمال من حيث مظهرها وصدق لهجتها وسرعة أخبارها وتنوع مقالاتها ، حتى لتغدو اشبه بمدرسة يتعلم بها القاريء كل يوم ما ينير أمامه سبيل الحياة . مطالعة جريدة راقية مدة من الزمن تقرب العوام من مرتبة الخواص في التفكير الصحيح فتتعـذر بعدها مغالطتهم في الحقائق الراهنة .

قال لي والدي : كنت مشتركاً بجريدة « الجوائب » التي كان يصدرها احمد فارس الشدياق في الاستانة ، وكان كاتبي يقرأها عليَّ ويشرح لي المبهم من عباراتها . فقرأت مرة بين السطور كما يقولون : ان مصير السلطان عبد العزيز الخلع ، وذلك قبل خلعه بالفعل بأربعة أشهر ، فلما خلع لم استغرب خلعه . من يفكر ويطيل التفكير فيما يتلو أو يتلى عليه خير ممن يكثر من القراءة ويغفل التفكير .

يفلح على الاغلب من يستمع لما يقوله فيه أعداؤه ولا يغتر بما يقول

فيه أصفياؤه . نقد العدو أجدى من تقريظ الولي .

لما بلغ رئيس انقضت أيام حكمه انتخاب رئيس جديد خلفاً له أغمي عليه فأشار عليه الاطباء أن يبتعد عن المزعجات ابقاء على صحته . ولو أدرك أن ماحدث لم يخرج عن الامور الطبيعية لاكتفى بأن يقول كل منصوب معزول .

النقد حياة المجتمعات ، به ارتقى الشعر والنثر ، وبه ارتقت الخطب والتأليف ، ولا يخاف النقد الا رب العلم الضعيف .

لايكتب التوفيق لكل من يتحدث الى الناس الا على الندرة . المحدث كالخطيب لايصفق له تصفيق استحسان الا اذا ابقى في نفوس السامعين أثراً تهز نغمته أوتار قلوبهم .

كلما خطت المجتمعات خطوة تألفت النقابات واشتد العملة في المطالبة بحقوقهم وعمدوا الى اضراباتهم لاقل شيء ، والاضراب أول مايعالجون به مسائلهم مع الحكومات وأصحاب المعامل .

قال لي أحد الأذكياء ممن برعوا باللغة الفرنسية من الشاميين وصرفوا جانباً من وقتهم بعد الدراسة الجامعية في كتابه اطروحات الكسالى من الطلبة الشرقيين مقابل أجر يرتفق به : كان هذا شأن معظم طلابنا في أطروحاتهم ، فقلت له : لذلك نراهم أحجموا عن نقلها الى العربية لأنهم لا يحسنون فهم ما ظهر بأسمائهم باللغة الافرنجية ، وما أهمهم مما نشروه الا احراز لقب « دكتور » وقد لاحظت أن بعض الأطروحات حملت أفكاراً تخالف معتقدات أصحابها ، لأن من كتبها ما كان يعرف مذهب من ظهرت الأطروحة باسمه .

تحرص المدارس على تكثير سواد الطلبة في صفوفها ، وعلى تخريج أكبر عدد من حملة شهاداتها ، ولو عقل بعض التلاميذ الذين أدوا فحوصهم بمشقة كبيرة حتى انتقلوا من فرقة الى فرقة الى أن انتهوا بمدرسة الحياة ، لانصرفوا لاتخاذ أسباب للمعايش أقرب الى نجاحهم من خدمـــة تحتاج الى علم غزير ، وقريحة وقادة ، ودؤوب مطرد .

شهدت في ستين سنة من تبدل في هذا العالم ما لم تشهد الانسانية مثله في قرون . وقد مرّ بي أكثر ما عاينت كما تمر الصور المتحركة على الشاشة البيضاء . رأيت كل مدهش وغريب وما غيرت رأيي في ذكاء البشر وبلاهته ، وفي صلاحه وخبثه ، وكان الخبيث أوفر من الصالح والمتوحش لا يزال الكثرة الكاثرة .

قلبت سرعة المواصلات نظام الكائنات ، فتحتم علينا ان نحفظ أشياء منوعة حفظاً سريعاً بدون تدبر ، وألا نتمتع كما كان يتمتع أجدادنا بالسكون والهدوء ، ولا نعتصم بالصبر لنهضم ما نتعلم ونتذوق اللذائذ الروحية

كان يرجى لبعضهم أن يكون منهم رجال يستحقون اسم الرجولية لما بدا عليهم من علائم النجابة لأول نشأتهم . فدارت الأيام وعلت بهم السن فشوهدوا على غير ما كانوا عليه في أول المحطة ، وما أثر عنهم الا خدمة أنفسهم بالحق والباطل ، وما أقدموا على أمر يكون منه نفع جيرانهم .

اعتاد بعض شعوب الغرب أن يرتحلوا كل مدة الى ديار بعيدة وان كانت أردأ هواء من بلدهم . ذلك لأن في التنقل صحة الأبدان وترويضاً الأذهان . لا تتوقف عن الاستجمام أياماً معدودة من السنة فالملل يدخل من اتصال العمل ، والمستجم يصبح بعد العطلة أوفر نشاطاً وأشد شوقاً لما ينصرف اليه ، والوقت الذي يقضى في النزهة والتنقل معوض باضعافه .

قل أن رأيت صوفياً أفلح في علم من العلوم الدنيوية والأخروية وكنت اذا تأملت ملامح بعض أصحاب الطرق أتصفح فيها المكر الى جانب الذكاء .

دعاني بعض ملوك العرب الى النزول عليه واتخاذ بلده موطناً ، ومنهم من عين لي نوع الخدمة التي يتطلبها مني فاعتذرت وشكرت ، ومنهم من قبل عذري وتفضل ورفع الطلب عني ، ومنهم من لم يقم لي عذراً ، وأصرّ أعواماً على تنفيذ رغبته . ولو كنت أجد من نفسي استعداداً لخدمة الملوك ماترددت في انفاذ أمرهم ، وأنا الى هذا ماأحببت الانتفاع منهم من دون أن أنفعهم .

غالب الزعماء اذا ابتسموا لاحد توقعوا جزاء ابتسامتهم ، وجزاؤها عندهم أن تفنى شخصية المبتسم له في شخصيتهم .

رأينا أحرار العلماء على الدهر يفرون من الملوك احتفاظاً باستقلالهم الشخصي ولامور نفسية لايسعهم التحلل منها . والملوك امس واليوم يحرصون على استتباع أصحاب المكانة على النحو الذي يروقهم هم .

من عجيب الظواهر الاجتماعية حوالة الاسواق وتحديد اسعار الاشياء بعامل خفي . ومن أغربها قسمة الارزاق بين الخلق كأن الفطرة ترى نفسها ملزمة بتقديمه لهم .

الى القرن الخامس من الميلاد كان رجال الدين في النصرانية يتزوجون ويُدْسلون كرؤساء الاديان الاخرى . فلما فرضت الرهبانية على طوائف منهم حتى لايشتغل رجل الدين بعياله عما يفرض عليه القيام به من الواجبات أصبحت العزوبة غير مستنكرة عندهم يقبلها من ينذر التبتل ولا يرى شيئاً من الجور فيما قضت .

رأيت راهبة كانت على جمال فتان فعجبت كيف رضيت أن تفطم نفسها برضاها عن لذائذ الدنيا ابتغاء ثواب الآخرة . سلطان الدين على بعض النفوس أعظم من كل سلطان .

كان في فلسطين دير للراهبات مسوّر أحكم تسوير ، لا ترى الراهبة فيه رجلا ولا تخرج من قلايتها حتى تموت . شأنها شأن بعض نساء نابلس فانهن ما كن فيما مضى يغادرن بيوت أزواجهن الا يوم يحملن الى مقرهن الاخير .

قال لي أحد أصدقائي الأعزة ، وهو ممن يحسن التصرف بدخله وخرجه وقد اشتهر بجميل الحيلة في تدبير ما يقتصد من رواتبه وأعماله المالية ، وهو لا يقامر ولا يغامر ، اني نظرت فيما جمعت طول عمري من مال فلم تبلغ ثروتي عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً ، هذا مع تجوزي في تقدير قيمة ما أملك . وسمعت بعضهم يقدرون ثروته بمئة ألف ليرة عثمانية ذهبية . وماذا تقول بعد هذا في غلونا بتخمين الثروات والتوسع في غموض أرقامها .

لو عقل المقامرون يوم يخسرون الخسارات العظيمة لأقدموا على الانتحار من تلقاء أنفسهم . وبذلك كان ينزل عدد اللاعبين والمتلاعبين .

راقبت ثروة ثلاثة من بيت يدعي أهله الشرف ، جمعوا ثرواتهم من الربا والرشا وأخذ الصدقات باسم ولاية جدهم . وقد أضاع أبناؤهم ما ورثوه في وقت قصير . كنت أذهب الى أن المال الحلال يبقى لأصحابه مدة أطول من المال الحرام فظهر أن كل ثروة مهما كان أصلها اذا انتقلت الى سفهاء تضمحل في وقت قليل .

اعتاد القوم اذا أضاع ابن أحد الاغنياء ثروته بقلة ادارته وكثرة سفاهته أن يسعى بعض من تأخذهم الشفقة عليه الى توظيفه في الحكومة

كأن دواوين الدولة تكايا للمنكوبين والمفلوكين ، أو رباطات لابدّ فيها من اطعام المساكين والجائعين .

تخرج المدارس الى جانب النبهاء من طلابها طائفة كبيرة من الاغبياء ربما كان حظهم من الظهور حظ الفئة الذكية وزيادة ، ولو حسن انتقاء الطلبة لجاء المتخرجون كلهم من الطراز الجيد في الجملة ، وعندئذ تضطر بعض المدارس العالية الى اغلاق أبوابها لقلة من تنطبق عليهم شروط القبول أولاً وشروط الحصول على الشهادات ثانياً .

قال لي موظف مقدم في احدى المفوضيات العربية : كنا اذا عزمنا في مصر ان نأدب مأدبة رسمية نرسل الى الحكومة المحلية رجلا نبيهاً من جماعتنا ليحقق لنا تواريخ رتب بعض المدعوين من المصريين . فان تقديم واحد على آخر في المائدة أو تأخير من حقه التقدم على جاره مما يشتد فيه الاعتراض على صاحب الدعوة . ما أسخف الحكومات التي تشغل وقتها ووقت الناس بالفضول .

من الاسباب التي تزيد عيوب المجتمع أن الناس لا يصدق بعضهم بعضاً فيما يرون في أنفسهم من نقص وتقصير . ولو أن كل امرىء يرسل نقده على ما يرى في صاحبه من شذوذ لكان يرجى أن تسير المجتمعات نحو الكمال .

لا تغرنك ابتسامة امرأة ليست لك معها علاقة شرعية ، انها تحاول أن تنزع منك ثوباً طريفاً أو حلياً جميلا أو مبلغاً من المال .

من يزعم ان النساء لا يختلفن عن الرجال بعقولهن واستعدادهن لكل ما استعد له الرجل لا يرمي بقوله الا الى خداعهن خداعاً ظاهراً ومجاملتهن مجاملة باردة . ومن الغريب ان مداجاة المداجين تجوز على اللائي يفرض فيهن الذكاء من بنات حواء .

النساء اقرب الى العفة من الرجال ، والنساء اشد مكراً من الرجال .

المال الذي يدرُّ من النفط على صاحب نجد والحجاز عامل قويّ لاخراج بلده من البداوة . قالوا انه انشأ له في الرياض قصراً عظيماً ذا عدة طبقات يصعد الى الطابق العلوي منه بالسيارة ، وما كان يجري في خيال ابن نجد أن تبلغ دياره من البذخ هذا المبلغ لولا وفرة المال في خزانة دولته .

لا تطرح أفكارك على من لا يرجى انتفاعهم منها ويحتقرونها في باطنهم ، الأفكار كالجواهر صُنها عن القائها في معالف الخنازير .

ليست السعادة بكثرة المال يجمعه جامعه في صندوق أو يوظفه في شركة أو في مصرف أو يبتاع به أرضاً أو عقاراً . قد يكون عامل يعيش بالمياومة أسعد من غني يملك عشرات الألوف من الدنانير أو مئات من الأفدنة وعشرات من العمارات ، وما الأغنياء — الذين حرصوا الحرص كله على تنمية ثرواتهم وما انتفعوا منها في حياتهم بأكثر من انتفاع المقل المعدم — سوى وكلاء أمناء لورثتهم . واني لأفضل والداً يخلف بضعة أولاد متعلمين على والد يورث كل ولد من اولاده ثروة تكفيه ليعيش مرفهاً ، ويتركهم جهلاء لا يحسنون شيئاً من امور الدنيا .

علم لا ينفع

ذكرت احدى المجلات الغربية خلال كلامها على تنقل ملايين من السكان في ديار الغرب مدة الحرب الأخيرة أن ثقافة المثقفين كانت مصيبة عظيمة عليهم فان معظم الممالك التي أهلت بالقادمين عليها كانت تقدر أن عندها حاجتها من الاطباء والاساتذة ورجال القانون والمفننين والمهندسين ، فاضطر بعض رجال المحاماة والطب من أبناء بولونيا وغيرها يوم قصدوا للهجرة الى كندا أن ينزعوا ثوب ثقافتهم العلمية يكتسوا ثياب حطابين حتى يدخلوا كندا لأن حكومتها تؤثر شخوص الحطابين الى بلادها لاستثمار ما عندها من غابات على أن يقصدها العلماء . الشرق الأدنى يشكو قلة هذا الصنف من النابهين وكندا شبعت من هذه الطبقة وترغب في مساكنة الحطابين !

واجب المؤرخ

سألت كاتبة افرنسية السيد كونزاك دي رينولد أستاذ التاريخ في جامعة فريبورغ السويسرية رأيه في الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ فأجابها أرى أنه يصعب تحديد هذه الصفات واني لموقن أن التعليم الجامعي وحده لا يكفي فالتاريخ مثل كثير من العلوم يدخل عليه بالوثائق والاخصائيين ، بالأمس كانت الأشجار تحول دون رؤية الغابة واليوم يحول دونها العوسج والبلان . وكان المؤرخون من عهد شيشرون الى ميشله وسان توما داكين يعتقدون أن للتاريخ غاية وهي تعليم الناس ليعيشوا في المجتمع . وقال سان توما داكين : تتألف الحكمة السياسية من تجارب الماضي

ومعرفة الحاضر حتى يهيأ المستقبل أحسن تهيئة . وأرانا اليوم ونحن نهتم بما ولما وسط الخرائب والأنقاض التي نطمح الى الوصول الى أن نجدد بها البناء وكل دور تعمير يجب أن يسايره دور تركيب . ومن ينكرون التاريخ هم في حاجة اليه . واني لآسف أن يرجع بوم وضع المعاهدات وتصحيح الحدود الى الاخصائيين في الاقتصاد والى علماء القانون وننسى استشارة المؤرخين . يعظم عدد من يجهلون الماضي من السياسيين المحترفين ، وفي وسعنا الآن أن ننظم قائمة جميلة بالأغلاط التي ارتكبت بين الحربين الأخيرتين ، فالسياسيون لا يحبون التاريخ ويضيقون به ذرعاً وهو يؤلمهم . قالت الكاتبة فقلت له : ولعل هذا الجهل آت من أن معرفة التاريخ تتطلب جهداً كثيراً . قال : نعم وقد لاحظت في رحلة لي الى أميركا الجنوبية أن ممالك فتية فيها تشكو من أنها لا تعرف الى أين تسير وذلك لأنها تجهل من أين أتت .

هذا رأي كبير من المؤرخين في أرقى أمة غربية ، وما نخال أن من يدعون خدمة التاريخ في أرضنا قد أعدوا العدد اللازمة لتبريزهم في صناعتهم . ونقل كلام من سبق المؤلف دون العناية بتسلسل الحوادث وربطها برباط محكم واستخراج الدرس النافع منها ليس من التاريخ الصحيح في شيء .

المصطلحات الجديدة

اصطلحوا في الغرب منذ أمد غير بعيد أن يكتفوا في بعض الأسماء المطولة بأوائل الحروف حباً بالاختصار . وكانت هذه الأسماء قليلة بادىء بدء يمكن القاريء العادي حفظها فزادت زيادة عظيمة حتى مست الحاجة الى وضع معجم مطول لها يرجع اليه القاريء فيما يشكل عليه . ومن المبهات التي تعوق سير المطالع في اللغات الافرنجية أنك تجد في بعض العبارات ألفاظاً وأحياناً مقاطع وسطوراً من لغة غير اللغة التي يكتب فيها الكاتب وذلك من دون أن يضع الى جانبها ترجمتها كأن الكاتب يذهب الى أن كل مطالع يفرض فيه أنه يفهم هذه المفردات كما يفهم مفردات لغته . وأن مطالع صحيفة افرنسية لا بد أن يعرف اللاتينية واليونانية بل الانكليزية والالمانية وغيرها من لغات الغرب .

وسرت هذه البدعة الى اللغة العربية فان التراجمة المحدثين في الصحف اليومية وغيرها اذا لم يهتدوا الى لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الافرنجي يقتصرون على وضع اللفظة الافرنجية برمتها اعتقاداً منهم أن القاريء لا تفوته وهو اذا لم يفهمها حق فهمها تهديه القرينة الى فهمها .

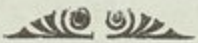

تقاييم

قال لي صديق : كان في بلدتنا معمر صمّت أذنه في صباه فلا يتكلم الا باللهجة التي سمعها في أيامه الأولى ، فكنا اذا أردنا استماع لهجتنا القديمة قبل سبعين أو ثمانين سنة نزوره ونتحدث اليه فنسمع غرائب . وتصدق حال هذا الاطروش على من يحكمون اليوم بعقلية القرون الماضية ولا يخرجون عما اعتقدوه وهم اطفال ويصمون آذانهم عن سماع الجديد .

ومن الامثلة الظاهرة في هذا الباب رؤساء بعض الفرق الاسلامية الذين خالفوا أهل السنة والجماعة .

كان من عادة بعض من يُعنون بالآداب في الدهر السالف أن يدعوا قول الشعر وهم لا يحسنون إلا أوزانه وقوافيه ، ليقال عنهم انهم شعراء ، وكان لبعض الفقهاء والمحدثين ولع في وضع تفاسير للكتاب العزيز ليقال عنهم انهم من المفسرين أيضاً . وبعض السخفاء في مصر اليوم يدعون الفلسفة وهم ليسوا منها في العير ولا في النفير .

امتنع جهدي عن مقابلة مراسلي الصحف فى كل بلدٍ أنزله ، وابتعد عن فتح أحاديث معهم مهما كان لونها ، وذلك لأن منهم من اعتاد أن يسمع شيئاً ويضيف اليه أشياء . وما عمدت الى هذه السياسة التي قد تكلفني غضبهم الا بعد أن تكرر رجائي اليهم أن يطلعوني على ماينقلون عني قبل طبعه ، وقلما أجابوا لي طلباً . وآخر ما حدث أن أرادني أحدهم على أن أصرح له برأيي في كتاب المعاصرين ، فقلت له ماعرفت عن بعضهم من حاضر البديهة ، وكان الحديث من أحاديث المباسطة لايقصد منه النشر ، فما راعني الا والحديث يصدر في الجريدة مضافاً اليه ما لم أقله ، وعزا الي كاتب الحديث كلاماً عن كتاب آخرين ،

لم أعرفهم ولم أقرأ لهم شيئاً ، ووضع من شخصيات عرفتهم فأكبرتهم وكانوا من أصدقائي المخلصين ، وكنت وما زلت من أول المعجبين بما ألفوا ونشروا .

تغلب المعارضون في الانتخابات الأخيرة في تركيا وتناولوا زمام الحكم بعد أن تمتع به الكماليون أزيد من عشرين عاماً . وكان حكمهم حكماً نيابياً بالاسم واستبدادياً طاغياً بالفعل . قالوا وكان السبب في سقوط الحكومة الماضية تفشي الرشوة تفشياً عظيماً ، واتجار رجال الحكم بما لايحل لهم الاتجار به من أصناف المأكولات والملبوسات وغيرها . أما الرشوه في تركيا فلم تبطل منذ أقدم عصورها ، وزادت في عهد الجمهورية بسبب الاقتصاد من رواتب المستخدمين وصرف معظم الموازنة في التسليح .

أخذت المحاكم الشرعية تشدد في زواج الشيوخ والكهول من الفتيات ، كما تحظر الجمع بين زوجتين الا لضرورة ماسة ، وبهذا التضييق بات يرجى دخول النظام في البيوت الاسلامية .

كان المسلمون في معظم الحروب بين دول الشرق الاسلامي ودول الغرب النصراني يبدأون أعداءهم بالحرب ، وفي الحروب الصليبية كانت الدول النصرانية هي البادئة وكذلك في حروب الاستعمار .

نشأت الدعوة الى الاسلام دينية محضة ثم ظهر مع الأيام ان من الصعب انتشاره ان لم تدعم الدعوة الدينية بالدعوة السياسية ، والدين أبداً يحتاج الى الدنيا .

قد يكون لموقع البلد مدخل كبير في سعادة أهله وشقائه . تجاذبت روسيا وألمانيا كلاً من رومانيا وايران للاستئثار بآبار النفط فشقيت

رومانيا وايران . آبار النفط أغنت دولتي العراق والمملكة السعودية وآبار النفط حملت الشقاء لرومانيا وايران فصاحب النفط في هذا العصر يسعد ويشقى .

نصح أحد كبار الأميركان لصاحب الحجاز ونجد أن لا يمنح امتيازاً لأجنبي في مملكته ، حتى لا يكون ذلك سبباً في دخول الاستعمار اليها . وأنا أذيل على هذه النصيحة : اذا كنا لا نحسن استثمار خيرات أرضنا بأيدينا ونمتنع من اعطاء الأجانب الحق في اعانتنا على استخراج ما لدينا من ثروة طبيعية ، فمتى يقدر لنا أن ننهض وأكثر ملوك العرب يصمون آذانهم عن سماع دعوة الاصلاح ويحولون دون وصول النور الى العقول حتى لايطالب رعاياهم بحقوقهم اذا تعلموا واستنارت عقولهم .

دخل فقيه تقي على أحد الرؤساء فاستخف به وتجهم له ، وبعد دقائق وافاه أحد الرعاع فوقف الرئيس له وقفة اجلال وتقدم خطوات الى الامام لتلقيه ، وبش في وجهه وصافحه وسأله عن حاله وحال عياله ، فما وسع ذاك العالم المسكين الا أن تسلل من المجلس مكسور القلب . دليل ناصع على حسن سياسة الرئيس ومتانة دينه !

كان من عادة أحد كبار الرؤساء ان يعامل أرقى طبقة من الأمة معاملة كبرياء وترفع ، كأن يقوم لهم بتكلف ، ويعبس في وجوههم عند دخولهم وخروجهم ، ولا يتزحزح خطوة عن مقعده ، أو يستقبلهم واقفاً على قدميه حتى لايجلسوا بحضرته ، حاسباً نفسه هامان على عرشه ، أو ملكاً جباراً من ملوك الأزمان الماضية ، وهو الى ذلك لايدخر وسعاً في رفع شأن الطبقات الوضيعة ، يحسن لقاءها ولو أتته مرات في الليل والنهار حتى لاتشعر في حضرته بشيء من الوحشة ، ويقع في نفوسها أن شأنها عظيم اذ كان صاحب الأمر يعاملها هذه المعاملة .

واحد ممن يظهر هذا الأخرق احتقاره أنفع للدولة من ألف عامل يصطنعه .

ابتهج المسلمون في السنين الأخيرة بنزع اندنوسيا يدها من حكم هولاندة وامتاع سبعين مليون مسلم من أهلها بحريتهم . وباستقلال الباكستان والهندستان وفيها مئة وأربعون مليون مسلم ، واحراز طرابلس وبرقة استقلالها وفيهما مليون وربع مليون مسلم .

اعترفت بريطانيا العظمى بحكومة الصين الشيوعية مع كراهتها هذا المذهب كراهة عظيمة ، والسياسة تتبدل تبعاً للقوة والضعف ، والغربيون عامة لا يعترفون بغير القوي .

تنتشر الدعوة الشيوعية في العالم اليوم بعد اليوم وتتسرب الى الشعوب الشرقية والغربية حتى هددت كيان الديمقراطيات ، وقد قبلت الدعوة الشيوعية حتى كتابة هذا ثمانمائة وثلاثون مليوناً ، أي نحو ثلث سكان الارض ولا يمضي زمن طويل حتى ينتهي هذا الصراع بين الدعوتين الشيوعية والديمقراطية . ومن المتعذر التنبوء لمن تكون الغلبة والقطع بما تصير اليه حالة الممالك يومئذ .

العلم الحر أعدى أعداء المستعمرين ، يحظرون ورورد مناهله على من يستعمرونهم بكل حيلة ، واذا رضي هؤلاء أن يتعلموا على الطريقة التي يعينها لهم صاحب المستعمرة وبلغته وأسلوبه يجدون منه كل تسهيل ومعاونه .

من يعاشون كل صاحب سلطة على هواه هم أضر على أمتهم من كل مستبد طاغ وذلك أن تصمهم بأعداء الداخل والعدو الداخلي أشد ضرراً من أكثر الاعداد .

رئيس يحمي الرعاع ويسرف بالمال حتى يدخل العجز العظيم على موازنة الدولة أضر على أمته من بعض أعدائها الذين يستعدون للهجوم عليها في عقر دارها .

من كان على جانب من الذكاء متعاً بصحته وقوته لا بد له من الدخول في الجهاد الوطني والاشتراك في أمور هو في غنى عنها بحسب الظاهر .

معظم من سمعتهم يخطبون في الملأ كانوا أقرب الى الركاكة والفهاهة ولطالما اشمأزت نفسي من كلام المرتجلين منهم وعتبت على أرباب المدارك لتقصيرهم في ارشاد من يندسون في جماعة هم غرباء عنهم . الخطابة كالشعر والموسيقى والتصوير لا تفعل في النفوس ان لم يرزق صاحبها استعداداً فطرياً يكمله الدرس والاشتغال .

يفلح على الأغلب من يستمع لما يقوله فيه أعداؤه أكثر ممن يغتر بما يقوله له أصدقاؤه . نقد المخالفين أنفع من ثناء الموافقين .

كان نصارى الغرب منذ الحروب الصليبية أمهر في أخذ أخبار المسلمين من المسلمين أنفسهم في أرضهم . ثبت ذلك في مواطن ألمع اليها ثقات مؤرخينا ، وتسلسلت هذه الميزة في الغربيين الى يومنا ، وهم أحذق الأمم بالتقاط الأخبار على وجه سريع محكم .

مجالس النبلاء

سأل ضابط كبير من ضباط الاستخبارات الانكليزية خلال الحرب الاخيرة صاحباً لي عما يدور في مجلسي كل ثلاثاء من الأحاديث وممن يتكوّن الجماعة ، فأجابه : يختلف الى هذا المجلس أناس من معظم طبقات أهل دمشق والطارئين عليها . فترى فيه العلماء المدنيين والدينيين والأدباء والمفننين ورجال السياسة والادارة وفيه شبان وكهول وشيوخ وتجار وزراع وأرباب صناعات ومن جميع الأحزاب والمذاهب ، وقد يلتقي فيه أهل المدن بأهل الريف ، وسكان البر بأمراء البادية . وأحاديث المجلس منوعة تنوع منازع المختلفين اليه . وفي المجلس جد كثير وهزل ليس بقليل . وقد يناقش الشاب الناشيء وزيراً أو عالماً ، وذلك بأدب ولباقة ، وفائدة كل واحد في هذا الاجتماع بقدر قريحته وعلمه ، واذا جرّ الحديث الى السياسة الحاضرة قد يحوّل صاحب البيت الحديث الى المباسطة والتندر ويبعده عن الخوض فيما لا يجب أن ينقل عن مجلسه .

وسأله هل يحب صاحبك فارس الخوري قال نعم هو صديقه القديم وعضو معه في المجمع العلمي العربي . قال : فلماذا لا يجتمعان كثيراً ؟ قال : لأن لكل منهما جماعة لا يفارقهم . قال ولماذا لا يعود الاستاذ الى الاشتغال بالسياسة ؟ فقال : انه سئل هذا السؤال عدة مرات فكان يقول اني عند نفسي قد قمت بواجبي ووفيت ما عليّ من دين فأحب أن يعمل غيري واجبه ويوفي دينه . ثم قال له انه يشتغل بالتأليف ووقته يصرفه في هذا . فقال له الضابط : أعرف ذلك . ثم ختم السائل هذه الأسئلة بقوله : وهل يحبنا الأستاذ ؟ أي يحب الانكليز فأجابه : سمعته مرة يقول الاستعمار بلاء فان كان لا بد من الوقوع فيه فالأفضل أن تكون انكلترا لأن استعمارها أقل ضرراً من استعمار غيرها .

هذا ما رواه لي الصاحب الأديب ، وكانت أجوبته مسددة كأني أنا أمليتها عليه وليست ابنة البديهة . وفي الحق ان مجالس الثلاثاء في داري كانت تجمع أرباب المنازع المتباينة ، وما كان المجتمعون يتبرمون منها ولو طالت الجلسة ، وكانت تبتديء في الساعة الثالثة بعد الظهر وتنتهي في الثامنة وقد تمتد الى التاسعة . ومن أدب الحضور أنه ما كان واحد منهم يستأثر وحده بالحديث ، بل كان لكل جليس حصته من الكلام وحصته من الاستماع لأصحابه ، يتمتع كل واحد بحريته ولا يعتدي على حرية صاحبه ، وربما ذهب بعض من لا عهد لهم بالاجتماع في هذا المجلس الى أن الأمر مدبر على هذا النظام ، وما كان هناك الا القانون الطبيعي في المجالس ، والأدب الذي يعرف في العادة عن المثقفين .

وكنت أصون النديّ عن حضور الجواسيس فيه فاذا جرأ أحدهم وجاء يكثر سواد الجماعة أفهمه بلطف أن أصحابي يشمئزون من الاجتماع الى من لم يسبق لهم أن يعرفوه ، وأنا كما قلت مرة أعرف الجواسيس من أسئلتهم وكلامهم والنظر اليهم . وأشم رائحة الجاسوس الكريهة من بعيد فألقيه في حبالة تقطعه عن غشيان مجلسي ، واذا عاد الى ما نهي عنه وهذا مما يندر وحضر جلسة من الجلسات وهذا في الأزمات السياسية خاصة ، أبادر لاقفال الباب أياماً وأحياناً أسابيع خوفاً على بعض أصحابي ممن لا يوقفهم شيء عن ابداء آرائهم بصراحة حتى لا تجلب عليهم صراحتهم ضرراً ، ومتى انجلت الغمرة نعود الى ما كنا فيه . والسياسة أحلى حديث الى القوم وخصوصاً أيام تبدل الدول والحكومات ، وما أكثر ما شهدناه منها . وكنا اذا أفضنا في السياسة نمزجها بأفاويه من الطرائف الادبية والأقاصيص المسلية القيها أنا أو أرجو أحد شبابنا وكهولنا أن يتحفونا بما عندهم يروّحون بها عن نفوس الاخوان المجتمعين .

وبعد سنين عزمت على سكنى القرية فتقطعت مواعيد الاجتماع بالاخوان وتشتت عمار النادي الا اذا اجتمعنا على ميعاد وهذا ما أفضله ، لأن الوقت لا يتسع لكل اجتماع ، وحرام على العمر أن يضيع فيما لا طائل وراءه وأنا أرى الاقتصاد فيه .

وزارة تسلية

ألفت في قريتي وزارة رباعية للتسلية ، دامت توالي جلساتها الليلية نحو خمس عشرة مرة في كل شهر على الأغلب ومدة تقرب من عشر سنين . وقلت مرة لبعض أحبابي من رؤساء الوزارات في دمشق ان وزارتي في خسرين ثابتة بما لا يرجى لوزارتكم وها هي لم يطرأ عليها طارىء منذ تألفت ، ووزارتكم لا تعمر طويلا ، وقد لا تدوم زيادة على بضعة أشهر ، فكانوا يضحكون ويقولون الغالب أن ليس عندكم مجلس نواب حتى يسقطها كلما بدا له ، فأجيب : اللهم نعم .

وزارة جسرين متواضعة ليس فيها مرتبات للوزراء ولا سيارات لركوبهم يجتمعون من بعد العشاء في سكون الليل يبحثون فيما يهمهم ويسليهم وينفعهم وقد يقرأون في كتاب أو صحيفة هنيهة ويعلقون على الاخبار التي يقرأونها . ثم عرض لهؤلاء المتآلفين ما فض جمعهم . فأقيل اثنان واستقال ثالث فانحلت الوزارة بطبيعتها ، ولم أر أن أعيد تأليفها لقلة من يصلح للوزارة التي أريدها .

زارني في القرية الرئيس الجليل السيد هاشم الاتاسي ومعه نجله الاستاذ عدنان الاتاسي وكان وزيراً للأشغال العامة والعدل فقال ابني طريف لأحد الفلاحين : أين وزير المالية (الاستاذ طاهر زكريا) فالتفت السيد عدنان ليرى زميله ، ولما علم أن الوزارة وزارة القرية ضحك وضحك كل من كان هناك من المدنيين والقرويين .

سخافة دولة

ارتكبت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني ضروباً من السخافات لاتصدر الا عن مجنون او أبله فمنها أنه كان يحظر على الصحف والكتب والمنشورات وكل مايكتب ويقال ان تذكر الفاظاً بعينها ، ومن جرأ وحدثته نفسه أن يستعملها كان جزاؤه عظيماً . ذلك لأن هذه الالفاظ تشوش أذهان الرعية وتذكرهم أموراً مضرة لاينبغي سماعها ! مثل كلمة « الدستور » « الثورة » « القانون الاساسي » « الاستبداد » « مجلس النواب » « مجلس الشيوخ » « الاستقلال » « اللامركزية او الحكم الذاتي » « الخلع » « التخلي عن العرش » « الحرية » الخ .

وما كان الرعايا في ذاك العهد احراراً حتى في تسمية أولادهم ، فيحظر عليهم اطلاق اسم « عبد الحميد » و « مراد » و « سلطان » على أبنائهم ومن سماه أهله حتى قبل ذاك العهد باسم من هذه الأسماء تحتم عليهم قلبه الى « حميد او حمدي او حامد والى مرآة . ذلك لأن السلطان عبد الحميد واحد ليس له شريك بملكه ولا باسمه . ومراد اخو السلطان عبد الحميد هذا لا يحب أن يسمع اسمه لأنه اتهم بالجنون وخلع ، والسلطان هو السلطان العثماني فقط . وليس بعد ذلك قلة عقل .

العلامة جار الله

تشرفت في القاهرة منذ سنين بالتعارف الى العالم القازاني العظيم شيخ اسلام روسيا موسى جار الله . وكنت أعجب بالقليل الذي طالعته من تآليفه ورسائله ومقالاته ، ولما أخرج كتابه الوشيعة في الشيعة رأيت فيه الامام الذي انعقد الاجماع على جلالة علمه وشدة غيرته على النهوض بالمسلمين في المشارق والمغارب . طوف الامام جار الله في الأقطار وجاء اليابان والهند وروسيا الاسلامية وافغان وايران وتركيا ومصر والحجاز والشام وغيرها ، وأخذ العلم عن الشيوخ الذين تفردوا بعلوم كان يشتهي التعمق فيها والتلقي عن ائمتها . وقد اضطهدته روسيا وانكلترا واعتقلتاه زمان الحرب العالمية الثانية ، سجنته روسيا لأنه لم يقل فيما قيل بالتعاليم الشيوعية ، ولم يقر حكومتها على اغلاق مساجد المسلمين ومدارسهم وتشتيت علمائهم . ولم نعرف وجهاً لاعتقال انكلترا له في الهند .

صورة من أجمل صور العلماء العاملين الذين خلقوا ليصرفوا حياتهم في خدمة الدين والأخلاق وهو من الأفراد الذين لايحسن بهم الدهر على العالم الا في العصر بعد العصر وحياتهم من اولها الى آخرها حافلة بالخير والنفع .

وافاه اجله في مصر في ملجأ ام المحسنين وفي رعاية الأميرة خديجة عباس حليم فاشتد نعيه على المسلمين . اجزل الله ثوابه وهدى بعض علمائنا الى اقتفاء خطاه .

الغالب والمغلوب

قال كيزو وما زال سكان فرنسا منذ زهاء ثلاثة عشر قرناً بين غالب ومغلوب وما فتيء الشعب المغلوب يجاهد ليخلع طاعة الشعب الغالب وما تاريخنا الا تاريخ هذا الجهاد . وقول هذا المؤرخ يصدق علينا معشر العرب الى حد عظيم ، فانا مابرحنا كذلك بين غالب ومغلوب ، والمغلوب يحاول نزع ربقة غالبه . وما ظلم الغالب ان أنصفنا بأفظع من ظلم المغلوب وان كان كلاهما حقيقاً بالملامة يتقاسمانها مناصفة . ذلك أن الغالب لايقول للمغلوب : أقتل أخاك في أصغر الاشياء ، ولا يأمره أن يكذب ويسرق ويفجر . ولو كان المغلوب صالحاً في الجملة مانشبت فيه مخالب الغالب حتى لتوجعه وتدميه . ثم ان ظلم الغالب ظاهر للعيان لأنه يعمل جهرة ، وأعمال المغلوب يخفيها الاسرار . الاول اذا اشتد استبداده ينادى عليه بالويل والثبور والثاني قلما ينعي عليه ظلمه الشنيع ويرثي له وترق القلوب عليه وقد تقام له الأعذار اذا خالف القوانين والانظمة والمغلوب في معظم الاحوال اعظم جناية وهو اكثر سواداً وأوفر مالاً ولن ينحل الخلاف بين الغالب والمغلوب الا بنزول كلا الفريقين عن بعض سلطانه ، ولو حسنت أخلاق المغلوب ما وجد غالبه سبيلا الى ظلمه ، ولسارت الامور على نظام من العدل أحسن مما هي الآن .

ومعنى هذا ان الغالب هو الحاكم والمغلوب هو المحكوم عليه وان الحاكم يستمد قوته من المحكوم عليه وهو سيده وعبده في آن واحد ، لا غنية للأول عن الاستمداد من الثاني ولا للثاني عن الاعتصام بالاول . وكل أمة تعادلت فيها قوى الغالب والمغلوب تغزر سعادتها ويقل شقاؤها واذا اتسعت شقة التباين بينهما يبغض الثاني الاول بسبب وبلا سبب ولايستفيد كل من صاحبه الفائدة المطلوبة .

أعظم اللغات انتشاراً

في نشرة الأنباء الاسبانية أن اللغة الصينية أعظم اللغات انتشاراً ويتكلم بها ٤٥٠ مليوناً ويتكلم بالانكليزية ٢٢٥ مليوناً وبالاسبانية ١٣٣ مليوناً وبالروسية ١٠٠ مليون وبالالمانية ١٠٠ مليون وبالبنغالية ٩٠ مليوناً وباليابانية ٨٠ مليوناً وبالفرنسية ٦٥ وبالبرتقالية ٦٠ .

ولم يذكر في هذا الاحصاء عدد من يتكلمون بالعربية وهم لا يقلون عن ٧٠ مليوناً عدا من يعرفها من أهل الاسلام في آسيا وافريقية وهم لا يقلون عن مئتين وخمسين مليوناً ، يعرف خاصتها العربية وبها يتفاهمون مع اهل اللغات المختلفة ، وبها يلقنون قومهم علوم الاسلام ، وبها يقيمون شعائره . وبالعربية نزل القرآن وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي يقرأ بلغته الأصلية ولم يكتب ذلك للغة من لغات الارض وهي الف وخمسمائة لغة

سكان الأرض

ألقى السير جون رسل رئيس اتحاد تقدم العلم البريطاني محاضرة قال فيها : انه يدخل العالم في كل ثلاث ثوان مولودان جديدان وهذه النسبة ستزداد حتماً كلما تقدم العلم الذي ساعد في المئة السنة الاخيرة على زيادة أعمار الناس . فأخذ عدد سكان العالم يزداد عشرين مليوناً كل عام ، وهذه نسبة لم تعرف من قبل . ثم ذكر صلة السكان بتنظيم مواد الغذاء على نطاق دولي ، فأشار الى أن المساحة التي تمكن زراعتها في العالم لانتاج مواد الغذاء تقدر بـ ١١ الف مليون فدان وأن الارض المستعملة منها تختلف بين ثلاثة وأربعة آلاف الف مليون فدان ، ينال

كل انسان في العالم حوالي الفدان ونصف . ولو وزعت كل المساحة الصالحة من الارض للزراعة لنال كل فرد خمسة افدنه . ولذلك رأى المحاضر الاستكثار من مواد الغذاء عن طريق زيادة العمل . ثم تساءل عما اذا كان في الامكان الاستفادة من الارضين التي لم تزرع بعد فقال : يتوقف هذا على تقدم العلم في وسائل تسميد الارض ويتأتى الحصول على الاسمدة بمقادير غير محدودة ، وان ادخال الآلة على الزراعة يزداد زيادة عظيمة وفي وسع المزارع الحديث بالاساليب العلمية تموين حوالي ٢٠ شخصاً على حين لم يكن يموّن بالطرق القديمة أكثر من أربعة أو خمسة أشخاص ، فان احتجنا الى مواد للغذاء أكثر مما ننتج فالواجب أن نتوسع في العمل . وعلى هذا نقض هذا العالم المعاصر ما ادعاه في القرن الماضي وطنيه العالم مالتوس يوم قال ان العالم بعد مدة لا ينتج ما يعيش به سكان الارض فالاولى تخفيف النسل . وقد زيفنا رأيه فيما تقدم من هذه المذكرات (ص ٧٢٥ الجزء الثالث) .

صناع المدنية

رب رجل أفاد المدنية وأخلص في خدمتها وما اشتهر الشهرة التي تليق بما تم على يديه ومنهم صديقان لي من أرباب المطابع في دمشق الاستاذان السيد سعدي العمري والسيد صالح الحيلاني فقد طبعا منذ نحو خمسين سنة مئات من الكتب والمجلات والجرائد وتوليا طبع جريدتي ومجلتي وكتبي ثم مطبوعات المجمع العلمي العربي ومجلته . وشهدتهما خلال هذه السنين الطويلة ولم يأخذ من قلبهما الا حب الطباعة والتفنن في اخراج مطبوعات متقنة ملتزمين السكوت لا يعلنان عن بضاعتهما ولا يتبجحان بما يجوّدان .

عرف هذان العاملان بالنباهة في خدمة الآداب واتقان ما اختصا به من الامانة والصدق والاتقان ، وما هدتهما اليه الفطرة من التفنن وما خصتهما به من ذوق غير قليل .

تقسيم سورية

أشرت الى مبلغ ألمي من تقسيم الديار الشامية الى سبع دول بعد الحرب العالمية الأولى وكان في تقسيمها خسارة وأي خسارة ، واغتبطت لما عادت دولة العلويين ودولة جبل الدروز الى سورية الأم ، وأسفت أن ظل لواء الاسكندرونة منفصلاً عنها مضموماً الى تركيا أهدتها اياه انكلترا وفرنسا دون أن تسألنا رأينا في ذلك . وأي رأي كان لنا يومئذ ونحن تحت كابوس الانتداب . ثم أصبح العامر من فلسطين دولة اسرائيل اليهودية وضم قسم ضئيل من الداخل أي من داخل فلسطين الى شرقي الأردن .

وما زلنا نشهد الاختلاف بين المتجاورين حتى لنظنّ احداهن أن أرض جارتها هي أرض عدوتها ، ويكون الاختلاف في الاكثر على أمور يمكن تسويتها بالاقناع ، واذا وقع خلاف بين بعض الدول العربية فتكون احدى الدول الغربية هي النافخة في ضرامه على الاكثر . ويؤلمني مايحدث الحين بعد الآخر وأنعي على تلك الدول اقدامها على تقسيمنا تقسيماً لا يدخل في منطق سديد ثم تجويزها القاء الشغب بين حكومات هي في جوهرها من أصل واحد .

وبقيت سورية مع هذا التقسيم الجائر أوسع الاجزاء المقسمة رقعة ، فيها الساحل والداخل وفيها مرافق ومناجم ، وفيها موارد عظيمة من زراعتها وصناعتها وهي ما برحت تشكو نزع بعض أعضائها منها كأقضية حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك وغيرها ، ولا يبعد أن يأتي زمن تتحد فيه سورية بأجمعها وتصبح كتلة واحدة مع جاراتها وهذا يتحقق يوم يدرك الساسة في لبنان مصلحتهم الحقيقية . إذ من المضحك أن تعيش الدول الصغرى برأسها بعد الآن .

أما الكتلة اليهودية الجديدة ونفوسها تزيد سنة عن سنة زيادة مطردة ممن يهاجر إليها من متشردي اليهود ومن ينزح اليها من الشرق والغرب فانها الجرح النغار الذي لا يندمل ، والله نسأل أن يقي شرها سورية خاصة وأرض العرب عامة .

الدعوة الصهيونية

روى الثقات أن مملكة اسرائيل وضعت في موازنتها عن السنة الجديدة ستين مليون جنيه استرليني تنفقها في الدعاية وانها كلما صدر كتاب يعطف على العرب ويقول الحق في مسألة فلسطين ويظهر حقائق الصهيونيين يبتاعون نسخه ويحرقونها على نحو ما فعلوا بكتاب « فلسطين اليوم » لأحد علماء المشرقيات البريطانيين ، وكما كان منهم بكتاب أصدرته الجمعية المسيحية الانكليزية فاشتروا المطبوع منه كله بستة ملايين دولار وجعلوه طعاماً للنار . ولا بد أن يسأل من يقرأ هذا كم تنفق دول الجامعة العربية على مثل هذا الشأن يا ترى وسياسة العصر تقوم على الدعاية ؟ . ولعل دول العرب تعتقد أن مجرد كتابة مقالة في الصهيونية تنشر في صحيفة عربية كافٍ في اتقاء غارات الدعايات وصد تيار الصهيونية الجارف .

يعمل الصهيونيون بعقلية غربية ودول الجامعة العربية لم تبرح تعمل بعقلية شرقية قديمة .

دعايتنا ودعاية غيرنا

كانت النصرانية منذ ظهورها ابنة الدعاية المنظمة ، وانتشر الاسلام بالمصادفة وعمت كلمته في أواسط افريقية وجزائر اندنوسيا والصين وذلك على أيدي جماعات من التجار اتخذوا لهداية المشركين والوثنيين طرقاً لا تعقيد فيها ، وساروا في دعايتهم لدينهم على ما يقبله العقل فانتحله عشرات الملايين من هذه الشعوب الشرقية .

وكان من تساهل المسلمين مع دعاة النصرانية أن تسلل هؤلاء الى صميم بلاد الاسلام ، والاسلام في معظم قوته يناقشون المسلمين ويدعونهم الى دينهم . وكانت تصل دعايتهم الى أرقى الطبقات المسلمة والدعاة في حلّ من بث دعايتهم بينهم على ما كان منهم في الاندلس وفي بغداد عاصمة اعظم خلافة اسلامية . ولقد ألقى المسلمون الحبل على الغارب في معظم عصورهم لايقانهم ان دينهم لايحتاج الى من يروج له ، وليس لهم ان يتعبوا انفسهم بدفع قوة المخالفين عنه .

تقوم دعاية الغربي في العادة على المفاداة والبذل والتعليم ، وطريقة المسلم استسلام وتسليم وتوكل وتواكل . بنى الغربي دعايته الدينية والدنيوية على قواعد فيها صبر وحنكة ، وبذلك انتشرت النصرانية في زنوج افريقية وفي الصين واليابان والهند . وبقوة الدعاية وصل الغرب الى ما لم يصل اليه المسلم الشرقي . ومعظم الامور في الغرب من اثر الدعاية يدعمها العلم والمعرفة لا تقف قوة في وجهها ، توفروا قروناً على اتخاذ اسباب نجاحها بتسلسل في الفكر واطراد في العمل . وتاريخ الرهبنات اللاتينية وتاريخ الكنيسة البرتستانتية مثال عجيب من هذا الاقدام وهذا الاخلاص .

لو أحسنا الدعاية وواظبنا عليها كما واظبت أمم الغرب ورجال دينه لكان أهل الاسلام اليوم ثلاثة أضعاف ماهم عليه ولكان صوتهم في سياسة العالم مسموعاً وبأسهم في صراع الحياة مخشياً .

المعذبون في الأرض

قال الاستاذ مصطفى مرعي بك وقد سئل في جملة من سئل رأيه في خطبة العرش (١٩٥٠) : كان الظن أن يُعنى بالمزارعين غير الملاك أو الذين لا يملكون الا القليل من الارض وهؤلاء هم كثرة سكان مصر وهم المعذبون في الارض على حد قول من قال .

كان الظن أن تعنى خطبة العرش بهؤلاء فتتضمن ما يفيد ان الحكومة معنية بهم ، عاملة على تخفيف أعباء الحياة عنهم ، لكن الخطبة خلت حتى من مجرد الاشارة اليهم . وهذا نقص كنت أود ألا يشوب الخطبة لا سيما وان من الحكومات السالفة حكومات عُنيت بهذا الشأن وجعلته مدار بحثها وخلصت من ذلك الى تشريعات عدة منها تشريع توزيع اراضي الدولة على المعدمين من المزارعين ، وتشريع تثبيت الاجارات الزراعية ، وتشريع الحد من الملكية الريفية ، وتشريع منع الاجانب من تملك أرض الزراعة ، وما الى ذلك من التشريعات التي لا مَعْدى عنها لرفع مستوى الحياة في الريف وتخفيف الضائقة التي تحيط بسكانه وهم عصب الدولة ودعامتها ومصدر الخير فيها اه .

هذا ما قاله العظيم المصري واثبت ان حكومته سارت هذه المرة أيضاً على ما ألفته من الغفلة عن مصلحة الفلاح كأنهم يحاولون الرجوع به الى ما قبل حكم سعيد باشا والي مصر وكان الفلاح قبل عهده يعمل في الارض ولا يملكها .

وفي سبيل نشل الفلاح المصري من بؤسه وانقاء عادية الشيوعية كنت عرضت على المراجع العليا في مصر رأيي في توزيع اراضي الدولة على الفلاحين حتى لا يفتح المجال للشيوعية ، فسمعت وعوداً ولم أشهد تحقيقها كلها . وما برحت أعتقد أن توزيع كل ما يصلح للزرع من الارض

في وادي النيل وتطبيق هذه التشريعات المفيدة التي سنتها الحكومات المتعاقبة في الزمن الأخير من أهم ما يدرأ الخطر عنها أو يقلل من شرته وأرى الى ذلك وجوب سن قانون يحظر على الفرد أن يملك أكثر من مئة فدان وأقل من خمسة أفدنة مثلا . وكل ذلك يجب على مصر أن تبادر الى تنفيذه قبل فوات الوقت ، فقد أصبح أتباع الشيوعية ثلث سكان الأرض وثبت أن دعوتها تنتشر في مصر انتشاراً مطرداً أكثر من البلاد العربية الأخرى . وفي كل حين يكشف رجال الأمن في مصر خلية من خلايا الشيوعية . واذا تم تقسيم الأرض فواجب ولاة الأمر منذ الآن ايجاد موارد أخرى للمصريين لتخفيف البؤس والفقر عن السواد الأعظم

عناية المستعربين

ألقيت في دار المعلمين العليا بالقاهرة (يوم ٥ مايو سنة ١٩٢٧) محاضرة في « أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية » عددت فيها ما نشره المستعربون من علماء المشرقيات من الكتب العربية القديمة وأثنيت على همهم في احيائها واتقان تصحيحها والتعليق عليها ووضع فهارس لها ، وتمنيت لو ساهم علماؤنا وأدباؤنا في هذه الخدمة الجليلة لأن الكتب كتبنا ، والمدنية مدنيتنا ، وصاحب البيت أحق بالعطف عليه وعلى من فيه .

فنهض صديقي العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله عند اتمام كلامي يقول ان علماء المشرقيات لا يتوخون من خدمة علومنا الا خدمة أممهم في سياستها ودينها ، ويطعنون في الاسلام والعرب بلا حق ، والتعصب الديني يعميهم . فتبرم بعض الأساتذة الحاضرين بكلام الاستاذ جاويش وعدوه خروجاً على الموضوع ، لأني أثنيت على المستعربين من الغربيين

من حيث أفادوا حضارتنا ، ونحن استفدنا منهم بالعرض . وكان ممن شهد المحاضرة الأستاذ علي الشمسي باشا وزير المعارف يومئذ فقال لصديقي الأستاذ سيد كامل : سامح الله الشيخ جاويش على ملاحظاته على هذه المحاضرة التي تجلى فيها البحث ومبلغ تمكن صاحبها من موضوعه ، وهو لم يتعرض لمدح المستشرقين في السياسة والدين وانما ذكر أفضالهم على لغتنا وحضارتنا بنشر كتب أسلافنا ، أو ما هذا فحواه .

أعجبت وما برحت أعجب بما تم على أيدي علماء المشرقيات في خدمة أدبنا ، مع علمي أن جلّهم يعمل لسياسة لا تنفعنا ، وأن منهم قسيسين ودعاة دين ، وجواسيس يتخذون من الاستشراق آلة للوصول الى مآرب أخرى لهم . وأحب مع هذا ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نطلب ممن لم يتأدبوا أدبنا ، ولم تفعل فيهم أحاسيسنا ، ولا دانوا ديننا ، أن يعتقدوا ما نعتقد ويكتبوا فينا ما نحب . فلكل جنس تفكيره ، ولكل قبيل نزعته ، ولكل جيل غرضه . على ان ذلك لا يمنعنا من الحذر من هؤلاء المستشرقين وخاصة ممن كان لبلادهم غايات سياسية في بلادنا .

الباكستان والهندستان

زارني أوائل الحرب الأخيرة مع صديقي خليل مردم بك مسلم هندي عجوز يحمل وصاة من بعض معارفي في مصر ، وهو يتكلم العربية ويظهر الصلاح والتقوى ، وبعد محاورة قليلة ظهر لي أنه صاحب أفكار متضاربة غير متناسقة ، وشككت فيه وفي مهمته ، خصوصاً لما سألته عن عمله فقال مرة انه يشتغل بالفلسفة ، وأخرى أنه صحافي ، وما ظننته إلا أنه يشتغل لحساب الانكليز . ثم وضع لي ولصاحبي سؤالاً وهو قوله ألا يسركما أن يستقل المسلمون في الهند ؟ فأجبناه بلسان واحد نحب أن تستقل الهند كلها وألا تتجزأ حتى لا يكون المسلمون مطية للمستعمرين ،

فما راقه رأينا وقال انه من المتعذر اجتماع الوثنيين مع المسلمين . ولما قلنا له انه ليست للمسلمين في الهند بقعة خاصة حتى يؤسسوا مملكة على حيالها قال ان استقلالهم غير متعذر ، وستكون المملكة الاسلامية شطرين تفصل بينهما بلاد الهندوكيين . (المسافة بينهما الف ميل فقط)

استقلت الهند منذ أربع سنين وكنت أرجو لو خفف الهنود من تعصبهم حتى يتأتى الجمع بينهم وبين مواطنيهم المسلمين في أرض واحدة وتحت علم واحد . ولو تيسر استقلال الهنـــد من غير تقسيمها لاغتبط كل عاقل ينظر في العواقب بنور البصيرة . وأنا ما جوزت حياتي قسمة أرض ذات مساحة محدودة الى شطرين أو ثلاثة مخافة أن يقل الانتفاع بها كما لو كانت قطعة واحدة ، فكيف أوافق على تقسيم الهند الى حصتين يستحيل أن ترتفع الفتن من بينهما على الدهر ، وما حدث من اختلاف في السنين الأخيرة بين الشعبين العظيمين سبب اهراق دماء كثيرة . ثم ان الهندستان بقي في حكمها أربعون مليوناً من المسلمين فكان يسع مسلمي الباكستان ما وسع اخوانهم في دولة الهند .

الجمهورية عندنا

زرت رئيس الجمهورية الثالث لدى عودتي الى دمشق في بعض السنين أحمل اليه سلام ملك مصر ، وكان قبل سفري عهد اليّ بتقـديم تحياته الى جلالته . فقال لي رئيس ديوانه انني في مصر لا أتعارف الى الجمهورية فقلت له : أوَكتب اليكم مفوضكم بذلك ؟ فأنكر أن يكون كتب . وقلت للرئيس : نعم اني لا أتعـارف الى الجمهورية في شخص مفوضكم السيد جميل مردم بك ، فقد دعاني مرتين في سنتين الى بعض حفـلاته في المفوضية فلم أجبه الى دعوته ، ولم أعتـذر اليه ، لعلمي بأنه يدس

عليّ ويتعمد ايذائي ، ويُظهر لي الود ويبطن خلافه ، فرأيت من الصواب ألا أكثر سواد أصحابه بحضور حفلاته ولا ألاطف من يضمر لي السوء .

وفي السنة التالية هبطت مصر فلقيت صديقي الاستاذ عثمان محرم باشا من عظماء وزراء القطر وأكبر مهندسيه الاعلام ، فقال لي : انه بلغه أن أكثر من نصف أهل سورية لا يقولون بالحكم الجمهوري ، وان هواهم في الحكم الملكي . فقلت له ما معناه : أنت تعرف يا باشا منزلة السوريين من العلم والصنائع والتجارة واننا بلغنا درجة عالية في الحضارة والثقافة حتى كدنا نسامي الراقين من الغربيين ، وتعرف أيضاً أننا ناهضنا أكبر دولة حربية من أجل حريتنا ، فكيف نرضى لأنفسنا - وقد نالنا استقلالنا تاماً غير منقوص - أن نعود فنطلب الانتداب علينا مرة أخرى ونستبدل الانتداب الفرنسي بالانتداب الانكليزي بزعامة ملك قد لا يرضينا حكمه . واني اذا قلت لك أن واحداً في المئة منا يفضل الملكية أكون الى المبالغة ، ويدخل في هذا الواحد من طردوا من خدمة الدولة لسوء أخلاقهم ، أو لأسباب سياسية وحزبية . واذا كان هناك نقص في أدوات الحكم الآن ، فالنقص يكمل بطول الزمن وما مردّ ذلك الا أمور اقتصادية وفنية ، والمال يعوزنا ، والفنيون فينا ليسوا من الكثرة بحيث يسدون الحاجة ، ونحن مع هذا آخذون بالترقي السريع وسنبلغ ما نتمنى . ثم ان بعض الرؤساء هم من أبناء الاعيان ربوا في عهد العثمانيين في مدارس تركية عالية ، وطالبوا بالحرية واضطهدوا وغرّبوا وسجنوا ، وأتى زمن استولوا فيه على أزمة الحكم . الى آخر ماقلت . وعدت الى دمشق وزرت رئيس الجمهورية وقصصت عليه مادار بيني وبين العظيم المصري من حديث ، وما تنازل أن يشكرني على تعارفي في هذه المرة الى الجمهورية .

الأحكام العرفية

ودّ كثير ممن يقدرون المسائل بقيمتها ، لا بأسمائها وظواهرها ، لو دام الحكم العرفي في سورية بضع سنين (أيام البلبلة السياسية) لوضع الامور في نصابها ، ولئلا يفتح مجال لمن يعكرون صفـــاء الخلق باسم الحرية ، ويخلون بالأنظمة ثم يدّعون المحافظة عليها .

لايعرف معنى الحرية من لم يثقف ثقافة حرة ، ومن كان هو وآباؤه وأجداده عبيداً لكل دولة تقوم ولكل قوة تظهر ، لا يرجى أن يفيد قلامة ظفر في انشاء أوضـاع حرة . ولن يصبح الامر على غير هذا مادمنا نتمتع بحسنات الحرية دون أن ندفع ثمنها الغالي كما دفعـه أهل الغرب ، وجدّوا أجيـالاً حتى رسخت في عقولهم وقلوبهم ، ونحن ماذا علينا من الحرية على حين لم نفهم روحها ولا ما نتوقع من نعمتها أن نسمي الفوضى حرية ونستريح الى حكم الافاقين .

الحرية عندنا هي استئثار الكبراء بالمغانم ، وطرح المغارم على عاتق الطبقات النازلة من السواد الاعظم ، وارضاء بعض الأسر بتفضيلهم على غيرهم في الاستخدام ، وترك جمهرة القوم لايعطونهم حقوقاً تعترف لهم بها العادة والعرف . وهيهات أن تنظم حال مملكة لا ينظر لهذه الفئة أنهم أهم جزء فيها .

كانت القوانين في الادوار السالفـة تنقسم الى قسمين ، قسم يطبق على الفقراء وعلى من يتيسر تطبيقـه عليهم من جمهور الشعب ، وقسم يعفى منه أقرباء الحكام وحواشيهم وحواشي حواشيهم ، ومن يقوم في أذهان القائمين بالامر رعايته ، ويرون من الواجب اعفاءه من أحكامه ، ونقص القانون تابع لذمة المشرف على تنفيذه ، والذمة قليلة ويا الأسف في هذه الطبقة من رجال الدولة .

أما في عهد الحكم العرفي ، فالقوانين نافذة على الرعية كافة ، ولذلك يذهب بعضهم الى أن نشر الاحكام العرفية نافع بعد الثورات ليأمن القوم غائلة من يتخذون القوانين سلاحاً يقاتلون به الاحرار .

القانون الصالح هو النافذ على الكبير والصغير ، ولو كان فيه بعض النقص في الظاهر ، وما دام لا ينجو أحد من سلطانه ففيه مقنع لجميع طبقات الشعب ، ولا يحق لأحد أن يفتح فاه بالشكوى وأن يدعي أن هـذا عدل وهـذا ظلم . علينا أبداً أن نعود أنفسنا طاعة القوانين ، نطيعها برضانا واختيارنا لا نتبرم منها ولا نتململ .

(كتب هذا الفصل عقيب الثورة السورية الاولى)

مؤلمات

ما كانت الحروب الصليبية الا لطخة عار سودت تاريخ أوربا . ولا تقلُّ عنها عاراً جميع حروب الاستعمار في القرون الحديثة .

على نسبة انغماس الناس في الماديات يبعدون عن تعاليم الدين ويتناسون فروضه وواجباته ، ولا يكاد يعهد متدين استجمع مقومات الحياة ، ولا صاحب ماديات قام حق القيام بما يأمره به الدين .

كان البشر في الأزمان الغابرة يتقاتلون في ساحات الوغى ، ورعايا المتقاتلين بمأمن من الغارات في مدنهم ودورهم وحقولهم ، وفي هذا العصر أصبح يباح لكل محارب أن يقتل ويدمر ما هان عليه القتل والتدمير في أرض عدوه لا فرق بين المسالم والمحارب .

كيف لا يغتبط العاقل اذا رأى حوله عدد من لا يكذبون ولا

يسرقون أكثر من عدد من يخالفونهم . يوم كان الناس أقرب الى الاعتقاد بالآخرة كان الخير موفوراً في عامة الطبقات .

على كل وطني أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن من المسائل الوطنية ما لا ينحل ان لم يشترك كل وطني بحصته من العناية بها ، ويجود من ماله ووقته ما وسعه الجود ، والا بقي النقص ملازماً كل ناحية من النواحي التي يعوزها الجهد . الثرثرة بدعوى الوطنية من دون القيام بما تفرضه لا يصلح بها حال ولا تقوم مدنية .

ما تفرد رجل عن قومه بفضيلة الا حسده لئامهم وأبغضوه ، ولن يسالموه الا اذا جاراهم في انحطاطهم وخمولهم ، ولا يزالون يقولون فيه كل ماينمّ عن رداءة أو يخلع الثوب الجديد الذي يحاول ارتداءه ويساويهم في مساويهم .

جارت الشعوب اللاتينية على العرب وعاملوهم في كل قرن بأقصى ضروب الشدة ، وكان البابوات السبب الأول في هذا الجور الفظيع فانهم ما غفلوا يوماً عن ايغار صدور أبناء كنيستهم على العرب ليضعفوهم ويردوهم على أعقابهم . لولا رومية ما نشبت الحروب الصليبية ، ولولا رومية ما طرد العرب من الأندلس وصقلية .

يشبه فتح العرب الاندلس صاحب رسالة في الاحسان أبلغها لمن يجب على أكمل وجه ، ولما انتهت مهمته جازاه عبيد احسانه على ماقدم لهم من خير بأفظع ما يعامل به انسان .

حروب الكاثوليك والبرتستانت في اوربا مثال من قسوة قلوب الغربيين وتعصب رجال الدين .

أعجب أهل الشرق والغرب بدعاية المهاتما غاندي الحكيم الهندي ليخرج أمته من رق العبودية الى ساحة الحرية ، وكان يحترمه حتى أعداؤه الذين ناصبهم العداء ليجلوهم عن وطنه ، فكافأته أمته على جهاده العظيم بأن قتلته بيد أحد أبنائها .

عندما يجري تنصيب صغار العمال وكبارهم بالنظر الى كفايتهم لا بالشفاعة ولا الحماية ينتظم جانب عظيم من الخلل المشاهد في أدوات الادارة في الشرق العربي .

لما جرى تصنيف درجات المعلمين والمعلمات في احدى وزارات المعارف بعث أحد الرؤساء الموكول اليهم أمر التصنيف - وكان سفيهاً مستهتراً - الى ثلاث معلمات يقول : انه لا يصنفهن الا اذا خلا بهن الخلوة التي يريدها ، فأجبنه : صنفنا ولك ما سألت . بهذه الاخلاق الساقطة لا يربى نشء صالح .

أظهر ما أقبلنا عليه من مظاهر المدنية شهود قاعات السينما ومطالعة الروايات الغرامية والبوليسية ، ولما كان هزل هذا النوع من المسليات يزيد على جده بات يخشى على الاخلاق أن تتردى اكثر مما هي متردية .

من سوء بخت أمتي استيلاء دولتين عليها تخالفانها في مدنيتها . خرجت الاولى من أرضها بعد أن قضت على المدنية القديمة ، وغادرتها الثانية تاركة وراءها شيئاً من المدنية الحديثة .

عنيت زمناً بالنظر في حال الجزائريين والتونسيين والمراكشيين مع الاستعمار الفرنسي ، وأنفقت قسماً كبيراً من وقتي أتدبر ادارة الترك العثمانيين في ديار العرب ، فثبت لي ان الدولة الراقية كالدولة المنحطة سواء في الظلم والجبروت .

نسمع جميع شعوب الارض تكره الحرب ، ثم هي تدخل فيهـا لتنال بالحق والباطل من أعدائها ، أو بمن صورتهم أنهم أعداؤها ، وليت شعري ألا يوجد في عقلاء الدنيا من يصف دواء ناجعاً لمداواة هذا الداء الوبيـل ، داء الحرب وقتـل الأنفس وتدمير المدن والقرى على نحو ما اخترعوا القنبلة الذرية لاهلاك الحرث والنسل .

مـات غني كبير ولم يوص بدرهم للفقراء حاذياً بذلك حـذو معظم جماعته من الاغنياء في هـذه الديار ، وقال من عرفوه وعرفوا ما جمع من ثروة انه لو كان في حياته يخرج زكاة أمواله لاستحق عليه للفقراء كل سنة مبلغ عظيم يعول مئات منهم . نعم لو أخرج أغنيـاء المسلمين زكوات أموالهم بدقة ما بقي من يمد يده الى الصدقة .

جرت العادة ألا تقاتل الدول الكبرى أعداءهـا الا باشراك الدول الصغرى معها ، وهـذه الدويلات مقطورة على الدوام في ذنب الدول العظمى ، ومتى بذل المـال عن سعة يصبح ساسة الدول الصغرى من بعض عمال من استتبعوهم ، وتغدو الشعوب الصغيرة كأنها بعض رعايا الشعوب الكبيرة .

من أعظم البلاء أن يملي جاهل على عالم ارادته ، ويطمع في متابعته على هواه دون اعتراض .

ليس ما يجري من دموع الفقراء أقل مما يشربه الاغنياء من الخمور ، الفريق الاول يشقى ويعذّب ، والثاني يَنعم ويطرب .

في أواخر عهد العثمانيين كان بعض العمال في الولايات العربية لايرون مانعـاً من سلب من يبدو لهم سلبهم من الرعايا ، وما كانت الرشوة مما ينكر ، وقد يخجل الراشي ولا يخجل الرائش والمرتشي . وعادت

هذه الحال فتجددت في العصر الحديث ، فكان الحكم الديموقراطي كالحكم الاستبدادي حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل .

قال أحد رؤساء الجمهورية لصاحب شرطته ذات يوم : اكفني شرّ فلان يعني أحد أرباب الجرائد وهو لم يسفّ الى أخذ رشوته ، وكان يكلمه بحرية . فاذا كان صاحب الامر يدعو الى قتل من لم يمالئه على أهوائه ، فمن يلجأ اليه في حماية الارواح والاعراض .

ظن بعض الرؤساء أنهم يبتزون أموال الرعية بطرقهم السافلة ويعمى أمرهم على أرباب المدارك ، لقد كذب ظنهم ان من الامور ما يحمل شواهده معه . ان لم تكن هدايا الحلي النادرة ، والحلل الفاخرة ، وعشرات الاكياس من الارز والحنطة وصفائح السمن والعسل وغيرها ضرباً من الرشوة ، فما هي الرشوة يا ترى في عرف هؤلاء المتنطعين ؟ ان رئيساً يدعي النزاهة ويقبل الهدايا على أنواعها ، ويسكت عن سرقات من يرأسهم هو شريكهم وان قال بعفته شركاؤه .

اختلفت الآراء في مصدر ثروة عظيمة جمعها عاملان من عمال احدى الدول العربية ، فمن قائل انها جنياها من رواتب سيدهما وانعاماته ، وبما في أرضه من طرق الانتفاع . ومن مدع أن الاجانب من أرباب المصالح في تلك المملكة هم الذين غذوهما بهذا المال . وسواء صح الرأي الاول أو الثاني فمما لا نزاع فيه ، أن هذا المال غير شريف كمعظم ثروات العمال في هذا الشرق .

الدول الغربية تغدق المال اغداقاً على من تصطنعهم لنقل أخبار ملوكنا ورؤسائنا ، وربما فرضتهم عليهم فرضاً اذا وقع في نفسها أنهم ينفعونها في سياستها .

يدعي بعض العمال النزاهة ويقبلون دعوات أرباب المصالح يشاركونهم في قصفهم ولهوهم ويشربون من شرابهم ، ويأكلون طعامهم ، ويخلعون معهم ثوب الوقار . مسكينة هذه النزاهة يتوقف تحقيقها على شروط كثيرة ، ونصف العمال أبعد الناس عن مراعاة ذلك .

جاء تيمورلنك التتري أوائل القرن التاسع الى الشام في ستمائة الف مقاتل فيما ذكر أرباب الأخبار فلم يقبل الدمشقيون أن ينزلوا على حكمه مغرورين بخمسة آلاف جندي كانوا يرابطون في القلعة ، فضرب تيمورلنك دمشق وحلب ضربة هلك فيها عشرات الألوف من الخلق وذهبت الثروة وعم الخراب . مثال من التقاء أعظم مهاجم بأضعف مدافع ، وقد جمع هذا الى قلة تدبيره عناداً وغروراً .

لو لم يشتغل العرب لأول أمرهم بمسألة الخلافة لفتحوا دولة الروم وانتشر الاسلام في أوربا وعمت العالم دعوته .

ما أشد اغترار الناس بالجمعيات الحديثة وبخاصة اذا توهم الداخلون فيها مغنماً ، فقد ظن من دخلوا في الماسونية أنها جمعية تفيد الانسانية وتفيدهم في دنياهم ، ولو عرفوا أنها جمعية صهيونية لا يقصد منها الا مصالح اليهود ما انخرط فيها هذا العدد الدثر من المسلمين والمسيحيين .

لاستيلاء النصرانية على فلسطين في القرون الوسطى حارب أهل الغرب المسلمين قرنين ورجعوا بالفشل ، ولاستيلاء اليهود على فلسطين في العهد الحديث حارب الصهيونيون المسلمين أشهراً فبلغوا ماطمحوا اليه بمعاونة بعض دول النصرانية لهم .

ألقت أميركا القنبلة الذرية أواخر الحرب العالمية الأخيرة على مدينتين من مدن اليابان فهلك مائتا الف انسان وانتهت الحرب ، وما زالت هذه القنبلة مثار البحث بين الدول الحاكمة على أقدار الانسانية لعهدنا

وهي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى حامية الديمقراطيات ، وروسيا رافعة علم الشيوعية . وقد أجمع العلماء أن بضع قنابل تكفي لخراب الأرض وابادة المدنية ، وليس بعد ذلك همجية .

لما انقرض مذهب المعتزلة تراجع أمر المسلمين عامة ، ذلك لأن قوة أهل الاسلام كانت معلقة على الخلافة ، والخلافة مسخ جمالها يومئذ بما عراها من ضعف في جسمها وروحها .

تذرعت فرنسا بكل ما لديها من قوة حتى تبقي لهـا مستعمراتها الاسلامية ملكاً أبدياً فسدت منافذ الحرية عن رعاياها وعبثت بمقدساتهم وضمتهم الى جنسيتها بالقوة ، وأبقتهم في جهالة وفقر ، ففرست بذلك في نفوسهم من بغضها مالا تزيله الايام .

أتت الاحزاب السياسية الى الوزارات في هذا الشرق القريب بأناس لا يعرفون من أمرها الا مايعرف الحداد من صنعة الساعاتي .

مما يتحسر له قلب كل عربي أن ملوك جزيرة العرب وأمراءهـا لم يبدأوا حتى الآن بالسير على آثار الشعوب العربية الناهضة ، ولا تذرعوا بذرائع النهضة على ما يجب ، وما ندري حتام يسوفون والزمان حافز ومن لا يجاريه يهلك .

مما يبكي أن ما أبدعه الغرب من الاختراعات العظيمة لخدمة الانسانية اتخذه أرباب السياسة منهم ذريعة لقتل الانسان حتى يستولي القوي على ملك الضعيف ، ويستأثر بموارده ورزقه .

نشأت مع الانتداب في سورية ولبنان طبقة من الوزراء لا يمتازون عن اللصوص الا بتأنقهم بلباسهم ، وركوبهم أفخم السيارات ، فعجبت لمن كان بأيديهم نصبهم وتنحيتهم كيف كانوا يسكتون عنهم ، على معرفتهم

بما تكسبه أيديهم ، وكانوا يأتون بهم الى الحكم على حين لا يجهلون ما يجلبون بسوء سيرتهم من الضرر العظيم على سمعة الانتداب نفسه . وكان هؤلاء اللصوص يرضون بعض المنتدبين بموالاة الهدايا العظيمة اليهم ويشاطرونهم المغانم ، وهم الى ذلك يتظاهرون بشتم أمتهم ويتبرأون من همجيتها ويستميتون في الاخلاص لدولة الانتداب .

غاظني لص يعيش بأكل أموال الخلق وهو يظهر بمظهر الصلاح فكان شأنه شأن أهل قرية كان أهلها يعتمون بعمائم خضر ويقال لهم السادة في النهار فاذا جن الليل ينزعون عمائمهم ويلبسون لباس اللصوص ليسرقوا كل ما طالت اليه أيديهم .

كلما ضعفت في الرؤساء الغيرة على الحرم فسدت الانساب وتداعت البيوت

ما ينقضي عجبي من انسان يرتكب كل ما يعيث بالمروءة وهو عند نفسه أنه يخدع من حوله بظهوره بلباس التقوى .

من غرائب مصر أن رجلا من أعظم البارزين من رجال سياستها رفع الى أرقى منصب ديني رجلا من أصحابه بحجة انه كانت له عليه يد أيام الدراسة . وسد اليه المنصب العظيم وهو مريض مرضاً يمنعه من القيام بأعبائه . ليت ولاة الامر يكافئون بالمال من يريدون العطف عليهم وهذا أفضل من أن ينصبوهم في مقامات يتناولون فيها المشاهرات العظيمة ولا يوفون ببعض ما يجب عليهم من الواجبات .

قلت لأحد العارفين ان فلاناً من عظماء رؤسائنا قد أثبت نزاهته في عدة مواطن فقال : لقد قلت الحق الا انه يتسامح مع المرتشين في حكومته كأنه لا يريد أن يثير عليه مسائل هو في غنية عنها أو انه يرتقب الزمن حتى يتمكن من صرف الفاسدين والاستعاضة عنهم بمن

يخرّجهم ليخلفوهم . وهذا لا يقوم عذراً له على سكوته عن المرتكبين على أي حال ، وما أظن أحداً من رجالنا خلا من هذا العيب ، ومن أجل هذا كان الفساد أبداً متسلسلا في هذه الدول .

كم أتمنى أن يلهم المولى من وسدت اليهم مقاليد الحكم في ديار العرب أن يفكروا في المصلحة العامة زيادة على تفكيرهم في مصلحتهم الخاصة . عشرات من الوزارات تعاورت الحكم في العراق والشام ومصر في العهد الاخير وما كان اهتمامها بواجبها على الاكثر عشر اهتمامها بدفع صائل الاحزاب المعادية لها . ومما يخجل ان كل وزارة تتألف لا تستنكف من بذل الوعود المغرية للأمة واعلانها عما تنوي وزارتها القيام به من الاصلاح فيتحقق بعد تخليها عن الحكم أن كل ما وعدت به كذب في كذب .

جارت الطبيعة على بعض الفتيات فبقين عوانس في بيوت أهلهن العمر كله ، وهن ما خلقن الا ليكن أمهات .

كلما زاد عدد رجال المحاماة طال حل القضايا وزادت النفقات على الدعاوي . أتعاب المحاماة سبب هذا التطويل والتضليل .

بعض عمال الدولة يستهدون الناس ، والهدية رشوة مقنعة بقناع جميل .

ما أظن أمم الارض أنشأت أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان ولا أعظم بلاء منهم في خدمة الحق والعدل ومع هذا يكثر بعض فرق الشيعة

من لعنهم على ما لم يقل به الدين ولا العقل . ويختلقون لهم من المساوىء ما لا أثر له الا في قلوبهم النغلة (١) .

لو جمع كل ما أتاه الشيعة في دولهم من الاحسان ما وازى عشر ما تم على أيدي السلاجقة في فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى من الحسنات . والسلاجقة أتراك جماعيون .

سألت بعض من يركن الى أقوالهم من الداخلين في الماسونية عما أفادوه منها ، فكانوا يأسفون لوقت أضاعوه في أمور ما أنتجت الا أن كانوا مطية لأغراض الرؤساء والمقدمين في الدرجات .

غلة النفط في العراق تنفق بتقدير ، وغلته في نجد تصرف بتبذير ، وفي ذلك اشارة الى عقلية الحكومتين .

أخذ رجال الدولة السعودية يستغلون ثرواتهم في مصر ، يبتاعون المزارع ، ويقتنون العقارات ، ويبنون القصور في القاهرة وضواحيها ، عدا ما لهم في البلاد الاخرى من الاموال والاملاك ، هذا وقد عمّ الفقر سكان الحجاز ونجد ، ولا من يسأل هؤلاء الرتوت من أين لكم هذا ؟ .

---

(١) في كتاب الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية صورة المناظرة التي جرت سنة ١١٥٦ هـ بين عبدالله السويدي البغدادي من علماء السنة وبين الشيعة وقد جاء ملك العجم طهماسب قلى الى العراق واراد ان يعترف بصحة مذهب الشيعة وانه مذهب جعفر الصادق قال طهماسب انه شرط حين المبايعة في صحراء مغان عام ١١٤٨ رفع سب الشيخين والآن رفعت السب فمن سب قتلته وامرت اولاده وعياله واخذت امواله . وحدث السب ايام الشاه اسماعيل الصفوي ولم تزل اولاده بعده تقفو اثره حتى كثر السب وذلك عام ٨٥٧ ودام السب ثلاثمائة سنة واجمع علماء السنة والشيعة في تلك المناظرة على ذكر الصحابة بخير فصار ذكرهم ومناقبهم ومفاخرهم في كل خيمة وعلى لسان الأعاجم كلهم يذكرون لأبي بكر وعمر وعثمان مناقب وفضائل يستنبطونها من الآيات والأحاديث ما يعجز عنه فحول اهل السنة ويسفهون رأي العجم والشاه اسماعيل في سبهم .

سمعت بعضهم يقول ان الصفات الشخصية لا تأثير لها في حالة الموظف أي انه لا يضر المقامر قماره ولا الفاسق فسقه ما دام يقوم بعمله اليومي المفروض عليه . ومن الاسف أن من يجب عليهم تحري حقائق المستخدمين هم أوغل في الفساد ممن هم تحت أيديهم ، لذلك نراهم يرحمون من لا يستحق الرحمة .

سألت في الحرب العالمية الاولى أحد المستعربين من علماء الالمان ، وكان قضى في الهند دهراً يدرس العربية في جامعة البغرة في شمالي الهند ، هل صح أن الشيعة يبلغون ثلاثين مليوناً في الهند ؟ فانتفض وقال : هذا الاحصاء مبالغ فيه جداً اذ الشيعة هناك ما زادوا على نصف مليون ، أي أن جماعتهم وهم المتهمون بالمبالغة في تقدير كل ما يرفع من شأنهم أوصلوا الشيعة يومئذ في الهند الى ستين ضعفاً بما هم في الحقيقة . ولقد رأيت جميع الشيع التي انشقت من الاسلام تبالغ بعددها مبالغة مضحكة . سأل أحدهم أمامي رجلا دخل في مذهب القاديانية كم بلغ عدد جماعتكم فقال : أربعة ملايين . والقاديانية ما تجاوزوا الى اليوم ثلاثمائة شخص على ما حققه الثقات من القاديانيين أنفسهم .

زعم بعض المنشقين عن جمهرة المسلمين أن التاريخ لا يؤخذ من كتب أهل السنة لانهم يكذبون ، والواجب أخذه عن مؤرخي الشيعة لانهم صادقون . ما أضيق عقول هؤلاء الدعاة أضافوا الى تعصبهم الذميم مكابرة في المحسوس وقلة أدب .

يحاذر بعض المصريين الانتقاد وهم من أشد المشارقة حباً للمديح والتقريظ . واذا انتقد منتقد بعض الظاهرين منهم يفقد اتزانه ، واذا قرظهم مقرظ يغتبطون ويعدون ذلك منة له عليهم .

كان من أعظم أماني الشيعة في الاسلام أن يؤسسوا لهم دولة تجمع شملهم وتبث في العالمين دعوتهم ، فوفقوا الى تأسيس الدولة البويهية في الشرق ، والدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الصفوية في العجم ، وكانت كلها أحط بادارتها وسياستها من جميع الدول الاسلامية ، وفيها من العيوب ما يزيد على مافي الدول الجماعية .

يحاول بعض الامامية انكار ما صدر من جماعتهم ، ويتمحلون لهم الاعذار ، ويبرؤونهم مما نابذوا فيه الحق ، واذا حاججتهم بكتبهم أنكروها وقالوا ان الشيعة فرق كثيرة ، والامامية براء من هذه النقولات ، ويدعون أنهم يفضلون علياً فقط ولا يشتمون الصحابة . والتفضيل بأدب لايؤلم بقدر مايؤلم الطعن في عشرات الالوف من الصحابة قام الاسلام على أيديهم .

ساسة الشرق

من أبلغ ماقرأت في الصحف المصرية كتاب استقالة الاستاذ مصطفى مرعي بك من وزارة الاستاذ حسين سري باشا . أنشره هنا نموذجاً يفهم منه روح كبار الساسة ، قال :

« حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .

تحية وبعد فانك تعلم كما يعلم غيرك أني انما اشتركت في حكومتك على أمل في أن لك غاية هي جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، وان لك هدفاً ، هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطير من مشاكلنا الداخلية والخارجية .

وقد تبين أنك لا تتغيا (؟) هذه الغاية ولا تتوسل بوسائلها ، بل انك تبدو كما لو كنت مسلطاً لتجعل من كل حزب حزبين ومن كل فرقة فرقتين .

وقد رأيتك بنفسي ترى الرأي للحق وتنقضه للباطل ، وتقول الكلمة وتنكرها . ولم يقع ذلك مرة واحدة ، بل وقع مراراً في الخطير من شؤون الدولة .

اما افظك واما عباراتك ، واما أسلوبك في ادارة مناقشات مجلس الوزراء ، فقد أصبح هذا كله مضرب الامثال وموضع التندر في كل مكان .

لهذا ، أحيطك علماً باعتزالي العمل في الوزارة ، والله المسؤول أن يدفع عن بلادنا السوء ، وأن يقيها غوائل الفساد » .

١٦ أكتوبر ١٩٤٩ مصطفى مرعي

الحنبليات الضارة

قال لي أحد أبناء وطني من مهاجري الشاميين في الارجنتين انه يحمل من مواطنيه فيها الى بلدته دير عطية في جبل قلمون مئتي ألف ليرة سورية لبناء جامع ومدرسة اناث ومدرسة ذكور ، وان بعض الثرثارين قال له : ان في هذا المال الذى تأتوننا به نظراً ، لأن منكم من يملك كروماً واسعة يعصر عنبها ليبيعه خمراً وهذا محرم فأجبت رسول المحسنين ، وقد عجزت عن الرد على ذاك القول من طريق الدين : بارك الله بمالكم ومال المتبرعين ، انكم تتوخون النهوض بمن خلفتم وراءكم من الاهل والعشير وليس بعد ذلك احسان ووطنية .

وسألت صديقي العلامة عبد المحسن الاسطواني أكبر علماء الحنفية في الديار الشامية عن حكم هذه الاموال فأتاني بالنص من كتب الفقه ، وقرأ عليّ مايلي : « وجاز بيع عصير العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً لان المعصية لاتقوم بعينه » وأبلغت هذه الفتوى مواطني الكريم فاغتبط بها وجماعته المغتربين أي اغتباط .

ومن هذا النوع من رمي الشريعة بالجمود ما يأتيه بعض أغنياء القطر المصري من ايداع أموالهم في المصارف وأكثرها للاجانب دون أن يتقاضوا عنها شيئاً من الفائدة تديناً . وتقدر هذه الودائع بعشرات الملايين من الجنيهات يتعفف أصحابها من أخذ أرباحها وهي مما له وجه حلّ اذا صرف في اطعام الفقراء وكسوتهم وتعليمهم . والعمل على ذلك جارٍ أكثر من جيلين . فكم ربحت مصارف الحربيين من أموال المصريين بهذا التحريم الموهوم ، وكم حرم أرباب البؤس من الانتفاع بفائدة هذه الاموال . ألا يعد ذلك من باب الحنبليات الضارة ومن الجمود الغريب ؟

أغراض السياسيين

قص عليّ صديقي خليل مطران الشاعر عليه الرحمة ما وقع له مع أحد أصدقائه من الأمراء قال : طلب اليّ ذات يوم أن أنظر فيما يصدر عن مكتبه من الرسائل أقوم عبارتها وأنقح أسلوبها ، فأخذت أختلف الى قصره مرتين في الاسبوع . وأرادني بعد مدة أن أتوسط له مع صاحب الأمر الأكبر في فض مشكلة تهمه . فقلت له : يامولاي أنا لا أصلح لهذه السفارة لعدة اعتبارات ذكرها ، والأولى أن يكون الوسيط بينكما من عيار أكبر من عياري كأن يكون أميراً أو سفيراً . فكان جوابه وعلى هذا فأنت تنتفع من صاحبك فلا تحب التوسط بيننا في مشكل يهمني قضاؤه على يدك . فأخذ الغضب من الأخ الخليل وقال : اني أختلف الى القصر منذ سنة كذا لأنظر في الرسائل الصادرة عن ديوانك فالتمس منك أن تتفضل وتسأل دائرتك هل قبضت درهماً مقابل عملي أو اجرة العربة التي تنتظرني حتى أعود فان كنت لم تعطني شيئاً حتى الآن وأنت أكرم من السحاب كيف ينفعني خصمك بشيء وهو من أبخل الخلق ؟ قال وتفارقنا والانقباض ظاهر على وجهي ، وحاول بعدها استرضائي فأبيت .

قال : ومضت برهة من الزمن وارتقى صاحبي الى منصب يستطيع فيه أن يضر وينفع ، فما هي الا أيام حتى داهم داري جماعة من رجال الامن العام يفتشون أوراقي ويطلبون مني القصيدة التي مدحت بها خصم الامير . فلم يعثروا على غير ما طبعته في الديوان . وكان المقصد منه خدمة مصر فقط . ثم ترامى اليّ أن ذاك الصدر العظيم تذرع بنفيي من مصر بدعوى أني شخص غير مرغوب فيه الا أن الانكليز لم يقبلوا بذلك . وكان السبب في وقايتي من التغريب رجل منهم ألف كتاباً بالفرنسية في العنصر

الصقلبي (السلافي) أهدانيه فقرأته وكتبت فيه مقالة نشرتها في احدى الصحف الكبرى ، وذلك على غير معرفة بالمؤلف . ثم اجتمعنا وشكرني وهنأته على ابداعه في تأليفه ، ورجوته أن يكتب كتاباً على غراره في العنصر العربي ، وأنا أقدم له ما عندي من المواد عله يجد فيها بغيته . هذا الرجل هو الذي قال فيّ خيراً ونجوت بفضله من التغريب والتشريد

قصة لا يندر وقوع مثلها من أمراء الشرق ولذلك كان أكثر النابهين يبتعدون ما أمكن عنهم وينشدون مع ابن الوردي :

جانب السلطان واحذر بطشه لا تعاند من اذا قال فعل

مجمع مصر

لما اقترب موعد افتتاح مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية لاحظ أحد أصدقائي في المفوضية المصرية في دمشق أني غير مستعد للسفر الى مصر حتى أحضر جلساته كالعادة في كل عام لأني لم أطلب جوازاً والحكومة المصرية طلبتني . فألح عليّ صاحبي بالذهاب . وزاد هذه السنة (١٩٥٠) الحاح بعض اخواني وتفضلوا وأوردوا لي حججهم لاجابة الطلب فاعتذرت بقلة نشاطي للسفر الى المؤتمر كما اعتذرت في العام الماضي بصحتي . وكان الحق في جانب من حاولوا اقناعي بالرحيل في السنتين الماضيتين ، لو كانت النقلة من قطر الى قطر سهلة عليّ ، وها قد اعتذرت هذه السنة الثالثة عن الاشتراك في المؤتمر اللغوي .

اني أفضل أن يشغل هذا المقعد في مجمع مصر من هو أصبر مني على معاناة مسائل اشتغلت بها زمناً طويلا ، وعندي الآن مايشغلني عنها . ولا تطيب نفسي بعد اليوم للتقيد بارادة غيري ، واجتهاد المرء يتغير ، وفي هذه الحقبة من العمر يحتاج الانسان الى الهدوء ، وألا تقع عينه على ما يكره ويزعج .

الصحافة العربية

كلما زاد عدد من تخرجهم المدارس من الطلاب والطالبات يزيد قراء الصحف زيادة محمودة ، وتنتشر الثقافة بين الشعوب العربية على تباين الطبقات واللهجات ، وعلى نسبة ذلك يكثر ما تطبعه الصحف من الاعداد ويمتاز كتابها ببراعتهم ، ويرزقون على قدر شهرتهم .

عهدت أعظم جرائد مصر انتشاراً تطبع في اليوم من ألفين الى ثلاثة آلاف . ومن الصحف اليومية والاسبوعية اليوم ما يطبع مئة وخمسة وعشرين ألفاً .

وعهدي بكتاب مصر بالامس يعيشون في ضنك وضيق ، ومنهم في أيامنا من اغتنى . وقد غدوا بما تدر عليهم أقلامهم من الربح كبعض كتاب الممالك الغربية . ومنهم الاستاذ عباس محمود العقاد وفكري أباظة ومحمد التابعي ومصطفى أمين ومحمود أبو الفتح في الاحياء . مثلنا بهؤلاء وهناك كثيرون لا يقلون عنهم تفنناً ودخلا .

وأهم مادخل من التعديل على الصحافة العربية الراقية أن كان كاتب الجريدة أواخر القرن الماضي يضطر الى أن يتناول بقلمه موضوعات جمة وقد تعينت في أيامنا أبواب التخصص فلا يخوض السياسي الذي يعاني الخارجيات في الابحاث الداخلية ، ومن كتب في الهزل لايقرب الجد ، ومن نظر في الاقتصاديات لا يخط قلماً في الادبيات . وهكذا تفرد كل منشئ بما غاب عليه وتمحض له . وأمسى الملوك والرؤساء يخطبون ودّ أرباب الجرائد لعلمهم بتأثيرهـــا في الافكار ، وانتظمت أمور الصحف انتظاماً يشبه انتظام وزارة في دولة عظمى ، لا تجد في ادارتها خللا ، ولا في تحريرها ما ينتقد . واذا كان في صحفنا اليوم ما يطبع لعهدنا المئة ألف وأكثر ، لا يبعد أن تطبع غداً بضع مئات الالوف .

دخلت صحافة مصر في دور الاتقان ، وقلدت الغرب في معظم مظاهرها ، فكان من ذلك انتشارها في الشام والعراق ، وأصبح لها في هذين القطرين مكانة أربت على مكانة صحفها المحلية ، ذلك لان هذه ما زالت صحف أفراد أو أحزاب ضعيفة . وصحف مصر صحف شركات وأحزاب غنية . وفي أرض العرب تقرأ حتى جرائد الاحزاب المصرية كما تقرأ الصحف الاخبارية ، وتتلى مجلات الهزل كما تتصفح مجلات الجد ويشترك الرجال والنساء والاطفال في تناول الصحف .

وربما عرف ابن بغداد والموصل والبصرة ودمشق وبيروت وحلب رجال القطر المصري كما يعرفهم ابن مصر لكثرة ما يطالعونه في صحفها من اخبارهم وأدركوا سر السياسة المصرية كنبهاء المصريين وزيادة .

أرباب الاستبداد

يوم أعلن القانون الاساسي في الدولة العثمانية (١٩٠٨) وأطلقت حرية الصحافة كانت جريدة المقتبس أول جريدة في الشام طلعت على الولايات العربية بأفكار حرة لا عهد لها بمثلها . وحاول ولاة تلك الايام من العثمانيين أن يسكتوها ناسين أن روح حكومتهم تبدل ، وأن دولة الاستبداد دالت ، وكانت المحاكم والحق يقال أعدل من أن تتأثر بأهواء الحاكمين ، ولطالما أنقذتنا من ظلمهم حتى في معظم قوة الاستبداد العثماني .

أما في عهد الحكم العربي فكانت الحرية في بعض السنين تلهث وتحتضر ، وودّ بعض الرؤساء لو يعاقب كاتب هذه الفصول على مادوّن في تآليفه الأخيرة التي حملت آراء لا توافقه ويرى من مصلحته اغلاق الباب دون انتشارها ، ولو كانت المحاكم تفصل في مثل تلك القضايا على مايشتهي الرؤساء ما ادخر هؤلاء وسعاً للقضاء على رجال الحرية بما انطوت

عليه جوانحهم من حب الانتقام وشدة الحقد وفرط الاستبداد ، فلم يبق اذاً أمام الرؤساء للتشفي الا حمل زعانفهم على التهكم بالمؤلفين وتزييف أفكارهم ، وكان اولئك الرؤساء يعاملون بعض الصحافيين الناشزين اذا غضبوا عليهم بارسال زبانيتهم يضربونهم حتى يدموهم وحدث أن مات بعضهم من شدة الضرب . هذه هي حرية الجمهورية في بعض أيامها لم تدرك عقول من يمثلونها غير الاعتداء على حرية الخلق ان لم يستطيعوا أن يثأروا لأنفسهم على ما يجبون من معارضيهم لامتناع المحاكم عن الحكم لهم بما يريدون ، ذلك لأن للمحكمة قانونها ولها قاض يدرك مغبة العبث به . أما رجال السياسة والادارة فقانونهم على الاغلب من اختراع قرائحهم ولا يطبقون من الانظمة المعمول بها الا مالاءم أهواءهم .

الفلاح أخرق

كان احد وزراء مصر من جملة المدعوين في قصر الملك ذات ليلة ، ولما جيء بطبق اللحم اخذ قطعة منه ووضعها في صحنه وحاول تقطيعها بشوكته وسكينه ، فطاحت بعيداً . فضحك المدعوون وما ادري ان كان حاول ارجاعها الى طبقه ليأكلها حباً بالاقتصاد . فقلت لمن روى لي هذا ان أصل هذا الرجل من الريف وما مرن على مصطلحات المدنية في بيت ابيه . ولما وصل الى المقامات العالية بقي على عاداته الراسخة وما قدر ان يتمثل العادات الجديدة على كثرة مخالطته الكبراء بحكم منصبه .

ورأيت وزيراً منهم لما مدّ يده بصافحني كانت أظافره الطويلة مملوءة وسخاً أسود تأنف النفس منها ، فاستدللت بهذا المنظر ان الوزير لايعرف النظافة وما اهتدى الى ان يسير على طرق المتمدنين ، ولا على طراز المتدينين في هذا المعنى .

ولقد ظلت عادات الفلاحين واخلاقهم ماثلة في كثير من الوزراء الذين يرجعون في اصولهم الى الفلاحين ، والمنحط يبقى على انحطاطه محتفظاً باخلاق اهله ولو كانت ظواهره انه متمدن ، والمال لا يورثه ما فقده ولا المظهر الحديث ينقله من قبيح الى احسن في برهة وجيزة .

نحن حراص على تقليد الغربيين في عادات لهم حسنة وفاتنا ان هذه العادات رسخت فيهم في الاحقاب الطويلة وهي تلقين من الآباء والامهات ونتيجة اختلاط وتمرين وتدريب . والغالب ان العادات الهمجية يبقى اثر بعضها في المتعلمين من ابناء الطبقات النازلة مستحكماً الى جيل أو جيلين . رأيت طوائف من الناس في المآدب والمجتمعات ومنهم الغني قد احتفظوا بأخلاق بيوتهم وعاداتها في مظهرهم الجديد ، يتجلى ذلك في سكان جبال الشام الذين هاجروا الى أميركا وغيرها ، فانهم لا يحسنون على الاكثر الجلوس ولا الخطاب ولا الطعام ولا السير على طرائق أهل العصر ، ترى ذلك ماثلا في النساء والرجال ، ومتى رأيت من رأيت من الجنسين تعرف أنها بقيا بعد الغنى والغربة الطويلة فلاحين وأبناء فلاحين .

ليت المدارس تدرب بالعمل تلامذتها على سلوك سبل المتمدنين وتلقنهم فن الحياة ومصطلحات العصر ، كما يعلمونهم منذ الصغر الصلاة وما يتبعها من أمور الدين . تعلم الصبيان ولا تغفل عن الفتيات .

تآليف الممالك

يقول غروسّه المؤرخ : قد يتجاوز عمل مؤسسي الممالك الحد الذي ما كانوا يتوقعونه . أخضعت حكومة الاشراف الرومانية لسلطانها في القرن الثاني قبل المسيح الامارات الهيلنية ، وما كان يدور في خَلَدها انه سيكون من ذلك توحيد جامعة الهيلنيين ، ونشر كلمتهم في العالم ، وأن هذه الحفنة الضئيلة من اليونان سيقوم منها رجال بزنطية الذين اشتهروا بعجرفتهم في القرون الوسطى . وفي العهد الحديث ادخلت الثورة الفرنسية ونابوليون النظام على الشعوب الالمانية واخرجتها من بابلتها ، وما كان يشك انهم يعملون على مايخالف مصلحة بلادهم ، فنشأت الوطنية الالمانية والوحدة الالمانية . وهكذا كان من الانكليز لما شرعوا بضم اجزاء الهند في وحدة شاملة وما رأوا انهم بما اتوا يوحدون اجزاء مملكة متحدة جغرافياً وذهبوا الى ان لهم فائدة من ضمها في سلك واحد ، بيد ان نتائج سياستهم تعدت الحدود المنتظرة فجمعوا بتأليفهم هذه الوحدة الادارية التي خلقتها الطبيعة من جبال هملايا الى رأس كامرون بين سكان الهند وما حسبوا حساباً للعاقبة ، وبايجادهم مملكة الهند خلقوا امة هندية . اه

واصلح الغرب الخطأ الذي ارتكبه في اليونان قديماً والمانيا والهند حديثاً على رأي المؤرخ ، وقام يفرق كلمة الشعوب ولا يجمعها ، وسار على ما يتفق مع اطماعه من التقسيم ، فجعل من مراكش مملكتين لكل واحدة منهما ملك . وسبق للدول المتحدة أن قسمت الديار الشامية بعد الحرب العالمية الاولى الى سبع دول ثم أرجعتها الى أربع ، وفصلت بريطانيا العظمى السودان عن مصر ، وجعلت الهند شطرين ، شطر مسلم وشطر وثني ، واقتطعوا من جسم اليمن عدة امارات على المحيط الهندي ، وجعلوا من سواحل الخليج الفارسي امارات مستقلة ، وأنشأوا من كل امارة دولة على حيالها وألفوا من ولاية مملكة ، وصاغوا من عمالة امارة .

وهكذا قسموا بحسب أغراضهم مالا تجوز قسمته ، وما راعوا مصلحة السكان ولا طبيعة البلدان . ولا قصد للدول الكبرى من هـذا الشرق المسكين الا منافعهن الخاصة . ورأينا انكلترا تنشيء بعد الحرب العالمية الاولى من الارض التي كانت معروفة بلواء الكرك على العهـد العثماني مملكة دعتها مملكة شرقي الاردن ونصبت عليها اميراً ثم جعلته ملكاً . وانكلترا تسعى اليوم الى تأسيس مملكة عربية ثانية على الخليج الفارسي سكانها مليون نسمة ، وبالطبع تقيم لها ملكاً ومجلس نواب ووزارة مسؤولة وغير ذلك من التوابع والملاحق .

وهكذا شأن الدول في التقسيمات الجغرافية ، وحرصهن على تفريق أجزاء القلوب في الشرق أشبه بحرصهن على تجزئة أرضه ، يفسحن المجال للمذاهب الجديدة ويرحبن بكل صاحب بدعة وطريقـة ، ويغتبطن يوم يرين البيت الواحـد منقسماً على نفسه ، ويهيئن لكل ملك من ينازعه على الدوام ، حتى لايصدع بغير أمرهن ولا يسبح الا بحمدهن . وبسياسة فرّق تسد نشر الغربيون كلمتهم على اقطار العرب من اقصى شمـالي افريقية الى آخر حدود اليمن ونجد والفرات .

قال لافيس المؤرخ : كل قوة تنضب ، ولا يتأتى أبداً أن تكون قدرة التصرف بالتاريخ ملكاً أبدياً لدولة . ورثت اوربا من آسيا منذ ثلاثة آلاف سنة أصول الحكم ولن تحتفظ بما ورثته أبد الدهر . ونحن نقول حقق الله ذلك .

أمالي

صرفت عمراً في مطالعة ما أبقاه العرب من تآليف ، فبقدر ما كنت أرتاح الى أسفار الأقدمين كنت أنقبض من بعض كتب المحدثين ، ومن أكثر ما عددت النظر فيه مضيعة للوقت كتب المناقب والمثالب ، فانها حيكت في كل عصر بضروب من الهذيان والبهتان . ومن أبشع ما سجل في النثر مناقب الاولياء والصالحين وفي الشعر أماديح الأمراء والكبراء .

قد لا تظهر عيوب الادارة في الدول الكبرى ظهورها في الدول الصغرى . خسارة الغني الألوف لا تورثه عجزاً بقدر خسارة الفقير المئات .

لو كانت القصور التي يشيدها آل سعود في مملكتهم تبنى بأيدي أبناء الحجاز ونجد لهان الأمر لأنه يكون منها رزق لسكان تلك الديار ولكن معظم موادها وبناتها وفرشها وفرّاشيها من اميركا شريكة المملكة العربية السعودية في النفط الذي تستثمره اميركا ، فكأن هذه تعطي باليمين وتأخذ بالشمال .

ما فتح الانكليز مدارس خاصة بأبناء الاعيان الا ليصوغوا منهم طبقة مختارة . معوّل الانكليز في الحكم على الاشراف المثقفين .

يوم يقدر العلماء مقدار التبعات التي تقع على عواتقهم يصبح الناس بألف خير .

من كان اكبر همه العطف على ابناء الشوارع فهو منهم او شبيه بهم .

حاولت منذ بدء حياتي ان آلف الموسيقي الغربية وان افهم مافيها من ميزات فلم تقبلها نفسي وعند ذلك ادركت ان الموسيقى تربية ، والتربية ابداً تختلف في أمة عن اخرى .

استحسنت من عامي كان له بعض الظهور في قومه عندما سألني اين تقع اليمن من بلادنا ؟ فأجبته بسذاجة تشبه سذاجته في سؤاله : وجّه وجهك الى القبلة ، وبعد ارض الشام تبدأ ارض الحجاز وبعدها تقع اليمن . ليت كل جاهل ينتزل للسؤال عما لا يعرف ، فقد ادركت اناساً تعلموا الجغرافيا بمطالعة الجرائد وبالقاء مثل هـــذا السؤال على العارفين والانتفاع بالأجوبة عليها .

عرفت ثلاثة قضاة وشيخ مدرسة وتاجراً متصولحاً جمع كل واحد من الثلاثة الأول من مال اليتامى والارامل بضعة ألوف من الدنانير سرقت منهم فمات منهم اثنان على الأثروجُنّ الثالث جنوناً مطبقاً ثم هلك . وجمع شيخ المدرسة بضعة الوف من مغَلّ الوقف فسطا اللصوص عليها ومات بعد قليل ، وكذلك هلك التاجر المتصولح الذي اتجر بالورق النقدي فخسر ثروته كلها وما استطاع مثل الاربعة الذين تقدموا أن يبوح لأحد بما حلّ به من النكبة لأن هذه التجارة محرمة وهو مشهور بتدينه .

شاهدت بعض الدارسين يتوقون الى الشهرة على حساب من سبقوهم الى خدمة العلم ، ويحاولون اسقاطهم والهزوء بأعمالهم ، وهم مانجحوا ولن ينجحوا ، وماتوا بغيظهم وما استفادوا الا أن أثبتوا قلة أدبهم وعظيم سلاطتهم . أما الذين سلكوا الطريق المستقيم ، وجودوا أعمالهم وأحسوا بنقصهم بعد الدراسة ، وداووه بالاستزادة من العلم فقد وصلوا من الشهرة الى درجة تجاوزت ماكانوا يرجون .

سألني تاجر انكليزي يقطن الاسكندرية عن مجرى امور الانتداب في الشام وذلك قبيل انتهاء أيامه ، فقلت له انه يتخبط على غير هدى . فقال : هل ترى الفرنسيس انتظمت أحوالهم في بلادهم ؟ فقلت : اللهم لا . قال : اذا كان الامر كذلك فكيف تريد ممن لايحسن تنظيم بيته ان ينظم بيت غيره .

ماتبدلت أخلاق العمال في أدوار ثلاثة ، دور الترك ودور الفرنسيس ودور العرب . كان الموظف في هذه العهود مهما علت منزلته يصانع رئيسه ولا يراجعه في أمر مخافة أن يعد صاحبه ذلك تطاولاً عليه فيغضب ، وكنت اذا قلت لأحدهم : هذا أمر تقرر على ما يظهر بلا بحث ولا نظر قال : الحق معك وأنا على رأيك ثم يهمس في أذني : هكذا أمر الرئيس وهو لايوافق على غير ذلك . وهذا الخلق ماثل في الوزراء وضرره منهم أشد . أنعم وأكرم بهؤلاء الاوفياء لمصلحتهم الخاصة فقط .

من صغار الموظفين من دأبوا على مصانعة الرؤساء أيا كانت أحزابهم ومشاربهم ، يودعون الراحل بالاسف والاكتئاب ويستقبلون خلفه بالفرح والسرور ، ذلك لانهم يعتقدون انهم لا تسلم لهم مراكزهم الا بهـذا النوع من النفاق .

مما تشمئز النفس منه مصانعة الوزراء من نزلوا علينا من الافرنج حاكمين ومعلمين ، كانوا اذا خرجوا من حضرتهم اطلقوا السنتهم بالقدح فيهم ، زاعمين ان الوطنية تقتضي منهم التظاهر بهذا الخلق السافل . لو كانوا على شيء من حب وطنهم ويتأففون من احتلال الغرباء ارضهم لنصحوا لهم وارشدوهم الى طرق الخير .

كنت اذهب الى ان خيار الفرنج اذا ساووا خيارنا في صفاتهم الحسنة فهم من حيث الكثرة والقلة اكثر عـدداً من جماعتنا ، ورأيت من

خيارهم من يمتازون عن خيارنا بتجويدهم صناعتهم ، ونظيرهم فينا اندر من الكبريت الاحمر ، اما الاشرار منا ومنهم أولئك عليهم لعنة الله والناس اجمعين .

قال لي مدير شرطة افرنسي : من اعجب ماشاهدته في بلادكم أنا كنا اذا قبضنا على احدهم في بيروت يأتينا من يقول لنا احسنتم باعتقالكم هذا الخبيث ، وكان المتوقع منكم ان تعتقلوه قبل الآن ، وما نرى الا انه يستحق القتل بما نُسب اليه . وكنا اذا اعتقلنا شخصاً في دمشق يجيئنا الوفد بعد الوفد يرققون قلوبنا عليه ويصغرون من شأنه ، وقد يدعي بعضهم انه معتوه لايؤبه لما صدر عنه . تناقض في الاخلاق : نقمة شديدة ورحمة مفرطة .

قيل لاحد العقلاء أترضى ان تكون رئيسا كبيراً وانصارك من الرعاع والسفلة فقال : ملك بلادي ملكاً ابدياً لا يفي بما يلحقني من الصغار باستتباع هؤلاء الانصار .

قالوا ان فلاناً كان جده وابوه على صفات طيبة فكيف نشأ ابنهم نشأة تخالف نشأة اهل بيته ؟ فكان الجواب : ان فلاناً عشق الظهور فارتكب في سبيله كل مايربأ الشريف بنفسه عن ارتكابه ، ثم رأى معاشرة الاوباش لمنفعة له توهم الحصول عليها منهم ، فسرق طبعه من طباعهم

ربما كان في النساء من يفضلن الحجاب على السفور حتى تستر صورهن القبيحة عمن يسارقوهن النظر متخيلين ان هناك جمالاً ماوقعت على مثله عين

ان لم تظهر أخلاق المنظور اليهم على جليتها يظل الغش سارياً في الحكم وفي سائر أعمال الحياة .

متى عرف أهل المدن مقدار تعب الفلاح حتى تخصب أرضه وتنمو أشجاره يكفون عن حسده عما يجنيه من غلتها وثمرتها .

تتمثل أخلاق الظلم في أبناء الظلمة منذ الصغر ، كبعض الامراض السارية قلما ينجو منها المصاب بها مهما عالجها بالحقن والعقاقير والطعام المغذي .

قيل ان فلانا قرّبه صاحب الشأن على سوء سيرته المتعارفة ، فقلت لهم : لا تتعجلوا سيأتي اليوم الذي يلفظه فيه كما تلفظ النواة من التمرة .

تمنيت لو كانت علامات العالم في الأخلاق أوفر من علاماته في الثقافة ، ان أخلاقه سبب أول في نجاحه ونجاح من يبيع منهم بضاعته .

أكدوا أن فلاناً كان يستعين بالطلبة لما كان يدرس لهم في الجامعة المصرية حتى يأتوه بالنصوص اللازمة لتآليفه ، فيكلفهم في ذلك شططاً ، فقلت لهم : وكان في نشره كتب غيره لا يعاون أصحابها على طبعها الا اذا جعلوا له حصة من الأرباح ترضيه ، ودس اسمه الى جانب اسم المؤلف ، وتفرد بكتابة مقدمة الكتاب . وليس وراء ذلك أثرة . ما أقبح الطمع فيمن يجب أن تتجرد منه نفوسهم قبل كل أحد .

قال لي أحد لِداتي : الفرق طفيف بيننا وبين من تقدمناهم ، يوم كنا نجدّ في الدرس تركونا وانصرفوا للهو يعبثون ، فكانت النتيجة ما ترى فيهم وفينا .

أعرضت عن رجل وقع منه ما ساءني فأقسم وهو كاذب أنه ما أتى ما يكدرني ، وأنه لا يستغني عن صداقتي ، فقلت : انه يحاول أن يستخلصني لحظ نفسه فيكسب من اتصاله بي ما يجعل مني دريئة له فيما يهمه من هذه الصداقة .

ثق أن من دأب على سلب الأمة ، وحدثه عقله المأفون أنها لا تطلع على ما يأتيه في سر ، هو من البلادة بمكان عظيم ، الأمة لا تعرف لها سالباً غيره ، والمسلوب أول ما يقع نظره على سالبه .

من عدوا التمويه على قومهم مهارة يفتضحون بها متى رفعت الستارة التي كانوا وراءها يلعبون ، فيسقطون سقوطاً لا يرتفعون بعده .

غاية ما يرضي العامي منك أن تبادر للسلام عليه ، وتطيب خاطره ، وتوهمه أنك مشاركه في عواطفه . واذا اتسعت حالك ورضخت له بدريهات أو دعوته الى طعامك استعبدته . ووطّن نفسك اذا أبطلت عادتك معه أن ينقلب عليك ويغتابك ويعيبك .

من طالت عشرته لطائفة تشبه بها من حيث لا يشعر ، فمن المعلمين من اقتبسوا من أخلاق الأطفال لطول اختلاطهم بهم ، وبعض من يعتبرون في العرف من الكبراء تدنت أخلاقهم لكثرة ما تنزلوا بعقولهم الى مستوى العقول المنحطة .

كانت الأمية من علائم الضعة في العرف فأصبحت في الحرب الأخيرة علامة اليسر وسعة العيش بما ربح التجار ، ومنهم نشأت طبقة الأغنياء المحدثين ، فأصبحت الأمية بذلك شارة الاثراء والنعماء .

ليس من الفضول تحفيك في السؤال عن صحة صاحبك وصحة عياله وسير أشغاله ، عنايتك بكل أولئك دليل اهتمامك بأمره ، وهذا من أسباب دوام الصداقة .

أفرط أحد الرؤساء في قبول الهدايا ممن يطمع في الاستفادة من نفوذه حتى أصبح لباسه ولباس عياله ومعظم طعامه ونفقات رفاهيته تأتيه بالمجان وبعد هذا ما أخال مكابراً يدعي أنه يبقى له شيء يقال له نزاهة واستقامة .

تطول آجال بعض العلماء في الغرب الى أبعد مما قدر لها في العادة . ليت الفاطر يمن على كل من يستعملون عقولهم بطول الأجل .

قالوا ان فلاناً أساء لأمته فاستحق ما حل به من البلاء أراحنا الله منه ، فقلت الأولى أن تدعوا له بطول البقاء حتى يرى كل يوم نتيجة عمله الأخرق ، وبصبح عبرة لمن تحدثه نفسه أن يسير على طريقته في الخيانة .

من عاشر الأولاد نزل الى مستواهم في العقل بحكم العدوى والقدوة ، ومن صاحب أصحاب الموبقات هونوا عليه ارتكابها .

ذكروا أن أحد الوزراء الانتدابيين على ايغاله في اقتناص الربح من أي طريق كان ، وعلى افتراضه مبالغ جسيمة ما نوى يوماً ردها لأصحابها — لا يزال يغرق في الديون وليس بينه وبين الفقر المدقع الا خطوة يسيرة ، فقلت : مافي ذلك موضع للعجب ، فان الرجل الذي يجلس الى منضدة القمار كل ليلة ويخسر الالف والالفين لا تأملوا أن يكون مصيره غير هذا ، والعجب أن يجد في مواطنيه من يسلم عليه ، وما يحييه في الواقع الا من كان على شاكلته في فساد الطعمة وخراب الذمة وقلة الشرف .

لا تقبل قول من يصانعك بقبول حسن فهو يصانع غيرك كما يصانعك ، ومصانعك أضر عليك ممن يذكر لك عيوبك في وجهك .

قيل لرجل أساء الى صاحبه بلا سبب : اصفح عنه ، بذا تقضي مكارم الاخلاق ، فما هو أول من أساء . فقال : أود أن أخرج على قواعدكم وأذكره بالسوء واذكر كذبه وفساده ، لأحول دون ظهور أمثاله من الساقطين .

من سمح لنفسه بالتزوير كان اعظم مزور ، ومن استحل الكذب على كل من يراه كان أعظم كذاب ، وليس بعد التزوير والكذب عيب . ليت لي من القوة ما أقطع به لسان كل كذاب فالكذب رأس المآثم .

العَمَلة من أشرف الناس ، يفيدون بما تصنعه ايديهم ، ويأكلون رزقهم حلالاً ، وهم أقل الخلق فضولاً .

قيل ان فلانا تولى ولاية عظيمة فكان أول ما أتاه خيانة امته ، فقلت لهم لا تعجبوا وهل كان الا صورة من والده ، وهل هذا الا نسخة صحيحة من أهله وكلهم سَلبة ظلمة .

كانت الفلاحة اشرف صناعة لو لم يَعْتَدْ بعض الفلاحين استحلال السرقة من حاصلات جيرانهم .

لا تتوسع في أمانيك والزم التوسط فيها ، فان حصل ما جاوز رجاءك اغتبطت ، وان لم يحصل لم تكن لتشغل نفسك بالخيال .

متى أدرك السوقة — والسوقة هم كل الناس ماعدا الملوك — انه ما سبق لغشاش ان نجح استقام امر الامة حتى تشبه بأخلاقها أخلاق المسلمين في عصر الصحابة .

قاومني بعض العمال مقاومة عنيفة حتى أحرم راتب التقاعد كأنني اقتضاه من ماله الخاص . ولو بحثت عن السبب ما رأيت الحامل له على ما أتى الا اللؤم الغريزي المغروس في الطباع .

بعض الناس يعادونك وانت لاتعرف انك أسأت اليهم ، هكذا كان حالي مع بعض كبار العمال وما ادري أكان ذلك عن منافسة او عن حسد .

صغار المأمورين اقدر من كبارهم على تصعيب اشغال ارباب المصالح ، عندهم مخارج للتسهيل ومخارج للتعقيد ، يعمدون الى استعمال الاولى اذا ارضيت خاطرهم بالمال او خافوك لمكانتك ، ويعمدون الى الاخرى اذا انت لم ترضهم .

اولاد الفقراء احرص على اكتساب العلم من ابناء الاغنياء وابن الفقير احسن خلقاً من ابن الغني ، والبنات اكثر من الصبيان رغبة في الدرس

لذوي اليسار اخلاق خاصة على ما هو الظاهر من حالهم ، هم قلما يخلصون الود لأحد ، ولا يقومون بما يترتب عليهم من الواجبات ، وكيف يصدقون مع من يعتقدون انهم لا يملكون كما يملكون .

في الاصدقاء من يرعون صداقتك ماداموا ينتفعون بها ، فاذا حدث ان كان لهم من هذه الصداقة ما يتوهمون انه يؤذيهم مشوا مع من يتخيلون النفع منه وتخلوا عنك ، فاذا ايقنوا انه انكشف لك ماخالفوا فيه القواعد المرعية بين الاصدقاء اقبلوا يعتذرون اليك ، فاياك بعد هذا ان تدعوهم اصدقاء فهم معارف عرفتهم ، ولفظة الصديق كبيرة عليهم .

من يتساهل في بعض حقوقك عليه ويذهب الى انه يجوز عليك ما ارتكبه في سر مما يغضبك ولا يرضيك احذف اسمه من جريدة اصدقائك ومعارفك ، لا تكثر به سواد من تعرفهم ، اما هو فسيعود اليك متى احتاجك ويتناسى اذاه لك .

راجع سجل من عددتهم أصدقاءك كل مدة فربما تسقط على من بدلهم الزمان ، وعندها تكون أنت بالخيار اما أن تركن اليهم ، أو تنفض يدك من صحبتهم ، فالصداقة كسائر الامور تحول وتتحول .

قامت في الأعوام الاخيرة نهضة مباركة لتجديد مظاهر المدن وتزيينها وتنظيم شوارعها وساحاتها وقصورها ومصانعها ، ومن لنا بحركة مثلها للقضاء على ما بلي من مصطلحاتنا العائقة عن تزيين النفوس بالفضائل .

في معاشرة الخلق أمور دقيقة قد لا يهتدي الى النفوذ اليها كل انسان . جرت العادة أن يتعاطف أبناء الحرفة الواحدة اذا ما التقوا ، فيرى بعضهم من الوفاء أن يكرم في بلده بعض من ينزلون عليه على ما اعتاد الناس منذ القديم . واذا نزل المضيف على من سبق له أن أكرمه في بلده قد ينكره أو يعامله معاملة جافة . ولم أجد لمثل هذا الضرب من الضيفان اسماً أطلقه عليهم ، وأمثالهم اليوم غير قلائل في كل بلد . ومتى شهدت بعضهم يستنكفون عن قبول دعوتك لهم في بلدك أيقن أنهم على غير استعداد لان يعاملوك بالمثل على اكرامك في موطنهم ، هم لا يرغبون في أكل طعام غيرهم حتى لا يأكل أحد طعامهم .

بحت بحبي لبعضهم فما قابلني عليه بحب مثله ، فأدركت أن من القلوب ما لا يعرف الحب ، واذا قدر لها أن أحبت كان حبها مزعزعاً يزول لأول عارض .

من يحاول أن يرأس قومه بالمكر يفقد متى ظهر أمره حتى ما كان له من صفات حسنة .

لي صديقان من الاعيان المثقفين ما قصرت في رعايتهما منذ أول نشأتهما وكانت لي يد في تحسين سمعتهما ، احتجت اليهما مرة في أمر يهمني فحولا وجههما عني ، واعتذرا بعد حين عن اجابة ملتمسي بأعذار لا تقنع طفلاً . أقبح بصداقة لا تتعدى المباسطة والمفاكهة .

قد يعيش المرء ستين سنة ولا يجتمع له أكثر من عشرة أصحاب

فاذاً تمخض الزمان عما يدعو الى خيبة الرجاء في وفائهم ، ودّ لو عاش حياته بلا صاحب ولا عشير .

ما ارتاحت نفسي الى صحبة المتكبر ولو كان ملكاً ، وكنت أفر من عشرة المتكبرين فرار السليم من الاجرب ، وكثيراً ما أتكبر عليهم بأكثر مما تكبروا عليّ .

يتجلى التواضع في الملوك بما لا يتجلى في الصعاليك ، والملوك لا يترفعون عن الناس الا بقدر ما يرفعهم خدامهم وعمالهم .

لا يروق اللؤماء أن يسمعوا ثناء على أحد ، كأن في الثناء على من يستحقه نقصاً في تكرمتهم ، وحطاً من أقدارهم .

كنت أذهب الى أن من المبالغات المألوفة ما قيل من أن الحسد يكثر في أبناء الحرفة الواحدة وفي العلماء خاصة ، ويخف كلما تباعدت الاجسام وتراخت الصلات بينهم ، فعلمني الزمن أن ما قالوه صحيح وأن تحاسد العلماء أشنع تحاسد .

يصغر الحاسد من عمل المحسود أبداً ، وأنت لا تقطع لسان الحاسد الا اذا سألته أن يعدد لك محامده ، وسؤالك هذا صفعة في وجهه ، وضربة على أم رأسه .

من دخل في المسائل العامة استهدف للنقد ، تصامم عما يقولونه فيك ان كنت تعتقد الصواب فيما تأتي وتذر ، والليالي كفيلة بادخال الملل على ناقديك ، فيكفون ألسنتهم عن تزييف ما لا تدركه عقولهم ، وأنت أبداً وطن نفسك على تجويد عملك ففي تجويده قهر كل منافس .

العاقل يحسب حساباً لكل شيء ، والجاهل لا يبالي الا بما فيه نفعه الملموس الموقت . ولا يزال الممتدن يعد للمستقبل عدته ، والمتوحش لا يهتم لغير الساعة التي هو فيها .

صاحب صاحبي صاحبي كما يقولون ، بيد أني غير مضطر الى أن أوالي من والاه وأعادي من عاداه . أنت قد تحب رجلاً وتكره أخاه ، وللحب والكراهية أسباب منها طبيعي ومنها اتفاقي . قد تستلطف شخصاً وغيرك يستثقله ، فلا تطلب الى كل أحد أن يحب ما تحب ويكره ما تكره . مقاييس الحكم على الحب والبغض تختلف وقاعدتها لا تطرد .

قد ينفق أن يعرف أحدهم بين أهل حيه بالاستقامة وحسن الخلق ، فاذا دخل في الامور العامة أو اشترك وغيره في مسائل اقتصادية تجلت حقيقته مجردة لا تمويه فيها أمام من طالما خدعهم بظواهره .

مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب لا يخلو من نقص ، ولو خلا كل الناس من العيوب لعدوا في مصاف الانبياء .

ذكروا أنه كان ينظر الى فلان في الحكومات السالفة بأنه من رجال الدولة ، فلما نُحي عن عمله قبع في بيته وما عاد يظهر في المجتمعات والمحافل ، ولا يسمع له صوت ولا رأي ، فقلت : انه عاقل اذ من الصعب أن ينال المرء الحظوة في دورين ، واذا أردتم معنى آخر فقولوا ان قيمته كانت بالكرسي ، وبمظاهرة من أجلسه على الكرسي فلما زحزح عنه لم يبق له الموقع الذي كان له في النفوس ، والتجلي لا يعاد .

اذا بالغت بمؤاساة صاحبك زدت صداقتك معه احكاماً ، وهو في حزنه أكثر أيام العمر احتياجاً اليك .

من غريب ما شهدته من صاحب لي يحب الدعابة كثيراً أن يصوغ

أمور الجد في قالب من الهزل أيضاً ، فاذا ما تخلى عن الهزل حتى في جده ظهرت البرودة على حديثه لخروجه عن مألوفه .

عالمان مصريان مسلمان يمت كل منهما لأخيه بصلة القرابة ، دعا أحدهما الى اتخاذ الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ، وتحمس الآخر للاستعاضة عن اللغة العربية الفصحى بالعامية المصرية ، ولو نجحت دعوتهما لنسلا الحجر الاول من بنية العربية والاسلام .

الحرص على الشهرة يورث طالبها سخرية أحياناً ، واذا غالى المرء في طلبها قد يكون فيها حتفه ، ومن وصل الى الشهرة في العادة ينهزم أمامها وهي تمعن في طلبه . الشهرة كالحسناء لا ينال وصالها كل من ركض وراءها .

الحقد يكمن في الحقود كمون النار في العود ، والحقود لايرضيه بمن حقد عليه الا قطع رزقه واسقاطه وأحياناً هلاكه .

رأيت بعض البيوت في الشام ومصر منقسمة الى حزبين سياسيين متخالفين ، على ماترى في البانيا نصف سكان البيت من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين .

لاتعتمد الا على من عرفت ما انطوت عليه جوانحهم ، اعتمادك على من لا تعرف منشأه وتربيته بوقعك في مشاكل كان يتأتى لك تفاديها من الأول .

المثابرة أس كل نجاح ، رأيت بيوتاً تجارية على شفير الافلاس ، وكان من مثابرة القائمين عليها ان استعادت بالصدق قوتها ومكانتها ورجعت الى خير ماكانت ترجو .

عجبت لمن يعتبون على أنا لم نوفهم حقهم عند الكلام عليهم بالقدر

الذي تتطلبه الحقيقة . ان من تمحضوا للبحث في سيرتكم كشفوا منها مالا تتوهمونه في أنفسكم .

من بنى مجده ببيده أفضل ممن هيأه له أهله . ومن عمل لنفسه بنفسه كان أقرب الى بقاء ما جنى ممن عمل له غيره ، ذلك لأن من تعب في جمع ماله كان أحرص عليه بالفطرة .

يخرج أرباب العبقريات من صفوف الطبقة الوسطى والدنيا ، أكثر مما يخرجون من صفوف الطبقة العليا ذلك لأن هؤلاء مشاغيل بمباهج الحياة عن كل ما يجلب الخير ويدفع الشر .

ماذا تقول في خُلق من لا يستحي من التصريح بأنه لا يهنأ له عيش أو يرى الفتن مشتعلة الاوار في كل بيت من بيوت أهله وعشيرته .

أسقط الحرف حرفة الجاسوسية وأفظع أنواعها ما ينقله الجاسوس من أسرار أمته الى أمة غريبة ، وما يكون فيه ضرر لمن ينقل عنهم وفائدة لمن ينقـــل اليهم .

لقلة ما يمر بالقروي من الحوادث يذكرك أبداً اذا أطعمته رغيفاً ، وساكن المدينة ينساك ولو أطعمته خروفاً .

قلّ أن شهدت أهل قرية لا يتعادون ، وما عهدت سكان ضيعة يثنون على جيرانهم من أهل الضياع الاخرى ، وليس تعادي سكان المدن بأقل من تعادي القرويين ، وبقدر ما يحب هؤلاء البعيد عنهم يبغضون القريب اليهم .

حريّ بمن جاوز السبعين وصحته متهدمة أن يتخلى عن الاعمال العامة برضاه لمن كانوا في سن تساعدهم على السعي أكثر منه . رأيت الطمع

يقوى في مثل من كانوا في هذه السن من الشيوخ فظهر لي أن ما قالوه قديماً من ان المرء يشيب وتشيب معه خصلتان الحرص وطول الامل ، ما كان صادراً الا عن تجارب طويلة .

المغني كالشاعر قد لا يمتنع من تعاطي ما تهيج به أعصابه وتكثر بتأثيراته خيالاته ، وهو بالافراط ينهك قواه فيعد في المستهترين .

يطيب الغناء والموسيقى في أوقات مخصوصة والاكثار من السماع أشبه بالاكثار من الهزل ، بعضه ولا كله .

اذا قابلت رجال الجد بالهزل ظنوا بك السخرية بهم ، مازحت مرة من ليس بيني وبينهم غير الرسميات فتألموا وأدركت حالا ما فرط مني وعزمت بعدها ألا أبدأ محدثي بشيء من الدعابة ان لم آنس منه استعداداً لقبوله .

كثيراً ما كانت الحال تحكم عليّ بتصفح بعض كتب الفلسفة التي كانت تصدر باللغة العربيه منذ أوائل هذا القرن فكنت أخرج منها بعد عناء العينين بلا زبدة وانقلب آسفاً على ضياع وقتي في تلاوتها — كما أسفت لتصفح بعض كتب التصوف — واذ كنت لاأرى أن أخدع الناس أصرح بأني ما فهمت شيئاً مما تلوت ، مخالفاً بذلك بعض أدعياء الفلسفة في مصر لعهدنا ، فانهم يبشرون بالفلسفة كأنهم من كبار العالمين بها ، ولا يخجلون من وضع أسمائهم الى جانب مترجمين ترجموا كتباً وهم لم يترجموا ولا يحسنون الترجمة من لغة من اللغات ، وأنا على ثقة انهم لا يدرون ما في الكتاب المنشور . يأتون ذلك ليقال عنهم انهم فلاسفة . ومنهم من يترجمون عن اللغات وهم لايدرون ما ينقلون . الفاظ عربية ومعان الله أعلم بحلها . ومنهم من يلفقون من عندهم تلفيقات يسمونها مصنفات وهم عند التحقيق لايدركون معنى لما ينشرون في الملاء ، ويبشرون به بين طلبتهم ومريديهم ، ومما يسجل أني كنت أفهم مانشره في الفلسفة من درسوها حق دراستها

من شباب العلماء وكهولهم وما اكتفوا بدعوى معرفتها وكنت أقرأ مايقع في يدي من كتب الفلاسفة باللغة الفرنسية وأتفهمها ، ولكني ما جوزت لنفسي أن أدعيها قط أو أكتب فيها رسالة أو مقالة لانها لم تتشربها نفسي كما هو الواجب .

يكثر بعض العظماء الى اليوم الزواج من عدة نساء عدا من يتمتعون بهن من السراري ، ويفضي بهم هذا الغرام الى تداعي صحتهم ، فاذا زيد على ذلك معاطاة الخمور أو المخدرات اجتمع عليهم داءآن ، وما اجتمع الداءآن الا ليقتلا . رأيت أميراً من هذا الصنف في أواخر العقد الثاني من عمره كان يجمع على عصمته أربع زوجات ، وعرفت كبيراً تزوج من النساء مئة وثلاثين امرأة ويعد أولاده بالعشرات .

الفرق بين الجاهل والعاقل أن الجاهل يستسهل كل شيء من غير استعمال عقله ، والعاقل يفكر ابداً في الامور قبل الاقدام عليها يعطيها حقها من النظر والروية .

لاتنظر الى اخوانك نظر الزاهد في محبتهم ، اذا اشتهر ذلك عنك لايبقى لك من يعطف عليك .

الموضوعات أكثر من الكاتبين ، والمشاركون أوفر من الاخصائيين ، والعالمون أقل من العاملين .

من القرى ما سلم أهله من داء التعصب الذميم بعض السلامة فباكروا تعليم أبنائهم ونجحوا نجاح أبناء المدن وزيادة . ومن أهل القرى من قتلهم تعصبهم فرضوا بالجهل لأولادهم مخافة أن يكون من التعليم بزعمهم ما يفسد عليهم دينهم ، فظلوا على جهالة بادية تناول ضررها دنياهم ودينهم معاً .

ما كنت أظن أن من أهل القرى في هذا العصر من يضنون بأولادهم على الدرس في مدارس مجانية منظمة ، ويرسلون بهم الى قرية مجاورة ليتعلموا في كتاب فاسد الطريقة ، بدعوى أن مدارس الحكومة تخرجهم تخريجاً يبعدهم عن دينهم ، وهؤلاء التلاميذ هم أبناء فلاحين ضعفت عقول آبائهم بما لقنهم أدعياء التصوف من خيالات وأوهام .

من أعجب الظواهر الاجتماعية أن تجد الطرق الصوفية من يدين بها في زماننا زمان النور والمعارف . ليت الحكام يشتدون في عقوبة من يخالف القوانين النافذة في الدولة فيقفلون مثلا كل كتاب يؤخر ترقي الابناء والبنات ، ويفضون كل اجتماع لاينجلي الا عن سخف وهراء .

اقترحت غير مرة على صديق لي يشتغل بالسياسة وقد جمع بين ثقافتين أن ينصرف الى التأليف مدة فيكتب ما يثبت به كفايته باللغة العربية ليفتح له باب المجمع العلمي العربي ويشارك أعضاءه في جهادهم فيفيد ويستفيد فكان يعدني وعداً ضعيفاً . ومن اخذت السياسة من قلبه وعقله لا شأن للعلوم والآداب في نظره .

قال العلامة كرينكو المستعرب المشهور : مافرحت حياتي كفرحتي يوم تفضل المجمع العلمي العربي وضمني الى أعضائه . وأنا قلّ أن عهدت شرقياً انتخب عضواً في هذا المجمع وظهرت منه العاطفة التي ظهرت من صاحبنا الغربي . الغربيون اجمالا أكثر من الشرقيين تقديراً للاشياء .

كان لي صديق من أعيان رجال المعارف وعلى جانب من العلم ، زينت له أن يكتب كتاباً في تاريخ التربية عند العرب ، ووعدته أن أدفع اليه ماعندي من المواد في هذا الموضوع ، وعندها أسعى لانتخابه عضواً في المجمع العلمي فكان يسكت ولا يجيب . والغالب أنه ملّ من الحاحي فأرسل اليّ مع صاحب لي وله يقول ان ما يهمه في العالم وظيفته

وبها كفايته ، أما مسألة دخوله في المجمع فيرجو ألا أذكرها له بعد الآن فكففت عن الحاحي .

انتخب المجمع العلمي العربي بعض السنين عضواً مراسلاً فاعتذر . فسألته عن سبب رفضه ، فقال انه داخل في جمعية الصعاليك ولا يليق بالصعلوك أن يكون عضواً في مجمع علمي . ولما اختاره مجمع آخر عضواً فيه خرج عن صعلكته فقبل العضوية ، لأن في المجمع الثاني فائدة مادية ، وفي المجمع الأول معنويات فقط ، والمعنويات لاتهم على الغالب كل انسان .

من بدأ منذ فجر حياته باشادة مجده على دعائم راسخة ، وما ونَت له همة حتى سن الشيخوخة ، كان كمن شاد قصراً منيفاً في شبابه وظل يتعاوره بالتحسين والتزيين بما يعجب به كل من دخله من أرباب الذوق السليم .

يظن بعض ضعاف العقول أن التزوير يخدع به من يرتكبه ماشاء الله أن يخدع ، ومتى افتضح المزور في مسألة واحدة ينتثر عقد تزويراته بأجمعه ، ويتجلى ما كان مستوراً عن الأعين .

ارحم الظالم والمظلوم : الظالم لِما سيلقى على ظلمه في الآجلة والمظلوم لِما يناله في العاجلة من ظالمه ، وكلاهما جدير بالرحمة .

مجلس يضم عدة عناصر يحاول كل واحد فيه أن يستولي على عقول المجتمعين ويتكلم بلغته فقط ، كمجلس يتألف من أحزاب جمة كل فرد فيه يصحح مشربه وهواه .

دعوت أيام الوزارة الى الاجتماع اليّ في الديوان ثلاثة عشر دكتوراً في الحقوق والآداب وقلت لهم : ان الأمة علمتكم في جامعات الغرب وهي فقيرة ، على أن تعلموا أولادها ، فرجائي اليكم أن يعد كل واحد منكم لهذا العام محاضرة أو محاضرتين يلقيها في المجمع العلمي العربي زكاة

علمه ووفاء لحق وطنه ، واعلموا أن هذا المجمع ليس اليوم بحاجة الى محاضراتكم لأن له من علم اعضائه الذين ستخلفونهم بعلمكم فقط مافيه الكفاية الآن . واذا صح عزمكم على اجابة طلبي تجعلون من هذه المحاضرات كتباً ينتفع بها القاصي والداني وتخلدون بها أسماءكم ، فوعدوني خيراً ، والى الآن لم يفوا بوعدهم ، وأظن أكثرهم نسوا ماتعلموه في المدارس ولا يذكرون اليوم الا ما لا بد منه للتوظف .

اجتمعت في سويسرا الى طالب من أهلها وهو في سن المراهقة ، ومن تلاميذ المدارس الثانوية ، فشاهدته يفكر في الموضوعات التي تطمح نفسه الى الخوض فيها في مقتبل أيامه ، ويعد لها العدة في مفكرات وجزازات ، وما رأيت من تخرجوا من أبنائنا من الجامعات من ساروا على هذا النهج السديد ، لاعتقادهم أن ما يلزمهم التفكير فيه هو تحت أيديهم متى أحبوا الكلام فيه ، ولذلك لايرون أن لا يشغلوا أوقاتهم بأشياء قد تلزمهم وقد لا تلزمهم . وهذا من جملة الفوارق بين شبابنا وشبابهم .

شاهدت في بعض الرؤساء من الكذب والتزوير والدس ما لو قسم على أهل حي كانت من المدن الفاجرة ، ومع هذا يعد الاغبياء ذلك منه دهاء وسياسة .

استغرب بعض المفكرين اهداء أحد أمراء العرب ثلاث سيارات فخمة لمغنٍّ وراقصتين في مصر وانفاقه أربعمائة ألف دولار على مآدب أقيمت في أميركا ، فقلت : هذا مال لم يتعب منفقه في جنيه .

لما زار الامبراطور غيليوم الثاني الألماني السلطان عبد الحميد الثاني العثماني في عاصمة مملكته أهدى السلطان للامبراطورة تاجاً مرصعاً بالجواهر الكريمة قيل انه صرف فيه خمسمائة ألف ليرة عثمانية ذهباً ، فقال الامبراطور ان السلطان لا ينظر في العواقب ، وفي رواية انه مجنون . كان يكفي أن يهدي

صورته وعليها توقيعه ، وينفق هذا المبلغ العظيم في تعزيز أسطوله حتى ينافس بقوته أسطول اليونان جيرانه على الاقل .

باقتصاد بعض الممالك العربية ماتنفقه على السيارات فقط توفر أموالاً عظيمة تكفي لتأسيس مدرسة في كل حي ومنزلة وقرية ومدينة من أرضها .

في أي طبقة من طبقات الملوك تضع يا ترى من يبذر الاموال تبذير جنون ، وأهل بلاده يمرضون ولا من يطبهم ، ويجوعون ولا من يطعمهم ، ويعرون ولا من يلبسهم ، ويجهلون ولا من يعلمهم .

أولع الغربيون بالرجوع الى الاحصاءات يبنون أحكامهم عليها في كل ما يحزبهم من المطالب . ليت من انتفخت أوداجهم بما أورثتهم مناصبهم من الزهو يرجعون يوماً الى طريقة الاحصاء ليحصوا لنا ماتم على أيديهم لخير أمتهم .

اذا لم يكن العالم على مستوى متقارب بين علمه وأخلاقه فأي مجلد من مجلدات العلم أنفع منه ومن علمه ، أي أن الجماد الصامت في هذه الحال أفضل من ذاك الانسان الناطق .

عرفت فناناً قضى شبابه وكهولته وهو يشرب ويطرب الى الهزيع الثاني من الليل ثم تاب وأخذ يصلي ويصوم ويتعبد ، ثم دخل في طريقة أجمع أهل الاسلام على أن تعاليمها الكفر بعينه ، ثم تخلى عنها وبقي على حالة لا تستطيع أن تحكم عليه مع من بقي . في الناس من يؤمنون بلا عقل ، ويكفرون بلا عقل . والنفع المادي هو المحرك الاول لشعورهم على الاغلب .

ماضنّ المهاجرون من السوريين بما يرفع من مكانة وطنهم الاول ، يجودون لانهاضه بألوف الالوف راضين مغتبطين . وطنية الشامي تزيد

كلما شاهد المغتربين من الأمم الاخرى يبذلون كل نفيس لانعاش مساقط رؤوسهم .

باسم الطريقة عبث شيخ في الغوطة بعفاف بعض الابكار من بنات مريديه ، وباسم الطريقة ادعى مصري النبوة فيما قيل واعتصم بالغوطة يرتزق فيها ويرفه عن نفسه . طريقة الاول شبكة لاستراق الجمال وطريقة الثاني أحبولة لسلب المال .

روى أحد السياح ماذكروه له من المبالغة بمدح رئيس سابق فقلت له كذب من قال هذا ، ولا شك أنه كان عبداً من عبيده يلتقط فتات مائدته ، فلم ير عزاء لنفسه وقد رأى سيده هوى ، الا هذا الاختلاق البايخ يعزي به نفسه .

اصطحب رجلان سهلي وجبلي ، وكان السهلي صاحب دعابة ، فقال الثاني للأول : الآن يجيء ابني فترى جمال طلعته وتشهد ظرفه ولطفه ، اني أحبه وأعجب بصفاته . وجاء الصبي وهو في نحو العاشرة فلما رآه السهلي قال لصاحبه : قل آمين ، وأكد عليه ثلاث مرات أن يقول آمين من أعماق قلبه فقال : الله يقصف لك عمره ، ما نظرت عيني صورة أبشع من صورته فهو كالمسخ ، ولا قذارة كقذارته ، تستقذره كل عين تراه ، ولا هنداماً أبشع من هندامه . لو كان الامهات لايعنين بغير تربية الجميل من أولادهن لهلك قسم عظيم ممن يلدن ، ولكن القرد في عين صاحبه غزال .

طبعت على تقدير أعمال الرجال والتنويه بالعاملين من النابتة ، وربما زدتهم من الثناء لأبعث هممهم ، كنت اراني مسوقاً الى هذا الخلق لأني كنت في مقام يقتضي الاخذ بأيدي المقصرين حتى ينشطوا ، وكان بعضهم ينكر عليّ صنيعي هذا وآخر بعده مما ينافي الاعتدال ، والاعتدال يوجب

عندهم أن توزن أفعال الناشئة بالمثاقيل والا عدّ المشجع غالياً وربما حسبوه مصانعاً . ولا أدري أي الخلقين أجدى على المجتمع التنشيط أم التثبيط . أنا وفريق كبير من اخواني درجنا على أن الخير في مدح العاملين ليزيدوا نشطة ، وغيرنا آثر الاعتدال فقطع بعضهم في منتصف الطريق بما أوهن من عزائمهم حتى لم يكد يظهر منهم رجل يعد شيئاً . وبهذه الطريقة دفعت الشباب الى التعلم ، وأشعت الغيرة في نفوسهم ، وقويت المنافسة بينهم . أما صنف المعتدلين فقد أخفقوا هم ومن تطوعوا لاضعاف همهم . ما أشبه من يحتقر عمل العاملين الا برجل قليل البضاعة يخشى عليها البوار اذا ترك المجال لمن يشاركونه في الاتجار بمثلها . وأقبح بذلك من خلق فيه ضيق عين وضيق عطن .

أخطأت بأن فتحت قلبي لمن توهمت فيهم الصداقة فغششت نفسي بهم ، ونسيت أنهم ما بنوا صداقتهم الاعلى أغراض . فكان منهم من يتقلب تقلب الحرباء تراه في الصباح غيره في المساء ، وهو في الآخر غيره في الاول ولعله ما كان يشعر بما يأتي ويذر . وسواء كان النسيان أو التناسي أو غير ذلك من حالات النفس هو الذي حملهم على ماحملهم فان هذا الخلق قبيح وجدُّ قبيح . بعض من توهمتهم من المصريين أصدقاء ثبت بعد التجربة أنهم معارف فقط أظهروا الميل الي لمأرب من المآرب ، فكان ضررهم عليَّ لايعتد به ، أما الشاميون فكانت العلائق بهم اوشج ، ولذلك كان أذاهم أشد .

رأيت تجاراً لايلذهم الا أن يظهروا بمظهر التقوى والصلاح ، يستحلون اهداء بعض كبار رجال الدولة ابتغاء فائدة مادية يتوقعونها منهم ولولا ذلك ما أهدوا ولا تقربوا . من خلق التجار الشح لا يخرجون عنه الا اذا وقع في نفوسهم أن ماينفقونه على غير العادة هو لزيادة ثروتهم . أنا لا ألوم التاجر على خلقه هذا ، فمن أخلاق التجار الاحتيال على الكسب

وانما ألوم ذاك الذي قبل هديته حتى يدوس القانون ويربحه الألوف من دم الفقير .

لو رضيت أن أسكن مصر عاملا من عمال قصر الملك فؤاد لأبغضني ثلاثة أرباع من تعرفت اليهم من اخواني المصريين ذلك انهم يفسرون رضاي بالخدمة عندهم أني جئت أشاركهم في خبزهم واعتدي على حقوقهم .

من المشاهير من تزيد عظمة دولتهم في مكانتهم وتوليهم صيتاً بعيداً ، ولا يرزق شهرة عالمية الا من اشتغل بالسياسة العامة ورددت صحف العالم اسمه شهوراً وأعواماً بالخير أو بالشر ، وشهرة العالم أقل من شهرة السياسي على كل حال .

متى أحب شعب القضاء على أحد رجاله جمع له من المساوىء ما صح وما لم يصح . لما عزم الطامعون في الخلافة على دفع بعض خلفاء الأمويين عنها اتهموهم بتهم كاذبة لايقع فيها المجانين .

اذا أراد امرؤ قتل كلبه ادعى انه مصاب بالكلب ينهش ويؤذي ، واذا مالت نفس رجل الى طلاق امرأته نسب اليها من العيوب مالا يجتمع مثله في عشر نساء قبيحات .

قلت لصاحب طلب اليّ أن انشر له في الجريدة مؤاخذات لعامل بلده ، وكان صديقي أيضاً ، ونشرت له ما اراد وانا موقن صدقه ، فلما عزل العامل بما كتب فيه عزمت على صاحبي أن يصدقني ، وقد تم له ما سعى اليه من عزل العامل فسألته هل صح كل ما اتهمته به فقال : لا والله مارأينا أعف منه يداً ولساناً وفرجاً الا أننا لا نحتمل هذا العيار من الرجال ونحب من حاكمنا أن يأخذ منا ويعطينا ، وهذا كان كالخشبة قطعة واحدة لا يلين .

لا يظهر الرجل المثقف بمظهره الحقيقي من الاخلاق الا يوم يتولى عملاً تكون له فيه سلطة ، قد يكون الرجل ممن لا بأس بثقافته واذا كانت أخلاقه التي ورثها من أهله ناقصة نقصاً فاحشاً تفقد ثقافته بعض نفعها .

كنت أذهب الى أن الكسل خاص بأهل مصر لمكان الحرارة في قطرهم ، واذا به منتشر في سكان الشام وخصوصاً بين المتعلمين ، ماأغنى عنهم جودة الهواء واعتدال الاقليم .

انك تشتغل بالعبث اذا حاولت أن تجعل من البخيل كريماً ، ومن الطائش حليماً ، ومن الجهول عليماً ، ومن المعجب بنفسه حكيماً .

ادعياء الوطنية

لقيت سورية من أدعياء الوطنية منذ قام الحكم العربي على عهد الامير فيصل ما أزعجها وأقض مضجعها ، فدخل الخلل على مصالحها من أول تأسيسها ، وسارت سيراً نكراً تزعزعت له حالتها الاقتصادية ، والاقتصاديات أول مايحكم بها على أمة فهي معيار سير الدول والامم .

قرأت في مذكرات صديقي الاستاذ فائز الغصين قوله : « دخلت البلاد في السنتين اللتين دام فيهما الحكم الفيصلي في عهد جديد ، الا أنه لم يدم طويلاً ، فقام بعض من يعتبرون أنفسهم وطنيين وعالمين بالسياسة أكثر من كل أحد ويعدون سواهم من المارقين ، يوجهون الشعب نحو عداء الافرنسيين والانكليز على السواء . هذا وسورية ليس لها جيش يومئذ يصد عنها عادية العدو اذا أراد بها سوءاً ، فكنت ترى الشعب على اختلاف طبقاته متحمساً . يدلك على هذا التحمس ما أجابني به أحد المتطرفين من أن له قلباً يحارب به سبع دول . فسألته ولماذا

تحاربون فرنسا وانكلترا في آن واحد ؟ حاربوا احداهما حتى اذا ماتغلبتم عليها تحاربون الاخرى ! وادرك الانكليز ألا فائدة في انحيازهم الى السوريين ، فتركوا سورية واتفقوا مع الفرنسيين ، فكان ما كان من احتلال الفرنسيين لسورية الداخلية وعجز الجيش العربي ، واستلامه السريع . وبان خطأ رأي هؤلاء المتبجحين وكانوا ولا يزالون شراً على البلاد بآرائهم وتوجيهاتهم الخاطئة . هذا ما كتبه القاضي العادل في مذكراته ، وهكذا رأي العقلاء من هذه الفئة الجاهلة التي ولت نفسها الزعامة واستأثرت بحق الكلام عن السوريين من دون توكيل منهم ، وذلك في أحرج الأوقات التي صارت اليها حالة ديارنا بعد الحرب العامة الاولى .

وما ننسى اليوم ما كان من تزعم « شيخ كتاب » يملي ارادته على الأهلين وعلى الأمير فيصل ، ويبث في النفوس روح الثورة والعداء للأجانب ، وكان بعمله الأخرق سبباً في إزهاق أرواح مئات من الناس ، وما كانت غايته إلا الظهور والاستئثار بالمغانم ، وكان يزبد في رعونته كلما رأى آراءه مسموعة ودعوته في تضليل العقول ناجحة . وهو بما أتاه لم يخسر شيئاً ، وكان الخاسرون من ساروا في ركبه مغرورين مخدوعين ، أما هو فجمع ثروة عاش بها مرفهاً . ومن الغريب أن يظل مرجعاً يعتد برأيه الى عهد قريب ، بعد أن رأى الشعب خطأ جميع مناهجه في السياسة .

وكان هؤلاء الدعاة الذين تولوا الكلام في سياسة الأمة زمناً يوقنون أنهم لا ينجحون فيما يحاولون بلوغه الا اذا نالوا من المؤتمنين العارفين . وكان أيسر شيء عليهم الطعن في وطنية من لا يشايعهم في أفكارهم . ولا يتعففون عن حمل الأذى اليهم ، وتراهم تحت الطلب لكل من يدعوهم الى القيام بهيجه سياسية أو حزبية وهم من الصنف الذي يخدم بضعة أحزاب ويبدل عدة مشارب ومذاهب في مدة قصيرة .

والى اليوم وبعد مضي زهاء احدى وثلاثين سنة قضتها سورية في محنة السياسة الخرقاء لا يزال من ساروا على طريق الضلالة يتحفزون للوثبة كل ساعة وهم على قدم الاستعداد لالقاء الامة في تهلكة لقاء مغنم ينالونه ، لولا أن قلمت القوانين من أظفارهم وعرفتهم الأيام أقدارهم .

الوزراء المتجلون

قسم عظيم ممن تولوا الوزرات منذ أول عهد الانتداب في سورية ولبنان لم تسبق لهم خدمة الحكومات من قبل وكانوا وسطاً ، وأقل من الوسط في سياستهم ، وما تولوه من فروع الادارة . وكان جهلهم بعض الامور سبباً أكبر في اخفاقهم ، يخرجون على القوانين لأنهم لا يعرفونها ويرتكبون أغلاطاً فاحشة لا يدرون . وأدنى نظرة في حركاتهم تقفك على سيرتهم حتى وصلوا الى كرسي الوزارة ، وماذا كانت الوسائط التي تذرعوا بها ومنهم من حرم الذكاء والتعليم الابتدائي ، وتولوا رئاسات الوزارات أيضاً ، وأتى عليهم زمن وهم يديرون عدة وزارات في آن واحد وجماع مالهم من رأس مال ، معرفة الطرق الى توجيه الوزارة إليهم واتقان الدسائس التي يستخدمونها يوم تخونهم قوتهم . ومما ساعدهم أن أرباب المقدرة لما شاهدوا الحكم يصل الى مثل هذه الأيدي عزفت نفوسهم عن تولي المناصب ، فكانت المصيبة مزدوجة ، لم ينتفع بالصالح للخدمة ، وتقلدها محدود الفكر ، قليل الخبرة .

من عيوب المجتمع

أليس من عيوب الحضارة أن تتوسل بعض الممالك الراقية الى الاحتفاظ بأسعار حاصلاتها من طريق اتلاف الزائد عن حاجة الأسواق . فقد أتلفت هولاندة مئات الألوف من البقر والخنزير ، وجعلت كندا من حنطتها وقوداً للقاطرات ، وأحرقت أوستراليا حبوبها ، وقطعت البرازيل مئات الألوف من أشجار البن لتخف غلاتها ، وفاضت حاصلات الولايات المتحدة من الحبوب والبطاطا فنصح بعضهم للحكومة أن تبيد الجزء الزائد منها لتصل الى السعر الذي يرضيها .

كل هذا وملايين من البشر في الصين والهند يموتون في المجاعات من قلة الغذاء وليس في الغربيين من ينجدهم بما هم مستغنون عنه .

خواطر

عهدي ببعض المتأخرين من شيوخ الأزهر وقد تمثلوا الشريعة صافية نقية كالشيخ المراغي ، ومنهم من مزجها بالطريقة والحقيقة كالشيخ الظواهري . مذهب الأول مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الثاني مذهب ابن عربي الباطني المتصوف ، الأول هو الاسلام ما شابته شائبة والثاني خطوط من الشريعة اختلطت بأوهام وأحلام . وشتان بين الطريقتين والشيخين .

كان انسلاخ الولايات العربية من جسم السلطنة العثمانية شراً على الترك وخيراً للعرب ، استقلت أربع دول عربية : العراق واليمن والحجاز ونجد ، وأربع دول في الشام : سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن .

ودبت في جميعها الحياة السياسية والاقتصادية ، وكانت أيام الترك أشبه بمدن الموتى لا حركة ولا سكون .

أسلوب الانكليز في القضاء أدخل في الأسلوب العملي منه في النظري ، والتطويل في فصل الدعاوي طريقة الفرنسيس ، وكان العرب في الجاهلية والاسلام يرغبون في الحكم الحاسم السريع وهم على ذلك الى اليوم .

من العظمة ان يفعل المرء الخير لا يمنّ ولا يستكثر ، وأن يدفع حتى عن عدوه غائلة تصيبه ، ولا يصرح بما تحمّل لانقاذه ، وان يقوم بما يفرض عليه من الاحسان لقومه من غير أن يتوقع الاشادة بذكره والتنويه بفضله ، وأن يحسن لمن هو في حاجة الى الاحسان ويتناسى ما اسدى اليه ، وأن يتواضع للصغير قبل الكبير ، فالمتواضع يكتسب القلوب من دون ثمن ولا عناء . ولا يكفي المرء أن يكون عظيماً كما قال أحد عظماء الغرب ، والواجب أن تبدو عظمته في الوقت المناسب .

لك أن تُعَرّف التجربة بأنها زبدة النافع في الحياة من جهود الانسان ، ومن التجارب نشأت بعض العلوم كالطب والسياسة ، ومعظم ما فيه سعادة البشر على هذه الأرض هو ابن التجربة . وُجِد مكتوباً على احدى المذكرات : التجربة شعار أسلحة مؤلفة من كل سلاح جُرحنا به .

لا يُنتفع بنصح الناصح ان لم يكن من نصح له حسن الظن بناصحه .

تكثر مشاريع أرباب الذكاء النادر فتتوزع قواهم ويكون نجاحهم وسطاً . يقول كيتي شاعر الالمان : التفكير سهل والصعوبة في العمل ، والعمل بحسب الفكر أصعب شيء في العالم .

كنت أتمنى ألا أعرف تراجم بعض الرجال على حقيقتها حتى لايسوء ظني بالبشر ولا ينقطع أملي من اصلاحه . واليوم أتمنى ألا أقف الوقوف كله على أخبار دول الشرق الادنى ، وفي ديار العروبة خاصة ، حتى لاأصاب باليأس من نهضة شعوبه المؤلفة من أعضاء صالحة وأعضاء فاسدة .

تعيش الممالك بقوة التسلسل ، ولولا الخوف من القوانين ما قام في القرى والمدن حجر على حجر لأن الانسان في ذاته متوحش مخرب حسود طماع .

في احصاء دولي حديث أن سكان انكلترا يتقدمون الامم كلها في قراءة الكتب ، فقد تبين ان ٥٥ في المئة من الانكليز يقرأ الفرد منهم كتاباً واحداً في الشهر على أقل تقدير . ويجيء بعدهم النروجيون يقرأ منهم ٥١ في المئة والفرنسيس ٤٩ والكنديون ٤٢ والالمان ٤١ والطليان ٣٤ والسويديون ٣٣ والاميركان ٢٠ . ومن حقنا هنا أن نسأل كم واحد في الالف يقرأ الكتب يا تُرى في مصر والشام ، أعظم بلاد العرب مدنية . واذا كان لا يقرأ الكتب عندنا واحد أو اثنان في الالف فيالشقاء الآداب في هذه الامة ويا للعار يوم يجري التنظير بيننا وبين اقل أمم الغرب قراءة .

كنت في الطفولة مولعاً بتسلق شجرتين الميس والزعرور أقطف من ثمرهما وأتخطى أشجار الفواكه اللذيذة في مزرعتنا . دليل على أن الطفل أيضاً يحب الشيء النادر ويؤثره ولا يميل الى المبذول .

قلت لاحد كبار أعضاء الجامعة العربية ان معنى القرار الذي اتخذتموه في التزام الحياد في حرب كوريا أن الدول العربية ستلزم الحيدة في النزاع القائم بين الدول الديموقراطية والدول الشيوعية . فقال : اذا ضغطوا علينا فلا فائدة من قرارنا .

أشرت في هذه المذكرات الى أن النظام الشيوعي لا تهضمه كل الامم ، والمسلمون في مقدمة من ينبذونه ، لان تعاليم الاسلام تخالف مبادئ الشيوعية في بعض المسائل . وليست الاقطار العربية بحاجة الى هذا النظام الجديد لتوزيع الثروات توزيعاً عادلاً في الجملة ، والثروات عندنا لا تشبه بضخامتها ثروات الغرب اللهم الا العراق ومصر ، وهذه تنظر الآن في غنى الأغنياء لما فيه مصلحة الفقراء ، ولذا يجب أن يكون هوانا مع الدول الديموقراطية لانا ما عهدناها ـ ما عدا فرنسا ـ تدخلت في شؤوننا الدينية وما منعتنا من الاستمتاع بحرياتنا . ولو قد تيسر لنا ان نكون على الحياد حقيقة في هذا الفزع الاكبر لكان من ذلك الخير لنا أمّا وهو متعذر فالحياد قد يضرّ بنا . لا تبني الدول الحازمة مستقبلها الا على العقل والتفكير الصحيح . حرب بشروط مقبولة أفضل من حياد عاقبته مجهولة .

كتب اليّ من نيويورك صديقي الاستاذ فارس الخوري عضو جمعية الامم يقول : نحن هنا نعالج أضخم القضايا المهددة للعمران البشري كله باحتمال اشتباك ألفي مليون من البشر في حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر . والظاهر أن العقائد الاجتماعية أشد تحكماً في النفوس من العقائد الدينية ، فالصراع الراهن هو بين نظامين اجتماعيين النظام الذي يسميه أصحابه الغربيون ديموقراطياً ، والنظام الشيوعي الذي يسميه آله الآخرون ديموقراطياً أيضاً . وهذا الثاني يطلب التوسع ويأخذ خطة الهجوم ، والأول منهما يطلب العافية ويشتد في الدفاع عن نفسه ليحصر الشيوعية في دوائرها حذراً من أن تجتاح المعمور كله ويجرف تيارها ديار الغرب كما جرف الشرق ، والظاهر أيضاً أن الوقت أي الزمن يجري مع الشيوعية ويكسبها أنصاراً ومعتنقين سنة بعد سنة فمن مصلحة الغربيين أن يسرعوا بالقضاء عليها في مهدها ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وهم يعرفون ذلك

ويهمون بالعمل ولكنهم يحسبون لهذه المخاطرة ألف حساب . وها نحن في الامم المتحدة نصارع المفاجآت ونحاول خفض شوكتها وقد أثمنا انفسنا نحن الدول الآسيوية الأخرى مقام الوسيط المحايد لعلنا ننجح في كشف هذه الغمة مع العلم أننا لا نعقد آمالاً راجحة على النجاح اه .

هذا ما كتبه الأستاذ يوم ٧ كانون الثاني ١٩٥١ ومعظم الامم في الشرق والغرب تستعد هذه الأيام للحرب والعالم كله من خشيته في بلاء لم يشهدوا مثله .

يتشابه المصريون والشاميون من وجوه ويتباينون في أخرى . تكثر الغباوة في مصر ممزوجة بذكاء وخفة روح واهمال . ويكثر الدهاء في الشام يخالطه ذكاء على غلظة وجهل مع جد . واضر الغباء والوناء مايتراءى في بعض الطبقات التي درست الدروس العالية وتولت امراً من امور السلطان .

انتدبت وزارة معارف احدى الدول العربية رجلاً من حملة الشهادات العالية ليتصل برجال المعاهد العلمية في بلد مجاور ، فأتى عليه أشهر لم يواجه خلالها أحداً ممن أمر بالاجتماع اليهم . وانتدبت بريطانيا العظمى رجلاً من أبنائها لمثل هذا الغرض في حكومة عربية ، فاتصل ثاني يوم وصوله بأرباب هذا الشأن ودام على اجتماعه اليهم مرتين في الاسبوع ، حتى استوفى ماندبته حكومته للوقوف عليه . تأمل همة العربي وهمة الغربي وقدر لنفسك جهل الأول بالواجب ومعرفة الثاني بكل ما في الواجب من تبعات .

يظن بعض من تخدعهم الظواهر أن في رجال الدولة ذكاءً فائقاً وعلماً نادراً وتجربة عظيمة ، ولو خبروهم لرأوا جمهرتهم من المتوسطين في مزاياهم على الأغلب ، وبالمصادفة او الاحتيال فقط وصلوا الى ماوصلوا اليه

دأبت جريدة المقتبس على ذكر الحسن والقبيح من أعمال رجال الادارة والقضاء على العهد العثماني . وكانت حكومة تلك الأيام ترتاح غالباً الى ملاحظاتها فتبادر الى نقل عمال السوء أو عزلهم او انهاء خدمتهم ، وقد سرحت مرة محكمة الاستئناف بكل ما ضمت من رئيس وأعضاء وكتاب حتى الآذنين والمحضرين . ويعدُّ بالعشرات من كانت جريدتنا سبب زحزحتهم عن مراكزهم . ولما جئت أدون مذكراتي كان موضوع سيئات الموظفين من أهم ابحاثها ، ذلك لأن طلائع الاصلاح لا تبدو الا يوم يطرد الخائنون من خدمة الحكومة .

كنت في الجريدة أكتب كتابة تؤثر في الحال وتضيع من الغد ، واليوم أكتب ما يحفظ وينتفع به في الحاضر والمستقبل ، ولا قصد لي الا تطهير جهاز الحكم ليبدأ الاصلاح سليماً من الشوائب . فيما مضى كنت أتطلب الممكن من الاصلاحات فوفقت الى الضرب على أيدي بعض الخونة ، وبالطبع لم يرض عما كتبت من نكبوا برزقهم ، وافتضحوا بسيئات أعمالهم . ولقد اغتبطت بما أقدمت عليه لأني أفضل أن ينكب الفاسدون الذين اعتادوا الاضرار بالناس والدولة ، وأن أكون واسطة لتخفيف الظلم عن هذه الأمة المسكينة ولو بعض التخفيف .

ابتنى صاحب الحجاز ونجد وولي عهده قصرين فخمين في الطائف ومكة قيل انهما قاما عليهما مع فرشهما بمليونين من الجنيهات المصرية . ولو أنفقا هذا المال العظيم في نشر العلوم والصناعات وتعبيد الطرق والاصلاح والري بما يضمن للشعب القوت الضروري لأقام لهما قومهما متى شبعوا عشرة قصور أفخم من هذين القصرين اعترافا بجميل المليك العربي وابنه .

كنت منذ أيام الشباب اذا قرأت كتاباً باللغة الافرنجية في موضوع طريف أحدث من اجتمع اليهم بخلاصة ماطالعت ، وأورد عليهم ما علق في ذهني من موضوعه ، فاذا أتممت حديثي لا أعدم رجلاً من أهل المجلس

يتمنى عليّ أن أنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ويصادق بعض من حضر على قوله . وقد يكون بعضهم ممن يحسن النقل من لغة غربية وعلى شيء من العلم . وما شهدت واحداً يقول : في نيتي اقتناء هذا السفر وترجمته فما رأيك ؟ اعتاد قومي ان يحمّلوا جميع الأثقال على عاتق من يرون له بعض قوة ، لا أن يتقاسموا الحمل ليخف حمله ويشتركوا جميعهم في أجر حمله .

اتقاء ثلاثة امور تحفظ على المرء بعض صفائه في الحياة وهي الا يتزوج من أقاربه ولا يزوجهم ولا يشارك صديقاً له في أمور مالية ولا يفرق ثروته على ورثته في حياته .

عهدت رجالاً ظهروا فجأة في عالم الشهرة ، واقتربت منهم أمعن في حالهم ، فاستبان لي انهم دون الوسط بعقولهم ، وأقل من الوسط بمعارفهم ، سادوا وليس لهم من أسباب السيادة شيء يذكر ، فصدق عليهم ما وصف به فولتير الفيلسوف احد مواطنيه يوم قال انه كان قائداً وما مست يده سلاحاً طول حياته ، وكان عضواً في المجمع العلمي ولم يمسك القلم بيده .

كانت بريطانيا العظمى اذا جرى ذكر الدول تقول بلسان الحال انها ليس لها مع احداهن صداقة ولا عداوة . وانها لا تهتم لغير مصلحتها ولهذا لا يستغرب تخليها عن الصين الوطنية واعترافها بالصين الشيوعية ، وفي كل عصر كانت صداقة انكلترا موقتة تستعين بمن تصادق على الخروج من مأزق وقعت فيه فاذا امنت عدوتها تخلت عن صديقتها ، وسياستها على كل حال خالية من العاطفة .

مئات الالوف من السيارات صُرفت فيها عشرات الملايين من الجنيهات تجول في هذا الشرق القريب ، ناعية على أهله اسرافهم وعلى حكوماته

قلة بصيرتهن . ولقد كثرت السيارات في لبنان (فيه ٤٨ الف سيارة لمليون وربع مليون من السكان) حتى كادت تصبح عاصمتها مستودع سيارات . وكل ذلك دالٌّ على أن أميركا ـ وفي معاملها تصنع معظم هذه الحوافل ـ تستعمر الشرق الأدنى استعماراً غير مباشر .

في حياة الشعوب أمور غامضة يصعب تعليلها . كتب الباحثون من أهل المشرق والمغرب في انحطاط المسلمين ألوفا من الصفحات ، ودوّن الموافقون والمخالفون ما هدتهم اليه آراؤهم من أسباب التدني ، وما يجب على المسلمين التذرع به لاصلاح ما هم فيه من نقص ، وما أظن ما قالوه هو كل مايجب أن يقال ، ولعل الايام تكشف عن أسباب ما مرت بخاطر أحد حتى اليوم .

قام مذهب الشيعة بدعوة أن صاحبهم (علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه) مظلوم في ابعاده عن الخلافة ، وما برحوا الى اليوم يحملون على كل من لم يوافقهم على رأيهم . فهرون الرشيد مثلاً لما لم يوافق العلويين على مشاكستهم العباسيين وما التوى في سبيل الذب عن الخلافة وأخذ القائمين على دولته بذنوبهم ، اختلقوا عليه ما كان بعيداً عن أخلاقه كل البعد ورموه بالفسق والفجور ، وقال المعتدلون منهم انه كان سيء التدبير وهو فرد الدهر محمود الصفات .

يُحتمل بعض ما وضعه الشيعة لتأييد دعوتهم الا شتم الصحابة الكرام ، أما قذفهم في الامويين والعباسيين وفي كل من يستشم منه ريح الانحراف عن أمير المؤمنين فمن أيسر ما ارتكبه دعاتهم . وما برحوا منذ قرون يندبون ويبكون ويلعنون لا ينتهون ، وهذا من أعجب ما سمع في المذاهب .

تغلغلت الفلسفة في طبقات الخواص منذ خمسة آلاف سنة وانتشر التصوف في طبقة العوام من المسلمين منذ الف سنة فكان من الاول توسيع المدارك ومن الثاني خمولها . عانى بعض النبهاء الفلسفة في كل جيل وأمة فقوي العقل فيهم . وزعم المتصوفة انهم ينظمون الحياة الاخرى بطرقهم على حين هي مبسوطة في كتب الدين فلا تحتاج الى زيادة جديدة . خرّجت الفلسفة رجالاً انتفع بهم العقل ، وخرّج التصوف رجالاً عبثوا بجوهر العقل .

قد تكظم أمة غيظها من انحراف راعيها عن الجادة ، وتغضي عن عبثه واهماله ، فاذا نفد صبرها تنفجر فجأة انفجار المرجل بالحرارة الشديدة وتقعد لتحاسبه على ما أتى ويأتي .

اذا جرأ عظيم على هتك شرف أمة وبدأ يهزأ بمقدساتها ومشخصاتها لا يصدها شيء عن نشر مثالبه في الخاصة والعامة وبين الابعدين والاقربين ، وقد تغضب عليه لأسباب يراها بعضهم غير جوهرية ، قال لي عالم سياسي ان عظيمنا قد جمع حوله صنوف العناصر من سكان حوض البحر المتوسط الا العرب فانه حرمهم خدمته وهم أحق بها من غيرهم . وهذه الغلطة كان قومه كثيراً ما يعدونها عليه وينسون ماله من حسنات .

نجاح الشباب في سياسة الممالك أقل من نجاح الكهول والشيوخ ، ذلك لان في دم هؤلا من الصفاء ما ليس في دم أولئك . تكثر المغامرات في الشبان خلافاً للشيب . والملك في الاربعين والخمسين من عمره أقرب الى النجاح لأنه يحسن اختيار رجاله ، وبرجاله يحكم على عقله وجودة سياسته .

تكرر التآمر على سلامة الجمهورية السورية في هذه الايام . ومن المتآمرين من يحاول الدخول في الهلال الخصيب أي التحالف مع العراق ويقصد فريق انشاء سورية الكبرى أي ضم شرقي الاردن الى سورية أو ضم سورية الى شرق الاردن وقد اهتدت حكومة الجمهورية الى ما يراد بها وسلمت الى القضاء من جرؤا على القضاء عليها .

اعتاد الشرقيون أن يتسرعوا في الحكم على الرجال ويكيلوا الاماديح بأعظم المكاييل لمن يتولى المناصب العالية من أول يوم يتولاها ، يعمونهم بالمصانعات ويطلقون عليهم من النعوت أفخمها ، حتى اذا بدت للأنظار غلطاتهم في تسرعهم يتراجعون عن أحكامهم الاولى . من عادة الناس أن يفرطوا فى اثبات المناقب والمثالب ، وما كان أولاهم أن يجربوا من يمدحونهم أو يقدحون فيهم بادىء بدء حتى لا يساء الظن فيهم مادحين وقادحين .

رأيت دعياً في الشعر يطعن في جماعة من العلماء من دون سبب ورأيته يعود بعد حين يترضاهم لانه بدا له أن يدخل في جمعيتهم وهم ما عرفوه الا متشرداً طرد من بلده لسوء أخلاقه في تدخله فيما لا يعنيه وعاش وما يزال يعيش بالجاسوسية للغريب على قومه .

قيل ان نظام حيدر آباد الدكن أدخلته حكومة هندستان في جملتها وفقد استقلاله في امارته وتبددت أمواله العظيمة . وكان أغنى غني في العالم جمع ثروته من قاصديه ، فكان بدلا من أن يعطيهم يأخذ منهم . وكان حريصاً بكل ما في الحرص من معنى قبيح ، وما رق قلبه يوماً فنزل عن جزء من ماله ليعاون قومه وينفع الانسانية .

قال أحد المفكرين لا يخلو بعض من دخلوا في جمعية الارهاب من ذكاء ومعرفة فكيف أقدموا على ما لا تضمن نتيجته فعرضوا سمعتهم

للزوال ووطنيتهم للخطر ، فأجبت ما دفعهم الى ارتكاب ما ارتكبوه الا حب الظهور والغرام بالمناصب وما تسرب اليهم من أموال اطلقتها لهم بعض الدول المجاورة . ولو كان الدافع الى ذلك وطنيا صرفاً لكانوا سلكوا طرقاً أخرى ليس فيها تدمير ولا قتل .

ما دام مقامك في الارض غير طويل خفف عن نفسك وطأة الاحزان واجلب لها السرور ما استطعت « لا تكن أنت والزمان عليها » .

عوّد نفسك التدقيق في أكلك ومنامك ونزهتك واجتماعك وعملك اليومي حتى يصبح لك كل ذلك عادة مستحكمة . وخذ أبناءك بهذا الادب منذ نعومة أظفارهم لينشأوا على حب النظام ويصبح ذلك طبيعة ثانية لهم .

تزيد قيمة المرء بما ينطوي عليه من صفات صالحة . من الناس من قيمتهم قيمة الماس ومنهم من قيمتهم قيمة الحصا .

كلما تقدمت المدنية ندر الزواج وزاد الفحش وقلّ النسل . الاقطار التي ظلت على الفطرة بعض الشيء تنسل أكثر من الاقطار التي سارت في طريق المدنية الفاسدة ، وأهل المدن أقل نسلاً من أهل القرى لصعوبة الحياة في الحواضر وسهولتها بين أهل الحرث والضرع .

لاحظ ملاحظ أنه كان الأولى السكوت عن نقد أخلاق بعضهم تفادياً من غضبهم ، وقد جاء ما بدر على ألسنتهم مصدقا لما وصفوا به . من تطلب رضا الناس كان عليه أن يعمى عن مساويهم ، ومن كانت له دعوة يريد توفيتها حقها لا يسعه الا قول الحق مهما كلفه الامر .

من أجمل العادات زيارة الأحياء قبور الأموات في الأعياد والمواسم

يبكونهم ويذكرونهم ويترحمون عليهم . بيد ان زيارة الاحياء بعضهم بعضاً تنفع أكثر من زيارة الموتى ، ومن الحي يستفاد ما لا يستفاد من الميت

كان الناس قبل انتشار المقاهي والملاهي والاندية يعقدون مجالسهم في بيوت مقدميهم يأنسون ويتعاطفون ، ويستفيد صغيرهم من كبيرهم ويعلم عالمهم جاهلهم . وقد بطلت هذه الاجتماعات المفيدة بهجوم المدنية الحديثة علينا ، فندر اجتماع المتحابين والمتماثلين الا اذا كان عرضاً في الشوارع والمجتمعات ، وقلت الفوائد التي كانت تجنى من التآلف . وكانت بيوت أعيان القوم أندية تفيض نفعاً ، فيها تعليم وتدريب وفيها طرب وسلوى ، وأجمل ما فيها اخاء دائم متبادل ، وصداقة ذات تراحم .

أدركت طبقة تعد من العوام كان أساتذتها من عمار المجالس الخاصة وأصبحوا بما أصابوا من تجارب وحفظوا من أحاديث جميلة ممن تلذ محادثتهم وينتفع ببعض آرائهم . بطلت هذه المجالس ويالأسف وما أكثر ما أتت الايام والليالي على المفيد فأبطلته .

لايسوغ لك أن تعد بلدك آخذاً بأسباب الحضارة الا اذا شاهدت فيه صورة الماضي الى صورة الحاضر حتى تعلم فضل أجدادك وآبائك ، ويعلم أبناؤك غداً فضلك عليهم .

كثيرا ما نوهت بما تم على ايدي اعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر من الفائدة العامة للعلوم والأدب ، بما وفقت الى نشره من الكتب المحررة المنقحة ، وما كان اعجابي اقل من ذلك باجتماع بعض اعضائها والطارئين على القاهرة من المصريين وغير المصريين في ناديهم كل اسبوع ، يستفيد المبتدىء من المنتهي ، ويأخذ كل طالب ما يفيده ، خصوصاً وأعضاء اللجنة من الاساتذة الراقين ومنهم المؤلفون والمترجمون والناشرون الذين انفقوا أعمارهم في خدمة الآداب .

كلما قلت قال المصريون كذا وارتأى الشاميون كذا ، وود العراقيون كذا ، أقصد بقولي الخاصة من أهل كل قطر ، وفيهم يدخل القابضون على زمام الحكم وأرباب الافكار والصحافة والعلماء والأدباء وغيرهم ممن دخلوا في الطبقات الراقية وخرجوا من الطبقات النازلة . ولما هبطت مصر قبل نصف قرن اعتقدت أنها أرقى الاقطار العربية ومازلت على رأيي الى هذا العهد ، بيد أن اقراري هذا لا يحول دون نقد مواضع النقد فيها ، لأنني أريد لها الكمال في جميع حالاتها .

أنا لا أعتقد الى الآن ان المصريين يعرفون الشعوب العربية معرفة جيدة ، وكذلك هؤلاء لا يعرفون المصريين ، وحبذا لو اكثر المصريون من الرحلة الى الاقطار العربية كما اشرت الى ذلك في هذه المذكرات على ان يطيلوا مقامهم فيها ويختلطوا باهلها اختلاط من ينوي الافادة والاستفادة لا يقتصرون على لقاء من يصادفونهم في الفنادق والمتنزهات ودور اللهو والقصف ، ولا على الاجتماع ساعة الى بعض رجال الحكم ولا على الاختلاط باهل المدن دون أهل القرى ، والواجب دخولهم في صميم الشعب ليعرفوه حق معرفته ، وكذلك يفعل الشاميون وكذلك العراقيون وسائر الشعوب العربية . ومن اطلع على خصائص قوم احبهم ومن طالت عشرته لأناس حن عليهم ونفعهم وانتفع بهم .

إذا عرف الناس قيمة الوقت مالوا الى الايجاز في كل ما امكنهم ايجازه ، يوجزون في زياراتهم وافراحهم واتراحهم كما يوجزون اذا تحدثوا او تناقشوا واذا كتبوا وخطبوا . أصبح الايجاز في شرح العلوم وعرض الافكار من طبيعة هذا القرن ، كما عُدّ الاسراع في كل شيء من ميزاته . حالة العصر لا تحتمل التطويل والبطء ، والكلام الموجز تتشربه النفس ويبقى على ذكر من سامعه وتاليه على ما لا يكون مثله للمطول .

ولا يبعد ان تستحيل الكتب بعد حين الى مقاطع صغيرة تتشربها النفوس بلا عنـــاء وقد أصبح الانسان يفضل السفر في الطيارة والسيارة

على ركوب القطار ومتون البحار ، فكيف يسمح لنفسه ان يضيع اياماً طويلة في سفرة وفي وسعه ان يكتفي لاتمامها بساعات قليلة . وليس من المستبعد ايضاً ان تختصر احجام الكتب في المستقبل فتصدر في صفحات مصغرة بحجم الكف قليلة الاوراق ، دقيقة الحروف خفيفة المحمل هينة الثمن .

من حوادث هذا القرن : حشر البابا في رومية مليون كاثوليكي من اقطار العالم ليصرح لهم ان مريم العذراء رفعت الى السماء وعليهم ان يعتقدوا ذلك ، الا أن البرتستانت في جنوبي افريقية بعثوا الى قداسته يقولون ان رفع السيدة العذراء الى السماء « اسطورة » انتقلت من خرافات الوثنيين . وقد سئل شيخ الازهر عن صعود العذراء الى السماء فقال : لم يقع ذلك !

قال احد العلماء المعاصرين : ان الوسيلة الوحيدة ان تصل الى تحقيق الممكن هي الا تحلم بغير الممكن . وقالت العرب : إذا اردت ان تطاع فسل ما يستطاع .

كان غستاف الخامس ملك السويد من اعقل الملوك يقصد كل سنة الى جنوب أوربا للاستجمام وقال في آخر رحلة له الى نيس : ارجو أن اعود في السنة القادمة ان شاء الله . اقول هذا لأنه لم يبق اليوم غيره ملكاً مطلقاً .

فيما مضى سيطر رجال الدين على كل شيء في عالم المدنية وهاهم بعض من حرر العلم نفوسهم من الغربيين يحاولون نزع وصمات الدينيين . قال فريق من الخبراء العالميين في باريز ان الكتاب الغربيين يعمدون غالباً عند وضع كتب التاريخ الى اغفال ما قدمته الامم الاسلامية والاسيوية من خدمات جليلة للعالم وقال احد هؤلاء الخبراء وهو استاذ التربية المقارنة بجامعة

لندن ان تشويه التاريخ على هذه الصورة كان سبباً في كثير من متاعب العالم . وقد اجتمع هؤلاء الخبراء لتقديم مجموعة من التوصيات لهيئة الفقه الدولية لوضع ترتيب يرشد المؤلفين والناشرين الى الطريقة المثلى لتأليف كتب التاريخ المدرسية . وصرح المستر سيشي الهندي والمستر ميونيخ السيامي بأن تاريخ أمم العالم يتضمن التنويه بمجد أميركا في الغالب على حين أغفل من كتب التاريخ ذكر الأمم الاسلامية ، والاسيوية ، والافريقية ، وجاء في توصيات الخبراء وجوب جعل التاريخ دولياً وأن يتضمن كل شيء عن الشرق وافريقية .

تطورت المنازع بتطور الزمان وأصبح الناس لا يهمهم من العلوم الا ما يسليهم ويفيدهم في مادياتهم مباشرة ، ذلك لانهم شهدوا في الحرب الاخيرة نجاح الجهلاء اكثر من المتعلمين حتى لقد اقتنوا العقارات وعمروا القصور واستعمروا القرى والمزارع فزهد الناظرون الى كل ذلك في العلم لانه في نظرهم من العوائق عن جلب المال !

دأبت المجلات الهزلية على نشر صور كواكب السينما والراقصات والمغنيات في أوضاع مغرية . وكثيراً ما تصفحت هذه المجلات فرأيتها على الاكثر تافهة لانها كتبت للجمهور والجمهور لا يهمه أن يتعلم بقدر ما يهمه أن يتسلى واكثر ارباب هذه المجلات تجار ماهرون جسوا نبض قرائهم فثبت لهم انهم لا يقبلون الا هذا الصنف الرخيص من الادب .

لو نجحت بلادنا في سياستها الخارجية حتى تصبح بمأمن من الاشتراك بالحروب مجاراة للدول العظمى على أغراضها لكانت أسعد الممالك اليوم بما قدّر لها من انصراف الهمم الى العلم والاخصاء في الفنون والاهتداء الى أساليب الاستغناء من طريق الزراعة والتجارة والصناعة على أحدث الاصول الحديثة .

نجحت مصر في العهد الاخير بانشاء الجرائد السياسية أكثر من نجاحها بالمجلات العلمية وذلك لسببين وهما رغبة الناس عن العلم والادب وغرامهم بالجرائد الفكاهية تنشر ما يلذ العامة من مناظر وحكايات ، وتمثل لذلك باربع مجلات في مصر وثنتين في الشام . فالمجلة الاولى أقدم المجلات مات منشئها فلم تجد لها منشئاً من عياره ، ولا تهيأ لها من ينفق عليها لاستخدام أقلام كتاب بارعين فلفقت لفقات ثم قضت نحبها . والثانية غير ورثتها صورتها ونقلوها من مجلة ادبية الى مجلة فكاهية لا تقصد من كل ما تنشر الا ارضاء العامة بما يناسب عقولهم . والثالثة والرابعة اتكل القائمون عليهما في انشائها على مقالات المؤازرين فان اتفق ان ظفرت المجلة بمقالة تعب كاتبها في تحضيرها والا اضطر قيّم المجلة أن يحشوها بما هب ودب . والمجلتان الشاميتان ليس فيهما من المزايا الا الثبات على اصدارهما ، وهما تستجديان المقالات وتكون على الاغلب من الدرجة الخامسة والسادسة ، وقد تمر السنة على هاتين المجلتين ولا تسقط فيهما على مبحث مفيد فيعمد صاحباهما الى النقل والاقتباس . وهناك ولا نكران للحق مجلات علمية قليلة منها ما يصدر في الشام والعراق ومصر استوفت شروط الاجادة وهي ذات موضوعات معينة والقائمون على انشائها علماء أذكياء يعرفون ما له قيمة للنشر من الابحاث .

الناقمون والناقمون

من حسن التوفيق أن نشرت مذكراتي في حياتي ، فسمعت ما قاله فيها الناقدون والناقمون . زعم بعضهم أني أغضبت الكثيرين وأرضيت القليلين ، وأنني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات . وكان عليه أن يعكس حكمه فيقول اني أرضيت الكثيرين وأغضبت القليلين . ذلك أن مجموع من تصفحوا الكتاب ، ومن المثقفين خاصة ، قد أكبروا حريته ، وصفقوا للشدة على أرباب السير الرديئة من العمال وغيرهم . وما كان من غضبوا في الواقع الا طائفة قليلة من السياسيين والمتلاعبين ، وغير صحيح أني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات ، فأنا ذكرت الماضي ولم أتعرض للمستقبل على ما يلائم روح المذكرات . كتبت ما شهدته وأنكرته وشهده غيري وأنكره ، وما سجلت الا ما يجب تسجيله . أما ما كان محجوباً عن العيون فهو فيما أرى من علم الغيب ، وما أنا ولا غيري بعلم الغيب من العارفين ، حتى أضمن سلامة النفوس من العيوب أبداً ، أو أؤاخذ عما سيأتيه بعد حين من تعرضت لذكرهم . فحكمي اذاً كان على ما وقع لا على ما سيقع أو سوف يقع .

وبعد فما كنت الا صادقاً في حكمي على صاحب الثورة الاولى المشير حسني الزعيم ، وقد أعجب بثورته عقلاء الامم ، وما اختلف العارفون في عظم شخصيته . أما ما كتبته في رئيس الجمهورية الثالث فكلام غير منقوض بما كتبته في جده مثلاً ، فهو غير جده ، هو كان طموحاً الى المجد بطرق له خاصة خالف فيها أصول الحكم فعطل الحدود ولم يرع القوانين ، وبذّر الأموال ولم يصرفها في وجوهها ، وقرّب الرعاع الجاهلين وأقصى النبلاء العارفين . وأنا لا أسأل عما يطرأ على أخلاق الافراد ما داموا طول

حياتهم عرضة لتغيير أفكارهم ومنازعهم ، وارتكاب ما يبدل نظر الناس فيهم . ويقلُّ في الخلق من يسير على وتيرة واحدة طول حياته . وواجب المؤرخ على أي حال ان يحكم على من يعرض لهم بماضيهم وحاضرهم ، ولا شأن له بمستقبلهم . فقد يكون الرجل في آخر عمره غيره في وسطه وأوله ، فلا ملام على من ترجم له اذا اعتمد على ما رأى وسمع ، ما دام المرء مفطوراً على الطمع يفعل فيه الزمان والمكان .

وقال صديقي الاستاذ علي عبد الرازق باشا من علماء مصر من كتاب : وجدتك في بعض المواقف مهاجماً عنيفاً في صراحة لا يمازجها حذر ، وفي مواقف أخرى كنت أقرب الى المداورة وأدنى الى الابهام ولكنك في كلتا الحالتين واضح العبارة ومستظرف ومحبوب . ولقد اكون وقفت موقف الشك والتردد ازاء ما جرى به قلمك في بعض المواضع ، ولكن لم يخامرني ادنى اثر للشك ولا للتردد في انك وضعت بهذه المذكرات سجلاً حافلا بالحوادث مليئاً بالمعلومات .

وقال صديقي الاستاذ محمد بهجة الأثري من علماء العراق من كلام على المذكرات في الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٣٦٩ — ١٩٥٠ ص ٣٥١ و ٣٥٣) : لست ازعم ان المؤلف قد سلم له كل ما دونه في ارتساماته وآرائه ، ولا سيما في السياسة والرجال ، فانه هو نفسه يعترف في آخر هذه المذكرات (ص ٩٩١) بأنه ربما وقعت له هنات كان الاجدر ان يسلم منها كتابه ، ثم يذكر السبب في وقوع هذه الهنات له فيقول : وما كان السبب فيها الا بعض من أدلوا الينا بمعلومات وهموا فيها . وليته أشار الى هذه الهنات ، وبين وجه الخطأ الذي لم يعصم منه لتمييز مروياته عن انطباعاته وآرائه ، وليعرف الناس — ومن حقهم أن يعرفوا — هذه الهنات التي وقعت له « ومن فيك أحلى »

قال وقد مررت في كتابه بأشياء لا أحسبها من هذه الهنات التي عناها بل هي من باب آخر مما يتصل بالسياسة وبالرجال ، وعلى بعضها

طابع العجلة والارتجال ، وعلى بعضها أثر الحدة والانفعال . وما يدرينا اذا أخذنا في سردها ، وهي ليست بالكثيرة أنه سيقول في ردنا ما قاله في تلك الهنات من ذا الذي عصم من الخطأ ؟ . . . فيسد بوجهنا الطريق الى مجاذبته أطراف الحوار !

الى أن قال : وبديهي أن من يكتب بهذا الأسلوب المطلق عن أهل عصر يعيش بين ظهرانيهم ، ويعطي كل انسان كتابه بشماله ، انما يعرض نفسه لغضب الناس وسوء قالتهم في حقه كالذي حدث له مع أصحابه وأحبائه بمصر حين نقد سلوكهم معه فثاروا عليه يناوشونه المطاعن ، وقوارص الكلام . وليس بمثل هذه السهولة تنسخ المودات بين الأصدقاء وتنسى العهود بين العلماء اه .

وتلطف الاستاذ أحمد شكري فلاحظ في جريدة النصر قائلا : « ان هذه المذكرات هي أكثر من مذكرات هي تاريخ وتحليل أشخاص واصدار أحكام مختلفة عليهم . وأشهد أن الأستاذ كردعلي كان مؤرخاً صارماً ، فأصدر أحكاماً جريئة على أشخاص أصبحوا ملك التاريخ ، ومنحتهم الامة العربية مكاناً رفيعاً في أفكارها وذكرياتها . وأنا لا أشك أن علامتنا الكبير صادق فيما يقول ، ولكن لعل الأمر جوانب أخرى ولعل ما انتقده في أولئك الاشخاص صحيح ، ولكنه عبارة عن هنات شخصية وتصرفات توجبها ظروف لا نستطيع تقديرها ، فان من المؤكد أن عبد الكريم الخليل والشيخ عبد الحميد الزهراوي والسيد عبد الغني العريسي والشيخ أحمد طبارة وغيرهم من الشهداء الذين علقهم أحمد جمال باشا على أعواد المشانق عام ١٩١٦ في ساحتي المرجة والبرج في دمشق وبيروت لم يكونوا معصومين من الأخطاء فهم بشر كغيرهم ، الا أن كونهم القافلة الأولى من شهداء النهضة العربية جعل لهم حرمة في النفوس ومكانة في القلوب ، فهم أول من فقدوا حياتهم لأنهم أعربوا عن عقيدة عربية . أما أخطاؤهم الشخصية فالأمة لا تأبه بها كثيراً . ثم قال : انه كان يود أن

أصدر عليهم أحكاماً عامة تتناول عقيدتهم القومية ومبلغ اخلاصهم لها في معزل عن التصرفات الجزئية التي قاموا بها . وقال انه فاتني أن أبدي رأيي في أحمد جمال باشا مع أني أسهبت في ذكر العلاقات التي تربطه بي شخصياً والاتصالات القائمة بيننا حتى أنه كاد يعتقد ان لي في جمال باشا رأيا آخر غير الرأي الذي اعتنقه المؤرخون العرب في أن هـذا التركي كان سفاحاً غاشماً يبغض العرب . . .

وأجيب على هذا أني ماطعنت في وطنية هؤلاء الرجال الأربعة الذين ذكرهم الأستاذ الناقد ، بل أشرت الى أن بعضهم ظلموني بنسبتهم اليّ أموراً مافعلتها ولا دخل لي فيها لو صدقها القائمون بالأمر يومئذ لأودت بحياتي ، وأنا لم أشترك في الاحزاب العربية ، وما كان عملي منذ أنشأت المقتبس الا عمل صحافي حر ، ولذلك لم أفسر ماعزاه اليّ الاستاذ الزهراوي الا أنه يبغي اتهامي بما أنا منه بريء ، ولا يبالي عشت بعدها أو قتلت .

هذا وجه تعريضي ببعضهم ، وماذا أعمل وواجب المؤرخ أن يكتب للناس ماوقع ، وأنا لا أكتب كتاب أدب وعواطف ، بل أكتب تاريخاً ومذكرات . جريت على هذا القانون معظم أيام حياتي في الصحافة أولاً والتأليف ثانياً ، مع علمي بأن عملي لايرضي جميع الطبقات ، ولا يخليني من ملامة . وكيف يريدني الأخ الناقد ألا أذكر من ذكرت الا بالخير لشرف المقصد الذي أخـــذوا به ، ومنهم من استخـدم اسمي ليروج بضاعته وان اعتقد اعتقاداً جازماً أنه يلحق بي ضرراً ، ومنهم من حاول اتهامي زوراً بما صورته له أخلاقه ، وما عبأ بما يترتب على شهادته المعلولة وما أظن النـاقد الحصيف الا موافقاً لي . على أن من قتلهم الأتراك في الحرب الأولى من رجال العرب ليسوا كلهم من طراز واحد وان فيهم الشريف ، وفيهم من تجسس للغريب وشهـد الزور ، وهم كلهم ليسوا كالاساتذة عبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي وسليم الجزائري وتوفيق بساط .

أما طلب رأيي في أحمد جمال باشا ، فأذكر أني وفيته حقه من وصف فظائعه في سورية والاستانة وأذنة وبغداد ، ولك أن تدعو من ارتكب هذه الجنايات الفظيعة سفاحاً ، وأكثر من سفاح . والانصاف يقضي مع هذا ألا نلقي عليه وحده كل ما وقع للعرب من قتل ، وأن نقسم هذا الظلم الفادح بينه وبين حزبه ، حزب الاتحاد والترقي ، وهذا كان يقرر وجمال باشا ينفذ .

وجوز الدكتور احمد امين بك المصري لنفسه في نقد المذكرات ، الخروج على الانصاف وزيف كل ماعرفت به ، فطعن في أمانتي في التاريخ دون أن يأتي ببرهان ، وقال انه لايرضيه أسلوبي في كتابتي ولا طريقتي في البحث ، أما أنا فيرضيني أسلوبه وبحثه ، ولا ترضيني بعض جوانب من أخلاقه . وادعى أني هيأت لفرنسا تقسيم سورية ، فكافأتني بتوسيد الوزارة اليّ ، وهي دعوى أشهد بها على نفسه أنه قليل البضاعة في التاريخ والسياسة ، كما هو ضعيف في الفلسفة . وعجيب كيف لم يعرف أن الوزراء ورؤساء الوزارات ماكانوا في عهد الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان أكثر من رؤساء دواوين وعملهم اداري بحت . وكانت السياسة كلها بيد المفوض السامي يستوحي فيها وزارة خارجيته .

ولقد كنت منذ أول الاحتلال من أكبر المعارضين في هذا التقسيم ، وكتبت بذلك أنا ورصفائي الى المفوض السامي الجنرال غورو نعترض على اقتطاع الاقضية الأربعة من جسم سورية والحاقها بلبنان . ثم طلبت الى المفوض السامي المسيو دي مارتيل أن يتقدم بضم لبنان الى سورية على صورة وحدة أو اتحاد ، فغضب غضباً شديداً وكان ذلك سبباً في اقصائي عن الوزارة . وقد كررت القول لأمين سر المفوضية المسيو روبردي كه في أوقات مختلفة بضم لبنان الى سورية ، واذا تعذر ذلك أن يرجع لبنان الى ماكان عليه زمن العثمانيين متصرفية أو لواء مستقلا فتألم

من مقترحي ايضاً وتقاطعنا من اجل هذه التصريحات (على ما فصلت ذلك في مكان آخر من المذكرات) وهكذا كنت في كل فرصة أطالب بالجمع بين سورية ولبنان وأطلب ضم جبل الدروز ودولة العلويين ولواء الاسكندرونة الى سورية الأم . فهل أكون بعد هذا أداة من ادوات الانفصال حتى تكافئني فرنسا بالوزارة ؟ على ان برنامجي كان اوسع من ذلك ، كنت من دعاة الوحدة العربية ، صرحت بذلك للفرنسيين غير مرة ، وقبلوني في الوزارة على علاتي ، وما أنكرت قط دعوتي ، وكان تقسيم سورية من اعظم ما آلمني من هزل السياسة الفرنسية والانكليزية . كل هذا واحمد امين لا يرضى الا ان يفتري عليّ وعلى التاريخ ليتخذ مما اختلق واسطة للطعن وما وجد غير الكذب سلاحاً يقاتلني به . اما انا فما زلت على رأيي في اخلاقه مهما تحامل وتبجح ، وكتب عن نفسه يجمل بقلمه سيرته . وكان من زميله أحمد حسن الزيات ان استعمل الشتائم على طريقة سفهاء الصحافيين في مصر اوائل هذا القرن ، والسفيه لا جواب له عندي .

محمد رسول الله

انصاف المخالف أشد وقعاً في النفس من انصاف الموافق . كتب العلماء المفكرون من الغربيين الاحرار في وصف رسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ما كان الانصاف ظاهره وباطنه ومنهم كارلايل الانكليزي وقد أشرنا الى بعض مـــا قالوه فيه في كتابنا (الاسلام والحضارة العربية) وآخر ما قرأناه في سيرة النبي العربي وتحليل عمله العظيم ما قاله شاعر فرنسا العظيم لا مارتين قال : لم يقصد رجل قط مختاراً أو غير مختار الى غاية أسمى ، لأن تلك الغاية كانت فوق طاقة البشر وهي القضاء على مادخل من الخرافات بين الخالق والمخلوق ليجعل

الله للعبد والعبد لله ، وأن يعدّل فكرة الألوهية المعقولة في الوثنية المادية المشوهة . وما عهد قط رجل مثله قام في وقت قصير بثورة عظيمة مستديمة في العالم ، لان الاسلام بعد أقل من قرنين من انتشاره بالدعاة والقوة عم الأقطار العربية الثلاثة ودعا الى الله الواحد الأحد في فارس وخراسان وما وراء النهر والهند الغربية والشام ومصر والحبشة وجميع الاقطار المعروفة من شمالي افريقية وعدة اجزاء من البحر المتوسط واسبانيا وشطر من غاليا (فرنسا) .

فاذا كانت عظمة الغاية وقلة الوسائط ووفرة النتيجة هي الاسباب الثلاثة التي تبين عن نبوغ المرء ، فمن يجرؤ أن يشبه بمحمد رجلاً عظيماً من رجال التاريخ الحديث ، فان من اشتهر منهم لم يجيش الا جيوشاً ولم يسن الا قوانين ، ولم يؤسس الا ممالك ، فلم ينشئوا فيما أنشأوا الا دولاً عادية كان حظها أن تداعت أركانها بعدهم . اما ذاك الرجل فآباد جيوشاً ، ووضع شرائع ، وأسس ممالك ، وألف بين شعوب ، وأقام دولاً ، وضم شمل ملايين من البشر في ثلث العالم المعمور ، وزاد على ذلك أن بدل أفكاراً ومعتقدات وارواحاً ، واتى بكتاب اصبح كل حرف من حروفه شريعة قومية روحية سرت الى شعوب من جميع اللغات والعناصر ، وطبع هذه الجنسية الاسلامية بطابع ثابت ، وقضى على الارباب المصنوعة ودعا الى الاعتقاد بالله الواحد الاحد مجرداً عن المادة والهيولى .

ومن يكون اكثر عظمة اذا قيست العظمة البشرية بكل مظاهرها بعظمة محمد الحكيم الخطيب الداعية المشرع المحارب المبدع في افكاره ، ومؤسس التعاليم القائمة على العقل ، وعلى عبادة لاصور فيها ، ومنشيء عشرين مملكة ارضية ، ومملكة روحية واحدة .

قال مؤلف كتاب اوجه الاسلام Les visages de l'Islam جورج ريفوار : من الجرأة ان يحاول المرء اضافة شيء الى صورة هذا النبي التي صوره بها لامارتين .

وصف الشيوخ

وصف باكون الفيلسوف الانكليزي جماعة الشيوخ وصفاً ينطبق عليهم من أكثر الوجوه قال : انهم يكثرون من الاعتراض ، ويطيلون في استشارتهم ، ويخاطرون قليلاً ، ويسارعون الى ابداء التأسف ، ويندر فيهم من يعمل في الوقت المناسب ، ويقنعون بالنجاح الوسط . ونزيد عليه انهم اذا اجتمع بعضهم الى بعض يبدأون بالكلام عن أمراضهم ووصف ما يتناولون من أدوية وعقاقير .

النبوغ فى اسبانيا

وصف هوفار أحد ساسة الانكليز في هذا العصر نبغاء اسبانيا فقال انها أخرجت للامبراطورية الرومانية أدريان وتراجان وسنيك وكنتلين وللكنيسة سان دومينيك وسان تريز وسان اغناطيوس دي لويولا وسان جان دلاكروا وللأدب سرفنتس ولوب دي فيكا وكالدرون ، وللتصوير فلاسكيز وموريللو وكويا - وأمة أنبغت مثل هؤلاء هي ولا شك ذات مدنية غير عادية . قال هذا وهو من رجال السياسة . وأجمع مؤرخو البريطانيين أو كادوا يجمعون على أن اسبانيا أحط أمة في قارة أوربا . وقال العارفون انه قلما تمَّ شيء في اسبانيا الا دير الاسكوريال ورواية دون كيشوت .

الاستعمار الممقوت

قلنا ان فرنسا أساءت باستعمارها الى المسلمين خاصة والى الشرقيين عامة . كتب روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق الى وزير خارجيته يقول ما نصه :

عزيزي كوردل هول

قابلني أمس اللورد هاليفاكس (سفير انكلترا في واشنطن) وطلب مني تأكيداً عن الحديث الذي روي على لساني والذي ألمحت فيه الى وجوب وضع الهند الصينية بعد الحرب تحت الوصاية الدولية ثم منحها الاستقلال بعد ذلك .

لقد استعمر الفرنسيون هـــذه البلاد التي بلغ سكانها ثلاثين مليوناً مدة مائة سنة تقريباً ، وأهلها الآن لا يختلفون مطلقاً عما كانوا عليه قبل مائة عام . حلبت فرنسا هذه البقرة حتى لم يبق في ضرعها شيء ، والعدل يقضي بان تحرر الهند الصينية من نير هؤلاء ويعطى لها استقلالها في حينه .

١٩٤٥/١/٢٤ فرانكلين بالاتور روزفلت

هذا ما قاله سياسي غربي كبير خالي الغرض في استعمار فرنسا وقال الاستاذ عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية في مؤتمر الشعوب الآسيوية نحن شعوب الشرق من أطراف المحيط الأطلنطي الى أندنوسيا ذقنا الأمرّين في الروح وفي العقل وفي المادة على أيدي الأوربيين المستعمرين وما أمانينا سوى أن نضمد الجراح التي أحدثها الاستعمار في أجسادنا وما واجبنا الا أن نرعى الحرية ونثبت دعائمها فقد دفعت شعوبنا من أجل ذلك ثمناً غالياً ولا يسعنا أن نغمض أعيننا أبداً عن واجبنا نحو تلك الشعوب الآسيوية التي ما برحت ترزح تحت عبء الاستعمار .

فهرس عام

	ص
السياسة في مصر	٩٩٩
عتاب أحباب	١٠٠٣
قلة حياء	١٠٠٧
لا تأليف ولا نشر	١٠٠٩
التمويه البارد	١٠١٢
البدع الضارة	١٠١٤
أخلاق وزير	١٠١٥
علو همة	١٠١٧
صاحب غريب	١٠١٨
الرئيس المهوس	١٠١٩
موجزات	١٠٢٠
سقوط المهاجين	١٠٤٠
المغتربون الشاميون	١٠٤٢
داء الاتكال	١٠٤٣
كتب الخيالات	١٠٤٤
نحن والقومية	١٠٤٤
القصة	١٠٤٦
الاخلاص للدين	١٠٤٧
الحجاب والسفور	١٠٤٨
الماضي والحاضر	١٠٤٩
قسط العرب من حضارة أوربا	١٠٧٠
هل وفت العربية بغرضها	١٠٨٨
الاستعمال محكم	١٠٩٦
عجائب اللهجات	١١١٣
تطور الألفاظ والتراكيب	١١٢١
الثورة الثانية	١١٣٣
المجلس التأسيسي	١١٣٨
سياسة سياسيين	١١٤٠
الرئيس القوتلي	١١٤٣
الثورة الثالثة	١١٤٩
عزة نفس	١١٥٣
قلة ثبات	١١٥٤
السينما	١١٥٥
اصلاح الصحف	١١٥٦
مؤامرة دنيئة	١١٥٨
خلل في الادارة	١١٥٩
الدعايات الحديثة	١١٦٠
كتائب الفداء	١١٦٢
القسوة على العلماء	١١٦٣
مصر والنهضة العلمية	١١٦٤
نظرات	١١٦٧
ملكة الانشاء	١١٩٢

	ص
الرجوع الى الصواب	١١٩٤
حرية الكلام	١١٩٥
الحكومة التاجية	١١٩٦
عزة العلماء	١٢٠٤
لباس الرأس والبدن	١٢٠٥
الشعر الرمزي	١٢٠٦
جريمة لا تغتفر	١٢٠٦
عاطل ومعطل	١٢٠٧
الطيب والخبيث	١٢٠٨
اجتماعيات	١٢٠٩
علم لا ينفع	١٢٢١
واجب المؤرخ	١٢٢١
المصطلحات الجديدة	١٢٢٣
تقاييد	١٢٢٤
مجالس الثلاثاء	١٢٢٩
وزارة تسلية	١٢٣١
سخافة دولة	١٢٣٢
العلامة جار الله	١٢٣٣
الغالب والمغلوب	١٢٣٤
أعظم اللغات انتشاراً	١٢٣٥
سكان الأرض	١٢٣٥
صناع المدنية	١٢٣٦
تقسيم سورية	١٢٣٧
الدعوة الصهيونية	١٢٣٨
دعايتنا ودعاية غيرنا	١٢٣٩

	ص
المعذبون في الأرض	١٢٤٠
عناية المستعربين	١٢٤١
الباكستان والهندستان	١٢٤٢
الجمهورية عندنا	١٢٤٣
الأحكام العرفية	١٢٤٥
مؤلمات	١٢٤٦
ساسة الشرق	١٢٥٨
الحنبليات الضارة	١٢٥٩
أغراض السياسيين	١٢٦٠
مجمع مصر	١٢٦١
الصحافة العربية	١٢٦٢
أرباب الاستبداد	١٢٦٣
الفلاح أخرق	١٢٦٤
تأليف الممالك	١٢٦٦
أمالي	١٢٦٨
أدعياء الوطنية	١٢٩١
الوزراء المرتجلون	١٢٩٣
من عيوب المجتمع	١٢٩٤
خواطر	١٢٩٤
الناقدون والناقمون	١٣١٠
محمد رسول الله	١٣١٥
وصف الشيوخ	١٣١٧
النبوغ في اسبانيا	١٣١٧
الاستعمار الممقوت	١٣١٨

DUE DATE

FEB 15 1992
FEB 14 REC'D
SEP 30 1992 JUN 16 2008
FEB 15 1993
FEB 15 1993
JUN 01 1993
MAY 20 1993
GLX SEP 30 1996
GL/Rec MAY 21 1996
201-6503
Printed in USA
FEB 15 2008

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0022835610

956.9
K9653
v. 3-4

106260

SEP 11 1957